سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)



شرح

الكافية الشافية

في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية

تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

شرح فضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الرابع

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

شرح

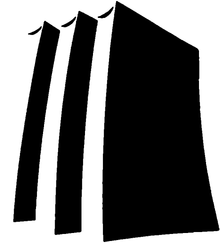
الكافية الشافية

في الانتصار للفرقة الناجية

(٤)

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
شرح الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن قيّم الجوزية./
محمد بن صالح العثيمين - الرياض، ١٤٣٤هـ
٤مج؛ (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٢٣)
ردمك: ٤ ـ ٦٢ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)
٢ ـ ٦٦ ـ ٨٠٣٦ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج٤)
١ ـ العقيدة الإسلامية ٢ ـ التوحيد ٣ ـ أهل السنّة
أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي ٢٤٠ ١٤٣٤/١٠٢٢٧

الطبعة الثانية
١٤٣٧هـ



يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص. ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد - متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٢٣)

شرح
الكافية الشافية
في الانتصار للفرقة الناجية

للحافظ المحقق

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية

تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته

لفضيلة الشيخ العلامة

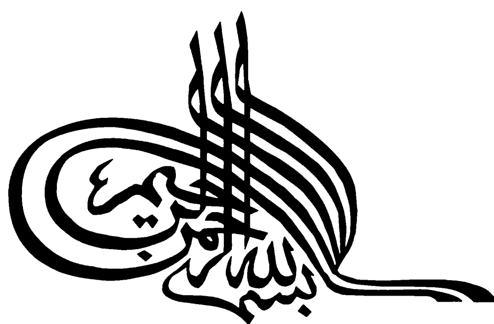
محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الرابع

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم

فصــل

في بَيَانِ شُرُوطِ كِفَايَةِ النَّصَّينِ وَالاسْتِغْنَاءِ بِالوَحْيَيْنِ

٤٢٩٨- وَكِفَايَةُ النَّصَّيْنِ مَشْـرُوطٌ بِتَجْـ ـــرِيدِ التَّلَقِّـي عَـنْهُمَا لِــمَعَانِي

٤٢٩٩- وَكَذَاكَ مَشْـرُوطٌ بِخَلْـعِ قُيُـودِهِمْ فَقُيُـــودُهُمْ غِـــلٌّ إِلَى الأَذْقَـــانِ

٤٣٠٠- وَكَـذَاكَ مَشْــرُوطٌ بِهَـدْمِ قَوَاعِـدٍ مَــا أُنزِلَــتْ بِبِنَائِهَــا الوَحْيَــانِ

٤٣٠١- وَكَذَاكَ مَشْرُوطٌ بِإِقْـدَامٍ عَـلَى الْـ آرَاءِ إِنْ عَرِيَــتْ عَــنِ البُرْهَــانِ

٤٣٠٢- بِــالرَّدِّ وَالإِبْطَــالِ لا تَعْبَــأْ بِهَــا شَــيْئًا إِذَا مَــا فَاتَهَــا النَّصَّــانِ

٤٣٠٣- لَوْلا القَوَاعِدُ وَالقُيُـودُ وَهَـذِهِ الْـ آرَاءُ لاتَّسَــعَتْ عُــرَى الإِيــمَانِ

٤٣٠٤- لَكِنَّـــهَا وَاللهِ ضَــيِّقَةُ العُــرَى فَاحْتَاجَـتِ الأَيْـدِي لِـذَاكَ تَـوَانِي

٤٣٠٥- وَتَعَطَّلَـتْ مِـنْ أَجْلِهَـا وَاللهِ أَعْـ ــدَادٌ مِـنَ النَّصَّـيْنِ ذَاتُ بَيَـانِ

٤٣٠٦- وَتَضَـمَّنَتْ تَقْيِيـدَ مُطْلَقِهَـا وَإِطْـ ــلاقَ الــمُقَيَّدِ وَهْـوَ ذُو مِيـزَانِ

٤٣٠٧- وَتَضَمَّنَتْ تَخْصِيصَ مَا عَمَّتْهُ وَالتْـ ــتَعْمِيمَ لِلمَخْصُـوصِ بِالأَعْيَـانِ

٤٣٠٨- وَتَضَمَّنَتْ تَفْرِيقَ مَا جَمَعَـتْ وَجَمْـ ــعًا لِلَّــذِي وَسَــمَتْهُ بِالفُرْقَــانِ

٤٣٠٩- وَتَضَمَّنَتْ تَضْيِيقَ مَـا قَـدْ وَسَّعَتْـ ــهُ وَعَكْسَــهُ فَلْتَنْظُـرِ الأَمْـرَانِ

٤٣١٠- وَتَضَمَّنَتْ تَحْلِيـلَ مَـا قَـدْ حَرَّمَتْـ ــهُ وَعَكْسَــهُ فَلْتَنْظُـرِ النَّوْعَـانِ

٤٣١١- سَكَتَتْ وَكَانَ سُكُوتُهَا عَفْوًا فَلَمْ ... تَعْفُ القَوَاعِدُ بِاتِّسَاعِ بِطَانِ

٤٣١٢- وَتَضَمَّنَتْ إِهْدَارَ مَا اعْتَبَرَتْ كَذَا ... بِالعَكْسِ وَالأَمْرَانِ مَحْذُورَانِ

٤٣١٣- وَتَضَمَّنَتْ أَيْضًا شُرُوطًا لَمْ تَكُنْ ... مَشْرُوطَةً شَرْعًا بِلا بُرْهَانِ

٤٣١٤- وَتَضَمَّنَتْ أَيْضًا مَوَانِعَ لَمْ تَكُنْ ... مَمْنُوعَةً شَرْعًا بِلا تِبْيَانِ

٤٣١٥- إِلَّا بِأَقْيِسَةٍ وَآرَاءٍ وَتَقْـ ... ـلِيدٍ بِلا عِلْمٍ أَوِ اسْتِحْسَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «النَّصَّيْنِ» النَّصَّان هما نصُّ الكتابِ والسُّنَّةِ، و«الوَحْيَانِ» هُمَا الكتابُ والسُّنَّة.

٤٢٩٨- وَكِفَايَةُ النَّصَّيْنِ مَشْرُوطٌ بِتَجْـ ... ـرِيدِ التَّلَقِّي عَنْهُمَا لِمَعَانِي

يعني: يُشْتَرَطُ لكفايةِ النَّصَّيْنِ -أي: الكتاب والسُّنَّة- لمن استدلَّ بهما أن يكونَ مُجَرَّدًا للتَّلقِّي عنهما لمعانيهما، ومعنى «مُجَرَّدًا» أنَّه لا ينظرُ إلى غيرِهما؛ فيجعل استدلالَه وأخذَه للمعاني من النَّصَّيْنِ لا غير، فيكون دينُه عقيدةً وقولًا وعملًا مُتَلَقَّيًا من النَّصَّيْنِ: الكتابِ والسُّنَّةِ، وهذا هو **الشَّرطُ الأوَّلُ** من شروطِ الاكتفاءِ بالنَّصَّيْنِ.

٤٢٩٩- وَكَذَاكَ مَشْرُوطٌ بِخَلْعِ قُيُودِهِمْ ... فَقُيُودُهُمْ غِلٌّ إِلَى الأَذْقَانِ

الشَّرطُ الثَّاني: يُشْتَرَطُ أيضًا أنَّ القيودَ التي اشترطوها تُحْذَفُ وتُخْلَعُ؛ مثل قولِهم: يُشْتَرَطُ لِقَبولِ أخبارِ الصِّفاتِ أن تكونَ متواترةً، فمن أين هذا؟! ومثل قولهم: يُشْتَرَطُ للعملِ بظواهرِ النُّصوصِ ألَّا تكونَ مخالفةً للعقلِ، من أين هذا؟!

بينما العقلُ هو الذي يُحكمُ بالنُّصوصِ لا بالعكس، ثُمَّ ما هو العقلُ الذي يحكمُ على النُّصوص؛ وعقلُ مَنْ؟ إذَنْ لا بُدَّ أن نخلعَ جميعَ القيودِ التي قيَّدوها.

٤٣٠٠- وَكَـذَاكَ مَشْـــرُوطٌ بِهَـدْمِ قَوَاعِـدٍ مَـــا أُنْزِلَــتْ بِبِنَائِهَـــا الوَحْيَـــانِ

ومن القواعدِ -ما أشرتُ إليه آنفًا- إذا تعارَضَ العقلُ والنَّقلُ في بابِ الصِّفاتِ قُدِّمَ العقلُ عندهم، هذه قاعدةُ المتكلِّمين من الأشاعرةِ وغيرِهم، ولا شَكَّ أنَّ هذه القاعدةَ باطلةٌ؛ لأنَّ تقديمَ العقلِ عند معارضةِ النَّقلِ إبطالٌ ومخالفةٌ للعقلِ، فبابُ الصِّفاتِ من بابِ الخبرِ الذي لا مَدخَلَ للعقلِ فيه، فإذا قدَّمنا فيه العقلَ على النَّقلِ فقد خَالَفْنَا العقلَ نفسَه؛ إذ إنَّ العقلَ يقولُ: «**الأمورُ الغيبيَّةُ نستنُد فيها إلى النَّقلِ المحضِ**»، هذا مُقتضى العقل.

فأنت الآن لو أردت أن تتحدَّثَ عن حياةِ شخصٍ فإنه لا يمكنُ أن تُحكِّمَ عقلَك، بل تتلقَّى الخبرَ أو العِلْمَ عن حياتِه من طريقِ الخبرِ، الذي هو «**النَّقل**».

هم قعَّدوا هذه القاعدةَ الباطلةَ، أنَّه إذا تَعارَضَ العقلُ والنَّقلُ فإنَّه يُقَدَّمُ العقلُ، والذي يقولُ هذا لا يمكنُ أنْ يكتفيَ بالوحيَيْنِ عمَّا سواهما، بل هذا هادمٌ للوحيَيْنِ في الواقعِ.

بل إنَّ هؤلاء يُقَعِّدونَ قواعدَ ما أنزل اللهُ بها من سُلطانٍ، فمثلًا ونحن الآن نتكلَّمُ عن العقيدةِ، يقولُ هؤلاء المعطِّلةُ: لا يمكنُ أن يستويَ اللهُ على العرشِ، ولا أنْ يأتِيَ للقضاءِ بين عبادِه، ولا أنْ ينزلَ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ولا أن ينزلَ إلى السَّماءِ الدُّنيا يوم عرفةَ يُبَاهِي بأهلِ عرفةَ الملائكةَ، فقالوا أن هذا لا يمكنُ، قالوا: لأنَّ هذه الأفعالَ حوادثُ، والحوادثُ لا تقومُ إلَّا بحادثٍ، واللهُ عزَّ وجلَّ أزليٌّ أبديٌّ سبحانه وتعالى، فمن أين أَتَوْا بهذه القاعدةِ؟ ما أنزل اللهُ بها من سُلطانٍ، ولا تُقْبَلُ،

ولو كُنَّا نحكمُ على الوحيَيْنِ بعقولِنا لم يكن القرآنُ ولا السُّنَّةُ بيانًا للنَّاسِ وهدًى.

إذَنْ الشُّروط ثلاثةٌ:

الأوَّلُ: تجريدُ التَّلقِّي.

الثَّاني: خلعُ القيودِ.

الثَّالثُ: هدمُ القواعدِ التي ما أنزل اللهُ بها من سُلطانٍ.

٤٣٠١- وَكَذَاكَ مَشْرُوطٌ بِإِقْدَامٍ عَلَى الْـ ... آرَاءِ إِنْ عَرِيَتْ عَنِ الْبُرْهَانِ

٤٣٠٢- بِالرَّدِّ وَالإِبْطَالِ لا تَعْبَأْ بِهَا ... شَيْئًا إِذَا مَا فَاتَهَا النَّصَّانِ

يُشْتَرَطُ أيضًا للاكتفاءِ بالوحيَيْنِ أن تُقْدِمَ على الآراءِ المخالفةِ بالرَّدِّ والإبطالِ؛ يعني: لا يكفي أنْ تتلقَّى عن الوحيَيْنِ فقط، بل ما خَالَفَ الوحيَيْنِ فلا بُدَّ أن تقابلَه بالرَّدِّ والإبطالِ، أمَّا إن كانت هذه الآراءُ بدليلٍ فاحترمْها لاحترامِ الدَّليلِ، لكن إن عَرِيَت فلا تهمُّك.

قَوْلُهُ: «**لَا تَعْبَأْ بِهَا**»؛ أي: بالآراءِ، «**شَيْئًا إِذَا مَا فَاتَهَا النَّصَّان**»، وهذا صحيحٌ، فكُلُّ رأيٍ يفوته النَّصُّ فلا تعبأْ به، ولا تلتفتْ إليه، ولا تتهيَّبْ منه، فإنَّه زَبَدٌ يذهبُ جُفَاءً، فما دام هذا الرَّأيُ مجرَّدًا عن القُرآنِ والسُّنَّةِ فإنَّه لا يُعْبَأُ به، بل ولا يُسَاوِي فَلْسًا.

٤٣٠٣- لَوْلا القَوَاعِدُ وَالقُيُودُ وَهَذِهِ الْـ ... آرَاءُ لاتَّسَعَتْ عُرَى الإِيمَانِ

وهذا صحيحٌ، فهذه القيودُ والقواعدُ التي أصَّلوها ضَيَّقت البِطَانَ، وصار الإيمانُ لا يتَّسعُ! وأضربُ لكم مثلًا: فالذي يُثبتُه الأشاعرةُ من صفاتِ الله سبعُ صفاتٍ فقط، مع أنَّ صفاتِ الله عزَّ وجلَّ لا تُحْصَرُ ولا تُحْصَى؛ إذَنْ هم ضيَّقوا على

أنفسِهم بحذفِ صفاتٍ لا تُحْصَى من صفاتِ الله؛ بناءً على قواعدِهم الباطلة، وأنَّنا نرجعُ إلى العقلِ فيما نحكمُ به على ربِّنا من الصِّفاتِ.

فلولا قيودٌ يضعُها هؤلاء من أهلِ العقائدِ بل وأهل الفقه، لاتَّسعت العُرَى وتوسَّع النَّاسُ، فالفقهاء -رحمهم الله- ذكروا شُروطًا للمسحِ على الخُفَّيْنِ، شروطًا ما أنزل اللهُ بها من سُلطانٍ، ولا يصح أن نأخذَ بهذه الشُّروطِ بلا دليلٍ؛ لأنَّنا لو أخذنا بهذه الشُّروطِ بلا دليلٍ ضيَّقنا على عبادِ الله بدون دليلٍ.

ذكروا مثلًا أنَّ الإنسانَ إذا خلع الـخُفَّيْنِ بعد مسحِهما بطُل الوضوءُ، أين الدَّليلُ على هذا؟ فهذا رجلٌ توضَّأ وصَحَّ وضوءُه بمقتضى الدَّليلِ الشَّرعيِّ، فلا يمكنُ أن ننقضَ هذا الوضوءَ إلَّا بدليلٍ شرعيٍّ، أمَّا مجرَّدُ قياسٍ فهذا غلطٌ، وتطهيرُ الـخُفِّ هل هو تطهيرٌ للخفِّ أم أنَّه تطهيرٌ للرِّجْلِ التي تحته؟ بل هو للرِّجْلِ التي تحته، أمَّا الخفُّ فهو طاهرٌ لا نجاسةَ فيه، وأيضًا ليس المسحُ بمطهِّرٍ له لو كان به نجاسةٌ.

وعلى هذا فنقولُ: أيُّ إنسانٍ يأتي بشرطٍ في كُلِّ الأحكامِ فعليه الدَّليلُ، وإلَّا فقد تحجَّر واسعًا.

٤٣٠٤- لَكِنَّـــــهَا وَالله ضَـــيِّقَةُ العُـــرَى فَاحْتَاجَـتِ الأَيْـدِي لِـذَاكَ تَـوَانِي

يعني: أنَّها ضيِّقةُ العُرَى «فَاحْتَاجَتِ الأَيْدِي لِذَاكَ تَوَانِي»، فالعُرَى إذا ضاقت تحتاجُ الأيدي في حلِّها إلى تَوانٍ، فلا يسهلُ حلُّها إذا ضاقت.

على كُلِّ حالٍ معروفٌ أنَّ العُرَى إذا ضاقت فإنَّها تحتاجُ إلى تَوانٍ في حلِّها، بخلاف ما إذا كانت متَّسعةً، وأنتَ إذا عقدْتَ أيَّ عقدةٍ فإذا كانت متَّسعةً يسهلُ عليك الحلُّ، لكن إذا ضَيَّقْتَهَا صَعُبَ حلُّها؛ فإنها تحتاج إلى توانٍ وتُؤَدةٍ في حَلِّها.

٤٣٠٥- وَتَعَطَّلَتْ مِنْ أَجْلِهَا وَاللهِ أَعْـ ـدَادٌ مِنَ النَّصَّيْنِ ذَاتُ بَيَانِ

لأنَّهم يقولون: كُلُّ هذه النُّصوصِ المثبِتَةِ للصِّفاتِ كُلُّها مجازٌ، فعطَّلوا دلالتَها، مع أنَّها بيِّنةٌ واضحةٌ، لكنَّهم أهدروها.

وفي القُرونِ الوسطى لو رَجَعْتَ إلى مؤلَّفاتِ الفقهاءِ خاصَّةً لوجدت الصَّفحاتِ العديدةَ ليس فيها ذكرٌ لآيةٍ أو حديثٍ، فكُلُّها: (قال فلان، وقال فلان، والعِلَّةُ كذا)، وما أشبهَ ذلك، تعطَّل الكتابُ والسُّنَّة؛ ولهذا إذا خرج عالمٌ يَبْنِي أحكامَه على الكتابِ والسُّنَّةِ عادَوْه، وقالوا: هذا خَرَجَ عمَّا قال الشُّيوخُ، ولكنَّ الحقَّ منصورٌ ومُمْتَحَنٌ، كما قال ابنُ القيمِّ في هذه القصيدة:

الحَقُّ مَنْصُورٌ وَمُمْتَحَنٌ، فَلَا تَعْجَبْ فَهَذِي سُنَّةُ الرَّحْمَنِ[1]

ثم قال:

٤٣٠٦- وَتَضَمَّنَتْ تَقْيِيدَ مُطْلَقِهَا وَإِطْـ ـلاقَ المُقَيَّدِ وَهْوَ ذُو مِيزَانِ

٤٣٠٧- وَتَضَمَّنَتْ تَخْصِيصَ مَا عَمَّتْهُ وَالتْـ ـتَعْمِيمَ لِلمَخْصُوصِ بِالأَعْيَانِ

تضمَّنت هذه القيودُ وهذه القواعدُ تقييدَ المُطْلَقِ وإطلاقَ المقيَّدِ؛ يعني: عكسَ ما جاء في القرآنِ والسُّنَّةِ، وتضمَّنت أيضًا «**تخصيصَ ما عمَّته والتَّعميمَ للمخصوصِ بالأعيانِ**».

لكنْ بماذا يكونُ تقييدُ المطلَقِ؟

الجوابُ: يكونُ تقييدُ المطلقِ بكُلِّ شرطٍ يُوضَعُ لحكمٍ بلا دليلٍ، فكُلُّ شرطٍ يُوضَعُ لحكمٍ بلا دليلٍ فهذا تقييدٌ للمطلَقِ وتضييقٌ للموسَّع، أمَّا مطلِقُ المقيَّدِ فربَّما

(١) تقدم برقم (٢١٧).

يكونُ بحيث يحملُ هذا التَّقييدَ على أنَّه قضيةُ عينٍ، أو في حالٍ معيَّنةٍ، أو ما أشبه ذلك.

إذَنْ هناك فرقٌ بين المُطْلَقِ والعامِّ، وبين المخصِّص والمقيِّد، فالتَّقييدُ يَرِدُ على المُطْلَقِ ولا يَرِدُ على العامِّ، والتَّخصيصُ يَرِدُ على العامِّ ولا يَرِدُ على المُطْلَقِ، فإذا قلت: «أَعْتِق رقبةً مؤمنةً» فهنا تقييدٌ وَرَدَ على مُطْلَقٍ، وهو «رقبة»، والقيد: «مؤمنة»، وإذا قلت: «أَكْرِم الطلبةَ المجتهدَ منهم» فهذا تخصيصٌ وَرَد على عمومٍ.

والمؤلِّفُ -رحمه الله- يقولُ: هذه القواعدُ أَوْجَبَتْ أن يُعَمِّمَ الخاصَّ، وأن يُخَصِّصَ العامَّ؛ على عكس ما أراد اللهُ به ورسولُه.

٤٣٠٨- وَتَضَمَّنَتْ تَفْرِيقَ مَا جَمَعَتْ وَجَمْـ ـعًا لِلَّذِي وَسَمَتْهُ بِالفُرْقَانِ

يعني: أنَّ هذه القواعدَ والآراءَ تضمَّنت أيضًا جمعَ ما دَلَّ الدَّليلُ على التَّفريقِ فيه، أو تفريقَ ما دَلَّ الدَّليلُ على جمعِه.

٤٣٠٩- وَتَضَمَّنَتْ تَضْيِيقَ مَا قَدْ وَسَّعَتْـ ـهُ وَعَكْسَهُ فَلْتَنْظُرِ الأَمْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَتَضَمَّنَتْ تَضْيِيقَ مَا قَدْ وَسَّعَتْهُ وَعَكْسَهُ»، وعَكْسُهُ هو توسيعُ ما ضَيَّقَتْهُ.

قَوْلُهُ: «فَلْتَنْظُرِ الأَمْرَانِ»؛ أي: «فلتنظر الأَمْرَيْنِ»، لكن إمَّا أنَّه على لغة مَنْ يُلْزِمُ المثنَّى الألِفَ مطلقًا، أو لضيقِ النَّظمِ، ومشهورٌ عند العلماءِ أنَّ النَّظمَ لا يُبيحُ إلَّا صرفَ ما لا ينصرفُ، لكنَّ بعضَ علماءِ النَّحو يقولُ: ضيقُ النَّظمِ يُبيحُ حتَّى رفع المنصوبِ أو نصب المرفوعِ؛ يعني: يُجيز كُلَّ ما يخالفُ الإعرابَ، وابنُ القيِّمِ -رحمه الله- يمشي على هذا الرَّأي ولا يُبالي.

٤٣١٠- وَتَضَمَّنَتْ تَحْلِيلَ مَا قَدْ حَرَّمَتْـ ـهُ وَعَكْسَهُ فَلْتَنْظُرِ النَّوْعَانِ

إذَنْ صارت هذه الآراءُ والقواعدُ مضادَّةً لما أراد اللهُ ورسولُه بالوَحْيَيْنِ.

٤٣١١- سَكَتَتْ وَكَانَ سُكُوتُهَا عَفْوًا فَلَمْ تَعْفُ القَوَاعِدُ بِاتِّسَاعِ بِطَانِ

يعني: أنَّ النُّصوصَ سكتت عمَّا سكتت عنه، وكان ما سكتت عنه عفوًا، أمَّا قواعدُهم فإنَّها لم تكن متَّسعةً، ولم يكن سكوتُها عفوًا.

٤٣١٢- وَتَضَمَّنَتْ إِهْدَارَ مَا اعْتَبَرَتْ كَذَا بِالعَكْسِ وَالأَمْرَانِ مَحْذُورَانِ

قَوْلُهُ: «تَضَمَّنَتْ إِهْدَارَ مَا اعْتَبَرَتْهُ» كَذَا بِالعَكْسِ؛ أي: واعتبارَ ما أَهْدَرَتْهُ.

٤٣١٣- وَتَضَمَّنَتْ أَيْضًا شُرُوطًا لَمْ تَكُنْ مَشْرُوطَةً شَرْعًا بِلا بُرْهَانِ

إذَنْ وَضَعَتْ شروطًا لم تكن شرطًا، وهذه زيادةٌ على النُّصوصِ.

٤٣١٤- وَتَضَمَّنَتْ أَيْضًا مَوَانِعَ لَمْ تَكُنْ مَمْنُوعَةً شَرْعًا بِلا تِبْيَانِ

كأنَّ المؤلِّفَ يقولُ: إنَّ هذه القواعدَ خَالَفَتِ النُّصوصَ من كُلِّ وجهٍ، وهذا هو حاصلُ كلامِ المؤلِّف.

٤٣١٥- إِلَّا بِأَقْيِسَةٍ وَآرَاءٍ وَتَقْـ ـلِيدٍ بِلا عِلْمٍ أَوِ اسْتِحْسَانِ

يعني: أنَّ هذه الأشياءَ التي تضمَّنَتْها مخالفة للكتابِ والسُّنَّةِ ليست مَبْنِيَّةً على شيءٍ، إلَّا على أقيسةٍ وآراءٍ باطلةٍ، وتقليدٍ لعامَّتِهم بلا علمٍ أو استحسانٍ.

* * *

٤٣١٦- عَمَّنْ أَتَتْ هَذِي القَوَاعِدُ مِنْ جَمِيـ ـعِ الصَّحْبِ وَالأَتْبَاعِ بِالإِحْسَانِ

٤٣١٧- مَا أَسَّسُوا إِلَّا اتِّبَاعَ نَبِيِّهِمْ لا عَقْلَ فَلْتَانٍ وَرَأْيَ فُلانِ

٤٣١٨- بَلْ أَنْكَرُوا الآرَاءَ نُصْحًا مِنْهُمُ لله وَالدَّاعِي وَلِلْقُرْآنِ

٤٣١٩- أَوَلَيْسَ في خُلْفٍ بِهَا وَتَنَاقُضٍ مَا دَلَّ ذَا لُبٍّ وَذَا عِرْفَانِ

٤٣٢٠- وَالله لَوْ كَانَتْ مِنَ الرَّحْمَنِ مَا اخْـ ـتَلَفَتْ وَلا انْتُقِضَتْ مَدَى الأَزْمَانِ

٤٣٢١- شُبَهٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا حَقًّا وَقَدْ سَقَطَتْ عَلَى صَفْوَانِ

٤٣٢٢- وَالله لا يَرْضَى بِهَا ذُو هِمَّةٍ عَلْيَاءَ طَالِبَةٍ لِهَذَا الشَّانِ

٤٣٢٣- فَمِثَالُهَا وَالله في قَلْبِ الفَتَى وَنَبَاتُهَا في مَنْبِتِ الإِيمَانِ

٤٣٢٤- كَالزَّرْعِ يَنْبُتُ حَوْلَهُ دَغَلٌ فَيَمْـ ـنَعُهُ النَّمَا فَتَرَاهُ ذَا نُقْصَانِ

٤٣٢٥- وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ في قَلْبِ الفَتَى غَرْسٌ مِنَ الرَّحْمَنِ في الإِنْسَانِ

٤٣٢٦- وَالنَّفْسُ تُنْبِتُ حَوْلَهُ الشَّهَوَاتِ وَالشُّـ ـبُهَاتِ وَهْيَ كَثِيرَةُ الأَفْنَانِ

٤٣٢٧- فَيَعُودُ ذَاكَ الغَرْسُ يَبْسًا ذَاوِيًا أَوْ نَاقِصَ الثَّمَرَاتِ كُلَّ أَوَانِ

٤٣٢٨- فَتَرَاهُ يَحْرُثُ دَائِبًا وَمَغَلُّهُ نَزْرٌ وَذَا مِنْ أَعْظَمِ الخُسْرَانِ

٤٣٢٩- وَالله لَوْ نَكَشَ النَّبَاتَ وَكَانَ ذَا بَصَرٍ لِذَاكَ الشَّوْكِ وَالسَّعْدَانِ

٤٣٣٠- لأَتَى كَأَمْثَالِ الجِبَالِ مَغَلُّهُ وَلَكَانَ أَضْعَافًا بِلا حُسْبَانِ

الشرحُ

٤٣١٦- عَمَّنْ أَتَتْ هَذِي القَوَاعِدُ مِنْ جَمِيـ ـعِ الصَّحْبِ وَالأَتْبَاعِ بِالإِحْسَانِ

يعني: هذه القواعدُ التي أسَّسوها عمَّن أتت؟ هل جاءت عن الصَّحابةِ؟ هل جاءت عن التَّابعين لهم بإحسانٍ؟

فقوله: «عَمَّنْ» «مَنْ» هنا استفهاميَّةٌ؛ يعني: عن أيِّ أحدٍ أتت هذه، هل جاءت عن الصَّحابةِ أو الأتباعِ بالإحسانِ؟ والجوابُ: لا.

٤٣١٧- مَا أَسَّسُوا إِلَّا اتِّبَاعَ نَبِيِّهِمْ لا عَقْلَ فَلْتَانٍ وَرَأْيَ فُلانِ

يعني: أنَّ الصَّحابةَ والتَّابعين لهم بإحسانٍ ما أسَّسوا إلَّا اتِّباعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

٤٣١٨- بَلْ أَنْكَرُوا الآرَاءَ نُصْحًا مِنْهُمُ للهِ وَالدَّاعِي وَلِلْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «أَنْكَرُوا» الضَّميرُ يعودُ على الصَّحابةِ والتَّابعين لهم بإحسانٍ.

فهم أنكروا الآراءَ، وأنكروا معارضةَ النَّصِّ بالآراءِ؛ لـمَّا حَدَّثَ عبدُ الله بنُ عمرَ عن النَّبِيِّ ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله» قال ابنه بلالٌ: «وَالله لَنَمْنَعُهُنَّ» والرَّسولُ يقولُ: «لَا تَمْنَعُوا»، لكن بلالٌ ابنُه رأى ما عليه النَّاس من فسادٍ فقال: «والله لَنَمْنَعُهُنَّ»، فأقبلَ عليه أبوه عبدُ الله يَسُبُّهُ سَبًّا شَدِيدًا ما سَبَّه مثله قطُّ، وقال: أَقُولَ لَك: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله» وتقولُ: «وَالله لَنَمْنَعُهُنَّ»، ثُمَّ هجره حتَّى مات[1]، مع أَنَّه عَارَضَ النَّصَّ باجتهادٍ، لكن لا يجوزُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنةٌ وأنها لا تخرج مطيَّبة، رقم (٤٤٢).

أن نعارضَ النَّصَّ، واللهُ ورسولُه أعلمُ، بل اتَّبع النَّصَّ وفيه الخيرُ، وإذا حَدَثَ شيءٌ معيَّنٌ فعالجه، أمَّا أن تعارضَ النَّصَّ قائلًا: «وَاللهِ لَنَمْنَعَهُنَّ» والرَّسولُ يقولُ: «لَا تَمْنَعُوا»، فهذا خطأٌ، لكن لو حدثت فتنةٌ من امرأةٍ معيَّنةٍ امنعْها، فمقابلةُ النَّصِّ بالمعارضةِ خطيرٌ.

٤٣١٩- أَوَلَـيْسَ فِي خُلْـفٍ بِهَـا وَتَنَـاقُضٍ   مَـا دَلَّ ذَا لُـبٍّ وَذَا عِرْفَـانِ

الجوابُ: بلى، هذا الاختلافُ بين أهلِ الآراءِ وهذا التَّناقضُ يدلُّ على فسادِها؛ لأنَّها لو كانت سليمةً ما اختلف أهلُها ولا تناقضوا.

٤٣٢٠- وَاللهِ لَوْ كَانَتْ مِنَ الرَّحْمَنِ مَـا اخْـ   ـتَلَفَتْ وَلا انْتُقِضَتْ مَدَى الأَزْمَـانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢].

٤٣٢١- شُـبَهٌ تَهَافَـتُ كَالزُّجَـاجِ تَخَالُـهَا   حَقًّا وَقَـدْ سَـقَطَتْ عَـلَى صَـفْوَانِ

هذا بيتٌ مشهورٌ لكنَّ آخرَه: «وَكُلُّ كَاسِرٌ مَكْسُورُ» كما قال الشَّاعرُ:

حُجَجٌ تَهَافَتُ كَالزُّجَاجِ تَخَالُـهَا   حَقًّـا، وَكُـلٌّ كَـاسِرٌ مَكْسُـورُ[1]

أمَّا ابنُ القيِّمِ فأتـمَّه بغيرِ هذا من أجلِ النَّظمِ، فقال: «وَقَدْ سَقَطَتْ عَلَى صَفْوَانِ»، وإذا سَقَطَتْ على صفوان؛ يعني: على صفًا، لا يبقى لها باقيةٌ.

٤٣٢٢- وَاللهِ لا يَـرْضَى بِهَـا ذُو هِمَّـةٍ   عَلْيَـاءَ طَالِبَـةٍ لِـهَذَا الشَّـانِ

يعني: لا يرضى بهذه الآراءِ ذو همَّةٍ عاليةٍ تطلبُ هذا الشَّأنَ، وهو الحقُّ في

---

(١) البيت لابن الرومي، في ديوانه (٢/ ١٦٦).

بابِ أسماءِ اللهِ وصفاتِه وغيرِها.

٤٣٢٣- فَمِثَالُـهَا وَاللهِ فِي قَلْـبِ الفَتَـى ... وَنَبَاتُهَـا فِي مَنْبِـتِ الإِيـمَانِ

٤٣٢٤- كَالزَّرْعِ يَنْبُتُ حَوْلَـهُ دَغَـلٌ فَيَمْـ ... ـنَعُهُ النَّـمَا فَـتَرَاهُ ذَا نُقْصَـانِ

هذا مثالٌ عجيبٌ منضبطٌ، فهذا إنسانٌ عنده زرعٌ نبت حوله دَغَلٌ، والدَّغل: زروعٌ تُفْسِدُ الزَّرعَ، وتقضي عليه من فوق ومن تحت؛ يعني: هذه الزُّروعُ تُفسدُ الزَّرعَ من تحت بالعروق، تحولُ بين عروقِه وبين أخذ الطعم الذي في الأرضِ، وتفسدُه أيضًا من فوق، تغمره عن الشَّمسِ والهواء، فماذا يكونُ حالُ الزَّرعِ؟ الجوابُ: يفسدُ، يذبلُ، يموتُ، أو يكونُ ناقصًا.

٤٣٢٥- وَكَـذَلِكَ الإِيـمَانُ فِي قَلْـبِ الفَتَـى ... غَـرْسٌ مِـنَ الـرَّحْمَنِ فِي الإِنْسَـانِ

نسألُ اللهَ أن يغرسَ في قلوبِنا وقلوبِكم الإيمانَ وينمِّيَه.

٤٣٢٦- وَالنَّفْسُ تُنْبِتُ حَوْلَهُ الشَّهَوَاتِ وَالشْـ ... ـشُبُهَاتِ وَهْـيَ كَثِـيرَةُ الأَفْنَـانِ

قَوْلُهُ: «وَالنَّفْسُ تُنْبِتُ حَوْلَهُ الشَّهَوَاتِ»؛ أي: تنبتُ حولَ القلبِ الشَّهواتِ.

قَوْلُهُ: «وَهْيَ كَثِيرَةُ الأَفْنَانِ»؛ أي: كثيرةُ الأغصانِ، كثيرةُ الفروعِ.

فالإيمانُ يغرسُه اللهُ في قلبِ الإنسانِ، ثُمَّ تأتي النَّفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ فتُنْبِتُ حولَه الشَّهواتِ والشُّبهاتِ وتُؤثِّرُ عليه.

٤٣٢٧- فَيَعُـودُ ذَاكَ الغَـرْسُ يَبْسًـا ذَاوِيًـا ... أَوْ نَـاقِصَ الثَّمَـرَاتِ كُـلَّ أَوَانِ

صحيحٌ؛ إذا نَبَتَتْ حول الإيمانِ الشُّبهاتُ والشَّهواتُ -والعياذُ باللهِ- فإنَّ الإيمانَ يَذوِي، وربَّما يزولُ بالكُلِّيَّةِ؛ ولهذا قال العلماءُ: «**إنَّ المعاصيَ بريدُ الكفرِ**».

٤٣٢٨- فَــتَرَاهُ يَحْــرُثُ دَائِبًــا وَمَغَلُّــهُ   نَــزْرٍ وَذَا مِــنْ أَعْظَــمِ الــخُسْرَانِ

ترى الزَّارعَ يحرثُ دائمًا، ولكن المَغَلُّ قليلٌ لما يَنْبُتُ حولَه من هذه النَّوابتِ التي تُؤثِّرُ عليه في الأرضِ وفي الجوِّ.

٤٣٢٩- وَاللهِ لَــوْ نَكَــشَ النَّبَــاتَ وَكَــانَ ذا   بَصَــرٍ لِــذَاكَ الشَّــوْكِ وَالسَّــعْدَانِ

٤٣٣٠- لأَتَــى كَأَمْثَــالِ الــجِبَالِ مَغَلُّــهُ   وَلَكَــانَ أَضْــعَافًا بِــلا حُسْــبَانِ

قَوْلُهُ: «لَوْ نَكَشَ النَّبَاتَ»؛ يعني: أزاله ونبشَه.

فلو زال هذا النَّباتُ المُضِرُّ لأتاك أمثالَ الجبالِ مَغَلُّهُ ولكان أضعافًا بلا حُسْبَانٍ.

والمؤلِّف -رحمه الله- يريدُ بهذا المثالِ أنْ يحرصَ الإنسانُ فينظر ماذا نَبَتَ حول قلبِه، بل حول غرسِ الرَّحمنِ «الإيمان في قلبه» حتَّى يُزيلَه ويُطَهِّرَه منه.

* * *

فصـــل

٤٣٣١- هَذَا وَلَيْسَ الطَّعْنُ بِـالإِطْلَاقِ فِيــ ـهَا كُلِّها فِعْلَ الـجَهُولِ الـجَانِي

٤٣٣٢- بَلْ فِي الَّتِي قَدْ خَالَفَتْ قَوْلَ الرَّسُو لِ وَمُحْكَـمَ الإِيـمَانِ وَالفُرْقَـانِ

٤٣٣٣- أَوْ فِي الَّتِـي مَـا أَنْـزَلَ الـرَّحْمَنُ فِي تَقْرِيرِهَـا يَـا قَـوْمُ مِـنْ سُـلْطَانِ

٤٣٣٤- فَهِيَ الَّتِي كَمْ عَطَّلَـتْ مِـنْ سُنَّةٍ بَـلْ عَطَّلَـتْ مِـنْ مُحْكَـمِ القُـرْآنِ

٤٣٣٥- هَــذَا وَنَرْجُـو أَنَّ وَاضِـعَهَا فَـلا يَعْـدُوهُ أَجْـرٌ، أَوْ لَـهُ أَجْـرَانِ

٤٣٣٦- إِذْ قَالَ مَبْلَـغَ عِلْمِـهِ مِـنْ غَـيْرِ إِيــ ـجَابِ القَبُـولِ لَـهُ عَـلَى إِنْسَـانِ

٤٣٣٧- بَـلْ قَـدْ نَهَانَـا عَـنْ قَبُـولِ كَلامِـهِ نَصًّـا بِتَقْلِيـدٍ بِـلا بُرْهَـانِ

٤٣٣٨- وَكَـذَاكَ أَوْصَـانَا بِتَقْـدِيمِ النُّصُـو صِ عَلَيْـهِ مِـنْ خَـبَرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

٤٣٣٩- نَصَحَ العِبَـادَ بِـذَا وَخَلَّـصَ نَفْسَـهُ عِنْـدَ السُّـؤَالِ لَــهَا مِـنَ الـدَّيَّانِ

٤٣٤٠- وَالخَوْفُ كُلُّ الخَوْفِ فَهْوَ عَلَى الَّذِي تَرَكَ النُّصُوصَ لِأَجْلِ قَـوْلِ فُـلانِ

٤٣٤١- فَـإِذَا بَغَـى الإِحْسَـانَ أَوَّلَـهَا بِـمَا لَـوْ قَالَـهُ خَصْـمٌ لَـهُ ذُو شَـانِ

٤٣٤٢- لَرَمَـاهُ بِالـدَّاءِ العُضَـالِ مُنَادِيًـا بِفَسَـادِ مَـا قَـدْ قَالَـهُ بِـأَذَانِ

الشـرحُ

لـمَّا ذَكَرَ -رحمه الله- الطَّعنَ في أقوالِ مَنْ خَالَفَ الكتابَ والسُّنَّةَ قال:

٤٣٣١- هَذَا وَلَيْسَ الطَّعْنُ بِالإِطْلاقِ فِيـ ـهَا كُلِّها فِعْلَ الـجَهُولِ الـجَانِي

يعني: نحن إذا طَعَنَّا في أقوالِ هؤلاء فلا نطعنُ فيها على الإطلاقِ كما يفعلُ الجَهولُ الجاني الذي يطعنُ في أقوالِنا على الإطلاقِ.

٤٣٣٢- بَلْ فِي الَّتِي قَدْ خَالَفَتْ قَوْلَ الرَّسُو لِ وَمُحْكَـمَ الإِيـمَانِ وَالفُرْقَـانِ

وهذا من العدلِ ألَّا نطعنَ إلَّا فيما خَالَفَ القرآنَ والسُّنَّةَ، وهذا هو الواجبُ على الإنسانِ، أن يكونَ عدلًا يقبلُ الحقَّ ممَّن جاء به ويَرُدُّ الباطلَ ممَّن جاء به، فيكونُ مرادُه الحقَّ.

٤٣٣٣- أَوْ فِي الَّتِـي مَـا أَنْـزَلَ الـرَّحْمَنُ فِي تَقْرِيرِهَـا يَـا قَـوْمُ مِـنْ سُـلْطَانِ

يعني: نطعنُ فيما خَالَفَ أو في شيءٍ لم ينزل به سلطانٌ من الله يُقرِّرُه، فأقوالُ النَّاسِ ثلاثةُ أقسامٍ:

الأوَّل: قولٌ وَافَقَ الدَّليلَ فهو مقبولٌ من أيِّ شخصٍ.

الثَّاني: قولٌ خَالَفَ الدَّليلَ فهو مردودٌ.

الثَّالث: قولٌ لم يُنَزِّل اللهُ به من سلطانٍ، ويُطْلَبُ فيه الدَّليلُ، ولكن لا دليلَ، فهذا مردودٌ أيضًا.

ولهذا قال: نَرُدُّ شَيْئَيْنِ: ما خَالَفَ قولَ الرَّسولِ، والذي لم ينزل اللهُ في تقريرِه من سلطانٍ، أمَّا ما وَافَقَ قولَ الرَّسولِ فإنَّنا نقبلُه وإن كان من أقوالِ هؤلاء الفلاسفةِ أو المناطقةِ.

٤٣٣٤- فَهِيَ الَّتِي كَـمْ عَطَّلَـتْ مِـنْ سُـنَّةٍ بَـلْ عَطَّلَـتْ مِـنْ مُحْكَـمِ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «فَهِيَ الَّتِي»؛ أي: هذان النَّوْعَانِ من الأقوالِ، «كَمْ عَطَّلَتْ مِنْ سُنَّةٍ،

بَلْ عَطَّلَتْ مِنْ مُحْكَمِ القُرْآنِ»، وهذا واضحٌ.

٤٣٣٥- هَــذَا وَنَرْجُــو أَنَّ وَاضِــعَهَا فَــلا يَعْــدُوهُ أَجْــرٌ، أَوْ لَــهُ أَجْــرَانِ

يعني: نرى أَنَّ مَنْ قالها عن اجتهادٍ فلا يخلو من أجرٍ أو أجرينٍ، فهو يأخذُ الأجرين إذا أَصَابَ، وواحدًا إذا أخطأ.

٤٣٣٦- إِذْ قَالَ مَبْلَغَ عِلْمِهِ مِنْ غَيْرِ إِيــ ــجَابِ القَبُولِ لَهُ عَلَى إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ قَالَ مَبْلَغَ عِلْمِهِ»؛ يعني: وجهُ أَنَّه مأجورٌ أَنَّه قال (مَبْلَغَ عِلْمِهِ)، وكُلُّ إنسانٍ قال مَبْلَغَ علمِه فإنَّه لا يُلَامُ.

قَوْلُهُ: «مِنْ غَيْرِ إِيجَابِ القَبُولِ لَهُ عَلَى إِنْسَانِ» الله أكبر، وهذا هو العدلُ؛ إذ أَنَّه قال مَبْلَغَ علمِه، ولم يقل: يجبُ على النَّاسِ أن يتَّبعوه، وهذا هو العالِـمُ الرَّبَّانيُّ الذي يُبيِّنُ الحقَّ في نظرِه، ولا يقولُ للنَّاسِ: يلزمُكم أن تتَّبعوا قولي.

إذَنْ هو قال مَبْلَغَ علمِه؛ لأَنَّه بَحَثَ ونَظَرَ في الأدلَّةِ وفي أقوالِ العلماءِ حتَّى وَصَلَ إلى هذا الرَّأي، فهذا مَبْلَغُ علمِه، واللهُ يقولُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ومع ذلك لـمَّا قال هذا الرَّأيَ لم يوجبْه على أحدٍ، ولا يحلُّ لأحدٍ أن يُوجِبَ القولَ بما قال على أيِّ أحدٍ من النَّاسِ أبدًا، إلَّا أن يدَّعِيَ أنَّه رسولٌ.

فأنت إذا رَأَيْتَ رأيًا فإنه لا يحلُّ لك أن تُلْزِمَ النَّاسَ به؛ لأنَّ غيرَك قد يرى خلافَك، أمَّا إذا كان لك سُلطةٌ وكان قولُك هو الحقَّ فهنا تُلْزِمُهم بالموافقةِ بالظَّاهرِ.

مثالُ ذلك: رجلٌ له سلطةٌ يرى أنَّ شربَ الدُّخانِ حرامٌ، ومن النَّاسِ مَنْ يَرَى أنَّه حلالٌ، هنا يُلْزِمُ النَّاسَ في ظاهرِ حالِهم بما يرى أنَّه حرامٌ إذا كان له سُلطةٌ؛

لأنَّنا لو لم نَقُلْ بهذا لأصبح النَّاسُ فوضى؛ ولهذا ألزم عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّاسَ ألَّا يرجعوا إلى نسائِهم إذا طلقوهُنَّ ثلاثًا؛ لئلَّا يحصلَ اللَّعِبُ بآياتِ الله عزَّ وجلَّ[1]، وهذا في المسائلِ الاجتهاديَّةِ القابلةِ للأخذِ والرَّدِّ.

وأمَّا إذا كان الاستدلالُ صحيحًا والدَّليلُ صحيحًا، لَزِمَهم الأخذُ بقولِه، لا لأنَّه قولُ فلانٍ، ولكن لأنَّه مقتضى الدَّليلِ، وهذا متَّفقٌ عليه بين العلماءِ، فليس للإنسانِ أن يُجْبِرَ النَّاسَ على الأخذِ بقولِه، لكن عليه أن يُجبرَهم على الأخذِ بالدَّليلِ؛ لأنَّ هذا كلامُ الله أو كلامُ رسولِه، لا لأنَّه قاله، مثلًا لو قال: «**الميتةُ حرامٌ**» هنا يلزمُهم أن يأخذوا بأنَّ الميتةَ حرامٌ؛ لأنَّ الله قاله، لا لأنَّ فلانًا قاله.

٤٣٣٧- بَلْ قَدْ نَهَانَا عَنْ قَبُولِ كَلامِهِ نَصًّا بِتَقْلِيدٍ بِلا بُرْهَانِ

مَن الذي نهانا؟ الجوابُ: الذي قال برأيه مجتهدًا قال: لا تُقلِّدوني إلَّا ببرهانٍ، انظر كلامَ الأئمَّةِ، ولاسيَّما الأئمَّةُ المتبوعون الأربعةُ: أبو حنيفةَ، ومالكٌ والشَّافعيُّ، وأحمدُ، رحمهم اللهُ جميعًا، تجدُ كُلَّ كلامِهم يَنْهَوْنَ عن تقليدِ آراءِ الرِّجالِ، ويقولونُ بلسانِ المقالِ أو بلسانِ الحالِ: «**إذا خَالَفَتْ أقوالُنا قولَ الرَّسولِ فاضربوا بها عُرْضَ الحائطِ**»، كُلُّهم يقولُ هذا إمَّا بهذا اللَّفظِ أو بمعناه، وهذا هو الحقُّ والله، ليس الحقَّ أن يقولَ الإنسانُ بلسانِ حالِه أو بمقالِه: يا جماعة لا تخرجوا عن قولي، ثُمَّ يغضبُ إذا رأى النَّاسَ خرجوا عن قولِه.

أقولُ: إنَّ كُلَّ شخصٍ يريدُ من النَّاسِ أنْ يتَّبعوا قولَه ويرى أنَّ ذلك واجبٌ، فإنَّه قد جعل نفسَه شريكًا للرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّه لا أحدَ يجبُ اتِّباعُ قولِه إلَّا الرَّسول صلى الله عليه وسلم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث، رقم (١٤٧٢).

٤٣٣٨- وَكَـذَاكَ أَوْصَـانَا بِتَقْـدِيمِ النُّصُـو صِ عَلَيْـهِ مِـنْ خَـبَرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ أَوْصَانَا»؛ يعني: المجتهد مِنَّا معشرَ أهلِ السُّنَّةِ «أَوْصَانَا بِتَقْدِيمِ النُّصُوصِ عَلَيْهِ»؛ يعني: على قولِه «مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ»، هذا يقولُه المؤلِّفُ.

٤٣٣٩- نَصَحَ العِبَـادَ بِـذَا وَخَلَّـصَ نَفْسَـهُ عِنْـدَ السُّـؤَالِ لَـهَا مِـنَ الـدَّيَّانِ

أي: نَصَحَ العبادَ بألَّا يتَّبعوا قولَه بلا حُجَّةٍ، ونَصَحَهم حيث اجتهد وبَالَغَ في الاجتهادِ وقال مَبْلَغَ علمِه، واجتهد فَبَيَّنَ للعبادِ، فقال: أنا أرى هذا حلالًا، أرى هذا حرامًا، أرى هذا واجبًا، هذا هو النُّصحُ أن يُبيِّنَ للنَّاسِ ما ظَهَرَ له من نصوصٍ، ثُمَّ خَلَّصَ نفسَه عند السُّؤالِ لها من الدَّيَّانِ، خَلَّصَ نفسَه لـمَّا قال: أنا لستُ نبيًّا، لستُ واجبَ الاتِّباعِ، أنا أقولُ لكم: «**هذا مَبْلَغُ عِلْمِي، هذا محطُّ اجتهادي، ولستُ نبيًّا أُلزِمُكم بقولي**»، فهو خَلَّصَ نفسَه، ويوم القيامةِ إذا سأله اللهُ قال: يا ربِّ ما ألزمتُ عبادَك بما أقولُ لكنِّي اجتهدتُ لهم وقلتُ مَبْلَغَ علمي، وهذا غايةُ جهدي، فيكون بذلك قد جَمَعَ بين حُسْنَيَيْنِ:

الأولى: بيان الحقِّ حسب رأيه.

والثَّانية: نهي النَّاسِ عن أن يأخذوا بقولِه بلا برهانٍ.

٤٣٤٠- وَالخَوْفُ كُلُّ الخَوْفِ فَهْوَ عَلَى الَّذِي تَرَكَ النُّصُوصَ لِأَجْلِ قَـوْلِ فُـلانِ

نَعَم، والله هذا هو الخوفُ؛ أن يتركَ الإنسانُ النَّصَّ، ويقولَ: قال فلانٌ، تقولُ: قال رسولُ الله، ويقولُ: قال فلانٌ، لو قلت: قال رسولُ الله، فقال: قال أبو بكر: هل يُخافُ عليه أم لا؟ أليس الرَّسولُ قال: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ**

الرَّاشِدِينَ»[(١)]، فبدأ بسنَّتِه، فهي مقدَّمةٌ على كُلِّ سُنَّةٍ؛ ولهذا يُرْوَى عن ابن عبَّاسٍ أنَّه قال: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ كَمَا نَزَلَتْ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ؛ أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله، وتَقولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»[(٢)]، هذا وهما أبو بكرٍ وعمر اللَّذان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال فيهما رسولُ الله ﷺ: «اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[(٣)]، وقال: «إِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ يَرْشُدُوا»[(٤)]، ومع ذلك لو عارَضْتَ قولَ الرَّسولِ بقولَيْهما لأوشكَ أن تنزلَ عليك حجارةٌ من السَّماءِ.

وهل التَّعصُّبُ إلى الأئمَّةِ وتقديمِ أقوالِهم على قولِ الرَّسولِ ﷺ هل يصلُ إلى الكفرِ؟

الجوابُ: لا، لا يصلُ إلى الكفرِ؛ لأنَّ غالبَ الذين يتعصَّبون للأئمَّةِ جُهَّالٌ عامَّةٌ؛ لأنَّك تجدُه يتعصَّبُ لهذا الإمامِ، لا لأنَّه يقدِّمُه على الرَّسولِ، لكن يقولُ: لأنَّ الإمامَ أعلمُ منك أنت، فقد تخفى عليك أحاديثُ لم تَخْفَ على الإمامِ، فأكثرُ ما يُحاجُّون به هذا، يقولُ: هل أنت أعلمُ من أحمدَ بنِ حنبلٍ؟ فإن قلت: نعم، يا ويلك منه، وإن قلت: لا، قال: إذَنْ أَقْرَرْتَ على نفسِك بأنَّك أقصرُ منه، فهو أعلمُ منك.

٤٣٤١- فَإِذَا بَغَى الإِحْسَانَ أَوَّلَهَا بِمَا ... لَوْ قَالَهُ خَصْمٌ لَهُ ذُو شَانِ

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم ١٧١٤٤). وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧).

(٢) أوردهُ شيخُ الإسلامِ في الفتاوى (٢٠/ ٢١٥، ٢٦/ ٥٠، ٢٨١)، والإمامُ ابنُ القيمِ في إعلامِ الموقعين (٢/ ٢٣٨)، والزاد (٢/ ١٩٥)، والصواعق المرسلة (٣/ ١٠٦٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢٧٣٤)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كليهما، رقم (٣٦٦٢)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٩٧).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم (٦٨١).

٤٣٤٢- لَرَمَاهُ بِالدَّاءِ العُضَالِ مُنَادِيًا بِفَسَادِ مَا قَدْ قَالَهُ بِأَذَانِ

قَوْلُهُ: «**وَإِذَا بَغَى الإِحْسَانَ أَوَّلَهَا**» إذا بغى الإحسانَ فأراد أن يُوفِّقَ بين قولِ فلانٍ وبين النُّصوصِ فإنه يُؤوِّلُها تأويلَ تحريفٍ، لا تأويلَ تفسيرٍ، فالمرادُ أَوَّلها تأويلَ تحريفٍ لأجل أن تُوافِقَ قولَ فلانٍ؛ مثل ما أَوَّل دعاةُ الاشتراكيَّةِ، فدعاةُ الاشتراكيَّةِ قالوا: الاشتراكيَّةُ من الإسلامِ، كما قال الشَّاعر:

(الإِشْتِرَاكِيُّونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ)(١)

واقرأ قولَ الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨]، ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ هذه الاشتراكيَّةُ، وهل غيرُ كلام الله شيءٌ؟ إذَنْ هذا من التَّأويلِ، فهم تَبِعُوا إمامَ الاشتراكيَّةِ، وقالوا: هذا القرآنُ يدلُّ عليها، أوَّلوا تأويلَ تحريفٍ؛ لأنَّ المعنى أنَّ اللهَ يُنكِرُ على هؤلاء، هل عبيدُكم يشاركونكم في الرِّزق ويكونون معكم سواء؟ هذا إنكارٌ ونفيٌ، فإذا كان عبيدُكم لا يُشاركونكم فيما رزقناكم فكيف تجعلون عبيدي يشاركونني في العبادة؟!وهذا خلافُ العدلِ.

قَوْلُهُ: «**لَوْ قَالَهُ خَصْمٌ لَهُ ذُو شَانِ لَرَمَاهُ بِالدَّاءِ العُضَالِ... إلخ**» وصدق رحمه اللهُ؛ يعني: لو أنَّ غيرَه أوَّلها هذا التَّأويلَ لرماه بالدَّاءِ العُضَالِ، وقال: أنت مُحرِّفٌ، أنت مرتدٌّ، أنت ضالٌّ، وما أشبه ذلك.

وخُلاصةُ هذا الفصلِ: أنَّ الواجبَ على الإنسانِ أن يقولَ العدلَ، واذا جاء الحقُّ من عدوٍّ فاقبلْه، وإذا جاء الباطلُ من صديقٍ فرُدَّه.

---

(١) جزء من بيت أحمد شوقي، في ديوانه (١/ ٣٧)، وتمامه:
لَوْلَا دَعَاوَى القَوْمِ وَالغُلَوَاءُ

فصـــل

في لازِمِ المَذْهَبِ هَلْ هُوَ مَذْهَبٌ أَمْ لا؟

٤٣٤٣- وَلَـوَازِمُ الْـمَعْنَى تُـرَادُ بِـذِكْرِهِ ... مِـنْ عَـارِفٍ بِلُزُومِهَـا الـحَقَّانِي

٤٣٤٤- وَسِـوَاهُ لَـيْسَ بِـلازِمٍ فِي حَقِّـهِ ... قَصْـدُ اللَّـوَازِمِ وَهْـيَ ذُو تِبْيَـانِ

٤٣٤٥- إِذْ قَدْ يَكُونُ لُزُومُهَا المَجْهُولَ، أَوْ ... قَـدْ كَـانَ يَعْلَمُـهُ بِـلا نُكْـرَانِ

٤٣٤٦- لَكِـنْ عَرَتْـهُ غَفْلَـةٌ بِلُزُومِهَـا ... إِذْ كَـانَ ذَا سَـهْوٍ وَذَا نِسْـيَانِ

٤٣٤٧- وَلِذَاكَ لَـمْ يَكُ لازِمًا لِـمَذَاهِبِ الْ ... ـعُلَمَاءِ مَـذْهَبُهُمْ بِـلا بُرْهَـانِ

٤٣٤٨- فَالـمُقْدِمُونَ عَلَى حِكَايَـةِ ذَاكَ مَـذْ ... هَـبُهُمْ أُولُـو جَهْـلٍ مَـعَ العُـدْوَانِ

٤٣٤٩- لا فَـرْقَ بَـيْنَ ظُهُـورِهِ وَخَفَائِـهِ ... قَـدْ يَـذْهَلُونَ عَـنِ اللُّـزُومِ الـدَّانِي

٤٣٥٠- سِـيَمَا إِذَا مَـا كَـانَ لَـيْسَ بِـلازِمٍ ... لَكِـنْ يَظُـنُّ لُزُومَـهُ بِجَنَـانِ

٤٣٥١- لا تَشْـهَدُوا بِـالزُّورِ وَيْحَكُـمُ عَـلَى ... مَـا تَلْزَمُـونَ شَـهَادَةَ البُهْتَـانِ

٤٣٥٢- بِخِـلافِ لازِمِ مَـا يَقُـولُ إِلَـهُنَا ... وَنَبِيُّنَـا المَعْصُـومُ بِالبُرْهَـانِ

٤٣٥٣- فَلِـذَا دَلالاتُ النُّصُـوصِ جَلِيَّـةٌ ... وَخَفِيَّـةٌ تَخْفَـى عَـلَى الأَذْهَـانِ

٤٣٥٤- وَاللهُ يَـرْزُقُ مَـنْ يَشَـاءُ الفَهْـمَ فِي ... آيَاتِـهِ رِزْقًـا بِـلا حُسْـبَانِ

٤٣٥٥- وَاحْذَرْ حِكَايَاتٍ لأَرْبَـابِ الكَـلا ... مِ عَنِ الخُصُومِ كَثِيرَةَ الـهَذَيَانِ

٤٣٥٦- فَحَكَوْا بِـمَا ظَنُّـوهُ يَلْـزَمُهُمْ فَقَـا ... لُـوا ذَاكَ مَـذْهَبُهُمْ بِـلا بُرْهَـانِ

٤٣٥٧- كَـذَبُوا عَلَـيْهِمْ بَـاهِتِينَ لَـهُمْ بِـمَا ... ظَنُّـوهُ يَلْـزَمُهُمْ مِـنَ البُهْتَـانِ

٤٣٥٨- فَحَكَى المُعَطِّلُ عَنْ أُولِي الإِثْبَاتِ قَـوْ ... لَـهُمُ بِـأَنَّ اللهَ ذُو جُـثْمَانِ

٤٣٥٩- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَـالُوا بِـأَنْ ... نَ اللهَ لَـيْسَ يُـرَى لَنَـا بِعِيَـانِ

٤٣٦٠- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَـالُوا يَجُـو ... زُ كَلامُـهُ مِـنْ غَـيْرِ قَصْـدِ مَعَـانِي

٤٣٦١- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا بِتَحْـ ... ـيِيزِ الإِلَـهِ، وَحَصْـرِهِ بِمَكَـانِ

٤٣٦٢- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ الْـ ... أَعْضَـاءُ جَـلَّ اللهُ عَـنْ بُهْتَـانِ

٤٣٦٣- وَحَكَى المُعَطِّلُ أَنَّ مَذْهَبَهُمْ هُـوَ التْـ ... ـتَشْبِيهُ لِلْخَـلَّاقِ بِالإِنْسَـانِ

٤٣٦٤- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ عَنْهُمُ مَا لَـمْ يَقُو ... لُـوهُ وَلا أَشْـيَاخُهُمْ بِلِسَـانِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ مهمٌّ جدًّا: هل لازمُ المذهبِ مذهبٌ؟

والجوابُ: إذا كان القائلُ عارفًا بلوازمِ كلامِه فإنَّها حقٌّ، وتُعْتَبَرُ من قولِه.

لكن مَن الذي يعرفُ بلوازمِ كلامِه؟

الجوابُ: هو اللهُ ورسولُه.

ولهذا نقولُ: لوازمُ الكتابِ والسُّنَّةِ من الكتابِ والسُّنَّةِ؛ إِلَّا أَنَّه يُشْكِلُ على هذا أنَّ الرَّجُلَ قد يظنُّ هذا لازمًا وليس بلازمٍ، فالمعطِّلةُ الآن يَرَوْنَ أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ يلزمُ منه التَّمثيلُ، فيقولون لأهلِ الإثباتِ: لازمُ إثباتِكم للصفاتِ أنَّ اللهَ

مماثلٌ للعبادِ، وهذا منهم إمَّا أن يكونَ ظنًّا، وإمَّا أن يكونَ عدوانًا.

إذَنْ إذا قال نافي الصِّفاتِ للمُثبتِ لها: يلزمُك من إثباتِ هذه الصِّفةِ أن يكونَ اللهُ مماثلًا للخلقِ، وهي موجودةٌ في القرآنِ، هل نلتزمُ بهذا؟

فالجوابُ: لا، بل نقولُ: هذا لازمٌ عند فَهْمِك.

لكن إذا قال قائلٌ: إنَّ اللهَ تعالى خالقُ كُلِّ شيءٍ، فهل يلزمُ أن يكونَ عالمًا بأحوالِ العبادِ؟

فالجوابُ: نعم، لأنَّه لا خَلْقَ إلَّا بعلمٍ، ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

أمَّا غيرُ الكتابِ والسُّنَّةِ من أقوالِ العلماءِ، فهل لازمُ المذهبِ مذهبٌ؟

والجوابُ: لا، إلَّا لعارفٍ، لكن لنا أن نُلْزِمَ هذا المتمَذْهِبَ بالرُّجوعِ عن مذهبِه بذِكرِ لازمِه، ولا نقولُ: يقولُ بكذا.

٤٣٤٣- وَلَوَازِمُ الْمَعْنَى تُرَادُ بِذِكْرِهِ ... مِنْ عَارِفٍ بِلُزُومِهَا الْحَقَّانِي

أوَّلًا: هل لازمُ الكلامِ ملزومٌ للقائلِ أو لا؟ يقولُ ابنُ القيِّمِ رحمه الله: إنَّه لا يُلْزَمُ القائلُ بلازمِ كلامِه إلَّا إذا كان عارفًا باللَّازمِ، فيحتاجُ إلى مسألتين: أن يُقِرَّ بأنَّه من اللَّازمِ، وأن يعرفَ أنَّه من اللَّازمِ، فإذا أَقَرَّ به وقد عرفه صار هذا اللَّازمُ قولًا له، بشرط أن يعترفَ بأنَّه لازمٌ، أمَّا إذا منع فسيأتي -إن شاء اللهُ تعالى- الكلامُ عليه.

٤٣٤٤- وَسِوَاهُ لَيْسَ بِلَازِمٍ فِي حَقِّهِ ... قَصْدُ اللَّوَازِمِ وَهْيَ ذُو تِبْيَانِ

فسوى الله ورسولِه وسوى العارفِ بكلامِه، «**لَيْسَ بِلَازِمٍ فِي حَقِّه قَصْدُ**

اللَّوَازِمِ، وَهْيَ ذُو تِبْيَانِ»، وفي نسخة: «ذَاتُ بَيَانِ»؛ يعني: سوى مَنْ لا يعرفُ لازمَ كلامِه لا يكونُ لازمًا له، أما لماذا؟ فقال:

٤٣٤٥- إِذْ قَدْ يَكُونُ لُزُومُهَا المَجْهُولَ، أَوْ قَـدْ كَـانَ يَعْلَمُـهُ بِـلا نُكْـرَانِ

٤٣٤٦- لَكِـنْ عَرَتْـهُ غَفْلَـةٌ بِلُزُومِهَـا إِذْ كَـانَ ذَا سَـهْوٍ وَذَا نِسْـيَانِ

يقول: ليس بلازمٍ قَصْدُ اللَّوازمِ، وبَيَّنَ السَّببَ فقال: «إِذْ قَدْ يَكُونُ لُزُومُهَا المَجْهُولَ»؛ يعني: مجهولًا له، إذ قد يكونُ اللَّازمُ مجهولًا للمتكلِّمِ؛ يعني: لم يظنَّ أنَّه يلزمُ من كلامِه هذا المعنى، ولو ظنَّ لرجع عن قولِه، مثلًا لو قال: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- بذاتِه في كُلِّ مكانٍ، يلزمُ على هذا القولِ أن يكونَ اللهُ في المواضعِ القذرةِ، وأنْ يكونَ متجزِّئًا، وأن يكونَ متعدِّدًا، ولا شكَّ أنَّ هذا اللَّازمَ باطلٌ، فهل هذا يُعْتَبَرُ قولًا لِـمَنْ قال: إنَّ اللهَ بذاتِهِ في كُلِّ مكانٍ؟

يُنْظَرُ؛ فإذا كان قد عرف أنَّ هذا لازمُ قولِه والتزمه صار قولًا له وإن لم ينطق به، وإن كان لا يعلمُ أنَّه لازمُ قولِه؛ بأن يكونَ قد غفل أو جَهِلَ أو نَسِيَ أو امتنع من أن يكونَ لازمًا، قال: أبدًا، هذا لا يلزمُ أن يكونَ في القاذوراتِ وغيرِها، فإنَّه لا يكونُ قولًا له؛ ولهذا إذا تكلَّم العلماءُ على أحدٍ قال قولًا خاطئًا يلزمُ على قولِه شيءٌ باطلٌ، لم يجعلوا هذا اللَّازمَ قولًا له؛ ولهذا يقولون: يلزمُ من هذا القولِ، ولا يقُولون: هذا اللَّازمُ قولٌ للقائلِ؛ لوجوهٍ ثلاثةٍ:

الوجه الأوَّل: لأنَّه قد يكونُ جاهلًا بهذا اللَّازمِ، وإذا كان جاهلًا به كيف يُقَالُ: إنَّه من أقوالِه؟!

الوجه الثَّاني: قد تكونُ اعترَتْه غفلةٌ ونسيانٌ؛ يعني: يعلم أنَّه يلزمُ لكن نَسِيَ، فكيف نقولُ: إنَّ الرَّجُلَ النَّاسيَ لهذا اللازمِ يُجْعَلُ اللَّازمُ قولًا له؟! وأنتم أحيانًا قد

تمرُّ بكم نصوصٌ فتستحضِرون لها معانيَ، وتستفيدون منها فوائدَ، فإذا مَرَّت بكم أخرى وجدتم أنفسَكم قد نسيتم أو غفلتم.

الوجه الثَّالث: قد يمنعُ هذا اللَّازمَ، ويقولُ: لا يلزمُ على قولي كذا وكذا، وحينئذٍ لا يكونُ قولًا له.

فما دامت الاحتمالاتُ الثَّلاثةُ واردةً على اللَّازمِ؛ فإنَّه لا يُجْعَلُ لازمُ القولِ قولًا لقائلِه كما سيأتي.

٤٣٤٧- وَلِذَاكَ لَـمْ يَكُ لازِمًا لِـمَذَاهِبِ الْـ ... ـعُلَمَاءِ مَـذْهَبُهُمْ بِـلا بُرْهَـانِ

يعني: ما كان لازمًا من أقوالِ العلماءِ فلي من مذاهبِهم، فإذا كان يلزمُ على قولِ هذا العالِـمِ كذا، فليس قولًا له، وإذا كان يلزمُ على هذا المذهبِ كذا، فليس مذهبًا، حتَّى يُورَدَ هذا اللَّازمُ على القائلِ، ثُمَّ يقول: نعم، هذا يلزمُ على قولِي وأنا مُلْتَزِمٌ به، فحينئذٍ يكونُ اللَّازمُ قولًا.

فصار لازمُ القولِ ليس بقولٍ إلَّا إذا عرفه القائلُ والتزم به؛ فإن لم يَعْرِفْه فليس له بقولٍ، وإن عرفه وردَّه، فقال: «**لا يلزمُ من قولي كذا وكذا**» فليس بقولٍ له.

فإذا قال قائلٌ: إذا كنَّا نجهلُ: هل الرَّجُلُ الذي قال هذا القولَ يعلمُ أنَّ قولَه يستلزمُ هذا القولَ أو لا يعلمُ؟ فالأصلُ أنَّه لا يعلمُ؛ لأنَّ الأصلُ عدمُ العلمِ، والأصلُ عدمُ التزامِه.

٤٣٤٨- فَالـمُقْدِمُونَ عَلَى حِكَايَـةِ ذَاكَ مَـذْ ... هَـبُهُمْ أُولُـو جَهْـلٍ مَـعَ العُـدْوَانِ

يعني: المُقْدِمُون على أن يحكوا لازمَ القولِ قولًا هؤلاء جُهَّالٌ وذوو عدوانٍ؛

لأنَّ القائلَ إذا أُورِدَ عليه اللَّازمُ فإنْ قَبِلَهُ والتزمه فهو قولٌ له، وإن ردَّه وأنكره وقال: «**هذا لا يلزمُ**» فليس قولًا له.

فإن قال قائلٌ: هذه الأقوالُ المُنْكَرَةُ في بابِ الصِّفاتِ وغيرِها إذا كان يلزمُ عليها لوازمُ باطلةٌ لماذا لم يرجع عنها أصحابُها؟

نقولُ: هل عندك علمٌ أنَّها بَلَغَتْهُم؟ لا، ما ندري، رُبَّما كانوا لا يُلْزَمُونَ بها، وكانوا قد جهلوا هذا اللَّازمَ أو نسوه، وكثيرًا ما يُقَالُ للقائِلِ: إنَّه يلزمُ من كلامِك كذا وكذا، ثُمَّ يرجعُ إذا عَلِمَ أنَّ اللَّازمَ باطلٌ فإنَّ الملزومَ باطلٌ عند العقلاءِ كُلِّهم.

٤٣٤٩- لا فَـرْقَ بَـيْنَ ظُهُـورِهِ وَخَفَائِـهِ ... قَـدْ يَـذْهَلُونَ عَـنِ اللُّـزُومِ الـدَّانِي

يعني: أنَّ الذين يُقْدِمونَ على حكايةِ اللَّازمِ أنَّه مذهبٌ للقائلِ لا يُفَرِّقون بين اللَّازمِ الظَّاهرِ واللَّازمِ الخفيِّ؛ لأنَّ اللَّوازمَ -كما تعلمون- قد تكونُ ظاهرةً، فلو قلت: «**صَنَعَ فلانٌ البابَ**»، فاللَّازمُ ممَّن صنعه أن يكونَ قادرًا، وأن يكونَ عالمًا، وأن يكونَ عنده موادُّ.

إذَنْ نقولُ: هذا الذي صَنَعَ البابَ عنده قدرةٌ بدنيَّةٌ، وقدرةٌ فكريَّةٌ، وقدرةٌ ماليَّةٌ، من أين عرفنا ذلك؟ الجوابُ: من أنَّه لا يمكنُ صنعُ البابِ إلَّا بهذا، وهذا ظاهرٌ، وقد يكونُ اللُّزومُ خفيًّا لا يُدْرِكُه كُلُّ أحدٍ، فكونُنا لا نفرِّقُ بين الخفيِّ والظَّاهرِ لا شكَّ أنَّه زورٌ؛ ولهذا قال: «**لَا فَرْقَ بَيْنَ ظُهُورِهِ وَخَفَائِهِ**» حيث يجعلون لازمَ المذهبِ مذهبًا، «**قَدْ يَذْهَلُونَ عَنِ اللُّزُومِ الدَّانِي**»، و«**الدَّانِي**»؛ يعني: القريب.

٤٣٥٠- سِـيَمَا إِذَا مَـا كَـانَ لَـيْسَ بِـلازِمٍ ... لَكِـنْ يَظُـنُّ لُزُومَـهُ بِجَنَـانِ

قَوْلُهُ: «**سِيَما**» بمعنى: لَا سِيَّما.

قَوْلُهُ: «إِذَا مَا كَانَ لَيْسَ بِلَازِمٍ» «مَا» هنا زائدةٌ، ويقولُ القائلُ:

يَـا طَالِـبًا خُـذْ فَائِـدَهْ بَعْـدَ (إِذَا) (مَـا) زَائِـدَهْ[1]

فإذا جاءت «مَا» بعد «إِذَا» فهي زائدةٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشُّورى:٣٧]؛ أي: إذا غضبوا، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [فصِّلت:٢٠]؛ يعني: حتَّى إذا جاؤوها، وهنا يقولُ المؤلِّفُ رحمه الله: «سِيمَا إِذَا مَا كَانَ لَيْسَ بِلَازِمٍ»؛ يعني: سيما إذا كَانَ ليس بلازمٍ.

قَوْلُهُ: «بِجَنَانِ» الجَنَانُ؛ أي: القلب.

٤٣٥١- لا تَشْـهَدُوا بِـالزُّورِ وَيْحَكُـمُ عَـلَى مَـا تَلْزَمُـونَ شَـهَادَةَ البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «لَا تَشْهَدُوا بِالزُّورِ» الخطابُ لمن أَلْزَمَ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ لوازمَ غير لازمةٍ لهم، مثاله: قالوا: إنَّكم لو أثبتُّم أنَّ اللهَ مُستوٍ على العرشِ لَزِمَ أن يكونَ محدودًا؛ لأنَّ المستويَ على المحدودِ محدودٌ، نقولُ: لا يلزمُنا هذا.

إذا قالوا: إنَّكم إذا أثبتُّم الوجهَ واليدين لَزِمَكُم أن تُثْبِتُوا أنَّ اللهَ جسمٌ مُرَكَّبٌ من أعضاء، نقولُ: لا يلزمُ؛ لأنَّ اللهَ ليس كمثلِه شيءٌ، وإذا كان يُقَالُ: وجهُ الثَّور لمستقبلِه، ونعلم أنَّه ليس كقولنِا: وجه الإنسان، وإذا كان اللهُ يقولُ عن بعض بني إسرائيلَ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران:٧٢] فقال: ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾، فجعل للنَّهارِ وجهًا، ومعلومٌ أنَّ وجهَ النَّهارِ؛ يعني: مستقبلَه.

٤٣٥٢- بِخِـلافِ لازِمِ مَـا يَقُـولُ إِلَـهُنَا وَنَبِيُّنَـا المَعْصُـومُ بِالبُرْهَـانِ

يعني: فإنَّه مُعْتَبَرٌ ولازمٌ.

---

(١) ذكره في فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية (ص:١٧٢) بدون قائل.

٤٣٥٣- فَلِـذَا دَلالاتُ النُّصُـوصِ جَلِيَّـةٌ وَخَفِيَّـةٌ تَخْفَـى عَـلَى الأَذْهَـانِ

يعني: أنَّ دلالةَ النُّصوصِ على اللَّازمِ تجعلُ اللَّازمَ حُكْمًا ثابتًا، فإذا كان يلزمُ من هذا النَّصِّ كذا وكذا فهو لازمٌ، وهو حقٌّ ولا يمكنُ إنكارُه، لكن الذي يجبُ هنا هو التَّوقُّفُ: هل هذا لازمٌ أو ليس بلازمٍ؛ لأنَّ النَّاسَ يختلفون في فَهْمِ اللَّازمِ اختلافًا كثيرًا، فقد يقولُ قائلٌ: هذا لازمٌ، لهذا وليس بلازمٍ، وقد يكونُ هذا لازمًا للكلامِ، ولكن لم يُدْرِكْه أحدٌ إلَّا واحدٌ من اثنين مثلًا؛ ولهذا يقولُ المؤلِّفُ رحمه الله: «فَلِذَا دَلَالَاتُ النُّصُوصِ جَلِيَّةٌ وَخَفِيَّةٌ»؛ يعني: دلالاتُ النُّصوصِ جليَّةٌ واضحةٌ، وهناك دلالاتٌ خفيَّةٌ تخفى على بعضِ النَّاسِ.

ونحن نضربُ مثلًا لدلالةِ اللُّزومِ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [الطَّلاق:١٢] فيلزمُ من الخلقِ القدرةُ؛ لأنَّ غيرَ القادرِ لا يخلقُ، ويلزم أيضًا العلمُ؛ لأنَّ غيرَ العالمِ لا يخلقُ، ويلزم منه الحياةُ؛ لأنَّ غيرَ الحيِّ لا يخلقُ، ويلزم له الإرادةُ؛ لأنَّه لا فعلَ إلَّا بإرادةٍ.

واللَّوازمُ يختلفُ فيها النَّاسُ اختلافًا كثيرًا، وبعضُها قريبٌ وبعضُها بعيدٌ.

٤٣٥٤- وَاللهُ يَـرْزُقُ مَـنْ يَشَـاءُ الفَهْـمَ في آيَاتِـهِ رِزْقًـا بِـلا حُسْـبَانِ

وصَدَقَ رحمه اللهُ، فقد يرزقُ اللهُ الإنسانَ فَهْمًا في كلامِه فَهْمًا لا نظيرَ له، وقد يكونُ الأمرُ بالعكسِ.

٤٣٥٥- وَاحْذَرْ حِكَايَاتٍ لأَرْبَـابِ الكَـلا مِ عَنِ الـخُصُومِ كَثِيرَةَ الـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «احْذَرْ حِكَايَاتٍ لأَرْبَابِ الكَلَامِ»؛ يعني: المتكلِّمين.

قَوْلُهُ: «عَنِ الـخُصُومِ»؛ يعني بهم: أهلَ السُّنَّةِ.

٤٣٥٦- فَحَكَــوْا بِــمَا ظَنُّــوهُ يَلْــزَمُهُمْ فَقَــا لُــوا ذَاكَ مَــذْهَبُهُمْ بِــلا بُرْهَــانِ

حَكَوْا عن أهلِ السُّنَّةِ ما يظنُّونه لازمًا لمذهبِهم، فقالوا: هذا مذهبُهم، كما قالوا: (يقولُ أهلُ السُّنَّة: إنَّ اللهَ له أعضاءٌ، وله أجزاءٌ، وأنَّه يتحرَّكُ، وأنَّه يُبْصِرُ شيئًا ولا يُبْصِرُ آخَرَ... إلخ)، فيُوهِّمون على العامَّةِ، ويظنُّون أنَّ هذا هو المذهبُ الصَّحيحُ.

٤٣٥٧- كَـذَبُوا عَلَـيْهِمْ بَـاهِتِينَ لَـهُمْ بِـمَا ظَنُّـوهُ يَلْـزَمُهُمْ مِـنَ البُهْتَـانِ

فهل يلزمُنا نحن إذا أَثْبَتْنَا لله وجهًا وعينًا ويدًا وقَدَمًا أن نكونَ قد مثَّلنا؟

الجوابُ: أبدًا، لا يلزمُ.

وهم يقولون: أنتم ممثِّلةٌ، وهل يلزمُنا أن نقولَ بالتَّجسيمِ؟

الجوابُ: لا يلزمُنا، لكن هم يقولون: أنتم مُجسِّمةٌ.

وهل يلزمنا أن نقولَ: إنَّ اللهَ له أعضاءٌ؟

الجوابُ: لا، لا يلزمُنا، وهم يقولون: إنَّكم ممثِّلةٌ تقولون بهذا.

٤٣٥٨- فَحَكَى المُعَطِّلُ عَنْ أُولِي الإِثْبَاتِ قَـوْ لَــهُمُ بِــأَنَّ اللهَ ذُو جُــثْمَانِ

وهذا من الكذبِ، وقوله: «الجُثْمان»؛ يعني: الجسمَ، يقولُ: إنَّكم تقولون أنتم المُثْبِتَة: إنَّ اللهَ تعالى له سمعٌ، وبصرٌ، ويدٌ، ووجهٌ، إلى آخرِه، وهذا يلزمُ أن يكونَ جسمًا؛ فأنتم مُجسِّمةٌ ومُجَثِّمَةٌ.

٤٣٥٩- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَـالُوا بِـأَنْ نَ اللهَ لَـيْسَ يُـرَى لَنَـا بِعِيَـانِ

يقولُ المعطِّلةُ: إنَّ أهلَ السُّنَّة يقولون: «إنَّ اللهَ لا يُرَى بِعِيانٍ»، وهذا كذبٌ

عليهم، هم يقولون: إنَّ اللهَ يُرَى بالعِيانِ، ومَنْ أنكر الرُّؤيةَ فهو على خطرٍ، ورُبَّما أطلق بعضُهم عليه الكفرَ.

٤٣٦٠- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَـالُوا يَجُـو ... زُ كَلامُـهُ مِـنْ غَـيْرِ قَصْـدِ مَعَـانِي

معناه: يجوزُ أن يتكلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ من غيرِ أن يقصدَ المعنى؛ ولهذا فَصَلُوا اللَّفظَ عن المعنى؛ فمنهم مَنْ قَالَ: إنَّ الكلامَ هو المعاني فقط، ومنهم مَنْ قال: إنَّ الكلامَ هو الألفاظُ فقط، ولكنَّ الكلامَ عند أهل السُّنَّةِ هو اللَّفظُ والمعنى جميعًا.

٤٣٦١- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا بِتَحْـ ... ـيِيزِ الإِلَـهِ، وَحَصْـرِهِ بِمَكَـانِ

ولم نَقُل بذلك، لكن هو يزعمُ أَنَّك إذا قلتَ: «إنَّ اللهَ استوى على العرشِ» لَزِمَ من ذلك أن يكونَ محدودًا محصورًا.

٤٣٦٢- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ الْـ ... أَعْضَـاءُ جَـلَّ اللهُ عَـنْ بُهْتَـانِ

قالوا ذلك لأنهم أثبتوا لله اليدَ، والوجهَ، والعينَ، والسَّاقَ، فقالوا: إذَنْ أنتم مَثَّلْتُم اللهَ عزَّ وجلَّ، فأنتم ممثِّلَةٌ.

٤٣٦٣- وَحَكَى المُعَطِّلُ أَنَّ مَذْهَبَهُمْ هُـوَ التَّـ ... ـشْبِيهُ لِلْخَـلَّاقِ بِالإِنْسَـانِ

على زعمِهم أنَّ مَنْ أَثْبَتَ لله صفةً فهو مُشَبِّهٌ.

٤٣٦٤- وَحَكَى الـمُعَطِّلُ عَنْهُمُ مَا لَـمْ يَقُو ... لُـوهُ وَلا أَشْـيَاخُهُمْ بِلِسَـانِ

ولكنَّه كذِبٌ، يحكي عنهم أشياءَ ما قالوها، وليس لها أصلٌ عندهم، ومع ذلك يقولُ: إنَّهم يقولون بهذا اللَّازمِ الباطلِ على زعمِه أنَّه لازمٌ.

* * *

٤٣٦٥- ظَـنَّ المُعَطِّـلُ أَنَّ هَـذَا لازِمٌ ... فَلِـذَا أَتَـى بِـالزُّورِ وَالعُـدْوَانِ

٤٣٦٦- فَعَلَيْـهِ فِي هَـذَا مَحَـاذِيرٌ ثَـلا ... ثٌ، كُلُّهَـا مُتَحَقِّـقُ الـبُطْلانِ

٤٣٦٧- ظَـنُّ اللُّـزُومِ وَقَـذْفُهُمْ بِلُزُومِـهِ ... وَتَمَـامُ ذَاكَ شَـهَادَةُ الكُفْـرَانِ

٤٣٦٨- يَا شَاهِدًا بِالزُّورِ وَيْلَكَ لَـمْ تَخَـفْ ... يَـوْمَ الشَّـهَادَةِ سَـطْوَةَ الـدَّيَّانِ

٤٣٦٩- يَـا قَائِـلَ البُهْتَـانِ غَـطِّ لَوَازِمًـا ... قَـرَّرْتَ مَلْزُومَاتِهَـا بِبَيَـانِ

٤٣٧٠- وَاللهِ لازِمُهَـا انْتِفَـاءُ الـذَّاتِ وَالْـ ... أَوْصَـافِ وَالأَفْعَـالِ لِلـرَّحْمَنِ

٤٣٧١- وَاللهِ لازِمُهَـا انْتِفَـاءُ الـدِّينِ وَالْـ ... قُـرْآنِ وَالإِسْـلامِ وَالإِيـمَانِ

٤٣٧٢- وَلُـزُومُ ذَلِـكَ بَـيِّنٌ جِـدًّا لِـمَنْ ... كَانَـتْ لَـهُ أُذُنَـانِ وَاعِيَتَـانِ

٤٣٧٣- وَاللهِ لَـوْلا ضِيقُ هَـذَا الـنَّظْمِ بَيْـ ... ـيَنْتُ اللُّـزُومَ بِأَوْضَـحِ التِّبْيَـانِ

٤٣٧٤- وَلَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْـهُ مَـا يَكْفِـي لِـمَنْ ... كَانَـتْ لَـهُ عَيْنَـانِ نَاظِرَتَـانِ

٤٣٧٥- إِنَّ الـذَّكِيَّ بِـبَعْضِ ذَلِـكَ يَكْتَفِـي ... وَأَخُـو الـبَلادَةِ سَـاكِنُ الـجَبَّانِ

الشرحُ

٤٣٦٥- ظَـنَّ المُعَطِّـلُ أَنَّ هَـذَا لازِمٌ ... فَلِـذَا أَتَـى بِـالزُّورِ وَالعُـدْوَانِ

قَوْلُهُ: «ظَنَّ المُعَطِّلُ أَنَّ هَذَا لَازِمٌ» المُشَارُ إليه: ما رَمَاهُمْ به من التَّشبيهِ وغيرِه.

قَوْلُهُ: «فَلِذَا أَتَى بِالزُّورِ وَالعُدْوَانِ»؛ يعني: أنَّ المعطِّلَ قد يكونُ لمزُه لأهلِ السُّنَّةِ بأنَّهم مُشَبِّهةٌ قد يكونُ ذلك حقيقةً، وقد يكونُ على سبيلِ العدوانِ؛ فلهذا

يقولُ رحمه الله:

٤٣٦٦- فَعَلَيْـــهِ فِي هَـــذَا مَحَـــاذِيرُ ثَـــلا ثٌ، كُلُّهَـــا مُتَحَقِّـــقُ الــبُطْلانِ

٤٣٦٧- ظَـــنُّ اللُّـــزُومِ وَقَـــذْفُهُمْ بِلُزُومِـــهِ وَتَمَـــامُ ذَاكَ شَـــهَادَةُ الكُفْـــرَانِ

الأوَّل: «ظنُّ اللُّزومِ».

الثَّاني: «قَذْفُهم بلزومِه»، حيث قالوا: إنَّه يلزمُ على قولِكم كذا وكذا، ويلزمُ على قولِكم تشبيهٌ، فأنتم وقعتم في الحرامِ، فهذا رميهم بهذا اللَّازمِ على زعمِهم، وهم منه براء.

الثَّالث: «شَهَادَةُ الكُفْرَانِ»؛ يعني: شهادتهم بأنَّهم كفروا؛ لأنَّهم يدَّعون أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ يستلزمُ التَّشبيهَ والتَّجسيمَ، وأنَّ التَّشبيهَ والتَّجسيمَ كفرٌ.

فقالوا لأهلِ السُّنَّةِ: أنتم كُفَّارٌ؛ لأنَّكم تمثِّلونَ اللهَ بخلقِه، فتجعلون الخلقَ يعبدون صنمًا، فأنتم كُفَّارٌ، سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ! يعني: هم الذين كذَّبوا اللهَ ورسولَه؛ لكن ليس تكذيبًا صريحًا، وإلَّا لضربنا أعناقَهم، ثُمَّ يُكفِّرون أهلَ السُّنَّةِ.

٤٣٦٨- يَا شَاهِدًا بِالزُّورِ وَيْلَكَ لَـمْ تَخَـفْ يَـــوْمَ الشَّـــهَادَةِ سَـــطْوَةَ الـــدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «الدَّيَّانِ» هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

٤٣٦٩- يَـــا قَائِـــلَ البُهْتَـــانِ غَـــطِّ لَوَازِمًـــا قَـــرَّرْتَ مَلْزُومَاتِهَـــا بِبَيَـــانِ

يعني: غَطِّ أنتَ اللَّوازمَ التي تفضحُك، فإنَّها أشدُّ من اللَّوازمِ التي نَسبْتَها لنا.

٤٣٧٠- وَاللهِ لازِمُهَـــا انْتِفَـــاءُ الـــذَّاتِ وَالْـــ أَوْصَـــافِ وَالأَفْعَـــالِ لِلـــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَاللهِ...» أَقْسَمَ رحمه اللهُ على هذه اللَّوازمِ.

قَوْلُهُ: «لَازِمُهَا انْتِفَاءُ الذَّاتِ وَالأَوْصَافِ وَالأَفْعَالِ لِلرَّحْمَنِ»؛ يعني: أنَّ ما قلته من النَّفي والتَّعطيلِ من لازمِه انتفاءُ ذاتِ الله، وانتفاءُ أوصافِه، وانتفاءُ أفعالِه.

إذا قالوا: إنَّه -سبحانه وتعالى- ليس تحتَ العالمِ، وليس فوقَ العالمِ، ولا يمينَه، ولا شمالَه، ولا متَّصلًا بالعالَـمِ، ولا منفصلًا عن العالمِ، فلو قالُوا بذاك لكن معناه العَدَمُ، وهذا انتفاءُ الذَّاتِ، وهم لم يُقِرُّوا بذلك.

وانتفاءُ الأوصافِ واضحٌ، فهم يصرِّحون بأنَّ اللهَ تعالى لا صفةَ له.

الثَّالث: انتفاءُ الأفعالِ، فهم يُنكرون أنَّ اللهَ يستوي على العرشِ، أو ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، أو يأتي للقضاءِ بين عبادِه، أو يفرحُ، أو يضحكُ، أو يعجب، فكُلُّ هذا مُنتفٍ عن الله عزَّ وجلَّ عندهم، فنَفَوا الأفعالَ.

٤٣٧١- وَاللهِ لازِمُهَا انْتِفَاءُ الدِّينِ وَالْـ ... قُرْآنِ وَالإِسْلامِ وَالإِيمَانِ

إذَنْ قولُ هؤلاءِ يلزمُ منه هذه اللَّوازمُ الباطلةُ التي فيها انتفاءُ ذاتِ الله وصفاتِه وأفعالِه وكلامِه والإسلامِ والإيمانِ، كُلُّ شيءٍ ينتفي؛ لأنَّ تعطيلَهم يؤدِّي إلى أنَّه ليس في الوجودِ إلهٌ يُعبَدُ ولا يُرْكَعُ له ويُسْجَدُ، وهذا أعظمُ ما يكونُ من التَّعطيلِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٤٣٧٢- وَلُزُومُ ذَلِكَ بَيِّنٌ جِدًّا لِمَنْ ... كَانَتْ لَهُ أُذْنَانِ وَاعِيَتَانِ

٤٣٧٣- وَاللهِ لَوْلا ضِيقُ هَذَا النَّظْمِ بَيْـ ... ـيَنْتُ اللُّزُومَ بِأَوْضَحِ التِّبْيَانِ

ولكن أحالنا -رحمه الله- على أنْ ننظرَ نحن بأنفسِنا، وننظرَ هذه اللَّوازمَ.

فإذا قال قائلٌ: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- لا يُوصَفُ بوجودٍ ولا عَدَمٍ، ولا سمعٍ ولا بصرٍ، ولا صممٍ ولا عمى، ولا أنَّه فوق العالمِ ولا تحته، فماذا يكونُ

هذا غيرَ العدمِ المحضِ، بل هو المستحيلُ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يُوجَدَ شيءٌ لا يُوصَفُ بوجودٍ ولا عَدَمٍ، فكُلُّ شيء فهو إمَّا موجودٌ وإمَّا معدومٌ، دعونا من الحياة والموت؛ فقد يقولُ قائلٌ: الحياةُ والموتُ لا يُوصَفُ بهما إلَّا الحيوانُ بخلافِ غيرِه كالجمادِ والحجرِ، فالحجرُ لا يُوصَفُ بحياةٍ ولا موتٍ.

ولذا نقولُ: الوجودُ والعدمُ لا مفرَّ منهما، لا يمكنُ أن يُوصَفُ شيءٌ بأنَّه لا موجودٌ ولا معدومٌ، إذا نَفَيْتَ وجودَه لَزِمَ أن يكونَ معدومًا، وإذا نَفَيْتَ عَدَمَه لَزِمَ أن يكونَ موجودًا.

٤٣٧٤- وَلَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْهُ مَا يَكْفِي لِمَنْ ... كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ

قَوْلُهُ: «**تَقَدَّمَ**»؛ يعني: في كلامِ المؤلِّفِ في هذه القصيدةِ.

قَوْلُهُ: «**مَا يَكْفِي**»؛ أي: ما يكفي في الرَّدِّ على هؤلاء وبيانِ لوازِمِهم الباطلة.

٤٣٧٥- إِنَّ الذَّكِيَّ بِبَعْضِ ذَلِكَ يَكْتَفِي ... وَأَخُو البَلَادَةِ سَاكِنُ الجَبَّانِ

الذَّكيُّ هو الذي يفهمُ بسرعةٍ ويعرفُ، والبليدُ هو الذي لا يفهمُ كالحمارِ، سَاكِنُ الجَبَّانِ؛ أي: ساكنُ المقابرِ، فهو ميِّتٌ، فأخو البلادةِ مَيِّتٌ لا ينفعُه شيءٌ.

***

٤٣٧٦- يَا قَوْمَنَا اعْتَبِرُوا بِجَهْلِ شُيُوخِكُمْ ... بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ وَالقُرْآنِ

٤٣٧٧- أَوَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ أَفْضَلِ وَقْتِهِ ... فِيكُمْ مَقَالَةَ جَاهِلٍ فَتَّانِ

٤٣٧٨- إِنَّ السَّمَاوَاتِ العُلَى وَالأَرْضَ قَبْـ ... ـلَ العَرْشِ بِالإِجْمَاعِ مَخْلُوقَانِ

٤٣٧٩- وَاللهِ مَا هَذِي مَقَالَةُ عَالِمٍ ... فَضْلًا عَنِ الإِجْمَاعِ كُلَّ زَمَانِ

٤٣٨٠- مَنْ قَالَ ذَا قَدْ خَالَفَ الإِجْمَاعَ وَالْـ ـــخَبَرَ الصَّـحِيحَ وَظَـاهِرَ القُـرْآنِ

٤٣٨١- فَـانْظُرْ إِلَى مَـا جَـرَّهُ تَأْوِيـلُ لَفْـ ـظِ «الإِسْتِوَاءِ» بِظَـاهِرِ الـبُطْلَانِ

٤٣٨٢- زَعَمَ المُعَطِّلُ أَنَّ تَأْوِيلَ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ بِالـخَلْقِ وَالإِقْبَالِ وَضْـعُ لِسَـانِ

٤٣٨٣- كَذَبَ الـمُعَطِّلُ لَيْسَ ذَا لُغَةَ الأُلَـى قَـدْ خُوطِبُـوا بِـالوَحْيِ وَالقُـرْآنِ

٤٣٨٤- فَأَصَـارَهُ هَـذَا إِلَى أَنْ قَـالَ: خَلْـ ـقُ العَرْشِ بَعْدَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

٤٣٨٥- يَهْنِيهِ تَكْذِيبُ الرَّسُـولِ لَـهُ وَإِجْـ ـمَاعِ الـهُدَاةِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

الشـرحُ

٤٣٧٦- يَا قَوْمَنَا اعْتَبِرُوا بِجَهْلِ شُيُوخِكُمْ بِحَقَـائِقِ الإِيـمَانِ وَالقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «يَا قَوْمَنَا» يُخَاطِبُ المعطِّلَةَ، ولا بأسَ أن يُخَاطِبَ الإنسانُ بالقومِ؛ لأنَّ القومَ لفظٌ عامٌّ يشملُ المؤمنَ والكافرَ.

ثُمَّ ذكر قولًا غريبًا من أغربِ ما يكونُ فقال:

٤٣٧٧- أَوَمَا سَـمِعْتُمْ قَـوْلَ أَفْضَـلِ وَقْتِـهِ فِـيكُمْ مَقَالَـةَ جَاهِـلٍ فَتَّـانِ

ما هذه المقالةُ؟ قال:

٤٣٧٨- إِنَّ السَّمَاوَاتِ العُـلَى وَالأَرْضَ قَبْـ ـلَ العَـرْشِ بِالإِجْمَـاعِ مَخْلُوقَـانِ

يقولُ: السَّماواتُ والأرضُ مخلوقان قبل العرشِ بالإجماعِ، وهذا مقالُ جاهلٍ، بل مقالُ أجهل من حمارِه، لكن لماذا قال هذا الكلامَ؟ لأنَّه قيل له: إذا قلت: إنَّ «استوى» بمعنى مَلَكَ واستولى، لَزِمَ أن يكونَ العرشُ قبل خلقِ السَّماوات

والأرضِ مملوكًا لغيرِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤]، إذَنْ ما دام هذا هو اللَّازمُ قال: إنَّ العرشَ خُلِقَ بعد خلقِ السَّماوات والأرضِ، فيكون معنى الآية -على رأيه- أنه -سبحانه وتعالى- خَلَقَ السَّماوات والأرضَ، ثُمَّ خَلَقَ العرشَ فاستولى عليه، ومع هذا يقولُ: هذا بالإجماعِ، وهو أفضلُ أهلِ وقتِهِ في زمانِه(١).

قال ابنُ القيِّم رحمه اللهُ:

٤٣٧٩- وَاللهِ مَا هَـذِي مَقَالَـةُ عَالِـمٍ فَضْـلًا عَـنِ الإِجْمَـاعِ كُـلَّ زَمَـانِ

وهذا صحيحٌ، فواللهِ ما يقولُ هذا الكلامَ عالـمٌ، فضلًا عن أن يقولَ: هذا أَجْمَعَ النَّاسُ عليه من عهدِ الرَّسولِ إلى يومِهِ، فهو يدَّعِي أنَّ النَّاسَ منذ عهدِ الرَّسولِ إلى يومِهِ مجمعون على أنَّ خَلْقَ السَّماوات والأرضِ قبل خلقِ العرشِ.

٤٣٨٠- مَنْ قَالَ ذَا قَدْ خَالَفَ الإِجْمَاعَ وَالْـ ـخَبَرَ الصَّحِيحَ وَظَاهِرَ القُرْآنِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]؛ أي: عند خلقِ السَّماوات والأرضِ، إذَنْ ظاهرُ القرآنِ أنَّ العرشَ سابقٌ؛ ولهذا قال: «**فِي ظَاهِرِ القُرْآنِ**» ولم يقل: «**صَرِيحِ**»، أمَّا السُّنَّةُ فصريحةٌ في هذا أنَّ العرشَ مخلوقٌ قبل السَّماوات.

٤٣٨١- فَـانْظُرْ إِلَى مَـا جَـرَّهُ تَأْوِيـلُ لَفْـ ـظِ «الإِسْتِوَاءِ» بِظَـاهِرِ الـبُطْلَانِ

حيث قال: الاستواءُ بمعنى الاستيلاء.

(١) وهذا الذي هو أفضل أهل وقته: «فخر الدين أبو عبد الله الرازي».

٤٣٨٢- زَعَمَ المُعَطِّلُ أَنَّ تَأْوِيلَ ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ بِالـخَلْقِ وَالإِقْبَـالِ وَضْـعُ لِسَـانِ

زعم أنَّ تأويلَ «استوى» «**بالخَلْقِ وَالإِقْبَالِ وَضْعُ لِسَانِ**»؛ يعني: أنَّه وضعٌ لغويٌّ؛ أي: إنَّ اللُّغةَ يأتي فيها «استوى» بمعنى «**خَلَقَ**» و«**أَقْبَلَ**»، وهذا كذَّبه ابنُ القيِّم رحمه الله، فلا يأتي في اللُّغةِ «استوى» بمعنى «**أَقْبَلَ**»، ولكنْ وَرَدَ عن بعضِ علماءِ السُّنَّةِ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩] قال: إنَّ الاستواءَ هنا بمعنى القصد والإقبال، فإن صَحَّ هذا المعنى فإنَّ هناك فرقًا بين أن يتعدَّى «استوى» بـ«**عَلَى**»، أو يتعدَّى بـ«**إلى**»، والمقصودُ ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، لا يمكنُ أن يأتيَ في اللُّغةِ العربيَّةِ «استوى» المعدَّى بـ«**على**» بمعنى «**قَصَدَ**» أو «**أَقْبَلَ**»، لا يمكنُ هذا.

٤٣٨٣- كَذَبَ الـمُعَطِّلُ لَيْسَ ذَا لُغَةَ الأُلَـى قَـدْ خُوطِبُـوا بِـالوَحْيِ وَالقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «**الأُلَى**»؛ يعني: الذين.

قَوْلُهُ: «**قَدْ خُوطِبُوا بِالوَحْيِ وَالقُرْآنِ**» وهم الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

٤٣٨٤- فَأَصَـارَهُ هَـذَا إِلَى أَنْ قَـالَ: خَلْـقُ العَرْشِ بَعْدَ جَمِيعِ ذِي الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «**أَصَارَهُ هَذَا**» أَصَارَهُ بمعنى صَيَّرَه.

قَوْلُهُ: «**هَذَا**» المُشَارُ إليه؛ أي: تأويلُ «استوى» بـ«**استولى**».

المعنى: أصاره إلى أن يجعلَ خلقَ العرشِ بعد خلقِ السَّماوات والأرضِ؛ للعِلَّةِ التي أَشَرْنَا إليها أوَّلا، وهي أنَّه قيل له: إذا قلت «استوى» بمعنى «استولى» فَلِمَنْ يكونُ الاستيلاءُ قبل خلقِ السَّماوات والأرضِ على العرشِ؟ قال: إذَنْ أُعْرِضُ عن هذا، وأقولُ: إنَّ العرشَ خُلِقَ بعد السَّماواتِ والأرضِ، ولم أسمع

بهذه المقالة إلَّا اللَّيلةَ أنَّ أحدًا من العلماءِ الذين يُقَالُ: إنَّهم علماء، يقولون: إنَّ خَلْقَ العرشِ كان متأخِّرًا عن خلقِ السَّماواتِ والأرضِ، ما عَلِمْنَا بهذا، لكن نعوذُ بالله، فالقولُ الباطلُ يجرُّ إلى باطلٍ.

٤٣٨٥- يَهْنِيهِ تَكْذِيبُ الرَّسُولِ لَهُ وَإِجْـ ... ـمَاعِ الْهُدَاةِ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ

يعني أنَّ قولَه: إنَّ العرشَ مخلوقٌ بعد السَّماوات والأرضِ قد كَذَّبَه الرَّسولُ، وكذَّبَه إجماعُ الهُداةِ، وكَذَّبَه محكمُ القرآنِ.

قَوْلُهُ: «يَهْنِيهِ تَكْذِيبُ الرَّسُولِ لَهُ...»، وليس هذا تهنئةً، بل هذا هو التَّشقيةُ والعياذُ بالله، لكنَّه قال ذلك على سبيلِ التَّهكُّم به، والتَّهكُّمُ بالإنسانِ واردٌ حتَّى في القرآنِ؛ مثل قولِه تعالى في صاحبِ الجحيمِ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدُّخان:٤٩]، فهذا تهكُّمٌ به، فأين العِزَّةُ وأين الكرمُ وهو يُقَالُ له: ذُقْ هذا العذابَ؟ إذَنْ هو ليس عزيزًا ولا كريمًا، وإن كان بعضُ العلماءِ يقولُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدُّخان:٤٩]؛ يعني: في الدُّنيا؛ أي: فيما سَبَقَ، لكنَّ الأصلَ أنَّ الوصفَ يكونُ مطابقًا للموصوفِ حين خطابِه به، وهنا قال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدُّخان:٤٩].

* * *

فصــل

في الرَّدِّ عَلَيْهِمْ في تَكْفِيرِهِمْ أَهْلَ العِلْمِ وَالإِيمَانِ وَذِكْرِ انْقِسَامِهِمْ إِلَى أَهْلِ الجَهْلِ وَالتَّفْرِيطِ وَالبِدْعَةِ وَالكُفْرَانِ

٤٣٨٦- وَمِـنَ العَجَائِـبِ أَنَّكُـمْ كَفَّـرْتُمُ ... أَهْلَ الـحَدِيثِ وَشِيعَةَ القُرْآنِ

٤٣٨٧- إِذْ خَـالَفُوا رَأْيًـا لَـهُ رَأْيٌ يُنَـا ... قِضُـهُ؛ لِأَجْلِ الـنَّصِّ وَالبُرْهَـانِ

٤٣٨٨- وَجَعَلْتُمُ التَّكْفِيرَ عَيْنَ خِلافِكُمْ ... وَوِفَـاقَكُمْ فَحَقِيقَـةَ الإِيمَانِ

٤٣٨٩- فَوِفَـاقُكُمْ وَخِلافُكُـمْ مِيزَانُ دِيـ ... ـنِ الله، لا مَـنْ جَـاءَ بِـالقُرْآنِ

٤٣٩٠- مِيـزَانُكُمْ مِيـزَانُ بَـاغٍ جَاهِـلٍ ... وَالعَوْلُ كُلُّ العَوْلِ فِي الـمِيزَانِ

٤٣٩١- أَهْـوِنْ بِـهِ مِيـزَانُ جَـوْرٍ عَائِـلٍ ... بِيَـدِ الـمُطَفِّفِ، وَيْـلَ ذَا الـوَزَّانِ

٤٣٩٢- لَـوْ كَـانَ ثَـمَّ حَيَـا وَأَدْنَـى مُسْكَةٍ ... مِـنْ دِيـنٍ اَوْ عِلْـمٍ وَمِـنْ إِيمَانِ

٤٣٩٣- لَـمْ تَجْعَلُـوا آرَاءَكُـمْ مِيزَانَ كُفْـ ... ـرِ النَّـاسِ بِالبُهْتَـانِ وَالعُـدْوَانِ

٤٣٩٤- هَبْكُمْ تَـأَوَّلْتُمْ وَسَـاغَ لَكُـمْ أَيَكْـ ... ـفُرُ مَـنْ يُـخَالِفُكُمْ بِـلا بُرْهَـانِ

٤٣٩٥- هَذِي الوَقَاحَةُ وَالـجَرَاءَةُ وَالـجَهَا ... لَـةُ، وَيْحَكُـمْ يَـا فِرْقَـةَ الطُّغْيَـانِ

٤٣٩٦- اللهُ أَكْـبَرُ ذَا عُقُوبَـةُ تَـارِكِ الْـ ... ـوَحْيَيْنِ لِـلآرَاءِ وَالـهَذَيَانِ

٤٣٩٧- لَكِنَّنَـا نَـأْتِي بِحُكْـمٍ عَـادِلٍ ... فِـيكُمْ؛ لِأَجْـلِ مَخَافَـةِ الـرَّحْمَنِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ في الرَّدِّ عليهم في تكفيرِهم أهلَ العلمِ؛ لأنَّ أهلَ البدعِ والضَّلالِ ليس لهم سيرٌ ولا سلاحٌ إلَّا التَّكفيرُ والتَّشهيرُ؛ كما حَصَلَ من الخوارجِ وغيرِهم، حين خرجوا على الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ بدعوى أنَّهم كُفَّارٌ، وأنَّ أقسامَ هؤلاء: إمَّا أهلُ جهلٍ وتفريطٍ، وإمَّا أهلُ بِدَعٍ وكفرانٍ.

٤٣٨٦- وَمِـنَ العَجَائِـبِ أَنَّكُـمْ كَفَّـرْتُمُ أَهْلَ الـحَدِيثِ وَشِـيعَةَ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «**العَجَائِبِ**» جمعُ: «**عجيب**».

يعني: من الأمورِ التي تدعو إلى العجبِ أنَّكم كفَّرتم أهلَ الحديثِ وشيعةَ القرآنِ.

٤٣٨٧- إِذْ خَـالَفُوا رَأْيًـا لَـهُ رَأْيٌ يُنَـا قِضُـهُ؛ لِأَجْـلِ الـنَّصِّ وَالبُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**إِذْ خَالَفُوا رَأْيًا**»؛ أي: خالفوا رأي المعطِّلةِ.

قَوْلُهُ: «**لَهُ رَأْيٌ يُنَاقِضُهُ**»؛ يعني: أنتم تتناقضون فيما بينكم.

وقد خالفوه لأجل النَّصِّ والبرهانِ؛ يعني: هم خالفوا هذا الرَّأيَ المتناقضَ لأجلِ النَّصِّ والبرهانِ.

٤٣٨٨- وَجَعَلْتُمُ التَّكْفِـيرَ عَـيْنَ خِلافِكُـمْ وَوِفَـاقَكُمْ فَحَقِيقَـةَ الإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «**وَجَعَلْتُمُ التَّكْفِيرَ عَيْنَ خِلَافِكُمْ**»؛ يعني: جعلتم التَّكفيرَ أن يخالفكم النَّاسُ.

قَوْلُهُ: «**وَوِفَاقَكُمْ**»؛ يعني: وجعلتم وفاقكم.

يعني: جعلتم وفاقكم هو الإيمان وخلافكم هو الكفر، وعلى هذا فمَنْ خالَفَكم فهو كافرٌ، ومَنْ وَافَقكم فهو مؤمنٌ.

٤٣٨٩- فَوِفَـاقُكُمْ وَخِلافُكُـمْ مِيـزَانُ دِيـ ـــنِ الله، لا مَـنْ جَـاءَ بِـالقُرْآنِ

يعني أنَّ ميزانَ الدِّينِ عندكم هو الموافقةُ والمخالفةُ، فَمَنْ وَافَقكم فهو مؤمنٌ، ومَنْ خَالَفَكم فهو كافرٌ، ولم تجعلوا الميزانَ مَنْ جاء بالبرهانِ والفرقانِ وهو الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ يعني: لم تردُّوا الأمرَ إلى الله ورسولِه، ولكن جعلتموه الموافقةَ والمخالفةَ لكم.

٤٣٩٠- مِيـزَانُكُمْ مِيـزَانُ بَـاغٍ جَاهِـلٍ وَالعَوْلُ كُـلُّ العَـوْلِ في الـمِيزَانِ

قَوْلُهُ: «مِيزَانُ بَاغٍ»؛ أي: معتدٍ، «جَاهِلٍ»؛ أي: غير عالمٍ، ومع ذلك فهو ميزانٌ عائلٌ؛ أي: مائلٌ عن الاستقامةِ.

٤٣٩١- أَهْـوِنْ بِـهِ مِيـزَانُ جَـوْرٍ عَائِـلٍ بِيَـدِ الـمُطَفِّفِ، وَيْـلَ ذَا الـوَزَّانِ

إذا كان الميزانُ ميزانَ جورٍ، والوازنُ مطفِّفًا فمعناه أنَّه ليس فيه عدالةٌ إطلاقًا، فالميزانُ ميزانُ جورٍ وعولٍ، والوازنُ مطفِّفٌ، فلا يمكنُ أن يكونَ هناك عدلٌ.

٤٣٩٢- لَـوْ كَـانَ ثَـمَّ حَيَـا وَأَدْنَـى مُسْـكَةٍ مِـنْ دِيـنٍ اَوْ عِلْـمٍ وَمِـنْ إِيـمَانِ

٤٣٩٣- لَـمْ تَجْعَلُـوا آرَاءَكُـمْ مِيزَانَ كُفْـ ـرِ النَّـاسِ بِالبُهْتَـانِ وَالعُـدْوَانِ

صحيحٌ، لو كان عندهم حياءٌ أو أدنى مُسْكةٍ من دينٍ أو علمٍ أو إيمانٍ، لم يجعلوا الآراءَ ميزانَ كفرِ النَّاسِ وإيمانِهم، فيقولوا: مَنْ وَافَقَ آراءَنا فهو مؤمنٌ، ومن خَالَفَها فهو كافرٌ.

٤٣٩٤- هَبْكُمْ تَأَوَّلْتُمْ وَسَاغَ لَكُمْ أَيَكْـ ـفُرُ مَنْ يُخَالِفُكُمْ بِلا بُرْهَانِ

يعني: قدِّروا أنَّكم تأوَّلتم، والمتأوِّلُ مجتهدٌ، وسَاغَ لكم ما تأوَّلتموه وصار هو الحقَّ، وليس يكفرُ مَنْ يخالفُكم بلا برهانٍ؛ إذَنْ هذا عدوانٌ منكم، بل من أكبرِ العدوان؛ لأنَّنا لو كفَّرنا مَنْ خَالَفَنَا في الاجتهادِ لَزِمَ أن يكفِّرَنا هو أيضًا باجتهادِنا؛ لأنَّ اجتهادَنا ليس أَوْلَى بالصَّوابِ من اجتهادِه.

٤٣٩٥- هَذِي الوَقَاحَةُ وَالجَرَاءَةُ وَالجَهَا لَـةُ، وَيْحَكُمْ يَا فِرْقَةَ الطُّغْيَانِ

الوقاحةُ ضدُّ حسنِ الخلقِ، والجراءةُ ضدُّ التَّأنِّي والطُّمأنينة، والجهالةُ ضدُّها العلمُ.

قَوْلُهُ: «وَيْحَكُمْ»؛ أي: ويحًا لكم يا فرقةَ الطُّغيانِ.

٤٣٩٦- اللهُ أَكْبَرُ ذَا عُقُوبَةُ تَارِكِ الْـ ـوَحْيَيْنِ لِلآرَاءِ وَالهَذَيَانِ

يعني: أنَّ هذا الذي جَرَى منهم -وهو تكفيرُهم المؤمنين إذا خالفوهم- سببُه تركُ الوحيين «**الكتاب والسُّنَّة**» للآراءِ؛ أي: من أجلِ الآراءِ والهذيانِ، فإذا تركَ الإنسانُ القرآنَ والسُّنَّةَ فإنَّه يُبْتَلَى بمثلِ هذه البليَّةِ العظيمةِ، وهي تكفيرُ أهلِ الحقِّ والإيمانِ.

٤٣٩٧- لَكِنَّنَا نَأْتِي بِحُكْمٍ عَادِلٍ فِيكُمْ؛ لِأَجْلِ مَخَافَةِ الرَّحْمَنِ

هذا كقولِ عبد الله بن رواحةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مُقاسمةِ أهلِ خيبر، لـمَّا جمعهم قال لهم: «**وَاللهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَأَنْتُمْ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ مِنَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ، وَلَا يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ وَحُبِّي إِيَّاهُ عَلَى أَلَّا أَعْدِلَ**

بَيْنكُمْ»[1]، وهكذا يجبُ على الإنسانِ ألَّا يحملَه البُغضُ الشَّخصيُّ على الجورِ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ [المائدة:٨]، وهذا هو العدلُ؛ أنْ يحكمَ الإنسانُ بالعدلِ له ولغيرِه؛ خوفًا من الله عزَّ وجلَّ.

***

٤٣٩٨- فَاسْمَعْ إِذَنْ يَا مُنْصِفًا حُكْمَيْهِمَا ... وَانْظُرْ إِذَنْ: هَلْ يَسْتَوِي الحُكْمَانِ

٤٣٩٩- هُمْ عِنْدَنَا قِسْمَانِ: أَهْلُ جَهَالَةٍ ... وَذَوُو العِنَادِ، وَذَانِكَ القِسْمَانِ

٤٤٠٠- جَمْعٌ وَفَرْقٌ بَيْنَ نَوْعَيْهِمْ، هُمَا ... فِي بِدْعَةٍ لا شَكَّ يَجْتَمِعَانِ

٤٤٠١- وَذَوُو العِنَادِ فَأَهْلُ كُفْرٍ ظَاهِرٍ ... وَالجَاهِلُونَ فَإِنَّهُمْ نَوْعَانِ

٤٤٠٢- مُتَمَكِّنُونَ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ بِالْـ ... أَسْبَابِ ذَاتِ اليُسْرِ وَالإِمْكَانِ

٤٤٠٣- لَكِنْ إِلَى أَرْضِ الجَهَالَةِ أَخْلَدُوا ... وَاسْتَسْهَلُوا التَّقْلِيدَ كَالعُمْيَانِ

٤٤٠٤- لَمْ يَبْذُلُوا المَقْدُورَ فِي إِدْرَاكِهِمْ ... لِلْحَقِّ تَهْوِينًا لِهَذَا الشَّانِ

٤٤٠٥- فَهُمُ الأُلَى لا شَكَّ فِي تَفْسِيقِهِمْ ... وَالكُفْرُ فِيهِ عِنْدَنَا قَوْلانِ

٤٤٠٦- وَالوَقْفُ عِنْدِي فِيهِمُ لَسْتُ الَّذِي ... بِالكُفْرِ أَنْعَتُهُمْ وَلا الإِيمَانِ

٤٤٠٧- وَاللهُ أَعْلَمُ بِالبِطَانَةِ مِنْهُمُ ... وَلَنَا ظَهَارَةُ حُلَّةِ الإِعْلانِ

٤٤٠٨- لَكِنَّهُمْ مُسْتَوْجِبُونَ عِقَابَهُ ... قَطْعًا لِأَجْلِ البَغْيِ وَالعُدْوَانِ

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٩/ ١٣٨، رقم ١٨١٦٨).

الشـرحُ

٤٣٩٨- فَاسْمَعْ إِذَنْ يَـا مُنْصِـفًا حُكْمَـيْهِمَا وَانْظُرْ إِذَنْ: هَلْ يَسْتَوِي الـحُكْمَانِ

قَوْلُهُ: «حُكْمَيْهِمَا»؛ يعني: حكمَ الكتابِ والسُّنَّةِ.

يقولُ رحمه الله: انظر هل يستوي حكمُ الكتابِ والسُّنَّةِ مع حكمِ هؤلاء؟

٤٣٩٩- هُـمْ عِنْـدَنَا قِسْـمَانِ: أَهْـلُ جَهَالَـةٍ وَذَوُو العِنَــادِ، ....

الذين كَفَّروا أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ قسمان: أهلُ جهالةٍ وذوو العنادِ.

فالقسم الأول: هم أناسٌ جهلةٌ يكفِّرون تقليدًا لمتَّبعيهم.

والقسم الثَّاني: أهل عنادٍ واستكبارٍ يكفِّرون، وهم يعلمون أنَّهم ليسوا على حقٍّ.

وهذا تقسيمٌ جيِّدٌ لأهلِ البدعِ.

٤٣٩٩- .... وَذَانِـكَ القِسْـمَانِ

٤٤٠٠- جَمْـعٌ وَفَـرْقٌ بَـيْنَ نَـوْعَيْهِمْ، هُمَـا فِي بِدْعَـــةٍ لا شَـــكَّ يَجْتَمِعَـــانِ

ذانك القسمان يجتمعان ويفترقان؛ فهما يجتمعان في أنَّهما ذوو بدعةٍ سواءٌ الجاهلُ أو المعانِدُ، كُلٌّ منهما مبتدعٌ؛ فإنَّ تكفيرَ أهلِ الحقِّ بدون أصلٍ يُرْجَعُ إليه هذا من فعلِ أهلِ البدعِ كالخوارجِ مثلًا، ولكنَّ هناك فرقًا بكفرِ هؤلاء المكفِّرين لأهلِ الحقِّ، إذَنْ هم في جمعٍ وفَرْقٍ، أما الجمعُ فأنَّهم جميعًا أهلُ بدعة، وأمَّا الفرقُ فيقول:

٤٤٠١- وَذَوُو العِنَـادِ فَأَهْـلُ كُفْـرٍ ظَـاهِرٍ وَالـــجَاهِلُونَ فَـــإِنَّهُمْ نَوْعَـــانِ

قَوْلُهُ: «وَذوُو العِنَادِ فَأَهْلُ كُفْرٍ ظَاهِرٍ» أي: المعاندون لا شكَّ أنَّهم كُفَّارٌ؛ لأنَّهم تبيَّن لهم الحقُّ، ولكن خالفوه وكفَّروا مَنْ قال به، فهم كُفَّارٌ من وجهين:

الوجه الأوَّل: مخالفة الحقِّ.

الوجه الثَّاني: تكفير مَنْ قال بالحقِّ.

وهذا عدوانٌ وظلمٌ بلا شكٍّ.

قَوْلُهُ: «وَالـجَاهِلُونَ فَإِنَّهُمْ نَوْعَانِ» ذَكَرَ النَّوعَ الأوَّل فقال:

٤٤٠٢- مُتَمَكِّنُونَ مِنَ الـهُدَى وَالعِلْمِ بِالْـ أَسْـبَابِ ذَاتِ اليُسْـرِ وَالإِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «مُتَمَكِّنُونَ مِنَ الـهُدَىَ وَالعْلمِ» يقولُ: الجاهلون نوعان:

النَّوْعُ الأوَّلُ: مَنْ تمكَّنوا من الهدى والعلمِ؛ أي: أناسٌ يُمكنُهم أن يطلبوا العلمَ وأن يبحثوا ويسألوا، ولكنَّهم تهاونوا.

قَوْلُهُ: «بِالأَسْبَابِ ذَاتِ اليُسْرِ وَالإِمْكَانِ»؛ يعني: أنَّ أسبابَ الوصولِ إلى العلمِ مُيَسَّرةٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، فلا توجدُ صعوبةٌ لو أرادوا الحقَّ، ولكنَّهم لم يريدوه.

٤٤٠٣- لَكِنْ إِلَى أَرْضِ الـجَهَالَةِ أَخْلَـدُوا وَاسْتَسْـهَلُوا التَّقْلِيـدَ كَالْعُمْيَـانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنْ إِلَى أَرْضِ الـجَهَالَةِ أَخْلَدُوا»؛ أي: مالوا إلى أرضِ الجهالةِ.

قَوْلُهُ: «وَاسْتَسْهَلُوا التَّقْلِيدَ كَالعُمْيَانِ»، قالوا: ما لَنَا وللنَّاسِ؟ نُقَلِّدُ مشايخَنا، ولا نسألُ ولا نبحثُ، إذَنْ عندهم تفريطٌ؛ لأنَّهم يتمكَّنون من طلبِ العلمِ والأسبابُ متيسِّرةٌ، لكن أخلدوا إلى الجهلِ واستسهلوا التَّقليدَ، قالوا: نقلِّدُ فلانًا ونحنُ في ذمَّتِه.

٤٤٠٤- لَـمْ يَبْـذُلُوا المَقْـدُورَ في إِدْرَاكِهِـمْ لِلْحَـقِّ تَهْوِينًـا لِـهَذَا الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «لَمْ يَبْذُلُوا المَقْدُورَ في إِدْرَاكِهِمْ لِلْحَقِّ»؛ يعني: ما بذلوا الذي يقدرون عليه ليُدركوا الحقَّ «تَهْوِينًا بِهَذَا الشَّانِ»، فهؤلاء يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- عنهم:

٤٤٠٥- فَهُـمُ الأُلَى لا شَـكَّ في تَفْسِـيقِهِمْ وَالْكُفْـرُ فِيـهِ عِنْـدَنَا قَـوْلانِ

قَوْلُهُ: «فَهُمُ الأُلَى لَا شَكَّ في تَفْسِيقِهِمْ»؛ يعني: لا شكَّ أنَّ هؤلاء فَسَقَةٌ.

إذَنْ العوامُّ الذين في بلد البدعِ الآن أو في بلدٍ فيه شركٌ وهم مسلمون، هؤلاء العوامُّ -على كلامِ ابن القيِّمِ- فَسَقَةٌ؛ لأنَّهم يمكنُهم طلبُ العلمِ، ولكنَّهم أخلدوا إلى الجهلِ واستسهلوا التَّقليدَ، وقالوا: ما لنا وللبحثِ؟ الشَّيخُ الفلانيُّ يقولُ: هذا جائزٌ، والشَّيخُ الفلانيُّ على هذا الطَّريقِ، والشَّيخُ الفلانيُّ يرانا ولم ينهنا! لسنا بملزومين، فغذا ذكروا أهل السنة قالوا: اترك هؤلاء! هؤلاء متشدِّدون! هؤلاء متزمِّتون! هؤلاء فيهم كذا! وهؤلاء فيهم كذا! لسنا ملزومين بهم! يقولُ ابنُ القيِّمِ: لا شكَّ في أن هؤلاء فَسَقَةٌ.

قَوْلُهُ: «وَالكُفْرُ فِيهِ عِنْدَنَا قَوْلَانِ»؛ أي: في تفكيرهم قولان: هل يكفرون أو لا؟

فَمَنْ قال: إنَّ هؤلاء كالذين قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخرف:٢٢] يرى أنَّهم كُفَّارٌ.

والذي يقولُ: هؤلاء جُهَّالٌ يظنُّون أنَّ علماءَهم أعلمُ من الآخرين، يقولُ: هؤلاء عندهم عذرٌ، فهم فَسَقَةٌ.

وعلى هذا نأخذُ الاتِّفاقَ على أنَّ هؤلاء لا يُوصَفُونَ بالعدالةِ؛ لأنَّ حالَهم دائرةٌ بين الفسقِ والكفرِ، أمَّا أن يكونوا عدولًا فلا.

٤٤٠٦- وَالْوَقْفُ عِنْدِي فِيهِمُ لَسْتُ الَّذِي ... بِالْكُفْرِ أَنْعَتُهُمْ وَلا الإِيمَانِ

يعني: يرى الوقفَ، فهو يتوقَّفُ هل هم فُسَّاقٌ أم هم كُفَّارٌ؟ إن قلنا: «**إنَّهم فُسَّاقٌ**» كانوا من المؤمنين الفَسَقَة، وإن قلنا: «**كُفَّارٌ**» خرجوا من دائرةِ الإسلامِ، وهو -رحمه الله تعالى- يرى التوقُّفَ؛ ولذا قال: «**لَسْتُ الَّذِي بِالكُفْرِ أَنْعَتُهُمْ وَلَا الإِيمَانِ**»؛ يعني: لا أقولُ: كُفَّارٌ، ولا أقولُ: مؤمنون.

وهل الوقفُ قولٌ أو يُعْتَبَرُ جهلًا؟

فيه خلافٌ، بعضُ العلماءِ يقولُ: إنَّ التَّوقُّفَ ليس بقولٍ، ولكنَّه جهلٌ، وبعضُ العلماءِ يقولُ: هو قولٌ؛ يعني: أنَّه قال بما تَعَارَضَتْ فيه الأدلَّةُ، وفرقٌ بين الذي يقولُ: (لا أدري) وهو عامِّيٌّ، وبين الذي بحث ولكن لم يتبيَّن له أحدُ الأمرين من الأدلَّةِ، فيقول: (أنا متوقِّفٌ)؛ ولهذا ينقل أصحابُ الإمامِ أحمدَ -رحمه الله- عن الإمامِ أحمدَ في المسألةِ قولًا بالوقفِ، فيقولون: (وعنه)؛ يعني: عن الإمامِ أحمدَ (التَّوقُّفُ)، وهذا يدلُّ على أنَّه قولٌ، وهو عند التَّأمُّلِ كذلك؛ لأنَّ المجتهدَ إذا تَوَقَّفَ فيعني ذلك أنَّه قد تَعَارَضَتْ عنده الأدلَّةُ، لأنه عنده علمٌ، بخلافِ العامِّيِّ الذي تسألُه فتقول: هل هذا حرامٌ؟ فيقولُ: (**والله لا أدري**)، فهذا متوقِّفٌ للجهلِ، أما العالمُ المجتهدُ فمتوقِّفٌ للعلمِ.

فابنُ القيِّم -رحمه الله- يكونُ متوقِّفًا عن علمٍ لا عن جهلٍ؛ لأنَّ فيهم من الأوصافِ ما يقتضي كفرَهم، وفيهم من الأوصافِ ما يقتضي أنَّهم فَسَقَةٌ وليسوا كُفَّارًا.

٤٤٠٧- وَاللهُ أَعْلَـمُ بِالبِطَانَـةِ مِـنْهُمُ وَلَنَـا ظَهَـارَةُ حُلَّـةِ الإِعْـلَانِ

اللهُ أعلمُ بالبِطانةِ، هل هم معذورون أم لا؟ أمَّا نحن فليس لنا إلَّا الظَّاهرُ، وظاهرُ حالِهم الكفرُ من وجهٍ، والعذرُ من وجهٍ آخرَ؛ ومِنْ ثَمَّ حَصَلَ التَّوقُّفُ.

٤٤٠٨- لَكِـنَّهُمْ مُسْـتَوْجِبُونَ عِقَابَـهُ قَطْعًـا لِأَجْـلِ البَغْـيِ وَالعُـدْوَانِ

يعني: هؤلاء مستحقُّون للعقوبةِ لبغيهم وعدوانِهم على أهلِ السُّنَّةِ؛ حيث نعتوهم بالكفرِ تقليدًا لعلمائِهم وذَوِي الأمرِ منهم.

***

٤٤٠٩- هَبْكُمْ عُـذِرْتُمْ بِالـجَهَالَةِ، إِنَّكُـمْ لَـنْ تُعْـذَرُوا بِـالظُّلْمِ وَالطُّغْيَـانِ

٤٤١٠- وَالطَّعْنِ فِي قَـوْلِ الرَّسُـولِ وَدِينِـهِ وَشَـهَادَةٍ بِـالزُّورِ وَالبُهْتَـانِ

٤٤١١- وَكَـذَلِكَ اسْـتِحْلَالُ قَتْـلِ مُخَالِفِيـ ـكُمْ قَتْلَ ذِي الإِشْرَاكِ وَالكُفْـرَانِ

٤٤١٢- إِنَّ الـخَوَارِجَ مَـا أَحَلُّـوا قَـتْلَهُمْ إِلَّا لِـمَا ارْتَكَبُـوا مِـنَ العِصْـيَانِ

٤٤١٣- وَسَمِعْتُمُ قَوْلَ الرَّسُـولِ وَحُكْمَـهُ فِـيهِمْ، وَذَلِـكَ وَاضِـحُ التِّبْيَـانِ

٤٤١٤- لَكِـنَّكُمْ أَنْـتُمْ أَبَحْـتُمْ قَـتْلَهُمْ بِوِفَـاقِ سُـنَّتِهِ مَـعَ القُـرْآنِ

٤٤١٥- وَاللهِ مَـا زَادُوا النَّقِـيرَ عَلَـيْهِمَا لَكِـنْ بِتَقْرِيـرٍ مَـعَ الإِيـمَانِ

٤٤١٦- فَبِحَقٍّ مَنْ قَدْ خَصَّكُمْ بِـالعِلْمِ وَالتَّـ ـحْقِيقِ وَالإِنْصَـافِ وَالعِرْفَـانِ

٤٤١٧- أَنْـتُمْ أَحَـقُّ أَمِ الـخَوَارِجُ بِالَّـذِي قَـالَ الرَّسُـولُ فَأَوْضِحُوا بِبَيَـانِ

٤٤١٨- هُمْ يَقْتُلُونَ العَابِدِي الـرَّحْمَنِ، بَـلْ يُـدْعَوْنَ أَهْـلَ عِبَـادَةِ الأَوْثَـانِ

٤٤١٩- هَـذَا وَلَيْسُـوا أَهْـلَ تَعْطِيـلٍ، وَلا عَـزْلِ النُّصُـوصِ الحَـقِّ بِالبُرْهَـانِ

الشـرحُ

٤٤٠٩- هَبْكُمْ عُـذِرْتُمْ بِالـجَهَالَةِ، إِنَّكُـمْ لَـنْ تُعْـذَرُوا بِـالظُّلْمِ وَالطُّغْيَـانِ

قَوْلُهُ: «هَبْ» بمعنى: قَدِّر أنَّ الأمرَ كذا.

يعني: قدِّروا أنَّكم عُذِرْتُم بالجهالةِ فلن تُعْذَرُوا بالظُّلمِ والطُّغيانِ.

٤٤١٠- وَالطَّعْنِ فِي قَـوْلِ الرَّسُـولِ وَدِينِـهِ وَشَـهَادَةٍ بِـالزُّورِ وَالبُهْتَـانِ

لا تُعْذَرُونَ بهذا؛ يعني: لو عذرناكم بالجهالةِ، وقلنا: لا حسابَ عليكم فيما بينكم وبين الله، لن نعذرَكم بالعدوانِ علينا وَوَصْفِنَا بالكفرِ والعدوانِ على قولِ الرَّسولِ وقولِ الله عزَّ وجلَّ.

٤٤١١- وَكَـذَلِكَ اسْتِحْلالُ قَتْـلِ مُخَالِفِيـ ـكُمْ قَتْلَ ذِي الإِشْرَاكِ وَالكُفْـرَانِ

يعني: أنَّكم لا تُعْذَرون بقتلِ مخالفيكم؛ لأنَّ بعضَ أهلِ البدعِ يقتلون مَنْ يخالفُهم، ويَرَوْنَ أنَّهم كُفَّارٌ مباحو الدَّمِ والمالِ فيقتلونهم، ولا شك أنهم لا يُعْذَرُونَ بهذا؛ حتَّى ولو كانوا جُهَّالًا.

٤٤١٢- إِنَّ الـخَوَارِجَ مَـا أَحَلُّـوا قَـتْلَهُمْ إِلَّا لِـمَا ارْتَكَبُـوا مِـنَ العِصْيَانِ

فالآن يريدُ المؤلِّفُ -رحمه الله- أن يُقَارِنَ بين هؤلاء وبين الخوارجِ، فالخوارجُ كفَّروا العصاةَ «أهلَ الكبائرِ»، ويقولون: فاعلُ الكبيرةِ مُخَلَّدٌ في النَّارِ، فالذي يسرقُ درهمًا كالذي يعبدُ صنمًا عند الخوارجِ؛ لأنَّهم يُكَفِّرون بالكبائرِ، وكُلُّ كبيرةٍ فهي عندهم مُكَفِّرةٌ، فالخوارجُ ما استحلُّوا قتلَ العُصَاةِ إلَّا لأنَّهم يَرَوْنَهم

كُفَّارًا خارجين عن دينِ الله.

٤٤١٣- وَسَمِعْتُمُ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَهُ فِيهِمْ، وَذَلِكَ وَاضِحُ التِّبْيَانِ

فماذا قال النبي ﷺ في الخوارجِ؟ إنه أَمَرَ بقتلِهم، وقال: «يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»(١)، أعوذُ بالله، السَّهمُ إذا ضَرَبَ الرَّمِيَّةَ يضربُها بسرعةٍ ويخرجُ، فالخوارجُ يمرقون من الإسلامِ كما يمرقُ السَّهمُ من الرَّميَّةِ؛ لأنَّ إيمانَهم لا يجاوزُ حناجرَهم، وقال: «يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»(٢)، وقال: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُم فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٣)، وشَدَّدَ فيهم.

فهؤلاء الخوارجُ كفَّروا العُصَاةَ، وأباحوا قتلَهم، واستحلُّوا دماءَ المسلمين لكونِهم عَصَوْا اللهَ عزَّ وجلَّ، أمَّا هؤلاء المعتدون المبتدعةُ الذين أحلُّوا قتلَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أحلُّوا قتلَهم على طاعةِ الله.

٤٤١٤- لَكِنَّكُمْ أَنْتُمْ أَبَحْتُمْ قَتْلَهُمْ بِوِفَاقِ سُنَّتِهِ مَعَ القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «بِوِفَاقِ سُنَّتِهِ مَعَ القُرْآنِ» أي: سُنَّة الرَّسولِ ﷺ مع القرآنِ. أي: أنتم أبحتم قتلَ مَنْ يقولُ بالكتابِ والسُّنَّةِ.

٤٤١٥- وَاللهِ مَا زَادُوا النَّقِيرَ عَلَيْهِمَا لَكِنْ بِتَقْرِيرٍ مَعَ الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «عَلَيْهِمَا»؛ أي: على الكتابِ والسُّنَّةِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٥)، ومسلم: كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج، رقم (١٠٦٦).

(٢) هذا جزء من الحديث السابق.

(٣) هذا جزء من الحديث السابق.

أي: ما زاد هؤلاء الذين حكمتم بكُفرِهم وجوازِ قتلِهم ما زادوا النَّقيرَ عليها؛ أي: على الكتابِ والسُّنَّةِ، ولم يتجاوزوهما، والنَّقيرُ يُضرَبُ مثلًا للقِلَّةِ والتَّحقيرِ، وفي القرآنِ: «قِطْمِير، ونَقِير، وفَتِيل»، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النِّساء:١٢٤]، وقال: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النِّساء:٧٧]، والنَّواةُ فيها ثلاثةُ أشياء: النَّقير والفتيل والقِطْمِير، كُلُّها في النَّواةِ:

١- فالفتيلُ: العِرْقُ الذي يكونُ كالخيطِ في وسطِ النَّواةِ.

٢- والنَّقيرُ: نقرةٌ في ظهرِها، منها يَخْرجُ العِرْقُ إذا دُفِنَت في الأرضِ لينغرسَ في الطِّينِ وتخرج بإذنِ الله.

٣- والقِطْمِير: وهو الثَّوبُ الملفوفُ على النَّواةِ؛ أي: القشرة أو الغشاء، فيقول رحمه الله: إنَّهم ما زادوا نقيرًا على الكتابِ والسُّنَّةِ.

وهنا أَقْسَمَ ابنُ القيِّمِ -رحمه الله- أنَّ أهلَ الإثباتِ ما زادوا على الكتابِ والسُّنَّةِ نقيرًا، ولكن بتقريرٍ مع الإيمانِ، فهم قَرَّروا ما جاء بالكتابِ والسُّنَّةِ، وآمنوا به، ووضَّحوه للنَّاسِ، ولم يزيدوا عليه.

٤٤١٦- فَبِحَقٍّ مَنْ قَدْ خَصَّكُمْ بِالعِلْمِ وَالتَّـ ـــتَحْقِيقِ وَالإِنْصَافِ وَالعِرْفَانِ

معناه: مَنِ الذي خَصَّكم أنتم بالعلمِ والتَّحقيقِ والإنصافِ والعرفانِ وحَرَمَ هؤلاء؟

الجوابُ: لا أحدَ، بل بالعكس، هم الذين خَصَّهم اللهُ بالعلمِ والتَّحقيقِ والإنصافِ والعرفانِ.

٤٤١٧- أَنْـتُمْ أَحَـقُّ أَمِ الـخَوَارِجُ بِالَّـذِي قَـالَ الرَّسُـولُ فَأَوْضِـحُوا بِبَيَـانِ

قَوْلُهُ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ أَمِ الخَوَارِجِ بِالَّذِي قَالَ الرَّسُولُ» ما الذي قال الرَّسولُ في الخوارجِ؟ قال: إنَّهم «يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[(١)]، فهل هم أحقُّ أم أنتم؟ هو يقولُ: أنتم أحقُّ منهم؛ لأنَّ الخوارجَ إنَّما يُكفِّرون بالمعاصي ويستبيحون الدَّمَ ممَّن عَصَى اللهَ، أمَّا أنتم فتكفِّرون باتِّباعِ الكتابِ والسُّنَّةِ، فبينكم فرقٌ عظيمٌ.

قَوْلُهُ: «فَأَوْضِحُوا بِبَيَانِ» إن كان عندكم بيانٌ فأوضحوه، هل أنتم أحقُّ بما قال الرَّسولُ أم الخوارج؟

٤٤١٨- هُمْ يَقْتُلُونَ العَابِدِي الـرَّحْمَنِ، بَـلْ يُـدْعَوْنَ أَهْـلَ عِبَـادَةِ الأَوْثَـانِ

يعني: أنَّ الخوارجَ يقتلون عبادَ الله، فهم يقتلون المسلمين الذين يعبدون اللهَ بناءً على أنَّهم عندهم كعبدةِ الأوثانِ، فقوله: «يُدْعَوْنَ»؛ يعني: باعتقادِ الخوارجِ.

٤٤١٩- هَـذَا وَلَيْسُـوا أَهْـلَ تَعْطِيـلٍ، وَلَا عَـزْلِ النُّصُـوصِ الحَـقِّ بِالبُرْهَـانِ

يعني: أنَّ الخوارجَ ليسوا أهلَ تعطيلٍ، بل يُثْبِتُونَ للهِ ما أَثْبَتَهُ لنفسِه، ولا يعزلون النُّصوصَ عن الحقِّ، بل يُبقونها على ما هي عليه.

ولكن لا شكَّ أنَّ الخوارجَ عزلوا نصوصَ الرَّجاءِ عمَّا أراد اللهُ بها ورسولُه، وغلَّبوا نصوصَ الوعيدِ على نصوصِ الرَّجاءِ، فهم -بلا شكٍّ- متأوِّلون ومخطئون في تأويلِهم، ومحرِّفون لنصوصِ الرَّجاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٥)، ومسلم: كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج، رقم (١٠٦٦).

لكن هل نقولُ: إنَّ تحريفَهم لنصوصِ الرَّجاء كتحريفِ هؤلاء لنصوصِ الصِّفاتِ أو أشدُّ؟

هذا هو محلُّ النَّظرِ؛ فابنُ القيِّمِ -رحمه الله- يرى أنَّ تحريفَ نصوصِ الصِّفاتِ أشدُّ وأعظمُ من تحريفِ نصوصِ الرَّجاء؛ لأنَّ تحريفَ نصوصِ الرَّجاءِ غايةُ ما فيه أنَّه تحريفٌ لثوابِ الله وجزائِه فقط، بخلاف تحريفِ نصوصِ الصِّفاتِ؛ فإنَّه تعطيلُ الله عزَّ وجلَّ من كمالِه.

وهنا مسألة: هل الخوارجُ كُفَّارٌ؟

فالخوارجُ سُئِلَ عنهم عليُّ بن أبي طالبٍ فقال: «**إِنَّهُمْ مِنَ الكُفْرِ فَرُّوا**»[1]، وتَوَقَّفَ فيهم.

ومن العلماء مَنْ قال: إنَّ الدَّاعيةَ لبدعتِه منهم يكونُ كافرًا.

ومنهم مَنْ كفَّرهم مطلقًا.

فالعلماءُ مختلفون فيهم، ولا شكَّ أنَّ قتلَهم واجبٌ لدفعِ شرِّهم، سواء قلنا بكفرِهم أم لم نقل، ولا يقالُ: إنَّ قولَ الرَّسولِ ﷺ: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[2] دليلٌ على كفرِهم؛ لأنَّ قوله ﷺ: «**يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ**»؛ قد يعني أنهم يمرقون في شيءٍ من أحكامِه.

* * *

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٠/ ١٥٠، رقم ١٨٦٥٦)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٤٨، رقم ٣٧٨٤٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٥)، ومسلم: كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج، رقم (١٠٦٦).

فصــل

٤٤٢٠- وَالآخَرُونَ فَأَهْلُ عَجْزٍ عَنْ بُلُو ... غِ الحَقِّ مَعْ قَصْدٍ وَمَعْ إِيمَانِ

٤٤٢١- بِاللهِ ثُمَّ رَسُولِهِ وَلِقَائِهِ ... وَهُمُ إِذَا مَيَّزْتَهُمْ ضَرْبَانِ

٤٤٢٢- قَوْمٌ دَهَاهُمْ حُسْنُ ظَنِّهِمُ بِمَا ... قَالَتْهُ أَشْيَاخٌ ذَوُو أَسْنَانِ

٤٤٢٣- وَدِيَانَةٍ فِي النَّاسِ لَمْ يَجِدُوا سِوَى ... أَقْوَالِهِمْ، فَرَضُوا بِهَا بِأَمَانِ

٤٤٢٤- لَوْ يَقْدِرُونَ عَلَى الهُدَى لَمْ يَرْتَضُوا ... بَدَلًا بِهِ مِنْ قَائِلِ البُهْتَانِ

٤٤٢٥- فَأُولاءِ مَعْذُورُونَ إِذْ لَمْ يَظْلِمُوا ... وَيُكَفِّرُوا بِالجَهْلِ وَالعُدْوَانِ

٤٤٢٦- وَالآخَرُونَ فَطَالِبُونَ الحَقَّ لَـ ... ـكِنْ صَدَّهُمْ عَنْ عِلْمِهِ شَيْئَانِ

٤٤٢٧- مَعْ بَحْثِهِمْ وَمُصَنَّفَاتٍ، قَصْدُهُمْ ... مِنْهَا وُصُولُهُمُ إِلَى العِرْفَانِ

٤٤٢٨- إِحْدَاهُمَا طَلَبُ الحَقَائِقِ مِنْ سِوَى ... أَبْوَابِهَا مُتَسَوِّرِي الجُدْرَانِ

٤٤٢٩- وَسُلُوكُ طُرْقٍ غَيْرِ مُوْصِلَةٍ إِلَى ... دَرْكِ اليَقِينِ وَمَطْلَعِ الإِيمَانِ

٤٤٣٠- فَتَشَابَهَتْ تِلْكَ الأُمُورُ عَلَيْهِمُ ... مِثْلَ اشْتِبَاهِ الطُّرْقِ بِالحَيْرَانِ

٤٤٣١- فَتَرَى أَفَاضِلَهُمْ حَيَارَى كُلُّهُمْ ... فِي التِّيهِ يَقْرَعُ نَاجِذَ النَّدْمَانِ

٤٤٣٢- وَيَقُولُ: قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الطُّرْقُ، لَا ... أَدْرِي الطَّرِيقَ الأَعْظَمَ السُّلْطَانِي

٤٤٣٣- بَلْ كُلُّهَا طُرْقٌ مَخُوفَاتٌ، بِهَا الـ ... آفَاتُ حَاصِلَةٌ بِلَا حُسْبَانِ

٤٤٣٤- فَـالْوَقْفُ غَايَتُـهُ وَآخِـرُ أَمْـرِهِ مِـنْ غَـيْرِ شَـكٍّ مِنْـهُ فِي الـرَّحْمَنِ

٤٤٣٥- أَوْ دِينِـهِ وَكِتَابِـهِ وَرَسُـولِهِ وَلِقَائِـهِ وَقِيَامَـةِ الأَبْـدَانِ

٤٤٣٦- فَأُولاءِ بَيْنَ الـذَّنْبِ وَالأَجْرَيْنِ أَوْ إِحْـدَاهُمَا أَوْ وَاسِـعِ الغُفْـرَانِ

الشـرحُ

المؤلِّفُ -رحمه الله- سبق أنَّه قال: إنَّ الجُهَّالَ ينقسمون إلى قسمين، وتكلَّم عن القسمِ الأوَّلِ، ثُمَّ بدأ يتكلَّم هنا عن القسمِ الثَّاني، فقال:

٤٤٢٠- وَالآخَرُونَ فَأَهْلُ عَجْزٍ عَنْ بُلُو غِ الـحَقِّ مَعْ قَصْدٍ وَمَعْ إِيمَانِ

القسمُ الثَّاني من الـجُهَّالِ: نوعٌ عجزوا عن بلوغِ الحقِّ مع أنَّ قصدَهم حسنٌ وإيمانَهم قويٌّ، لكن عجزوا عن الوصولِ إلى الحقِّ.

٤٤٢١- بِـالله ثُـمَّ رَسُـولِهِ وَلِقَائِـهِ وَهُـمُ إِذَا مَيَّـزْتَهُمْ ضَرْبَـانِ

يعني: هؤلاء الذين عندهم جهلٌ ولكنَّهم عاجزون عن الوصولِ إلى الحقِّ هم أيضًا «ضَرْبَانِ»؛ أي: نوعان.

٤٤٢٢- قَـوْمٌ دَهَـاهُمْ حُسْـنُ ظَـنِّهِمُ بِـمَا قَالَتْـهُ أَشْـيَاخٌ ذَوُو أَسْـنَانِ

قَوْلُهُ: «أَسْنَانِ» جمعُ «سِنٍّ»، وليس المرادُ به العَظْمَ، بل المرادُ به السَّنواتُ؛ أي: أشياخٌ كبار.

يعني: أنَّ هذا الضَّربَ لـمَّا قرؤوا ما قالتْه أشياخٌ ذوو أسنانٍ وكذلك:

٤٤٢٣- وَدِيَانَةٍ فِي النَّاسِ لَـمْ يَجِدُوا سِـوَى أَقْوَالِـهِمْ، فَرَضُـوا بِهَـا بِأَمَـانِ

قَوْلُهُ: «وَدِيَانَةٍ فِي النَّاسِ» أيضًا الأشياخُ ذوو دينٍ، فعندهم كِبَرٌ ومشيخةٌ ودِينٌ.

قَوْلُهُ: «لَـمْ يَجِدُوا سِوَى أَقْوَالِـهِمْ، فَرَضُوا بِهَا بِأَمَانِ»؛ يعني: أنَّهم لم يجدوا إلَّا ما بين أيديهم من كلامِ أشياخِهم، ولا يعلمون أحدًا أقدرَ على بيانِ الحقِّ من أشياخِهم، فَرَضُوا بما عندهم من هذه الْكُتُبِ بأمانٍ؛ يعني: أنَّهم رَضُوا بها وهم آمِنون على أنَّها حقٌّ، لا يخافون من أنَّها باطلٌ.

٤٤٢٤- لَوْ يَقْدِرُونَ عَلَى الـهُدَى لَـمْ يَرْتَضُوا ... بَـدَلًا بِـهِ مِـنْ قَائِـلِ البُهْتَـانِ

يعني: لو أنَّهم عَلِمُوا بالحقِّ ما رَضُوا به بدلًا، «من قائلِ البهتانِ»؛ يعني: ما رضوا بقولِ صاحبِ البهتانِ بدلًا عن الحقِّ.

٤٤٢٥- فَأُولاءِ مَعْذُورُونَ إِذْ لَـمْ يَظْلِمُـوا ... وَيُكَفِّـرُوا بِالـجَهْلِ وَالعُـدْوَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ»، وفي نسخةٍ: «إِنْ»، لكن ما الفرقُ بين «إِذْ» و«إِنْ»؟

الجوابُ: «إِذْ» تكونُ الجملةُ معها تعليليَّةً؛ يعني: فهؤلاء معذُورون؛ لأنَّهم لم يظلموا ويُكَفِّروا بالجهْلِ والعدوانِ، وأمَّا على نسخةِ «إِنْ» فتكونُ شرطيَّةً؛ يعني: أنَّ هؤُلاءِ معذُورُونَ بشرطِ ألَّا يَظْلِمُوا ويكُفِّروا بالجهلِ والعدوانِ، ومُؤدَّى النُّسختَيْنِ واحدٌ، سواءَ جَعَلْتَهُ شرطًا أم جَعَلْتَهُ تعليلًا.

٤٤٢٦- وَالآخَـرُونَ فَطَـالِبُونَ الـحَقَّ لَـ ... ـكِنْ صَـدَّهُمْ عَـنْ عِلْمِـهِ شَـيْئَانِ

٤٤٢٧- مَعْ بَحْثِهِمْ وَمُصَـنَّفَاتٍ، قَصْـدُهُمْ ... مِنْهَـا وُصُولُـهُمُ إِلَى العِرْفَـانِ

٤٤٢٨- إِحْدَاهُمَا طَلَبُ الحَقَائِقِ مِنْ سِـوَى ... أَبْوَابِهَـا مُتَسَـوِّرِي الـجُدْرَانِ

٤٤٢٩- وَسُلُوكُ طُرْقٍ غَيْرِ مُوْصِلَةٍ إِلَى دَرْكِ اليَقِينِ وَمَطْلَعِ الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «الآخَرُونَ»؛ أي: الضَّرب الثَّاني، فطالبون الحقَّ.

هؤلاء طالبون للحقِّ، لكن لم يَصِلُوا إلى علمِه، صَدَّهم عَنْ علْمِه شيئان: الشَّيءُ الأَوَّلُ: «طَلَبُ الحقائقِ مِنْ سِوَى أَبْوَابِها» بدلًا من أن يرجعوا إلى الكتابِ والسُّنَّةِ في طلبِ الحقائقِ، رَجَعُوا إلى طُرُقٍ أخرى غير مُوصِلَةٍ إلى الحقِّ، فتشابهتْ عليهم؛ ولهذا قال:

٤٤٣٠- فَتَشَابَهَتْ تِلْكَ الأُمُورُ عَلَيْهِمُ مِثْلَ اشْتِبَاهِ الطُّرْقِ بِالحَيْرَانِ

لأنَّ الطُّرقَ تشتَّتتُ بهم، وإلَّا فهم حَسَنُو النِّيَّةِ، قاصِدُون للعلمِ الشَّرعيِّ، لكن أَتَوْا الْبُيوتَ من غيرِ أبوابِها.

٤٤٣١- فَتَرَى أَفَاضِلَهُمْ حَيَارَى كُلُّهُمْ فِي التِّيهِ يَقْرَعُ نَاجِذَ النَّدْمَانِ

يعني: الأفاضلُ من هؤلاء تجدُهم متحيِّرينَ؛ لأنَّه حِيلَ بينهم وبين الوُصولِ إلى الحقِّ؛ حيث لم يطْرُقُوا طُرُقَ الحقِّ، ولم يأْتُوا الْبُيوتَ من أبوابِها، فتشابهت عليهم، فصاروا حَيَارى يقرَعُون «ناجذَ النَّدمانِ»، والنَّاجِذُ هو أقصى الأضراسِ، والعادةُ أنَّ الإنسانَ إذا نَدِمَ يقرعُ سِنَّه نَدَمًا، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧]، فالنَّدمانُ إمَّا أن يَبْقى يقْرَعُ سِنَّه، وإمَّا أن يَعَضَّ يديْهِ.

٤٤٣٢- وَيَقُولُ: قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الطُّرْقُ، لَا أَدْرِي الطَّرِيقَ الأَعْظَمَ السُّلْطَانِي

الطَّريقُ الأعظمُ السُّلطاني هو الكتابُ والسُّنَّةُ، طريقُ الأئمَّةِ وأهلِ الهدى.

٤٤٣٣- بَلْ كُلُّهَا طُرْقٌ مُخُوفَاتٌ، بِهَا الْـ ... آفَاتُ حَاصِلَةٌ بِلا حُسْبَانِ

٤٤٣٤- فَالْوَقْفُ غَايَتُهُ وَآخِرُ أَمْرِهِ ... مِنْ غَيْرِ شَكٍّ مِنْهُ فِي الرَّحْمَنِ

٤٤٣٥- أَوْ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ... وَلِقَائِهِ وَقِيَامَةِ الأَبْدَانِ

قَوْلُهُ: «الوَقْفُ غَايَتُهُ» مثل أهلِ الكلامِ، يقولون: إنَّ أكثرَ النَّاسِ شكًّا عند الموتِ هم أهلُ الكلامِ، فهم حَيَارَى حتَّى أئمَّتُهم يُصَرِّحُونَ بالحيرةِ، يقولُ بعضُهم:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ العُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا[(١)]

وقال: «**لَقَدْ تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الكلاميَّةَ والمناهجَ الفلسفيَّةَ، فما رأيتُها تَشْفِي عَلِيلًا ولا تَرْوِي غَلِيلًا، ووجدتُ أقربَ الطُّرُقِ طريقةَ القرآنِ، أقرأُ في الإثباتِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، و﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وأقرأُ في النَّفيِ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، ومَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي**»[(٢)]، هذا يقولُه إمامٌ من أئمَّتِهم وهو فخرُ الدِّين[(٣)] الرَّازيُّ، وهذا إقرارٌ

---

(١) الأبيات لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي، وهي في طبقات الشافعية للسبكي (٨/ ٩٦)، وعيون الأنباء (٢/ ٢٨).

(٢) شرح القصيدة النونية (٢/ ٢٣٥)، وانظر: شرح الطحاوية (ص:٢٢٧).

(٣) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، البكري، فخر الدين، ولد في الرَّي سنة (٥٤٤هـ)، وكان بارعًا في العلوم، مجيدًا للغة الفارسية والعربية، وتوفي في هَراة سنة (٦٠٦هـ)، وانظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٣١٣).

بأنَّ جميعَ البحثِ في علمِ الكلامِ كُلُّه هدرٌ لا يفيدُ.

وقال بعضُهم: «**لقد خُضْتُ البحرَ الخِضَمَّ** -يعني: فلم أجد شيئًا يشفيني- **وها أنا أموتُ على عقيدةِ أُمِّي**»[1]، وعقيدةُ أمِّه أنَّها لم تبحث في علمِ الكلامِ، **فَهِي عَلَى الْفِطْرةِ**.

فهؤلاء أهلُ شكٍّ وحَيْرَةٍ؛ لأنَّهم لم يأْتُوا الْبُيوتَ من أبوابِها.

قَوْلُهُ: «**مِنْ غَيْرِ شَكٍّ مِنْهُ فِي الرَّحْمَنِ أَوْ دِينِهِ...**»؛ يعني: ليْسَ عنده شكٌّ في الله، أو في الكتابِ، أو في الرَّسولِ، أو في القيامةِ، لكنَّه مُتحيِّرٌ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٤٤٣٦- فَأُولاءِ بَيْنَ الـذَّنْبِ وَالأَجْـرَيْنِ أَوْ ... إِحْـدَاهُمَا أَوْ وَاسِـعِ الغُفْـرَانِ

لهم أربعُ حالاتٍ، يقولُ: «**بَيْنَ الذَّنْبِ والأَجْرَيْنِ**»؛ أي: إذا أَصابَ، «**أَوْ إِحْدَاهُمَا**»؛ أي: الأجر الواحد إذا أخطأ، «**أَوْ وَاسِعِ الغُفْرَانِ**»؛ أي: يغفرُ اللهُ لهم؛ لأنَّ هؤلاءِ قَصَدُوا وبحثوا، لكن لـمَّا لم يأْتُوا البيوتَ من أبوابِها، ولم يَسْلُكُوا الطُّرقَ التي تُوصِلُ إلى الحقِّ بَقَوْا جاهِلِين، لا يَعْرِفون شيئًا عن الحقِّ، فهؤلاء تُرْجَى لهم المغفرةُ؛ لأنَّ معهم عَجْزًا وتردُّدًا، فهؤلاءِ لـمَّا صاروا يُطالعون ويَبْحَثُون صار عِندَهم شكٌّ وترُدُّدٌ.

***

٤٤٣٧- فَـانْظُرْ إِلَى أَحْكَامِنَـا فِـيهِمْ وَقَـدْ ... جَحَدُوا النُّصُوصَ وَمُقْتَضَـى القُرْآنِ

٤٤٣٨- وَانْظُـرْ إِلَى أَحْكَـامِهِمْ فِينَـا لِأَجْـ ... ـلِ خِلافِهِـمْ، إِذْ قَـادَهُ الوَحْيَـانِ

---

(١) قاله الإمام الجويني، وذكره ابن تيمية، انظر: الحموية لابن تيمية (ص:٧)، وانظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ط (٨).

٤٤٣٩- هَلْ يَسْتَوِي الـحُكْمَانِ عِنْدَ الله أَوْ ... عِنْدَ الرَّسُولِ وَعِنْدَ ذِي الإِيمَانِ

٤٤٤٠- الكُفْرُ حَقُّ الله ثُمَّ رَسُولِهِ ... بِالنَّصِّ يَثْبُتُ، لا بِقَوْلِ فُلانِ

٤٤٤١- مَنْ كَانَ رَبُّ العَالَمِينَ وَعَبْدُهُ ... قَدْ كَفَّرَاهُ فَذَاكَ ذُو الكُفْرَانِ

٤٤٤٢- فَهَلُمَّ وَيْحَكُمُ نُحَاكِمْكُمْ إِلَى الْـ ... ـوَحْيَيْنِ مِنْ خَبَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ

٤٤٤٣- وَهُنَاكَ يُعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَا عَلَى الْـ ... ـكُفْرَانِ حَقًّا، أَوْ عَلَى الإِيمَانِ

٤٤٤٤- فَلْيَهْنِكُمْ تَكْفِيرُ مَنْ حَكَمَتْ بِإِسْـ ... ـلامٍ وَإِيمَانٍ لَهُ النَّصَّانِ

٤٤٤٥- لَكِنَّ غَايَتَهُ كَغَايَةِ مَنْ سِوَى الْـ ... ـمَعْصُومِ، غَايَةُ نَوْعِ ذَا الإِحْسَانِ

٤٤٤٦- خَطَأٌ يَصِيرُ الأَجْرُ أَجْرًا وَاحِدًا ... إِنْ فَاتَهُ مِنْ أَجْلِهِ الكِفْلانِ

٤٤٤٧- إِنْ كَانَ ذَاكَ مُكَفِّرًا يَا أُمَّةَ الْـ ... ـعُدْوَانِ مَنْ هَذَا عَلَى الإِيمَانِ

٤٤٤٨- قَدْ دَارَ بَيْنَ الأَجْرِ وَالأَجْرَيْنِ وَالتَّـ ... ـتَكْفِيرِ بِالدَّعْوَى بِلا بُرْهَانِ

٤٤٤٩- كَفَّرْتُمُ وَالله مَنْ شَهِدَ الرَّسُو ... لُ بِأَنَّهُ حَقًّا عَلَى الإِيمَانِ

٤٤٥٠- ثِنْتَانِ مِنْ قِبَلِ الرَّسُولِ وَخَصْلَةٌ ... مِنْ عِنْدِكُمْ، أَفَأَنْتُمَا عَدْلانِ

الشرحُ

٤٤٣٧- فَانْظُرْ إِلَى أَحْكَامِنَا فِيهِمْ وَقَدْ ... جَحَدُوا النُّصُوصَ وَمُقْتَضَى القُرْآنِ

ومع ذلك نعذرُ جاهلَهم الحريصَ على طلبِ الحقِّ، الذي لم يُوفَّق لطلبِه من الطُّرقِ الصَّحيحةِ.

٤٤٣٨- وَانْظُـرْ إِلَى أَحْكَـامِهِمْ فِينَـا لِأَجْـ ـلِ خِلافِهِـمْ، إِذْ قَـادَهُ الوَحْيَـانِ

قَوْلُهُ: «وَانْظُرْ إِلَى أَحْكَامِهِمْ فِينَا» والذي حكموا فينا هو حكمهم علينا بالكفرِ.

قَوْلُهُ: «لأَجْلِ خِلَافِهِمْ»؛ يعني: لأجل أنَّنا خالفْناهم صِرنا كُفَّارًا في زعمِهم.

قَوْلُهُ: «إِذْ قَادَه الوَحْيَانِ»؛ أي: قاد خلافَنا معهم الْوحْيَان. يعني: نحن لم نُخالِفْهم بأهوائِنا، ولكنْ بقيادةِ الكتابِ والسُّنَّةِ.

٤٤٣٩- هَلْ يَسْتَوِي الـحُكْمَانِ عِنْـدَ الله أَوْ عِنْـدَ الرَّسُـولِ وَعِنْـدَ ذِي الإِيـمَانِ

الجوابُ: لا؛ لأنَّنا نحن حَكَمْنَا فيهم بالعدلِ، وهم حكموا فينا بالجورِ والطُّغيانِ، ثُمَّ ذكَر المؤلِّفُ -رحمه الله- قاعدةً مفيدةً مهمَّةً، ما أحوجَ النَّاسِ إليها في هذا الزَّمان! إذ يقولُ:

٤٤٤٠- الكُفْـرُ حَـقُّ الله ثُـمَّ رَسُـولِهِ بِـالنَّصِّ يَثْبُـتُ، لا بِقَـوْلِ فُـلانِ

قَوْلُهُ: «الكُفْرُ حَقُّ الله ثُمَّ رَسُولِهِ» نعم، هذه قاعدةٌ عظيمةٌ، أنَّ الكفرَ حقٌّ لله، وحقٌّ للرَّسولِ، والذي يحكمُ بأنَّ الشَّيءَ كفرٌ أو غيرُ كفرٍ هو اللهُ ورسولُه، كما أنَّ الذي يحكمُ بأنَّ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ هو اللهُ ورسولُه، فإذا كان اللهُ يقولُ في القرآنِ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النَّحل:١١٦]، فكذلك نقولُ: لا تقولوا: هذا مؤمنٌ وهذا كافرٌ، لتفتروا على الله الكذبَ.

وَقَوْلُهُ: «بِالنَّصِّ»؛ أي: بنصٍّ على الكفرِ واضحٍ، وأيُّ نصٍّ تجدُ به الكفرَ غيرَ صريحٍ فلا تحكمْ بالكفرِ، بل لا بُدَّ أن يكونَ نصًّا صريحًا، حتَّى لو قاله مَنْ قاله لا تتَّبعْه.

٤٤٤١- مَـنْ كَـانَ رَبُّ العَالَـمِينَ وَعَبْـدُهُ قَـدْ كَفَّـرَاهُ فَـذَاكَ ذُو الكُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «مَنْ كَانَ رَبُّ العَالَـمِينَ وَعَبْدُهُ» أي: الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، «قد كفَّراه فذاك ذو الكفران»، ومَنْ لم يُكفِّراه فليس بكافرٍ.

٤٤٤٢- فَهَلُـمَّ وَيُحَكِّـمُ نُحَـاكِمْكُمْ إِلَى الْـ ـوَحْيَيْنِ مِـنْ خَـبَرٍ وَمِـنْ قُـرْآنِ

٤٤٤٣- وَهُنَاكَ يُعْلَمُ أَيُّ حِزْبَيْنَـا عَـلَى الْـ ـكُفْرَانِ حَقًّـا، أَوْ عَـلَى الإِيـمَانِ

٤٤٤٤- فَلْيَهْنِكُمْ تَكْفِيرُ مَنْ حَكَمَتْ بِإِسْـ ـلامٍ وَإِيـمَانٍ لَـهُ النَّصَّـانِ

قَوْلُهُ: «فَلْيَهْنِكُمْ»؛ يعني: لكم الهناءُ، وهذا من بابِ التَّهكُّمِ بهم.

قَوْلُهُ: «تَكْفِيرُ مَنْ حَكَمَتْ بِإِسْلَامٍ وَإِيمَانٍ لَهُ النَّصَّانِ» «النَّصَّانِ»: فاعلُ «حَكَمَتْ»؛ يعني: مَنْ حَكَمَتْ له النَّصَّانِ بالإيمانِ والإسلامِ، وأنتم تُكفِّرونَه.

٤٤٤٥- لَكِنَّ غَايَتَهُ كَغَايَـةِ مَـنْ سِـوَى الْـ ـمَعْصُومِ، غَايَةُ نَوْعِ ذَا الإِحْسَـانِ

يعني: غاية هذا الذي حكمتم عليه بالكفر «كغايةِ مَنْ سوى المعصومِ، غايةِ نوعِ ذا الإحسانِ».

٤٤٤٦- خَطأٌ يَصِيرُ الأَجْـرُ أَجْـرًا وَاحِـدًا إِنْ فَاتَـهُ مِـنْ أَجْلِـهِ الكِفْـلانِ

قَوْلُهُ: «خَطأٌ يُصِيرُ الأَجْرَ أَجْرًا وَاحِدًا»، وفي نسخةٍ أخرى: «فَيُصَيِّرُ الأَجْرَيْنِ أَجْرًا وَاحِدًا»، والمعنى على النُّسختَيْنِ واحدٌ؛ يعني: أنَّ الخطأَ إذا كان من مجتهدٍ يَجْعَل له بدلَ الأَجْرَيْنِ أجرًا واحدًا.

قَوْلُهُ: «إِنْ فَاتَهُ مِنْ أَجْلِهِ الكِفْلَانِ» وإنما يفوتُ من أجلِه الكِفْلَانِ إذا أخطأ، فالمجتهدُ إمَّا مصيبٌ فله أجران، وإما مُخْطِئٌ فله أجرٌ واحدٌ.

٤٤٤٧- إِنْ كَـانَ ذَاكَ مُكَفِّـرًا يَـا أُمَّـةَ الْـ ... ـعُدْوَانِ مَـنْ هَـذَا عَـلَى الإِيـمَانِ

يعني: إنْ كان الاجتهادُ الذي يبذلُه الإنسانُ ثُمَّ يُخطِئ فيه على أيِّ تقديرٍ كفرًا، فمَن الذي على الإيمانِ؟ والاستفهامُ هنا للإنكارِ والتَّوبيخِ.

٤٤٤٨- قَدْ دَارَ بَيْنَ الأَجْرِ وَالأَجْرَيْنِ وَالتْـ ... ـتكْفِيرِ بِالـدَّعْوَى بِـلا بُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «**بَيْنَ الأَجْرِ**» وذلك إن أخطأَ.

قَوْلُهُ: «**الأَجْرَيْنِ**»؛ أي: إن أَصَابَ.

قَوْلُهُ: «**والتَّكْفِيرِ**» هذا ليس بصحيحٍ، ليس هناك تكفيرٌ؛ ولهذا قال: «**بِالدَّعْوَى بِلَا بُرْهَانِ**».

٤٤٤٩- كَفَّـرْتُمُ وَاللهِ مَـنْ شَـهِدَ الرَّسُـو ... لُ بِأَنَّـهُ حَقًّـا عَـلَى الإِيـمَانِ

وقد جاءت شهادةُ الرَّسولِ بأنَّه «**حَقًّا عَلَى الإِيمَانِ**» من أنَّ إثباتَ الأجرِ له يَدُلُّ على أنَّه مؤمنٌ؛ إذ إنَّ الكافرَ ليس له أجرٌ ولو أَصَابَ.

٤٤٥٠- ثِنْتَانِ مِنْ قِبَلِ الرَّسُـولِ وَخَصْـلَةٌ ... مِـنْ عِنْـدِكُمْ، أَفَـأَنْتُمَا عَـدْلانِ

قَوْلُهُ: «**ثِنْتَانِ مِنْ قِبَلِ الرَّسُولِ**» وهما: الأجر أو الأجران.

قَوْلُهُ: «**وَخَصْلَةٌ مِنْ عِنْدِكُمْ**» وهي التَّكفيرُ.

قَوْلُهُ: «**أَفَأَنْتُمَا عِدْلَانِ؟**»؛ يعني: أنتم مع الرَّسولِ «**عِدْلَانِ**»؛ يعني: بعضُكم يعدلُ بعضًا فتحكمون كما يحكمُ الرَّسولُ، والاستفهامُ هنا للنَّفي والإنكارِ.

***

فصل

في تلاعُبِ المُكفِّرِينَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالإِيمَانِ بِالدِّينِ كَتَلاعُبِ الصِّبْيَانِ

٤٤٥١- كَمْ ذَا التَّلاعُبُ مِنْكُمُ بِالدِّينِ وَالْـ ... إِيمَانِ مِثْلَ تَلاعُبِ الصِّبْيَانِ؟

٤٤٥٢- خُسِفَتْ قُلُوبُكُمُ كَمَا خُسِفَتْ عُقُو ... لُكُمُ، فَلا تَزْكُوا عَلَى القُرْآنِ

٤٤٥٣- كَمْ ذَا تَقُولُوا: مُجْمَلٌ وَمُفَصَّلٌ ... وَظَوَاهِرٌ عُزِلَتْ عَنِ الإِيقَانِ

٤٤٥٤- حَتَّى إِذَا رَأْيُ الرِّجَالِ أَتَاكُمُ ... فَاسْمَعْ لِمَا يُوحَى بِلا بُرْهَانِ

٤٤٥٥- مِثْلُ الخَفَافِيشِ الَّتِي إِنْ جَاءَهَا ... ضَوْءُ النَّهَارِ فَفِي كُوَى الحِيطَانِ

٤٤٥٦- عَمِيَتْ عَنِ الشَّمْسِ المُنِيرَةِ لا تُطِيـ ... ـقُ هِدَايَةً فِيهَا إِلَى الطَّيَرَانِ

٤٤٥٧- حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَاءَ ظَلامُهُ ... جَالَتْ بِظُلْمَتِهِ بِكُلِّ مَكَانِ

٤٤٥٨- فَتَرَى المُوَحِّدَ حِينَ يَسْمَعُ قَوْلَهُمْ ... وَيَرَاهُمُ فِي مِحْنَةٍ وَهَوَانِ

٤٤٥٩- وَارَحْمَتَاهُ لِعَيْنِهِ وَلِأُذْنِهِ ... يَا مِحْنَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالأُذُنَانِ

٤٤٦٠- إِنْ قَالَ حَقًّا كَفَّرُوهُ، وَإِنْ يَقُو ... لُوا بَاطِلًا نَسَبُوهُ لِلإِيمَانِ

٤٤٦١- حَتَّى إِذَا مَا رَدَّهُ عَادَوْهُ مِثْـ ... ـلَ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لِلإِنْسَانِ

٤٤٦٢- قَالُوا لَهُ: (خَالَفْتَ أَقْوَالَ الشُّيُو ... خِ) وَلَمْ يُبَالُوا الخُلْفَ لِلْفُرْقَانِ

٤٤٦٣- خَالَفْتُ أَقْوَالَ الشُّيُوخِ فَأَنْتُمُ ... خَالَفْتُمُ مَنْ جَاءَ بِالْقُرْآنِ

٤٤٦٤- خَـالَفْتُمُ قَـوْلَ الرَّسُـولِ، وَإِنَّـمَا ... خَالَفْـتُ مِـنْ جَـرَّاهُ قَـوْلَ فُـلانِ

٤٤٦٥- يَـا حَبَّـذَا ذَاكَ الـخِلافُ، فَإِنَّـهُ ... عَـيْنُ الْوِفَـاقِ لِطَاعَـةِ الـرَّحْمَنِ

الشرحُ

ذكر المؤلِّفُ -رحمه الله- في هذا الفصلِ أنَّ هؤلاء الذين يُكَفِّرونَ أهلَ السُّنَّةِ يتلاعبون بالدِّينِ كتَلَاعُبِ الصِّبيانِ؛ ولذا قال:

٤٤٥١- كَمْ ذَا التَّلاعُبُ مِنْكُمُ بِالدِّينِ وَالْـ ... إِيـمَانِ مِثْـلَ تَلاعُـبِ الصِّـبْيَانِ؟

يعني: كما يتلاعبُ الصِّبيانُ بالكرةِ وغيرِها فأنتم تَتَلاعَبُون بالدِّينِ، تقولون: هذا حقٌّ وهذا باطلٌ، وهذا كفرٌ، وهذا إيمانٌ، بدُونِ بُرهانٍ.

٤٤٥٢- خُسِفَتْ قُلُوبُكُمُ كَمَا خُسِفَتْ عُقُو ... لُكُـمُ، فَـلا تَزْكُـوا عَـلَى القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «خُسِفَتْ قُلُوبُكُمُ»؛ يعني: ذهب نورُها وانطمس؛ كما يُخْسَفُ القمرُ.

٤٤٥٣- كَـمْ ذَا تَقُولُـوا: مُجْمَـلٌ وَمُفَصَّـلٌ ... وَظَـوَاهِرٌ عُزِلَـتْ عَـنِ الإِيقَـانِ

يعني: أنَّكم تَرُدُّون الكتابَ والسُّنَّةَ بمثلِ هذه الأقوالِ، تقولون: هذا مُجْمَلٌ، وهذا مُفَصَّلٌ، وهذه ظواهرُ لا تدلُّ على اليقينِ، وما أشبه ذلك، وهذا هو ما يذهبون إليه الآن، إذا رَأَوْا دليلًا خَالَفَ عقولَهم قالوا: هذا ظاهرٌ، والظَّاهرُ لا يدُلُّ على اليقينِ، نقولُ: وإذا كان الظَّاهرُ لا يدلُّ على اليقينِ فما الذي يدلُّ على اليقين؟!

٤٤٥٤- حَتَّـى إِذَا رَأْيُ الرِّجَـالِ أَتَـاكُمُ ... فَاسْـمَعْ لِـمَا يُـوحَى بِـلا بُرْهَـانِ

يعني: إذا جاءتكمُ الآراءُ فإنَّكم تسمعون لها بدُونِ أيِّ دليلٍ، الأدلَّةُ من الكتابِ والسُّنَّةِ تُردُّ، وآراءُ الرِّجالِ التي لا دليلَ لها تُقْبَلُ!

٤٤٥٥- مِثْلُ الخَفَافِيشِ الَّتِي إِنْ جَاءَهَا ضَوْءُ النَّهَارِ فَفِي كُوَى الـحِيطَانِ

الخفافيشُ نوعٌ من الطُّيورِ، لكنَّه طيرٌ بلا ريشٍ، جناحُه عبارةٌ عن لحمٍ متَّصلٍ بعضُه ببعضٍ، ولا يأتي إلَّا في الظَّلامِ، فلا يأتي في النَّهارِ أبدًا، ولا يأتي في اللَّيلِ المدْلَـهِمِّ، بل يأتي في أوَّلِ الليلِ وفي آخرِه، وهو غيرُ موجودٍ في الْـمُدُن الآن؛ لأنَّ الأنوارَ بها في اللَّيلِ كالأنوارِ في النَّهارِ، وهو يصيرُ في محلٍّ لا نورَ فيه؛ لأنَّ النُّورَ يُعْمِيه، إذا جاء «ضوءُ النَّهارِ ففي كُوَى الحيطانِ»، و(**الكُوَى**) جمع «**كُوَّة**»؛ يعني: تكون في الْفُرَج، تتعلَّق بالسُّقوف وهكذا.

٤٤٥٦- عَمِيَتْ عَنِ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ لا تُطِيـ ـقُ هِدَايَةً فِيهَا إِلَى الطَّيَرَانِ

فهو يقولُ: إنَّهم إذا عُرِضَتْ عليهم الأدلَّةُ من الكتابِ والسُّنَّةِ عَمَوْا عنها، كما تعمى الخفافيشُ في ضوءِ الشَّمسِ، وإذا عُرِضَت عليهم أقوالُ البشرِ قَبلوها وفَرِحُوا بها.

٤٤٥٧- حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَاءَ ظَلامُهُ جَالَتْ بِظُلْمَتِهِ بِكُلِّ مَكَانِ

هذا التَّشبيهِ المرادُ به التَّقبيحُ؛ يعني: أراد بتشبيهِهم بهذه الخَفَافِيشِ تقبيحَ حالِـهم.

٤٤٥٨- فَتَرَى الْمُوَحِّدَ حِينَ يَسْمَعُ قَوْلَـهُمْ وَيَرَاهُمُ في مِحْنَةٍ وَهَوَانِ

إذا رآهم الموحِّدُ وسَمِعَ قولَـهم صار في محنةٍ وهوانٍ، كما قال المتنبِّي:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَـهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ[1]

(١) في ديوانه (١/ ٣٧٥).

هذا من نَكَدِ الدُّنيا على الحرِّ، فهؤُلاءِ الْقومُ الذين يأتون إلى مجالسِ أهلِ السُّنَّةِ ويتكلَّمون معهم ويجادلونهم يُؤْذُون أهلَ السُّنَّةِ؛ يُؤْذُونهم برؤَيتِهم، ويُؤْذونهم بأقوالِـهم.

٤٤٥٩- وَارَحْمَتَـــاهُ لِعَيْنِـــهِ وَلِأُذْنِـــهِ   يَـــا مِحْنَـــةَ الْعَيْنَـــيْنِ وَالأُذُنَـــانِ

قَوْلُهُ: «وَارَحْمَتَاهُ لِعَيْنِهِ وَلأُذْنِهِ» لعينهِ إذا رآهم، ولأذنهِ إذا سَمِعَهم.

٤٤٦٠- إِنْ قَـالَ حَقًّـا كَفَّـرُوهُ، وَإِنْ يَقُـو   لُـوا بَـاطِلًا نَسَـبُوهُ لِلإِيـمَانِ

إن قال هذا السُّنِّيُّ حقًّا قالوا: (هذا كافرٌ)، وإن قالوا هم باطلًا قالوا: (هذا هو الإيمانُ)، فباطلُهم إيمانٌ، وحقُّ الْمُثْبِتِ كفرٌ.

٤٤٦١- حَتَّـى إِذَا مَـا رَدَّهُ عَـادَوْهُ مِثْـ   ـلَ عَـدَاوَةِ الشَّـيْطَانِ لِلإِنْسَـانِ

حتَّى إذا رَدَّ الباطلَ الذي نَسَبُوه للإيمانِ عَادَوْهُ «مِثْلَ عداوةِ الشَّيطانِ للإنسانِ»، فالشَّيطانُ قال للإنسانِ: ﴿ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ ﴾ [الحشر:١٦]؛ أي: تَبَرَّأَ منه وصَارَ من أعدائِه.

٤٤٦٢- قَالُوا لَهُ: (خَالَفْـتَ أَقْـوَالَ الشُّـيُو   خِ) وَلَـمْ يُبَالُوا الـخُلْفَ لِلفُرْقَـانِ

يعني: أنكروا عليه أنَّه خَالَفَ أقوالَ الشُّيوخِ، ولم يُبالوا أنَّهم خَالَفُوا الفرقانَ الذي هو القُرآنُ.

٤٤٦٣- خَالَفْـتُ أَقْـوَالَ الشُّـيُوخِ فَـأَنْتُمُ   خَـالَفْتُمُ مَـنْ جَـاءَ بِـالْقُرْآنِ

ولا شك أن الثَّانيَ أعظمُ، لأنَّه يقولُ: أنا (خَالَفْتُ أقوالَ الشُّيوخِ)، أمَّا أنتم فـ(خَالَفْتُم مَنْ جاء بالقرآنِ)، وهو الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم.

٤٤٦٤- خَـالَفْتُمُ قَـوْلَ الرَّسُـولِ، وَإِنَّـمَا خَالَفْـتُ مِـنْ جَـرَّاهُ قَـوْلَ فُـلانِ

يعني: خالفتم أنتم قولَ الرَّسولِ، أمَّا أنا فَخالَفْتُ «مِنْ جَرَّاهُ»؛ أي: من أجلِه ﷺ قولَ فلانٍ.

٤٤٦٥- يَـا حَبَّـذَا ذَاكَ الـخِلافُ، فَإِنَّـهُ عَـيْنُ الْوِفَـاقِ لِطَاعَـةِ الـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «يَا حَبَّذَا» هذه كلمةٌ يُرادُ بها الثَّناءُ.

يعني: ما أحسنَ هذا الخلافَ الذي سَلَكْتُهُ! لأنَّه (عينُ الوفاقِ لطاعةِ الرَّحمنِ)، فأنا مخالفٌ بزعمِكمُ، ولكنِّي موافقٌ لطاعةِ الله عزَّ وجلَّ.

* * *

٤٤٦٦- أَوَمَا عَلِمْـتَ بِـأَنَّ أَعْـدَاءَ الرَّسُـو لِ عَلَيْهِ عَـابُوا الـخُلْفَ بِالبُهْتَـانِ

٤٤٦٧- لِشُيُوخِهِمْ، وَلِـمَا عَلَيْهِ قَدْ مَضَـى أَسْـلافُهُمْ فِي سَـالِفِ الأَزْمَـانِ

٤٤٦٨- مَا العَيْبُ إِلَّا فِي خِلافِ الـنَّصِّ، لَا رأيِ الرِّجَـالِ وَفِكْـرَةِ الأَذْهَـانِ

٤٤٦٩- أَنْـتُمْ تَعِيبُونَـا بِهَـذَا، وَهْـوَ مِـنْ تَوْفِيقِنَـا، وَالفَضْـلُ لِلْمَنَّـانِ

٤٤٧٠- فَلْيَهْنِكُمْ خُلْفُ النُّصُوصِ، وَيَهْنِنَا خُلْفُ الشُّيُوخِ، أَيَسْتَوِي الخُلْفَانِ؟

٤٤٧١- وَالله مَا تَسْـوَى عُقُـولُ جَمِيـعِ أَهْـ ـلِ الأَرْضِ نَصًّـا صَـحَّ ذَا تِبْيَـانِ

٤٤٧٢- حَتَّـى نُقَـدِّمَهَا عَلَيْـهِ مُعَرِّضِيـ ـنَ مُـؤَوِّلِينَ مُـحَرِّفِـي القُـرْآنِ

٤٤٧٣- وَالله إِنَّ الـنَّصَّ فِـيمَا بَيْنَنَـا لأَجَـلُّ مِـنْ آرَاءِ كُـلِّ فُـلانِ

الشـرحُ

٤٤٦٦- أَوَمَا عَلِمْـتَ بِـأَنَّ أَعْـدَاءَ الرَّسُـو ... لِ عَلَيْهِ عَـابُوا الـخُلْفَ بِالبُهْتَـانِ

٤٤٦٧- لِشُيُوخِهِمْ، وَلِـمَا عَلَيْهِ قَدْ مَضَـى ... أَسْـلافُهُمْ فِي سَـالِفِ الأَزْمَـانِ

يعني: أنَّ أعداءَ الرَّسولِ عابوا على النَّبِيِّ ﷺ الخُلْفَ لشيوخِهم، لكنَّ هذا العيبَ صدقٌ أو بهتانٌ؟ الجوابُ: بهتانٌ، فالنَّبيُّ ﷺ لا يُعَابُ بمخالفةِ شيوخِهم لتوحيدِ الله عزَّ وجلَّ، هم يقولون: هذا خَالَفَ آباءَنا، سَفَّهَ عقولَهم، أغوى شبابَنا، وما أشبه ذلك، وهم أهلُ العيبِ، يقولُ المؤلِّفُ رحمه الله:

٤٤٦٨- مَا العَيْبُ إِلَّا فِي خِلافِ الـنَّصِّ، لَا ... رأيِ الرِّجَـالِ وَفِكْـرَةِ الأَذْهَـانِ

العيبُ هو ما كان فيه خلافُ النَّصِّ؛ أي: إنَّ العيبَ حقيقةً مخالفةُ النَّصِّ لا مخالفة الآراءِ.

٤٤٦٩- أَنْـتُمْ تَعِيبُونَـا بِهَـذَا، وَهْـوَ مِـنْ ... تَوْفِيقِنَـــا، وَالفَضْـــلُ لِلْمَنَّـــانِ

وَصَدَقَ رحمهُ اللهُ، في كَوْنِهم يعيبون علينا أن نأخذَ بالنَّصِّ، أمَّا نحن فنرى أنَّ هذا من التَّوفيقِ، والفضلُ للمنَّانِ.

٤٤٧٠- فَلْيَهْنِكُمْ خُلْفُ النُّصُوصِ، وَيَهْنِنَا ... خُلْفُ الشُّيُوخِ، أَيَسْتَوِي الخُلْفَانِ؟

قَوْلُهُ: «أَيَسْتَوِي الخُلْفَانِ؟» الجوابُ: لا.

نحن نهنأُ بمخالفةِ الشُّيوخِ إذا كانوا على باطلٍ، وأنتم لِيَهْنِكُمْ خُلْفُ النُّصوصِ، وهذا لا شكَّ أنَّه من التَّهكُّمِ بهم؛ إذ لا يستوي الخُلْفَانِ: فخُلْفُ الشُّيوخِ مع مخالفة النَّصِّ واجبٌ، وخُلْفُ النُّصوصِ مُحَرَّمٌ.

٤٤٧١- وَاللهِ مَا تَسْوَى عُقُولُ جَمِيعِ أَهْـ ـلِ الأَرْضِ نَصًّا صَحَّ ذَا تِبْيَانِ

٤٤٧٢- حَتَّى نُقَدِّمَهَا عَلَيْهِ مُعَرِّضِيـ ـنَ مُؤَوِّلِينَ مُحَرِّفِي القُرْآنِ

وهذا صحيحٌ؛ يعني: لو أنَّنا وزنَّا عقولَ جميعِ أهلِ الأرضِ بنصٍّ صَحَّ عن النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ما ساوته هذه العقولُ حتَّى نقدِّمَها؛ يعني: لا يمكنُ أن نقدِّمَها؛ لأنَّها لا تُسْوَى.

٤٤٧٣- وَاللهِ إِنَّ النَّصَّ فِيمَا بَيْنَنَا لأَجَلُّ مِنْ آرَاءِ كُلِّ فُلانِ

وصدق في يمينِهِ، وبَرَّ فيها، فالنَّصُّ فيما بيننا أَجَلُّ من آراءِ كُلِّ أحدٍ.

* * *

٤٤٧٤- وَاللهِ لَمْ يَنْقِمْ عَلَيْنَا مِنْكُمُ أَبَدًا خِلافَ النَّصِّ مِنْ إِنْسَانِ

٤٤٧٥- إِلَّا خِلافَ الأَشْعَرِيِّ بِزَعْمِكُمْ وَكَذَبْتُمُ أَنْتُمْ عَلَى الإِنْسَانِ

٤٤٧٦- كَفَّرْتُمُ مَنْ قَالَ مَا قَدْ قَالَهُ فِي كُتْبِهِ حَقًّا بِلا كِتْمَانِ

٤٤٧٧- هَذَا وَخَالَفْنَاهُ فِي القُرْآنِ مِثْـ ـلَ خِلافِكُمْ فِي الفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ

٤٤٧٨- فَالأَشْعَرِيُّ مُصَرِّحٌ بِالإِسْتِوَا ءِ وَبِالعُلُوِّ بِغَايَةِ التِّبْيَانِ

٤٤٧٩- وَمُصَرِّحٌ أَيْضًا بِإِثْبَاتِ اليَدَيْـ ـنِ وَوَجْهِ رَبِّ العَرْشِ ذِي السُّلْطَانِ

٤٤٨٠- وَمُصَرِّحٌ أَيْضًا بِأَنَّ لِرَبِّنَا سُبْحَانَهُ عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ

٤٤٨١- وَمُصَرِّحٌ أَيْضًا بِإِثْبَاتِ النُّزُو لِ لِرَبِّنَا نَحْوَ الرَّفِيعِ الدَّانِي

٤٤٨٢- وَمُصَرِّحٌ أَيْضًا بِإِثْبَاتِ الأَصَا بِعِ مِثْلُ مَا قَدْ قَالَ ذُو البُرْهَانِ

٤٤٨٣- وَمُصَــرِّحٌ أَيْضًــا بِــأَنَّ اللهَ يَــوْ مَ الـحَشْرِ يُبْصِــرُهُ أُولُـو الإِيـمَانِ

٤٤٨٤- جَهْـرًا يَـرَوْنَ اللهَ فَـوْقَ سَـمَائِهِ رُؤْيَـا العِيَـانِ كَـمَا يُـرَى القَمَـرَانِ

٤٤٨٥- وَمُصَرِّحٌ أَيْضًـا بِإِثْبَـاتِ الـمَجِي ءِ وَأَنَّــهُ يَــأْتِي بِــلا نُكْــرَانِ

٤٤٨٦- وَمُصَــرِّحٌ بِفَسَـادِ قَـوْلِ مُـؤَوِّلٍ لِلإِسْـتِوَاءِ بِقَهْـرِ ذِي السُّـلْطَانِ

٤٤٨٧- وَمُصَرِّـحٌ أَنَّ الأُلَى قَـالُوا بِـذَا التْـ ـتَأْوِيلِ أَهْــلُ ضَــلالَةٍ بِبَيَــانِ

٤٤٨٨- وَمُصَــرِّحٌ أَنَّ الَّــذِي قَــدْ قَالَــهُ أَهْلُ الـحَدِيثِ وَعَسْكَرُ القُرْآنِ

٤٤٨٩- هُــوَ قَوْلُــهُ يَلْقَـى عَلَيْــهِ رَبَّــهُ وَبِــهِ يَــدِينُ اللهَ كُــلَّ أَوَانِ

الشرحُ

٤٤٧٤- وَاللهِ لَــمْ يَــنْقِمْ عَلَيْنَـا مِــنْكُمُ أَبَـدًا خِـلافَ الـنَّصِّ مِـنْ إِنْسَـانِ

٤٤٧٥- إِلَّا خِـلافَ الأَشْـعَرِيِّ بِـزَعْمِكُمْ وَكَــذَبْتُمُ أَنْــتُمْ عَــلَى الإِنْسَــانِ

قَوْلُهُ: «**إِلَّا خِلَافَ الأَشْعَرِيِّ**»، وفي نسخةٍ: «**لَكِنْ خِلَافَ الأَشْعَرِيِّ**»، والأولى أوضحُ.

يعني: أنَّكم لم تنقموا علينا منَّا خلافَ النَّصِّ أبدًا، وإنَّما تنقمون خلافَ الأشعريِّ بزعمِكم؛ يعني: أنتم تقولون: إنَّكم خالفتم الأشعريَّ ولم تنقموا علينا يومًا من الأيَّامِ أنَّنا خالَفْنَا النَّصَّ.

قَوْلُهُ: «**وَكَذَبْتُمُ أَنْتُمْ عَلَى الإِنْسَانِ**» يريدُ «**بِالإِنْسَانِ**» الأشعريَّ، كذبتم عليه بأنَّه يوافقُكم ويخالفُنا.

٤٤٧٦- كَفَّـرْتُمُ مَـنْ قَـالَ مَـا قَـدْ قَالَـهُ فِي كُتْبِـهِ حَقًّـا بِـلا كِـتْمَانِ

يعني: أنَّهم كفَّروا مَنْ قال ما قال الأشعريُّ في كتبِه؛ لأنَّهم يُنكرون أنْ يكونَ الأشعريُّ تَابَعَ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ في آخرِ الأمرِ.

ثُمَّ قال المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- مُبيِّنًا أنَّنا نحن نوافقُ الحقَّ أينما كان سواء كان من الأشعريِّ أم من غيرِه، يقولُ:

٤٤٧٧- هَـذَا وَخَالَفْنَـاهُ فِي القُـرْآنِ مِثْـلَ خِلافِكُـمْ فِي الفَـوْقِ لِلـرَّحْمَنِ

يعني: مثلما خالفتموه أنتم في الفوقِ للرَّحمنِ نحن خالفناه في القرآنِ؛ لأنَّه -رحمه الله- يَرَى أنَّ كلامَ الله هو المعنى القَائِمُ بنفسِه؛ أي: الكلامُ النفسيُّ، الذي سَبَقَ أنَّ ابنَ القيِّمِ -رحمه الله- ذكر أنَّ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ رَدَّ عليه من تسعين وجهًا.

قَوْلُهُ: «مِثْلَ خِلَافِكُمْ لَهُ فِي الفَوْقِ لِلرَّحْمَنِ» فهو يؤمنُ بفوقيَّةِ الله وأنتم تُنكرونها؛ لأنَّ الأشاعرةَ يقولون: إنَّ اللهَ ليس فوقَ العالَـمِ ولا تحتَ العالَـمِ، ولا يمينَ العالَـمِ ولا شمالَ العالَـمِ، ولا متَّصلًا ولا منفصلًا، ولا مباينًا ولا محايثًا، إذَنْ يكونُ لا شيء، أمَّا الأشعريُّ -رحمه الله تعالى- فقال وصَرَّحَ بأنَّ اللهَ فوقَ سماواتِه.

٤٤٧٨- فَالأَشْـعَرِيُّ مُصَـرِّحٌ بِالإِسْـتِوَا ءِ وَبِـالعُلُوِّ بِغَايَـةِ التِّبْيَـانِ

والأشاعرةُ لا يقولون لا بهذا ولا بهذا، لا يُؤمنون بالاستواءِ على معناه الحقيقيِّ، ولا يؤمنون بعلوِّ الله عزَّ وجلَّ، والأشعريُّ الذي يدَّعون أنَّهم مُتَّبِعُونَ له مؤمنٌ بالاستواءِ والعلوِّ.

٤٤٧٩- وَمُصَــرِّحٌ أَيْضًــا بِإِثْبَــاتِ اليَدَيْــ ـنِ وَوَجْهِ رَبِّ العَرْشِ ذِي السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَمُصَرِّحٌ أَيْضًا بِإِثْبَاتِ اليَدَيْنِ» الأشعريُّ مُصَرِّحٌ بإثباتِ اليدين لله عزَّ وجلَّ، فللَّهِ يدان اثنتان، كلتاهما يمينٌ من حيث البركة، ومن حيث القوَّة، ومن حيث البسط، ولكن إحداهما يمينٌ وإحداهما شمالٌ من حيث ذات اليدِ، وبهذا نجمعُ بين الأحاديثِ الواردةِ بإثباتِ الشِّمال لله(١) عزَّ وجلَّ والأحاديثِ التي ورد فيها أنَّ «كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»(٢).

وقد وَرَدَت اليدان في القرآنِ الكريمِ وكذلك في السُّنَّةِ على أوجهٍ ثلاثةٍ: الجمع، والتَّثنية، والإفراد، أمَّا الجمعُ فكقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس:٧١]، وأمَّا الإفرادُ فكقولِه تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]، وأمَّا التَّثنية فكقولِه تعالى يخاطبُ إبليسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، وكقولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، والجمعُ بين هذه الأوجهِ الثَّلاثةِ سهلٌ بأن نقولَ: أمَّا الجمعُ فإنَّما جُمِعَتْ للتَّعظيمِ والتَّناسب بين المضافِ والمضافِ إليه، المضافُ إليه «نا» الدَّالَّةُ على العظمةِ، فجُمِعَت «اليد» لتكونَ مناسبةً لـ«نا» التي للعظمةِ.

وأمَّا التَّثنية فلأنَّ ذلك هو الحقيقة أنَّ لله يدين اثنتين، وأمَّا الإفرادُ فإنَّ المفردَ المضافَ لا يمنعُ التَّعدُّدَ؛ لأنَّه يعمُّ، وبهذا يصحُّ التَّعبيرُ بالتَّثنيةِ والإفرادِ والجمعِ.

---

(١) كما في قوله ﷺ: «يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْـمَلِكُ، أَيْنَ الْـجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْـمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْـمَلِكُ أَيْنَ الْـجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْـمُتَكَبِّرُونَ؟». أخرجه مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، رقم (١٨٢٧).

قَوْلُهُ: «وَوَجْهِ رَبِّ العَرْشِ ذِي السُّلْطَانِ» الأشعريُّ -رحمه الله- أيضًا يؤمنُ بأنَّ اللهَ له وجهٌ، قال اللهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٢٧]، وأمَّا أتباعُ الأشعريِّ الذين هم الأشاعرةُ فلا يؤمنون بوجهِ الله، بل يُحرِّفونه.

٤٤٨٠- وَمُصَـــرِّحٌ أَيْضًـــا بِــأَنَّ لِرَبِّنَـــا سُــبْحَانَهُ عَيْنَـــانِ نَاظِرَتَـــانِ

المُصَرِّحُ هو الأشعريُّ يُصَرِّحُ «أَنَّ لِرَبِّنَا عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ»، وهنا قال: «بِأَنَّ لِرَبِّنَا... عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ»، ابنُ القيِّمِ -رحمه الله تعالى- في هذه النُّونيَّةِ يرفعُ المثنَّى -أحيانًا- في موضعِ النَّصبِ، وفي موضعِ الجرِّ، ويرفعُه؛ يعني: يجعلُه بالألفِ؛ إمَّا لضرورةِ الشِّعرِ، وإمَّا على لغة مَنْ يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ مطلقًا.

والذي يظهرُ لي -واللهُ أعلمُ- أنَّه لأجلِ الضَّرورةِ؛ لأنَّه مَرَّ علينا قبل ذلك أنَّه عطف مثنًّى بالألفِ على مثنًّى بالياءِ، وهذا يدلُّ على أنَّه إنَّما يفعلُ ذلك للضَّرورةِ، وقد ذَهَبَ بعضُ العلماءِ إلى أنَّ ضرورةَ الشِّعرِ كما تُوجِبُ أحيانًا صرفَ ما لا ينصرفُ، كذلك تُوجِبُ تغييرَ الحرفِ؛ أي: تغيير ما يُعْرَبُ بالحروفِ.

قَوْلُهُ: «عَيْنَانِ نَاظِرَتَانِ» وهذا الذي أجمع عليه أهلُ السُّنَّةِ أنَّ لله عينَيْنِ ناظرتَيْنِ ينظرُ بهما عزَّ وجلَّ، وقد وَرَدَت العينان بصفةِ الجمعِ، وبصفةِ الإفرادِ، فبصفةِ الجمعِ كقولِه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، وبصفةِ الإفرادِ كقولِه تعالى يخاطبُ موسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، فنقولُ في الجمعِ بينهما كما قلنا في الجمعِ بين اليدين؛ أنَّ الجمعَ للتَّعظيمِ والمناسبةِ، والتَّعظيمُ واضحٌ، والمناسبة؛ لأنَّها أُضِيفَت إلى ما يفيدُ العظمةَ، أمَّا الإفراد فلأنَّه مفردٌ مضافٌ فلا ينافي التَّعدُّدَ؛ إذ إنَّ المفردَ المضافَ يكونُ للعمومِ.

وهل وَرَدَت العينان بصفة التَّثنيةِ؟ نقولُ: جاءت في السُّنَّةِ، لكن جاءت على وجهين:

الوجه الأوَّل: أنَّها وردت بلفظٍ صريحٍ وهو قولُه: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ بَيْنَ عَيْنَيِ الرَّحْمَنِ**»(١)، ولكنَّ في صحَّتِه نظرًا إلَّا أنَّه يقوِّيه ما ثَبَتَ في الصَّحيحين وغيرِهما في وصفِ الدَّجَّال: «**إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»(٢)؛ أي: أعور العين لا أعور البدن، من العَوَر وهو العيبُ؛ لأنَّه جاء مُصَرَّحًا به، وهذا يدلُّ قطعًا على أنَّ الله عينين فقط؛ لأنَّه لو كان له أكثرُ من عينين لكانت الزِّيادةُ على العينين كمالًا، وإذا كانت كمالًا فلا بُدَّ أن تُذْكَرَ، وإذا ذُكِرَت حَصَلَ الفرقُ أو التَّمييزُ بين هذا الأعورِ الدَّجَّالِ وبين ربِّ العالمين عزَّ وجلَّ، فيظهرُ الفرقُ بالزِّيادةِ، أمَّا كونُ الرَّسولِ ﷺ يجعلُ الفرقَ أنَّه أعورُ فهذا يدلُّ قطعًا على أنَّ الله عينين اثنتين لا زيادة، ووجهُ ذلك أنَّه لو كان له أكثرُ من ثنتين لكان الزَّائدُ كمالًا، وإذا كان كمالًا فإنَّه لا يمكنُ أن يُهْمِلَه الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ويغفلَه، ولقال: «**إنَّ ربَّكم له ثلاث أو أربع أو عشر**»، فلمَّا لم يذكره عُلِمَ أنَّه لا يزيدُ على عينين، لكن التَّمييز؛ لأنَّ عَيْنَي الدَّجَّال عَوْراوَيْنِ بخلاف عَيْنَي الرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

وهذا أيضًا أمرٌ قد أجمع عليه سلفُ الأُمَّةِ، فكُلُّ مَنْ تكلَّم من أصحابِ كتبِ العقائدِ يذكرونها بالتَّثنيةِ، وقد ذكر الأشعريُّ -رحمه الله- في كتاب «**الإبانة**»

---

(١) أخرجه العقيلى (١/ ٧٠ ترجمة ٧٢ إبراهيم بن يزيد الخوزى)، والبزار كما في كشف الأستار (١/ ٢٦٨، رقم ٥٥٣) . قال الهيثمى (٢/ ٨٠) : فيه إبراهيم بن يزيد الخوزى، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم:١٦]، رقم (٣٤٣٩)، مسلم: كتاب الإيمان، باب ذِكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال، رقم (١٦٩).

أنَّ أهلَ السُّنَّةِ أجمعوا على ذلك، وذكره -أيضًا- غيرُه، وبهذا نعرفُ أنَّ ما حصل من بعض الطَّلبةِ الصِّغارِ من الذَّبذبةِ حول العينين لا أصلَ له، وهم لم يفهموا معنى: «**إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»، لو فطنوا لما ذكرناه لكان الأمرُ جليًّا واضحًا.

٤٤٨١- وَمُصَـــرِّحٌ أَيْضًــا بِإِثْبَــاتِ النُّــزُو ... لِ لِرَبِّنَــا نَحْــوَ الرَّفِيــعِ الــدَّانِي

مَن المُصَرِّحُ؟ الجوابُ: الأشعريُّ، فالأشعريُّ مصرِّحٌ بإثباتِ نزولِ ربِّنا نحوَ الرَّفيعِ الدَّاني، والرَّفيعُ الدَّاني؛ يعني: السَّماءَ الدُّنْيَا؛ لأنَّه بالنِّسبة لأهلِ الأرضِ رفيعٌ، وبالنِّسبة للسَّماواتِ دَانٍ.

٤٤٨٢- وَمُصَـــرِّحٌ أَيْضًــا بِإِثْبَــاتِ الأَصَــا ... بِــعِ مِثْلُ مَــا قَــدْ قَــالَ ذُو البُرْهَــانِ

قَوْلُهُ: «**ذُو البُرْهَانِ**»؛ أي: الرَّسولُ صلواتُ الله وسلامُه عليه.

فالأشعريُّ مُصَرِّحٌ بأنَّ لله أصابعَ كما أخبر بذلك النَّبِيُّ ﷺ حين قال: «**مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ**»[1].

الأشاعرةُ الذين يدَّعون أنَّهم أتباعُ الأشعريِّ أنكروا الأصابعَ، وقالوا: لا يمكنُ أن يكونَ لله أصابعُ، نقولُ: مَنْ الذي قال هذا؟ الجوابُ: أعلمُ الخلقِ بالله محمَّدٌ صلواتُ الله وسلامُه عليه، قالوا: هذا يمنعُه اللَّفظُ؛ لأنَّه قال: «**مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ**»، وهذا يقتضي أنْ تكونَ أصابعُ الله في أجوافِنا؛ لأنَّك إذا قلت: «**هذا بين أصابعي**» معناه أنَّ الأصابعَ مسَّته، وإذا مسَّت القلبَ لَزِمَ أن تكونَ أصابعُ الله في صدورِنا، وهذا مستحيلٌ، إذَنْ فلا يُرَادُ بالحديثِ ظاهرُه.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، رقم (٢٦٥٤).

فنقولُ لهم: إِنَّ النَّبِيَّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يخاطبُ الأُمَّةَ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، ولا يمكنُ أن يخاطبَهم بمثلِ هذه الصَّراحةِ وهو يريدُ غيرَها إلَّا يُبيِّنُها ولم يُبيِّن، وقولُكم: إنَّه لا بُدَّ أن تكونَ هناك مماسَّةٌ، هذا غيرُ صحيحٍ، فالبينيَّةُ لا تستلزمُ المماسَّةَ، ألم تسمعوا قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]، ومع ذلك هل هو مماسٌّ للسَّماءِ والأرضِ؟ الجوابُ: لا، غيرُ مماسٍّ، فالسَّماءُ بعيدةٌ منه والأرضُ بعيدةٌ منه، ألم تسمعوا النَّاسَ يقولون: «المدينةُ بين دمشق ومكَّةَ»، وهل هي محادَّةٌ لها؟ الجوابُ: لا، إذَنْ البينيَّةُ في المكانِ لا تستلزمُ المماسَّةَ أبدًا، وبهذا نعرفُ أنَّ المرادَ بالحديثِ حقيقتُه، وأنَّ القلوبَ بين أُصبعين من أصابعِ الله، وليس المرادُ كما قالوا: إنَّها كنايةٌ عن التَّدبيرِ والسُّلطانِ التَّامِّ.

٤٤٨٣- وَمُصَرِّحٌ أَيْضًا بِأَنَّ اللهَ يَوْ ... مَ الحَشْرِ يُبْصِرُهُ أُولُو الإِيمَانِ

٤٤٨٤- جَهْرًا يَرَوْنَ اللهَ فَوْقَ سَمَائِهِ ... رُؤْيَا العِيَانِ كَمَا يُرَى القَمَرَانِ

يعني: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُرَى يومَ الحشرِ؛ يعني: يومَ القيامةِ، وقائلُ هذا هو الرَّسولُ ﷺ، قال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ»[1]، وقال: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ»[2]، وهل أبلغُ من هذا التَّحقيقِ «كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ؟!» هذه

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٢٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

الرُّؤيةُ يُخاطِبُ بها النَّبيُّ ﷺ قومًا يفهمون اللِّسانَ العربيَّ وأنَّها رؤيةٌ حقيقيَّةٌ، ولكن أنكر الأشاعرةُ رؤيةَ الله، وقالوا: إنَّ اللهَ لا يُرَى، كيف يُرَى هل هو جسمٌ حتَّى يُرَى؟! لا يمكنُ أن يُرَى، ويقولون: دليلُنا من القرآنِ الكريمِ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] هذه واحدةٌ، وقولُه تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣]، و«لَنْ»: نافيةٌ للتَّأبيدِ؛ يعني: لن تراني لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، كيف تقولون أنتم: إنَّ اللهَ يُرَى؟!

نقولُ لهم: الحمدُ لله الذي جعل ما استدللتم به عليكم، فقولُه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يدلُّ على أنَّه يُرَى؛ لأنَّه لو لم يُرَ لقال: «لَا تَرَاهُ»، فلمَّا نَفَى الأخصَّ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ دَلَّ على وجودِ الأعمِّ وهو الرُّؤية، وأنَّ هناك رؤيةً لكن بدون إدراكٍ، قالوا: سبحان الله! هل يمكنُ رؤيةٌ بدون إدراكٍ؟ نقولُ: يمكنُ، أنتم الآن تَرَوْنَ الشَّمسَ ولا تُدركونها، مع أنَّنا نقولُ: لو سلَّمنا جدلًا أنَّه لا يمكنُ رؤيةٌ بدون إدراكٍ في المخلوقِ فإنَّ هذا في الخالقِ ممكنٌ؛ لأنَّ اللهَ ليس كَمِثْلِهِ شيءٌ، وإذا كُنَّا لا نحيطُ علمًا بالله ونحن نحيطُ علمًا بالمخلوقاتِ التي ندركُها فإنَّ هذا كذلك.

أمَّا قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ فالآيةُ دليلٌ عليكم أيضًا؛ لأنَّنا لو جعلنا الرُّؤيةَ مستحيلةً في حقِّ الله وهي عندكم مستحيلةٌ؛ لأنَّ رؤيةَ الله نقصٌ على زعمِكم؛ لأنَّهم يقولون: إذا رُئِيَ اللهُ فهو جسمٌ، والجسمُ نقصٌ.

نقولُ: لو كانت الرُّؤيةُ مستحيلةً لكونها نقصًا في حقِّ الله هل يمكنُ أن يسألَها رسولٌ من أولي العزمِ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، كما أنَّه لا يمكنُ أن يقولَ رسولٌ من أولي العزمِ: «**يا ربِّ أرني عجزَك، أو أرني ظلمَك**»، فإذا كان موسى سأل دَلَّ هذا على إمكانِ الرُّؤيةِ، لكنَّها في الدُّنيا لا تمكنُ؛ لعدمِ قدرةِ الإنسانِ على تحمُّلِها؛

ولهذا قال اللهُ له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾؛ يعني: في الدُّنيا؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يتحمَّلَ الرُّؤيةَ، ولكن انظر إلى الجبلِ، وهذا قياسٌ، ﴿انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، فلَّما نَظَرَ إلى الجبلِ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف:١٤٣]، اندكَّ وصار ترابًا، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف:١٤٣]، فموسى عليه السَّلامُ انبهر من عظمةِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]، إذَنْ الآيةُ فيها ما يدلُّ على إمكانِ الرُّؤيةِ بسؤالِ موسى له.

وأمَّا قولهُم: «**إنَّ «لَنْ» تقتضي التَّأبيدَ**» فقولٌ يردُّه القرآنُ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٩٥]، ومع ذلك أخبر اللهُ عن أهلِ النَّارِ أنَّهم يقولون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزُّخرف:٧٧] يتَمَنَّون الموتَ، وهو يقولُ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة:٩٥]، فأتى بـ«**أبدًا**».

إذَنْ «**لَنْ**» في قولِه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ذلك في الدُّنيا، أمَّا الآخرةُ فلها شأنٌ آخرُ، فالذي ندينُ اللهَ به أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُرَى يومَ القيامةِ بالبصرِ، ولكنَّنا لا نحيطُ به؛ لأنَّ اللهَ أعظمُ وأجلُّ من أن تدركَه الأبصارُ.

والرَّبُّ عزَّ وجلَّ يراه أهلُ الإيمانِ رؤيةَ رضًا في عَرَصَاتِ القيامةِ وبعد دخولِ الجنَّةِ، ويراه كذلك المنافقون في عَرَصَاتِ القيامةِ، ولكنَّهم بعد ذلك يُحْجَبُون، والحكمةُ من هذا زيادةُ الحسرةِ عليهم والعياذُ بالله؛ ولأنَّهم آمنوا ثُمَّ كفروا، ويراه كذلك الكُفَّارُ على قولِ بعضِ أهلِ العلمِ، ولكنَّه يحتجبُ عنهم، وظاهرُ النُّصوصِ أنَّ الكُفَّارَ الخُلَّصَ لا يَرَوْنَهُ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

٤٤٨٥- وَمُصَرِّحٌ أَيْضًا بِإِثْبَاتِ الْـمَجِي ءِ وَأَنَّـهُ يَـأْتِي بِـلا نُكْـرَانِ

مَنِ المُصَرِّحُ؟ الجوابُ: أبو الحسن الأشعريُّ -رحمه الله- صَرَّحَ بأنَّ اللهَ تعالى يأتي يومَ القيامةِ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨]، وهذا الإتيانُ هو إتيانُ الله تعالى حقيقةً، فهو يأتي بنفسِه، ولكن هل يأتي على كيفيَّةٍ معلومةٍ لنا؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ هذا أمرٌ غيبيٌّ، وقد أخبرنا اللهُ أنَّه يأتي، ولم يقل: إنَّه يأتي على كيفيَّةٍ معيَّنةٍ، وهل لإتيانِه كيفيَّةٌ؟ الجوابُ: نعم، لا بُدَّ أن يكونَ على كيفيَّةٍ، فما من موجودٍ إلَّا وله كيفيَّةٌ، ولكن هي غيرُ معلومةٍ لنا؛ ولهذا قال الإمامُ مالكٌ في الاستواءِ: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ»، أمَّا الاستواءُ فهو «غَيْرُ مَجْهُولٍ»؛ لأنَّه معلومُ المعنى.

٤٤٨٦- وَمُصَـرِّحٌ بِفَسَـادِ قَـوْلِ مُـؤَوِّلٍ لِلإِسْـتِوَاءِ بِقَهْـرِ ذِي السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «مُصَرِّحٌ بِفَسَادِ قَوْلِ مُؤَوِّلٍ للإِسْتِوَاءِ بِالقَهْرِ» مَنْ هؤلاء؟ هم الأشاعرةُ والمعتزلةُ ونحوُهم ممَّن عطَّلوا الأفعالَ الاختياريَّة، وقالوا: لا يمكنُ أن يستويَ اللهُ على العرشِ استواءَ استقرارٍ أو علوٍّ؛ لأنَّ هذا يستلزمُ أن يكونَ جسمًا، وقال بعضُهم: يستلزمُ أن يكونَ محدودًا؛ لأنَّ العرشَ محدودٌ له قوائمُ؛ أي: محدَّدٌ، فإذا قلت: «إنَّه استوى على العرشِ» جَعَلْتَ اللهَ محدودًا، إذَنْ علَّلوا هذا بوجهين:

الوجه الأوَّل: إذا جَعَلْتَ الاستواءَ حقيقةً لَزِمَ أن يكونَ اللهُ جسمًا، والأجسامُ متماثلةٌ على زعمِهم.

الوجه الثَّاني: إذا جَعَلْتَ الاستواءَ حقيقةً صار محدودًا على محدودٍ؛ يعني: يلزمُ من هذا أن يكونَ اللهُ محدودًا، واللهُ عزَّ وجلَّ لا يحدُّه شيءٌ.

إذَنْ ما المعنى على رأيِهم؟ يقولون: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ يعني: «اسْتَوْلَى ومَلَكَ وقَهَرَ»، وقد علمتم أنَّ بعضَهم من أجلِ هذا التَّأويلِ ادَّعى أنَّ خلقَ العرشِ بعد خلقِ السَّماواتِ من أجلِ ألَّا يقولَ قائلٌ: إذا كان اللهُ لم يستولِ على العرشِ إلَّا بعد خلقِ السَّماواتِ فمَن الذي له العرشُ قبل ذلك؟ ومعلومٌ أنَّ تفسيرَ الاستواءِ بالقهرِ والغلبةِ باطلٌ من وجوهٍ كثيرة: أنَّه خلافُ ما أجمع عليه السَّلفُ، وأنَّه خلافُ ما تقتضيه اللُّغةُ، وأنَّه يتضمَّنُ أنَّ العرشَ قبل خلقِ السَّماواتِ والأرضِ ملكٌ لغيرِ الله، وأنَّه يجوزُ أن نقولَ: إنَّ اللهَ استوى على الأرضِ؛ لأنَّه مُستَولٍ عليها وغالبٌ لها وقاهرٌ لها ومالكٌ لها، بل نقولُ: إنَّ اللهَ استوى على أخبثَ من هذا على زعمِهم، فهو يستلزمُ لوازمَ باطلةً، فهو باطلٌ؛ لأنَّ ما لَزِمَ منه الباطلُ فهو باطلٌ.

٤٤٨٧- وَمُصَرِّحٌ أَنَّ الأُلَى قَالُوا بِذَا التْـ ـتَأْوِيلِ أَهْلُ ضَلالَةٍ بِبَيَانِ

ولا شكَّ أنَّهم ضالُّون، وأيُّ ضلالٍ أبلغُ من ضلالِ شخصٍ يقولُ: «إنَّ اللهَ لم يستوِ على عرشِه»؛ أي: لم يَعْلُ عليه؟! ونحن نؤمنُ بأنَّ اللهَ مُستَوٍ على العرشِ؛ أي: عالٍ عليه، ولكن هل هذا العلوُّ هو العلوُّ العامُّ على جميعِ المخلوقاتِ؟ الجوابُ: لا، هذا علوٌّ خاصٌّ.

ونحن نضربُ مثلًا ولله المثلُ الأعلى: لو أنَّ شخصًا نصَب كرسيًّا على السَّطحِ وجلس عليه يكونُ مستويًا على الكرسيِّ، وهو في الوقتِ نفسِه عالٍ على الكرسيِّ وعلى السَّطحِ، فاستواءُ الله على العرشِ ليس هو العلوَّ الشَّاملَ لكُلِّ المخلوقاتِ، بل هو علوٌّ خاصٌّ يختصُّ بالعرشِ؛ ولهذا لا يصلحُ أن تقولَ: إنَّ اللهَ استوى على السَّماءِ أو على الأرضِ مع أنَّه عالٍ عليهما.

٤٤٨٨- وَمُصَــرِّحٌ أَنَّ الَّــذِي قَــدْ قَالَــهُ أَهْلُ الـحَدِيثِ وَعَسْكَرُ القُرْآنِ

٤٤٨٩- هُــوَ قَوْلُــهُ يَلْقَــى عَلَيْــهِ رَبَّــهُ وَبِــهِ يَــدِينُ اللهَ كُــلَّ أَوَانِ

أبو الحسن الأشعريُّ يُصَرِّحُ أنَّ قولَه ما قاله أهلُ الحديثِ وعسكرُ القرآنِ يلقى عليه ربَّه، وبه يدينُ اللهَ كُلَّ أوانٍ.

* * *

٤٤٩٠- لَكِنَّــهُ قَــدْ قَــالَ إِنَّ كَلامَــهُ مَعْنًــى يَقُــومُ بِرَبِّنَــا الــرَّحْمَنِ

٤٤٩١- فِي القَــوْلِ خَالَفْنَــاهُ نَحْــنُ وَأَنْــتُمُ فِي الفَــوْقِ وَالأَوْصَــافِ لِلــدَّيَّانِ

٤٤٩٢- لِـمَ كَانَ نَفْسُ خِلافِنَـا كُفْـرًا وَكَـا نَ خِلافُكُمْ هُوَ مُقْتَضَــى الإِيـمَانِ

٤٤٩٣- هَــذَا وَخَــالَفْتُمْ لِــنَصٍّ حِــينَ خَــا لَفْنَــا لِــرَأْيِ الــجَهْمِ ذِي البُهْتَــانِ

٤٤٩٤- وَاللهِ مَــا لَكُــم جَــوَابٌ غَــيْرَ تَكْـــ ـــفِيرٍ بِــلا عِلْــمٍ وَلا إِيقَــانِ

٤٤٩٥- أَسْــتَغْفِرُ اللهَ العَظِــيمَ لَكُــمْ جَــوَا بٌ غَيْرَ ذَا الشَّكْوَى إِلَى السُّلْطَانِ

٤٤٩٦- فَهُوَ الـجَوَابُ لَدَيْكُمُ وَلَنَحْنُ مُنْـــ ـــتَظِرُوهُ مِــنْكُمْ يَــا أُولِي البُرْهَــانِ

٤٤٩٧- وَاللهِ لا لِلأَشْــــعَرِيِّ تَبِعْـــــتُمُ كَــلَّا وَلا لِلــنَّصِّ بِالإِحْسَــانِ

٤٤٩٨- يَا قَوْمُ فَـانْتَبِهُوا لأَنْفُسِـكُمْ وَخَلْـــ ـــلُوا الـجَهْلَ وَالدَّعْوَى بِلا بُرْهَانِ

٤٤٩٩- مَا فِي الرِّيَاسَةِ بِالجَهَالَةِ غَيْرُ ضِحْـــ ـــكَةِ عَاقِلٍ مِـنْكُمْ مَـدَى الأَزْمَـانِ

٤٥٠٠- لا تَرْتَضُــوا بِرِيَاسَــةِ البَقَــرِ الَّتِــي رُؤَسَــاؤُهَا مِــنْ جُمْلَــةِ الثِّــيرَانِ

الشـرحُ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه الله- مخالفةَ أبي الحسنِ لأهلِ الحديثِ في مسألةِ الكلامِ فقال:

٤٤٩٠- لَكِنَّــهُ قَــدْ قَــالَ إِنَّ كَلامَــهُ ⁂ مَعْنًــى يَقُــومُ بِرَبِّنَــا الــرَّحْمَنِ

يقولُ أبو الحسن الأشعريُّ: إنَّ اللهَ لا يتكلَّمُ بحرفٍ وصوتٍ مسموعٍ، بل ما يُسْمَعُ من كلامِه عبارةٌ عن كلامِه، وليس كلامَه، كلامُه هو المعنى القَائِمُ بنفسِه، فمثلًا الآن: افرِضْ أنَّك تريدُ أن تقولَ خطبةً، تقدِّرُ الكلامَ في قلبِك قبل أن تتكلَّمَ، ثُمَّ إذا تَكَلَّمْتَ عَبَّرْتَ عمَّا في نفسِك.

فهو يقولُ رحمه اللهُ وعفا عنه: إنَّ اللهَ لا يتكلَّمُ بكلامٍ يُسْمَعُ أو بصوتٍ، وإنَّما كلامُه المعنى الذي في نفسِه، ثُمَّ يخلقُ أصواتًا وحروفًا يسمعُها مَنْ يخاطبُه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ وعلى هذا فإنَّ هذا القرآنَ الذي بأيدِينا ليس كلامَ الله على زعمِهم، بل هو عبارةٌ عنه.

وهذا القولُ لا شكَّ في بطلانِه، وإذا تَأَمَّلْتَهُ حقيقةً وَجَدْتَ أنَّه يُفَسِّرُ الكلامَ بالإرادةِ، وهذا لا يستقيمُ.

وأمَّا المعتزلةُ فيقولون: إنَّ القرآنَ كلامُ الله، لكنَّه خَلْقٌ من مخلوقاتِه، ويُنكرون الكلامَ النَّفسيَّ، بل يقولون: هذا كلامُ الله لكنَّه مخلوقٌ، أمَّا هم فيقولون: هذا عبارةٌ عن كلامِ الله وهو مخلوقٌ أيضًا؛ ولهذا كان المعتزلةُ من هذا الوجهِ خيرًا منهم؛ لأنَّهم يُصَرِّحُونَ بأنَّ القُرآنَ كلامُ الله، ويتَّفقُ المعتزلةُ والأشاعرةُ على أنَّ ما نقرؤه مخلوقٌ.

٤٤٩١- فِي القَـوْلِ خَالَفْنَـاهُ نَحْـنُ وَأَنْـتُمُ   فِي الفَـوْقِ وَالأَوْصَـافِ لِلـدَّيَّانِ

يعني: نحن خالَفْناه في مسألةٍ واحدةٍ وهي القول، أمَّا أنتم خالَفتُموه في الفوقيَّةِ، وفي جميعِ الأوصافِ، فكُلُّ صِفاتِ الله التي أقرَّها خالَفتُموها أنتم، أمَّا نحن لم نخالفْه إلَّا في مسألةٍ واحدةٍ.

٤٤٩٢- لِـمَ كَانَ نَفْسُ خِلافِنَـا كُفْـرًا وَكَـا   نَ خِلافُكُمْ هُوَ مُقْتَضَـى الإِيـمَانِ

وهذا صحيحٌ، فهذا إنكارٌ؛ يعني: نحن الآن خالَفْنَا أبا الحسنِ في مسألةٍ واحدةٍ وهي مسألة الكلامِ، وفي الباقي وافَقْناه، وأنتم خالَفتُموه في كُلِّ شيءٍ إلَّا الكلام، فلماذا كان خلافُنا نحن كفرًا وخلافُكم أنتم إيمانًا وهو مقتضى الإيمانِ، مع أنَّكم خالَفتُموه فيما هو مقتضى الإيمانِ؟!

٤٤٩٣- هَـذَا وَخَـالَفْتُمْ لِـنَصٍّ حِـينَ خَـا   لَفْنَـا لِـرَأْيِ الـجَهْمِ ذِي البُهْتَـانِ

يعني: ونحن لم نخالف النَّصَّ، أنتم خالَفتُم النَّصَّ ونحن خَالَفْنَا رأيَ الجهمِ، فأيُّنا أحقُّ بالكفرِ: مَنْ خَالَفَ النَّصَّ أو مَنْ خالف الرَّأيَ الباطلَ؟ الجوابُ: مَنْ خَالَفَ النَّصَّ.

٤٤٩٤- وَاللهِ مَـا لَكُـم جَـوَابٌ غَـيْرَ تَكْـ   ـفِيرٍ بِـلا عِلْـمٍ وَلا إِيقَـانِ

صحيحٌ، ليس لهم جوابٌ إلَّا أنْ يرفعوا أصواتَهم: أنتم كُفَّارٌ، أنتم مُجَسِّمةٌ، أنتم مشبِّهةٌ، إلى آخِرِ ما يقولون من القدحِ.

٤٤٩٥- أَسْـتَغْفِرُ اللهَ العَظِـيمَ لَكُـمْ جَـوَا   بٌ غَيْرَ ذَا الشَّـكْوَى إِلَى السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «الشَّكْوَى» إمَّا عطفُ بيانٍ لـ«جَوَابٌ»، وإمَّا خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: «هُوَ الشَّكْوَى»، وليست «ذَا» مضافةً إلى «الشَّكْوَى»؛ لأنَّ «ذَا» اسمُ

إشارةٍ، واسمُ الإشارةِ لا يُضَافُ.

لـمَّا قال: «**لَيْسَ لَكُمْ جَوَابٌ غَيْرُ هَذَا**» استدرك فقال: «**أَسْتَغْفِرُ اللهَ ممَّا قلتُ لكم، فلكم جوابٌ آخرُ غيرُ هذا الجواب وهو الشَّكوى إلى السُّلطانِ**»؛ أي: تشكوننا إلى السُّلطانِ، وتُوشون بنا، وهذا يقعُ كثيرًا، يأتي به الإنسانُ للاستدراكِ، يقولُ: «**فلانٌ فيه كذا من الصِّفاتِ الذَّميمةِ، أستغفرُ اللهَ، بل فيه غيرُ هذا، فيه كذا وكذا**»، إذَنْ هذا الكلامُ يُعْتَبَرُ توكيدًا لما سبق وإضافةَ أمرٍ يُذَمُّونَ عليه.

والمعنى: لكم جوابٌ آخرُ غيرُ التَّكفيرِ وهو الشَّكوى إلى السَّلطانِ، ولذلك تجدُ الذين تسبَّبوا في تعذيبِ الإمامِ أحمدَ وغيرِه من أهل السُّنَّةِ إنَّما كان ذلك بسببِ الوشاةِ.

٤٤٩٦- فَهُوَ الـجَوَابُ لَدَيْكُمُ وَلَنَحْنُ مُنْــ ـــتَظِرُوهُ مِـنْكُمْ يَـا أُولِي البُرْهَـانِ

وهل الذي ليس له جوابٌ إلَّا الشَّكوى إلى السُّلطانِ هل عنده عِلْمٌ؟ الجوابُ: لا، يقولُ لخصمِه: اسكت وإلَّا لأرفعنَّ أمرَكَ إلى السُّلطانِ؟ هل هذا عنده علمٌ؟ أبدًا، ليس عنده علمٌ.

٤٤٩٧- وَاللهِ لا لِلأَشْـــعَرِيِّ تَبِعْـــتُمُ كَـــلَّا وَلا لِلــنَّصِّ بِالإِحْسَـــانِ

إذَنْ هم أخطؤوا تقليدًا وأخطؤوا اجتهادًا، أخطؤوا تقليدًا حيث لم يتَّبعوا الأشعريَّ، وأخطؤوا اجتهادًا حيث لم يتَّبعوا النَّصَّ.

٤٤٩٨- يَا قَوْمُ فَـانْتَبِهُوا لأَنْفُسِـكُمْ وَخَلْــ ـلُوا الـجَهْلَ وَالدَّعْوَى بِلا بُرْهَانِ

جزاه اللهُ خيرًا، فهو ينصحُهم قائلًا: انتبهوا لأنفسِكم ودعوا الجهلَ والدَّعوى بلا برهانٍ.

٤٤٩٩- مَا فِي الرِّيَاسَةِ بِالجَهَالَةِ غَيْرُ ضِحْـ ـكَةِ عَاقِلٍ مِـنْكُمْ مَـدَى الأَزْمَـانِ

ولا شكَّ أنَّ الرِّئاسةَ بالجهلِ ضُحْكَةٌ إلى يومِ الدِّينِ؛ لأنَّ الرِّئاسةَ إنَّما تُنَالُ بالشَّرفِ والعلمِ، أمَّا الجهلُ فإنَّه لا خيرَ في الرِّئاسةِ فيه، ومآلُه إلى الفشلِ.

٤٥٠٠- لا تَرْتَضُـوا بِرِيَاسَـةِ البَقَـرِ الَّتِـي رُؤَسَـاؤُهَا مِـنْ جُمْلَـةِ الثِّـيرَانِ

يعني: لا ترتضوا لأنفسِكم هذا الحظَّ أن تكونوا رؤساءَ لبقرٍ، إذَنْ إن رضيتم برئاسةِ البقرِ فأنتم ثيرانٌ. إذَنْ الجهميَّةُ والمعتزلةُ ثيرانٌ، وأقولُ: الثِّيرانُ خيرٌ منهم.

* * *

فصــل

في أَنَّ أَهْلَ الحَدِيثِ هُمْ أَنْصَارُ رَسُولِ الله ﷺ وَخَاصَّتُهُ، وَلاَ يُبْغِضُ الأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ

٤٥٠١- يَا مُبْغِضًا أَهْلَ الحَدِيثِ وَشَاتِمًا ... أَبْشِرْ بِعَقْدِ وِلايَةِ الشَّيْطَانِ

٤٥٠٢- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُمْ أَنْصَارُ دِيـ ... ـنِ الله وَالإِيمَانِ وَالقُرْآنِ

٤٥٠٣- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَنْصَارَ الرَّسُو ... لِ هُمُ بِلا شَكٍّ وَلا نُكْرَانِ

٤٥٠٤- هَلْ يُبْغِضُ الأَنْصَارَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ ... أَوْ مُدْرِكٌ لِرَوَائِحِ الإِيمَانِ

٤٥٠٥- شَهِدَ الرَّسُولُ بِذَاكَ وَهْيَ شَهَادَةٌ ... مِنْ أَصْدَقِ الثَّقَلَيْنِ بِالبُرْهَانِ

٤٥٠٦- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ خَزْرَجَ دِينِهِ ... وَالأَوْسَ هُمْ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ

٤٥٠٧- مَا ذَنْبُهُمْ إِذْ خَالَفُوكَ لِقَوْلِهِ ... مَا خَالَفُوهُ لأَجْلِ قَوْلِ فُلانِ

٤٥٠٨- لَوْ وَافَقُوكَ وَخَالَفُوهُ كُنْتَ تَشْـ ... ـهَدُ أَنَّهُمْ حَقًّا أُولُو الإِيمَانِ

٤٥٠٩- لَمَّا تَحَيَّزْتُمْ إِلَى الأَشْيَاخِ وَانْـ ... ـحَازُوا إِلَى المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

٤٥١٠- نُسِبُوا إِلَيْهِ دُونَ كُلِّ مَقَالَةٍ ... أَوْ حَالَةٍ أَوْ قَائِلٍ وَمَكَانِ

٤٥١١- هَذَا انْتِسَابُ أُولِي التَّفَرُّقِ نِسْبَةً ... مِنْ أَرْبَعٍ مَعْلُومَةِ التِّبْيَانِ

٤٥١٢- فَلِذَا غَضِبْتُمْ حَيْثُمَا انْتَسَبُوا إِلَى ... خَبَرِ الرَّسُولِ بِنِسْبَةِ الإِحْسَانِ

٤٥١٣- فَوَضَعْتُمُ لَهُمُ مِنَ الأَلْقَابِ مَا ... تَسْتَقْبِحُونَ وَذَا مِنَ العُدْوَانِ

٤٥١٤- هُمْ يُشْهِدُونكُمُ عَلَى بُطْلانِهَا ... أَفَتُشْهِدُونَهُمُ عَلَى البُطْلانِ

٤٥١٥- مَا ضَرَّهَمْ وَالله بُغْضُكُمُ لَهُمْ ... إِذْ وَافَقُوا حَقًّا رِضَا الرَّحْمَنِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي أَنَّ أَهْلَ الحَدِيثِ هُمْ أَنْصَارُ رَسُولِ الله ﷺ»، وهذا لا شكَّ فيه؛ لأنَّهم آخذون به، متَّبعون له، ذابُّون عنه.

قَوْلُهُ: «وَلَا يُبْغِضُ الأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ» هكذا جاء عن النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنَّه قال: «لَا يُبْغِضُ الأَنْصَارَ رَجُلٌ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ»[1]، ثُمَّ قال رحمه الله:

٤٥٠١- يَا مُبْغِضًا أَهْلَ الحَدِيثِ وَشَاتِمًا ... أَبْشِرْ بِعَقْدِ وِلايَةِ الشَّيْطَانِ

يعني: إنَّ مَنْ يشتمُ أهلَ الحديثِ ويُبْغِضُهم فقد عقد الولايةَ مع الشَّيطانِ.

٤٥٠٢- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُمْ أَنْصَارُ دِيـ ... ـنِ الله وَالإِيمَانِ وَالقُرْآنِ

وهذا للتَّقريرِ يعني: أنَّه قد عُلِمَ أنَّ أهلَ الحديثِ هم أنصارُ دينِ الله والإيمانِ والقرآنِ.

٤٥٠٣- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ أَنْصَارَ الرَّسُو ... لِ هُمُ بِلا شَكٍّ وَلا نُكْرَانِ

وهذا أيضًا للتَّقريرِ؛ فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ هم الذين نَصَرُوا رسولَ الله ﷺ؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق، رقم (٧٦).

لأخذِهم بها وذمِّهم عنها.

٤٥٠٤- هَلْ يُبْغِضُ الأَنْصَارَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ   أَوْ مُدْرِكٌ لِرَوَائِحِ الإِيمَانِ

الجوابُ: لا، فالاستفهامُ هنا بمعنى النَّفي، فالإنسانُ المؤمنُ لا يمكنُ أن يُبْغِضَ أنصارَ الرَّسولِ ﷺ سواء أنصاره في حياتِه أم بعد مماتِه.

٤٥٠٥- شَهِدَ الرَّسُولُ بِذَاكَ وَهْيَ شَهَادَةٌ   مِنْ أَصْدَقِ الثَّقَلَيْنِ بِالبُرْهَانِ

شَهِدَ الرَّسولُ بأنَّه لا يُبغضُهم مؤمنٌ، وهي شهادةٌ صَدَرَتْ من أصدقِ الثَّقَلَيْنِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٤٥٠٦- أَوَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ خَزْرَجَ دِينِهِ   وَالأَوْسَ هُمْ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ

الأنصارُ قبيلتان: الأوسُ والخزرجُ، لكنْ هل هذا يختصُّ بتلك القبيلتَيْنِ؟ الجوابُ: لا، أنصارُ الدِّينِ الأوسُ والخزرجُ في كُلِّ زمانٍ وفي كُلِّ مكانٍ، كُلُّ مَنْ نَصَرَ دينَ الله فإنَّه مثلُ الأنصارِ من الأوسِ والخزرجِ.

٤٥٠٧- مَا ذَنْبُهُمْ إِذْ خَالَفُوكَ لِقَوْلِهِ   مَا خَالَفُوهُ لأَجْلِ قَوْلِ فُلانِ

يعني: ما ذنبُ أهلِ الحديثِ حين خالفوك لقولِه؟ أي: لقولِ الرَّسولِ ﷺ، هم ما خالفوا الرَّسولَ لأجل قولِ فلانٍ، وأنت خَالَفْتَ الرَّسولَ لأجلِ قولِ فلانٍ، فهل الذَّنبُ ذنبُ أهلِ الحديثِ أو ذنبُ مَنْ أبغضهم؟ الجوابُ: ذنبُ مَنْ أبغضهم وعاداهم بلا شكٍّ.

٤٥٠٨- لَوْ وَافَقُوكَ وَخَالَفُوهُ كُنْتَ تَشْـ   ـهَدُ أَنَّهُمْ حَقًّا أُولُو الإِيمَانِ

يعني: لو أنَّهم خالفوا الرَّسولَ ﷺ ووافقوك لشهدتَ بأنَّهم أهلُ الإيمانِ.

٤٥٠٩- لَـمَّا تَحَيَّـزْتُمْ إِلَى الأَشْـيَاخِ وَانْـ ـحَازُوا إِلَى المَبْعُـوثِ بِـالقُرْآنِ

٤٥١٠- نُسِـبُوا إِلَيْـهِ دُونَ كُـلِّ مَقَالَـةٍ أَوْ حَالَـةٍ أَوْ قَائِـلٍ وَمَكَـانِ

يعني: أنَّ هؤلاء المعطِّلَةَ أخذوا بأقوالِ الشُّيوخِ وتركوا ما قاله النَّبِيُّ ﷺ، أمَّا المُثبتةُ فأخذوا بما قال النَّبِيُّ ﷺ، وتركوا ما قال الشُّيوخُ ممَّا يخالفُ قولَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم.

٤٥١١- هَـذَا انْتِسَابُ أُولِي التَّفَـرُّقِ نِسْبَةً مِـنْ أَرْبَـعٍ مَعْلُومَـةِ التِّبْيَـانِ

هذا انتسابُ أولي التَّفرُّقِ؛ يعني: الذين تفرَّقوا في دينِ الله، «**نِسْبَةً مِنْ أَرْبَعٍ مَعْلُومَةِ التِّبْيَانِ**»، ما هذه النِّسبةُ من أربعٍ؟

الظَّاهرُ -واللهُ أعلمُ- أنَّ النِّسبَ الأربع: موافقةُ الكتابِ ومخالفتُه، وموافقةُ السُّنَّةِ ومخالفتُها، فأهلُ الإثباتِ قد وافقوا في الكتابِ والسُّنَّةِ، وأمَّا أهلُ التَّعطيلِ فخالفوا في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ ولهذا قال: «**دُونَ كُلِّ مَقَالَةٍ، أَوْ حَالَةٍ، أَوْ قَائِلٍ وَمَكَانِ**»، لا شَكَّ أنَّ الأربعَ الذي ذكر الآن: المقالة، والحالة، والقائل، والمكان، لكن الذي يظهرُ ما دامت المسألةُ موافقةً ومخالفةً أنَّها موافقةُ الكتابِ والسُّنَّةِ، ومخالفتُهما.

٤٥١٢- فَلِـذَا غَضِـبْتُمْ حَيْـثُمَا انْتَسَـبُوا إِلَى خَـبَرِ الرَّسُـولِ بِنِسْـبَةِ الإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «**حَيْثُمَا انْتَسَبُوا إِلَى خَبَرِ الرَّسُولِ**»، وفي نسخةٍ: «**حِينَمَا**».

والخطابُ هنا لأهلِ التَّعطيلِ؛ يعني: أنَّكم غضبتم حيث انتسبوا إلى خبرِ الرَّسولِ بنسبةِ الإحسانِ، ونسبةُ الإحسانِ في الخبرِ هي التَّصديقُ من غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ.

٤٥١٣- فَوَضَعْتُمُ لَهُمُ مِنَ الأَلْقَابِ مَا   تَسْتَقْبِحُونَ وَذَا مِنَ العُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «وَضَعْتُمُ مِنَ الأَلْقَابِ» اللَّقب: قال أهلُ النَّحوِ: كُلُّ ما أشعر بمدحٍ أو ذمٍّ، ومثَّلوا لذلك بـ«قُفَّة»، و«زين العابدين»، فـ«قُفَّة» مشعرٌ بالذَّمِّ، «وزين العابدين» بالمدحِ[1].

فأهلُ التَّعطيلِ وضعوا لأهلِ الإثباتِ من الألقابِ ما يستقبحون، كُلَّما استقبحوا لقبًا وضعوه على أهلِ السُّنَّةِ والإثباتِ، فقالوا: إنَّهم حَشْوِيَّةٌ، نوابتُ، غُثاءٌ، وما أشبه ذلك.

٤٥١٤- هُمْ يُشْهِدُونكُمُ عَلَى بُطْلَانِهَا   أَفَتُشْهِدُونَهُمُ عَلَى البُطْلَانِ

يعني: أنَّ أهلَ السُّنَّةِ يُشْهِدُونَ أهلَ التَّعطيلِ على بطلانِ ما لقَّبوهم به، فهل أنتم تُشْهِدُونَهم على البطلانِ كما شهدوا هم على بطلانِ ما لقَّبتموهم به؟ الجوابُ: لا، هم يَرَوْنَ أنَّهم على أكملِ شيءٍ، وأنَّهم هم أهلُ السُّنَّةِ وأهلُ العدلِ وأهلُ التَّوحيدِ، وما أشبه ذلك.

٤٥١٥- مَا ضَرَّهَمْ وَاللهِ بُغْضُكُمُ لَهُمْ   إِذْ وَافَقُوا حَقًّا رِضَا الرَّحْمَنِ

صحيحٌ، الإنسانُ إذا وَافَقَ رضا الرَّحمنِ فلا يهمُّه أنْ يغضبَ عليه النَّاسُ، المهمُّ أن تلتمسَ رضا الله عزَّ وجلَّ ولو غضب النَّاسُ.

***

---

(١) انظر: شرح الكافية الشافية (١/ ٢٤٩).

٤٥١٦- يَـا مَـنْ يُعَـادِيهِمْ لأَجْـلِ مَآكِـلٍ ... وَمَنَاصِـبٍ وَرِيَاسَـةِ الإِخْـوَانِ

٤٥١٧- تَهْنِيـكَ هَاتِيـكَ العَـدَاوَةُ كَـمْ بِهَـا ... مِـنْ حَسْـرَةٍ وَمَذَلَّـةٍ وَهَـوَانِ

٤٥١٨- وَلَسَـوْفَ تَجْنِـي غِبَّهَـا وَاللهِ عَـنْ ... قُرْبٍ وَتَـذْكُرُ صِـدْقَ ذِي الإِيـمَانِ

٤٥١٩- فَـإِذَا تَقَطَّعَـتِ الوَسَـائِلُ وَانْتَهَـتْ ... تِلْـكَ المَآكِـلُ فِي سَرِيـعِ زَمَـانِ

٤٥٢٠- فَهُنَاكَ تَقْرَعُ سِنَّ نَـدْمَانٍ عَـلَى التْـ ... ـتَفْرِيطِ وَقْـتَ السَّـيْرِ وَالإِمْكَـانِ

٤٥٢١- وَهُنَاكَ تَعْلَـمُ مَـا بِضَـاعَتُكَ الَّتِـي ... حَصَّـلْتَهَا فِي سَـالِفِ الأَزْمَـانِ

٤٥٢٢- إِلَّا الوَبَالَ عَلَيْكَ وَالـحَسَرَاتِ وَالْـ ... ـخُسْرَانِ عِنْدَ الوَضْعِ فِي الـمِيزَانِ

٤٥٢٣- قِيـلٌ وَقَـالَ مَـا لَـهُ مِـنْ حَاصِـلٍ ... إِلَّا العَنَـاءَ وَكَـلُّ ذِي الأَذْهَـانِ

٤٥٢٤- وَاللهِ مَـا يُجْدِي عَلَيْـكَ هُنَـاكَ إِلْـ ... لَا ذَا الَّـذِي جَـاءَتْ بِـهِ الوَحْيَـانِ

٤٥٢٥- وَاللهِ مَا يُنْجِيكَ مِنْ سِجْنِ الـجَحِيـ ... ـمِ سِوَى الـحَدِيثِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

٤٥٢٦- وَاللهِ لَـيْسَ النَّـاسُ إِلَّا أَهْلُـهُ ... وَسِـوَاهُمُ مِـنْ جُمْلَـةِ الـحَيَوَانِ

الشرحُ

٤٥١٦- يَـا مَـنْ يُعَـادِيهِمْ لأَجْـلِ مَآكِـلٍ ... وَمَنَاصِـبٍ وَرِيَاسَـةِ الإِخْـوَانِ

يعني: أنَّ هؤلاء الذين عادَوْا أهلَ الإثباتِ لهم مآربُ؛ إمَّا المآكل، أو المناصب عند ذَوِي السُّلطانِ، أو رئاسة الإخوانِ بأن يكونَ رئيسًا مُبَجَّلًا في قومِه فيخشى إن تحوَّل إلى الإثباتِ أن يعاديَه قومُه.

٤٥١٧- تَهْنِيكَ هَاتِيكَ العَدَاوَةُ كَمْ بِهَا ... مِنْ حَسْرَةٍ وَمَذَلَّةٍ وَهَوَانِ

لكن متى؟ قال:

٤٥١٨- وَلَسَوْفَ تَجْنِي غِبَّهَا وَاللهِ عَنْ ... قُرْبٍ وَتَذْكُرُ صِدْقَ ذِي الإِيمَانِ

وهذا يكونُ إذا مَاتَ ورأى أنَّه ليس على شيءٍ، حينئذٍ يكونُ قد جَنَى غِبَّ ما ذهب إليه من تعطيلِ الله عزَّ وجلَّ عن أوصافِه.

٤٥١٩- فَإِذَا تَقَطَّعَتِ الوَسَائِلُ وَانْتَهَتْ ... تِلْكَ المَآكِلُ فِي سَرِيعِ زَمَانِ

٤٥٢٠- فَهُنَاكَ تَقْرَعُ سِنَّ نَدْمَانٍ عَلَى التْـ ... ـتَفْرِيطِ وَقْتَ السَّيْرِ وَالإِمْكَانِ

يعني: أنَّه إذا تقطَّعت الوسائلُ وانتهت الحياةُ فهناك تقرعُ سنَّ النَّادمِ، ولكن بعد فَواتِ الأوانِ.

٤٥٢١- وَهُنَاكَ تَعْلَمُ مَا بِضَاعَتُكَ الَّتِي ... حَصَّلْتَهَا فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ

٤٥٢٢- إِلَّا الوَبَالَ عَلَيْكَ وَالحَسَرَاتِ وَالْـ ... ـخُسْرَانِ عِنْدَ الوَضْعِ فِي المِيزَانِ

٤٥٢٣- قِيلٌ وَقَالَ مَا لَهُ مِنْ حَاصِلٍ ... إِلَّا العَنَاءَ وَكُلُّ ذِي الأَذْهَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَلُّ ذِي الأَذْهَانِ»؛ أي: تعبُ الأذهانِ، هذا الذي يُحصِّلون، وقد مرَّ علينا مثل هذا كثيرًا فلا حاجةَ للإطالةِ في شرحِه.

٤٥٢٤- وَاللهِ مَا يُجْدِي عَلَيْكَ هُنَاكَ إِلْـ ... ـلَا ذَا الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الوَحْيَانِ

أقسم المؤلِّفُ بأنَّه لا يُجْدِي عليه هناك إلَّا ما جاءت به الوحيان؛ يعني: الكتابَ والسُّنَّةَ.

٤٥٢٥- وَاللهِ مَا يُنْجِيكَ مِنْ سِجْنِ الجَحِيـ ـمِ سِوَى الحَدِيثِ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ
٤٥٢٦- وَاللهِ لَيْسَ النَّاسُ إِلَّا أَهْلُهُ وَسِوَاهُمُ مِنْ جُمْلَةِ الحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «أَهْلَهُ»؛ أي: أهلَ الحديثِ.

فالنَّاسُ حقيقةً الذين ربحوا الدُّنيا والآخرةَ همُ أهلُ الحديثِ، أمَّا سواهم فهو من جملةِ الحيوانِ.

***

٤٥٢٧- وَلَسَوْفَ تَذْكُرُ بِرَّ ذِي الإِيمَانِ عَنْ قُرْبٍ وَتَقْرَعُ نَاجِذَ النَّدْمَانِ
٤٥٢٨- رَفَعُوا بِهِ رَأْسًا وَلَمْ يَرْفَعْ بِهِ أَهْلُ الكَلامِ وَمَنْطِقِ اليُونَانِ
٤٥٢٩- فَهُمُ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ مُمَثِّلًا بِالمَاءِ مَهْبَطُهُ عَلَى القِيعَانِ
٤٥٣٠- لا المَاءَ تُمْسِكُهُ وَلا كَلأً بِهَا يَرْعَاهُ ذُو كَبِدٍ مِنَ الحَيَوَانِ
٤٥٣١- هَذَا إِذَا لَمْ يُحْرِقِ الزَّرْعُ الَّذِي بِجُوَارِهَا بِالنَّارِ أَوْ بِدُخَانِ
٤٥٣٢- وَالجَاهِلُونَ بِذَا وَهَذَا هُمْ زُوَا نُ الزَّرْعِ إِيْ وَاللهِ شَرُّ زُوَانِ
٤٥٣٣- وَهُمُ لَدَى غَرْسِ الإِلَهِ كَمِثْلِ غَرْ سِ الدُّلْبِ بَيْنَ مَغَارِسِ الرُّمَّانِ
٤٥٣٤- يَمْتَصُّ مَاءَ الزَّرْعِ مَعْ تَضْيِيقِهِ أَبَدًا عَلَيْهِ وَلَيْسَ ذَا قِنْوَانِ
٤٥٣٥- ذَا حَالُهُمْ مَعْ حَالِ أَهْلِ العِلْمِ أَنْـ ـصَارِ الرَّسُولِ فَوَارِسِ الإِيمَانِ
٤٥٣٦- فَعَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ الإِلَهِ تَحِيَّةٌ وَاللهُ يُبْقِيهِ مَدَى الأَزْمَانِ

الشرحُ

٤٥٢٧- وَلَسَوْفَ تَذْكُرُ بِرَّ ذِي الإِيمَانِ عَنْ   قُرْبٍ وَتَقْرَعُ نَاجِذَ النَّدْمَانِ

وكُلُّ هذا إنَّما يكونُ بعد الموتِ.

٤٥٢٨- رَفَعُوا بِهِ رَأْسًا وَلَمْ يَرْفَعْ بِهِ   أَهْلُ الكَلامِ وَمَنْطِقِ اليُونَانِ

قَوْلُهُ: «رَفَعُوا بِهِ رَأْسًا» مَنْ؟ أهلُ الإثباتِ أهلُ السُّنَّةِ، ولم يرفع به أهلُ الكلامِ ومنطقِ اليونانِ؛ يعني: لم يرفعوا به رأسًا، بل حطُّوه وأعرضوا عنه.

٤٥٢٩- فَهُمُ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ مُمَثِّلًا   بِالمَاءِ مَهْبَطُهُ عَلَى القِيعَانِ

٤٥٣٠- لا المَاءَ تُمْسِكُهُ وَلا كَلأً بِهَا   يَرْعَاهُ ذُو كَبِدٍ مِنَ الحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «لَا المَاءَ تُمْسِكُهُ»، ويجوزُ «لَا المَاءُ».

وقد مَثَّلَ الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ما بُعِثَ به كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصابَ أَرْضًا[1]، ومن هذه الأراضي التي أصابها أرضٌ قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً؛ يعني: أنَّها تشربُ الماءَ ولكنَّها لا تُنْبِتُ، فهذه لا نَفَعَتِ النَّاسَ بنباتِها ولا نَفَعَتِ النَّاسَ بحفظِ الماءِ، **الأرضُ الثَّانيةُ**: كانت صفاءً أمسكت الماءَ وانتفع النَّاسُ بشربِه، **الأرضُ الثَّالثةُ**: شربت الماءَ وأَنْبَتَتْ الكلأَ فنفعت النَّاسَ.

٤٥٣١- هَذَا إِذَا لَمْ يُحْرَقِ الزَّرْعُ الَّذِي   بِجُوَارِهَا بِالنَّارِ أَوْ بِدُخَانِ

فإذا أُحْرِقَ لم يكن هناك فائدةٌ إطلاقًا؛ لأنَّ الزَّرعَ رُبَّما يخرجُ، ويرى صاحبُه أنَّه قادرٌ عليه، ثُمَّ بعد ذلك يأتيه ما يحرقُه من نارٍ أو دخانٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم (٢٢٨٢).

٤٥٣٢- وَالـجَاهِلُونَ بِـذَا وَهَـذَا هُـمْ زُوَا　　　نُ الــــزَّرْعِ إِيْ وَاللهِ شَرُّ زُوَانِ

قَوْلُهُ: «زُوَانُ الزَّرْعِ» هو بذرٌ يخالطُ الزَّرعَ فيضيِّقُ عليه ويُفسِدُه، وسيأتينا أيضًا الدُّلْبُ.

٤٥٣٣- وَهُمُ لَدَى غَرْسِ الإِلَهِ كَمِثْلِ غَـرْ　　　سِ الـدُّلْبِ بَـيْنَ مَغَـارِسِ الرُّمَّـانِ

٤٥٣٤- يَمْـتَصُّ مَـاءَ الـزَّرْعِ مَـعْ تَضْـيِيقِهِ　　　أَبَــدًا عَلَيْــهِ وَلَــيْسَ ذَا قِنْــوَانِ

يعني: هؤلاء المعطِّلةُ بين غرسِ الرَّحمنِ وهم المثبتةُ مثل غرسِ الدُّلْبِ بين الرُّمَّانِ، والدُّلْبُ -حسب ما وَصَفَهُ ابنُ القيِّمِ- شجرٌ كبيرُ الحجمِ، وأنَّه لا خيرَ فيه، وهو يمتصُّ ماءَ الزَّرعِ من باطنِ الأرضِ، فلا يأتي الزَّرعَ من الماءِ إلَّا الشَّيءُ القليلُ، وأمَّا ما فوق فيقول: «مَعْ تَضْيِيقِهِ أَبَدًا عَلَيْهِ وَلَيْسَ ذَا قِنْوَانِ»؛ يعني: يُضَيِّق من خارجِ الأرضِ ويمتصُّ الماءَ من داخلِ الأرضِ، ومع ذلك ليس له قنوانٌ؛ أي: ليس له ثمرٌ.

٤٥٣٥- ذَا حَالُـهُمْ مَعْ حَالِ أَهْلِ العِلْمِ أَنْـ　　　ـصَارِ الرَّسُـولِ فَـوَارِسِ الإِيمَانِ

إذَنْ حالُـهم مع حالِ هؤلاء أنَّهم يُضَيِّقون المكانَ ويأكلون ما كان، يأكلون ما كان بالعروقِ التي في الأسفلِ، ويضيِّقون المكانَ فوق ظاهرِ الأرضِ.

٤٥٣٦- فَعَلَيْــهِ مِــنْ قِبَــلِ الإِلَــهِ تَحِيَّــةٌ　　　وَاللهُ يُبْقِيــهِ مَــدَى الأَزْمَــانِ

قَوْلُهُ: «فَعَلَيْهِ» يحتمل أنَّ الضَّميرَ يعودُ على «أَنْصَارِ» وهي جمعٌ باعتبار الجنسِ؛ أي: فعلى أنصارِ الرَّسولِ فوارسِ الإيمانِ من قِبَلِ الله تحيةٌ، واللهُ مُبْقِيه مدى الأزمانِ.

وكأنَّ الهرَّاسَ -رحمه الله- كأنَّه يريدُ أن يقولَ: الضَّميرُ في «فَعَلَيْهِ» عائدٌ على شيخِ الإسلامِ(١)، لكن لـمَّا لم نجد له ذِكْرًا ينبغي أن نقولَ: «فَعَلَيْهِ»؛ أي: على هذا الأنصارِ، ويكون هذا الجمعُ باعتبارِ الجنسِ.

***

٤٥٣٧- لَوْلاهُ مَا سُقِيَ الغِرَاسُ فَسَوْقُ ذَا ... كَ المَاءِ لِلدُّلْبِ العَظِيمِ الشَّانِ

٤٥٣٨- فَالغَرْسُ دُلْبٌ كُلُّهُ وَهُوَ الَّذِي ... يُسْقَى وَيُحْفَظُ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِ

٤٥٣٩- فَالغَرْسُ فِي تِلْكَ الحَضَارَةِ شَارِبٌ ... فَضْلَ المِيَاهِ مَصَارُهُ البُسْتَانِ

٤٥٤٠- لَكِنَّمَا البَلْوَى مِنَ الحَطَّابِ قُطْـ ... ـطَاعِ الغِرَاسِ وَعَاقِرِ الحِيطَانِ

٤٥٤١- بِالفُؤْسِ يَضْرِبُ فِي أُصُولِ الغَرْسِ كَيْ ... يَجْتَثَّهَا وَيَظُنُّ ذَا إِحْسَانِ

٤٥٤٢- وَيَظَلُّ يَحْلِفُ كَاذِبًا لَمْ أَعْتَمِدْ ... فِي ذَا سِوَى التَّثْبِيتِ لِلعِيدَانِ

٤٥٤٣- يَا خَيْبَةَ البُسْتَانِ مِنْ حُطَّابِهِ ... مَا بَعْدَ ذَا الحَطَّابِ مِنْ بُسْتَانِ

٤٥٤٤- فِي قَلْبِهِ غِلٌّ عَلَى البُسْتَانِ فَهْـ ... ـوَ مُوَكَّلٌ بِالقَطْعِ كُلَّ أَوَانِ

٤٥٤٥- فَالجَاهِلُونَ شِرَارُ أَهْلِ الحَقِّ وَالْـ ... ـعُلَمَاءُ سَادَتُهُمْ أُولُو الإِحْسَانِ

٤٥٤٦- وَالجَاهِلُونَ خِيَارُ أَحْزَابِ الضَّلا ... لِ وَشِيعَةِ الكُفْرَانِ وَالشَّيْطَانِ

٤٥٤٧- وِشِرَارُهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ هُمْ شَرُّ خَلْـ ... ـقِ الله آفَةُ هَذِهِ الأَكْوَانِ

---

(١) انظر: شرح القصيدة النُّونيَّة للهرَّاس رحمه الله (٢/ ٣٠٠).

الشرحُ

٤٥٣٧- لَوْلاهُ مَا سُقِيَ الغِرَاسُ فَسَوْقُ ذَا ... كَ المَاءِ لِلدُّلْبِ العَظِيمِ الشَّانِ

يعني: لولا أنصارُ الرَّسولِ -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- فوارسُ الإيمانِ ما سُقِيَ الغراسُ.

٤٥٣٨- فَالغَرْسُ دُلْبٌ كُلُّهُ وَهُوَ الَّذِي ... يُسْقَى وَيُحْفَظُ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِ

يقولُ: إنَّ الأوضاعَ انقلبت، فصار الدُّلْبُ هذا الشَّجرُ الكبيرُ الذي يمتصُّ الماءَ والذي لا خيرَ فيه صار هو غراسَ وقتِهم.

٤٥٣٩- فَالغَرْسُ فِي تِلْكَ الحَضَارَةِ شَارِبٌ ... فَضْلَ المِيَاهِ مَصَارُهُ البُسْتَانِ

قَوْلُهُ: «مَصَارُهُ البُسْتَانِ»، وفي نسخةٍ: «مَصَاوُهُ البُسْتَانِ».

٤٥٤٠- لَكِنَّمَا البَلْوَى مِنَ الحَطَّابِ قُطْـ ... ـطَاعِ الغِرَاسِ وَعَاقِرِ الحِيطَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّمَا البَلْوَى مِنَ الحَطَّابِ...» يقولُ: إنَّ هناك بلوى أخرى غير مسألةِ الدُّلْبِ، وهي هذا الذي يقطعُ الشَّجرَ ويهدمُ الجِدارَ.

قَوْلُهُ: «الحَطَّابِ قَطَّاعِ الغِرَاسِ وَعَاقِرِ الحِيطَانِ» ويعني بذلك: هؤلاء المعطِّلةَ الذين قَضَوْا على هذه النُّصوصِ بالقطعِ وهدمِ الحيطانِ حتَّى لم يكن بستانٌ محوطٌ ولا ذو أشجارٍ.

٤٥٤١- بِالفُؤْسِ يَضْرِبُ فِي أُصُولِ الغَرْسِ كَيْ ... يَجْتَثَّهَا وَيَظُنُّ ذَا إِحْسَانِ

يعني: هذا الحطَّابُ يضربُ بالفوسِ، والفؤسُ جمعُ «فأسٍ»، فهو يضربُ أصولَـها حتَّى يجتثَّها ولا يبقى فيها أصلٌ ولا فرعٌ.

٤٥٤٢- وَيَظَلُّ يَحْلِفُ كَاذِبًا لَـمْ أَعْتَمِـدْ فِي ذَا سِـوَى التَّثْبِيـتِ لِلعِيـدَانِ

يعني: يظلُّ هذا الذي يقطعُها من أصلِها وعِرْقِها يحلفُ أنَّه ما أراد إلَّا أن يُثَبِّتَ العيدان؛ يعني: يحفر لها حتَّى تثبتَ وترسخَ، وهو في الحقيقةِ يحفرُ لها من أجل أن يقطعَها.

٤٥٤٣- يَـا خَيْبَـةَ البُسْـتَانِ مِـنْ حُطَّابِـهِ مَا بَعْـدَ ذَا الـحَطَّابِ مِـنْ بُسْـتَانِ

وهذا صحيحٌ، هذا الحطَّابُ هل بعده بستانٌ وهو يجتثُّ الغرسَ من أصلِه؟ الجوابُ: أبدًا.

٤٥٤٤- فِي قَلْبِـهِ غِـلٌّ عَـلَى البُسْـتَانِ فَهْـ ـوَ مُوَكَّـلٌ بِـالقَطْعِ كُـلَّ أَوَانِ

وهكذا أهلُ البدعِ في قلوبِهم غِلٌّ على السُّنَّةِ ذاتِ الثِّمارِ والأشجارِ اليانعةِ، ففي قلوبِهم غِلٌّ، يريدون أن يجتثُّوها من أصلِها وهم يدَّعون أنَّهم إنَّما يريدون الإصلاحَ.

٤٥٤٥- فَالجَاهِلُونَ شِرَارُ أَهْلِ الـحَقِّ وَالْـ عُلَـمَاءُ سَـادَتُهُمْ أُولُـو الإِحْسَـانِ

الجاهلون شرارُ أهلِ الحقِّ، لماذا؟

لأنَّ الجاهلَ عَامِيٌّ وإن كان يريدُ الحقَّ لكن لا يعرفُه، وسادتُهم العلماءُ هم أولو الإحسانِ؛ أي: إنَّهم يدَّعون أنَّ هؤلاء الجهلةَ هم أهلُ الحقِّ، وأنَّ العلماءَ الذين يلقِّنونهم هذه البدعَ هم السَّادةُ أهلُ الإحسانِ ويقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النِّساء:٦٢].

٤٥٤٦- وَالـجَاهِلُونَ خِيَارُ أَحْزَابِ الضَّلا لِ وَشِـيعَةِ الكُفْـرَانِ وَالشَّـيْطَانِ

٤٥٤٧- وِشِرَارُهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ هُـمْ شَرُّ خَلْـ ـــقِ الله آفَــةُ هَــذِهِ الأَكْــوَانِ

يعني: إنَّ الحقيقةَ أنَّ الجاهلين هم خيارُ أحزابِ الضَّلالةِ وشرارُ أهلِ الحقِّ، وأمَّا علماؤهم فهم شرارُ خلقِ الله آفةُ هذه الأكوانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

والمؤلِّفُ -رحمه الله- أتى بهذا الفصلِ، وهو كُلُّه تصويرٌ وتخيُّلٌ لشيءٍ محسوسٍ لِيُمَثِّلَ به لشيءٍ معقولٍ، ولا شكَّ أنَّ علماءَ الضَّلالِ بين علماءِ الهدايةِ كالزَّرعِ النَّابت بين زرعِ الحِنطةِ، وهو من الزُّروعِ الخبيثةِ التي تُفْسِدُ الأرضَ وتُضَيِّقُ على سيقانِ الزُّروعِ المفيدةِ.

* * *

فصـــل

في تَعَيُّنِ الهِجْرَةِ مِنَ الآرَاءِ وَالبِدَعِ إِلَى سُنَّتِهِ كَمَا كَانَتْ فَرْضًا مِنَ الأَمْصَارِ إِلَى بَلْدَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

٤٥٤٨- يَا قَوْمُ فَرْضُ الهِجْرَتَيْنِ بِحَالِهِ ... وَاللهِ لَمْ يُنْسَخْ إِلَى ذَا الآنِ

٤٥٤٩- فَالهِجْرَةُ الأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بِالْـ ... إِخْلَاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

٤٥٥٠- حَتَّى يَكُونَ القَصْدُ وَجْهَ اللهِ بِالْـ ... أَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ وَالإِيمَانِ

٤٥٥١- وَيَكُونَ كُلُّ الدِّينِ لِلرَّحْمَنِ مَا ... لِسِوَاهُ شَيْءٌ فِيهِ مِنْ إِنْسَانِ

٤٥٥٢- وَالحُبُّ وَالبُغْضُ اللَّذَانِ هُمَا لِكُلْ ... لِ وِلَايَةٍ وَعَدَاوَةٍ أَصْلَانِ

٤٥٥٣- للهِ أَيْضًا هَكَذَا الإِعْطَاءُ وَالْـ ... مَنْعُ اللَّذَانِ عَلَيْهِمَا يَقِفَانِ

٤٥٥٤- وَاللهِ هَذَا شَطْرُ دِينِ اللهِ وَالتْـ ... ـتَحْكِيمُ لِلْمُخْتَارِ شَطْرٌ ثَانِ

٤٥٥٥- وَكِلَاهُمَا الإِحْسَانُ لَنْ يَتَقَبَّلَ الرْ ... رَحْمَنُ مِنْ سَعْيٍ بِلَا إِحْسَانِ

٤٥٥٦- وَالهِجْرَةُ الأُخْرَى إِلَى المَبْعُوثِ بِالْـ ... إِسْلَامِ وَالإِيمَانِ وَالإِحْسَانِ

٤٥٥٧- أَتَرَوْنَ هَذِي هِجْرَةَ الأَبْدَانِ لَا ... وَاللهِ بَلْ هِيَ هِجْرَةُ الإِيمَانِ

٤٥٥٨- قَطْعُ المَسَافَةِ بِالقُلُوبِ إِلَيْهِ فِي ... دَرْكِ الأُصُولِ مَعَ الفُرُوعِ وَذَانِ

٤٥٥٩- أَبَدًا إِلَيْهِ حُكْمُهَا لَا غَيْرِهِ ... فَالحُكْمُ مَا حَكَمَتْ بِهِ النَّصَّانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي تَعَيُّنِ الهِجْرَةِ مِنَ الآرَاءِ وَالبِدَعِ إِلَى سُنَّتِهِ»؛ يعني: سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ، وهذا العنوانُ جيِّدٌ، وأمَّا قولُه: «كَمَا كَانَتْ فَرْضًا مِنَ الأَمْصَارِ إِلَى بَلْدَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ» فهذا ليس على إطلاقِه؛ لأنَّ الهجرةَ إلى المدينةِ إنَّما كانت على أهلِ مكَّةَ قبل الفتحِ، وأمَّا بعد الفتحِ فقال النَّبِيُّ ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ»؛ يعني: من مكَّةَ، وكذلك لم يُفْرَضْ على أهلِ الطَّائفِ بعد فتحِها أنْ يُهاجروا منها إلى المدينةِ، فهذا الإطلاقُ فيه نظرٌ.

٤٥٤٨- يَا قَوْمُ فَرْضُ الهِجْرَتَيْنِ بِحَالِهِ ... وَاللهِ لَمْ يُنْسَخْ إِلَى ذَا الآنِ

أَقْسَمَ -رحمه الله تعالى- أنَّ الهجرةَ لم تُنْسَخ؛ أي: لم يُنْسَخْ وجوبُها، بل يجبُ على الإنسانِ أن يهاجرَ، وأمَّا قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»(١)، فالمرادُ لا هجرةَ من مكَّةَ؛ لأنَّ السَّائلَ كان يسألُه وهو بمكَّةَ وإلَّا فالهجرةُ باقيةٌ -باتِّفاق المسلمين- إلى يوم القيامةِ لاسيَّما من البدعةِ إلى السُّنَّة، فما هما الهجرتان المذكورتان في قولِه: «فَرْضُ الهِجْرَتَيْنِ»؟ الجوابُ: **الهجرةُ الأولى**: إلى الرَّحمن، **والهجرةُ الثَّانيةُ**: إلى الرَّسولِ؛ ولذا قال:

٤٥٤٩- فَالهِجْرَةُ الأُولَى إِلَى الرَّحْمَنِ بِالْـ ... إِخْلَاصِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلَانِ

ثُمَّ فَسَّرَ هذا الإخلاصَ بقولِه:

٤٥٥٠- حَتَّى يَكُونَ القَصْدُ وَجْهَ اللهِ بِالْـ ... أَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ وَالإِيمَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإحصار وجزاء الصيد، باب لا يحل القتال بمكة، رقم (١٧٣٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام، رقم (١٣٥٣).

والنَّاسُ يتفاوتون في هذه الهجرةِ تفاوتًا كبيرًا؛ منهم مَنْ هجرتُه خالصةٌ، ومنهم مَنْ هجرتُه مَشُوبَةٌ؛ فَمَنْ قال قولًا يُرائي فيه فهجرتُه مَشُوبَةٌ، ومَنْ قال قولًا لا يريدُ به إلَّا الدُّنيا فقط فهجرتُه مُحَطَّمَةٌ، فالنَّاسُ يختلفون في هذه الهجرةِ إلى الله بالإخلاصِ.

وَقَوْلُهُ: «بِالأَقْوَالِ» كالذِّكرِ، و«الأَفْعَالِ» كالصَّلاةِ، و«الإِيمَانِ» كاعتقادِ القلبِ، فالنَّاسُ يختلفون في هذا اختلافًا كبيرًا.

٤٥٥١- وَيَكُـونَ كُـلُّ الـدِّينِ لِلـرَّحْمَنِ مَـا ... لِسِـوَاهُ شَيْءٌ فِيـهِ مِـنْ إِنْسَـانِ

«كُلُّ الدِّين»؛ أي: كُلُّ ما يتعبَّدُ به الإنسانُ يكونُ لله عزَّ وجلَّ ما لسواه فيه شيءٌ.

٤٥٥٢- وَالحُبُّ وَالبُغْضُ اللَّذَانِ هُمَا لِكُـلْ ... لِ وِلايَـةٍ وَعَـدَاوَةٍ أَصْـلانِ

يعني: ويكونُ الحبُّ والبغضُ أيضًا، خالصًا لله، والحبُّ والبغضُ هما أصلانِ للولايةِ والعداوةِ، فبالحُبِّ تكونُ الولايةُ، وبالبغضِ تكونُ العداوةُ، لا يمكنُ أن تكونَ العداوةُ مع الحُبِّ أبدًا، ولا أن تكونَ الولايةُ مع البغضِ، فالحبُّ أصلٌ والولايةُ فرعٌ؛ يعني: مَنْ أَحَبَّ شيئًا تولَّاه، والبغضُ أصلٌ والعداوةُ فرعٌ، يعني: مَن أَبْغَضَ شيئًا عاداه، فأنت إذا أَحْبَبْتَ اللهَ عزَّ وجلَّ فحينئذٍ تكونُ ولايةُ الله عزَّ وجلَّ لك، وولايتُك أنت لله، وإذا كان الأمرُ بالعكسِ -والعياذُ بالله- فحينئذٍ تكونُ عداوةُ الله لك وعداوتُك أنت لله؛ ولهذا كان الكُفَّارُ محلَّ بغضِ الله ومقتِه، وهم أهلُ عداوتِه.

إِذَنْ الأصلُ للولايةِ هو الحُبُّ، والأصلُ للعداوةِ هو البغضُ، والحُبُّ والبغضُ في القلبِ، والولايةُ والعداوةُ في الظَّاهرِ.

٤٥٥٣- لله أَيْضًا هَكَذَا الإِعْطَاءُ وَالْـ ... ـمَنْعُ اللَّذَانِ عَلَيْهِمَا يَقِفَانِ

قَوْلُهُ: «عَلَيْهِمَا يَقِفَانِ» «عَلَيْهِمَا»؛ أي: على العطاءِ والمنعِ، «يَقِفَانِ»؛ أي: الحبُّ والبغضُ والعداوةُ والولايةُ، يقولُ: «لله أَيْضًا هَكَذَا الإِعْطَاءُ وَالْمَنْعُ» الإعطاءُ من الله؛ والمنعُ من الله، يعني: هو الذي يَهَبُ الحُبَّ الذي يترتَّبُ عليه الولايةُ، والبغضَ الذي يترتَّبُ عليه العداوةُ، فمَن أعطاه الحُبَّ والولايةَ فقد أعطاه، ومَن منعه حُرِمَ من الحُبِّ والولايةِ، «اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ»(١).

٤٥٥٤- وَالله هَذَا شَطْرُ دِينِ الله وَالتْـ ... ـتَحْكِيمُ لِلْمُخْتَارِ شَطْرٌ ثَانِ

قَوْلُهُ: «وَالله هَذَا شَطْرُ دِينِ الله» المُشَارُ إليه بقولِه: «هَذَا» الإخلاصُ؛ فإنَّه شطرُ الدِّينِ، والنِّصفُ الثَّاني: اتِّباعُ الرَّسولِ؛ ولهذا قال: «وَالتَّحْكِيمُ لِلْمُخْتَارِ شَطْرٌ ثَانِي»، فالتَّحكيمُ للمختارِ؛ أي: لرسولِ الله ﷺ؛ يعني: نجعلُه هو الحَكَمَ بيننا كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النِّساء:٥٩]، وكما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النِّساء:٦٥]، فالإخلاصُ لله، والتَّحكيمُ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٤٥٥٥- وَكِلاهُمَا الإِحْسَانُ لَنْ يَتَقَبَّلَ الرْ ... رَحْمَنُ مِنْ سَعْيٍ بِلا إِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «كِلَاهُمَا»؛ أي: الإخلاصُ والمتابعةُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤). ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم (٥٩٣).

الإخلاصُ والمتابعةُ هما الإحسانُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] مَنْ هو الأحسنُ عملًا؟

الجوابُ: هو مَنْ كان أخلصَ لله وأتبعَ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٤٥٥٦- وَالـهِجْرَةُ الأُخْرَى إِلَى المَبْعُوثِ بِـالْـ ... إِسْـلامِ وَالإِيـمَانِ وَالإِحْسَـانِ

الهجرةُ الثَّانيةُ: هجرةٌ إلى المبعوثِ محمَّدٍ ﷺ بالإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ، لكن كيف تهاجرُ إليه؟ تُهاجرُ إليه باتِّباعِه، تسلكُ طريقَه الذي مشى إليه، لا تتجاوزه، ولا تقصر عنه؛ ولهذا ينبغي للإنسانِ حين فعل العبادةِ أن يستحضرَ هذين الأمرين: الإخلاص لله، والمتابعة لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٤٥٥٧- أَتَـرَوْنَ هَـذِي هِجْـرَةَ الأَبْـدَانِ لَا ... وَالله بَـلْ هِـيَ هِجْـرَةُ الإِيـمَانِ

يعني: هذه ليست هجرةَ أبدانٍ، ولكنَّها هجرةُ إيمانٍ وهجرةُ قلوبٍ، يُهاجِرُ القلبُ إلى الله فيكونُ دائمًا واقفًا بين يديه وفي رحابِه، بأن يلتفتَ إلى الله دائمًا، يجعل دائمًا ذكرَ الله في قلبِه قَائِمًا وقَاعِدًا فَاعِلًا وتَارِكًا، فالإنسانُ الموفَّقُ يكونُ دائمًا في يقظةٍ، والمخذولُ -نسألُ اللهَ العافيةَ- يكونُ دائمًا في غفلةٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]؛ ولهذا إذا رَأَيْتَ من نفسِك أنَّك لا تعملُ، تمضي عليك الأيَّامُ وأنت ما عَمِلْتَ شيئًا فاتَّهِمْ نفسَك، فإنَّ قلبَك يكونُ غافلًا عن ذِكْرِ الله؛ لأنَّ مَنْ أَقْبَلَ على الله بَارَكَ له في وقتِه وفي عملِه، وكانت ساعاتُه كُلُّها معمورةً بما فيه الخير.

ولا شكَّ أنَّ ذكرَ الله باللِّسانِ يُعِينُ على ذكرِه بالقلبِ، وكثرةَ قراءةِ القرآنِ وكثرةَ العبادةِ يجرُّ بعضُها بعضًا، ومصاحبةَ الأخيارِ، وأشياءَ كثيرة، كُلُّ ذلك يُعِينُ على ذكرِه تعالى بالقلبِ.

يهاجرُ إلى الرَّسولِ فيكونُ دائمًا متَّبِعًا له وكأنَّه أمامَه ينظرُ إليه فيسلك ما يسلكُه، هذه الهجرةُ الحقيقيَّةُ، وهجرةُ الأبدانِ فرعٌ عن هذه الهجرةِ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ»(١)، اللَّهُمَّ وفِّقنا لذلك.

٤٥٥٨- قَطْعُ المَسَافَةِ بِالقُلُوبِ إِلَيْهِ فِي ... دَرَكِ الأُصُولِ مَعَ الفُرُوعِ وَذَانِ

٤٥٥٩- أَبَدًا إِلَيْهِ حُكْمُهَا لا غَيْرِهِ ... فَالحُكْمُ مَا حَكَمَتْ بِهِ النَّصَّانِ

قَوْلُهُ: «قَطْعُ المَسَافَةِ بِالقُلُوبِ إِلَيْهِ...» هل يمكنُ أن تقطعَ المسافةَ بالقلوبِ إلى الله؟ الجوابُ: نعم، يكونُ قلبُك يحومُ حولَ العرشِ دائمًا، ولا يجولُ حولَ الفَرْشِ؛ والفَرْش: أي: الأرض؛ لأنَّ كونَك تجولُ حولَ الأرضِ معناه أنَّك أَهْبَطْتَ نفسَك، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

فالحاصلُ أنَّ المؤلِّفَ يقولُ: قطعُ المسافةِ بالقلوبِ إليه في دَرَكِ الأصُولِ، وأمَّا قطعُ المسافةِ بالقلوبِ إلى الرَّسولِ فذلك بأن تحومَ حول سُنَّتِه وتنبذَ كُلَّ ما خَالَفَ سنَّتَه، تجعله وراءَك وتجعل أمامك محمَّدًا صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «إِلَيْهِ حُكْمُهَا لَا غَيْرِهِ»؛ أي: لا إلى غيرِه؛ لأنَّ الحكمَ لله ورسولِه.

قَوْلُهُ: «فَالحُكْمُ مَا حَكَمَتْ بِهِ النَّصَّانِ»، والنَّصَّان هما الكتابُ والسُّنَّةُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، رقم (١٩٠٧).

٤٥٦٠- يَـا هِجْـرَةً طَالَـتْ مَسَـافَتُهَا عَـلَى ... مَنْ خُصَّ بِالـحِرْمَانِ وَالـخِذْلانِ

٤٥٦١- يَـا هِجْـرَةً طَالَـتْ مَسَـافَتُهَا عَـلَى ... كَسْـلانَ مَنْخُـوبِ الفُـؤَادِ جَبَـانِ

٤٥٦٢- يَـا هِجْـرَةً وَالعَبْـدُ فَـوْقَ فِرَاشِـهِ ... سَبَقَ السُّـعَاةَ لِـمَنْزِلِ الرِّضْـوَانِ

٤٥٦٣- سَارُوا أَحَثَّ السَّـيْرِ وَهْـوَ فَسَـيْرُهُ ... سَـيْرُ الـدَّلالِ وَلَـيْسَ بالـذَّمْلانِ

٤٥٦٤- هَـذَا وَتَنْظُـرُهُ أَمَـامَ الرَّكْـبِ كَالْـ ... عَلَـمِ العَظِـيمِ يُشَـافُ فِي القِيعَـانِ

٤٥٦٥- رُفِعَتْ لَـهُ أَعْـلامُ هَاتِيـكَ النُّصُـو ... صِ رُؤُوسُهَا شَـابَتْ مِـنَ النِّـيرَانِ

٤٥٦٦- نَارٌ هِيَ النُّورُ الـمُبِينُ وَلَـمْ يَكُـنْ ... لِـيَرَاهُ إِلَّا مَـنْ لَـهُ عَيْنَـانِ

٤٥٦٧- مَكْحُولَتَـانِ بِمِـرْوَدِ الـوَحْيَيْنِ لَا ... بِمَـرَاوِدِ الآرَاءِ وَالـهَذَيَانِ

٤٥٦٨- فَلِذَاكَ شَمَّرَ نَحْوَهَـا لَـمْ يَلْتَفِـتْ ... لا عَـنْ شَـمَائِلِهِ وَلا أَيْـمَانِ

الشـرحُ

٤٥٦٠- يَـا هِجْـرَةً طَالَـتْ مَسَـافَتُهَا عَـلَى ... مَنْ خُصَّ بِالـحِرْمَانِ وَالـخِذْلانِ

يعني: أَنَّه يتأسَّفُ على هذه الهجرةِ؛ أي: الهجرةِ إلى الله ورسولِه، فإنَّه طالَتْ مَسَافَتُهَا عَلَىَ مَنْ خُصَّ بِالحِرْمَانِ والخِذْلَانِ، وأمَّا مَنْ مَنَّ اللهُ عليه بالتَّوفيقِ والنَّصرِ والعِزِّ فليست عليه طويلةً.

٤٥٦١- يَـا هِجْـرَةً طَالَـتْ مَسَـافَتُهَا عَـلَى ... كَسْـلانَ مَنْخُـوبِ الفُـؤَادِ جَبَـانِ

قَوْلُهُ: «مَنْخُوبِ»؛ أي: ضعيفِ القلبِ.

فضعيفُ القلبِ، الجبانُ، الكسلانُ، هذا تطولُ عليه الهجرةُ، ويعجزُ عن الوصولِ إلى مكانِ هذه الهجرةِ.

٤٥٦٢- يَـا هِجْـرَةً وَالعَبْـدُ فَـوْقَ فِرَاشِـهِ　　　سَـبَقَ السُّـعَاةَ لِـمَنْزِلِ الرِّضْـوَانِ

الظَّاهرُ أنَّ «**سَبَقَ السُّعَاةَ**» يعني: أنَّه على فراشِه لكنَّه يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ ويُحَكِّمُ الكتابَ والسُّنَّةَ، فيسبقُ هؤلاء الذين يَسْعَوْن لمنزلِ الرِّضوانِ، فهو على فراشِه يسبقُ العاملَ الجادَّ في عملِه.

٤٥٦٣- سَارُوا أَحَثَّ السَّـيْرِ وَهْـوَ فَسَـيْرُهُ　　　سَـيْرُ الـدَّلالِ وَلَـيْسَ بالـذَّمْلانِ

سيرُ الدَّلالِ سيرٌ بطيءٌ، والذَّمَلان سيرٌ سريعٌ، وهذا يسيرُ سيرَ الدَّلالِ فكيف يُعَانِقُ مَنْ يسيرُ سيرَ الذَّمَلان السَّريع؟! ومع هذا قال رحمه الله:

٤٥٦٤- هَـذَا وَتَنْظُـرُهُ أَمَـامَ الرَّكْـبِ كَالْـ　　　عَلَـمِ العَظِـيمِ يُشَـافُ في القِيعَـانِ

يعني: أنَّ هذا الذي سار سيرَ الدَّلالِ تنظرُه مثل العَلَمِ في القيعانِ، والقيعانُ جمعُ «قاع»، وهو الأرضُ الواسعةُ المستويةُ.

٤٥٦٥- رُفِعَتْ لَـهُ أَعْـلامُ هَاتِيـكَ النُّصُـو　　　صِ رُؤُوسُهَا شَـابَتْ مِـنَ النِّـيرَانِ

قَوْلُهُ: «**رُفِعَتْ لَهُ**» «**لَهُ**»؛ أي: إلى هذا الرَّجُلِ الذي يسيرُ سيرَ الدَّلالِ يريدُ الهجرةَ إلى الله ورسولِه.

قَوْلُهُ: «**شَابَتْ مِنَ النِّيرَانِ**» «**شَابَتْ**»؛ أي: من الشَّيب، والنِّيران جمعُ «**نار**».

المعنى: أنَّ هذه الأعلامَ واضحةٌ لكثرةِ النِّيرانِ على رؤوسِها.

٤٥٦٦- نَارٌ هِيَ النُّورُ الـمُبِينُ وَلَـمْ يَكُـنْ　　　لِـيَرَاهُ إِلَّا مَـنْ لَـهُ عَيْنَـانِ

٤٥٦٧- مَكْحُولَتَانِ بِمِرْوَدِ الوَحْيَيْنِ لَا   بِمَرَاوِدِ الآرَاءِ وَالهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «نَارٌ هِيَ النُّورُ المُبِينُ»؛ يعني: هي نارٌ، ولكنَّها في الحقيقةِ نورٌ مبينٌ.

يقول رحمه الله: إنَّ أعلامَ السُّنَّةِ لا يراها إلَّا مَنْ له عينان مكحولتان بمراود السُّنَّةِ لا بمراود الهذيانِ والقولِ اللَّغوِ، وهو يشيرُ إلى ما عليه السَّلفُ الصَّالحُ رحمهم اللهُ، وما عليه هؤلاء المعطِّلةُ.

٤٥٦٨- فَلِذَاكَ شَمَّرَ نَحْوَهَا لَمْ يَلْتَفِتْ   لا عَنْ شَمَائِلِهِ وَلا أَيْمَانِ

وهذا هو التَّوفيقُ من الله عزَّ وجلَّ أنْ يفتحَ اللهُ على الإنسانِ نورَ العلمِ والإيمانِ حتَّى يسيرَ خلفه، ومن الخِذلان أن يُغْلَقَ عليه هذا حتَّى لا يفهمَ ولا يعلمَ.

***

٤٥٦٩- يَا قَوْمُ لَوْ هَاجَرْتُمُ لَرَأَيْتُمُ   أَعْلامَ طَيْبَةَ رُؤْيَةً بِعِيَانِ

٤٥٧٠- وَرَأَيْتُمُ ذَاكَ اللِّوَاءِ وَتَحْتَهُ الرْ   رُسُلُ الكِرَامُ وَعَسْكَرُ القُرْآنِ

٤٥٧١- أَصْحَابُ بَدْرٍ وَالأُلَى قَدْ بَايَعُوا   أَزْكَى البَرِيَّةِ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ

٤٥٧٢- وَكَذَا المُهَاجِرَةُ الأُلَى سَبَقُوا كَذَا الْـ   أَنْصَارُ أَهْلُ الدَّارِ وَالإِيمَانِ

٤٥٧٣- وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَا   لِكُ هَدْيِهِمْ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ

٤٥٧٤- لَكِنْ رَضِيتُمْ بِالأَمَانِي وَابْتُلِيـ   ـتُمْ بِالحُظُوظِ وَنُصْرَةِ الإِخْوَانِ

٤٥٧٥- بَلْ غَرَّكُمْ ذَاكَ الغَرُورُ وَسَوَّلَتْ   لَكُمُ النُّفُوسُ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ

٤٥٧٦- وَنَبَذْتُمُ عَسَلَ النُّصُوصِ وَرَاءَكُمْ   وَقَنَعْتُمُ بِقُطَارَةِ الأَذْهَانِ

٤٥٧٧- وَتَـرَكْتُمُ الـوَحْيَيْنِ زُهْـدًا فِـيهِمَا وَرَغِبْـتُمُ فِي رَأْيِ كُـلِّ فُـلانِ

٤٥٧٨- وَعَـزَلْتُمُ النَّصَّـيْنِ عَـمَّا وُلِّيَـا لِلْحُكْـمِ فِيـهِ عَـزْلَ ذِي عُـدْوَانِ

الشـرحُ

٤٥٦٩- يَـا قَـوْمُ لَـوْ هَـاجَرْتُمْ لَـرَأَيْتُمُ أَعْـلامَ طَيْبَـةَ رُؤْيَـةً بِعِيَـانِ

قَوْلُهُ: «يَا قَوْمُ»، مثلُ هذه العبارةِ يجوزُ فيها: «يَا قَوْمِ»، ويجوزُ فيها «يَا قَوْمُ» بكسرِ الميمِ مراعاة للياءِ المحذوفةِ، وبضمِّها على سبيل القطعِ عن الإضافةِ.

قَوْلُهُ: «طَيْبَةَ»، أي: المدينة، ولا ينبغي أن تُسَمَّى «يثربَ» كما يفعلُه بعضُ الكُتَّابِ المعاصرين تبعًا للنَّصارى المنصِّرين، بل إنَّما هي طَيْبَةُ كما قال النَّبيُّ عليه والصَّلاة والسَّلامُ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَمَّاهَا طَيْبَةَ»[1]، وصدق النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب:١٣] فهذا حكايةُ قولِ المنافقين، وليس إقرارًا له.

٤٥٧٠- وَرَأَيْـتُمْ ذَاكَ اللِّـوَاءِ وَتَحْتَـهُ الـرْ رُسُـلُ الكِـرَامُ وَعَسْـكَرُ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «رَأَيْتُمْ ذَاكَ اللِّوَاءَ» اللِّواءُ هو ما يُرْفَعُ علمًا عند قيادةِ الجيوشِ ليكونَ مُتَّبَعًا.

قَوْلُهُ: «وَتَحْتَهُ الرُّسُلُ الكِرَامُ» فيه إشكالٌ؛ لأنَّه ليس في المدينةِ إلَّا رسولٌ واحدٌ وهو محمَّدٌ ﷺ، والجوابُ عنه أنْ يُقَالَ: إنَّ محمَّدًا ﷺ جاء بما جاءت به الرُّسلُ قبلَه، فهو كالرُّسلِ جميعًا في المعنى، يقولُ الشَّاعرُ:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٨٩، رقم ٢١١٠٧).

وَالنَّـاسُ أَلْـفٌ مِـنْهُمُ كَوَاحِـدٍ   وَوَاحِدٌ كَالأَلْفِ إِنْ أَمْـرٌ عَنَـى(١)

قَوْلُهُ: «وَعَسْكَرُ القُرْآنِ» مَنْ هم عسكرُ القرآنِ؟ قال:

٤٥٧١- أَصْـحَابُ بَـدْرٍ وَالأُلَى قَـدْ بَـايَعُوا   أَزْكَـى البَرِيَـةِ بَيْعَـةَ الرِّضْـوَانِ

قَوْلُهُ: «أَصْحَابُ بَدْرٍ» أصحابُ بدرٍ الذين قاتلوا في بدرٍ، وكانوا ثلاثَمئةٍ وبضعةَ عَشَرَ رجلًا، وخصَّهم اللهُ بخصيصةٍ حيث اطَّلع عليهم وقال: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»(٢).

قَوْلُهُ: «الأُلَى قَدْ بَايَعُوا» «الأُلَى» بمعنى الذين، قال ابنُ مالكٍ رحمه الله: (جَمْعُ «الَّذِي» الأُلَى الَّذِينَ...)(٣).

فجمعُ «الَّذي»: الأُلَى والَّذين.

قَوْلُهُ: «أَزْكَى البَرِيَّةِ»؛ يعني: محمَّدًا رسولَ الله.

قَوْلُهُ: «بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ»؛ لأنَّ اللهَ قال في هذه المبايعةِ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨]، أَحَلَّ اللهُ عليهم رضاه، وقال النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»(٤)؛ يعني: الذين بايعوا تحت الشَّجرةِ

---

(١) البيت لابن دُريد، كما في شرح ديوان المتنبي للعكبري (١/ ٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٢٨٤٥)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٤).

(٣) شرح ابن عقيل (١/ ١٤١).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٦).

لا يدخلون لا دخولًا مؤقّتًا ولا مؤبّدًا، فهم بايعوا النَّبِيَّ ﷺ على ألَّا يفرُّوا حِين شَاعَ في النَّاسِ أنَّ عثمانَ قد قُتِلَ، وكان عثمانُ قد ندبه النَّبيُّ ﷺ إلى أهلِ مكَّةَ للمفاوضةِ، فَبَايَعَ النَّاسُ، وعثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يحضر، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ بايع عنه بنفسِه فقال: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ»، فبايع يدَه بيدِه الأخرى عن عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

هؤلاء الذين بايعوا عددُهم ألفٌ وأربعمائة رجلٍ، كُلُّهم بايعوا تحت الشَّجرةِ، وبَقِيَت هذه الشَّجرةُ حتَّى ذُكِرَ لأميرِ المؤمنين عمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الموحِّدِ المخلصِ أنَّ أناسًا يذهبون إليها فأمر بقطعِها[2]، فاجْتُثَّت من أصلِها، والحمدُ لله الذي وَفَّقَ هذا الخليفةَ لهذا العملِ، والله لو بَقِيَت لكانت مثل اللَّاتِ والعُزَّى لاسيَّما في هذا الوقتِ، لكن الحمدُ لله الذي وَفَّقَ هذا الخليفةَ الرَّاشدَ لهذا، وانظر إلى إخلاصِ هذا الرَّجلِ في توحيدِه لـمَّا قَبَّلَ الحجرَ الأسودَ وخاف أن يكونَ فتنةٌ قال: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ»[3]، كُلُّ هذا إبعادٌ للنَّاسِ عن التَّعلُّقِ بالأحجارِ والأشجارِ، فجزاه اللهُ عن أُمَّةِ محمَّدٍ خيرًا.

وعمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعَل هذا وهو وَلِيُّ الأمرِ، فيجب على ولاةِ الأمورِ من المسلمين أن يقطعوا كُلَّ وسائلِ الشِّركِ، أمَّا عامَّةُ النَّاسِ فقد يكونُ في هذا من الضَّررِ ما يربو على قطعِه، رُبَّما يقطعون مثلًا شجرةً أو يهدمون صنمًا، فَيُعَادُ الصَّنمُ أو الشَّجرةُ على أحسن ممَّا سبق، وهؤلاء يُقْضَى عليهم وعلى دعوتِهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٤٩٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٥٠، رقم ٧٥٤٥).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود، رقم (١٥٩٧).

٤٥٧٢- وَكَذَا المُهَاجِرَةُ الأُلَى سَبَقُوا كَذَا الْـ ... أَنْصَارُ أَهْلُ الدَّارِ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا المُهَاجِرَةُ الأُلَى سَبَقُوا» قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التَّوبة:١٠٠]؛ أي: الذين هاجروا من مكَّةَ أفضلِ بلادِ الله وأحبِّ البلادِ إليهم، هاجروا إلى الله ورسولِه تاركين أموالَهم وديارَهم وعيالَهم، هاجروا إلى الله ورسولِه فكان لهم سَبْقُ الهجرةِ.

قَوْلُهُ: «كَذَا الأَنْصَارُ أَهْلُ الدَّارِ وَالإِيمَانِ» الأنصارُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الذين ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر:٩]؛ أي: من قبل المهاجرين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر:٩]؛ يعني: لا يجدون في صدورِهم شيئًا من البغضاءِ أو الضَّغينةِ ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ الضَّميرُ يعودُ على المهاجرين؛ يعني: لا يجدون في صُدورِهم شيئًا على المهاجرين حين فَضَّلَهم اللهُ -سبحانه وتعالى- بما فَضَّلَهم به مع أنَّهم هم الذين قَدموا إليهم.

٤٥٧٣- وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَا ... لِكُ هَدْيِهِمْ أَبَدًا بِكُلِّ زَمَانِ

يعني: لو أنَّ الإنسانَ هاجر لوجد هذه الأعلامَ الطَّيِّبَةَ النَّيِّرَةَ.

٤٥٧٤- لَكِنْ رَضِيتُمْ بِالأَمَانِي وَابْتُلِيـ ... ـتُمْ بِالحُظُوظِ وَنُصْرَةِ الإِخْوَانِ

وهذه محنةٌ -والعياذُ بالله- من الله عزَّ وجلَّ أن يُعْرِضَ الإنسانُ عن الكتابِ والسُّنَّةِ، وأن يأخذَ برأيِ فلانٍ وفلانٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]، وهذا مَثَلٌ ينطبقُ تمامًا على المقلِّدين الذين يقدِّمون أقوالَ الشُّيوخِ على قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٤٥٧٥- بَلْ غَـرَّكُمْ ذَاكَ الغَـرُورُ وَسَـوَّلَتْ لَكُمُ النُّفُوسُ وَسَـاوِسَ الشَّـيْطَانِ

قَوْلُهُ: «ذَاكَ الغَرُورُ» الغَرُورُ هو الشَّيطانُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد:١٤].

قَوْلُهُ: «وَسَوَّلَتْ لَكُمُ النُّفُوسُ وَسَاوِسَ الشَّيْطَانِ»؛ يعني: زيَّنت لكم وساوسَ الشَّيطانِ فتبعتموه.

٤٥٧٦- وَنَبَذْتُمُ عَسَلَ النُّصُوصِ وَرَاءَكُـمْ وَقَنَعْـــتُمُ بِقُطَـــارَةِ الأَذْهَـــانِ

ذلك العسل الصَّافي الكثير نبذتموه وراءكم، وأخذتم بالقُطَارَةِ الضَّعيفةِ المُلَوَّثةِ بالأوساخِ، وهي قُطَارةُ الأذهانِ.

٤٥٧٧- وَتَـرَكْتُمُ الـوَحْيَيْنِ زُهْـدًا فِـيهِمَا وَرَغِبْــتُمُ فِي رَأْيِ كُــلِّ فُــلانِ

سبحان الله! تركوا شَيْئَيْنِ وأخذوا أشياءَ، كُلُّ ما ذُكِرَ لهم من رأيٍ تبعوه، وتركوا الوحيين كتابَ الله وسُنَّةَ رسولِه صلى الله عليه وسلم.

٤٥٧٨- وَعَــزَلْتُمُ النَّصَّــيْنِ عَــمَّا وُلِّيَــا لِلْحُكْـمِ فِيـهِ عَــزْلَ ذِي عُــدْوَانِ

يقولُ: يجبُ الرُّجوعُ في التَّحاكمِ إلى الله ورسولِه، قال اللهُ تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النِّساء:٥٩]، فكما أنَّه إذا تنازع الرَّجُلان في أمرٍ من أمورِ الدُّنيا يذهبان إلى الحاكمِ، فكذلك إذا تَنَازَعْنَا في شيءٍ من الدِّينِ نردُّه إلى الكتابِ والسُّنَّةِ، هؤلاء -والعياذُ بالله- عزلوا النَّصَّيْنِ عمَّا وُلِّيا للحكمِ فيه، وقد ولَّى اللهُ النَّصَّيْنِ الحُكْمَ بين النَّاسِ، ولكن هؤلاء عزلوهما عزلَ ذي عدوانٍ.

***

٤٥٧٩- وَزَعَمْتُمُ أَنْ لَيْسَ يَحْكُمُ بَيْنَنَا ... إِلَّا العُقُولُ وَمَنْطِقُ اليُونَانِ

٤٥٨٠- فَهُمَا بِحُكْمِ الحَقِّ أَوْلَى مِنْهُمَا ... سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَان

٤٥٨١- حَتَّى إِذَا انْكَشَفَ الغِطَاءُ وَحُصِّلَتْ ... أَعْمَالُ هَذَا الخَلْقِ فِي المِيزَانِ

٤٥٨٢- وَإِذَا انْجَلَى هَذَا الغُبَارُ وَصَارَ مَيْـ ... ـدَانُ السِّبَاقِ تَنَالُهُ العَيْنَانِ

٤٥٨٣- وَبَدَتْ عَلَى تِلْكَ الوُجُوهِ سِمَاتُهَا ... وَسْمَ المَلِيكِ القَادِرِ الدَّيَّانِ

٤٥٨٤- مُبْيَضَّةٌ مِثْلَ الرِّيَاضِ بِجَنَّةٍ ... وَالسُّودُ مِثْلَ الفَحْمِ لِلنِّيرَانِ

٤٥٨٥- فَهُنَاكَ يَعْلَمُ رَاكِبٌ مَا تَحْتَهُ ... وَهُنَاكَ يُقْرَعُ نَاجِذُ النَّدْمَانِ

٤٥٨٦- وَهُنَاكَ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا الَّذِي ... مَعَهَا مِنَ الأَرْبَاحِ وَالخُسْرَانِ

٤٥٨٧- وَهُنَاكَ يَعْلَمُ مُؤْثِرُ الآرَاءِ وَالشْـ ... ـشَطَحَاتِ وَالهَذَيَانِ وَالبُطْلَانِ

٤٥٨٨- أَيُّ البَضَائِعِ قَدْ أَضَاعَ وَمَا الَّذِي ... مِنْهَا تَعَوَّضَ فِي الزَّمَانِ الفَانِي

الشرحُ

٤٥٧٩- وَزَعَمْتُمُ أَنْ لَيْسَ يَحْكُمُ بَيْنَنَا ... إِلَّا العُقُولُ وَمَنْطِقُ اليُونَانِ

يخاطبُ أهلَ التَّعطيلِ؛ لأنَّ أهلَ التَّعطيلِ يُحَكِّمُونَ العقلَ في بابِ الصِّفاتِ، ويقولون: ما خَالَفَ العقلَ فإنَّه يجبُ تأويلُه، فيرجعون إلى العقلِ مع أنَّ الصِّفاتِ تُتَلَقَّى من السَّمعِ من الكتابِ والسُّنَّةِ، لا من العقولِ.

٤٥٨٠- فَهُمَا بِحُكْمِ الحَقِّ أَوْلَى مِنْهُمَا ... سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَان

قَوْلُهُ: «فَهُمَا»؛ أي: الكتابُ والسُّنَّة أو الوحيان.

قَوْلُهُ: «بِحُكْمِ الحَقِّ» وهو اللهُ عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «أَوْلَى مِنْهُمَا»؛ أي: من العقولِ ومنطق اليونانِ.

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ذَا السُّبْحَانِ»؛ أي: تنزيهًا لك يا ذا السُّبْحَان، يا ذا التَّنزيه.

المعنى: أنَّ هؤلاء المعطِّلَةَ يقولون: لا يحكمُ بين النَّاسِ في بابِ الصِّفاتِ إلَّا العقولُ ومنطقُ اليونانِ، ولكنَّ ابنَ القيِّمِ يقولُ: الحقُّ أنَّ الأَوْلَى بالحُكْمِ النَّصَّان: «الكتابُ والسَّنَّةُ»، والذي جعلهما أَوْلَى بالحقِّ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

٤٥٨١- حَتَّى إِذَا انْكَشَفَ الغِطَاءُ وَحُصِّلَتْ ... أَعْمَالُ هَذَا الخَلْقِ فِي المِيزَانِ

وذلك يكونُ يومَ القيامةِ.

٤٥٨٢- وَإِذَا انْجَلَى هَذَا الغُبَارُ وَصَارَ مَيْـ ... ـدَانُ السِّبَاقِ تَنَالُهُ العَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «مَيْدَانُ السِّبَاقِ»؛ أي: منتهى السِّباق.

يعني مثلًا: لو أردنا أن نتسابقَ إلى أمدٍ إلى غايةٍ، إذا كان هناك غبارٌ فإنَّنا لا نُشَاهِدُ الغايةَ؛ لأنَّها بعيدةٌ ومحجوبةٌ بالغبارِ، فإذا انجلى الغبارُ صرنا نرى هذه الغايةَ؛ ولهذا يقولُ:

٤٥٨٣- وَبَدَتْ عَلَى تِلْكَ الوُجُوهِ سِمَاتُهَا ... وَسْمَ المَلِيكِ القَادِرِ الدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «عَلَى تِلْكَ الوُجُوهِ»؛ أي: على وجوهِ الخلقِ.

قَوْلُهُ: «سِمَاتُهَا»؛ أي: علاماتُها.

قَوْلُهُ: «وَسْمَ المَلِيكِ»؛ أي: تعليم المليكِ، فالذي يضعُ العَلَامةَ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «الدَّيَّانِ» الذي يجزي عبادَه بما يعملون، فكما تدينُ تُدَانُ.

٤٥٨٤- مُبْيَضَّـــةٌ مِثْـلَ الرِّيَـاضِ بِجَنَّـــةٍ وَالسُّـودُ مِثْـلَ الفَحْـمِ لِلنِّـيرَانِ

الوجوهُ يومَ القيامةِ تكونُ هكذا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦]، وجوهُ المؤمنين -اللَّهُمَّ اجعلنا جميعًا منهم- تكونُ بيضاءَ، ووجوهُ الكافرين تكونُ سوداءَ -والعياذُ بالله- مِثْلَ الفحمِ للنِّيرانِ.

٤٥٨٥- فَهُنَـاكَ يَعْلَـمُ رَاكِـبٌ مَـا تَحْتَـهُ وَهُنَـاكَ يُقْـرَعُ نَاجِـذُ النَّـدْمَانِ

هناك يَعْلَمُ الرَّاكبُ ما الذي تحته؟ هل هو مركوبٌ أو هل هو راحلةٌ تؤدِّي إلى الغرضِ أو ليس كذلك؟

٤٥٨٦- وَهُنَاكَ تَعْلَمُ كُلُّ نَفْسٍ مَا الَّـذِي مَعَهَـا مِـنَ الأَرْبَـاحِ وَالـخُسْرَانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠].

٤٥٨٧- وَهُنَاكَ يَعْلَـمُ مُـؤْثِرُ الآرَاءِ وَالشْـ ـشَطَحَاتِ وَالـهَذَيَانِ وَالـبُطْلانِ

٤٥٨٨- أَيُّ البَضَائِعِ قَدْ أَضَاعَ وَمَـا الَّـذِي مِنْهَـا تَعَـوَّضَ فِي الزَّمَـانِ الفَـانِي

وهذا صحيحٌ، يعلمُ مَنْ يُؤثِرُ الآراءَ والشَّطحاتِ والهذيان والبطلان على كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه يعلمُ: أيُّ البضائعِ قد أَضاعَ؟ أَضَاعَ من البضائعِ ما فيه الرِّبحُ واختار ما فيه الخَسارةَ؛ ولهذا قال: «وَمَا الَّذِي مِنْهَا تَعَوَّضَ» ولم يتعوَّض إلَّا ما فيه الخسارة والنَّدم في الزَّمان الفَانِي؛ يعني: زمان الدُّنيا، فإنَّه أَضَاعَ ما فيه الرِّبحُ إلى ما فيه الخسرانُ.

٤٥٨٩- سُبْحَانَ رَبِّ الـخَلْقِ قَاسِمِ فَضْـلِهِ وَالعَدْلِ بَـيْنَ النَّـاسِ فِي الـمِيزَانِ

٤٥٩٠- لَوْ شَاءَ كَانَ النَّـاسُ شَـيْئًا وَاحِـدًا مَـا فِـيهِمُ مِـنْ تَائِـهٍ حَـيْرَانِ

٤٥٩١- لَكِنَّـهُ سُـبْحَانَهُ يَخْـتَصُّ بِالْـ ـفَضْلِ العَظِيمِ خُلاصَـةَ الإِنْسَـانِ

٤٥٩٢- وَسِـوَاهُمُ لا يُصْـلِحُونَ لِصَـالِحٍ كَالشَّـوْكِ فَهْـوَ عِـمَارَةُ النِّـيرَانِ

٤٥٩٣- وَعِمَارَةُ الـجَنَّاتِ هُمْ أَهْلُ الـهُدَى اللهُ أَكْـبَرُ لَـيْسَ يَسْـتَوِيَانِ

٤٥٩٤- فَسَـلِ الـهِدَايَةَ مِـنْ أَزِمَّـةِ أَمْرِنَـا بِيَدَيْـهِ مَسْـأَلَةُ الـذَّلِيلِ العَـانِي

٤٥٩٥- وَسَلِ العِيَاذَ مِنِ اثْنَتَيْنِ هُمَا اللَّتَا نِ بِهُلْـكِ هَـذَا الـخَلْقِ كَافِلَتَـانِ

٤٥٩٦- شَرُّ النُّفُوسِ وَسَيِّئُ الأَعْمَالِ مَـا وَاللهُ أَعْظَـمُ مِـنْهُمَا شَرَّانِ

٤٥٩٧- وَلَقَـدْ أَتَـى هَـذَا التَّعَـوُّذُ مِـنْهُمَا فِي خُطْبَـةِ الـمَبْعُوثِ بِـالقُرْآنِ

٤٥٩٨- لَوْ كَـانَ يَـدْرِي العَبْـدُ أَنَّ مُصَـابَهُ فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا هُـوَ الشَّـرَّانِ

٤٥٩٩- جَعَـلَ التَّعَـوُّذَ مِـنْهُمَا دَيْدَانَـهُ حَتَّـى تَـرَاهُ دَاخِـلَ الأَكْفَـانِ

٤٦٠٠- وَسَلِ العِيَاذَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالـهَوَى فَهُـمَا لِكُـلِّ الشَّـرِّ جَامِعَتَـانِ

٤٦٠١- وَهُمَا يَصُدَّانِ الفَتَى عَنْ كُلِّ طُرْ قِ الخَـيْرِ إِذْ فِي قَلْبِـهِ يَلِجَـانِ

٤٦٠٢- فَـتَرَاهُ يَمْنَعُـهُ هَـوَاهُ تَـارَةً وَالكِبْرُ أُخْرَى ثُـمَّ يَشْـتَرِكَانِ

٤٦٠٣- وَاللهِ مَـا فِي النَّـارِ إِلا تَـابِعٌ هَـذَيْنِ فَاسْـأَلْ سَـاكِنِي النِّـيرَانِ

٤٦٠٤- وَاللهِ لَـوْ جَـرَّدْتَ نَفْسَـكَ مِـنْهُمَا لأَتَـتْ إِلَيْـكَ وُفُـودُ كُـلِّ تَهَـانِ

الشرحُ

٤٥٨٩- سُبْحَانَ رَبِّ الـخَلْقِ قَاسِمِ فَضْـلِهِ ... وَالعَدْلِ بَـيْنَ النَّـاسِ فِي الـمِيزَانِ

يعني: يُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجلَّ الذي يقسمُ الفضلَ بين النَّاسِ، ويعدلُ بينهم في الميزانِ، فهذا فضلُه، وهذا عدلُه، مَنْ هداه فبفضلِه، ومَنْ أضلَّه فبعدلِه، قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزُّخرف:٧٦]، ولكن مَنْ تَفَضَّلَ عليه فهداه فهذا فضلُه يؤتيه مَنْ يشاءُ، نسألُ اللهَ أن يؤتيَنا وإيَّاكم من فضلِه.

٤٥٩٠- لَوْ شَاءَ كَانَ النَّـاسُ شَـيْئًا وَاحِـدًا ... مَـا فِـيهِمُ مِـنْ تَائِـهٍ حَـيْرَانِ

وذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩]، وكما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجدة:١٣]، ولكنَّه عزَّ وجلَّ حكيمٌ، له الحكمةُ في أنَّه يهدي مَنْ يشاءُ، ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ.

٤٥٩١- لَكِنَّـــهُ سُـــبْحَانَهُ يَخْـــتَصُّ بِالْـــ ... ـفَضْلِ العَظِيمِ خُلاصَـةَ الإِنْسَـانِ

يختصُّ الخلاصةَ من الإنسانِ، فإذا كان اللهُ تعالى يقولُ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فهو كذلك أعلمُ حيث يجعلُ أثرَ هذه الرِّسالةِ، هل هذا أهلٌ لأن يكونَ من أتباعِ الرُّسلِ أو ليس أهلًا؟ اللهُ أعلمُ، فمَن آتاه اللهُ عزَّ وجلَّ من آثارِ هذه الرِّسالةِ من العلمِ والإيمانِ والهدى فليبشر بالخيرِ، فإنَّ اللهَ لم يضعْه فيه إلَّا وهو يعلمُ أنَّه أهلٌ، ومَنْ حُرِمَ فلا ييئس، وليلجأْ إلى الله عزَّ وجلَّ، وليسألْه الخيرَ والثَّباتَ.

٤٥٩٢- وَسِــوَاهُمُ لا يُصْــلِحُونَ لِصَــالِحٍ   كَالشَّــوْكِ فَهْــوَ عِــمَارَةُ النِّــيرَانِ

الشَّوْكُ لا يُنْتَفَعُ به، ولكن تُوقَدُ به النَّارُ، هؤلاء الذين ليسوا خلاصةَ الإنسانِ هم كالشَّوْكِ.

٤٥٩٣- وَعِمَارَةُ الـجَنَّاتِ هُمْ أَهْلُ الـهُدَى   اللهُ أَكْـــبَرُ لَـــيْسَ يَسْـــتَوِيَانِ

ساكنو الجنَّاتِ وعامرُوها هم أهلُ الهدى، أمَّا الشَّوْك فهو للنِّيرانِ.

٤٥٩٤- فَسَلِ الــهِدَايَةَ مِــنْ أَزِمَّــةِ أَمْرِنَــا   بِيَدَيْــهِ مَسْــأَلَةَ الــذَّلِيلِ العَــانِي

هذا توجيهٌ من المؤلِّف -رحمه الله- ونصيحةٌ أن تسألَ الهدايةَ من الله «مَنْ أَزِمَّةُ أَمْرِنَا بِيَدَيْهِ»، وأَزِمَّة جمعُ «زمام»؛ فأمورُنا زمامُها بيدِ الله، قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود:٥٦]، فإذَنْ إلى مَنْ نلجأُ؟ الجوابُ: إلى الله عزَّ وجلَّ، فاسأل مَنْ أَزِمَّةُ الأمورِ بيديه، اسأله الهدايةَ مسألةَ الذَّليلِ العاني، لا مسألةَ المتكبِّرِ المُدِلِّ على ربِّه بعملِه، بل مسألةَ الذَّليلِ العاني؛ يعني: الأسيرَ.

٤٥٩٥- وَسَلِ العِيَاذَ مِــنِ اثْنَتَــيْنِ هُمَــا اللَّتَــا   نِ بِهُلْــكِ هَــذَا الــخَلْقِ كَافِلَتَــانِ

يعني: اسأل اللهَ عزَّ وجلَّ اسأله العياذَ؛ يعني: أن يُعِيذَكَ من اثنتين «هُمَا بِهُلْكِ هَذَا الخَلْقِ كَافِلَتَانِ»، فَأَرْشَدَنَا -رحمه الله- إلى سؤالِ الهدايةِ من الله والتَّعوُّذِ به من هاتين الخصلتين وهما:

٤٥٩٦- شَرُّ النُّفُــوسِ وَسَيِّئُ الأَعْـمَالِ مَــا   وَاللهِ أَعْظَـــــمُ مِـــــنْهُمَا شَرَّانِ

يعني: استَعِذْ بالله من شَرِّ النُّفوس وسيِّئِ الأعمالِ؛ لأنَّهما هما الكفيلتان بهلاكِ النَّاسِ.

٤٥٩٧- وَلَقَدْ أَتَى هَذَا التَّعَوُّذُ مِنْهُمَا   فِي خُطْبَةِ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

وذلك في قولِه ﷺ في خطبةِ الحاجةِ: «نَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا»[1]؛ لأنَّ النَّفسَ الأمَّارةَ بالسُّوءِ تقودُك إلى كُلِّ هلاكٍ، والأعمالَ السَّيِّئةَ تمنعُك من كُلِّ خيرٍ، فإذا كانت الأعمالُ السَّيِّئةُ تمنعُك من الخيرِ والنَّفسُ تقودُك إلى الشَّرِّ هلك الإنسانُ.

٤٥٩٨- لَوْ كَانَ يَدْرِي العَبْدُ أَنَّ مُصَابَهُ   فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُوَ الشَّرَّانِ

قَوْلُهُ: «هُوَ الشَّرَّانِ»، وفي نسخةٍ أخرى: «هُمَا الشَّرَّانِ»، والوجهان جائزان من النَّاحيةِ النَّحويَّة، لكن ما هما؟ الجوابُ: شرُّ نفسِه وسيِّئاتُ أعمالِه.

يقولُ: لو كان يعلمُ ذلك لـ«جَعَلَ التَّعَوُّذَ مِنْهُمَا دَيْدَانَهُ»؛ ولذا قال:

٤٥٩٩- جَعَلَ التَّعَوُّذَ مِنْهُمَا دَيْدَانَهُ   حَتَّى تَرَاهُ دَاخِلَ الأَكْفَانِ

قَوْلُهُ: «جَعَلَ التَّعَوُّذَ...» هذا جوابُ «لَوْ».

قَوْلُهُ: «دَيْدَانَهُ»؛ يعني: الشَّيءَ الملازمَ له.

قَوْلُهُ: «حَتَّى تَرَاهُ دَاخِلَ الأَكْفَانِ»؛ أي: حتَّى يموتَ.

٤٦٠٠- وَسَلِ العِيَاذَ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالهَوَى   فَهُمَا لِكُلِّ الشَّرِّ جَامِعَتَانِ

نعوذُ بالله من التَّكبُّرِ والهوى، سل العياذَ من التَّكبُّرِ، والكِبْرُ كما حدَّه النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هو: «بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[2]؛ أي: ردُّ الحقِّ واحتقارُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٨).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١).

النَّاسِ، فإذا ابْتُلِيَ الإنسانُ بهذا مع الهوى فابنُ القيِّمِ يقولُ: «**هُمَا لِكُلِّ الشَّرِّ جَامِعَتَانِ**»، قل: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من الكِبرِ والهوى**».

٤٦٠١- وَهُمَا يَصُدَّانِ الفَتَى عَنْ كُلِّ طُرْ قِ الخَيْرِ إِذْ في قَلْبِهِ يَلِجَانِ

يعني: إذا وَلَجَ الكِبْرُ والهوى في قلبِ الإنسانِ صدَّاه عن كُلِّ طرقِ الخيرِ، نسألُ اللهَ العياذَ من التَّكبُّرِ والهوى.

٤٦٠٢- فَتَرَاهُ يَمْنَعُهُ هَوَاهُ تَارَةً وَالكِبْرُ أُخْرَى ثُمَّ يَشْتَرِكَانِ

يعني: أحيانًا يمنعُه الهوى، وأحيانًا يمنعُه الكِبْرُ، وأحيانًا يمنعُه الهوى والكِبْرُ جميعًا.

٤٦٠٣- وَاللهِ مَا في النَّارِ إلا تَابِعٌ هَذَيْنِ فَاسْأَلْ سَاكِنِي النِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «**وَاللهِ مَا فِي النَّارِ إِلَّا تَابِعٌ هَذِيْنِ**» وهما: الكِبْرُ والهوى، «**فَاسْأَلْ سَاكِنِي النِّيرَانِ**»، نسألُ اللهَ أن يعيذَنا وإيَّاكم من التَّكبُّرِ والهوى.

٤٦٠٤- وَاللهِ لَوْ جَرَّدْتَ نَفْسَكَ مِنْهُمَا لأَتَتْ إِلَيْكَ وُفُودُ كُلِّ تَهَانِ

وصَدَقَ رحمه اللهُ، وهو كما رأيتم يُكْثِرُ القَسَمَ في هذا الفصلِ؛ لأنَّ المقامَ يقتضيه؛ إذ إنَّ هؤلاء المعاندين متمرِّدون وسائرون في عنادِهم، فرُبَّما يغترُّ بهم مَنْ يغترُّ من النَّاسِ، فكان يُقْسِمُ -رحمه الله- لإثباتِ أنَّ هؤلاء على ضلالٍ، وأنَّ مآلَهم -والعياذُ بالله- نارُ جهنَّمَ، فكان قَسَمُه وإن لم يُسْأَلْ إِيَّاه في محلِّه؛ لأنَّ الشَّيءَ العظيمَ ينبغي أن يُقْسَمَ عليه وإن لم يُسْتَقْسَم الإنسانُ.

***

فصـــل

في ظُهُورِ الفَرْقِ المُبِينِ بَيْنَ دَعْوَةِ الرُّسُلِ وَدَعْوَةِ المُعطِّلِينَ

٤٦٠٥- وَالفَـرْقُ بَـيْنَ الـدَّعْوَتَيْنِ فَظَـاهِرٌ ... جِـدًّا لِـمَنْ كَانَـتْ لَـهُ أُذْنَـانِ

٤٦٠٦- فَـرْقٌ مُبِـينٌ ظَـاهِرٌ لا يَخْتَفِـي ... إِيضَـاحُهُ إِلَّا عَـلَى العُمْيَـانِ

٤٦٠٧- فَالرُّسْـلُ جَاؤُونَـا بِإِثْبَـاتِ العُلُـوِّ ... وَلِرَبِّنَـا مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

٤٦٠٨- وَكَذَا أَتَوْنَـا بِالصِّفَاتِ لِرَبِّنَـا الـرْ ... رَحْمَـنِ تَفْصِـيلًا بِكُـلِّ بَيَـانِ

٤٦٠٩- وَكَـذَاكَ قَـالُوا إِنَّـهُ مُـتَكَلِّمٌ ... وَكَلامُـهُ المَسْـمُوعُ بِـالآذَانِ

٤٦١٠- وَكَـذَاكَ قَـالُوا إِنَّـهُ سُـبْحَانَهُ الْـ ... ـمَرْئِيُّ يَـوْمَ لِقَائِـهِ بِعِيَـانِ

٤٦١١- وَكَـذَاكَ قَـالُوا إِنَّـهُ الفَعَّـالُ حَقْـ ... ـقًا كُـلَّ يَـوْمٍ رَبُّنَـا فِي شَـانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «الفَرْقِ المُبِينِ»؛ يعني: البَيِّن، أو المُبِين؛ يعني: المُظْهِر؛ وذلك لأنَّ «أَبَانَ» تجوزُ أن تكونَ لازمةً وتجوزُ أن تكونَ متعدِّيةً، يُقَالُ: «أَبَانَ الحقَّ»؛ يعني: أظهره، وهي في هذه الحالِ متعدِّيةٌ، ويُقَالُ: «أَبَانَ الصُّبحُ»؛ أي: ظَهَرَ، وهي في هذه الحالِ لازمةٌ، فالفرقُ بَيِّنٌ مُبِينٌ بين دعوةِ الرُّسلِ ودعوةِ المعطِّلين؛ ولهذا قال:

٤٦٠٥- وَالفَـرْقُ بَـيْنَ الـدَّعْوَتَيْنِ فَظَـاهِرٌ ... جِـدًّا لِـمَنْ كَانَـتْ لَـهُ أُذْنَـانِ

قَوْلُهُ: «جِدًّا»: مصدرٌ عاملُه محذوفٌ؛ أي: أُجِدُّ الأمرَ جِدًّا، والجِدُّ ضدُّ الهزلِ.

قَوْلُهُ: «لِـمَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ» قال: «لِـمْنَ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ»؛ لأَنَّه -رحمه الله- سَيُلْقِي الفرقَ، وكان المتوقَّع أن يقولَ: «لِـمْنَ كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ»، لكن لـمَّا كان سَيُلْقِي الفرقَ طلب منَّا أن نستمعَ فقال: «لِـمْنَ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ».

٤٦٠٦- فَـرْقٌ مُبِـينٌ ظَـاهِرٌ لا يَخْتَفِـي ... إِيضَـاحُهُ إِلَّا عَـلَى العُمْيَـانِ

ثُمَّ بَيَّنَ وجهَ الفرقِ فقال:

٤٦٠٧- فَالرُّسْـلُ جَاؤُونَـا بِإِثْبَـاتِ العُلُـوِّ ... وَلِرَبِّنَـا مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النَّحل:٥٠]، الرُّسلُ كُلُّهم مجمعون على أنَّ اللهَ تعالى فوق كُلِّ شيءٍ، والمعطِّلون يقولون: لا، وانقسَمُوا في ذلك في ضدِّ ما جاءت به الرُّسلُ انقسموا إلى قسمين:

قسم قال: إنَّه بذاتِه في كُلِّ مكانٍ؛ في المساجدِ، في البيوتِ، في الحشوشِ، في كُلِّ مكانٍ والعياذُ بالله.

قسم قال: إنَّه ليس له مكانٌ، لا فوقَ العالمِ ولا تحتَه، ولا يمينَه ولا شمالَه، ولا أمامَه ولا خلفَه، ولا داخلَ العالمِ ولا خارجَه، ولا متَّصلٌ ولا منفصلٌ، ولا مباينٌ ولا محايثٌ، وأَتَوْا من هذا بالعجبِ العُجَاب.

أمَّا الرُّسل فقالوا: إنَّه فوق كُلِّ شيء؛ ولهذا قال: «مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ».

٤٦٠٨- وَكَذَا أَتَوْنَـا بِالصِّفَاتِ لِرَبِّنَـا الـرْ ... رَحْمَـنِ تَفْصِـيلًا بِكُـلِّ بَيَـانِ

نعم أَتَوْا بالصِّفاتِ مُفَصَّلَةً، وأحيانًا مُجْمَلَةً، ففي قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النَّحل:٦٠] هذا مُجْمَلٌ، وفي قولِه تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ

ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ...﴾ [الحشر:٢٢]، مُفَصَّلٌ.

٤٦٠٩- وَكَــذَاكَ قَــالُوا إِنَّــهُ مُــتَكَلِّمٌ وَكَلامُــهُ المَسْــمُوعُ بِــالآذَانِ

كُلُّهم يقولُ: إنَّه متكلِّمٌ، وكلَّموا ربَّهم عزَّ وجلَّ، منهم مَنْ كَلَّمَ اللهَ، كلَّمه موسى، كلَّمه آدمُ، كلَّمه محمَّدٌ، عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٤٦١٠- وَكَــذَاكَ قَــالُوا إِنَّــهُ سُبْحَانَهُ الْـ ـــمَرْئِيُّ يَــوْمَ لِقَائِــهِ بِعِيَــانِ

يعني: أنَّه يُرَى بالعينِ، يوم نلقاه عزَّ وجلَّ، نسألُ اللهَ أن نلقاه وهو راضٍ عنَّا، فهو يُرَى بِعِيَانٍ، يراه النَّاسُ بأعينِهم، وقد بَيَّنَ أفصحُ الخلقِ وأنصحُ الخلقِ وأهدى الخلقِ بَيَّنَ أنَّه يُرَى كما يُرَى القمرُ، ويُرَى كما تُرَى الشَّمسُ صحوًا ليس دونها سحابٌ، والتَّشبيهُ للرُّؤية بالرُّؤية لا للمرئيِّ بالمرئيِّ، وهل أَبْيَنُ من قولِ الرَّسولِ ﷺ حينما نظر إلى القمرِ ليلةً؛ يعني: البدرَ فقال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هذا القَمَرَ لَا تُضَامُونِ في رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا**»(١).

٤٦١١- وَكَــذَاكَ قَــالُوا إِنَّــهُ الفَعَّــالُ حَقْـ ـــقًا كُــلَّ يَــوْمٍ رَبُّنَــا في شَــانِ

اللهُ أكبرُ، قال اللهُ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن:٢٩]، فهو يُغني ويُفْقِرُ، ويُحْيي ويُميتُ، ويُنشِئ ويُعْدِمُ، كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ، وما أكثرَ الأيَّام، مَنْ يُحصيها؟ الجوابُ: اللهُ عزَّ وجلَّ، وما أكثرَ الحوادث في الأيَّام، كُلُّ هذه الحوادثِ بأمرِ ربِّنا عزَّ وجلَّ، يُحْدِثُها كما يشاءُ حيث تقتضيها حكمتُه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٢٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

٤٦١٢- وَأَتَيْتُمُونَا أَنْتُمُ بِالنَّفْيِ وَالتْـ ـتَعْطِيلِ بَلْ بِشَهَادَةِ الكُفْرَانِ

٤٦١٣- لِلْمُثْبِتِينَ صِفَاتِهِ وَعُلُوَّهُ وَنِدَاءَهُ فِي عُرْفِ كُلِّ لِسَانِ

٤٦١٤- شَهِدُوا بِإِيمَانِ المُقِرِّ بِأَنَّهُ فَوْقَ السَّمَاءِ مُبَايِنَ الأَكْوَانِ

٤٦١٥- وَشَهِدْتُمُ أَنْتُمْ بِتَكْفِيرِ الَّذِي قَدْ قَالَ ذَلِكَ يَا أُولِي العُدْوَانِ

٤٦١٦- وَأَتَى بِـ«أَيْنَ اللهُ» إِقْرَارًا وَنُطْـ ـقًا قُلْتُمُ هَذَا مِنَ البُهْتَانِ

٤٦١٧- فَسُؤَالُنَا بِـ«الأَيْنَ» مِثْلُ سُؤَالِنَا مَا الْكَوْنُ عِنْدَكُمُ هُمَا شَيْئَانِ

٤٦١٨- وَكَذَا أَتَوْنَا بِالبَيَانِ فَقُلْتُمُ بِاللُّغْزِ أَيْنَ اللُّغْزُ مِنْ تِبْيَانِ

٤٦١٩- إِذْ كَانَ مَدْلُولُ الكَلامِ وَوَضْعُهُ لَمْ يَقْصِدُوهُ بِنُطْقِهِمْ بِلِسَانِ

٤٦٢٠- وَالقَصْدُ مِنْهُ غَيْرُ مَفْهُومٍ بِهِ مَا اللُّغْزُ عِنْدَ النَّاسِ إِلا ذَانِ

٤٦٢١- يَا قَوْمُ رُسْلُ اللهِ أَعْرَفُ مِنْكُمُ وَأَتَمُّ نُصْحًا فِي كَمَالِ بَيَانِ

الشرحُ

٤٦١٢- وَأَتَيْتُمُونَا أَنْتُمُ بِالنَّفْيِ وَالتْـ ـتَعْطِيلِ بَلْ بِشَهَادَةِ الكُفْرَانِ

٤٦١٣- لِلْمُثْبِتِينَ صِفَاتِهِ وَعُلُوَّهُ وَنِدَاءَهُ فِي عُرْفِ كُلِّ لِسَانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ بِشَهَادَةِ الكُفْرَانِ لِلْمُثْبِتِينَ صِفَاتِهِ» «لِلْمُثْبِتِينَ» متعلِّقةٌ بقولِه: «شَهَادَةِ».

أتت الرُّسلُ بإثباتِ الصِّفاتِ والعلوِّ والكلامِ للرَّبِّ عزَّ وجلَّ، وأمَّا أنتم فأتيتمونا بالنَّفي؛ ولذا قال: «وَأَتَيْتُمُونَا أَنْتُمُ بِالنَّفْيِ» فقلتم: لا يتكلَّمُ، وليس

فوقَ العرشِ، وليس له صفةٌ، ففرقٌ بين هذا وهذا، فهم -والعياذُ بالله- جَنَوْا في حقِّ الله، وحقِّ كلامِه، وحقِّ رسولِه، وحقِّ أتباعِه، ليتهم عطَّلوا وسكتوا.

فهم لم يقتصروا على النَّفيِ والتَّعطيلِ، بل اعْتَدَوْا على المثبتين بأنَّهم كُفَّارٌ، فصار منهم عدوانٌ عظيمٌ ويلزمُ من قولِهم أنَّ الرُّسلَ كُفَّارٌ؛ لأنَّهم مُثبِتون، وهم يقولون: مَنْ أَثْبَتَ فقد جَسَّمَ، ومَنْ جَسَّمَ فقد كَفَرَ، هذا اللَّازمُ قد يُنكِرونه مكابرةً، ويقولون: نحن لا نكفِّرُ الرُّسلَ، معاذ الله، نقولُ: إذا كنتم تقولون: «مَنْ قال: **إنَّ لله وجهًا فهو كافرٌ**» فما معنى هذا؟! هل هذا إلَّا تكفيرُ الرُّسلِ؟!

٤٦١٤- شَـهِدُوا بِـإِيمَانِ الـمُقِرِّ بِأَنَّـهُ فَـوْقَ السَّمَاءِ مُبَـايِنَ الأَكْـوَانِ

يعني: أنَّ الرُّسلَ شهدوا بإيمانِ المُقرِّ بأنَّه فوقَ السَّماءِ مباينَ الأكوانِ.

٤٦١٥- وَشَـهِدْتُمُ أَنْـتُمْ بِتَكْفِـيرِ الَّـذِي قَـدْ قَـالَ ذَلِـكَ يَـا أُولِي العُـدْوَانِ

وهذا فرقٌ، فالرُّسلُ يشهدون بأنَّ مَنْ أَقَرَّ بعلوِّ الله فهو مؤمنٌ، وأنتم تشهدون بأنَّ مَنْ أَقَرَّ بعلوِّ الله فهو كافرٌ، إذَنْ ناقضتم الرُّسلَ تمامًا.

٤٦١٦- وَأَتَـى بِـ«أَيْـنَ اللهُ» إِقْـرَارًا وَنُطْـ ـقًا قُلْـتُمُ هَـذَا مِـنَ البُهْتَـانِ

من الذي قال: «**أين اللهُ**»؟ الجوابُ: الرَّسولُ ﷺ قال للجارية التي أعتقَها معاويةُ بن الحكمِ قال لها: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[1]، فشهد لها بالإيمان حين أَقَرَّت بأنَّ ربَّها هو الذي في السَّماءِ، ويُذْكَرُ أنَّه قال لحصين أبي عمران بن حُصَيْن: «**كَمْ إِلَـهًا تَعْبُدُ؟**» قَالَ: سَبْعَةً: سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**مَنْ تُعِدُّ لِرَغْبَتِكَ**

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

وَرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ[1]، فأقرَّه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٤٦١٧- فَسُؤَالُنَا بِـ«الأَيْـنَ» مِثْـلُ سُـؤَالِنَا مَـا الْكَـوْنُ عِنْـدَكُمُ هُمَـا شَـيْئَانِ

يعني: أنَّ السُّؤالَ بـ«الأين» إنَّما يكونُ عن الكونِ؛ يعني: أين هو كائنٌ؟ أين هو موجودٌ؟ فهو سؤالٌ عن المكانِ، فإذا قيل: أين فلانٌ؟ فما الجوابُ؟ الجوابُ: في بيتِهِ، في المسجدِ، في السُّوقِ، لكن لو قيل: «أين فلانٌ؟» قال: غدًا، فهذا لا يصحُّ، وكذلك لو أَجَبْتَ السَّائلَ الذي سألك «أين فلانٌ؟» فقلت: فلانٌ لحمٌ وعصبٌ وعظامٌ، لقال عنك إنَّك مجنونٌ، أسألُك أين هو؟ تُجيبني عن حقيقتِه وماهيَّتِهِ، فـ«الأين» إنَّما يُسْأَلُ بها عن المكانِ بلا شكٍّ، والنَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أفصحُ الخلقِ وأعلمُهم بمدلولاتِ اللُّغةِ العربيَّةِ لـمَّا قال: أين؟ لم يسأل: ما الله؟ ولم يسأل: ما سُلطانُه أين هو؟ بل يسألُ عن الله نفسِه أين هو؟ والجاريةُ أَجَابَت: «في السَّماءِ»، وهذا واضحٌ جدًّا.

٤٦١٨- وَكَـذَا أَتَوْنَـا بِالبَيَـانِ فَقُلْـتُمُ بِـاللُّغْزِ أَيْـنَ اللُّغْـزُ مِـنْ تِبْيَـانِ

قَوْلُهُ: «اللُّغزُ»؛ أي: التَّعميةُ والإخفاءُ.

والرُّسل أَتوا بالتِّبيانِ البيِّنِ الواضحِ، أمَّا اللُّغز فلم يأتوا به؛ ولهذا فلو قال لكم قائلٌ: رجلٌ صلَّى صلاةَ فريضةٍ وَوَجَبَ عليه أن يتشهَّدَ فيها ستَّ مرَّاتٍ ما هذه الصَّلاةُ؟ صلاةٌ واحدةٌ فيها ستَّةُ تشهُّداتٍ! هذا لغزٌ؛ لأنَّه يُعَمِّي علينا.

والجوابُ على هذا اللُّغزِ أنَّ هذا المصلِّي دَخَلَ مع الإمام في الرَّكعة الثَّانيةِ من المغربِ، فجلس للتَّشهُّد الأوَّل للإمامِ ولا يُحْسَبُ له هو، وتَشَهَّدَ مع الإمامِ

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، رقم (٣٤٨٣)، وقال: هذا حديث غريب وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه.

التَّشهُّدَ الثَّاني، وكان الإمامُ ساهيًا سهوًا يكونُ سجودُه بعد السَّلامِ، والمشهورُ من المذهبِ أنَّ المأمومَ يتابعُ الإمامَ في السُّجودِ بعد السَّلام وأنَّ السُّجودَ بعد السَّلامِ يجبُ فيه التَّشهُّدُ، فهذا تَابَعَ الإمامَ وتشهَّد، فهذه ثلاثةٌ، ثُمَّ قَامَ إلى الرَّكعةِ الثَّانيةِ فجلس للتَّشهُّدِ الأوَّل في حقِّه، ولكنَّه سَلَّمَ قبل تمامِ الصَّلاةِ، ثُمَّ ذكر فقام فأتى بالرَّكعةِ الثَّالثةِ وتشهَّد، وكان محلُّ السُّجودِ عنده بعد السَّلامِ؛ لأنَّه سَلَّمَ قبل إتمامِها، فسجد بعد السَّلام وتشهَّد، فهذه ستَّةُ تشهُّداتٍ.

المهمُّ أنَّ اللُّغزَ معناه التَّعميةُ بأن يأتيَ الإنسانُ بشيءٍ يُعَمِّي على غيرِه؛ ولهذا يقولون: إنَّه لا يجوزُ أن تُؤْكَلَ الأُتْرُجَّةُ بعد العصرِ، وهذا لغزٌ أيضًا.

٤٦١٩- إِذْ كَانَ مَدْلُولُ الكَلامِ وَوَضْعُهُ ... لَمْ يَقْصِدُوهُ بِنُطْقِهِمْ بِلِسَانِ

يعني: أنَّ العِلَّةَ في أنَّ الرُّسلَ أَتَوْا باللُّغزِ أنَّ مدلولَ الكلامِ لم يُقْصَدْ وَوَضْعَ الكلامِ -؛ أي: الألفاظ- لم تُقْصَد أيضًا فإذا قيل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢]، فقيل: المرادُ «جاء أمرُ ربِّك» صار اللَّفظُ لم يُقْصَدْ؛ لأنَّ اللَّفظَ الذي أمامنا «جاء رَبُّك»، هم يقولون: هذا غيرُ مقصودٍ، إذَنْ ما المقصودُ؟ قالوا: «جاء أمرُ ربِّك»، فالمعنى الذي يظهرُ من قولِه: «جاء رَبُّك» غيرُ مقصودٍ عندهم.

إذَنْ فاللَّفظُ بحسب وضعِه غيرُ مقصودٍ، ومدلولُ اللَّفظِ عندهم غيرُ مقصودٍ أيضًا، مقصودُ اللَّفظ في قولِه: «جاء رَبُّك» أنَّ الجائيَّ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ، وهذا أيضًا مدلولُ الخطابِ وَضْعًا؛ أي: لغةً، وهم نَفَوْا هذا وهذا.

٤٦٢٠- وَالقَصْدُ مِنْهُ غَيْرُ مَفْهُومٍ بِهِ ... مَا اللُّغْزُ عِنْدَ النَّاسِ إِلا ذَانِ

قَوْلُهُ: «وَالقَصْدُ مِنْهُ غَيْرُ مَفْهُومٍ بِهِ» ماذا قصدوا بقولِه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ على

زعمِ هؤلاء المؤوِّلةِ؟ قصدوا به: «جاء أمرُ ربِّك»، نقولُ: بل الذي يُفْهَمُ من ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] أنَّه هو الذي جاء بنفسِه.

قَوْلُهُ: «مَا اللُّغْزُ عِنْدَ النَّاسِ إِلَّا ذَانِ» «إِلَّا ذَانِ» المُشَارُ إليه مخالفةُ الوضعِ باللِّسان العربيِّ، وقصد غير المفهومِ منه، هذا هو اللُّغز.

٤٦٢١- يَا قَوْمُ رُسْلُ اللهِ أَعْرَفُ مِنْكُمُ   وَأَتَمُّ نُصْحًا فِي كَمَالِ بَيَانِ

ذكر ثلاثةَ أشياء من مقوِّماتِ اللَّفظ: «أَعْرَفُ مِنْكُمْ» و«أَعْرَفُ» بمعنى «أَعْلَم» وأعرف بمدلول الخطابِ، الثَّانية والثَّالثة: «وَأَتَمُّ نُصْحًا فِي كَمَالِ بَيَانِ» «بَيَانِ»؛ يعني: فصاحةً، فهذه ثلاثةُ أشياء من مقوِّمات الكلام: العِلْمُ، والنُّصحُ، والبيان، وكُلُّها اجتمعت في كلامِ الرُّسلِ، وهناك أمرٌ رابعٌ أيضًا وهو الصِّدقُ، فهم أصدقُ النَّاسِ خبرًا، فإذا اجتمعت هذه المقوِّماتُ صار الكلامُ على أتمِّ وجهٍ.

***

٤٦٢٢- أَتُرَوْنَهُمْ قَدْ أَلْغَزُوا التَّوْحِيدَ إِذْ   بَيَّنْتُمُوهُ يَا أُولِي العِرْفَانِ

٤٦٢٣- أَتُرَوْنَهُمْ قَدْ أَظْهَرُوا التَّشْبِيهَ وَهْـ   ـوَ لَدَيْكُمُ كَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ

٤٦٢٤- وَلِأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يَقُولُوا مِثْلَ مَا   قَدْ قُلْتُمُ فِي رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

٤٦٢٥- وَلِأَيِّ شَيْءٍ صَرَّحُوا بِخِلافِهِ   تَصْرِيحَ تَفْصِيلٍ بِلا كِتْمَانِ

٤٦٢٦- وَلِأَيِّ شَيْءٍ بَالَغُوا فِي الوَصْفِ بِالْـ   إِثْبَاتِ دُونَ النَّفْيِ كُلَّ زَمَانِ

٤٦٢٧- وَلِأَيِّ شَيْءٍ أَنْتُمُ بَالعَكْسِ   فِي النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ بِالقُفْزَانِ

٤٦٢٨- فَجَعَلْتُمُ نَفْيَ الصِّفَاتِ مُفَصَّلًا   تَفْصِيلَ نَفْيِ العَيْبِ وَالنُّقْصَانِ

٤٦٢٩- وَجَعَلْـتُمُ الإِثْبَـاتَ أَمْـرًا مُجْمَـلًا عَكْـسَ الَّـذِي قَـالُوهُ بِالبُرْهَـانِ

٤٦٣٠- أَتُرَاهُمُ عَجَزُوا عَنِ التِّبْيَـانِ وَاسْـ ـتَـوْلَيْتُمُ أَنْـتُمْ عَـلَى التِّبْيَـانِ

٤٦٣١- أَتَـرَوْنَ أَفْـرَاخَ اليَهُـودِ وَأُمَّـةَ التْـ ـتَعْطِيـــلِ وَالعُبَّـــادَ لِلنِّـــيرَانِ

٤٦٣٢- وَوَقَاحَ أَرْبَابِ الكَلامِ البَاطِـلِ الْـ ـمَذْمُومِ عِنْـدَ أَئِمَّـةِ الإِيـمَانِ

٤٦٣٣- مِـنْ كُـلِّ جَهْمِـيٍّ وَمُعْتَـزِلٍ وَمَـنْ وَالاهُمَـا مِـنْ حِـزْبِ جَنْكِزْخَـانِ

٤٦٣٤- بِاللهِ أَعْلَمُ مِنْ جَمِيعِ الرُّسْـلِ وَالتْـ ـتَوْرَاةِ وَالإِنْجِيـلِ وَالقُـرْآنِ

٤٦٣٥- فَسَـلُوهُمُ بِسُـؤَالِ كُتْـبِهِمُ الَّتِـي جَاؤُوا بِهَا عَـنْ عِلْـمِ هَـذَا الشَّـانِ

٤٦٣٦- وَسَـلُوهُمُ هَـلْ رَبُّكُـمْ فِي أَرْضِـهِ أَوْ فِي السَّـمَاءِ وَفَـوْقَ كُـلِّ مَكَـانِ

٤٦٣٧- أَمْ لَـيْسَ مِـنْ ذَا كُلِّـهِ شَيْءٌ فَـلا هُـوَ دَاخِـلٌ أَوْ خَـارِجُ الأَكْـوَانِ

٤٦٣٨- فَالعِلْمُ وَالتِّبْيَـانُ وَالنُّصْـحُ الَّـذِي فِـيهِمْ يُبِـينُ الـحَقَّ كُـلَّ بَيَـانِ

٤٦٣٩- لَكِنَّـمَا الإِلْغَـازُ وَالتَّلْبِـيسُ وَالْـ ـكِتْمَانُ فِعْـلُ مُعَلِّـمِ الشَّـيْطَانِ

الشرحُ

٤٦٢٢- أَتُـرَوْنَهُمْ قَـدْ أَلْغَـزُوا التَّوْحِيـدَ إِذْ بَيَّنْتُمُـوهُ يَـا أُولِي العِرْفَـانِ

وهذا سخريةٌ عظيمةٌ بهؤلاء؛ يعني: أَتظنُّون أنَّ الرُّسلَ وأتباعَهم قد ألغزوا في التَّوحيدِ، وأنتم بيَّنتموه يا أولي العرفان؛ يعني: يا أصحابَ المعرفةِ؟! وهذا تهكُّمٌ بهم واستهزاءٌ.

٤٦٢٣- أَتُرَوْنَهُمْ قَدْ أَظْهَرُوا التَّشْبِيهَ وَهْـ ـوَ لَدَيْكُمُ كَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ

أظهروا التَّشبيهَ بماذا؟

الجوابُ: بإثباتِ الصِّفاتِ؛ لأنَّ هؤلاء المعطِّلةَ يقولون: كُلُّ مَنْ أَثْبَتَ صفةً لله فهو مُشَبِّهٌ وهو عابدُ وثنٍ؛ لأنَّه يلزمُ من إثباتِه أن يكونَ اللهُ جِسمًا كالأوثانِ؛ ولهذا قال المؤلِّفُ: «وَهْوَ لَدَيْكُمُ كَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ»؛ يعني: والإثباتُ لديكم كعبادةِ الأوثانِ؛ لأنَّكم تقولون: مَنْ أَثْبَتَ صفةً فهو مُجَسِّمٌ؛ أي: جاعلٌ لله جسمًا كالوثنِ الذي يُعْبَدُ.

٤٦٢٤- وَلِأَيِّ شَيْءٍ لَمْ يَقُولُوا مِثْلَ مَا قَدْ قُلْتُمُ فِي رَبِّنَا الرَّحْمَنِ

يعني: ما الذي منعهم أن يقولوا كما تقولون مع أنَّهم مُلْزَمُون بالبلاغِ، ولو كان الحقُّ كما قلتم لكانوا هم الذين يبيِّنونه لا أنتم.

٤٦٢٥- وَلِأَيِّ شَيْءٍ صَرَّحُوا بِخِلافِهِ تَصْرِيحَ تَفْصِيلٍ بِلا كِتْمَانِ

يعني: ما الذي حملهم على أن يُصَرِّحُوا بخلافِ ما تزعمون أنَّه الحقُّ؟

٤٦٢٦- وَلِأَيِّ شَيْءٍ بَالَغُوا فِي الوَصْفِ بالْـ إِثْبَاتِ دُونَ النَّفْيِ كُلَّ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «بَالَغُوا فِي الوَصْفِ بِالإِثْبَاتِ»؛ يعني: أَتَوْا في إثباتِ الصِّفاتِ لله عزَّ وجلَّ على وجهِ الأكثريَّةِ؛ ولهذا لو تَأَمَّلْتَ النُّصوصَ وجدتَ أكثرَ ما فيها في الإثباتِ التَّفصيلَ وفي النَّفيِ الإجمالَ عكس طريقةِ هؤلاء.

٤٦٢٧- وَلِأَيِّ شَيْءٍ أَنْتُمُ بَالَغْتُمُ فِي النَّفْيِ وَالتَّعْطِيلِ بِالقُفْزَانِ

هذا عكسُ ما جاءت به الرُّسلُ، الرُّسلُ أَتَوْا بإثباتِ المُفَصَّلِ غالبًا، ونفي

المُجْمَلِ، وهؤلاء بالعكسِ؛ ولهذا لا تكادُ تجد نفيًا مُفَصَّلًا في صفاتِ الله إلَّا لسببٍ، إمَّا أن تكونَ صفةَ عيبٍ ادَّعاها المفترِي مثل: دعوى اليهودِ والنَّصارى والمشركين بأنَّ له ولدًا فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:٣]، أو نفيَ صفةٍ يتوهَّمُها واهمٌ من فعلِ شيءٍ كبيرٍ عظيمٍ مثل: خلقِ السَّماواتِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]؛ لأنَّه رُبَّما يقولُ قائلٌ: خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما في ستَّةِ أيَّامٍ تُلْحِقُ الفاعلَ تعبًا، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، وفي الوقتِ نفسِه قولُه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ رَدٌّ لما قاله المفترون وهم اليهودُ -لعنةُ الله عليهم- حيث قالوا: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لـمَّا خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّة أيَّامٍ وكان آخرها يوم الجمعة تَعِبَ فاستراح يوم السَّبت، ولم يكن خلقٌ في يومِ السَّبتِ، هذا على زعمِ اليهودِ.

قَوْلُهُ: «**القُفْزَانِ**» الظَّاهر أنَّها جمعُ «**قَفِيز**»، والقَفِيزُ أكبرُ من الصَّاعِ بكثيرٍ، يعني: أنتم كأنَّكم كِلتم بالمكيال الأوفى بالنِّسبةِ للنَّفي.

٤٦٢٨- فَجَعَلْتُمْ نَفْيَ الصِّفَاتِ مُفَصَّلًا تَفْصِيلَ نَفْيِ العَيْبِ وَالنُّقْصَانِ

٤٦٢٩- وَجَعَلْتُمُ الإِثْبَاتَ أَمْرًا مُجْمَلًا عَكْسَ الَّذِي قَالُوهُ بِالبُرْهَانِ

يعني: أنَّ أهلَ التَّعطيلِ سلكوا طريقًا مخالفًا لطريقِ القرآنِ والسُّنَّةِ ففصَّلوا في النَّفي وأجملوا في الإثباتِ، ولهذا تجدُ في كتبِهم أنَّ اللهَ ليس بجوهرٍ، ولا عَرَضٍ، ولا كذا، ولا كذا، ولا فوقُ ولا تحتُ، ولا يمينُ ولا شمالُ، ولا أصمَّ، ولا أعمى، ولا أخرسَ، وما أشبه ذلك، لا تكادُ تجدُ فيهم صفةً ثبوتيَّةً، وأمَّا طريقُ الكتابِ والسُّنَّةِ فهو التَّفصيلُ في الإثباتِ والإجمالُ في النَّفيِ.

٤٦٣٠- أَتُرَاهُمُ عَجَزُوا عَنِ التِّبْيَانِ وَاسْـ ـتَوْلَيْتُمُ أَنْتُمْ عَلَى التِّبْيَانِ

هذا الاستفهامُ للنَّفي والإنكارِ؛ يعني: لا تظنُّهم أنَّهم عجزوا عن التِّبيانِ وأنَّكم أنتم استوليتم عليه.

٤٦٣١- أَتُرَوْنَ أَفْرَاخَ اليَهُودِ وَأُمَّةَ التْـ ـتَعْطِيلِ وَالعُبَّادَ لِلنِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «**أَتُرَوْنَ أَفْرَاخَ اليَهُودِ**» الفرخُ صغارُ الطَّيرِ، ومعلومٌ لنا جميعًا أنَّ الفرخَ مَهينٌ ضعيفٌ لا يقوى أن يُخَلِّصَ نفسَه، فيقول: «**أَفْرَاخَ اليَهُودِ**»؛ يعني بذلك: أهلَ التَّعطيلِ؛ لأنَّ الجعدَ بنَ درهمٍ يُقَالُ: إنَّه أخذ مقالتَه عن لبيد بن الأعصم الذي ثَبَتَ في صحيحِ البخاريِّ أنَّه سَحَرَ النَّبيَّ ﷺ[1]، ومن هنا أُخِذَت مقالةُ أهلِ التَّعطيلِ من اليهودِ، ولا شكَّ أنَّ اليهودَ معروفون بسبِّ الله عزَّ وجلَّ، فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨١]، وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، فوصفوه بالفقرِ والإعدامِ وبالبخلِ، وقالوا: إنَّه عجز واستراح يوم السَّبتِ، فوصفوه بالعجزِ، فأهلُ التَّعطيلِ كانوا أفراخًا لليهودِ؛ لأنَّ الجعدَ بنَ درهمٍ -على ما يُقَالُ- أخذ مقالتَه من لبيدِ بن الأعصمِ.

قَوْلُهُ: «**وَالعُبَّادِ لِلنِّيرَانِ**»؛ أي: المجوس.

والظَّاهرُ أنَّ أفراخَ اليهودِ وأمَّةَ التَّعطيلِ «**والعُبَّادِ**»؛ يعني: وأفراخَ العُبَّادِ للنِّيرانِ؛ يعني: المجوس، كيف كان أخذُ هذه المقالةِ من المجوسِ؟ يُقَالُ: إنَّ الجعدَ ابنَ درهمٍ كان في حرَّان، وكان فيها كثيرٌ من الصَّابئةِ والمجوسِ فأخذ منهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر، رقم (٥٤٣٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب السحر، رقم (٢١٨٩).

٤٦٣٢- وَوَقَاحَ أَرْبَابِ الكَلامِ البَاطِلِ الْـ ـمَذْمُومِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الإِيمَانِ

يعني: وكذلك الوقاحُ من أربابِ الكلامِ الباطلِ؛ أي: أصحاب الكلامِ المذمومِ عند أئمَّةِ الإيمانِ.

فَعِلْمُ الكلامِ عند الأئمَّةِ مذمومٌ حتَّى إنَّ بعضَهم قال: «**مَنْ تعلَّم الكلامَ فقد تزندق**»[1]، وقال الشَّافعيُّ رحمه الله: «**حُكْمِي في أهلِ الكلامِ أن يُضْرَبُوا بالجريدِ والنِّعالِ، ويطافَ بهم في العشائرِ، ويُقَالَ: هذا جزاءُ مَنْ تَرَكَ الكتابَ والسُّنَّة، وأَقْبَلَ على علمِ الكلامِ**»[2].

ثُمَّ بَيَّن هؤلاء فقال:

٤٦٣٣- مِنْ كُلِّ جَهْمِيٍّ وَمُعْتَزِلٍ وَمَنْ وَالاهُمَا مِنْ حِزْبِ جَنْكِزْخَانِ

قَوْلُهُ: «**مِنْ كُلِّ جَهْمِيٍّ**» نسبة إلى الجهمِ بن صفوان.

قَوْلُهُ: «**مُعْتَزِلٍ**» نسبة إلى عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء، فإنَّ واصلَ ابنَ عطاء اعتزل مجلسَ الحسن البصريِّ وجعل يقرِّرُ مذهبَ المعتزلة، ويقولُ: إنَّ فاعلَ الكبيرةِ في منزلةٍ بين منزلتين لا مؤمنٌ ولا كافرٌ.

قَوْلُهُ: «**وَمَنْ وَالَاهُمَا مِنْ حِزْبِ جنكِزْخَانِ**»؛ يعني: التَّتارَ وغيرَهم ممَّن عطَّلوا اللهَ عزَّ وجلَّ عن صفاتِه.

٤٦٣٤- بِالله أَعْلَمُ مِنْ جَمِيعِ الرُّسْلِ وَالتَّـ ـوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**بِاللهِ أَعْلَمَ**» هذا متعلِّقٌ بقوله: «**أَتَرَوْنَ**»؛ يعني: «**أَتَرَوْنَ هؤلاءِ باللهِ**

(١) أخرجه أبو إسماعيل الهروي، في ذم الكلام وأهله (٥/ ٧١، رقم ٨٥٩).
(٢) انظر: شرح الطحاوية (١/ ١٧).

أَعْلَمَ مِنْ جَمِيعِ الرُّسلِ... إلخ»، وهذا الاستفهامُ للإنكارِ؛ يعني: لا تظنُّوهم أعلمَ من هؤلاء.

٤٦٣٥- فَسَــلُوهُمُ بِسُــؤَالِ كُتْــبِهِمُ الَّتِــي ... جَاؤُوا بِهَا عَـنْ عِلْـمِ هَـذَا الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «**سَلُوهُمُ**» كيف نسألُهم وقد ماتوا؟ يقولُ: «**بِسُؤَالِ كُتْبِهِمُ**»؛ لأنَّ الكتابَ يُعَبِّرُ عمَّا في نفسِ الكاتبِ.

والمرادُ بالرُّسلِ باعتبارِ الجنسِ؛ أي: من جميعِ الرُّسلِ الذين من جملتِهم موسى الذي أُنْزِلَتْ عليه التَّوراةُ، وعيسى الذي أُنْزِلَ عليه الإنجيلُ، ومحمَّدٌ الذي أُنْزِلَ عليه القرآنُ.

٤٦٣٦- وَسَــلُوهُمُ هَــلْ رَبُّكُــمْ فِي أَرْضِــهِ ... أَوْ فِي السَّـمَاءِ وَفَـوْقَ كُـلِّ مَكَـانِ

٤٦٣٧- أَمْ لَــيْسَ مِــنْ ذَا كُلِّــهِ شَيْءٌ فَــلا ... هُــوَ دَاخِــلٌ أَوْ خَــارِجُ الأَكْــوَانِ

هم ينقسمون في هذا إلى قسمين: منهم مَنْ يجيبُ بالأوَّلِ، ومنهم مَنْ يجيبُ بالثَّاني:

الجوابُ الأوَّل: أنَّ اللهَ في أرضِه كما هو في السَّماءِ، وهؤلاء هم الحلوليَّةُ الذين قالوا: إنَّ اللهَ في كُلِّ مكانٍ.

الجوابُ الثَّاني: قولـهُم: «**أَمْ لَيْسَ مِنْ ذَا كُلِّهِ شيءٌ، فَلَا هُوَ دَاخِلٌ أَوْ خَارِجُ الأَكْوَانِ**» هؤلاء المعطِّلةُ النُّفاةُ الذين قالوا: إنَّ اللهَ لا داخلَ العالمِ ولا خارجَه، ولا متَّصلٌ ولا منفصلٌ، ولا فوقُ ولا تحتُ، ولا يمينُ ولا شمالُ، ولا مباينٌ ولا محايثٌ.

ونحن نقولُ: إنَّ اللهَ لا يخلو إمَّا أن يكونَ في الأرضِ كما هو في السَّماءِ؛ أي: فيهما جميعًا، أو في السَّماءِ وحدَها، أو في الأرضِ وحدَها، أو ليس في الأرضِ

ولا في السَّماءِ؛ يعني: ليس في واحدةٍ منهما، فالأقسامُ أربعةٌ: في الأرضِ وحدَها وهذا ما عَلِمْنَا أحدًا قال به، وفي السَّماءِ وحدَها قال بذلك أهلُ السُّنَّةِ، وفي السَّماءِ والأرضِ قال بذلك الحلوليَّةُ، لا في السَّماءِ ولا في الأرضِ قاله المعطِّلةُ النُّفاةُ.

وقولُ الاتِّحاديَّة أقبحُ؛ لأنَّهم يقولون: الرَّبُّ والخلقُ شيءٌ واحدٌ.

٤٦٣٨- فَالعِلْمُ وَالتِّبْيَانُ وَالنُّصْحُ الَّذِي فِيهِمْ يُبِينُ الحَقَّ كُلَّ بَيَانِ

٤٦٣٩- لَكِنَّمَا الإِلْغَازُ وَالتَّلْبِيسُ وَالْـ ـكِتْمَانُ فِعْلُ مُعَلِّمِ الشَّيْطَانِ

العلمُ والتِّبيانُ والنُّصحُ هذا كُلُّه للرُّسلِ وأتباعِهم، ولا شكَّ أنَّهم بيَّنوا للنَّاسِ غايةَ البيانِ، أمَّا هؤلاء فعندهم الإلغازُ والتَّلبيسُ والكتمانُ؛ لأنَّهم يتلقَّون علومَهم من الشَّياطين، فيأتون بها كالألغازِ لا تُفْهَمُ، فأهلُ التَّعطيلِ والنُّكرانِ لا شكَّ أنَّهم هم الذين نصبوا أنفسَهم أولياءَ للشَّيطانِ.

***

فصل

في شَكْوَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَالقُرْآنِ أَهْلَ التَّعْطِيلِ وَالآرَاءِ المُخَالِفَةِ لَهُمَا إِلَى الرَّحْمَنِ

٤٦٤٠- يَا رَبِّ هُمْ يَشْكُونَنَا أَبَدًا بِبَغْـ ـيِهِمُ وَظُلْمِهِمُ إِلَى السُّلْطَانِ

٤٦٤١- وَيُلَبِّسُونَ عَلَيْهِ حَتَّى إِنَّهُ لَيُظُنُّهُمْ هُمْ نَاصِرِي الإِيمَانِ

٤٦٤٢- فَيَرَوْنَهُ البِدَعَ المُضِلَّةَ في قَوَا لِبِ سُنَّةٍ نَبَوِيَّةٍ وَقُرَانِ

٤٦٤٣- وَيَرَوْنَهُ الإِثْبَاتَ لِلأَوْصَافِ في أَمْرٍ شَنِيعٍ ظَاهِرِ النُّكْرَانِ

٤٦٤٤- فَيُلَبِّسُونَ عَلَيْهِ تَلْبِيسَيْنِ لَوْ كُشِفَا لَهُ بَادَاهُمُ بِطِعَانِ

٤٦٤٥- يَا فِرْقَةَ التَّلْبِيسِ لا حُيِّيتُمُ أَبَدًا وَحُيِّيتُمْ بِكُلِّ هَوَانِ

٤٦٤٦- لَكِنَّنَا نَشْكُوهُمُ وَصَنِيعِهِمْ أَبَدًا إِلَيْكَ فَأَنْتَ ذُو السُّلْطَانِ

٤٦٤٧- فَاسْمَعْ شِكَايَتَنَا وَأَشْكِ مُحِقَّنَا وَالمُبْطِلَ ارْدُدْهُ عَنِ البُطْلانِ

٤٦٤٨- رَاجِعْ بِهِ سُبُلَ الهُدَى وَالْطُفْ بِهِ حَتَّى تُرِيهِ الحَقَّ ذَا تِبْيَانِ

٤٦٤٩- وَارْحَمْهُ وَارْحَمْ سَعْيَهُ المِسْكِينَ قَدْ ضَلَّ الطَّرِيقَ وَتَاهَ في القِيعَانِ

الشرحُ

بَيَّنَ المؤلِّفُ- رحمه اللهُ- في هذا الفصلِ أنَّ الشِّكايةَ تقعُ من أهلِ السُّنَّةِ ومن أهلِ التَّعطيلِ، لكن مَن المُشْتكَى إليه؟ هنا يختلفُ، يقولُ:

٤٦٤٠- يَـا رَبِّ هُـمْ يَشْـكُونَنَا أَبَـدًا بِبَغْـ ـيِهِمُ وَظُلْمِهِـمُ إِلَى السُّـلْطَانِ

يعني: إذا رَأَوْا منَّا أحدًا شَكَوْه إلى السُّلطانِ، فحبسه وضربه كما جَرَى ذلك للأئمَّةِ وأتباعِهم.

٤٦٤١- وَيُلَبِّسُـونَ عَلَيْـهِ حَتَّـى إِنَّـهُ لَيُظُـنُّهُمْ هُـمْ نَـاصِرِي الإِيـمَانِ

٤٦٤٢- فَيَرَوْنَـهُ البِـدَعَ الـمُضِلَّةَ فِي قَـوَا لِـبِ سُـنَّةٍ نَبَوِيَّـةٍ وَقُـرَانِ

٤٦٤٣- وَيَرَوْنَـهُ الإِثْبَـاتَ لِلأَوْصَـافِ فِي أَمْـرٍ شَـنِيعٍ ظَـاهِرِ النُّكْـرَانِ

٤٦٤٤- فَيُلَبِّسُـونَ عَلَيْـهِ تَلْبِيسَـيْنِ لَـوْ كُشِـفَا لَـهُ بَـادَاهُمُ بِطِعَـانِ

هؤلاء يشكون أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ إلى السُّلطانِ مثلما صَنَعَ ابن أبي دؤادَ في شِكايةِ الإمامِ أحمدَ إلى المأمونِ ومَنْ بعده، ومن تلبيسِ هؤلاء أنَّهم «يُرُونَهُ البِدَعَ في قَوَالِبِ سُنَّةٍ» هذا تلبيسٌ، فالذي يُظْهِرُ لك البدعةَ في قَالَبِ السُّنَّةِ مُلَبِّسٌ، ويُرُونَهُ الإثباتَ أمرًا عظيمًا منكرًا، وهذا تلبيسٌ آخرُ، فصاروا يُلَبِّسون من وجهين هما:

الوجهُ الأوَّل: تحسينُ البدعِ حيث يجعَلُونها في قوالب سُننٍ.

الوجهُ الثَّاني: تشويهُ السُّننِ والإثباتِ حتَّى يجعلونه في قَالَبِ الكفرانِ.

لو كُشِفَا للسُّلطانِ وبُيِّنَا له لباداهم بالطِّعانِ؛ أي: بالقتلِ؛ لأنَّه يعلمُ أنَّهم لَبَّسوا عليه؛ ولذا قال: «**لَوْ كُشِفَا لَهُ بَادَاهُم بِطِعَانِ**».

٤٦٤٥- يَـا فِرْقَـةَ التَّلْبِـيسِ لا حُيِّيـتُمُ أَبَـدًا وَحُيِّيـتُمْ بِكُـلِّ هَـوَانِ

كيف يقولُ: «**لَا حُيِّيتُمُ**»، ويقولُ: «**وَحُيِّيتُمْ؟**»؛ يعني: لا حُييتم تحيةَ إكرامٍ،

وحييتم تحيةَ هوانٍ، وهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧].

٤٦٤٦- لَكِنَّنَا نَشْكُوهُمُ وَصَنِيعِهِمْ   أَبَدًا إِلَيْكَ فَأَنْتَ ذُو السُّلْطَانِ

وَصَدَقَ رحمه اللهُ؛ فذو السُّلطانِ الأعظم القدير هو اللهُ، فنحن نشكوهم إليه، ولكن انظر للفرقِ بين شكايتِنا وشكايتِهم.

٤٦٤٧- فَاسْمَعْ شِكَايَتَنَا وَأَشْكِ مُحِقَّنَا   وَالْمُبْطِلَ ارْدُدْهُ عَنِ الْبُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «الْمُبْطِلَ» نقولُ: «الْمُبْطِلَ» أو الْمُبْطِلُ؟ هذا من بابِ الاشتغالِ، والقاعدةُ أنَّه إذا كان الاسمُ المقدَّمُ مَتْلُوًّا بأمرٍ فالأرجحُ النَّصبُ، تقولُ: «**زيدًا اضْرِبْه**» وتقولُ: «**زيدٌ اضرِبْه**» والأحسنُ: «**زيدًا**» لقوَّة طلبِ العاملِ؛ لأنَّه فعلُ طلبٍ.

أهلُ السُّنَّةِ يدعون لأهلِ البدعِ بالهدايةِ إلى السُّنَّةِ، وأنَّ اللهَ يرحمُهم، وأهلُ البدعِ بالعكسِ يدعون بأن يُهْلِكَ اللهُ أهلَ السُّنَّةِ ويَقضيَ عليهم ويَدحرَهم، وهذا هو الظُّلمُ والعدوانُ، فهم يشكوننا إلى السُّلطانِ لينتقمَ منَّا، ونحن لم نقل: اللَّهُمَّ عذِّبْهم، اللَّهُمَّ انتقمْ منهم، بل نقولُ: اللَّهُمَّ اهدِهم، وكان الإمامُ أحمدُ يعذِّبُه المأمونُ تعذيبًا بليغًا وهو يدعو له، ويقولُ: «**لو أعلمُ أنَّ لي دعوةً مستجابةً لصرفتُها للسُّلطانِ**»[1]، خلافًا لما يفعلُه بعضُ النَّاسِ اليوم الذين يدَّعون أنَّهم أهلُ غيرةٍ، يدعون على وليِّ الأمر وهو ما أساء إليهم، وتجدهم يدعون عليه وهم مخطئون على أنفسِهم وعلى وليِّ الأمر وعلى المسلمين عمومًا، إذا كانوا صادقين في نُصحِ الله

---

(١) أخرجه البربهاري في شرح السنة عن الفضيل بن عياض (ص:١١٣)، وعزاه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٩١) إلى الفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما.

ورسولِهِ فليدعوا له؛ لأنَّه إذا صلح صلحت الرَّعيَّةُ؛ لأنَّ الأمرَ مشكلٌ، هذا بيدِه القوَّةُ وبيدِه السُّلطةُ، فإذا دَعَوْتَ عليه زاد في شرِّه، وإذا دَعَوْتَ له فاللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، فقد يفتحُ اللهُ عليه.

نحن ندعو لأهل البدعِ، وهم يشكون إلى السُّلطانِ ليكونَ علينا؛ ولهذا يقولُ: «**وَالمُبْطِلَ ارْدُدْهُ عَنِ البُطْلَانِ**».

وَقَوْلُهُ: «وَالمُبْطِلَ ارْدُدْهُ عَنِ البُطْلَانِ» يعني: ما دعا على المبطلين أنْ يهلكَهم اللهُ وما أشبه ذلك، بل قال: «**ارْدُدْهُ عَنِ البُطْلَانِ**»، وهذا هو الخير؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا رَدَّ أهلَ الباطلِ إلى الحقِّ قَوِيَ بهم أهلُ الحقِّ، وازداد عددُ المحقِّين، وحَصَلَ الخيرُ للجميعِ، هؤلاء انكَفُّوا عن باطلِهم، وهؤلاء ازدادوا بهم عددًا وقوَّةً، وما أحسن أن يرجعَ أهلُ الباطلِ إلى الحقِّ، ثُمَّ يُبيِّنوا الباطلَ، فتجد أنَّ اللهَ يهدي على هذا الذي رجع من الباطلِ إلى الحقِّ وبَيَّنَ بطلانَ ما كان عليه تجدُ اللهَ ينصرُ به أقوامًا كثيرين من باطلِهم.

ونبشِّرُكم بخيرٍ أنَّ بعضَ إخوانِنا الذين في بعضِ المراكزِ الإسلاميَّةِ في البلادِ الكافرةِ يذكرون أنَّه يرجعُ إلى الحقِّ من الشَّبابِ الذين عندهم شهاداتٌ عاليةٌ من الدكتوراه أو غيرِها؛ لأنَّهم وجدوا أنَّ ما هم عليه من الباطلِ يخالفُ الفطرَ السَّليمةَ ويخالفُ ما تطلبُه طبيعةُ الإنسانِ، فَيُسْلِمُونَ ويبيِّنون للنَّاسِ أنَّ ما كانوا عليه فهو باطلٌ، حدَّثنا بذلك الذين يأتون من المراكزِ، أحدهم كان نصرانيًّا وأبوه قِسٌّ كبيرٌ وهو معه شهاداتٌ عاليةٌ، رجَع إلى الحقِّ وبيَّنه وبيَّن الباطلَ، وهو نصرانيٌّ، والثَّاني: يهوديٌّ متوغِّلٌ في اليهوديَّة، فعرف الحقَّ ورجع إلى الحقِّ وبَيَّنَ بطلانَ مذهبِه.

المهمُّ أنَّه ينبغي لنا أن ندعوَ لأهلِ الباطلِ أن يردَّهم اللهُ عن باطلِهم إلى الحقِّ؛ ليستفيدوا هم بأنفسِهم ويفيدوا غيرَهم، هذا هو العدلُ الذي مَشَى عليه المؤلِّفُ، عكس ما يفعلُه بعضُ الجُهَّال إذا رأوا مَنْ تمادَى في الباطلِ قاموا يدعون عليه، فإذا قِيلَ لهم: ادعوا اللهَ لهم بالهدايةِ، قالوا: نسألُ اللهَ ألَّا يهديَه، كأنَّهم يستبعدون قدرةَ الله على هدايتِه، واللهُ تعالى قادرٌ على أنْ يهديَه، أرأيتم أنَّ مِن زعماءِ المسلمين في صدرِ الإسلامِ مَنْ كان من زعماءِ الكفرِ و الشِّركِ؟!

٤٦٤٨- رَاجِعْ بِهِ سُبُلَ الـهُدَى وَالْطُفْ بِـهِ ... حَتَّـى تُرِيـهِ الـحَقَّ ذَا تِبْيَـانِ

٤٦٤٩- وَارْحَمْهُ وَارْحَمْ سَعْيَهُ المِسْكِينَ قَـدْ ... ضَـلَّ الطَّرِيـقَ وَتَـاهَ في القِيعَـانِ

أعوذُ باللهِ، إذا تاه الإنسانُ في القيعانِ متى يأتي؟ القيعانُ ليس فيها جوادٌ ولا فيها خطوطٌ، يرجعُ إلى أقصى الطَّريقِ، ثُمَّ يرجعُ إلى أوَّلِه؛ لأنَّه يَتِيهُ، فهؤلاء مثل الذين تاهوا في القيعان.

* * *

٤٦٥٠- يَا رَبِّ قَدْ عَمَّ الـمُصَابُ بِهَذِهِ الْـ ... آرَاءِ وَالشَّـطَحَاتِ وَالبُهْتَـانِ

٤٦٥١- هَجَرُوا لَـهَا الوَحْيَيْنِ وَالفِطْرَاتِ وَالْـ ... آثَـارِ لَـمْ يَعْبَـأُوا بِـذَا الـهُجْرَانِ

٤٦٥٢- قَـالُوا وَتِلْـكَ ظَـوَاهِرٌ لَفْظِيَّـةٌ ... لَـمْ تُغْـنِ شَيْئًا طَالِـبَ البُرْهَـانِ

٤٦٥٣- فَالعَقْـلُ أَوْلَى أَنْ يُصَـارَ إِلَيْـهِ مِـنْ ... هَذِي الظَّوَاهِرِ عِنْدَ ذِي العِرْفَـانِ

٤٦٥٤- ثُـمَّ ادَّعَـى كُـلٌّ بِـأَنَّ العَقْـلَ مَـا ... قَـدْ قُلْتُـهُ دُونَ الفَرِيـقِ الثَّـانِي

٤٦٥٥- يَا رَبِّ قَدْ حَارَ العِبَـادُ بِعَقْـلِ مَـنْ ... يَزِنُـونَ وَحْيَـكَ فَـأْتِ بِالـمِيزَانِ

٤٦٥٦- وَبِعَقْلِ مَنْ يَقْضِي عَلَيْكَ فَكُلُّهُمْ قَدْ جَاءَ بِالمَعْقُولِ وَالبُرْهَانِ

٤٦٥٧- يَا رَبِّ أَرْشِدْنَا إِلَى مَعْقُولِ مَنْ يَقَعُ التَّحَاكُمُ إِنَّنَا خَصْمَانِ

٤٦٥٨- جَاؤُوا بِشُبْهَاتٍ وَقَالُوا إِنَّهَا مَعْقُولَةٌ بِبَدَائِهِ الأَذْهَانِ

٤٦٥٩- كُلٌّ يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَمَا فِي الحَقِّ مَعْقُولانِ مُخْتَلِفَانِ

٤٦٦٠- وَقَضَوْا بِهَا كَذِبًا عَلَيْكَ وَجُرْأَةً مِنْهُمْ وَمَا الْتَفَتُوا إِلَى القُرْآنِ

الشرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله- شاكيًا إلى الرَّبِّ العظيمِ جلَّ وعلا:

٤٦٥٠- يَا رَبِّ قَدْ عَمَّ المُصَابُ بِهَذِهِ الْـ آرَاءِ وَالشَّطَحَاتِ وَالبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «**قَدْ عَمَّ المُصَابُ**»؛ يعني: اتَّسع وصار مصيبًا لكُلِّ أحدٍ.

قَوْلُهُ: «**بِهَذِهِ الآرَاءِ**»؛ يعني: الآراءَ المخالفةَ للشَّريعةِ وهي آراءُ أهلِ التَّعطيلِ.

قَوْلُهُ: «**والشَّطَحَاتِ وَالبُهْتَانِ**» الشَّطَحَات: البعد عن الحقِّ، «**والبُهْتَان**»: الكذب.

٤٦٥١- هَجَرُوا لَهَا الوَحْيَيْنِ وَالفِطْرَاتِ وَالْـ آثَارِ لَمْ يَعْبُوا بِذَا الهُجْرَانِ

هجروا بهذه الآراءِ الوحيين؛ يعني: الكتابَ والسُّنَّةَ، و«**الفِطْرَاتِ**» معروفةٌ، وهي ما فطر اللهُ الخلقَ عليه، و«**الآثَارَ**»؛ أي: آثارَ السَّلفِ كالصَّحابةِ والتَّابعين، «**لَمْ يَعْبُوا بِذَا الهِجْرَانِ**»؛ أي: ما همَّهم أن يهجروا هذه الأربعةَ: الوحيين: «**الكتابُ والسُّنَّة**»، والثَّالث: الفطرة، والرَّابع: الآثار.

٤٦٥٢- قَـالُوا وَتِلْـكَ ظَـوَاهِرٌ لَفْظِيَّـةٌ ... لَـمْ تُغْـنِ شَـيْئًا طَالِـبَ البُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «تِلْكَ» المشارُ إليه: الكتابُ والسُّنَّةُ والآثارُ.

فهذه ظواهرُ لفظيَّةٌ لا تغني شيئًا لمن طلب البرهانَ والدَّليلَ.

٤٦٥٣- فَالعَقْـلُ أَوْلَى أَنْ يُصَـارَ إِلَيْـهِ مِـنْ ... هَذِي الظَّوَاهِرِ عِنْدَ ذِي العِرْفَـانِ

لـمَّا كانت هذه ظواهرَ لفظيَّةً لا تُغْنِي شيئًا وَجَبَ أن نرجعَ إلى العقلِ على زعمِهم.

٤٦٥٤- ثُـمَّ ادَّعَـى كُـلٌّ بِـأَنَّ العَقْـلَ مَـا ... قَـدْ قُلْتُـهُ دُونَ الفَرِيـقِ الثَّـانِي

لـمَّا قالوا: نرجعُ إلى العقلِ، وكانوا عشرةً، فقال: الأوَّل: العقلُ ما قُلْتُهُ، وقال الثَّاني: العقلُ ما قُلْتُهُ، وقال الثَّالث: العقلُ ما قُلْتُهُ، وقال الرَّابُع: العقلُ ما قُلْتُهُ، إلى العاشرِ، كُلُّ واحدٍ يقولُ: العقلُ ما قُلْتُهُ، كم صارت العقولُ؟ الجوابُ: صارت عشرةً، كُلُّها متباينةٌ؛ ولهذا تجدهم أكثرَ النَّاسِ نزاعًا واختلافًا؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النِّساء:٨٢].

٤٦٥٥- يَا رَبِّ قَدْ حَارَ العِبَـادُ بِعَقْـلِ مَـنْ ... يَزِنُـونَ وَحْيَـكَ فَـأْتِ بِالـمِيزَانِ

هذا يُرَدُّ به على مَنْ حَكَّمَ العقولَ في بابِ الصِّفاتِ، يقولُ: لو رجعنا إلى العقلِ فبأيِّ عقلٍ نزنُ ما يجبُ لله وما يمتنعُ عليهِ؟ هل بعقلِ زيدٍ، أم بعقلِ عُبيدٍ، أم بعقلِ خالدٍ، أم بعقلِ بكرٍ، بعقلِ مَنْ؟ إن قلنا: بعقلِ الأوَّلِ، قال الثَّاني: لا ، وإن قلنا: بعقلِ الثَّاني، قال الأوَّل والثَّالثُ: لا، وإن قلنا بعقلِ الرَّابعِ، قال الأوَّلُ والثَّاني والثَّالثُ: لا، وهكذا، إذَنْ لا رجوعَ للعقولِ، الرُّجوعُ لما جاء في الوحيين من الكتابِ والسُّنَّةِ؛ ولهذا قال المؤلِّفُ:

٤٦٥٦- وَبِعَقْلِ مَنْ يَقْضِي عَلَيْكَ فَكُلُّهُمْ قَدْ جَاءَ بِالمَعْقُولِ وَالبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «وَبِعَقْلِ مَنْ يَقْضِي عَلَيْكَ»؛ يعني: بعقلِ مَنْ يقضي عليك بما تستحقُّه من صفاتٍ وأفعالٍ، فَمَنْ هو صاحبُ العقلِ الذي يقضي عليك؟

قَوْلُهُ: «فَكُلُّهُمْ قَدْ جَاءَ بِالمَعْقُولِ وَالبُرْهَانِ» بِالمَعْقُولِ؛ أي: على حسَبِ قولِهم، «والبُرْهَانِ»: الحُجَّة، ولكنَّه ليس لهم حُجَّةٌ، فكُلُّ حُججِهم شبهاتٌ وليست بِحُجَجٍ.

٤٦٥٧- يَا رَبِّ أَرْشِدْنَا إِلَى مَعْقُولِ مَنْ يَقَعُ التَّحَاكُمُ إِنَّنَا خَصْمَانِ

يسألُ المؤلِّفُ ربَّه أن يرشدَه إلى عقلِ مَنْ يكونُ التَّحاكمُ عنده، وهذا على سبيلِ التَّنزُّلِ من المؤلِّف رحمه الله، وإلَّا فقد أرشدنا اللهُ عزَّ وجلَّ أن نأخذَ بما قال اللهُ وقال الرَّسولُ، فهذا هو الحاكمُ بين الخلقِ، لكن هذا على سبيلِ التَّنزُّلِ، يُشْبِهُ المباهلةَ بأن يتقابلَ الخصمان، ويدعو كُلُّ واحدٍ منهما على المُبْطِلِ منهما.

٤٦٥٨- جَاؤُوا بِشُبْهَاتٍ وَقَالُوا إِنَّهَا مَعْقُولَةٌ بِبَدَائِهِ الأَذْهَانِ

جَاؤُوا بِشُبهَاتٍ يدَّعون أنَّها حُجَجٌ وبيِّناتٌ، وأنَّها معقولةٌ، وأنَّ البديهةَ تدلُّ عليها، فلا تحتاجُ إلى نظرٍ وتعبٍ.

٤٦٥٩- كُلٌّ يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَمَا فِي الحَقِّ مَعْقُولانِ مُخْتَلِفَانِ

قَوْلُهُ: «كُلٌّ يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا»؛ يعني أنَّ هؤلاء الذين قالوا: «إنَّ المرجعَ إلى العقلِ في بابِ الصِّفاتِ» كُلٌّ يناقضُ الآخَرَ، يقولُ أحدُهم: هذه الصِّفةُ واجبةٌ لله، ويقولُ الثَّاني: هذه مستحيلةٌ على الله، ويقولُ الثَّالثُ: هذه جائزةٌ على الله، بل إنَّ الإنسانَ الواحدَ منهم يتناقضُ؛ فتجده في بعضِ كتبِه يُقِرُّ هذه الصِّفةَ ويرى أنَّها

واجبةٌ لله، وفي بعضِ كتبهِ ينكرُ هذه الصِّفةَ، ويقولُ: هذه ممتنعةٌ على الله، ومستحيلةٌ عليه؛ لأنَّهم إنَّما يعتمدون على شُبهاتٍ لا على حقائقَ.

قَوْلُهُ: «وَمَا فِي الحَقِّ مَعْقُولَانِ مُخْتَلِفَانِ»؛ يعني: أنَّ الحقَّ لا تختلفُ فيه العقولُ لأنَّها تتَّفقُ عليه؛ فإذا اختلفت العقولُ في شيءٍ دَلَّ على أنَّه باطلٌ؛ لأنَّ العقولَ السَّليمةَ لا تختلفُ في الحقِّ.

٤٦٦٠- وَقَضَوْا بِهَا كَذِبًا عَلَيْكَ وَجُرْأَةً ... مِنْهُمْ وَمَا الْتَفَتُوا إِلَى الْقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «وَقَضَوْا بِهَا»؛ أي: بالعقولِ.

يقولون: كُلُّ ما جاء في القرآنِ ممَّا يخالفُ العقولَ فإنَّه يجبُ فيه أحدُ أمرين: إمَّا التَّأويل وإمَّا التَّفويض، وهذه قاعدةٌ خبيثةٌ، التَّأويلُ معناه التَّحريفُ، أو التَّفويضُ بأن تقولَ: لا أدري، فصارت قاعدتُهم مَبْنِيَّةً إمَّا على العدوَّانِ وإمَّا على الجهلِ، أمَّا العدوَّان فإذا أوَّلُوا الصفةَ عن معناها الحقيقيِّ، وأما والجهل إذا قالوا: واللهِ لا ندري بل فَوِّض.

وقد قال شيخُ الإسلام -رحمه الله- عن قولِ أهلِ التَّفويضِ: «**إنَّه من شرِّ أقوالِ أهلِ البدعِ والإلحادِ**»[1]، مع أنَّك تجدُ كثيرًا في كتبِ المتأخِّرين مَنْ يقولُ: إنَّ التَّفويضَ مذهبُ أهلِ السُّنَّة، وهذا قولٌ خطأٌ؛ لأنَّ التَّفويضَ تفويضان: تفويضُ المعنى، وتفويضُ الحقيقة والكيفيَّة، فالأوَّلُ لا يقولُ به السَّلفُ ولا أهلُ السُّنَّةِ، أعني به: تفويضَ المعنى؛ لأنَّهم يقولون: المعنى معلومٌ، والثَّاني يقولون به، فمَن أطلق التَّفويضَ على أهلِ السُّنَّةِ فقد أخطأ عليهم، ولم يفهم مذهبَهم حقيقةً.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٠٥).

٤٦٦١- يَا رَبِّ قَدْ أَوْهَى النُّفَاةُ حَبَائِلَ الْـ ـــقُرْآنِ وَالآثَـارِ وَالإِيـمَانِ

٤٦٦٢- يَا رَبِّ قَدْ قَلَبَ النُّفَاةُ الدِّينَ وَالْـ إِيـمَانَ ظَهْـرًا مِنْـهُ فَـوْقَ بِطَـانِ

٤٦٦٣- يَا رَبِّ قَـدْ بَغَـتِ النُّفَـاةُ وَأَجْلَبُـوا بِالـخَيْلِ وَالرَّجْلِ الـحَقِيرِ الشَّـانِ

٤٦٦٤- نَصَبُوا الـحَبَائِلَ وَالغَوَائِـلَ لِـلأُلَى أَخَذُوا بِوَحْيِـكَ دُونَ قَـوْلِ فُـلانِ

٤٦٦٥- وَدَعَوْا عِبَادَكَ أَنْ يُطِيعُـوهُمْ فَمَـنْ يَعْصِـيهِمُ سَـامُوهُ شَرَّ هَـوَانِ

٤٦٦٦- وَقَضَوْا عَلَى مَنْ لَـمْ يَقُلْ بِضَلالِـهِمْ بِـاللَّعْنِ وَالتَّضْـلِيلِ وَالكُفْـرَانِ

٤٦٦٧- وَقَضَوْا عَلَى أَتْبَاعِ وَحْيِـكَ بِالَّـذِي هُـمْ أَهْلُـهُ لَا عَسْـكَرُ الفُرْقَـانِ

٤٦٦٨- وَقَضَوْا بِعَزْلِـهِمُ وَقَـتْلِهِمُ وَحَبْـ ـسِهِمُ وَنَفْـيِهِمُ عَـنِ الأَوْطَـانِ

٤٦٦٩- وَتَلاعَبُوا بِالدِّينِ مِثْلَ تَلاعُـبِ الْـ ـحُمُرِ الَّتِـي نَفَـرَتْ بِـلا أَرْسَـانِ

٤٦٧٠- حَتَّـى كَـأَنَّهُمُ تَوَاصَـوْا بَيْـنَهُمُ يُـوصِي بِـذَلِكَ أَوَّلٌ لِلثَّـانِي

الشرحُ

٤٦٦١- يَا رَبِّ قَدْ أَوْهَى النُّفَاةُ حَبَائِلَ الْـ ـــقُرْآنِ وَالآثَـارِ وَالإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْهَى»؛ أي: أَضْعَفَ.

فهم أضعفوا حبائلَ القرآنِ والآثارِ والإيمانِ بما فعلوه من التَّحريفِ في آياتِ الله وفي أحاديثِ رسولِ ﷺ حتَّى أوهنوا الإيمانَ في قلوبِ النَّاسِ، فهؤلاء النُّفاةُ لا يؤمنون بأنَّ اللهَ استوى على العرشِ حقيقةً، إذَنْ نَقَصَ الإيمانُ، لأنَّ اللهَ أخبر عن نفسِه أنَّه استوى على العرشِ حقيقةً، فإذا لم تؤمنْ به وقلت: معنى

«استوى»: «استولى» ضعف إيمانُك؛ لأنَّك أَخْلَلْتَ بعقيدةٍ، فهؤلاء النُّفاةُ أَوْهَوْا حبائلَ القرآنِ والآثارِ والإيمانِ.

٤٦٦٢- يَا رَبِّ قَدْ قَلَبَ النُّفَاةُ الدِّينَ وَالْـ إِيمَانَ ظَهْـرًا مِنْـهُ فَـوْقَ بِطَـانِ

يعني: قلبوا الدِّينَ ظهرًا على بطنٍ، وهذا واضحٌ، لكن كيف ذلك؟ لأنَّهم صرفوا ظواهرَ النُّصوصِ عن معناها الظَّاهر، وجعلوا لها معنًى باطنًا، فمثلًا قولُه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، معناها الظَّاهرُ: أنَّ لله يَدَيْنِ حقيقيَّتَيْنِ مبسوطَتَيْنِ، هم قالوا: لا، هناك معنى آخر غير الظَّاهرِ، المعنى الباطنُ المرادُ عندهم وهو: القدرةُ أو القوَّة، فهم قلبوا ظهورَ النُّصوصِ إلى بواطنَ لا يريدُها اللهُ ولا رسولُه.

٤٦٦٣- يَا رَبِّ قَـدْ بَغَـتِ النُّفَـاةُ وَأَجْلَبُـوا بِالْـخَيْلِ وَالرَّجْلِ الْـحَقِيرِ الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «بَغَتْ»؛ أي: تَعَدَّتْ.

قَوْلُهُ: «وَأَجْلَبُوا بِالْـخَيْلِ» هذا مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء:٦٤].

٤٦٦٤- نَصَبُوا الْـحَبَائِلَ وَالْغَوَائِـلَ لِـلأُلَى أَخَذُوا بِوَحْيِـكَ دُونَ قَـوْلِ فُـلَانِ

قَوْلُهُ: «نَصَبُوا الْـحَبَائِلَ وَالْغَوَائِلَ» «الغوائل» جمعُ: غَائِلَة، وذلك بشكايتِهم إلى السَّلاطينِ والأمراءِ، ولا يخفى علينا جميعًا ما حَدَثَ لإمامِ أهلِ السُّنَّةِ الإمامِ أحمدَ -رحمه الله- أيَّامَ المحنةِ حيث جعلوا يجرُّونه على البغلةِ ويضربونه بالسِّياط حتَّى يُغْمَى عليه في الأسواقِ، ولا يخفى أيضًا ما جَرَى لشيخِ الإسلامِ ابن تيميَّةَ رحمه الله؛ حيث كانوا يركبونه على عربةٍ مكشوفةٍ ويطوفون به ويُشَهِّرون به، وفي

النِّهاية سجنوه حتَّى مات في السِّجنِ، ولـمَّا سجنوه صار أصحابُه يأتون إليه ليأخذوا من علمِه، فمنعوا أصحابَه عنه، ثُمَّ صار يكتبُ وينشرُ، فمنعوا الكتابةَ عنه، ثُمَّ صار يكتبُ على جدرانِ الحبسِ؛ لأجل أنْ ينشرَ علمَه الذي في قلبِه، وآخرُ الأمرِ مات مسجونًا رحمه الله.

فالمهمُّ أنَّ هؤلاء النُّفاةَ -والعياذُ بالله- ما تركوا النَّاسَ بلا شرٍّ ولا عدوانٍ، بل فعلوا بهم كُلَّ الأفعالِ التي يستطيعون بالوشايةِ فيها.

٤٦٦٥- وَدَعَوْا عِبَادَكَ أَنْ يُطِيعُوهُمْ فَمَنْ يَعْصِيهِمُ سَامُوهُ شَرَّ هَوَانِ

يعني: هؤلاء النُّفاةُ دَعَوا النَّاسَ إلى طاعتِهم، وقالوا: اسلكوا مَسْلَكَنَا، فمَنْ عصاهم ساموه شرَّ هوانٍ؛ إمَّا بأيديهم، وإمَّا بألسنتِهم، وإمَّا بتسليطِ الولاةِ عليهم انتقامًا منهم، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٤٦٦٦- وَقَضَوْا عَلَى مَنْ لَمْ يَقُلْ بِضَلالِهِمْ بِاللَّعْنِ وَالتَّضْلِيلِ وَالكُفْرَانِ

يقولون مثلًا: لعنةُ الله على فلانٍ؛ لأنَّه يقولُ: إنَّ لله يَدَيْنِ حقيقيَّتَيْنِ، ما تقولون في هذا الضَّالِّ الذي يُثْبِتُ لله جارحةً؟ ما تقولون في هذا الكافرِ الذي جعل اللهَ جسمًا؟ وما أشبه ذلك، العامِّيُّ إذا سَمِعَ مثل هذا الكلامِ لا سيَّما من شيخٍ مُعمَّمٍ واسعِ الكُمِّ، ماذا يقولُ؟ يقولُ: صحيحٌ، هؤلاء ضُلَّالٌ، هؤلاء كُفَّارٌ، هؤلاء مستحِقُّون للعنِ، ولهذا وصفهم المؤلِّفُ وصفًا تامًّا وقال:

٤٦٦٧- وَقَضَوْا عَلَى أَتْبَاعِ وَحْيِكَ بِالَّذِي هُمْ أَهْلُهُ لَا عَسْكَرُ الفُرْقَانِ

ماذا قَضَوْا على أتباعِ الوحي؟ الجوابُ: بالتَّضليلِ والكفرانِ، وهم أحقُّ بالكفرِ والضَّلالِ، هذا معنى كلامِ المؤلِّف، هم أحقُّ، وليس عسكرُ القرآنِ أحقَّ.

٤٦٦٨- وَقَضَوْا بِعَزْلِـهِمُ وَقَتْلِهِمُ وَحَبْـ ـسِهِمُ وَنَفْـيِهِمُ عَـنِ الأَوْطَـانِ

كُلُّ هذا يُصدرونه أحكامًا إلى الولاةِ، يقولُ: هذا مُفسدٌ احبسْه، هذا ساعٍ في الأرضِ فسادًا اقتلْه، هذا لا يمكنُ بقاؤه في هذا البلدِ انْفِه، وهكذا، ونحن -ولله الحمدُ- في عافيةٍ من هذا، ولكنَّه في زمانِ المؤلِّف وما قبلَه موجودٌ، وليس من بابِ المبالغةِ.

٤٦٦٩- وَتَلاعَبُوا بِالدِّينِ مِثْلَ تَلاعُـبِ الْـ ـحُمُرِ الَّتِي نَفَـرَتْ بِـلا أَرْسَـانِ

هل رأيتم الحُمُرَ وهي نافرةٌ بلا أَرْسانٍ؟ نعم، رأيناها ترقصُ وتتسابقُ لكن على غيرِ هدى، ولا سيَّما الصِّغارُ منها، وهذه الصِّغارُ إذا رَأَيْتَ لعبَها تعجَّبْتَ منها.

فهو يقولُ: إنَّهم مثلُ هؤلاء الحُمُرِ التي نَفَرَتْ بلا أرسانٍ، لا يمسكُها أحدٌ.

٤٦٧٠- حَتَّـى كَـأَنَّهُمُ تَوَاصَـوْا بَيْـنَهُمْ يُـوصِي بِـذَلِكَ أَوَّلٌ لِلثَّـانِي

هذا البيتُ مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾ [الذريات:٥٢-٥٣]، كُلُّ الأُمَمِ التي سَبَقَتْ تقولُ لرسُلِهم: ساحرٌ أو مجنونٌ، وهل قيل للرَّسولِ هكذا؟ الجوابُ: نعم، قيل له هكذا، وقال اللهُ تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾؛ يعني: هل أَوْصَى بعضُهم بعضًا؟ الجوابُ: لا، ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾، فهم تَوَافَقَتْ أقوالُهم لِتَوَافُقِ إراداتِهم، والجامعُ بينهم هو الطُّغيان.

* * *

٤٦٧١- هَجَرُوا كَلامَكَ هَجْرَ مُبْتَدِعٍ لِـمَنْ قَـدْ دَانَ بِالآثَـارِ وَالقُـرْآنِ

٤٦٧٢- فَكَأَنَّـهُ فِـيمَا لَـدَيْهِمْ مُصْـحَفٌ فِي بَيْـتِ زِنْـدِيقٍ أَخِـي كُفْـرَانِ

٤٦٧٣- أَوْ مَسْجِدٌ بِجِوَارِ قَوْمٍ هَمُّهُمْ ... في الفِسْقِ لا في طَاعَةِ الرَّحْمَنِ

٤٦٧٤- وَخَوَاصُهُمْ لَمْ يَقْرَؤُوهُ تَدَبُّرًا ... بَلْ لِلتَّبَرُّكِ لا لِفَهْمِ مَعَانِ

٤٦٧٥- وَعَوَامُهُمْ في الشِّبْعِ أَوْ في خَتْمَةٍ ... أَوْ تُرْبَةٍ عِوَضًا لِذِي الأَثْمَانِ

٤٦٧٦- هَذَا وَهُمْ حَرْفِيَّةُ التَّجْوِيدِ أَوْ ... صَوْتِيَّةُ الأَنْغَامِ وَالأَلْحَانِ

٤٦٧٧- يَا رَبِّ قَدْ قَالُوا بِأَنَّ مَصَاحِفَ الْـ ... إِسْلامِ مَا فِيهَا مِنَ القُرْآنِ

٤٦٧٨- إِلَّا الـمِدَادَ وَهَذِهِ الأَوْرَاقَ وَالْـ ... جِلْدَ الَّذِي قَدْ سُلَّ مِنْ حَيَوَانِ

٤٦٧٩- وَالكُلُّ مَخْلُوقٌ وَلَسْتُ بِقَائِلٍ ... أَصْلًا وَلا حَرْفًا مِنَ القُرْآنِ

٤٦٨٠- إِنْ ذَاكَ إِلا قَوْلُ مَخْلُوقٍ وَهَلْ ... هُوَ جَبْرَئِيلُ أَوِ الرَّسُولُ فَذَانِ

٤٦٨١- قَوْلانِ مَشْهُورَانِ قَدْ قَالَتْهُمَا ... أَشْيَاخُهُمْ يَا مِحْنَةَ القُرْآنِ

٤٦٨٢- لَوْ دَاسَهُ رَجُلٌ لَقَالُوا لَمْ يَطَأْ ... إِلَّا الـمِدَادَ وَكَاغِدَ الإِنْسَانِ

٤٦٨٣- يَا رَبِّ زَالَتْ حُرْمَةُ القُرْآنِ مِنْ ... تِلْكَ القُلُوبِ وَحُرْمَةُ الإِيمَانِ

٤٦٨٤- وَجَرَى عَلَى الأَفْوَاهِ مِنْهُمُ قَوْلُهُمْ ... مَا بَيْنَنَا لله مِنْ قُرْآنِ

٤٦٨٥- مَا بَيْنَنَا إِلَّا الـحِكَايَةُ عَنْهُ وَالتَّـ ... ـعْبِيرُ ذَاكَ عِبَارَةٌ بِلِسَانِ

الشرحُ

٤٦٧١- هَجَرُوا كَلامَكَ هَجْرَ مُبْتَدِعٍ لِـمَنْ ... قَدْ دَانَ بِالآثَارِ وَالقُرْآنِ

يعني: هجروا كلامَ الله كهجرِ المبتدعِ لِـمَنْ دَانَ بالآثارِ والقُرآنِ، وهجرُ

المبتدعِ لِـمَنْ قال بالآثارِ والقرآنِ هجرٌ لا يمكنُ أنْ يزولَ؛ لأنَّه يهجرُه عن دينٍ، فالمبتدعُ يهجرُ مَنْ دَانَ بالآثارِ، ورُبَّما يرى أنَّه أشدُّ على الإسلامِ من اليهودِ والنَّصارى، هم هجروا كلامَ الله وذهبوا في البدعِ، فهجروه كهجرِ المبتدعِ لصاحبِ السُّنَّةِ.

٤٦٧٢- فَكَأَنَّـهُ فِـيمَا لَـدَيْهِمْ مُصْـحَفٌ في بَيْـتِ زِنْـدِيقٍ أَخِـي كُفْـرَانِ

نعوذُ باللهِ، المصحفُ في بيت الزِّنديقِ الكافرِ هل يُنْتَفَعُ به؟ الجوابُ: أبدًا، لا يُنْتَفَعُ به، هؤلاء أيضًا لم ينتفعوا بالوحي.

٤٦٧٣- أَوْ مَسْـجِدٌ بِجِـوَارِ قَـوْمٍ هَمُّهُـمْ في الفِسْـقِ لا في طَاعَـةِ الـرَّحْمَنِ

مسجدٌ بجوارِ قومٍ فسقةٍ ليس لهم هَمٌّ إلَّا شربَ الخمورِ وعزفَ القِيانِ والزِّنا، وغير ذلك من المُحَرَّماتِ، هل ينتفعون بهذا المسجدِ؟ الجوابُ: لا.

٤٦٧٤- وَخَوَاصُـهُمْ لَـمْ يَقْـرَؤُوهُ تَـدَبُّرًا بَـلْ لِلتَّـبَرُّكِ لا لِفَهْـمِ مَعَـانِ

انتبِه لهذه النُّقطةِ التي وقع فيها كثيرٌ من النَّاسِ اليوم، كثيرٌ من النَّاسِ اليوم لا يقرؤون القرآنَ قراءةَ تدبُّرٍ ولكن قراءة تبرُّكٍ وانتظارٍ للأجرِ، وهذا وإن كان طيِّبًا، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]، هذه الفائدةُ من إنزالِ القرآنِ، وهذه الحكمةُ من إنزالِه، هؤلاء يقرؤونه تبرُّكًا.

٤٦٧٥- وَعَـوَامُهُمْ في الشِّـبْعِ أَوْ في خَتْمَـةٍ أَوْ تُرْبَـةٍ عِوَضًـا لِـذِي الأَثْـمَانِ

قَوْلُهُ: «في الشِّبْعِ»، وفي نسخةٍ: «السُّبْعِ».

على كُلِّ حالٍ الظَّاهرُ ما ذهب إليه الهرَّاس[1] رحمه الله تعالى، وأنَّ الصَّوابَ: «وَعَوَامُهُمْ في الشِّبْعِ»؛ يعني في: الشِّبَعِ؛ يعني: لا يقرؤونه إلَّا من أجلِ أن يُشبعوا بطونَهم، وهذا يوجدُ كثيرًا، لو فرضنا أنَّ شخصًا رَتَّبَ غداءً وعشاءً لمن يقرأُ القرآنَ، تجدُ العوامَّ يقرؤون القرآنَ كثيرًا، كُلَّ يوم يأتون لهذا البيتِ يقرؤون القرآنَ من أجلِ الغداءِ أو العشاءِ، كذلك يقرؤون ختمةً، وهذه معروفةٌ في بعضِ البلادِ الإسلاميَّةِ، الإنسانُ يقرأُ ختمةً للميِّتِ ما قرأها لله، بل قرأها للعِوَضِ الذي يأخذُه على هذه الختمةِ، «أَوْ في تُرْبَةٍ»؛ أي: عند القبورِ، يُؤجَّر القارئ للقراءةِ عند القبرِ، هؤلاء هم العوامُّ.

٤٦٧٦- هَــذَا وَهُــمْ حَرْفِيَّــةُ التَّجْوِيــدِ أَوْ ... صَــوْتِيَّةُ الأَنْغَــامِ وَالأَلْــحَانِ

هذا إشارةٌ إلى هؤلاء الذين يعتَنُون بألفاظِ القرآنِ وتجويدِه ونغماتِه الصَّوتيَّة، لكن ليس عندهم معنى، تجدهم في المعنى لا يلتفتون إليه، فتجدهم يُقيمون حروفَه ولا يُقيمون معناه، لكنْ في التَّجويدِ يشتدُّون به حتى إنَّ الواحدَ منهم إذا أراد أن يقرأَ يتكلَّفُ ويحمرُّ وجهُه من شدَّةِ ما يُعَالِجُ من أجلِ أن يُطَبِّقَ قواعدَ التَّجويدِ، مع أنَّ تطبيقَ قواعدِ التَّجويدِ ليس بواجبٍ؛ إذ إنَّ التَّجويدَ غاية ما فيه أنَّه من بابِ تحسينِ اللَّفظِ فقط، وقد مَضَى أكثرُ من أربعةَ عَشَرَ قرنًا، وكُلُّ أناسٍ يأتون يُدخلون تحسينًا آخرَ غير الأوَّلين، حتَّى وصلت الحالُ إلى ما وصلت، والعجب ممَّن يقولُ: «كُلُّ مَنْ لم يقرأ بالتَّجويدِ فهو آثمٌ».

ولو أخذنا بهذا القولِ لكان عامَّةُ المسلمين تسعون بالمئةِ منهم آثمين، إذا كان القرآنُ نزَل على سبعةِ أحرفٍ؛ أي: سبع لغات في الأوَّل، ثُمَّ جاء على حرفٍ

(١) انظر: شرح النُّونيَّة لهرَّاس رحمه الله (٢/ ٣١٩).

واحدٍ، كُلُّ ذلك تيسيرًا على العبادِ، فكيف نُؤثِّمُ تسعين بالمئةِ من المسلمين؛ لأنَّهم لم يُطَبِّقوا التَّجويدَ؟!.

إذا أراد الإنسانُ أن يقولَ قولًا يجبُ أن ينظرَ ماذا يلزمُ على هذا القولِ قبل أنْ يتكلَّمَ به، فالصَّحيحُ أنَّ التَّجويدَ إذا لم يصل إلى حدِّ العنتِ والمشقَّةِ فهو من الأمورِ المستحبَّة فقط؛ لأنَّه من بابِ تزيين القرآنِ، أمَّا أنْ يُقالَ: إنَّه واجبٌ وإنَّ مَنْ لم يقرأ به آثِمٌ، فلا.

هنا يقولُ ابنُ القيِّم -رحمه الله-: «هَذَا وَهُمْ حَرْفِيَّةُ التَّجْوِيدِ»؛ يعني: يُجيدون القرآنَ وأحرفَه، «أَوْ صَوْتِيَّةُ الأَنْغَامِ وَالأَلْحَانِ»؛ يعني: يأتون بالقُرآنِ بالصَّوتِ والنَّغماتِ الجميلةِ لكنَّهم لا يفهمون، تجدُ الواحدَ منهم يقرأُ القرآنَ وكأنَّه تلحينُ غناءٍ؛ لا لأنَّه كلامُ ربِّ العالمين، بل لأجلِ أن يطربوا به مَنْ حولهم.

٤٦٧٧- يَا رَبِّ قَدْ قَالُوا بِأَنَّ مَصَاحِفَ الْـ ... إِسْلامِ مَا فِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ

٤٦٧٨- إِلَّا الـمِدَادَ وَهَذِهِ الأَوْرَاقَ وَالْـ ... جِلْدَ الَّذِي قَدْ سُلَّ مِنْ حَيَوَانِ

٤٦٧٩- وَالْكُلُّ مَخْلُوقٌ وَلَسْتُ بِقَائِلٍ ... أَصْلًا وَلا حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ

يعني: أنَّ هؤلاء المعطِّلةَ يقولون: إنَّ المصاحفَ ما فيها من القرآنِ إلَّا المدادُ وهذه الأوراقُ والجلدُ الذي قد سُلَّ من حيوانٍ، والكُلُّ مخلوقٌ، فيقولون: إنَّ ما بين دفتي المصحفِ مخلوقٌ، لماذا؟ لأنَّه مدادٌ؛ أي: حبرٌ، مكتوبٌ بقلمٍ على أوراقٍ، والقلمُ والمِدادُ والأوراقُ والجلدُ الذي هو من الحيوانِ مخلوقةٌ فيقولون: هذا الذي بيننا من القرآن هو هذا المِدادُ.

ويقولون: إنَّ اللهَ لم يقل القرآنَ، لم يتكلَّم به، وإنَّما هو شيءٌ مخلوقٌ، أو عبارةٌ

عن كلامِ الله، أو حكايةٌ عن كلامِ الله، وليس هو كلامَ الله، ويترتَّبُ على هذا القولِ -والعياذُ بالله- ما سيذكرُه المؤلِّفُ رحمه الله.

٤٦٨٠- إنْ ذاكَ إلا قَـوْلُ مَخْلُـوقٍ وَهَـلْ ... هُـوَ جَبْرَئِيـلُ أَوِ الرَّسُـولُ فَـذَانِ

٤٦٨١- قَـوْلانِ مَشْـهُورَانِ قَـدْ قَـالَتْهُمَا ... أَشْـيَاخُهُمْ يَـا مِحْنَـةَ القُـرْآنِ

يقولون: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ وهو قولُ جبريلَ على رأيٍ، أو قولُ محمَّدٍ على رأيٍ.

ومن المعلومِ أنَّ اللهَ في القرآنِ الكريمِ أضاف القرآنَ مرَّةً إلى قولِ الرَّسولِ ﷺ، ومرَّةً إلى قولِ جبريلَ؛ ممَّا يدلُّ على أنَّه ليس قولَ محمَّدٍ ولا قولَ جبريلَ على وجهِ الحقيقةِ، وإنَّما هو قولُ غيرِهما؛ وذلك لأنَّ القولَ الواحدَ لا يمكنُ أن يكونَ مقولًا لقائِلَيْنِ أبدًا، فقال اللهُ تعالى في سورة «الحاقَّة»: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة:٣٨- ٤١]، فالمرادُ بالرَّسولِ هنا محمَّدٌ ﷺ؛ لأنَّه قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، وقال اللهُ تعالى في سورة «التَّكوير»: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التَّكوير:١٩-٢٠] والمرادُ بالرَّسولِ جبريلُ، فأضاف القرآنَ إلى هذا وهذا، إذَنْ ليس قولَ هذا ولا هذا؛ لأنَّ المقولَ الواحدَ لا يكونُ لقائِلَيْنِ، فَمَن القائلُ؟ اللهُ سبحانه وتعالى، لكن أُضِيفَ إلى جبريلَ باعتباره مُبَلِّغًا له لرسولِ الله ﷺ، وإلى رسولِ الله باعتبارِه مُبَلِّغًا له إلى الأُمَّةِ.

هؤلاء المعطِّلةُ الذين أنكروا كلامَ الله يقولون: إنَّه يُضَافُ إلى جبريلَ على أنَّه هو الذي ابتدأه أو إلى الرَّسولِ على أنَّه هو الذي ابتدأه، وإذا أُضِيفَ إلى هذا أو هذا صار مخلوقًا؛ لأنَّ كلامَ المخلوقِ مخلوقٌ.

٤٦٨٢- لَوْ دَاسَهُ رَجُلٌ لَقَالُوا لَمْ يَطَأْ إِلَّا المِدَادَ وَكَاغِدَ الإِنْسَانِ

يعني: لو أنَّ أحدًا أتى بالمصحف وداسه بقَدَمِه لقالوا: لا يكفرُ؛ لأنَّه ما دَاسَ كلامَ الله، وإنَّما دَاسَ المِدادَ والورقَ، ودَوْسُ المِدادِ والورقِ لا شيءَ فيه، فانظر كيف يؤدِّي هذا القولُ الباطلُ إلى هذا اللَّازم الباطلِ! أنا أعتقدُ لو أنَّ أحدًا دَاسَ المصحفَ أمام العوامِّ لمزَّقوه قبل أن يَرفعَ قَدَمَه من المصحفِ، ولا يمكنُ أن يقولوا: إنَّ هذا الرَّجُلَ لم يَدُسْ إلَّا الكَاغَدَ والمِدَادَ، أبدًا، لكن هذا اللَّازمُ باطلٌ، وإذا بطل اللَّازمُ بطل الملزومُ.

٤٦٨٣- يَا رَبِّ زَالَتْ حُرْمَةُ القُرْآنِ مِنْ تِلْكَ القُلُوبِ وَحُرْمَةُ الإِيمَانِ

يعني: أنَّ هؤلاء لَزِمَ على قولِهم زوالُ حُرمةِ القرآنِ وحُرمةِ الإيمانِ، وهو واضحٌ.

٤٦٨٤- وَجَرَى عَلَى الأَفْوَاهِ مِنْهُمُ قَوْلُهُمْ مَا بَيْنَنَا لله مِنْ قُرْآنِ

وهذا شيءٌ عجيبٌ فظيعٌ، إلى حدِّ أنَّهم يقولون بأفواهِهم: «ما بيننا قرآنٌ لله عزَّ وجلَّ».

٤٦٨٥- مَا بَيْنَنَا إِلَّا الحِكَايَةُ عَنْهُ وَالتْـ ـتَعْبِيرُ ذَاكَ عِبَارَةٌ بِلِسَانِ

المعطِّلةُ الذين ينكرون كلامَ الله انقسموا ثلاثةَ أقسامٍ هي:

قسم قال: إنَّه مخلوقٌ.

قسم آخَر قال: إنَّه غيرُ مخلوقٍ، لكن ما في المصحف عبارةٌ عنه.

قسم ثالث قال: ليس بمخلوقٍ، وما في المصحفِ حكايةٌ عنه.

فالعبارةُ للأشاعرةِ، والحكايةُ للكُلَّابيَّةِ، والقولُ الأوَّلُ قولُ المعتزلةِ الذين يقولون: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ لا يُنْسَبُ إلى الله على أنَّه صفةٌ من صفاتِه، بل يُنْسَبُ إليه على أنَّه خَلْقٌ من مخلوقاتِه كما نُسِبَت النَّاقةُ والبيتُ إلى الله.

وهذا القرآنُ عند المعتزلةِ مخلوقٌ لكنَّه كلامُ الله، وعند الأشاعرةِ مخلوقٌ وليس كلامَ الله، بل هو عبارةٌ عنه، وعند الكُلَّابيَّة مخلوقٌ وليس كلامَ الله بل هو حكايةٌ عنه، وبهذا نعرفُ أنَّ المعتزلةَ من هذه النَّاحيةِ خيرٌ من الأشاعرةِ ومن الكُلَّابيَّة.

والفرقُ بين العبارةِ والحكايةِ أنَّ العبارةَ معناها أنَّ اللهَ خَلَقَ هذا لتُعبِّرَ عمَّا في نفسِه، والحكاية؛ يعني: كأنَّه شيءٌ ما وَصَلَ إلى ما في نفسِ الله عزَّ وجلَّ، ولكنَّه حُكِيَ كما يُقَالُ: «**فلانٌ يَحْكِي فلانًا**»؛ يعني: يُضاهيه، كأَنَّ هذا المسموعَ يَحْكِي ما في نفسِ الله عزَّ وجلَّ، والفرقُ بينهما دقيقٌ جدًّا، لكن القولُ بالعبارةِ؛ أبعد عن كونِه كلامَ الله من القولِ بأنَّه حكايةٌ، الحكايةُ أقربُ، لكن كُلُّها أقوالٌ باطلةٌ.

***

٤٦٨٦- هَـذَا وَمَـا التَّـالُونَ عُـمَّالًا بِـهِ ... إِذْ هُـمْ قَـدِ اسْتَغْنَوْا بِقَـوْلِ فُـلانِ

٤٦٨٧- إِنْ كَانَ قَدْ جَازَ الـحَنَاجِرَ مِنْهُمُ ... فَبِقَـدْرِ مَـا عَقَلُـوا مِـنَ القُـرْآنِ

٤٦٨٨- وَالبَـاحِثُونَ فَقَـدَّمُوا رَأْيَ الرِّجَـا ... لِ عَلَيْـهِ تَصْـرِيحًا بِـلا كِـتْمَانِ

٤٦٨٩- عَزَلُـوهُ إِذْ وَلَّـوْا سِـوَاهُ وَكَـانَ ذَا ... كَ العَـزْلُ قَائِـدَهُمْ إِلَى الـخِذْلانِ

٤٦٩٠- قَالُوا وَلَـمْ يَحْصُـلْ لَنَا مِنْـهُ يَقِيـ ... ـنٌ فَهْـوَ مَعْـزُولٌ عَـنِ الإِيقَـانِ

٤٦٩١- إِنَّ اليَقِـينَ قَوَاطِـعٌ عَقْلِيَّـةٌ ... مِيزَانُهَـا هُـوَ مَنْطِـقُ اليُونَـانِ

٤٦٩٢- هَـذَا دَلِيـلُ الرَّفْـعِ مِنْـهُ وَهَـذِهِ أَعْلامُـهُ فِي آخِـرِ الأَزْمَـانِ

٤٦٩٣- يَا رَبِّ مَنْ أَهْلُوهُ حَقًّا كَيْ يَرَى أَقْـدَامَهُمْ مِنَّـا عَلَى الأَذْقَـانِ

٤٦٩٤- أَهْلُوهُ مَـنْ لا يَرْتَضِـي مِنْـهُ بَدِيـ ـلًا فَهْـوَ كَـافِيهِمْ بِـلا نُقْصَـانِ

٤٦٩٥- وَهُوَ الدَّلِيلُ لَـهُمْ وَهَادِيهِمْ إِلَى الْـ إِيـمَانِ وَالإِيقَـانِ وَالعِرْفَـان

٤٦٩٦- هُوَ مُوصِـلٌ لَـهُمُ إِلَى دَرْكِ اليَقِيـ ـنِ حَقِيقَـةً وَقَوَاطِـعِ البُرْهَـانِ

٤٦٩٧- يَـا رَبِّ نَحْـنُ العَـاجِزُونَ بِحُـبِّهِمْ يَـا قِلَّـةَ الأَنْصَـارِ وَالأَعْـوَانِ

الشرحُ

٤٦٨٦- هَـذَا وَمَـا التَّـالُونَ عُـمَّالًا بِـهِ إِذْ هُـمْ قَـدِ اسْتَغْنَوْا بِقَـوْلِ فُـلانِ

يعني: هؤلاء الذين يتلون الكتابَ ويصفونه بأنَّه مخلوقٌ لَيْتَهم اقتصروا على هذا، بل إنَّهم لا يعملون به، وإنَّما يعملون بقولِ فلانٍ وفلانٍ، فَجَنَوْا عليه جنايتَيْنِ:

الأولى: في أصلِه، والثَّانية: في تطبيقِه.

٤٦٨٧- إِنْ كَانَ قَدْ جَازَ الـحَنَاجِرَ مِنْهُمُ فَبِقَـدْرِ مَـا عَقَلُـوا مِـنَ القُـرْآنِ

يعني: إن كان القرآنُ قد جَاوَزَ حناجرَهم فإنَّما يجاوزُ حناجرَهم من القُرآنِ ما عقلوا منه فقط؛ لأنَّ الحكمَ يدورُ مع عِلَّتِه، أمَّا العمل فلا، فإنَّه لا يصحُّ، فهم يُشْبِهُون الخوارجَ من بعضِ الوجوهِ، بل تقدَّم في كلامِ ابنِ القيِّمِ -رحمه الله- أنَّهم أشدُّ من الخوارجِ؛ لأنَّ الخوارجَ إنَّما يُكفِّرون بالمعاصي، وأهلُ التَّعطيلِ يكفِّرون باتِّباعِ السُّنَّةِ، يقولون: إنَّ المثبتةَ كُلَّهم كُفَّارٌ، وتقدَّم أيضًا في هذا الفصلِ أنَّهم

يستحلُّون دماءَهم وقَتْلَهم، فيقول ابنُ القيِّم: الخوارجُ أهونُ منهم؛ لأنَّ الخوارجَ لا يكفِّرون إلَّا أهلَ المعاصي، وأنتم تكفِّرون أهلَ التَّوحيدِ والإيمانِ، وثانيًا: الخوارجُ إنَّما قد خرجوا على مَنْ عَصَى اللهَ، فهم خارجون على المعاصي نفسِها، يريدون أن تزولَ من الأرضِ، أمَّا أنتم فقد خرجتم على السُّنَّةِ، تريدون أن تمحوا السُّنَّةَ من الأرضِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٤٦٨٨- وَالبَاحِثُونَ فَقَدَّمُوا رَأْيَ الرِّجَا لِ عَلَيْهِ تَصْرِيحًا بِلا كِتْمَانِ

أهلُ البحثِ منهم صَرَّحُوا بأنَّ آراءَ الرِّجالِ مُقَدَّمةٌ على القرآنِ.

٤٦٨٩- عَزَلُوهُ إِذْ وَلَّوْا سِوَاهُ وَكَانَ ذَا كَ العَزْلُ قَائِدَهُمْ إِلَى الخِذْلانِ

عزلوا القرآنَ لـمَّا وَلَّوْا غيرَه، فما هو الذي وَلَّوْا؟ الجوابُ: وَلَّوْا آراءَ الرِّجالِ والعقولَ؛ لأنَّ أهلَ التَّعطيلِ يرجعون في إثباتِ الصِّفاتِ ونفيها إلى العقلِ، فيقولون: ما أَثْبَتَهُ العقلُ أثبَتْناه، وما لا فلا، ولو كان في الكتابِ والسُّنَّةِ، وما لم يقتضِ العقلُ إثباتَه ولا نفيَه فمنهم مَنْ تَوَقَّفَ فيه، وأكثرُهم نَفَوْهُ، فالذين توقَّفوا فيه قالوا: لأنَّه لا دليلَ هناك، والواجبُ الوقفُ، والذين نَفَوْهُ قالوا: لا بُدَّ من دليلِ إيجابٍ من العقلِ يُثْبِتُ هذا الشَّيءَ؛ إذَنْ ابنُ القيِّمِ وشيخُ الإسلامِ قبلَه ما كذبا عليهم، هذا هو الواقعُ، فهذه عقيدتُهُم، فالمسألةُ خطيرةٌ جدًّا.

٤٦٩٠- قَالُوا وَلَمْ يَحْصُلْ لَنَا مِنْهُ يَقِيـ ـنٌ فَهْوَ مَعْزُولٌ عَنِ الإِيقَانِ

يقولون: القرآنُ دلالتُه ظَنِّيَّةٌ ليست قطعيَّةً، والعقائدُ لا تَثْبُتُ بالظَّنِّ، ودلالةُ العقولِ التي يدَّعون أنَّها عقولٌ عندهم قطعيَّةٌ، والعجبُ أنَّهم يقولون: إنَّ دلالةَ العقولِ قطعيَّةٌ مع أنَّهم يختلفون فيها اختلافًا كثيرًا، فهل اليقينُ يمكنُنا فيه

الاختلافُ؟ الجوابُ: اليقينُ ليس فيه اختلافٌ، إذا قيل: هذه شمعةٌ فهي شمعةٌ، ولا اختلافَ في ذلك، فدلالةُ القرآنِ عندهم ظنيَّةٌ، ودلالةُ العقولِ التي هم فيها مضطربون اضطرابًا عظيمًا هي قطعيةٌ، سبحان الله! كذبٌ وافتراءٌ والعياذُ بالله ولكن: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥].

٤٦٩١- إِنَّ اليَقِيـنَ قَوَاطِـعٌ عَقْلِيَّـةٌ مِيزَانُهَـا هُـوَ مَنْطِـقُ اليُونَـانِ

قَوْلُهُ: «**إِنَّ اليَقِينَ قَوَاطِعٌ عَقْلِيَّةٌ**» هذا اليقينُ، فاليقينُ هو القواطعُ العقليَّةُ.

قَوْلُهُ: «**مِيزَانُهَا هُوَ مَنْطِقُ اليُونَانِ**» الميزانُ عندهم منطقُ اليونانِ الذي هو علمُ المنطقُ، يقولُ شيخُ الإسلامِ رحمه الله في كتابه: «**الرَّدُّ على المنطقيين**»: «**كُنْتُ أظنُّ دائمًا أنَّ المنطقَ اليونانيَّ لا ينتفعُ به البليدُ ولا يحتاجُ إليه الذَّكِيُّ**»(١)، إذَنْ لا فائدةَ منه، فالذَّكيُّ يستغني بذكائِه عنه، والبليدُ لو يردِّدُه آناءَ الليلِ والنَّهارِ ما استفاد منه، إذَنْ فهو مضيعةُ وقتٍ.

٤٦٩٢- هَـذَا دَلِيـلُ الرَّفْـعِ مِنْـهُ وَهَـذِهِ أَعْلامُـهُ فِي آخِـرِ الأَزْمَـانِ

يقولُ: إنَّ إعراضَ النَّاسِ عن القرآنِ من علاماتِ رفعِه في آخِرِ الزَّمانِ؛ لأنَّه في آخِرِ الزَّمانِ يُرْفَعُ هذا القرآنُ -نسأَلُ اللهَ ألَّا يدركَنا هذا الزَّمانُ- يُرْفَعُ من المصاحفِ ومن الصُّدورِ احترامًا له وتعظيمًا له؛ حيث يُعْرِضُ النَّاسُ عنه إعراضًا كُلِّيًّا، وهذا في عهدِ ابن القيِّمِ وهو في القرنِ الثَّامنِ، فكيف بعهدنا نحن الآنَ؟! فآياتُ رفعِ القرآنِ الآنَ كثيرةٌ جدًّا، وهذا كما أنَّه في آخِرِ الزَّمانِ يُسَلَّطُ على الكعبة رجلٌ من الحبشةِ، رجلٌ ليس فيه خيرٌ وهو ذو السُّوَيْقَتَيْنِ، أفحَجُ قصيرٌ يُسَلَّطُ عليها، فيقوم عليها

---

(١) انظر: الرد على المنطقيين (ص:٣).

ينقضُها حجرًا حجرًا حتَّى يُلقيها في البحرِ ولا يأتيه شيءٌ[1]، مع أنَّ الله حماها من أصحابِ الفيلِ مع قوَّتِهم، بلْ دُمِّرُوا عن آخرِهم، وحماها اللهُ منهم؛ لأنَّه سبحانه وتعالى يعلمُ أنَّه سيأتي الزَّمنُ الذي يُعَظَّمُ فيه هذا البيتُ، لكن في آخِرِ الزمانِ تُنْتَهَكُ الكعبةُ ويكونُ تعظيمُها تعظيمًا ظاهريًّا، أمَّا باطنًا فحدِّث ولا حرجَ، وآياتُ هدمِ الكعبةِ الآن قد تكونُ ظاهرةً، كُلَّما كثر الفسقُ والفجورُ في مكَّةَ فهذا من علاماتِ قُربِ هدمِها، نسألُ اللهَ السَّلامةَ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَغَارُ لبيتِهِ أنْ يكونَ عنده مَنْ لا يحترمُه ولا يعظِّمُه إلَّا بالظَّاهرِ، والظَّاهرُ ليس فيه فائدةٌ، فعمارةُ المسجدِ الحرامِ تكونُ بطاعةِ الله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التَّوبة:١٨].

فالحاصلُ أنَّ ابنَ القيِّمِ -رحمه الله- يقولُ: إنَّ علاماتِ رفعِ القرآنِ هو إعراضُ النَّاسِ عنه.

٤٦٩٣- يَا رَبِّ مَنْ أَهْلُوهُ حَقًّا كَيْ يَرَى أَقْدَامَهُمْ مِنَّا عَلَى الأَذْقَانِ

يسألُ اللهَ فيقول: مَنْ أهلُ القرآنِ حقًّا حتى يرى أقدامَهم منَّا على الأذقانِ؛ يعني: إذا كُنَّا أهلَه فستكونُ أقدامُنا على أذقانِهم، والأَذْقَانُ جمع «ذَقَن» وهي مَجْمَعُ اللَّحيةِ؛ أي: إنَّنا سنعلوا عليهم ونغلبُهم إذا كُنَّا أهلَه.

٤٦٩٤- أَهْلُوهُ مَنْ لا يَرْتَضِي مِنْهُ بَدِيـ ـلًا فَهْوَ كَافِيهِمْ بِلا نُقْصَانِ

هؤلاء أهلُ القرآنِ الذين لا يَرْضَوْنَ به بديلًا لا في الأمورِ العقديَّةِ ولا في

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة:٩٧]، رقم (١٥١٤)، ومسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، رقم (٢٩٠٩).

الأمور التعبدية ولا في الأمورِ العمليَّةِ، فالذين يُحكِّمونَ القوانينَ الوضعيَّةَ، قانون فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا أو غيرها، هؤلاء رضوا بديلًا عن القرآنِ، ما هو البديلُ؟ الجوابُ: هذه القوانينُ؛ لأنَّ القرآنَ كتابٌ هادٍ في العقيدةِ وفي السُّلوكِ وفي العبادةِ وفي المعاملاتِ، في كُلِّ شيءٍ، فَمَنْ خرج عنه ورَضِيَ عنه بديلًا فقد أخذ بحظٍّ وافرٍ بحسب إعراضِه عن القرآنِ.

٤٦٩٥- وَهُوَ الدَّلِيلُ لَـهُمْ وَهَادِيهِمْ إِلَى الْـ ... إِيـمَانِ وَالإِيقَـانِ وَالعِرْفَـان

اللَّهُمَّ اهدِنا به يا ربَّ العالمين.

٤٦٩٦- هُوَ مُوصِلٌ لَـهُمُ إِلَى دَرَكِ اليَقِيـ ... ـنِ حَقِيقَـةً وَقَوَاطِـعِ البُرْهَـانِ

ولذلك كُلَّما قَوِيَ إيمانُ الإنسانِ بالقرآنِ فَتَحَ اللهُ له من أدلَّتِه من اليقينِ ما لا يجدُه في أيِّ كتابٍ آخرَ؛ ولهذا أنا أحثُّكم ونفسي على الحِرصِ التَّامِّ على القرآنِ تلاوةً وتدبُّرًا وعملًا به، وجَرِّبْ نفسَك، ارجع للقرآنِ في هذه الأمورِ، وانظر ماذا يحصلُ لقلبِك من الإيمانِ وانشِراحِ الصَّدرِ ونورِ القلبِ ونورِ الوجهِ، هذا شيءٌ مُجَرَّبٌ، وبقدرِ إعراضِك عن هذا القرآنِ الكريمِ ستَتَخلَّفُ عنك هذه الثَّمرةُ العظيمةُ الجليلةُ.

٤٦٩٧- يَـا رَبِّ نَحْـنُ العَـاجِزُونَ بِحُـبِّهِمْ ... يَـا قِلَّـةَ الأَنْصَـارِ وَالأَعْـوَانِ

قَوْلُهُ: «يَا رَبِّ نَحْنُ العَاجِزُونَ بِحُبِّهِمْ»؛ يعني: إنَّنا عاجزون مع أنَّنا نحبُّك، فهي من باب إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه؛ يعني: نحن العاجزون مع محبَّتِنا لك، وليس الضَّميرُ في قولِهِ: «بِحُبِّهِمْ» يعودُ إلى أهل التَّعطيلِ، لا؛ إذ أنَّنا لا نحبُّ أهلَ التَّعطيلِ، لكن يقول: نحن العاجزون مع محبَّتِهم لك يا ربُّ.

فصل

فِي أَذَانِ أَهْلِ السُّنَّةِ الأَعْلَامِ بِصَرِيحِهَا جَهْرًا عَلَى رُؤُوسِ مَنَابِرِ الإِسْلَامِ

٤٦٩٨- يَا قَوْمُ قَدْ حَانَتْ صَلاةُ الفَجْرِ فَانْـ ـــتَبِهُوا فَـإِنِّي مُعْلِـنٌ بِـأَذَانِ

٤٦٩٩- لا بِالـمُلَحَّنِ وَالـمُبَدَّلِ ذَاكَ بَـلْ تَـأْذِينِ حَـقٍّ وَاضِـحِ التِّبْيَـانِ

٤٧٠٠- وَهُـوَ الَّـذِي حَقًّـا إِجَابَتُـه عَـلَى كُـلِّ امْـرِئٍ فَـرْضٌ عَـلَى الأَعْيَـانِ

٤٧٠١- اللهُ أَكْـبَرُ أَنْ يَكُـونَ كَلامُـهُ الْـ ـعَرَبِيُّ مَخْلُوقًـا مِـنَ الأَكْـوَانِ

٤٧٠٢- وَاللهُ أَكْـبَرُ أَنْ يَكُـونَ رَسُـولُهُ الْـ ـمَلَكِيُّ أَنْشَـأَهُ عَـنِ الـرَّحْمَنِ

٤٧٠٣- وَاللهُ أَكْـبَرُ أَنْ يَكُـونَ رَسُـولُهُ الْـ ـبَشَرِيُّ أَنْشَـأَهُ لَنَـا بِلِسَـانِ

٤٧٠٤- هَذِي مَقَـالاتٌ لَكُـمْ يَـا أُمَّـةَ التْـ ـتَشْبِيهِ مَـا أَنْـتُمْ عَـلَى إِيـمَانِ

٤٧٠٥- شَـبَّهْتُمُ الـرَّحْمَنَ بِالأَوْثَـانِ فِي عَـدَمِ الكَـلامِ وَذَاكَ لِلأَوْثَـانِ

٤٧٠٦- مِـمَّا يَـدُلُّ بِأَنَّهَـا لَيْسَـتْ بِـآ لِـهَةٍ وَذَا البُرْهَـانُ فِي الفُرْقَـانِ

٤٧٠٧- فِي سُـورَةِ الأَعْـرَافِ مَـعْ طَـهَ وَثَـا لِثِهَـا فَـلا تَعْـدِلْ عَـنِ القُـرْآنِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي أَذَانِ أَهْلِ السُّنَّةِ الأَعْلَامِ بِصَرِيحِهَا»؛ أي: بصريحِ السُّنَّةِ، «جَهْرًا عَلَى رُؤُوسِ مَنَابِرِ الإِسْلَامِ»، وهذا واجبٌ على أهلِ السُّنَّةِ أن يُعْلِنُوا السُّنَّةَ

صريحةً في كُلِّ مكانٍ ولا سيَّما في الأماكنِ التي تخفى فيها السُّنَّةُ.

٤٦٩٨- يَا قَوْمُ قَدْ حَانَتْ صَلاةُ الفَجْرِ فَانْـ ـتَبِهُوا فَإِنِّي مُعْلِنٌ بِأَذَانِ

وخَصَّ صلاةَ الفجرِ لِسَبَبَيْنِ:

السَّبب الأوَّل: أنَّها تأتي بعد النَّومِ.

السَّبب الثَّاني: أنَّ بها يلوحُ النَّهارُ ويتبيَّنُ الإسفارُ.

قَوْلُهُ: «مُعْلِنٌ بِأَذَانِ»؛ أي: موافقٍ للشَّريعةِ.

٤٦٩٩- لا بِالـمُلَحَّنِ وَالـمُبَدِّلِ ذَاكَ بَلْ تَأْذِينِ حَقٍّ وَاضِحِ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «لَا بِالْمُلَحَّنِ»؛ يعني: المُطَرَّب به، «وَلَا المُبَدَّلِ» المُغَيَّر، «بَلْ تَأْذِينَ حَقٍّ وَاضِحِ التِّبْيَانِ»، فهو معلنٌ بأذانٍ موافقٍ للشَّريعةِ.

٤٧٠٠- وَهُوَ الَّذِي حَقًّا إِجَابَتُهُ عَلَى كُلِّ امْرِئٍ فَرْضٌ عَلَى الأَعْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَهُوَ» الضَّميرُ يعودُ على هذا الأذانِ الذي يؤذِّنُ به المؤلِّفُ وهو الأذانُ بالسُّنَّةِ والإعلانُ بها، إجابتُه فرضٌ على كُلِّ امرئٍ، ثُمَّ بدأ بالأذان فقال:

٤٧٠١- اللهُ أَكْبَرُ أَنْ يَكُونَ كَلامُهُ الْـ ـعَرَبِيُّ مَخْلُوقًا مِنَ الأَكْوَانِ

كما قاله الجهميَّةُ والمعتزلةُ والأشاعرةُ والكُلَّابيَّةُ، فالجهميَّةُ والمعتزلةُ يقولون: إنَّ كلامَ الله مخلوقٌ كما خَلَقَ الشَّمسَ والقمرَ والثُّريَّا وغيرَها، وعلى هذا فهو مخلوقٌ على صورةٍ معيَّنةٍ، نقوشٌ ليس فيها أمرٌ ولا فيها نهيٌ.

انتَبِهوا لخطرِ هذا القولِ، فالكثيرُ من الطَّلبةِ لا يَدرون ماذا يترتَّبُ على هذا؟ يترتَّبُ عليه أنَّه إن كُتِبَ فهو نقشٌ منقوشٌ، علامةُ السُّكونِ دائرةٌ، وعلامةُ الضَّمَّةِ

دائرةٌ من على اليمينِ، وهلمَّ جرًّا، إن سُمِعَ فهو مجرَّدُ أصواتٍ مخلوقةٍ كما يُسْمَعُ الرَّعدُ، زمجرةٌ، إذَنْ لا يوجد أمرٌ ولا نهيٌ؛ فـ«أَقِمْ» مثل: «يستفتح» كُلُّها نقوشٌ فقط، هذا يترتَّبُ على القولِ بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ، فما كان مسموعًا فهو كأصواتِ الرَّعدِ، ليس له مَعانٍ، وما كان مكتوبًا فهو كالنُّقوشِ على الأبوابِ والجدران، تحذلق الأشعريَّةُ وأَتَوْا بالعجبِ العُجاب، قالوا: كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ لكنَّه المعنى القَائِمُ بنفسِه، وما سَمِعَه جبريلُ فهي أصواتٌ خَلَقَهَا اللهُ لتعبِّرَ عمَّا في نفسِه.

إذَنْ اتَّفق المعتزلةُ والأشعريَّة على أنَّ ما نقرؤه في هذا المصحفِ مخلوقٌ، لكن الأشعريَّةُ قالوا: هو عبارةٌ عن كلامِ الله، والمعتزلةُ قالوا: هو كلامُ الله، فصاروا أشجعَ من الأشعريَّةِ، قالوا: نقولُ: كلامُ الله ولا نبالي، أمَّا «**عبارةٌ عن كلامِ الله**» فهذا لا يستقيمُ؛ ولهذا قال بعضُ حُذَّاقِ الأشعريَّة: ليس بيننا وبين المعتزلةِ فرقٌ، فإنَّنا متَّفقون على أنَّ ما بين دفتي المصحفِ مخلوقٌ.

والحمدُ لله الذي عافانا ممَّا ابتلاهم به ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨]، الأشعريَّةُ يقولون: الأمرُ والنَّهيُ والخبرُ والاستخبارُ والنِّداءُ والزَّجْرُ كُلُّها معنى واحد، لا تختلفُ إِلَّا في الصُّورةِ، وهذا كلامٌ غيرُ معقولٍ، لكن هكذا مَنْ أضلَّه اللهُ -والعياذُ بالله- يقولُ أقوالًا لا يُصدِّقُها العقلُ فضلًا عن النَّقلِ والشَّرعِ.

٤٧٠٢- وَاللهُ أَكْبَرُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ الْـ ـــمَلَكِيُّ أَنْشَأَهُ عَنِ الرَّحْمَنِ

٤٧٠٣- وَاللهُ أَكْبَرُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ الْـ ـــبَشَرِيُّ أَنْشَأَهُ لَنَا بِلِسَانِ

هؤلاء يقولون: إنَّ الصَّوتَ صوتُ جبريلَ، واللهُ عزَّ وجلَّ ليس له صوتٌ، ويقولُ آخرون: بل هو صوتُ محمَّدٍ، والرَّسولُ المَلَكِيُّ هو جبريلُ عليه السَّلامُ،

وقد أضافه اللهُ إليه في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التَّكوير:١٩-٢٠]، وأمَّا الرَّسولُ البشريُّ فهو محمَّدٌ صلواتُ الله وسلامُه عليه، وقد أضافه اللهُ إليه في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ﴾ [الحاقة:٤٠-٤١]، فاللهُ أكبرُ أنْ يكونَ كلامُ الله هو كلام جبريلَ أو كلامُ الله هو كلام محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

٤٧٠٤- هَذِي مَقَالاتٌ لَكُمْ يَا أُمَّةَ التْـ ... ـتَشْبِيهِ مَا أَنْتُمْ عَلَى إِيمَانِ

قَوْلُهُ: «يَا أُمَّةَ التَّشْبِيهِ»؛ يعني: الذين فرُّوا -على زعمِهم- من التَّشبيهِ فعطَّلوا صفاتِ الله عزَّ وجلَّ.

٤٧٠٥- شَبَّهْتُمُ الرَّحْمَنَ بِالأَوْثَانِ فِي ... عَدَمِ الكَلامِ وَذَاكَ لِلأَوْثَانِ

قَوْلُهُ: «شَبَّهْتُمُ الرَّحْمَنَ بِالأَوْثَانِ فِي عَدَمِ الكَلَامِ» فقلتم: إنَّ اللهَ لا يتكلَّمُ.

قَوْلُهُ: «وَذَاكَ لِلأَوْثَانِ» الأوثانُ هي جماداتٌ لا تتكلَّمُ، أمَّا الرَّبُّ عزَّ وجلَّ فإنَّه مُريدٌ متكلِّمٌ.

٤٧٠٦- مِمَّا يَدُلُّ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ بِآ ... لِهَةٍ وَذَا البُرْهَانُ فِي الفُرْقَانِ

يعني: كونُها لا تتكلَّمُ دليلٌ على أنَّها ليست بآلهةٍ؛ لأنَّها لو كانت آلهةً لنطقت، وذاك في ثلاثةِ مواضعَ من القرآنِ، ذَكَرَهَا فقال:

٤٧٠٧- فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ مَعْ طَهَ وَثَا ... لِثِهَا فَلا تَعْدِلْ عَنِ القُرْآنِ

الموضع الأوَّل: في سورةِ «الأعرافِ» في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:١٤٨]، فاسْتَدَلَّ بعدمِ تكليمِه على عدمِ صلاحيَّتِه للألوهيَّةِ.

الموضع الثَّاني: في سورة «طه» في قولهِ تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٨-٨٩].

الموضع الثَّالث: في سورة «الأنبياء»، في قولهِ تعالى على لسانِ إبراهيمَ: قال إبراهيمُ: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٣]، فاستدلَّ بعدم نطقِهم على أنَّهم لا يصلحون أن يكونوا آلهةً، فهذه ثلاثةُ مواضعَ.

إذَنْ استدلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ على أنَّ الأصنامَ لا تصلحُ أن تكونَ آلهةً بعدمِ الكلامِ، وهم يقولون: إنَّ اللهَ لا ينطقُ ولا يمكنُ أن ينطقَ، بل كلامُه مخلوقٌ، فشبَّهوه بالأصنامِ.

***

٤٧٠٨- أَفَصَحَّ أَنَّ الجَاحِدِينَ لِكَوْنِهِ مُتَكَلِّمًا بِحَقِيقَةٍ وَبَيَانِ

٤٧٠٩- هُمْ أَهْلُ تَعْطِيلٍ وَتَشْبِيهٍ مَعًا بِالجَامِدَاتِ عَظِيمَةُ النُّقْصَانِ

٤٧١٠- لا تَقْذِفُوا بِالدَّاءِ مِنْكُمْ شِيعَةَ الرْ رَحْمَنِ أَهْلَ العِلْمِ وَالعِرْفَانِ

٤٧١١- إِنَّ الَّذِي نَزَلَ الأَمِينُ بِهِ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ الوَاضِحِ البُرْهَانِ

٤٧١٢- هُوَ قَوْلُ رَبِّي اللَّفْظُ وَالمَعْنَى جَمِيـ ـعًا إِذْ هُمَا أَخَوَانِ مُصْطَحِبَانِ

٤٧١٣- لا تَقْطَعُوا رَحِمًا تَوَلَّى وَصْلَهَا الرْ رَحْمَنُ تَنْسَلِخُوا مِنَ الإِيمَانِ

٤٧١٤- وَلَقَدْ شَفَانَا قَوْلُ شَاعِرِنَا الَّذِي قَالَ الصَّوَابَ وَجَاءَ بِالإِحْسَانِ

٤٧١٥- (إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي المَصَاحِفِ مُثْبَتٌ بِأَنَامِلِ الأَشْيَاخِ وَالشُّبَّانِ

٤٧١٦- هُــوَ قَــوْلُ رَبِّي آيُــهُ وَحُرُوفُــهُ   وَمِــدَادُنَا وَالــرِّقُّ مَخْلُوقَــانِ)

الشـرحُ

٤٧٠٨- أَفَصَـحَّ أَنَّ الــجَاحِدِينَ لِكَوْنِـهِ   مُتَــكَلِّمًا بِحَقِيقَـــةٍ وَبَيَــانِ

٤٧٠٩- هُـمْ أَهْـلُ تَعْطِيـلٍ وَتَشْـبِيهٍ مَعًـا   بِالــجَامِدَاتِ عَظِيمَـةُ النُّقْصَـانِ

قَوْلُهُ: «أَفَصَحَّ أَنَّ الجَاحِدِينَ...»؛ أي: أَفَصَحَّ أَنَّهم هم أهلُ التَّعطيلِ والتَّشبيهِ؟ وفي نسخةٍ: «أَفْصِحْ» وهذا غيرُ صحيحٍ.

قَوْلُهُ: «بِحَقِيقَةٍ وَبَيَانِ»: متعلِّقٌ بـ«صَحَّ»؛ يعني: صَحَّ على وجهِ الحقيقةِ والبيانِ أنَّهم أهلُ تعطيلٍ وتشبيهٍ، فهم في الحقيقةِ قالوا: لا نقولُ: يتكلَّمُ لئلَّا نشبِّهه بالحوادثِ، فنقول: أنتم الآن شبَّهتموه بالجماداتِ، بالأصنامِ، بالأوثانِ، وعطَّلتموه عن كمالِه بالكلامِ.

يقول رحمه اللهُ: أَفَصَحَّ بعد هذا البيانِ الواضحِ أنَّ هؤلاء المنكِرين للكلامِ هم أهلُ التَّعطيلِ والتَّشبيهِ؟ وجوابُ الاستفهامِ: نعم، صَحَّ أنَّهم هم أهلُ التَّعطيلِ وهم أهلُ التَّشبيهِ، شبَّهوه بماذا؟ الجوابُ: «بِالجَامِدَاتِ عَظِيمَةِ النُّقْصَانِ»، والجامداتُ هي التي لا تتكلَّم، فهم عطَّلوا اللهَ عن الكلامِ، وشَبَّهوا اللهَ بالجماداتِ، وجمعوا بين التَّعطيلِ والتَّشبيهِ.

٤٧١٠- لا تَقْذِفُوا بِالدَّاءِ مِنْكُمْ شِـيعَةَ الـرْ   رَحْمَــنِ أَهْــلَ العِلْــمِ وَالعِرْفَــانِ

هم الآن يقذفون أهلَ السُّنَّةِ بالتَّشبيهِ، يقولون: إنَّهم مُشَبِّهَةٌ، فيقول: لا تقذفوا أهلَ السُّنَّة بدائِكم، أنتم المشبِّهةُ؛ لأنَّكم شبَّهتموه بالجماداتِ.

٤٧١١- إِنَّ الَّــذِي نَــزَلَ الأَمِــينُ بِــهِ عَــلَى قَلْبِ الرَّسُـولِ الوَاضِـحِ البُرْهَـانِ

٤٧١٢- هُوَ قَوْلُ رَبِّي اللَّفْظُ وَالـمَعْنَى جَمِيـ ـعًا إِذْ هُمَـا أَخَـوَانِ مُصْـطَحِبَانِ

قَوْلُهُ: «إِنَّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الأَمِينُ...» والذي نَزَلَ به الأمينُ على قلبِ محمَّدٍ ﷺ هو القرآنُ.

قَوْلُهُ: «...هُوَ قَوْلُ رَبِّي اللَّفْظُ وَالمَعْنَى جَمِيعًا» أراد بذلك الرَّدَّ على الأشاعرةِ الذين قالوا: إنَّ القرآنَ هو المعنى، وأمَّا اللَّفظُ فليس كلامَ الله، وإنَّما هو عبارةٌ عن كلامِ الله عزَّ وجلَّ، فكلامُ الله هو المعنى، أمَّا نحن فنؤمنُ بأنَّ كلامَ الله هو اللَّفظُ والمعنى.

٤٧١٣- لا تَقْطَعُوا رَحِمًا تَوَلَّى وَصْلُهَا الـرْ رَحْمَــنُ تَنْسَـلِخُوا مِــنَ الإِيـمَانِ

الرَّحِمُ هو الارتباطُ بين اللَّفظِ والمعنى، أنتم فرَّقتم بينهما، فقلتم: اللَّفظُ لفظُ المَلَكِ أو لفظُ الرَّسولِ محمَّدٍ، والمعنى: قولُ الله، وهذا لا يصحُّ.

٤٧١٤- وَلَقَدْ شَـفَانَا قَـوْلُ شَـاعِرِنَا الَّـذِي قَالَ الصَّـوَابَ وَجَـاءَ بِالإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «شَفَانَا»؛ أي: أَزَالَ عِلَّتَنا وأبرأنا من المرضِ.

قَوْلُهُ: «قَوْلُ شَاعِرِنَا الَّذِي قَالَ الصَّوَابَ» وهو القحطانِيُّ[1] -رحمه اللهُ- في «النُّونيَّة القحطانيَّة»، وهي معروفةٌ مشهورةٌ، يقولُ رحمه اللهُ:

٤٧١٥- (إِنَّ الَّذِي هُوَ فِي المَصَاحِفِ مُثْبَتٌ بِأَنَامِــلِ الأَشْــيَاخِ وَالشُّــبَّانِ

---

(١) هو محمد بن صالح بن محمد بن سعد بن نزار بن عمرو بن ثعلبة أبو عبد الله القحطاني المعافري الأندلسي الفقيه المالكي، توفي سنة (٣٨٣هـ)، انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام للذهبي (٨/ ٥٤٨).

٤٧١٦- هُـوَ قَـوْلُ رَبِّي آيُـهُ وَحُرُوفُـهُ وَمِـدَادُنَا وَالـرِّقُّ مَخْلُوقَـانِ)[1]

وهذا التَّفصيلُ هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، فالذي في المصاحفِ مُثْبَتٌ بأناملِ الأشياخِ والشُّبَّانِ، وكانت المصاحفُ سابقًا تُكْتَبُ بأناملِ الأشياخِ الكبارِ والشُّبَّانِ الصِّغار.

وهنا إذا قال قائلٌ: هل القرآنُ المكتوبُ في هذا الكتابِ مخلوقٌ أو لا؟ نُفَصِّلُ فنقول: أمَّا المكتوبُ فليس بمخلوقٍ، وأمَّا المِدَادُ «الحبر» والرَّقُّ وهو ما يُكْتَبُ عليه من جلدٍ أو ورقٍ أو غيرِهما فهما مخلوقان، وكذلك اليدُ التي كَتَبَتْ مخلوقةٌ، كذلك مثلًا لو قرأ قارئ فقال: ما تقولُ في هذه القراءةِ: مخلوقةٌ أو غيرُ مخلوقةٍ؟ أقولُ: أمَّا المقروءُ فغيرُ مخلوقٍ، وأمَّا القارئُ وصوتُه وآلةُ الصَّوتِ من اللسانِ والشَّفَتَيْنِ فهذا مخلوقٌ، وبهذا التَّفصيلِ تزولُ به الشُّبهاتُ.

إذَنْ عندنا مكتوبٌ، ومقروءٌ، ومكتوبٌ به، ومكتوبٌ فيه، وقارئٌ، كُلُّ هذه يجبُ أن نُفرِّقَ بينها، المكتوبُ والمقروءُ غيرُ مخلوقٍ، فهو قولُ الله عزَّ وجلَّ، والمكتوبُ به -وهو القلمُ والمِدَادُ- مخلوقٌ، والمكتوبُ فيه -وهو الرَّقُّ والورقُ- مخلوقٌ، والكاتبُ والقارئُ مخلوقٌ، والصَّوتُ صوتُ القارئِ مخلوقٌ، واللَّفظُ لفظُ القارئِ مخلوقٌ، والملفوظُ به غيرُ مخلوقٍ، والمسموعُ غيرُ مخلوقٍ.

فإن قال قائلٌ: إنَّ الإمامَ أحمدَ -رحمه الله تعالى- يقولُ: «**مَنْ قال: لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ فهو جهمِيٌّ، ومَنْ قال: غيرُ مخلوقٍ فهو مبتدعٌ**»[2]، فأنكر القولَيْنِ جميعًا؟

---

(١) انظر: النونية (ص:٥٣).

(٢) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، لأبي الحسين الشافعي (٢/ ٥٧٠).

نقولُ: إنَّ الإمامَ أحمدَ -رحمه اللهُ- بَيَّنَ أنَّ قولَ مَنْ قَالَ: «**لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ**» يعني به القرآنَ، كما جاء في روايةٍ أخرى عنه، قال: «**مَنْ قال: لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ** -يعني به القرآنَ- **فهو جهميٌّ**»، هذا مذهبُ الجهميَّةِ، وأمَّا مَنْ قال: غيرُ مخلوقٍ فهو مبتدعٌ؛ لأنَّ السَّلَفَ لم يقولوا هكذا، وكان الإمامُ أحمدُ -رحمه اللهُ- حريصًا على ما جاء عن السَّلفِ لا يتعدَّاه ولا يتجاوزُه.

إذَنْ مَنْ قال: «**لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ**» نقولُ: أخطأ، ومَنْ قال: «**غيرُ مخلوقٍ**» أخطأ، بل يُفَصِّلُ، فإن أراد باللَّفظِ الملفوظَ به فهو غيرُ مخلوقٍ، وإن قال: مخلوقٌ فهو جهميٌّ، وإن أراد باللَّفظِ التَّلفُّظ الذي هو فعلُ اللَّافظِ فهو مخلوقٌ.

***

٤٧١٧- **وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ... لَكِنَّـهُ اسْـتَوْلَى عَـلَى الأَكْـوَانِ**

٤٧١٨- **وَاللهُ أَكْـبَرُ ذُو المَعَـارِجِ مَـنْ إِلَيْـ ... ـهِ تَعْـرُجُ الأَمْـلاكُ كُـلَّ أَوَانِ**

٤٧١٩- **وَاللهُ أَكْـبَرُ مَـنْ يَخَـافُ جَلالَـهُ ... أَمْلاكُـهُ مِـنْ فَـوْقِهِمْ بِبَيَـانِ**

٤٧٢٠- **وَاللهُ أَكْـبَرُ مَـنْ غَـدَا لِسَـرِيرِهِ ... أَطٌّ بِـهِ كَالرَّحْـلِ لِلرُّكْبَـانِ**

٤٧٢١- **وَاللهُ أَكْـبَرُ مَـنْ أَتَانَـا قَوْلُـهُ ... مِـنْ عِنْـدِهِ مِـنْ فَـوْقِ سِـتٍّ ثَـمَانِ**

٤٧٢٢- **نَـزَلَ الأَمِـينُ بِـهِ بِـأَمْرِ اللهِ مِـنْ ... رَبٍّ عَلَى العَـرْشِ اسْتِوَا الـرَّحْمَنِ**

٤٧٢٣- **وَاللهُ أَكْـبَرُ قَـاهِرٌ فَـوْقَ العِبَـا ... دِ فَـلا تَضَـعْ فَوْقِيَّـةَ الـرَّحْمَنِ**

٤٧٢٤- **مِـنْ كُـلِّ وَجْـهٍ تِلْـكَ ثَابِتَـةٌ لَـهُ ... لا تَهْضِـمُوهَا يَـا أُولِي البُهْتَـانِ**

٤٧٢٥- **قَهْرًا وَقَدْرًا وَاسْـتِوَاءَ الـذَّاتِ فَـوْ ... قَ العَـرْشِ بِالبُرْهَـانِ وَالقُـرْآنِ**

٤٧٢٦- فَبِذَاتِـهِ خَلَـقَ السَّمَاوَاتِ العُـلَى ثُـمَّ اسْـتَوَى بِالـذَّاتِ فَـافْهَمْ ذَانِ

٤٧٢٧- فَضَمِيرُ فِعْلِ الإِسْتِوَاءِ يَعُـودُ لِلـذْ ـذَاتِ الَّتِـي ذُكِـرَتْ بِـلا فُرْقَـانِ

٤٧٢٨- هُـوَ رَبُّنَـا هُـوَ خَـالِقٌ هُـوَ مُسْـتَوٍ بِالـذَّاتِ هَـذِي كُلُّهـا بِـوِزَانِ

الشـرحُ

٤٧١٧- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى لَكِنَّـهُ اسْـتَوْلَى عَـلَى الأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ أَكْبَرُ» هذا من الأذانِ الذي أَعْلاهُ.

يُقَالُ: «استولى على كُلِّ الأكوانِ»، و«استوى على العرشِ خاصَّةً»، ثُمَّ نقولُ أيضًا: «استولى على الأكوانِ أزلًا وأبدًا» وليس بعد أنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، إذَنْ هو استوى على العرشِ خاصَّةً، واستولى على الأكوانِ كُلِّها، فكُلُّ مَنْ سوى الله فاللهُ تعالى مُستَوْلٍ عليه مالكٌ له، قاهرٌ له، مُدبِّرٌ له كيف يشاءُ، فهؤلاء القومُ الذين فسَّروا «استوى» بـ«استولى» لم يُفَرِّقوا بين العرشِ والفَرْشِ، فأسفلُ الدُّنيا وأعلى الكونِ عندهم على حدٍّ سواء، كُلُّه استولى عليه اللهُ، فضلُّوا وأضلُّوا.

٤٧١٨- وَاللهُ أَكْـبَرُ ذُو المَعَـارِجِ مَـنْ إِلَيْـ ـهِ تَعْـرُجُ الأَمْـلاكُ كُـلَّ أَوَانِ

وذلك كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ [المعارج:١- ٣]، وقولُه: ﴿ذِي﴾: صفةٌ لله، ثُمَّ بيَّن كونه ذا المعارجِ فقال: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج:٤].

٤٧١٩- وَاللهُ أَكْـبَرُ مَـنْ يَخَـافُ جَلالَـهُ أَمْلاكُـهُ مِـنْ فَـوْقِهِمْ بِبَيَـانِ

كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النَّحل:٥٠]، وهذا فيه إثباتُ العلوِّ.

٤٧٢٠- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ غَدَا لِسَرِيرِهِ أَطٌّ بِهِ كَالرَّحْلِ لِلرُّكْبَانِ

قَوْلُهُ: «سَرِيرِهِ»؛ أي: عرشِه، فإنَّه قد جاء في الحديثِ أنَّ له أَطِيطًا كَأَطِيطِ الرَّحْلِ(١)، والأَطِيطُ هو ما يُسْمَعُ من صريرِ الرَّحلِ إذا كان عليه حملٌ، فالبعيرُ إذا كان عليه حملٌ ثقيلٌ تجد أنَّ رحلَه يكونُ له صريرٌ، والرَّحلُ هو الذي يكونُ على ظهرِ البعيرِ، يُرْكَبُ عليه ويُشَدُّ عليه المتاعُ، فتسمع له أطيطًا، ونحن نؤمنُ بهذا، ولكنَّنا لا نُشَبِّه.

٤٧٢١- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ أَتَانَا قَوْلُهُ مِنْ عِنْدِهِ مِنْ فَوْقِ سِتِّ ثَمَانِ

قَوْلُهُ: «مَنْ أَتَانَا قَوْلُهُ»؛ يعني: القرآنَ.

قَوْلُهُ: «مِنْ عِنْدِهِ مِنْ فَوْقِ سِتِّ ثَمَانِ» كيف قال: «سِتِّ ثَمَانِ» مع أنَّ السَّماواتِ سبعٌ وليست سِتًّا؟ الجوابُ: قال: «ثَمَانِ» باعتبار أنَّ العرشَ هو الثَّامنُ، أمَّا قولُه: «سِتِّ» فهذا إذا أراد أن يُسْقِطَ السَّماءَ الدُّنيا(٢)، واللهُ أعلمُ.

٤٧٢٢- نَزَلَ الأَمِينُ بِهِ بِأَمْرِ اللهِ مِنْ رَبٍّ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَا الرَّحْمَنِ

الأمينُ هو جبريلُ، وَصَفَهُ اللهُ بأنَّه أمينٌ وبأنَّه قويٌّ فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التَّكوير:١٩-٢٠]، وقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشُّعراء:١٩٣]، وبالقوَّةِ والأمانةِ يحصلُ الكمالُ، قال -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

٤٧٢٣- وَاللهُ أَكْبَرُ قَاهِرٌ فَوْقَ العِبَا دِ فَلا تَضَعْ فَوْقِيَّةَ الرَّحْمَنِ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم»، رقم (٢٣١٢).

(٢) انظر: شرح البيتين (٤١٢، ٥٢٣) من المجلد الأوَّل.

٤٧٢٤- مِـنْ كُـلِّ وَجْـهٍ تِلْـكَ ثَابِتَـةٌ لَـهُ   لا تَهْضِـمُوهَا يَـا أُولِي البُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «يَا أُولِي البُهْتَانِ»، وفي نسخةٍ: «يَا أُولِي العُدْوَانِ».

قَوْلُهُ: «فَلَا تُضِعْ» يجوزُ أن تكونَ «فَلَا تَضَعْ»، فيصحُّ هذا وهذا.

قَوْلُهُ: «مِنْ كُلِّ وَجْهٍ تِلْكَ ثَابِتَةٌ لَهُ»؛ يعني: العلوَّ والفوقيَّةَ؛ لأنَّ هؤلاء هضموا الفوقيَّةَ، وقالوا: إنَّها ليست فوقيَّةَ الذَّاتِ وإنَّما هي فوقيَّةُ الصِّفةِ.

٤٧٢٥- قَهْرًا وَقَدْرًا وَاسْتِوَاءَ الـذَّاتِ فَـوْ   قَ العَـرْشِ بِالبُرْهَـانِ وَالقُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «قَهْرًا وَقَدْرًا وَاسْتِوَاءَ الذَّاتِ»؛ يعني أَنَّ علوَّ الله علوُّ قهرٍ وعلوُّ قدرٍ وعلوُّ ذاتٍ؛ ولهذا قال: «وَاسْتِوَاءَ الذَّاتِ» هذا علوُّ الذَّاتِ فوقِ العرشِ بالبرهانِ والقرآنِ.

فاللهُ تعالى ثَبَتَتْ له الفوقيَّةُ بجميع المعاني، فوقيَّةُ الذَّاتِ بمعنى أنَّه فوق كُلِّ شيءٍ، وفوقيَّةُ القدرِ بمعنى أنَّه أشرفُ من كُلِّ شيءٍ، وفوقيَّةُ القهرِ بمعنى أنَّه غالبٌ كُلَّ شيءٍ.

٤٧٢٦- فَبِذَاتِـهِ خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ العُـلَى   ثُـمَّ اسْتَوَى بِالـذَّاتِ فَـافْهَمْ ذَانِ

هذا إشارةٌ إلى قاعدةٍ مفيدةٍ وهي: كُلُّ ما أضافه اللهُ لنفسِه فالمرادُ لذاتِه، فهنا قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، فهو تعالى خَلَقَ بذاتِه، واستوى بذاتِه، كُلُّ الأفعالِ تعودُ على الذَّاتِ، فإذا كانت تعودُ على الذَّاتِ فلماذا نُفَرِّقُ ونقولُ: إنَّه لم يستوِ بذاتِه بل علا بقدرِه؛ ونقولُ: خَلَقَ بِذَاتِهِ؟!

قَوْلُهُ: «فَافْهَمْ ذانِ» بناءً على مَنْ يُلْزِمُ المثنَّى الألفَ ولو كان منصوبًا أو مجرورًا.

٤٧٢٧- فَضَمِيرُ فِعْلِ الإِسْتِوَاءِ يَعُودُ لِلذْ ... ذَاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ بِلا فُرْقَانِ

قَوْلُهُ: «فَضَمِيرُ فِعْلِ الاسْتِوَاءِ يَعُودُ لِلذَّاتِ الَّتِي ذُكِرَتْ» ضميرُ فعلِ الاستواءِ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] يعودُ للذَّاتِ التي ذُكِرَت بلا فرقانٍ، لكن أين الذَّاتُ التي ذُكِرَتْ؟ الجوابُ: قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [الأعراف:٥٤] هو نفسُه الرَّبُّ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ أي: الرَّبُّ الذي خَلَقَ.

قَوْلُهُ: «بِلَا فُرْقَانٍ»؛ أي: بلا فرقانٍ بين الخلقِ والاستواءِ، فكما أنَّ كُلَّ واحدٍ من النَّاسِ يقولُ: خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ بذاتِه، هو الذي خلقها، لا أخذها، واستوى على العرشِ أيضًا بذاتِه.

فالقاعدةُ أنَّ كُلَّ شيءٍ أضافه اللهُ إلى نفسِه فهو لنفسِه حقيقةً، لكن لا تتوهَّم منه معنى باطلًا، فإنْ خفت إن حدَّثْتَ به أن يتوهَّمَ المخاطَبُ وهمًا باطلًا فدعه، فلا تشوِّش على غيرِك، وهذه القاعدةُ ذكرها ابنُ القيِّم -رحمه اللهُ- في «مختصر الصَّواعق المُرْسَلَة»، وَأَكْثَرَ من الأمثلةِ الدَّالَّةِ على أنَّ الشَّيءَ إذا أُضِيفَ إلى الله فهو له حقيقة بذاتِه.

٤٧٢٨- هُوَ رَبُّنَا هُوَ خَالِقٌ هُوَ مُسْتَوٍ ... بِالذَّاتِ هَذِي كُلُّهَا بِوِزَانِ

هو ربُّنا ذاتُه، وهو الخالقُ ذاتُه، وهو المستوي ذاتُه، كُلُّها بِوِزَانٍ، فكُلُّ الضَّمائرِ الثَّلاثةِ تعودُ إلى الله عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

* * *

٤٧٢٩- وَاللهُ أَكْبَرُ ذُو العُلُوِّ المُطْلَقِ الْـ ـمَعْلُوم بِالفِطْرَاتِ لِلإِنْسَانِ

٤٧٣٠- فَعُلُوُّهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ثَابِتٌ فَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ ذُو السُّلْطَانِ

٤٧٣١- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ رَقَا فَوْقَ الطِّبَا قِ رَسُولُهُ فَدَنَا مِنَ الدَّيَّانِ

٤٧٣٢- وَإِلَيْهِ قَدْ صَعَدَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً لا تُنْكِرُوا المِعْرَاجَ بِالبُهْتَانِ

٤٧٣٣- وَدَنَا مِنَ الجَبَّارِ جَلَّ جَلالُهُ وَدَنَا إِلَيْهِ الرَّبُّ ذُو الإِحْسَانِ

٤٧٣٤- وَاللهُ قَدْ أَحْصَى الَّذِي قَدْ قُلْتُمُ فِي ذَلِكَ المِعْرَاجِ بِالمِيزَانِ

٤٧٣٥- قُلْتُمْ خَيَالًا أَوْ أَكَاذِيبًا أَوْ الْـ ـمِعْرَاجُ لَمْ يَحْصُلْ إِلَى الرَّحْمَنِ

٤٧٣٦- إِذْ كَانَ مَا فَوْقَ السَّمَاوَاتِ العُلَى رَبٌّ إِلَيْهِ مُنْتَهَى الإِنْسَانِ

٤٧٣٧- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ أَشَارَ رَسُولُهُ حَقًّا إِلَيْهِ بِإِصْبَعٍ وَبَنَانِ

٤٧٣٨- فِي مَجْمَعِ الحَجِّ العَظِيمِ بِمَوْقِفٍ دُونَ المُعَرَّفِ مَوْقِفِ الغُفْرَانِ

٤٧٣٩- مَنْ قَالَ مِنْكُمْ مَنْ أَشَارَ بِإِصْبَعٍ قُطِعَتْ فَعِنْدَ اللهِ يَجْتَمِعَانِ

الشرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- في أذانِه وإعلانِه للسُّنَّةِ:

٤٧٢٩- وَاللهُ أَكْبَرُ ذُو العُلُوِّ المُطْلَقِ الْـ ـمَعْلُوم بِالفِطْرَاتِ لِلإِنْسَانِ

٤٧٣٠- فَعُلُوُّهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ثَابِتٌ فَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ ذُو السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «بِالفِطْرَاتِ لِلإِنْسَانِ»، وفي نسخةٍ: «بِالفِطْرَاتِ وَالإِيمَانِ».

قَوْلُهُ: «ذُو العُلُوِّ المُطْلَقِ»؛ أي: الكاملِ من كُلِّ وجهٍ، فله علوُّ الذَّاتِ، وعلوُّ الصِّفةِ، وعلوُّ القدرِ والقهرِ.

٤٧٣١- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ رَقَا فَوْقَ الطِّبَا ... قِ رَسُولُهُ فَدَنَا مِنَ الدَّيَّانِ

٤٧٣٢- وَإِلَيْهِ قَدْ صَعَدَ الرَّسُولُ حَقِيقَةً ... لا تُنْكِرُوا المِعْرَاجَ بِالبُهْتَانِ

٤٧٣٣- وَدَنَا مِنَ الجَبَّارِ جَلَّ جَلالُهُ ... وَدَنَا إِلَيْهِ الرَّبُّ ذُو الإِحْسَانِ

هذا فيه دليلٌ على علوِّ الله أيضًا، فرسولُنا -صلواتُ الله وسلامُه عليه- أُسْرِيَ به إلى بيتِ المقدسِ، قال اللهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، وعُرِجَ به إلى السَّماواتِ العُلَى؛ لأنَّ المعراجَ هو ما يُعْرَجُ به، ودنا من الله عزَّ وجلَّ وخاطبه ، قال الله تعالى في سورة «النَّجمِ»: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النَّجم:٥-٦]؛ أي: هيئةٍ حسنةٍ، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النَّجم:٦]؛ أي: علا، ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النَّجم:٧-٨]؛ يعني: جبريلَ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النَّجم:٩]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ [النَّجم:١٠]؛ أي: جبريل ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [النَّجم:١٠]؛ أي: عبدِ الله ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾.

إِذَنْ الصواب في الآيةِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ يعودُ إلى جبريلَ؛ لأنَّ اللهَ لا يتدلَّى، بل جبريلُ كان بالأفقِ الأعلى ثُمَّ دنا من الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في وقتِ الوحي حتَّى كان قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى، فأوحى إلى عبدِ الله ما أوحى، لكن لا شكَّ أنَّ الرَّسولَ قَرُبَ من الله؛ لأنَّه صعد إلى ما فوق السَّماواتِ السَّبعِ ووصل إلى مكانٍ سَمِعَ فيه صريفَ أقلامِ القضاءِ تكتب، وهذا المكانُ لم يصل إليه أحدٌ من البشرِ فيما نعلمُ.

هذه كُلُّها آياتُ المعراجِ، وليس هذا موضعَ قصدِها وإلَّا ففيها عِبَرٌ، يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النَّجم:١٧]، ويقولُ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النَّجم:١١].

سبحان الله! الإنسانُ لو يرى أدنى أدنى أدنى شيءٍ من هذه الآياتِ زَاغَ بصرُه، وقام يلتفتُ يمينًا وشمالًا: ما هذا؟ لكنَّ محمَّدًا ﷺ ما زَاغَ بصرُه وما طَغَى، ما تجاوز لكمالِ أدبِه وحسنِ خُلقِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وثباتِ جَأْشِه، كذلك الفؤاد ما قال: هذه خيالاتٌ، هذه أوهامٌ، هذه أحلامٌ، أبدًا، ما كذب ما رأى، بل ما رآه فهو حقيقةٌ اطمَأنَّ إليه القلبُ وبصر به وعرف به، هؤلاء يُنكرون المعراجَ يقولون: اللهُ عزَّ وجلَّ ليس في السَّماءِ، أين المعراجُ؟ لا شيءَ، ولهذا يقولُ إليهم: **«لَا تُنْكِرُوا المِعْرَاجَ بِالبُهْتَانِ»**.

٤٧٣٤- وَاللهُ قَدْ أَحْصَى الَّذِي قَدْ قُلْتُمُ ... فِي ذَلِكَ المِعْرَاجِ بِالمِيزَانِ

يشيرُ إلى أنَّ هؤلاءِ القومَ أنكروا عروجَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إلى الله؛ لأنَّهم يُنكرون علوَّ الله، فإذا أنكروا علوَّ الله لَزِمَ من ذلك إنكارُ مَنْ يعلو إلى الله، أو إنكارُ علوِّ مَنْ يعلو إلى الله.

٤٧٣٥- قُلْتُمْ خَيَالًا أَوْ أَكَاذِيبًا أَوْ الْـ ... مِعْرَاجُ لَمْ يَحْصُلْ إِلَى الرَّحْمَنِ

هذه ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوَّل: **«قُلْتُمْ خَيَالًا»**، ومن ذلك قَوْلُ مَنْ قال: **«إنَّ الرَّسولَ لم يُعْرَجْ به حقيقةً، وإنَّما رأى في المنام»**.

الثَّاني: **«قُلْتُمْ أَكَاذِيبًا»** وذلك؛ لأنَّ من قاعدتِهم أنَّ العقيدةَ لا تثبتُ بأخبارِ الآحادِ مع أنَّ المعراجَ متواترٌ والقرآنَ قد دَلَّ عليه في سورة «النَّجمِ».

الثَّالث: قلتم: إنَّ الرَّسولَ لم يعرجْ إلى الرَّحمنِ، وإنَّما عَرَجَ إلى السَّماواتِ، وأمَّا الرَّحمن فليس فوق السَّماواتِ، فالعروجُ ليس إلى الله، بل عروجٌ إلى ما فوق السَّماواتِ، لكن ليس إلى الله.

فهذه ثلاثةُ أقوالٍ قالوها من أجلِ إنكارِ علوِّ الله عزَّ وجلَّ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٤٧٣٦- إِذْ كَانَ مَا فَوْقَ السَّمَاوَاتِ العُلَى رَبٌّ إِلَيْهِ مُنْتَهَى الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «إِذْ كَانَ»؛ يعني: إذ كان الأمرُ.

وإذا لم يكن فوق السَّماواتِ رَبٌّ فعروجُ الرَّسولِ إلى غيرِ الله، ويكونُ قد طلع يتفرَّجُ على السَّماواتِ وعلى ما فيها، ثُمَّ رجع.

٤٧٣٧- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ أَشَارَ رَسُولُهُ حَقًّا إِلَيْهِ بِإِصْبَعٍ وَبَنَانِ

هذا أيضًا من الأدلَّةِ أنَّ الرَّسولَ ﷺ أشار إلى الله بالإِصْبَعِ والبَنَانِ(١).

قَوْلُهُ: «إِصْبَع» يقولون: فيها عشرُ لغاتٍ، و«أَنْمُلَة» فيها تسعُ لغاتٍ، وضُبِطَت هذه اللُّغاتُ في بيتٍ واحدٍ، يعني: تسعَ عشرةَ لغةً في بيتٍ واحدٍ، قال فيه النَّاظمُ:

وَهَمْزَ أَنْمُلَةٍ ثَلِّثْ وَثَالِثَهُ التِّـ ـسْعُ فِي إِصْبَعٍ وَاخْتِمْ بِأُصْبُوعِ(٢)

---

(١) كما في حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحج، وفيه: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ». أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٢) البيت في تاج العروس، مادة: نمل، وعزاه للعز القسطلاني.

وعندنا في لغة السَّيَّاراتِ «إصباع» للبطاريَّة، لكن الظَّاهر أنَّها ليست لغةً، فهذه عشرُ لغاتٍ في إِصْبَع، وتسعُ لغاتٍ في أَنْمُلَةٍ.

قَوْلُهُ: «هَمْزَ أَنْمُلَةٍ ثَلِّثْ»؛ أي: بالحركاتِ الثَّلاث؛ الفتحِ والكسرِ والضمِّ، الثَّالث من «أَنْمُلَة» وهي الميمُ أيضًا فيها حركاتٌ ثلاثٌ، وثلاثةٌ في ثلاثةٍ بتسعٍ، «وَاخْتِمْ بِأُصْبُوعٍ» تكونُ عشرةً، تقولُ: إِصْبَع إِصْبِع أُصْبُع، وهكذا، فلا يغلطُ الإنسانُ في أيِّ وجهٍ يقرؤها به.

٤٧٣٨- فِي مَجْمَعِ الحَجِّ العَظِيمِ بِمَوْقِفٍ دُونَ المُعَرَّفِ مَوْقِفِ الغُفْرَانِ

وهذا لـمَّا نزل الرَّسولُ ﷺ وادي عُرَنَةَ، خطب النَّاسَ في وادي عُرَنَة، ووادي عُرَنَةَ ليس هو المُعَرَّف، المُعَرَّفُ هو عرفةُ لكنَّه قريبٌ منه؛ ولهذا قال: «بِمَوْقِفٍ دُونَ المُعَرَّفِ»، وقوله: «مَوْقِفِ الغُفْرَانِ» هذا نعتٌ لـ«المُعَرَّفِ» لا للموقفِ الذي خطب فيه الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم.

المهمُّ أنَّه نزل هناك وخطب في النَّاسِ خطبةً عظيمةً بليغةً قبل الصَّلاةِ، وقال للنَّاسِ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»، يَرْفَعُ إِصْبَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا لِلنَّاسِ(١)، «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»؛ يعني: عليهم، قالها -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ثلاثَ مرَّاتٍ.

٤٧٣٩- مَنْ قَالَ مِنْكُمْ مَنْ أَشَارَ بِإِصْبَعٍ قُطِعَتْ فَعِنْدَ اللهِ يَجْتَمِعَانِ

هؤلاء المنكرون للعلوِّ يقولون: مَنْ رفَع إصبعَه إلى السَّماءِ مشيرًا إلى علوِّ الله وَجَبَ قطعُها، وعلى هذا فيجبُ قطعُ إصبعِ النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلَامُ؛ لأنَّه

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

رَفعَهَا مشيرًا إلى علوِّ الله؛ ولهذا أنا أرى شخصيًّا أنَّ الذي يُنكِرُ علوَّ الله كافرٌ؛ لأنَّه مكذِّبٌ للقرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلفِ والعقلِ والفطرةِ تكذيبًا صريحًا، فإنْ لم يَكْفُرْ هذا فَمنِ الذي يَكْفُرُ؟! سبحان الله! أدلَّةٌ عظيمةٌ كُلُّها قاطعةٌ أشدُّ من الشَّمسِ ظهورًا، ثُمَّ تُنْكَرُ، نعم؛ إذا كان الإنسانُ جاهلًا تابعًا لأئمَّةِ الضَّلالِ ولا يدري عن الحقِّ فهذا يُعْذَرُ كما دَلَّتْ على ذلك آياتٌ كثيرةٌ وأحاديثُ، لكن إذا تَبيَّنَ الحقُّ فلا عذرَ لأحدٍ، يقولُ ابنُ القيِّم: «**فَعِنْدَ الله يَجْتَمِعَانِ**»؛ أي: يوم القيامة يختصمان إلى الله، فمحمَّدٌ رسولُ الله الذي أشار إلى السَّماءِ، ومَنْ قال: «**مَنْ رَفَعَ إصبعَه إلى السَّماءِ قُطِعَت إصبعُه**» يجتمعان، وما ظنُّكَ بأحدٍ يكونُ خصمَه محمَّدٌ ﷺ؛ إنَّه لمهزومٌ وإنَّه لمخصومٌ.

انتَبِهوا للخلافِ بيننا وبين أهلِ البدعِ، فلا يكونُ في الدُّنيا فقط، بل في يوم القيامة نخاصِمُهم، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزُّمر:٣٠-٣١]، وقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:٣]؛ أي: نحاكمُهم، ومن المعلومِ أنَّ اللهَ لن يجعلَ لأهلِ الباطلِ سبيلًا على أهلِ الحقِّ كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء:١٤١]، كذلك أيضًا غيرُ الكافرين ممَّن هم على باطلٍ لن يجعلَ اللهُ لهم حقًّا على أهلِ الحقِّ.

***

٤٧٤٠- وَاللهُ أَكْبَرُ ظَاهِرٌ مَا فَوْقَهُ ... شَيْءٌ وَشَأْنُ الله أَعْظَمُ شَانِ

٤٧٤١- وَاللهُ أَكْبَرُ عَرْشُهُ وَسِعَ السَّمَا ... وَالأَرْضَ وَالكُرْسِيَّ ذَا الأَرْكَانِ

٤٧٤٢- وَكَذَلِكَ الكُرْسِيُّ قَدْ وَسِعَ الطِّبَا ... قَ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ بِالبُرْهَانِ

٤٧٤٣- وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ وَالكُرْسِيِّ لَا ... يَخْفَى عَلَيْهِ خَوَاطِرُ الإِنْسَانِ

٤٧٤٤- لَا تَحْصُرُوهُ فِي مَكَانٍ إِذْ تَقُو ... لُوا رَبُّنَا حَقًّا بِكُلِّ مَكَانِ

٤٧٤٥- نَزَّهْتُمُوهُ بِجَهْلِكُمْ عَنْ عَرْشِهِ ... وَحَصَرْتُمُوهُ فِي مَكَانٍ ثَانِ

٤٧٤٦- لا تُعْدِمُوهُ بِقَوْلِكُمْ لا دَاخِلٌ ... فِينَا وَلا هُوَ خَارِجُ الأَكْوَانِ

٤٧٤٧- اللهُ أَكْبَرُ هُتِّكَتْ أَسْتَارُكُمْ ... وَبَدَتْ لِمَنْ كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ

٤٧٤٨- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهٍ وَعَنْ ... مِثْلٍ وَعَنْ تَعْطِيلِ ذِي كُفْرَانِ

٤٧٤٩- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ لَهُ الأَسْمَاءُ وَالْـ ... أَوْصَافُ كَامِلَةٌ بِلا نُقْصَانِ

الشرحُ

٤٧٤٠- وَاللهُ أَكْبَرُ ظَاهِرٌ مَا فَوْقَهُ ... شَيْءٌ وَشَأْنُ الله أَعْظَمُ شَانِ

وهذا تفسيرُ أعلمِ الخلقِ بكتابِ الله، قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»[(١)]، والظَّاهِرُ؛ أي: العالي، فإذا كان هذا تفسيرَ محمَّدٍ ﷺ فكيف يُنْكَرُ؟! ولكنْ قال الكافرون للرَّسولِ ﷺ: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٤-٥]، فوصفوا الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالسِّحرِ والكذبِ، ووصفوا التَّوحيدَ بالشَّيءِ العُجَابِ، والعُجَابُ أبلغُ من العَجبِ، وأبلغُ من العجيب، فهم قالوا: كيف يجعلُ الآلهةَ إلـهًا واحدًا؟!

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٣).

٤٧٤١- وَاللهُ أَكْـبَرُ عَرْشُـهُ وَسِـعَ السَّـمَا وَالأَرْضَ وَالكُـرْسِيَّ ذَا الأَرْكَـانِ

إِذَنْ فهو أكبرُ من السَّماءِ والأرضِ والكرسيِّ.

٤٧٤٢- وَكَذَلِكَ الكُرْسِيُّ قَدْ وَسِـعَ الطِّبَا قَ السَّـبْعَ وَالأَرَضِـينَ بِالبُرْهَـانِ

البرهانُ هو قولُه تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، إِذَنْ عندنا ثلاثةُ أشياءَ: السَّماوات والأرض وسعها الكرسيُّ، والكرسيُّ وَسِعَهُ العرشُ، إِذَنْ العرشُ أكبرُ الثَّلاثةِ، ولا يقدرُ قدرَه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ.

والمؤلِّفُ -رحمه اللهُ- ذكر ما دَلَّتْ عليه الآثارُ؛ إذ إنَّ العرشَ أكبرُ من الكرسيِّ، والكرسيُّ أكبرُ من السَّماواتِ والأرضِ، أمَّا كونُ الكرسيِّ أكبرَ من السَّماواتِ والأرضِ فهذا في القرآنِ الكريمِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وأمَّا كونُ العرشِ أوسعَ من الكرسيِّ فهذا قد جاءت به الآثارُ، فـ«**السَّماواتُ والأرضون**» كحلقةِ الدِّرعِ، فهي يسيرةٌ مثل الأنملةِ بل أقلُّ، نسبةُ هذه الحلْقةِ إلى فَلاةٍ من الأرضِ ليس بشيءٍ، «**وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى الحَلْقَة**»(١)، سبحان الله! مخلوقاتٌ عظيمةٌ، هذا وهو مخلوقٌ، فكيف بالخالقِ؟!

الآن لا يمكنُ أنْ يتصوَّرَ الإنسانُ عظمَ الكرسيِّ ولا عظمَ العرشِ، فكيف بالخالقِ جلَّ وعلا؟! واللهُ تعالى فوق ذلك كُلِّه ليس محصورًا بمكانٍ، هو فوق كُلِّ شيءٍ، فما فوق المخلوقاتِ عدمٌ فضاءٌ، لا يُوجَدُ شيءٌ، ليس ثَمَّ إلَّا اللهُ عزَّ جلَّ، فلا يحيطُ به شيءٌ من مخلوقاتِه، ولا هو حالٌّ في شيءٍ من مخلوقاتِه.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢/ ٧٧، رقم ٣٦١).

٤٧٤٣- وَاللهُ فَـوْقَ العَـرْشِ وَالكُـرْسِيِّ لَا ... يَخْفَـى عَلَيْـهِ خَـوَاطِرُ الإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ»، وفي نسخةٍ: «وَالرَّبُّ».

إذا كانت خواطرُنا لا تخفى على ربِّنا فما بالُك بأقوالِنا وأفعالِنا؟ الجوابُ: تكونُ أولى بالعلمِ.

٤٧٤٤- لَا تَحْصُـرُوهُ فِي مَكَـانٍ إِذْ تَقُـو ... لُـوا رَبُّنَـا حَقًّـا بِكُـلِّ مَكَـانِ

وهذا أحدُ أقوالِ أهلِ التَّعطيلِ الذين يقولون: إنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مكانٍ؛ في المسجدِ، في الحجرةِ، في البيتِ، في السُّوقِ، في الحُشِّ، في الأقذارِ، في الأنتانِ، في الأوساخِ، في كُلِّ مكانٍ، قاتلهم اللهُ!

ولا ريبَ أنَّ مَن اعتقد في ربِّه هذا أنَّه كافرٌ كُفرًا يخرجُ به من المِلَّةِ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ للنُّصوصِ الصَّريحةِ الواضحةِ في علوِّ الله عزَّ وجلَّ، ثُمَّ إنَّه قد تنقَّص اللهَ غايةَ التَّنقُّصِ والعياذُ بالله، أنْ جعله في مكانِ الحشوشِ، لو خاطب ملكًا من الملوكِ في الدُّنيا قال: أنت في الحُشِّ، ماذا يقولُ؟ الجوابُ: يُعْدِمُه.

٤٧٤٥- نَزَّهْتُمُـوهُ بِجَهْلِكُـمْ عَـنْ عَرْشِـهِ ... وَحَصَرْتُـمُوهُ فِي مَكَـانٍ ثَـانِ

قالوا: ليس على العرشِ، لكنَّه في الحُشِّ، ليس فوقَ العرشِ، لكنَّه داخلُ الحُشِّ، أعوذُ بالله! فهم نزَّهوه عن العرشِ الذي هو أعلى المخلوقاتِ وأعظمُها، لكنَّهم تنقَّصوه بقولهم: «في كُلِّ مكانٍ».

٤٧٤٦- لا تُعْـدِمُوهُ بِقَـوْلِكُمْ لا دَاخِـلٌ ... فِينَـا وَلا هُـوَ خَـارِجُ الأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «لَا تُعْدِمُوهُ»؛ يعني: لا تجعلوه معدومًا بقولِكم: «لا داخلٌ فينا ولا هو خارجُ الأكوانِ».

وهذا رأيٌ آخرُ لأهلِ التَّعطيلِ، يقولون: ليس اللهُ داخلَ العالمِ ولا خارجَه، وقصَّةُ ابن فورك مع محمود بن سبكتكين -رحمه اللهُ تعالى- مشهورةٌ، فقد ناظره وقال: إذا كنت تقولُ في ربِّك هذا فأين اللهُ؟! فقد وَصَفْتَ ربَّك بالعدمِ المحضِ والعياذُ بالله، والطَّائفةُ الأولى تقولُ: «في كُلِّ مكانٍ»، وكلاهما ضالَّةٌ، ونحن نقولُ: ربُّنا فوق السَّماواتِ، ولا يخفى عليه شيءٌ من أعمالِنا، وليس داخلَ العالمِ، بل هو فوق العالـمِ.

٤٧٤٧- اللهُ أَكْـبَرُ هُتِّكَـتْ أَسْـتَارُكُمْ وَبَـدَتْ لِـمَنْ كَانَـتْ لَـهُ عَيْنَـانِ

قَوْلُهُ: «هُتِّكَتْ»؛ يعني: مُزِّقَت.

الأستارُ التي تتستَّرون بها وتقولون: نحن أهلُ التَّنزيهِ لله، هُتِّكَت -ولله الحمدُ- بما أبانه أهلُ السُّنَّةِ من الحقِّ.

٤٧٤٨- وَاللهُ أَكْـبَرُ جَـلَّ عَـنْ شِـبْهٍ وَعَـنْ مِثْـلٍ وَعَـنْ تَعْطِيـلِ ذِي كُفْـرَانِ

ذكر أيضًا طائفتَيْنِ متضادَّتين ضالَّتين مبتدعتين «**اللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهٍ وَعَنْ مِثْلٍ**» خلافًا لِـمَنْ قال بالتَّمثيلِ، «**وَجَلَّ عَنْ تَعْطِيلِ ذِي كُفْرَانِ**» خلافًا لِـمَنْ نَفَى الصِّفاتِ.

فالمشبِّهةُ والممثِّلةُ قالوا: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- مماثلٌ لخلقِه، فوجهُ الله كوجوهِ الخلقِ، عينُه كذلك، يدُه كذلك، مثَّلوه بالخلقِ، والمعطِّلةُ عطَّلوه فقالوا: ليس له يدٌ ولا رجلٌ ولا وجهٌ ولا شيءٌ.

واعلم أنَّ كُلَّ ممثِّلٍ معطِّلٌ وكُلَّ معطِّلٍ ممثِّلٌ، شاؤوا أم أَبَوْا؛ فكُلُّ ممثِّلٍ معطِّلٌ من ثلاثة وجوه:

أوَّلًا: لأنَّ الممثِّلَ عَطَّلَ كُلَّ نصٍّ أَثْبَتَ به الصِّفةَ؛ إذ إنَّ النَّصَّ الذي ثَبَتَتْ به الصِّفةُ لا يدلُّ على التَّمثيلِ أبدًا.

ثانيًا: أنَّه عَطَّلَ اللهَ من كمالِه الواجب.

ثالثًا: أنَّه عَطَّلَ كُلَّ نصٍّ يدلُّ على نفي المماثلةِ للخلقِ.

والمعطِّلُ ممثِّلٌ أيضًا؛ لأنَّه إذا عَطَّلَ اللهَ، وقال: اللهُ ليس له وجهٌ، ولا ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ولا يستوي على العرشِ، فإنَّما بنى هذا التَّعطيلَ على اعتقادِ أنَّه لو لم يفعل لـمَثَّلَ، فيكون مَثَّلَ أوَّلًا، ثُمَّ عَطَّلَ ثانيًا، ثُمَّ إذا نَفَى جميعَ الصِّفاتِ فقد مَثَّلَ أيضًا، مَثَّلَ بالشَّيءِ المعدومِ؛ لأنَّه ما من شيءٍ قَائِمٍ بنفسِه إلَّا وله صفةٌ، فإذا نَفَى عنه الصِّفةَ، فليس قَائِمًا بنفسِه، اللَّهمَّ اهدنا الصِّراطَ المستقيمَ، اللَّهمَّ عَافِنَا.

فالنَّاسُ طرفان ووسطٌ، أهلُ التَّمثيلِ أثبتوا مع التَّمثيلِ، وأهلُ التَّعطيلِ نَفَوْا، وأهلُ السُّنَّةِ أثبتوا بدون تمثيلٍ.

٤٧٤٩- وَاللهُ أَكْبَرُ مَنْ لَهُ الأَسْمَاءُ وَالْـ ... أَوْصَافُ كَامِلَةٌ بِلا نُقْصَانِ

لـمَّا ذكر أنَّ اللهَ انتفى عنه الشِّبْهُ والمِثْلُ بَيَّنَ أنَّه إمَّا انتفى عنه الشِّبْهُ والمِثْلُ لكمالِ أوصافِه عزَّ وجلَّ، لا يلحقه أحدٌ في كمالِ أوصافِه وتمامِها.

* * *

٤٧٥٠- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ وَلَدٍ وَصَا ... حِبَةٍ وَعَنْ كُفْءٍ وَعَنْ أَخْدَانِ

٤٧٥١- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ الجَمَا ... دِ كَقَوْلِ ذِي التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

٤٧٥٢- هُمْ شَبَّهُوهُ بِالجَمَادِ وَلَيْتَهُمْ ... قَدْ شَبَّهُوهُ بِكَامِلٍ ذِي شَانِ

٤٧٥٣- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ العِبَا ... دِ فَذَانِ تَشْبِيهَانِ مُمْتَنِعَانِ

٤٧٥٤- وَاللهُ أَكْبَرُ وَاحِدٌ صَمَدٌ وَكُلْ ... لُ الشَّأْنِ فِي صَمَدِيَّةِ الرَّحْمَنِ

٤٧٥٥- نَفَتِ الوِلادَةَ وَالأُبُوَّةَ عَنْهُ وَالْـ ... كُفْءَ الَّذِي هُوَ لازِمُ الإِنْسَانِ

٤٧٥٦- وَكَذَاكَ أَثْبَتَتِ الصِّفَات جَمِيعَهَا ... للهِ سَالِمَةً مِنَ النُّقْصَانِ

٤٧٥٧- وَإِلَيْهِ يَصْمُدُ كُلُّ مَخْلُوقٍ فَلَا ... صَمَدٌ سِوَاهُ عَزَّ ذُو السُّلْطَانِ

٤٧٥٨- لَا شَيْءَ يُشْبِهُهُ تَعَالَى كَيْفَ يُشْـ ... ـبِهُ خَلْقُهُ مَا ذَاكَ فِي الإِمْكَانِ

٤٧٥٩- لَكِنْ ثُبُوتُ صِفَاتِهِ وَكَلامِهِ ... وَعُلُوِّهِ حَقًّا بِلا نُكْرَانِ

٤٧٦٠- لا تَجْعَلُوا الإِثْبَاتَ تَشْبِيهًا لَهُ ... يَا فِرْقَةَ التَّلْبِيسِ وَالطُّغْيَانِ

٤٧٦١- كَمْ تَرْتَقُونَ بِسُلَّمِ التَّنْزِيهِ لِلتـْ ... ـتَعْطِيلِ تَرْوِيجًا عَلَى العُمْيَانِ

٤٧٦٢- فَاللهُ أَكْبَرُ أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ ... كَصِفَاتِنَا جَلَّ العَظِيمُ الشَّانِ

٤٧٦٣- هَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ لا إِثْبَاتُ أَوْ ... صَافِ الكَمَالِ فَمَا هُمَا سِيَّانِ

الشرحُ

٤٧٥٠- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ وَلَدٍ وَصَا ... حِبَةٍ وَعَنْ كُفْءٍ وَعَنْ أَخْدَانِ

قَوْلُهُ: «جَلَّ عَنْ وَلَدٍ»؛ أي: تنزَّه وعَظُمَ عن ولدٍ، لا ذكرٌ ولا أنثى، وقد قالت اليهودُ: عزيرٌ ابنُ الله، وقالت النَّصارى: المسيحُ ابنُ الله، وقال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله، واللهُ عزَّ وجلَّ منزَّهٌ عن هذا كُلِّه.

قَوْلُهُ: «وَعَنْ كُفْءٍ»؛ أي: مكافِئٍ له في أسمائِه وصفاتِه وأفعالِه.

قَوْلُهُ: «وَعَنْ أَخْدَانِ»؛ أي: مُصَاحِبٍ.

٤٧٥١- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ الجَمَا ... دِ كَقَوْلِ ذِي التَّعْطِيلِ وَالكُفْرَانِ

٤٧٥٢- هُمْ شَبَّهُوهُ بِالجَمَادِ وَلَيْتَهُمْ ... قَدْ شَبَّهُوهُ بِكَامِلٍ ذِي شَانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ الجَمَادِ» اللهُ أكبرُ! أيضًا جَلَّ عن شِبْهِ الجمادِ، وأهلُ التَّعطيلِ شبَّهوه بالجمادِ، فقالوا: ليس له سمعٌ، ولا بصرٌ، ولا كلامٌ، ولا فعلٌ، ولا استواءٌ، ولا نزولٌ، فشبَّهوه بالجمادِ.

قَوْلُهُ: «وَلَيْتَهُمْ قَدْ شَبَّهُوهُ بِكَامِلٍ ذِي شَانِ»؛ يعني: ليتهم شبَّهوه بمَنْ يتكلَّمُ كالإنسانِ مثلًا الذي فَضَّلَه اللهُ على كثيرٍ ممَّن خلق تفضيلًا.

وتمنِّي المؤلِّفِ هنا ليس يريدُ به تمنِّي الكمالِ، بل هذا الذي تمنَّاه خيرٌ من الأوَّلِ فقط؛ يعني: ليتهم اقتصروا على أن قالوا: إنَّه مثلُ الإنسانِ فقط، بل قالوا: إنَّه مثلُ الجمادِ.

٤٧٥٣- وَاللهُ أَكْبَرُ جَلَّ عَنْ شِبْهِ العِبَا ... دِ فَذَانِ تَشْبِيهَانِ مُمْتَنِعَانِ

ما هما؟ تشبيهُه بالجمادِ، وتشبيهُه بالعبادِ الأحياءِ، وهو مُنَزَّهٌ عن هذا وعن هذا.

٤٧٥٤- وَاللهُ أَكْبَرُ وَاحِدٌ صَمَدٌ وَكُلْ ... لُ الشَّأْنِ فِي صَمَدِيَّةِ الرَّحْمَنِ

اللهُ أكبرُ، واحدٌ صَمَدٌ، وفي القرآنِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الاخلاص:١-٢]، وفيه قولُه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، فهو واحدٌ أحدٌ صَمَدٌ، وكُلُّ الشَّأنِ في صمديَّةِ الرَّحمنِ؛ لأنَّ الصَّمديَّةَ تعني: كمالَ غناه عن خلقِه، وافتقارَ خلقِه إليه؛ ولهذا كان كُلُّ الشَّأنِ فيها.

٤٧٥٥- نَفَتِ الوِلادَةَ وَالأُبُوَّةَ عَنْهُ وَالْـ ... كُفْءَ الَّذِي هُوَ لازِمُ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «نَفَتِ الوِلَادَةَ»؛ لأَنَّه غَنِيٌّ عنها.

قَوْلُهُ: «وَالأُبُوَّةَ عَنْهُ»؛ لأَنَّه هو الأَوَّلُ الذي ليس قبله شيءٌ، ولو كان له أبٌ لكان محتاجًا إليه، واللهُ لا يحتاجُ إلى أحدٍ.

قَوْلُهُ: «وَالكُفْءَ»؛ لأَنَّه لا أحدَ يكونُ مثلَ الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «الَّذِي هُوَ لَازِمُ الإِنْسَانِ» الإنسانُ لا بُدَّ له من ولادةٍ؛ أبوَّةٍ أو أُمومةٍ، ولا بُدَّ له من كفءٍ، كُلُّ النَّاسِ لهم أكفاءٌ.

٤٧٥٦- وَكَذَاكَ أَثْبَتَتِ الصِّفَات جَمِيعَهَا ... للهِ سَالِمَةً مِنَ النُّقْصَانِ

هذا غناه، وأمَّا افتقارُ غيرِه إليه فقال:

٤٧٥٧- وَإِلَيْهِ يَصْمُدُ كُلُّ مَخْلُوقٍ فَلَا ... صَمَدٌ سِوَاهُ عَزَّ ذُو السُّلْطَانِ

إذَنْ الصَّمديَّةُ هي كمالُ غنى الله وافتقارُ جميعِ الخلقِ إليه.

٤٧٥٨- لَا شَيْءَ يُشْبِهُهُ تَعَالَى كَيْفَ يُشْـ ... ـبِهُ خَلْقَهُ مَا ذَاكَ فِي الإِمْكَانِ

يعني: أنَّ مشابهةَ الله لخلقِه أمرٌ مستحيلٌ لا يمكنُ.

٤٧٥٩- لَكِنْ ثُبُوتُ صِفَاتِهِ وَكَلَامِهِ ... وَعُلُوِّهِ حَقًّا بِلَا نُكْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَعُلُوِّهِ حَقًّا»، ويجوزُ: «وَعُلُوُّهُ» عطفًا على «ثُبُوتُ».

المعنى: أنَّه عزَّ وجلَّ لا يُشبهُه أحدٌ مع ثبوتِ صفاتِه وعلوِّه على خلقِه وكلامِه.

٤٧٦٠- لا تَجْعَلُـوا الإِثْبَـاتَ تَشْـبِيهًا لَـهُ   يَـا فِرْقَـةَ التَّلْبِـيسِ وَالطُّغْيَـانِ

قَوْلُهُ: «يَا فِرْقَةَ التَّلْبِيسِ»، وفي نسخةٍ: «يَا فِرْقَةَ التَّشْبِيهِ»، والأوَّلُ أصحُّ.

هؤلاء الذين عطَّلوا اللهَ زعموا أنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ لله صفةً فهو مُشَبِّهٌ، ثُمَّ قالوا: وبناءً على ذلك لا يجوزُ أن نثبتَ لله صفةً؛ لأنَّنا لو أَثْبَتْنَا لله صفةً لوقعنا في التَّشبيهِ، فيلبِّسون على العامَّةِ، ويقولون مثلًا إذا سَمِعُوا رجلًا يقولُ: إنَّ لله يدينِ، صرخوا وقالوا: أعوذُ بالله شَبَّهْتَ، أَلْـحَدْتَ، كَفَرْتَ، عَبَدْتَ صنمًا، يصرخُ في وجهِه، وإذا سَمِعَ العوامُّ ذلك يقولون: صدق سيِّدُنا، ويُصفِّقون وراءَهم، ولذلك يلبِّسون على العوامِّ بهذا.

إذَنْ هم يُسمُّون أهلَ الإثباتِ بالمشبِّهةِ والمجسِّمةِ والحَشْوِيَّةِ، وما أشبه ذلك من ألقابِ السُّوء، وقد سبقهم آباؤهم في هذا حيث شبَّهوا الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بأنَّه ساحرٌ مجنونٌ شاعرٌ كاهنٌ.

٤٧٦١- كَـمْ تَرْتَقُـونَ بِسُـلَّمِ التَّنْزِيـهِ لِلتْـ   ـتَعْطِيلِ تَرْوِيجًـا عَـلَى العُمْيَـانِ

قَوْلُهُ: «كَمْ تَرْتَقُونَ بِسُلَّمِ التَّنْزِيهِ لِلتَّعْطِيلِ» «اللام» بمعنى «إلى».

يعني: كم ترتقون بسلَّم التَّنزيه إلى التَّعطيلِ، تعطِّلون اللهَ تدَّعون أنَّكم تنزِّهونه ترويجًا على العُميانِ.

٤٧٦٢- فَـاللهُ أَكْـبَرُ أَنْ تَكُـونَ صِـفَاتُهُ   كَصِـفَاتِنَا جَـلَّ العَظِـيمُ الشَّـانِ

نعم، هو عزَّ وجلَّ أكبرُ من أن تكونَ صفاتُه كصفاتِنا.

٤٧٦٣- هَــذَا هُــوَ التَّشْــبِيهُ لا إِثْبَــاتُ أَوْ ... صَــافِ الكَــمَالِ فَــمَا هُمَــا سِــيَّانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ»؛ يعني: أن نجعلَ صفاتِ الله كصفاتِنا.

قَوْلُهُ: «لَا إِثْبَاتُ أَوْصَافِ الكَمَالِ فَمَا هُمَا سِيَّانِ» صدق رحمه اللهُ، لا يستوي مَنْ أَثْبَتَ لله صفاتِ الكمالِ ومَنْ أَثْبَتَ لله صفاتٍ تماثِلُ صفاتِ المخلوقين.

إذَنْ هذا الفصلُ كُلُّه أذانٌ؛ ولهذا كُلَّما أراد أن يتكلَّمَ عن مسألةٍ قال: «اللهُ أَكْبَرُ».

***

فصل

في تلازم التَّعْطِيلِ والشِّرْكِ

٤٧٦٤- وَاعْلَمْ بِأَنَّ الشِّرْكَ وَالتَّعْطِيلَ مُذْ كَانَا هُمَا لا شَكَّ مُصْطَحِبَانِ

٤٧٦٥- أَبَدًا فَكُلُّ مُعَطِّلٍ هُوَ مُشْرِكٌ حَتْمًا وَهَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ

٤٧٦٦- فَالعَبْدُ مُضْطَرٌّ إِلَى مَنْ يَكْشِفُ الْـ بَلْوَى وَيُغْنِي فَاقَةَ الإِنْسَانِ

٤٧٦٧- وَإِلَيْهِ يَصْمُدُ فِي الحَوَائِجِ كُلِّهَا وَإِلَيْهِ يُفْزَعُ طَالِبًا لِأَمَانِ

٤٧٦٨- فَإِذَا انْتَفَتْ أَوْصَافُهُ وَفِعَالُهُ وَعُلُوُّهُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ مَكَانِ

٤٧٦٩- فَزِعَ العِبَادُ إِلَى سِوَاهُ وَكَانَ ذَا مِنْ جَانِبِ التَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

٤٧٧٠- فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذَاكَ مُعَطِّلُ التَّـ ـوْحِيدِ حَقًّا ذَانِ تَعْطِيلانِ

٤٧٧١- قَدْ عَطَّلَا بِلِسَانِ كُلِّ الرُّسْلِ مِنْ نُوحٍ إِلَى المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

٤٧٧٢- وَالنَّاسُ فِي هَذَا ثَلاثُ طَوَائِفٍ مَا رَابِعٌ أَبَدًا بِذِي إِمْكَانِ

٤٧٧٣- إِحْدَى الطَّوَائِفِ مُشْرِكٌ بِإِلَهِهِ فَإِذَا دَعَاه دَعَا إِلَهًا ثَانِ

٤٧٧٤- هَذَا وَثَانِي هَذِهِ الأَقْسَامِ ذَا لَكَ جَاحِدٌ يَدْعُو سِوَى الرَّحْمَنِ

٤٧٧٥- هُوَ جَاحِدٌ لِلرَّبِّ يَدْعُو غَيْرَهُ شِرْكًا وَتَعْطِيلًا لَهُ قَدَمَانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي تَلَازُمِ التَّعْطِيلِ وَالشِّرْكِ» التَّلازمُ؛ أي: جعلُ الشَّيءِ لازمًا للشَّيءِ؛ وذلك أنَّ الدَّلالاتِ إمَّا تضمُّنٌ أو مطابقةٌ أو التزامٌ، والشَّيءُ إمَّا مستقلٌ وإمَّا لازمٌ، واللَّازمُ تابعٌ للملزومِ، يقولُ رحمه الله:

٤٧٦٤- وَاعْلَمْ بِأَنَّ الشِّرْكَ وَالتَّعْطِيـلَ مُـذْ   كَانَـا هُمَـا لا شَـكَّ مُصْـطَحِبَانِ

يعني: اعلم بأنَّ الشِّركَ والتَّعطيلَ مصطحبان؛ يعني: يصحبُ أحدُهما الآخرَ.

٤٧٦٥- أَبَـدًا فَكُـلُّ مُعَطِّـلٍ هُـوَ مُشْـرِكٌ   حَـتْمًا وَهَـذَا وَاضِـحُ التِّبْيَـانِ

فالمعطِّلُ مشركٌ، ويقولُ ابنُ القيِّمِ: «حَتْمًا وَأَنَّ هَذَا وَاضِحُ التِّبْيَانِ»، ثُمَّ شرع يُبيِّنُه فقال:

٤٧٦٦- فَالعَبْدُ مُضْطَرٌّ إِلَى مَنْ يَكْشِفُ الْـ   بَلْـوَى وَيُغْنِـي فَاقَـةَ الإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «إِلَى مَنْ يَكْشِفُ البَلْوَى»؛ يعني: يزيلُ الضُّرَّ.

قَوْلُهُ: «وَيُغْنِي فَاقَةَ الإِنْسَانِ»؛ يعني: يجلبُ النَّفعَ.

فكُلُّ إنسانٍ مضطرٌ إلى مَنْ يدفعُ عنه الشَّرَّ ويجلبُ له الخيرَ.

٤٧٦٧- وَإِلَيْـهِ يَصْـمُدُ فِي الحَـوَائِجِ كُلِّهَـا   وَإِلَيْـهِ يُفْـزَعُ طَالِبًـا لِأَمَـانِ

قَوْلُهُ: «يَصْمُدُ فِي الحَوَائِجِ كُلِّهَا»؛ يعني: يَميلُ ويُنيبُ في الحوائجِ كُلِّها.

قَوْلُهُ: «وَإِلَيْهِ يَفْزَعُ طَالِبًا لأَمَانِ» طالبًا لأمانٍ عند الخوفِ، فكُلُّ العبادِ يفزعون إلى الله في طلبِ الغنى، وفي إزالة الفقرِ، في الحوائجِ كُلِّها.

٤٧٦٨- فَـإِذَا انْتَفَـتْ أَوْصَـافُهُ وَفِعَالُـهُ وَعُلُـوُّهُ مِـنْ فَـوْقِ كُـلِّ مَكَـانِ

٤٧٦٩- فَـزِعَ العِبَـادُ إِلَى سِـوَاهُ وَكَـانَ ذَا مِـنْ جَانِـبِ التَّعْطِيـلِ وَالنُّكْـرَانِ

قَوْلُهُ: «**فَإِذَا انْتَفَتْ أَوْصَافُهُ... فَزِعَ العِبَادُ إِلَى سِوَاهُ**» هذا وجهُ التَّلازمِ، إذا انتفت أوصافُ الله ولم يكن سميعًا ولا بصيرًا ولا غنيًّا ولا حميدًا ولا غير ذلك من الصِّفاتِ، فإلى مَنْ يفزعون؟ الجوابُ: إلى غيرِ الله، يفزعون إلى مَنْ يحقِّقُ لهم المطالبَ، ويكشفُ عنهم السُّوءَ ويجلبُ لهم الخيرَ، فيذهبون إلى غيرِ الله ويُعَلِّقون آمالَهم بغيرِه، وحينئذٍ يكونون مشركين، فمن لازمِ اعتقادِ انتفاء الصِّفاتِ عن الله فَزَعُ الخلقِ إلى غيرِ الله، وحينئذٍ يكونون مشركين.

قَوْلُهُ: «**وَكَانَ ذَا مِنْ جَانِبِ التَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ**»؛ يعني: بسببِ التَّعطيلِ والنُّكرانِ.

٤٧٧٠- فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذَاكَ مُعَطِّـلُ التَّـ ـتَوْحِيدِ حَقًّـا ذَانِ تَعْطِـيلانِ

قَوْلُهُ: «**فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذَاكَ مُعَطِّلُ التَّوْحِيدِ**» معطِّلُ الأوصافِ لا شكَّ أنَّه معطِّلُ التَّوحيدِ، وممثِّلُ الأوصافِ معطِّلٌ للتَّوحيدِ، فالذي يقولُ: «**إنَّ عيسى - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- كالرَّبِّ**» مشركٌ، والذي يقولُ: «**إنَّ صفاتِ الله كصفاتِ غيرِه**» مشركٌ، المعطِّلُ هو مشركٌ أيضًا.

قَوْلُهُ: «**ذَانِ تَعْطِيلَانِ**» ما هما؟ الجوابُ: تعطيلُ الأوصافِ وتعطيلُ التَّوحيدِ.

٤٧٧١- قَدْ عَطَّلَا بِلِسَانِ كُـلِّ الرُّسْـلِ مِـنْ نُـوحٍ إِلَى المَبْعُـوثِ بِـالقُرْآنِ

يعني: هذا التَّعطيلُ كان من عهدِ نوحٍ إلى عهدِ محمَّدٍ ﷺ، ونوحٌ أوَّلُ الرُّسلِ، ومحمَّدٌ خاتمُهم.

٤٧٧٢- وَالنَّـاسُ فِي هَـذَا ثَـلاثُ طَوَائِـفٍ مَـا رَابِـعٌ أَبَـدًا بِـذِي إِمْكَـانِ

٤٧٧٣- إِحْدَى الطَّوَائِفِ مُشْـرِكٌ بِإِلَـهِهِ فَـإِذَا دَعَـاه دَعَـا إِلَـهًا ثَـانِ

يدعون اللَّاتَ والعُزَّى ومَنَاةَ وهُبَلَ، ولكُلِّ قومٍ صنمٌ يدعونه، ولا يدعون اللهَ.

٤٧٧٤- هَـذَا وَثَـانِي هَـذِهِ الأَقْسَـامِ ذَا لَكَ جَاحِدٌ يَـدْعُو سِـوَى الـرَّحْمَنِ

هذا قد جحَد اللهَ ربَّ العالمين وصار يدعو غيرَه، توجد الآن أممٌ لا تعرفُ اللهَ، وإنَّما تعرفُ زعماءَها فتدعو زعماءَها، البوذيُّون يعبدون «بوذا»، ولا يعرفون اللهَ إطلاقًا، هؤلاء جاحدون يعبدون غيرَ الله، وهي ثاني الأقْسَام.

٤٧٧٥- هُـوَ جَاحِـدٌ لِلـرَّبِّ يَـدْعُو غَـيْرَهُ شِرْكًـا وَتَعْطِـيلًا لَـهُ قَـدَمَانِ

يعني: أنَّ الشِّركَ والتَّعطيلَ له بمنزلةِ القَدَمَيْنِ يسيرُ عليهما والعياذُ بالله، وبِئْسَتِ القدمان، فهذا الثَّاني، **فالأَوَّلُ**: مشركٌ يدعو إلـهين، **والثَّاني**: جاحدٌ يدعو إلـهًا واحدًا، فهو يدعو غيرَ الله.

***

٤٧٧٦- هَـذَا وَثَالِـثُ هَـذِهِ الأَقْسَـامِ خَيْـ ـرُ الخَلْـقِ ذَاكَ خُلاصَـةُ الإِنْسَـانِ

٤٧٧٧- يَدْعُو الإِلَهَ الـحَقَّ لا يَـدْعُو سِـوَا هُ قَـطُّ فِي الأَزْمَـانِ وَالأَكْـوَانِ

٤٧٧٨- يَدْعُوهُ فِي الرَّغَبَاتِ وَالرَّهَبَاتِ وَالْـ ـحَالاتِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلانِ

٤٧٧٩- تَوْحِيـدُهُ نَوْعَـانِ عِلْمِـيٌّ وَقَصْـ ـدِيٌّ كَـمَا قَـدْ جُـرِّدَ النَّوْعَـانِ

٤٧٨٠- فِي سُورَةِ الإِخْلاصِ مَعْ تَالٍ لِنَصْـ ـرِ الله قُـلْ يَـا أَيُّهَـا بِبَيَـانِ

٤٧٨١- وَلِـذَاكَ قَـدْ شُرِعَـا بِسُـنَّةِ فَجْرِنَـا ... وَكَــذَاكَ سُـنَّةُ مَغْـرِبٍ طَرَفَـانِ

٤٧٨٢- لِيَكُـونَ مُفْتَـتَحُ النَّهَـارِ وَخَتْمُـهُ ... تَجْرِيـدَكَ التَّوْحِيـدَ لِلـدَّيَّانِ

٤٧٨٣- وَكَذَاكَ قَـدْ شُرِعَـا بِخَاتَمِ وِتْرِنَـا ... خَـتْمًا لِسَـعْيِ اللَّيْـلِ بِـالآذَانِ

٤٧٨٤- وَكَذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِرَكْعَتَـيِ الطَّـوَا ... فِ وَذَاكَ تَحْقِيـقٌ لِـهَذَا الشَّـانِ

٤٧٨٥- فَهُـمَا إِذَنْ أَخَـوَانِ مُصْـطَحِبَانِ لا ... يَتَفَارَقَـانِ وَلَـيْسَ يَنْفَصِـلانِ

٤٧٨٦- فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذُو شِرْكٍ كَـذَا ... ذُو الشِّـرْكِ فَهْـوَ مُعَطِّـلُ الـرَّحْمَنِ

٤٧٨٧- أَوْ بَعْضِ أَوْصَافِ الكَمَالِ لَهُ فَحَقْ ... قِـقْ ذَا وَلا تُسْـرِعْ إِلَى النُّكْـرَانِ

الشـرحُ

٤٧٧٦- هَـذَا وَثَالِـثُ هَـذِهِ الأَقْسَـامِ خَيْـ ... ـرُ الخَلْـقِ ذَاكَ خُلاصَـةُ الإِنْسَـانِ

٤٧٧٧- يَدْعُو الإِلَهَ الـحَقَّ لا يَـدْعُو سِـوَا ... هُ قَــطُّ في الأَزْمَـانِ وَالأَكْـوَانِ

قَوْلُهُ: «فِي الأَزْمَانِ وَالأَكْوَانِ»، وفي نسخةٍ: «فِي الأَشْيَاءِ وَالأَكْوَانِ».

٤٧٧٨- يَدْعُوهُ فِي الرَّغَبَاتِ وَالرَّهَبَاتِ وَالْـ ... ـحَالاتِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلانِ

قَوْلُهُ: «يَدْعُوهُ فِي الرَّغَبَاتِ»؛ يعني: يدعوه فيما يرغبُه من الخيرِ.

قَوْلُهُ: «وَفِي الرَّهَبَاتِ»؛ أي: فيما يرهبُ منه من الشَّرِّ.

قَوْلُهُ: «وَالـحَالَاتِ»؛ يعني: في جميعِ الأحوالِ من سرٍّ ومن إعلانٍ، هذا الثَّالثُ.

فصار النَّاسُ ثلاثةَ أقسامٍ أو ثلاثَ طوائفَ: مَنْ يشركُ بالله، ومَنْ يوحِّدُ غيرَه، ومَنْ يوحِّدُ اللهَ، وهناك قسمٌ رابعٌ لكنَّه لا عبادةَ له أصلًا، وهو الملحدُ الذي لا يعبدُ أحدًا، لكنْ مرادُ المؤلِّفُ مَنْ يعبدُ شيئًا، فالذين لهم معبودٌ لا يخرجون عن هذه الطَّوائفِ الثَّلاث: مَنْ يوحِّدُ اللهَ، مَنْ يوحِّدُ غيرَه، مَنْ يشركُ به، ثُمَّ انتقل المؤلِّفُ استطرادًا إلى التَّوحيدِ فقال:

٤٧٧٩- تَوْحِيدُهُ نَوْعَانِ عِلْمِيٌّ وَقَصْـ ... ـدِيٌّ كَمَا قَدْ جُرِّدَ النَّوْعَانِ

٤٧٨٠- فِي سُورَةِ الإِخْلاصِ مَعْ تَالٍ لِنَصْـ ... ـرِ الله قُلْ يَا أَيُّهَا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «تَوْحِيدُهُ نَوْعَانِ»؛ يعني: توحيدُ الله عزَّ وجلَّ نوعان.

يعني: توحيدُ الله عزَّ وجلَّ علميٌّ؛ وهو توحيدُه بأوصافِه وأفعالِه، وقَصْدِيٌّ؛ وهو توحيدُه بالإرادةِ؛ يعني: بالعبادةِ فلا تقصدْ غيرَه، فما وَصَفَ اللهُ به نفسَه هذا يُسَمَّى توحيدًا علميًّا اعتقاديًّا، وما أمر اللهُ به من العبادةِ وقصدناه به فهو قصديٌّ.

قَوْلُهُ: «فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ» وهي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] وسمِّيت بذلك؛ لأنَّها تُخَلِّصُ قارئَها من الشِّركِ، ولأنَّ اللهَ أخلصها لنفسِه، فليس فيها سوى ما يتعلَّقُ بأسمائِه وصفاتِه.

قَوْلُهُ: «مَعْ تَالٍ لِنَصْرِ الله قُلْ يَا أَيُّهَا بِبَيَانِ»؛ يعني: مع السُّورةِ التي تتلو ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النَّصر:١] وهي سورة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الكافرون:١-٢]؛ ولذا فالصَّحيحُ: «مَعْ مَتْلُوٍّ لِنَصْرِ الله».

المهمُّ أنَّ المؤلِّفَ بيَّنَهَا بقولِه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا﴾ [الكافرون:١]؛ لأنَّ التَّالي: للنَّصرِ سورة: ﴿تَبَّتۡ﴾ [المسد:١]، وليست ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا﴾ [الكافرون:١]، لكنَّه -رحمه اللهُ- بيَّنَ

أنَّ التَّاليَ بالعكسِ، حينئذٍ يكونُ قد بدأ القرآنَ من آخرِه، فإذا بدأ القرآنَ من آخرِه صار الذي يتلو سورةَ «النَّصر»: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١].

وسورةُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] فيها التَّوحيدُ القصديُّ العمليُّ؛ لأنَّه يقولُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:١-٢]، فهذا توحيدُ القصدِ؛ أي: لا أعبدُ إلَّا اللهَ عزَّ وجلَّ، فلا أقصدُ بعبادتي إلَّا اللهَ، ففي هاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ نوعا التَّوحيدِ.

٤٧٨١- وَلِذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِسُنَّةِ فَجْرِنَا وَكَذَاكَ سُنَّةُ مَغْرِبٍ طَرَفَانِ

قَوْلُهُ: «قَدْ شُرِعَا بِسُنَّةِ فَجْرِنَا» شُرِعَا؛ أي: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]؛ يعني: شُرِعَت قراءتُهما في سُنَّةِ الفجرِ(١)، وهل يُسَنُّ قراءةُ غيرِهما؟ نعم، وهو قولُه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦] التي في سورة «البقرة» في الركعة الأولى، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤] في سورة «آل عمران» في الثَّانيةِ(٢)، إذَنْ سُنَّتان.

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ سُنَّةُ مَغْرِبٍ»؛ يعني: يُشْرَعُ أيضًا في سُنَّةِ المغربِ أنْ تقرأَ في

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، رقم (٧٢٦).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، رقم (٧٢٧).

الرَّكعة الأولى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، وفي الثَّانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] [الإخلاص:١].

وَقَوْلُهُ: «طَرَفَانِ» الأولى في طَرَفِ النَّهارِ، والثَّانيةُ في طرفِ النَّهارِ أيضًا؛ أي: آخره.

٤٧٨٢- لِيَكُـونَ مُفْتَـتَحُ النَّهَـارِ وَخَتْمُـهُ ... تَجْرِيـدَكَ التَّوْحِيـدَ لِلـدَّيَّانِ

٤٧٨٣- وَكَذَاكَ قَـدْ شُرِعَـا بِخَـاتَمِ وِتْرِنَـا ... خَـتْمًا لِسَـعْيِ اللَّيْـلِ بِـالآذَانِ

قَوْلُهُ: «خَتْمًا لِسَعْيِ اللَّيْلِ»؛ يعني: لعملِ اللَّيلِ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرًا»[2]، إِذَنْ خُتِمَت صلاةُ النَّهارِ وهو سُنَّةُ المغربِ بهما، وأوَّل النَّهار سُنَّة الفجرِ بهما، وآخِر اللَّيلِ الوتر، يُقْرَأُ في الرَّكعةِ الثَّانيةِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، وفي الثَّالثةِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[3] [الإخلاص:١].

٤٧٨٤- وَكَذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِرَكْعَتَيِ الطَّـوَا ... فِ وَذَاكَ تَحْقِيـقٌ لِـهَذَا الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَاكَ قَدْ شُرِعَا بِرَكْعَتَيِ الطَّوَافِ»؛ يعني: ركعتا الطَّوافِ يُقْرَأُ فيهما بـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] و: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١].

قَوْلُهُ: «وَذَاكَ تَحْقِيقٌ لِـهَذَا الشَّانِ»؛ أي: للتَّوحيدِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الصلاة، باب ما جاء في الركعتين بعد المغرب والقراءة فيهما، رقم (٤٣١)، والنسائي: كتاب الافتتاح، باب القراءة في الركعتين بعد المغرب، رقم (٩٩٢)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب القراءة في صلاة المغرب، رقم (٨٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوتر، باب ليجعل آخر صلاته وترا، رقم (٩٩٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل مثنى مثنى، رقم (٧٥١).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب الوتر، باب ما جاء ما يقرأ في الوتر، رقم (٤٦٢)، والنسائي: كتاب قيام الليل، باب ذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر أبي بن كعب في الوتر، رقم (١٧٠٠)

إذَنْ فسورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] وسورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] تُسَنُّ في أربعةِ أنواعِ من السُّنن: سُنَّة الفجرِ، وسُنَّة المغربِ، وسُنَّة الوترِ، وسُنَّة الطَّوافِ، وفي ركعتي الطَّواف الإخلاصُ واضحٌ؛ لأنَّك تعبدُ ربًّا واحدًا ذا بيتٍ واحدٍ، وهو المكانُ الذي أعلن فيه النَّبيُّ ﷺ التَّوحيدَ.

٤٧٨٥- فَهُمَا إذَنْ أَخَوَانِ مُصْطَحِبَانِ لا ... يَتَفَارَقَانِ وَلَيْسَ يَنْفَصِلانِ

سورتا الإخلاصِ دائمًا مصطحبتان؛ لأنَّ الأولى فيها التَّوحيدُ القصديُّ، والثَّانية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] فيها التَّوحيد العلميُّ الخبريُّ.

٤٧٨٦- فَمُعَطِّلُ الأَوْصَافِ ذُو شِرْكٍ كَذَا ... ذُو الشِّرْكِ فَهْوَ مُعَطِّلُ الرَّحْمَنِ

المشركُ في العبادةِ الذي تضمَّنته إخلاصُ العبادةِ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] مشركٌ، والمعطِّلُ لأوصافِ الرَّحمنِ التي تضمَّنتها سورةُ الإخلاصِ هو أيضًا مشركٌ، فمُعَطِّلُ الأوصافِ مشركٌ بالتَّوحيدِ العلميِّ، والعابدُ لغيرِ الله مشركٌ بالتَّوحيدِ القصديِّ.

٤٧٨٧- أَوْ بَعْضِ أَوْصَافِ الكَمَالِ لَهُ فَحَقْ ... قِقْ ذَا وَلا تُسْرِعْ إِلَى النُّكْرَانِ

أي: لا تستعجلْ في رَدِّ الشَّيءِ الذي لا تُدركه في أوَّل مرَّةٍ، لا تستعجلْ في ردِّه، بل تَأَنَّ، وانظُر ما وجهُ هذا القولِ؛ لأنَّه لو قال قائلٌ مثلًا: كيف يكونُ تعطيلٌ وشركٌ؟! لكن إذا تَأَمَّلَ وجد أنَّهما قرينان.

إنَّ البِدَارَ بِرَدِّ شَيْءٍ لَمْ تُحِطْ ... عِلْمًا بِهِ سَبَبٌ إِلَى الحِرْمَانِ

خلاصةُ الفصلِ ظاهرةٌ أنَّ التَّعطيلَ يلزمُ منه الإشراكُ، فالتَّعطيلُ والإشراكُ متلازمان؛ فمَنْ أَشْرَكَ بالله فهو معطِّلٌ لتوحيدِه، ومَنْ عَطَّلَ أوصافَه فهو مشركٌ.

فصــل

في بَيَانِ أَنَّ المُعطِّلَ شَرٌّ مِنَ المُشْرِكِ

٤٧٨٨- لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ شَرٌّ مِنْ أَخِي الْـ إِشْرَاكِ بِـــالمَعْقُولِ وَالبُرْهَـــانِ

٤٧٨٩- إِنَّ الــمُعَطِّلَ جَاحِـدٌ لِلـذَّاتِ أَوْ لِكَمَالِـــهَا هَـــذَانِ تَعْطِـــيلانِ

٤٧٩٠- مُتَضَمِّنَانِ القَـدْحَ فِي نَفْسِ الأُلُـو هَةِ كَمْ بِذَاكَ القَدْحِ مِـنْ نُقْصَـانِ

٤٧٩١- وَالشِّرْكُ فَهْوَ تَوَسُّلٌ مَقْصُودُهُ الـزْ زُلْفَى مِـنَ الـرَّبِّ العَظِيمِ الشَّـانِ

٤٧٩٢- بِعِبَادَةِ المَخْلُوقِ مِـنْ حَجَـرٍ وَمِـنْ بَشَـــرٍ وَمِـــنْ قَـبْرٍ وَمِـــنْ أَوْثَـانِ

٤٧٩٣- فَالشِّـرْكُ تَعْظِـيمٌ بِجَهْـلٍ مِـنْ قِيَـا سِ الـرَّبِّ بِـالأُمَرَاءِ وَالسُّـلْطَانِ

٤٧٩٤- ظَنُّـوا بِـأَنَّ البَـابَ لا يُغْشَـى بِـدُو نِ تَوَسُّــطِ الشُّــفَعَاءِ وَالأَعْـوَانِ

٤٧٩٥- وَدَهَـاهُمُ ذَاكَ القِيَـاسُ الـمُسْتَبِيـــــنُ فَسَـادُهُ بِبَدِيهَـةِ الإِنْسَـانِ

٤٧٩٦- الفَـرْقُ بَـيْنَ اللهِ وَالسُّـلْطَانِ مِـنْ كُـلِّ الوُجُـوهِ لِـمَنْ لَـهُ أُذُنَـانِ

٤٧٩٧- إِنَّ الـمُلُوكَ لَعَاجِزُونَ وَمَـا لَـهُمْ عِلْـمٌ بِـأَحْوَالِ الـدُّعَا بِـأَذَانِ

٤٧٩٨- كَلَّا وَلا هُـمْ قَـادِرُونَ عَـلَى الَّـذِي يَحْتَاجُـهُ الإِنْسَـانُ كُـلَّ زَمَـانِ

٤٧٩٩- كَـلَّا وَمَـا تِلْـكَ الإِرَادَةُ فِـيهِمُ لِقَضَـا حَـوَائِجِ كُـلِّ مَـا إِنْسَـانِ

٤٨٠٠- كَـلَّا وَلا وَسِـعُوا الخَلِيقَـةَ رَحْـمَةً مِنْ كُلِّ وَجْهٍ هُـمْ أُولُـو النُّقْصَـانِ

٤٨٠١- فَلِذَلِكَ احْتَاجُوا إِلَى تِلْكَ الوَسَا ئِطِ حَاجَةً مِنْهُمْ مَدَى الأَزْمَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي بَيَانِ أَنَّ الـمُعَطِّلَ شَرٌّ مِنَ المُشْرِكِ» «الـمُعَطِّل»؛ أي: لأسماءِ الله وصفاتِه: «شَرٌّ مِنْ المُشْرِكِ»؛ أي: أشرُّ منه.

٤٧٨٨- لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ شَرٌّ مِنْ أَخِي الْـ إِشْرَاكِ بِالمَعْقُولِ وَالبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «بِالمَعْقُولِ وَالبُرْهَانِ»؛ يعني: بدلالة العقلِ ودلالةِ السَّمعِ.

يُقرِّرُ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- أنَّ المعطِّلَ شرٌّ من المشركِ، ثُمَّ شَرَحَ وجهَ ذلك فقال:

٤٧٨٩- إِنَّ الـمُعَطِّلَ جَاحِدٌ لِلذَّاتِ أَوْ لِكَمَالِهَا هَذَانِ تَعْطِيلانِ

المعطِّلُ جاحدٌ لذاتِ الله أو جاحدٌ للصِّفاتِ التي بها كمالُ الذَّاتِ؛ لأنَّ من المعطِّلةِ مَنْ ينكرُ ذاتَ الله مثل مَنْ يقولُ: إنَّ اللهَ لا يُوصَفُ بأنَّه موجودٌ ولا أنَّه معدومٌ، أو جاحدٌ لكمالِـها؛ كالذين يؤمنون بالله ولكن لا يؤمنون بصفاتِه، هذان تعطيلان.

٤٧٩٠- مُتَضَمِّنَانِ القَدْحَ فِي نَفْسِ الأُلُو هَةِ كَمْ بِذَاكَ القَدْحِ مِنْ نُقْصَانِ

إِذَنْ التَّعطيلُ قدحٌ في الألوهيَّةِ نفسِها، قدحٌ في الله عزَّ وجلَّ نفسِه، فالذين يُنكرون اللهَ ويقولون: إنَّه ليس داخلَ العالمِ ولا خارجَه، ولا متَّصلًا ولا منفصلًا، ولا ما أشبه ذلك، والذين يقولونُ: إنَّ اللهَ ليس له فعلٌ وليس له نزولٌ، وليس له استواءٌ، وما أشبه ذلك، كُلُّهم متنقِّصٌ لله عزَّ وجلَّ.

٤٧٩١- وَالشِّرْكُ فَهْوَ تَوَسُّلٌ مَقْصُودُهُ الـزْ زُلْفَى مِـنَ الـرَّبِّ العَظِـيمِ الشَّـانِ

٤٧٩٢- بِعِبَادَةِ المَخْلُوقِ مِنْ حَجَـرٍ وَمِـنْ بَشَــرٍ وَمِــنْ قَــبْرٍ وَمِــنْ أَوْثَــانِ

وأمَّا المشركُ فهو مُثْبِتٌ للذَّاتِ والصِّفاتِ، لكنَّه عَبَدَ مع الله غيرَه ليتقرَّبَ بعبادةِ هذا الغيرِ إلى الله عزَّ وجلَّ كما قال اللهُ -تبارك وتعالى- عنهم أنَّهم يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزُّمر:٣]، وهذا صريحٌ أنَّهم يعتقدون أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ متَّصفٌ بصِفاتِ الكمالِ، ويريدون أنْ يتَّخذوا أولياءَ يتقرَّبون بهم إلى الله عزَّ وجلَّ، إذَنْ هم يُقِرُّونَ بالرُّبوبيَّةِ بأنَّ اللهَ هو الخالقُ، وهو الرازقُ، فهو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقُهم، يُقِرُّون بهذا، ويقولون: إنَّهم لم يشركوا إلَّا من أجلِ أن تُقَرِّبَهم هذه الأوثانُ إلى الله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «بِعِبَادَةِ المَخْلُوقِ»؛ يعني: يعبدون المخلوقَ ليُقرِّبَهم إلى الله كما يُكْرِمُ الإنسانُ خادمَ الملكِ ليقرِّبَه من الملكِ، فيُعْطِي البوَّابَ دراهمَ أو كسوةً أو ما أشبه ذلك؛ ليدخلَه على الملكِ.

٤٧٩٣- فَالشِّرْكُ تَعْظِيمٌ بِجَهْلٍ مِنْ قِيَا سِ الـرَّبِّ بِـالأُمَرَاءِ وَالسُّـلْطَانِ

الشِّركُ تعظيمٌ لله، لكنَّه تعظيمٌ مَبْنِيٌّ على الجهلِ، كيف هذا الجهلُ؟ قال: «مِنْ قِيَاسِ الرَّبِّ بِالأُمَرَاءِ وَالسُّلْطَانِ»، قاسوا اللهَ على الخلقِ فقالوا: كما أنَّ ملوكَ الدُّنيا لا نصلُ إليهم إلَّا بوسائطَ فكذلك الرَّبُّ عزَّ وجلَّ لا نصلُ إليه إلَّا بوسائطَ.

٤٧٩٤- ظَنُّوا بِأَنَّ البَابَ لا يُغْشَى بِدُو نِ تَوَسُّطِ الشُّفَعَاءِ وَالأَعْوَانِ

هذا ظنُّهم.

٤٧٩٥- وَدَهَاهُمُ ذَاكَ القِيَاسُ المُسْتَبِيـ ـنُ فَسَادُهُ بِبَدِيهَةِ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَدَهَاهُمُ ذَاكَ القِيَاسُ» دَهَاهُمُ؛ يعني: أصابهم بداهيةٍ.

والمعنى: أنَّ هذا القياسَ قياسٌ مع الفارقِ العظيمِ، وفسادُه واضحٌ بَيِّنٌ بالبديهةِ، لا يحتاجُ إلى تفكيرٍ ولا إلى عُمقٍ؛ وذلك لظهورِ الفرقِ بين الرَّبِّ عزَّ وجلَّ وبين السُّلطانِ من أميرٍ أو خليفةٍ، أو ما أشبه ذلك، ووجهُ ذلك قال:

٤٧٩٦- الفَـرْقُ بَيْنَ اللهِ وَالسُّلْطَانِ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ

وَصَدَقَ رحمه اللهُ؛ فالفرقُ بين الله وبين ملوكِ الدُّنيا من كُلِّ وجهٍ، لو أراد الإنسانُ أن يعدَّها لعدَّ أوجهًا كثيرةً بين الله وبين ملوكِ الدُّنيا، يقولُ الشَّاعرُ:

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ[1]

فرقٌ عظيمٌ، فبنو آدمَ إذا سَأَلْتَهم ولو شيئًا يسيرًا غضبوا وملُّوا، فهذا يمكنُ في أوَّلِ مرَّةٍ أن يُلاقيَك بوجهٍ لا بأسَ به، والثَّانية يسودُّ وجهُه، والثَّالثة يَصِيحُ بك، والرَّابعةُ رُبَّما يضربُك إذا أمكن، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يحبُّ المُلحِّين في الدُّعاء، كُلَّما أَلْحَحْتَ عليهِ أحبَّك، فالفرقُ من كُلِّ الوجوهِ.

٤٧٩٧- إِنَّ المُلُوكَ لَعَاجِزُونَ وَمَا لَهُمْ عِلْمٌ بِأَحْوَالِ الدُّعَا بِأَذَانِ

قَوْلُهُ: «إِنَّ المُلُوكَ» بكسرِ همزةِ «إِنَّ»، وعلى قراءةِ الفتحِ: «أَنَّ المُلُوكَ»؛ أي: «الفرقُ أنَّ الملوكَ»، وهذا صحيحٌ لولا اللَّامُ، واللَّامُ إذا جاءت في خبرِ «إِنَّ» يجبُ

---

(١) البيت في المستطرف (ص:٣٣٠) بلا نسبة.

أن تُكْسَرَ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون:١]، لولا اللَّامُ لوجب الفتحُ فكانت: «وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ».

قَوْلُهُ: «**إِنَّ الْمُلُوكَ لَعَاجِزُونَ...**» وهذا صحيحٌ، فالمَلِكُ لا يمكنُ أن يعلمَ الذي وراء البابِ إلَّا بواسطةِ الحاجبِ، فالملوكُ لا يُحيطون بكُلِّ شيءٍ، فهم عاجزون عن الإحاطةِ، ولا يعلمون عن أحوالِ النَّاسِ؛ ولذا فإنَّ الشَّفيعَ يأتي إلى الملكِ ويقولُ: «**إنَّ فلانَ بنَ فلانٍ فيه كذا وكذا من الأحوالِ التي تُوجِبُ العطفَ عليه**»، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ كما سيذكر المؤلِّفُ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، ولا يخفى عليه هذا؛ إذَنْ لا حاجةَ للشَّفيعِ، هذا وجهٌ، الوجه الثَّاني ذَكَرُه فقال:

٤٧٩٨- كَلَّا وَلا هُـمْ قَـادِرُونَ عَـلَى الَّـذِي ... يَحْتَاجُـهُ الإِنْسَـانُ كُـلَّ زَمَـانِ

وهذا صحيحٌ، ليسوا قادرين على ما يحتاجُه الإنسانُ كُلَّ زمانٍ.

إِذَنْ لا بُدَّ من شفعاءَ ولا بُدَّ من خدمٍ يُعينونهم على قضاءِ الحوائجِ، فمثلًا: يأتي إنسانٌ يشفعُ عند الملكِ يقولُ: فلانٌ فيه كذا وكذا، فلانٌ فيه كذا وكذا، فيقول: أنا لا أستطيعُ أن أصلَ إليه، فيقول: أنا أكفيك، إذَنْ هم محتاجون إلى مَنْ يُعينُهم؛ لأنَّهم عاجزون عن إيصالِ الحوائجِ إلى أهلِها، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فليس بعاجزٍ.

٤٧٩٩- كَـلَّا وَمَـا تِلْـكَ الإِرَادَةُ فِـيهِمُ ... لِقَضَـا حَـوَائِجِ كُـلِّ مَـا إِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «**كُلِّ مَا إِنْسَانِ**» «**مَا**» هنا زائدةٌ؛ لأنَّك لو حَذَفْتَها لاستقام الكلامُ.

يعني: حتَّى لو فُرِضَ أنَّهم قادرون على قضاءِ الحوائجِ فإنَّه ليس عندهم إرادةٌ، فقد لا يُريدون، قد يكونُ الملكُ ذو السُّلطانِ قادرًا على أنْ يعطيَك حاجتَك ولكنَّه

لا يريدُ، فقد يكونُ له هوىً فيقضي حاجةَ هذا ولا يقضي حاجةَ هذا، أمَّا الرَّبُّ عزَّ وجلَّ فإنَّه منزَّهٌ عن هذا؛ لأنَّ أفعالَه كُلَّها عدلٌ وحكمةٌ، وهذا أيضًا فرقٌ ثالثٌ.

٤٨٠٠- كَلَّا وَلا وَسِعُوا الخَلِيقَةَ رَحْمَةً ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ هُمْ أُولُو النُّقْصَانِ

هذا من الفروقِ أيضًا؛ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ رحيمٌ، رحمتُه وَسِعَت كُلَّ شيءٍ، هؤلاء وإن قُدِّرَ فيهم رحمةٌ فإنَّ رحمتَهم لا تَسَعُ الخلائقَ؛ فلهذا يحتاجون إلى مَنْ يُذكِّرُهم ويصوِّرُ الشَّيءَ أمامهم بصورةٍ تقتضي العطفَ والرَّحمةَ والحنانَ.

٤٨٠١- فَلِذَلِكَ احْتَاجُوا إِلَى تِلْكَ الوَسَا ... ئِطِ حَاجَةً مِنْهُمْ مَدَى الأَزْمَانِ

وهذا فرقٌ ظاهرٌ، هذا فرقٌ واضحٌ جدًّا، فَذَوو السُّلطانِ في الدُّنيا كُلُّهم نقصٌ يحتاجون إلى ما يكمِّلُهم، والرَّبُّ عزَّ وجلَّ كاملٌ من كُلِّ وجهٍ لا يحتاجُ إلى مَنْ يكمِّلُه.

***

٤٨٠٢- أَمَّا الَّذِي هُوَ عَالِمٌ لِلْغَيْبِ مُقْـ ... ـتَدِرٌ عَلَى مَا شَاءَ ذُو إِحْسَانِ

٤٨٠٣- وَتَخَافُهُ الشُّفَعَاءُ لَيْسَ يُرِيدُ مِنْـ ... ـهُمْ حَاجَةً جَلَّ العَظِيمُ الشَّانِ

٤٨٠٤- بَلْ كُلُّ حَاجَاتٍ لَهُمْ فَإِلَيْهِ لَا ... لِسِوَاهُ مِنْ مَلَكٍ وَلا إِنْسَانِ

٤٨٠٥- وَلَهُ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا وَهُوَ الَّذِي ... فِي ذَاكَ يَأْذَنُ لِلشَّفِيعِ الدَّانِي

٤٨٠٦- لِمَنِ ارْتَضَى مِمَّنْ يُوَحِّدُهُ وَلَمْ ... يُشْرِكْ كَمَا قَدْ جَاءَ فِي القُرْآنِ

٤٨٠٧- سَبَقَتْ شَفَاعَتُهُ إِلَيْهِ فَهُوَ مَشْـ ... ـفُوعٌ إِلَيْهِ وَشَافِعٌ ذُو شَانِ

٤٨٠٨- فَلِـذَا أَقَـامَ الشَّـافِعِينَ كَرَامَـةً ... لَـهُمُ وَرَحْمَـةَ صَاحِبِ العِصْيَانِ

٤٨٠٩- فَالْكُـلُّ مِنْـهُ بَـدَا وَمَرْجِعُـهُ إِلَيْـ ... ـهِ وَحْـدَهُ مَـا مِـنْ إِلَـهٍ ثَـانِ

٤٨١٠- غَلِطَ الأُلَى جَعَلُوا الشَّفَاعَةَ مِنْ سِوَا ... هُ إِلَيْـهِ دُونَ الإِذْنِ مِـنْ رَحْمَـنِ

٤٨١١- هَذِي شَـفَاعَةُ كُـلِّ ذِي شِرْكٍ فَـلَا ... تَعْقِـدْ عَلَيْهَـا يَـا أَخَـا الإِيـمَانِ

٤٨١٢- وَاللهُ فِي القُـرْآنِ أَبْطَلَهَـا فَـلَا ... تَعْـدِلْ عَـنِ الآثَـارِ وَالقُـرْآنِ

الشرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- في بيانِ توحيدِ الألوهيَّةِ والفَرْقِ بين ما ادَّعاه المشركون من كونِهم يقولون: إنَّما نعبدُ هؤلاء ليكونوا شفعاءَ كالسُّلطانِ له شفعاءُ يشفَعون للنَّاسِ، يتوسَّطون لهم عند الملكِ، يقولُ: الفرقُ ظاهرٌ؛ لأنَّ أولئك الملوكَ والسَّلاطين قاصرون، يحتاجون إلى مَنْ يُنبِّهُهم وإلى مَنْ يُعِينُهم، وإلى مَنْ يُعْلِمُهم بأحوالِ النَّاسِ، وأمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فيقول:

٤٨٠٢- أَمَّا الَّذِي هُوَ عَالِـمٌ لِلْغَيْـبِ مُقْـ ... ـتَدِرٌ عَـلَى مَـا شَـاءَ ذُو إِحْسَـانِ

٤٨٠٣- وَتَخَافُهُ الشُّـفَعَاءُ لَـيْسَ يُرِيـدُ مِنْـ ... ـهُمْ حَاجَـةً جَـلَّ العَظِـيمُ الشَّـانِ

يعني: فإنَّه لا يحتاجُ إلى الشُّفعاءِ والوسطاءِ، بل حاجاتُ العبادِ منهم إلى الله مباشرةً بلا وسطاء، وهذا من كمالِ رحمتِه -سبحانه وتعالى- بعبادِه أنْ تكونَ حاجةُ العبادِ من العبادِ إليه مباشرةً بدون واسطةٍ، لو كان ثَمَّة واسطةٌ فمَنْ يأتي بهذه الواسطةِ؟ ومتى نُدركُ هذه الواسطةَ؟ ومتى ترضى هذه الواسطةُ أن ترفعَ الدُّعاءَ؟ ولكنَّها من العبدِ إلى ربِّه مباشرةً، بينما الشُّفَعاء في ملوكِ الدُّنيا قد لا يخافون

الملوكَ، رُبَّما يكونُ شفيعٌ وهو لا يبالي بهذا الملكِ أو هذا السُّلطانِ، أمَّا الشُّفعاءُ عند الله فكُلُّهم محتاجٌ إلى الله، وكُلُّهم يخافونه.

٤٨٠٤- بَلْ كُلُّ حَاجَاتٍ لَـهُمْ فَإِلَيْـهِ لَا لِسِـوَاهُ مِـنْ مَلَـكٍ وَلا إِنْسَـانِ

كُلُّ الحاجاتِ لهم إلى الله لا لسواه، فهم محتاجون إلى الله، وأمَّا الوزراءُ والشُّفعاءُ لملوكِ الدُّنيا فهؤلاء -أعني: ملوكَ الدُّنيا- محتاجون إليهم.

٤٨٠٥- وَلَـهُ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَـا وَهُـوَ الَّـذِي فِي ذَاكَ يَـأْذَنُ لِلشَّـفِيعِ الـدَّانِي

قَوْلُهُ: «**وَلَهُ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا**»؛ لقولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزُّمر:٤٤].

قَوْلُهُ: «**وَهْوَ الَّذِي فِي ذَاكَ يَأْذَنُ لِلشَّفِيعِ الدَّانِي**» هذا وجهُ كونِ كُلِّ الشَّفاعاتِ له أنَّه لا يمكنُ أن تُوجَدَ الشَّفاعةُ إلَّا بإذنِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، حتَّى أعلى الخلقِ مقامًا وهو محمَّد ﷺ لا يشفعُ إلَّا بإذنِ الله.

٤٨٠٦- لِـمَنِ ارْتَضَى مِـمَّنْ يُوَحِّـدُهُ وَلَـمْ يُشْـرِكْ كَـمَا قَـدْ جَـاءَ فِي القُـرْآنِ

فالشَّفاعةُ لا بُدَّ فيها من شرطين:

الشَّرط الأوَّل: رضا الله عن الشَّافعِ والمشفوعِ له، وعلى هذا فالأصنامُ لا تشفعُ؛ لأنَّ اللهَ لا يرضى عنها ولا يرضاها، فالشَّافعُ لا بُدَّ أن يكونَ أيضًا مَرضِيًّا عند الله عزَّ وجلَّ، فلا يمكنُ أن يأذنَ لكافرٍ أن يشفعَ لأحدٍ؛ لأنَّه إذا كان الكفرُ مانعًا في المشفوعِ له ففي الشَّافعِ من بابٍ أولى، والمشركون لا تصحُّ لهم الشَّفاعةُ؛ لأنَّ اللهَ لا يَرْضَى عنهم.

فلا نعلمُ أحدًا من المشركين أنَّه شُفِعَ له وقُبِلَت شفاعتُه إلَّا واحدًا وهو أبو طالب، فإنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- قَبِلَ شفاعةَ النَّبيِّ ﷺ فيه، لا لأنَّه عمُّه ولكن لأنَّه أَسْدَى خيرًا إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ونصَرَه ودافع عنه، فجزاه اللهُ عزَّ وجلَّ أن أَذِنَ لرسولِه -صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم- أن يشفعَ له، ولكنَّ هذه الشَّفاعةَ لم تنقذْه من النَّارِ، بل خُفِّفَ عنه حتَّى كان في ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ عَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ[1]، والعياذُ بِالله، وإلَّا فمن المعلومِ أنَّ المشركين لا يمكنُ أن يأذنَ اللهُ بالشَّفاعةِ فيهم؛ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].

الشَّرط الثَّاني: أنْ يأذنَ في الشَّفاعةِ، فإن لم يأذن فلا شفاعةَ، ودليلُ هذا قولُه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقولُه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه:١٠٩]، فلا بُدَّ من رضا الله عن الشَّافعِ والمشفوعِ له، ولا بُدَّ من إذنِه، ثُمَّ قال:

٤٨٠٧- سَبقَتْ شَفَاعَتُهُ إِلَيْهِ فَهْوَ مَشْـ ... ـفُوعٌ إِلَيْهِ وَشَافِعٌ ذُو شَانِ

يعني: أنَّ الشَّافعَ سبقت شفاعتُه إلى الله عزَّ وجلَّ، فاللهُ مشفوعٌ إليه؛ يعني: وشافعٌ؛ أي: آذِنٌ في الشَّفاعةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]، وهذا الذي يظهرُ لي من البيتِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

٤٨٠٨- فَلِذَا أَقَامَ الشَّافِعِينَ كَرَامَةً لَهُمُ وَرَحْمَةَ صَاحِبِ العِصْيَانِ

يعني: أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- أَذِنَ في الشَّفاعةِ لِسَبَبَيْنِ هما:

السَّببُ الأوَّلُ: إكرامُ الشَّافعِ حيث قبل شفاعتَه، ولا شكَّ أنَّ قَبولَ شفاعةِ الشَّافعِ إكرامٌ له، أنت لو أَتَيْتَ إلى ملكٍ من ملوكِ الدُّنيا وشفعت إليه لشخصٍ ثُمَّ قَبِلَ شفاعتَك أليس هذا إكرامًا لك؟ الجوابُ: بلى، إذَنْ إذْنُ الله بالشَّفاعةِ لِمَن أَذِنَ له إكرامٌ له؛ ولهذا سمَّى اللهُ عزَّ وجلَّ شفاعةَ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- المقامَ المحمودَ[1]، وهذا إكرامٌ من الله له.

السَّببُ الثَّاني: رحمةُ العاصي، أنَّ اللهَ تعالى يرحمُ العاصيَ بسبب شفاعةِ الشَّافعِ.

فللشَّفاعةِ إذَنْ فائدتان:

الفائدةُ الأولى: إكرامُ الشَّافعِ.

والفائدةُ الثَّانيةُ: الرَّحمةُ بالمشفوعِ له.

٤٨٠٩- فَالْكُلُّ مِنْهُ بَدَا وَمَرْجِعُهُ إِلَيْـ ـهِ وَحْدَهُ مَا مِنْ إِلَهٍ ثَانِ

قَوْلُهُ: «الكُلُّ مِنْهُ بَدَا وَمَرْجِعُهُ إِلَيْهِ»؛ أي: الشَّفاعةُ والإذنُ فيها وقَبولُها كُلُّه من الله وإليه.

فشفاعةُ الشَّافعِ بإذنِ الله، ونفعُ شفاعتِه بإذنِ الله، وقَبولُها بإذنِ الله.

---

(١) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ اشْفَعْ، يَا فُلَانُ اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ». أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، رقم (٤٤٤١).

٤٨١٠- غَلِطَ الأُلَى جَعَلُوا الشَّفَاعَةَ مِنْ سِوَا ... هُ إِلَيْهِ دُونَ الإِذْنِ مِنْ رَحْمَنِ

قَوْلُهُ: «الأُلَى»؛ يعني: الذين.

وهؤلاء هم المشركون الذين جعلوا الشَّفاعةَ مِن سِواه دون إذنِه، فقالوا: إنَّ آلهتَهم تَشفَعُ لهم من دونِ الله، ومعلومٌ أنَّ آلهتَهم لا يمكنُ أن تُقْبَلَ شفاعتُها؛ لأنَّ اللهَ لا يرضاها ولا يرضى عابديها، فقد انتفى فيها الشَّرطُ الأَوَّلُ وهو رضا الله عن الشَّافعِ والمشفوعِ له، هم ظنُّوا أنَّ هذه الأصنامَ والأوثانَ تنفعُهم وتشفعُ لهم عند الله بدون إذنِه فغلطوا.

٤٨١١- هَذِي شَفَاعَةُ كُلِّ ذِي شِرْكٍ فَلَا ... تَعْقِدْ عَلَيْهَا يَا أَخَا الإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «لا تَعْقِدْ عَلَيْهَا»؛ أي: لا تعتمدْ عليها؛ فإنَّها باطلةٌ.

٤٨١٢- وَاللهُ فِي القُرْآنِ أَبْطَلَهَا فَلَا ... تَعْدِلْ عَنِ الآثَارِ وَالقُرْآنِ

أَبْطَلَهَا في قولِه تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدَّثِّر:٤٨]، فإذا كان اللهُ أبطلها فلا تعقدْ عليها ولا تؤمِّلْ عليها ولا تعدلْ عن الآثارِ والقرآنِ.

***

٤٨١٣- وَكَذَا الوَلَايَةُ كُلُّهَا لله لَا ... لِسِوَاهُ مِنْ مَلَكٍ وَلا إِنْسَانِ

٤٨١٤- وَالله لَمْ يَفْهَمْ أُولُو الإِشْرَاكِ ذَا ... وَرَآهُ تَنْقِيصًا أُولُو النُّقْصَانِ

٤٨١٥- إِذْ قَدْ تَضَمَّنَ عَزْلَ مَنْ يُدْعَى سِوَى الرْ ... رَحْمَنِ بَلْ أَحَدِيَّةَ الرَّحْمَنِ

٤٨١٦- بَلْ كُلُّ مَدْعُوٍّ سِوَاهُ مِنْ لَدُنْ ... عَرْشِ الإِلَهِ إِلَى الحَضِيضِ الدَّانِي

٤٨١٧- هُوَ بَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ وَدُعَاءُ عَا ... بِدِهِ لَهُ مِنْ أَبْطَلِ البُطْلَانِ

٤٨١٨- فَلَـهُ الوِلايَـةُ وَالوَلايَـةُ مَـا لَنَـا ... مِـنْ دُونِـهِ وَالٍ مِـنَ الأَكْـوَانِ

٤٨١٩- فَـإِذَا تَـوَلَّاهُ امْـرُؤٌ دُونَ الـوَرَى ... طُـرًّا تَـوَلَّاهُ العَظِـيمُ الشَّـانِ

٤٨٢٠- وَإِذَا تَـوَلَّى غَـيْرَهُ مِـنْ دُونِـهِ ... وَلَّاهُ مَـا يَـرْضَى بِـهِ لِـهَوَانِ

٤٨٢١- فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا وَبَعْـدَ مَـمَاتِهِ ... وَكَـذَاكَ عِنْـدَ قِيَامَـةِ الأَبْـدَانِ

٤٨٢٢- حَقًّـا يُنَـادِيهِمْ نِـدَا سُـبْحَانَهُ ... يَـوْمَ المَعَـادِ فَيَسْـمَعُ الـثَّقَلانِ

الشرحُ

٤٨١٣- وَكَـذَا الوَلايَـةُ كُلُّهَـا للهِ لَا ... لِسِـوَاهُ مِـنْ مَلَـكٍ وَلا إِنْسَـانِ

الوَلايةُ لله وحدَه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف:٤٤]، فلا أحدَ يتولَّى العبادَ إلَّا ربُّهم عزَّ وجلَّ، لا يتولَّاهم مَلَكٌ ولا نبيٌّ، ولا شجرٌ ولا حجرٌ، ولا أيُّ أحدٍ، فالوَلايةُ لله وحدَه.

٤٨١٤- وَاللهِ لَـمْ يَفْهَـمْ أُولُـو الإِشْرَاكِ ذَا ... وَرَآهُ تَنْقِيصًـا أُولُـو النُّقْصَـانِ

يعني: لم يفهم أصحابُ الشِّركِ أنَّ الولايةَ لله وحدَه، ورآه تنقيصًا أولو النُّقصان؛ أي: تنقيصًا للأولياءِ إذا لم نتخذْهم شفعاءَ، قالوا: هذا تنقُّصٌ، كيف تقولُ: إنَّ هذا الوليَّ لا يستطيعُ أن يشفعَ، لا يملكُ شيئًا، هذا تنقُّصٌ له.

٤٨١٥- إِذْ قَدْ تَضَمَّنَ عَزْلَ مَنْ يُدْعَى سِوَى الرْ ... رَحْمَـنِ بَـلْ أَحَدِيَّـةَ الـرَّحْمَنِ

يعني: قولُك هذا -إنَّ الولايةَ لله وحدَه، وإنَّه لا ولايةَ لأحدٍ- تضمَّن عَزْلَ مَنْ يُدْعَى سوى الرَّحمن، «**بَلْ أَحَدِيَّةَ الرَّحْمَنِ**»، و«**بَلْ**» هنا بمعنى «**الواو**»؛ يعني: وتضمَّن أحديَّةَ الرَّحمنِ؛ أي: انفرادَه في هذا، هذا معنى البيتِ فيما يظهرُ.

٤٨١٦- بَلْ كُلُّ مَدْعُوٍّ سِوَاهُ مِنْ لَدُنْ عَرْشِ الإِلَهِ إِلَى الحَضِيضِ الدَّانِي

٤٨١٧- هُوَ بَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ وَدُعَاءُ عَا بِدِهِ لَهُ مِنْ أَبْطَلِ البُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ كُلُّ مَدْعُوٍّ سِوَاهُ... هُوَ بَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ»؛ لقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠]، وهذا القولُ من كلامِ ابن القيِّم مُستأنَفٌ.

قَوْلُهُ: «وَدُعَاءُ عَابِدِهِ لَهُ مِنْ أَبْطَلِ البُطْلَانِ»؛ لأنَّه إذا بطل بنفسِه لَزِمَ أن يبطلَ دعاؤه؛ إذ إنَّ دعاءَ الباطلِ باطلٌ.

٤٨١٨- فَلَهُ الوِلَايَةُ وَالوَلَايَةُ مَا لَنَا مِنْ دُونِهِ وَالٍ مِنَ الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «فَلَهُ الوِلَايَةُ وَالوَلَايَةُ» الوِلَايَةُ؛ يعني: تولِّي الأمور، والوَلاية منَّا له نتولَّاه.

يعني: هو الذي يتولَّى أمورَنا، ونحن الذين نتولَّاه وحدَه دون غيرِه.

٤٨١٩- فَإِذَا تَوَلَّاهُ امْرُؤٌ دُونَ الوَرَى طُرًّا تَوَلَّاهُ العَظِيمُ الشَّانِ

قَوْلُهُ: «إِذَا تَوَلَّاهُ امْرُؤٌ»؛ أي: تولَّى اللهَ دون الورى فلم يتولَّهم، وخصَّ الوِلايةَ بالله، تولَّاه العظيمُ الشَّانِ.

فهنا ولايتان: ولايةٌ منَّا لله، وولايةٌ من الله لنا، فَمَنْ تَوَلَّى اللهَ تولَّاه اللهُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦]، فَمَنْ تَوَلَّى اللهَ تولَّاه اللهُ، ومَنْ لم يتولَّ اللهَ تخلَّى عنه اللهُ؛ ولهذا قال:

٤٨٢٠- وَإِذَا تَوَلَّى غَيْرَهُ مِنْ دُونِهِ وَلَّاهُ مَا يَرْضَى بِهِ لِهَوَانِ

٤٨٢١- فِي هَــذِهِ الــدُّنْيَا وَبَعْــدَ مَــمَاتِهِ   وَكَــذَاكَ عِنْــدَ قِيَامَــةِ الأَبْــدَانِ

إذا تولَّى الإنسانُ غيرَ الله ولَّاه اللهُ إيَّاه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النِّساء:١١٥]، وعلى هذا فتكون الولايةُ من الله تابعةً لولايةِ الله، إن تَولَّيْتَه تولَّاك، وإن تَولَّيْتَ غيرَه تخلَّى عنك ووكلك إلى مَنْ تَوَلَّيْتَه، في ثلاثة مواضع، أو ثلاثة دُورٍ: في الدُّنيا، وبعد المماتِ، وعند قيامةِ الأبدانِ، نسألُ اللهَ أن يتولَّانا جميعًا في هذه المواضعِ كُلِّها.

٤٨٢٢- حَقًّــا يُنَــادِيهِمْ نِــدَا سُــبْحَانَهُ   يَــوْمَ المَعَــادِ فَيَسْــمَعُ الــثَّقَلَانِ

يعني: أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- يُناديهم يومَ القيامةِ أنَّ مَنْ كان يعبدُ أحدًا فليتبعْه، فيقوم مَنْ يعبدُ الشَّمسَ يتبعُ الشَّمسَ، ومَنْ يعبدُ القمرَ يتبعُ القمرَ وهكذا، ويبقى مَنْ يعبدُ اللهَ وحده فيتولَّاهم اللهُ -سبحانه وتعالى- بعنايتِه[1].

مسألة: وهل تولِّي غير الله عزَّ وجلَّ يُعْذَرُ فيه الإنسانُ بالجهلِ؟ الصَّحيحُ أنَّ كُلَّ شيءٍ يُعْذَرُ فيه الإنسانُ بالجهلِ، ولكن قد لا يُعْذَرُ من جهةٍ أخرى وهي التَّفريطُ وعدمُ السُّؤالِ؛ يعني: قد يبلغُ هذا المتولِّي أنَّ هذا لا يجوزُ وأنَّه شركٌ، فيقول: نحن وجدنا عليه آباءَنا، مشايخُنا لا ينهوننا عنه، حينئذٍ نعرفُ أنَّه مفرِّطٌ فلا يُعْذَرُ، لكن لو لم يُنبَّه على هذا وكان ينتمي إلى الإسلامِ ويصلِّي ويزكِّي ويصومُ ويحجُّ لكن فيه هذا البلاءُ وهو يعتقدُ أنَّه ليس بشيءٍ فهذا لا يُحْكَمُ بكفرِه.

***

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

٤٨٢٣- يَـا مَـنْ يُرِيـدُ وِلايَـةَ الـرَّحْمَنِ دُو ... نَ وِلايَــةِ الشَّــيْطَانِ وَالأَوْثَــانِ

٤٨٢٤- فَـارِقْ جَمِيـعَ النَّـاسِ فِي إِشْرَاكِهِـمْ ... حَتَّــى تَنَــالَ وِلايَــةَ الــرَّحْمَنِ

٤٨٢٥- يَكْفِيكَ مَنْ وَسِعَ الـخَلائِقَ رَحْمَـةً ... وَكِفَايَـةً ذُو الفَضْـلِ وَالإِحْسَـانِ

٤٨٢٦- يَكْفِيكَ مَنْ لَـمْ تَخْلُ مِـنْ إِحْسَانِهِ ... فِي طَرْفَــةٍ بِتَقَلُّــبِ الأَجْفَــانِ

٤٨٢٧- يَكْفِيـكَ رَبٌّ لَــمْ تَـزَلْ أَلْطَافُـهُ ... تَــأْتِي إِلَيْــكَ بِرَحْمَــةٍ وَحَنَـانِ

٤٨٢٨- يَكْفِيـكَ رَبٌّ لَـمْ تَـزَلْ فِي سَـتْرِهِ ... وَيَـرَاكَ حِـينَ تَجِـيءُ بِالعِصْـيَانِ

٤٨٢٩- يَكْفِيكَ رَبٌّ لَـمْ تَـزَلْ فِي حِفْظِـهِ ... وَوِقَايَــةٍ مِنْــهُ مَـدَى الأَزْمَــانِ

٤٨٣٠- يَكْفِيـكَ رَبٌّ لَـمْ تَـزَلْ فِي فَضْـلِهِ ... مُتَقَلِّبًــا فِي السِّــرِّ وَالإِعْــلانِ

الشـرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه الله تعالى- في بابِ ذكرِ الولايةِ وأنَّ مَنْ تَوَلَّى غيرَ الله ولَّاه اللهُ ما تولَّى، يقولُ:

٤٨٢٣- يَـا مَـنْ يُرِيـدُ وِلايَـةَ الـرَّحْمَنِ دُو ... نَ وِلايَــةِ الشَّــيْطَانِ وَالأَوْثَــانِ

٤٨٢٤- فَـارِقْ جَمِيـعَ النَّـاسِ فِي إِشْرَاكِهِـمْ ... حَتَّــى تَنَــالَ وِلايَــةَ الــرَّحْمَنِ

مَنْ أراد ولايةَ الرَّحمنِ دُون ولايةِ الشَّيطانِ فليفارقْ جميعَ النَّاسِ في إشراكِهم حتَّى ينالَ ولايةَ الرَّحمنِ.

٤٨٢٥- يَكْفِيكَ مَنْ وَسِعَ الـخَلائِقَ رَحْمَـةً ... وَكِفَايَـةً ذُو الفَضْـلِ وَالإِحْسَـانِ

أي: يَكْفِيكَ عَنْ غَيْرِهِ مَنْ وَسِعَ الخَلَائِقَ رَحْمَةً وَكِفَايَةً ذُو الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ.

٤٨٢٦- يَكْفِيكَ مَنْ لَمْ تَخْلُ مِنْ إِحْسَانِهِ في طَرْفَةٍ بِتَقَلُّبِ الأَجْفَانِ

يعني: أنَّه يكفيك أيضًا مَنْ لم تَخْلُ من إحسانِه طرفةَ عينٍ.

٤٨٢٧- يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ أَلْطَافُهُ تَأْتِي إِلَيْكَ بِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

٤٨٢٨- يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ في سَتْرِهِ وَيَرَاكَ حِينَ تَجِيءُ بِالعِصْيَانِ

يكفيك الرَّبُّ الذي يسترُ عليك معصيتَك وهو يراك، ولو أَطْلَعَ الخلقَ على عيوبِك لجفاك كُلُّ النَّاسِ، ولكنَّه عزَّ وجلَّ يعلمُ بعيوبِك ويسترُها -سبحانه وتعالى- لُطفًا وإحسانًا.

٤٨٢٩- يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ في حِفْظِهِ وَوِقَايَةٍ مِنْهُ مَدَى الأَزْمَانِ

اللهُ حفيظٌ على عبادِه، وقد وَكَّلَ ملائكةً كرامًا يحفظونهم، قال اللهُ تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

٤٨٣٠- يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ في فَضْلِهِ مُتَقَلِّبًا في السِّرِّ وَالإِعْلانِ

الإنسانُ -ولاسيَّما المؤمنُ- متقلِّبٌ في فضلِ الله في السِّرِّ والإعلانِ، إن أَصَابَتْهُ ضرَّاءُ صَبَرَ فكان خيرًا له، وإنْ أصابته سرَّاءُ شَكَرَ فكان خيرًا له.

* * *

٤٨٣١- يَدْعُوهُ أَهْلُ الأَرْضِ مَعْ أَهْلِ السَّمَا ءِ فَكُلَّ يَوْمٍ رَبُّنَا في شَانِ

٤٨٣٢- وَهُوَ الكَفِيلُ بِكُلِّ مَا يَدْعُونَهُ لا يَعْتَرِي جَدْوَاهُ مِنْ نُقْصَانِ

٤٨٣٣- فَتَوَسُّطُ الشُّفَعَاءِ وَالشُّرَكَاءِ وَالظْـ ظُهَرَاءِ أَمْرٌ بَيِّنُ البُطْلانِ

٤٨٣٤- مَا فِيهِ إِلَّا مَحْضُ تَشْبِيهٍ لَهُمْ ... بِاللهِ وَهْوَ فَأَقْبَحُ البُهْتَانِ

٤٨٣٥- مَعَ قَصْدِهِمْ تَعْظِيمَهُ سُبْحَانَهُ ... مَا عَطَّلُوا الأَوْصَافَ لِلرَّحْمَنِ

٤٨٣٦- لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ لَيْسَ لَدَيْهِ إِلْـ ... ـلَا النَّفْيُ أَيْنَ النَّفْيُ مِنْ إِيمَانِ

٤٨٣٧- وَالقَلْبُ لَيْسَ يَقَرُّ إِلَّا بِالتَّعَبْـ ... ـبُدِ فَهْوَ يَدْعُوهُ إِلَى الأَكْوَانِ

٤٨٣٨- فَتَرَى المُعَطِّلَ دَائِمًا فِي حَيْرَةٍ ... مُتَنَقِّلًا فِي هَذِهِ الأَعْيَانِ

٤٨٣٩- يَدْعُو إِلَهًا ثُمَّ يَدْعُو غَيْرَهُ ... ذَا شَأْنُهُ أَبَدًا مَدَى الأَزْمَانِ

٤٨٤٠- وَتَرَى المُوَحِّدَ دَائِمًا مُتَنَقِّلًا ... بِمَنَازِلِ الطَّاعَاتِ وَالإِحْسَانِ

٤٨٤١- مَا زَالَ يَنْزِلُ فِي الوَفَاءِ مَنَازِلًا ... وَهِيَ الطَّرِيقُ لَهُ إِلَى الرَّحْمَنِ

٤٨٤٢- لَكِنَّمَا مَعْبُودُهُ هُوَ وَاحِدٌ ... مَا عِنْدَهُ رَبَّانِ مَعْبُودَانِ

الشرحُ

٤٨٣١- يَدْعُوهُ أَهْلُ الأَرْضِ مَعْ أَهْلِ السَّمَا ... ءِ فَكُلَّ يَوْمٍ رَبُّنَا فِي شَانِ

سبحانه وتعالى كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ! يُقلِّبُ القلوبَ والأفئدةَ والأبصارَ حسَبَ ما تقتضيه حكمتُه؛ يُغْنِي فقيرًا، ويُفقر غنيًّا، ويُعَلِّمُ جاهلًا، ويوسِّعُ لهذا، ويضيِّقُ على هذا، ويحيي ويُميت، كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ.

٤٨٣٢- وَهُوَ الكَفِيلُ بِكُلِّ مَا يَدْعُونَهُ ... لا يَعْتَرِي جَدْوَاهُ مِنْ نُقْصَانِ

الكَفِيلُ من أسماءِ الله؛ يعني: الضَّامن لكُلِّ ما يدعوه، لو دعاه أهلُ الأرضِ وأهلُ السَّماءِ الإنسُ والجنُّ وأعطى كُلَّ إنسانٍ مسألتَه ما نقص ذلك ممَّا عنده

إلَّا كما ينقصُ المِخْيَطُ إذا غُمِسَ في البحرِ[1]، لو غَمَسْتَ مخيطًا في البحرِ ثُمَّ نَزَعْتَهُ هل ينقصُ البحر شيئًا؟ أبدًا لا ينقصُ البحر شيئًا؛ ولهذا يقولُ: «لَا يَعْتَرِي جَدْوَاهُ»؛ أي: عطاياه «مِنْ نُقْصَانِ».

٤٨٣٣- فَتَوَسُّطُ الشُّفَعَاءِ وَالشُّرَكَاءِ وَالظُّـ ... ـهَرَاءِ أَمْرٌ بَيِّنُ الْبُطْلَانِ

يعني: إذَنْ لا حاجةَ لوسيطٍ بين الله وبين العبادِ، لا شافعَ، ولا شريكَ، ولا ظهيرَ، والظَّهيرُ هو المُعينُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، وقد بَيَّنَ اللهُ هذه الأمورَ الثَّلاثةَ التي ذكرها المؤلِّفُ في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣]، فنفى كُلَّ ما يتعلَّقُ به المشركون.

٤٨٣٤- مَا فِيهِ إِلَّا مَحْضُ تَشْبِيهٍ لَهُمْ ... بِاللهِ وَهْوَ فَأَقْبَحُ الْبُهْتَانِ

قَوْلُهُ: «مَا فِيهِ إِلَّا مَحْضُ تَشْبِيهٍ لَهُمْ بِاللهِ»؛ يعني: هؤلاء الذين اتَّخذوا الشُّفعاءَ والوُسَطاءَ شبَّهوهم بالله عزَّ وجلَّ، «وَهْوَ فَأَقْبَحُ الْبُهْتَانِ».

قَوْلُهُ: «وَهْوَ فَأَقْبَحُ الْبُهْتَانِ»، يعني: تشبيهُ الخالقِ بالمخلوقِ أقبحُ البهتانِ.

٤٨٣٥- مَعَ قَصْدِهِمْ تَعْظِيمَهُ سُبْحَانَهُ ... مَا عَطَّلُوا الأَوْصَافَ لِلرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «مَعَ قَصْدِهِمْ تَعْظِيمَه سُبْحَانَهُ»؛ يعني: الذين اتَّخذوا هذه الأصنامَ شُفَعاءَ قصدوا بذلك تعظيمَ الله، ولم يُعطِّلوا أوصافَه.

قَوْلُهُ: «مَا عَطَّلُوا الأَوْصَافَ لِلرَّحْمَنِ» هذا تنديدٌ بالمعطلِّةِ؛ ولهذا قال:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

٤٨٣٦- لَكِنْ أَخُو التَّعْطِيلِ لَيْسَ لَدَيْهِ إِلْـ ... ـلَا النَّفْيُ أَيْنَ النَّفْيُ مِنْ إِيمَانِ

المعطِّلُ لا يصفُ اللهَ إلَّا بالنَّفي، لا يصفُه بالإثباتِ، فأين النَّفْي من إيمانٍ؟! لا إيمانَ لمن ينفي؛ لأنَّ النَّفيَ عَدَمٌ، والعَدَمُ ليس بشيءٍ، إذا قال: إنَّ اللهَ لا يسمعُ ولا يبصرُ وليس له وجهٌ ولا عينٌ، وأخذ ينفي الصِّفاتِ، يؤولُ به الأمرُ إلى العَدَمِ.

٤٨٣٧- وَالقَلْبُ لَيْسَ يَقَرُّ إِلَّا بِالتَّعَبْـ ... ـبُدِ فَهْوَ يَدْعُوهُ إِلَى الأَكْوَانِ

القلبُ لا بُدَّ له من معبودٍ، فَمَن الذي يعبدُ؟ إمَّا أن يعبدَ اللهَ وإمَّا أن يعبدَ غيرَ اللهِ؛ ولهذا قال: «**فَهْوَ يَدْعُوهُ إِلَى الأَكْوَانِ**»؛ يعني: أنَّ قلبَ المعطِّلِ رُبَّما يصلُ به الحالُ إلى أن يعبدَ الأكوانَ كما هو مذهبُ أهلِ وحدةِ الوجودِ الذين يقولون: إنَّ الكونَ كُلَّه هو اللهُ.

٤٨٣٨- فَتَرَى المُعَطِّلَ دَائِمًا فِي حَيْرَةٍ ... مُتَنَقِّلًا فِي هَذِهِ الأَعْيَانِ

٤٨٣٩- يَدْعُو إِلَهًا ثُمَّ يَدْعُو غَيْرَهُ ... ذَا شَأْنُهُ أَبَدًا مَدَى الأَزْمَانِ

نسألُ اللهَ العافيةَ، المعطِّلُ أحيانًا يَعبُدُ هذا، وأحيانًا يَعبُدُ هذا، وأحيانًا يَعبُدُ هذا؛ لأنَّه ليس له ما يُعَيِّنُ معبودَه بصفاتِه، فهو حائرٌ.

٤٨٤٠- وَتَرَى المُوَحِّدَ دَائِمًا مُتَنَقِّلًا ... بِمَنَازِلِ الطَّاعَاتِ وَالإِحْسَانِ

٤٨٤١- مَا زَالَ يَنْزِلُ فِي الوَفَاءِ مَنَازِلًا ... وَهِيَ الطَّرِيقُ لَهُ إِلَى الرَّحْمَنِ

٤٨٤٢- لَكِنَّمَا مَعْبُودُهُ هُوَ وَاحِدٌ ... مَا عِنْدَهُ رَبَّانِ مَعْبُودَانِ

الموحِّدُ متنقِّلٌ في منازلِ الطَّاعاتِ من صلاةٍ وذكرٍ وقُرآنٍ وصَدَقةٍ وصيامٍ وعِلْمٍ وأمرٍ بالمعروفِ ونهيٍ عن المنكرِ، والمعبودُ عنده واحدٌ لا يتنقَّلُ فيه.

فصـــل

في مَثَلِ المُشْرِكِ والمُعطِّلِ

٤٨٤٣- أَيْنَ الَّذِي قَدْ قَـالَ فِي مَلَـكٍ عَظِيــ ـــمٍ لَسْـتَ فِينَـا قَـطُّ ذَا سُـلْطَانِ
٤٨٤٤- مَا فِي صِفَاتِكَ مِنْ صِفَاتِ المُلْكِ شَيْ ءٌ كُلُّهَـــا مَسْـــلُوبَةُ الوِجْـــدَانِ
٤٨٤٥- فَهَلِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ الـمُلْكِ أَوْ دَبَّـرْتَ أَمْـرَ الـمُلْكِ وَالسُّـلْطَانِ
٤٨٤٦- أَوْ قُلْـتَ مَرْسُـومًا تُنَفِّـذُهُ الرَّعَـا يَـا أَوْ نَطَقْـتَ بِلَفْظَـةٍ بِبَيَـانِ
٤٨٤٧- أَوْ كُنْـتَ ذَا أَمْـرٍ وَذَا نَهْـيٍ وَتَكْــ ـــلِيمٍ لِـمَنْ وَافَى مِـنَ البُلْـدَانِ
٤٨٤٨- أَوْ كُنْـتَ ذَا سَـمْعٍ وَذَا بَصَـرٍ وَذَا عِلْـمٍ وَذَا سُـخْطٍ وَذَا رِضْـوَانِ
٤٨٤٩- أَوْ كُنْـتَ قَـطُّ مُكَلِّـمًا مُتَـكَلِّمًا مُتَصَـرِّفًا بِالفِعْـلِ كُـلَّ زَمَـانِ
٤٨٥٠- أَوْ كُنْتَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ حَقِيقَةَ الْـ ـفِعْلِ الَّـذِي قَـدْ قَـامَ بِالأَذْهَـانِ
٤٨٥١- أَوْ كُنْـتَ حَيًّـا فَـاعِلًا بِمَشِـيئَةٍ وَبِقُـدْرَةٍ أَفْعَـالَ ذِي السُّـلْطَانِ
٤٨٥٢- فِعْـلٌ يَقُـومُ بِغَـيْرِ فَاعِلِـهِ مُحَـا لٌ غَـيْرُ مَعْقُـولٍ لِـذِي الإِنْسَـانِ
٤٨٥٣- بَلْ حَالَةُ الفَعَّـالِ قَبْـلَ وَمَـعْ وَبَعْــ ـدُ هِـيَ الَّتِـي كَانَـتْ بِـلا فُرْقَـانِ
٤٨٥٤- وَاللهِ لَسْـتَ بِفَاعِـلٍ شَـيْئًا إِذَا مَا كَانَ شَـأْنُكَ مِثْـلَ هَـذَا الشَّـانِ
٤٨٥٥- لا دَاخِـلًا فِينَـا وَلَسْـتَ بِخَـارِجٍ عَنَّـا خَيَـالًا دُرْتَ فِي الأَذْهَـانِ

٤٨٥٦- فَبِـأَيِّ شَيْءٍ كُنْـتَ فِينَـا مَالِكًـا مُلْكًـا مُطَاعًـا قَـاهِرَ السُّـلْطَانِ

٤٨٥٧- إِسْـمًا وَرَسْـمًا لا حَقِيقَـةَ تَحْتَـهُ شَأْنُ الـمُلُوكِ أَجَلُّ مِـنْ ذَا الشَّـانِ

الشرحُ

قد تقدَّم نحوُ هذا البحثِ، وأنَّ ابنَ القيِّمِ -رحمه اللهُ- يرى أنَّ فتنةَ التَّعطيلِ أشدُّ من فتنة الشِّركِ، وقد قَرَّرَ ذلك في هذا الفصلِ، وهذه الأبياتُ في الذين لا يَصِفون اللهَ تعالى بالثُّبوتِ أبدًا، وإنَّما يصفونه بالسُّلوبِ «النَّفي»، وهؤلاء هم غُلَاةُ الجهميَّةِ، يقولون: لا يمكنُ أن نصفَ اللهَ تعالى بشيءٍ ثبوتيٍّ أبدًا؛ بِحُجَّةِ أنَّنا لو وصَفْناه بالشَّيء الثُّبوتيِّ شبَّهناه بالموجوداتِ، فقِيلَ لهم: وإذا وصَفتُموه بشيءٍ عَدَمِيٍّ شبَّهتموه بالمعدوماتِ، فتكايُس بعضُهم وقالوا: لا نَصِفُه بالوجودِ ولا بالعَدَمِ، فنقولُ لهم: إذَنْ شبَّهتموه بالمستحيلاتِ الممتنعاتِ.

وكلامُ ابنِ القيِّمِ كُلُّه في الذين لا يصفون اللهَ بالثُّبوتِ أبدًا، قال رحمه الله:

٤٨٤٣- أَيْنَ الَّذِي قَدْ قَـالَ فِي مَلَـكٍ عَظِيـ ـمٍ لَسْـتَ فِينَـا قَـطُّ ذَا سُـلْطَانِ

٤٨٤٤- مَا فِي صِفَاتِكَ مِنْ صِفَاتِ المُلْكِ شَيْ ءٌ كُلُّهَـا مَسْـلُوبَةُ الوِجْـدَانِ

قَوْلُهُ: «مَسْلُوبَةُ الوِجْدَانِ»؛ أي: مسلوبةُ الوجودِ، لكن مَنْ هذا؟ هذا هو المعطِّلُ.

٤٨٤٥- فَهَلِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ الـمُلْكِ أَوْ دَبَّـرْتَ أَمْـرَ الـمُلْكِ وَالسُّـلْطَانِ

هذا الاستفهامُ للنَّفي؛ يعني: أنَّك لم تستوِ على العرشِ؛ لأنَّ المعطِّلةَ ينكرون استواءَ الله على عرشِه.

٤٨٤٦- أَوْ قُلْتَ مَرْسُومًا تُنَفِّذُهُ الرَّعَا يَا أَوْ نَطَقْتَ بِلَفْظَةٍ بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْ قُلْتَ مَرْسُومًا» هذا معطوفٌ على الاستفهامِ الذي بمعنى النَّفي؛ يعني: ما قُلْتَ مرسومًا ويعني بهذا المرسومِ القرآنَ.

قَوْلُهُ: «أَوْ نَطَقْتَ بِلَفْظَةٍ بِبَيَانِ» هذا عمومُ الكلامِ.

٤٨٤٧- أَوْ كُنْتَ ذَا أَمْرٍ وَذَا نَهْيٍ وَتَكْـ ـلِيمٍ لِمَنْ وَافَى مِنَ الْبُلْدَانِ

هذا أيضًا تابعٌ النَّفيَ؛ يعني: أنَّك لم تأمر ولم تَنْهَ ولم تُكَلِّم؛ لأنَّ الأمرَ والنَّهيَ من خصائصِ القولِ، وهم يقولون: إنَّ اللهَ لا يقولُ ولا يتكلَّمُ، إذَنْ فهو لا يأمرُ ولا يَنْهَى.

٤٨٤٨- أَوْ كُنْتَ ذَا سَمْعٍ وَذَا بَصَرٍ وَذَا عِلْمٍ وَذَا سُخْطٍ وَذَا رِضْوَانِ

هذا أيضًا داخلٌ في النَّفيِ.

٤٨٤٩- أَوْ كُنْتَ قَطُّ مُكَلِّمًا مُتَكَلِّمًا مُتَصَرِّفًا بِالفِعْلِ كُلَّ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «مُكَلِّمًا مُتَكَلِّمًا» «مُكَلِّمًا»؛ أي: الكلام المتعدِّي، و«مُتَكَلِّمًا»؛ أي: الوصف اللَّازم.

هذا أيضًا داخلٌ في النَّفي.

٤٨٥٠- أَوْ كُنْتَ تَفْعَلُ مَا تَشَاءُ حَقِيقَةَ الْـ ـفِعْلِ الَّذِي قَدْ قَامَ بِالأَذْهَانِ

هذا أيضًا داخلٌ في النَّفي؛ لأنَّهم يُنكرون أنَّ اللهَ يفعلُ، ويقولون: إنَّ فعلَه مفعولُه، وليس له فعلٌ قائمٌ بذاتِه.

٤٨٥١- أَوْ كُنْتَ حَيًّا فَاعِلًا بِمَشِيئَةٍ وَبِقُدْرَةٍ أَفْعَالَ ذِي السُّلْطَانِ

لأنَّهم لا يَرَوْنَ لله أفعالًا تتعلَّقُ بالمشيئةِ، يقولون: إنَّه لو قامت به أفعالٌ تتعلَّقُ بمشيئتِهِ لقامت به الحوادثُ، وما قامت به الحوادثُ فهو حادثٌ، وكُلُّ هذا سبق.

٤٨٥٢- فِعْلٌ يَقُومُ بِغَيْرِ فَاعِلِهِ مُحَا لٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ لِذِي الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «لِذِي الإِنْسَانِ» إن جعلنا «لِذِي» اسمَ إشارةٍ كُتِبَتْ «لِذَا الإِنْسَانِ»، وإن جعلناها بمعنى «صاحب» فإنَّ المعنى لا يستقيمُ، لكن لعلَّها «لَدَى الإِنْسَانِ».

معناه: أنَّهم يقولون: إنَّ فعلَ الله مفعولُه، فيقولُ ابنُ القيِّمِ: هذا محالٌ أن يكونَ فعلٌ يقومُ بغيرِ الفاعلِ.

٤٨٥٣- بَلْ حَالَةُ الفَعَّالِ قَبْلَ وَمَعْ وَبَعْـ ـدُ هِيَ الَّتِي كَانَتْ بِلا فُرْقَانِ

حالةُ الفعَّالِ قبل أنْ يفعلَ ومع فعلِه وبعد أن يفعلَ، كُلُّها إنَّما يتَّصفُ بها الفاعلُ دون المفعولِ.

٤٨٥٤- وَاللهِ لَسْتَ بِفَاعِلٍ شَيْئًا إِذًا مَا كَانَ شَأْنُكَ مِثْلَ هَذَا الشَّانِ

يعني أنَّ ابنَ القيِّمِ يقولُ: لا يمكنُ أن يكونَ فاعلًا شيئًا إذا كان شأنُه هذا الشَّأن.

٤٨٥٥- لا دَاخِلًا فِينَا وَلَسْتَ بِخَارِجٍ عَنَّا خَيَالًا دُرْتَ فِي الأَذْهَانِ

يعني: أنَّهم يقولون: إنَّ اللهَ ليس داخلًا فينا ولا خارجًا عنَّا، إذَنْ يكونُ عَدَمًا وخيالًا في الأذهانِ فقط.

٤٨٥٦- فَبِــأَيِّ شَيْءٍ كُنْــتَ فِينَــا مَالِكًــا ... مُلْكًــا مُطَاعًــا قَــاهِرَ السُّــلْطَانِ

٤٨٥٧- إِسْــمًا وَرَسْــمًا لا حَقِيقَــةَ تَحْتَــهُ ... شَأْنُ الـمُلُوكِ أَجَلُّ مِـنْ ذَا الشَّـانِ

شأنُ الملوكِ -يعني: في الدُّنيا- أَجَلُّ من ذا الشَّأنِ، أو شأنُ الملوكِ عمومًا أجلُّ من مَلِكٍ ليس لنا منه إلَّا اسمُه ورسمُه فقط.

***

٤٨٥٨- هَــذَا وَثَــانٍ قَــالَ أَنْــتَ مَلِيكُنَــا ... وَسِــوَاكَ لا نَرْضَــاهُ مِـنْ سُـلْطَانِ

٤٨٥٩- إِذْ حُزْتَ أَوْصَافَ الكَمَالَ جَمِيعَهَا ... وَلِأَجْـلِ ذَا دَانَـتْ لَـكَ الـثَّقَلانِ

٤٨٦٠- وَقَدِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ المُلْكِ وَاسْـ ... ـتَوْلَيْتَ مَـعْ هَـذَا عَـلَى البُلْـدَانِ

٤٨٦١- لَكِـنَّ بَابَـكَ لَـيْسَ يَغْشَـاهُ امْـرُؤٌ ... إِنْ لَـمْ يَجِئْ بِالشَّـافِعِ الـمِعْوَانِ

٤٨٦٢- وَيَذَلُّ لِلْبَوَّابِ وَالـحُجَّابِ وَالشُّـ ... ـفَعَاءِ أَهْلِ القُرْبِ وَالإِحْسَـانِ

٤٨٦٣- أَفَيَسْـتَوِي هَـذَا وَهَـذَا عِنْـدَكُمْ ... وَاللهِ مَـا اسْـتَوِيَا لَـدَى إِنْسَـانِ

٤٨٦٤- وَالـمُشْرِكُونَ أَخَـفُّ فِي كُفْـرَانِهِمْ ... وَكِلاهُمَـا مِـنْ شِـيعَةِ الشَّـيْطَانِ

٤٨٦٥- إِنَّ المُعَطِّــلَ بِالعَــدَاوَةِ قَــائِمٌ ... فِي قَالَــبِ التَّنْزِيــهِ لِلــرَّحْمَنِ

الشرحُ

٤٨٥٨- هَــذَا وَثَــانٍ قَــالَ أَنْــتَ مَلِيكُنَــا ... وَسِــوَاكَ لا نَرْضَــاهُ مِـنْ سُـلْطَانِ

يعني بالثَّاني: المشركَ «قَالَ: أَنْتَ مَلِيكُنَا وَسِوَاكَ لَا نَرْضَاهُ مِنْ سُلْطَانِ»؛ لأنَّ المشركين يُقِرُّون بأنَّ اللهَ وحده هو الخالقُ الرَّازقُ وأنَّه بيدِه ملكوتُ السَّماواتِ والأرضِ.

٤٨٥٩- إِذْ حُزْتَ أَوْصَافَ الكَمَالَ جَمِيعَهَا ... وَلِأَجْلِ ذَا دَانَتْ لَكَ الثَّقَلانِ

٤٨٦٠- وَقَدِ اسْتَوَيْتَ عَلَى سَرِيرِ المُلْكِ وَاسْـ ... ـتَوْلَيْتَ مَعْ هَذَا عَلَى البُلْدَانِ

كُلُّ هذا يُقِرُّ به المشركون.

٤٨٦١- لَكِنَّ بَابَكَ لَيْسَ يَغْشَاهُ امْرُؤٌ ... إِنْ لَمْ يَجِئْ بِالشَّافِعِ المِعْوَانِ

هنا حَصَلَ الخللُ من المشركين، قالوا: إنَّ اللهَ لا بُدَّ أن يكونَ بيننا وبينه شفعاءُ؛ لأنَّ بابَه عظيمٌ لا يَلِجُه أحدٌ إلَّا بشافعٍ معوانٍ.

٤٨٦٢- وَيَذَلُّ لِلْبَوَّابِ وَالحُجَّابِ وَالشْـ ... ـشُفَعَاءِ أَهْلِ القُرْبِ وَالإِحْسَانِ

يعني: أنَّ بابَك لا يدخله أحدٌ إلَّا بشفيعٍ يَذِلُّ له الطَّالبُ الذي يطلبُ القُربَ منك، فقوله: «وَيَذِلَّ» معطوفةٌ على «يَجِئْ»؛ يعني: إن لم يَجِئْ وإن لم يذلَّ للبوَّابِ والحَجَّابِ والشُّفعاءِ أهلِ القربِ والإحسانِ.

٤٨٦٣- أَفَيَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا عِنْدَكُمْ ... وَاللهِ مَا اسْتَوِيَا لَدَى إِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «أَفَيَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا عِنْدَكُمْ» الإشارةُ إلى مَنْ؟ الجوابُ: إلى المعطِّلِ والمشركِ، والله ما استويا لدى إنسانٍ.

فانظر أيُّهما أشدُّ: المشركُ أو المعطِّلُ الذي لا يَصِفُ اللهَ بشيءٍ من صفاتِ الكمالِ إطلاقًا، ويقول: إنَّه لا يُوصَفُ إلَّا بالسُّلوبِ؛ أي: بالنَّفي؛ يعني: أنَّه لم يُثْبِتْ ربًّا؟ الجوابُ: المشركون أخفُّ؛ ولذا قال:

٤٨٦٤- وَالمُشْرِكُونَ أَخَفُّ فِي كُفْرَانِهِمْ ... وَكِلاهُمَا مِنْ شِيعَةِ الشَّيْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَالمُشْرِكُونَ أَخَفُّ»، وهذا هو الفرقُ.

قَوْلُهُ: «وَكِلَاهُمَا»؛ أي: المشركُ والمعطِّلُ.

٤٨٦٥- إِنَّ الـــمُعَطِّلَ بِالعَـــدَاوَةِ قَـــائِمٌ   فِي قَالَـــبِ التَّنْزِيـــهِ لِلـــرَّحْمَنِ

المعطِّلُ مُلَبِّسٌ؛ لأَنَّه يقولُ: أنا أقولُ هكذا تنزيهًا لله أن يُشابِهَ المخلوقين، فيَدَّعي بإنكارِه وتعطيلِه أَنَّه مُنَـزِّهٌ لله، ويدَّعي أَنَّ الذين يُثْبِتُونَ الصِّفاتِ مُجَسِّمةٌ ممثِّلةٌ حَشْوِيَّةٌ ليس عندهم عقولٌ ولم يقدِّروا اللهَ حقَّ قدرِه.

* * *

فصــل

فِيمَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى مِنَ الإِحْسَانِ لِلْمُتَمَسِّكِينَ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ عِنْدَ فَسَادِ الزَّمَانِ

٤٨٦٦- هَـذَا وَلِلْمُتَمَسِّـكِينَ بِسُـنَّةِ الْـ ... ـمُخْتَارِ عِنْـدَ فَسَادِ ذِي الأَزْمَـانِ

٤٨٦٧- أَجْـرٌ عَظِـيمٌ لَـيْسَ يَقْـدِرُ قَـدْرَهُ ... إِلَّا الَّــذِي أَعْطَــاهُ لِلإِنْسَــانِ

٤٨٦٨- فَـرَوَى أَبُـو دَاوُدَ فِي سُـنَنٍ لَـهُ ... وَرَوَاهُ أَيْضًـا أَحْمَـدُ الشَّـيْبَانِي

٤٨٦٩- أَثَـرًا تَضَـمَّنَ أَجْـرَ خَمْسِـينَ امْـرَءًا ... مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ خِـيرَةِ الـرَّحْمَنِ

٤٨٧٠- إِسْـنَادُهُ حَسَـنٌ وَمِصْـدَاقٌ لَـهُ ... فِي «مُسْـلِمٍ» فَافْهَمْـهُ فَهْـمَ بَيَـانِ

٤٨٧١- أَنَّ العِبَـادَةَ وَقْـتَ هَـرْجٍ هِجْـرَةٌ ... حَقًّــا إِلَيَّ وَذَاكَ ذُو بُرْهَــانِ

٤٨٧٢- هَذَا فَكَمْ مِنْ هِجْرَةٍ لَكَ أَيُّهَا السُّـ ... ـسُنِّيُّ بِـالتَّحْقِيقِ لا بِأَمَــانِي

٤٨٧٣- هَـذَا وَكَـمْ مِـنْ هِجْـرَةٍ لَـهُمُ بِمَا ... قَـالَ الرَّسُـولُ وَجَـاءَ فِي القُـرْآنِ

٤٨٧٤- وَلَقَدْ أَتَـى مِصْـدَاقُهُ فِي «التِّرْمِـذِيْ ... ي» لِـمَنْ لَـهُ أُذُنَـانِ وَاعِيَتَـانِ

٤٨٧٥- فِي أَجْـرِ مُحْيِـي سُـنَّةٍ مَاتَـتْ فَـذَا ... كَ مَـعَ الرَّسُـولِ رَفِيقُـهُ بِجِنَـانِ

٤٨٧٦- هَـذَا وَمِصْـدَاقٌ لَـهُ أَيْضًـا أَتَـى ... فِي «التِّرْمِـذِيِّ» لِـمَنْ لَـهُ عَيْنَـانِ

٤٨٧٧- تَشْــبِيهُ أُمَّتِــهِ بِغَيْــثٍ أَوَّلٌ ... مِنْــهُ وَآخِــرُهُ فَمُشْــتَبِهَانِ

٤٨٧٨- فَلِذَاكَ لا يَدْرِى الَّـذِي هُـوَ مِـنْهُمَا   قَدْ خُـصَّ بِالتَّفْضِـيلِ وَالرُّجْحَـانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِيمَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى مِنَ الإِحْسَانِ لِلْمُتَمَسِّكِينَ بِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ» متى؟ الجوابُ: عند فسادِ الزَّمانُ؛ لأَنَّه إذا كان الزَّمانُ صالحًا وكان النَّاسُ فيه على الاستقامةِ سهل على الإنسانِ أنْ يستقيمَ، لكن إذا كان الزَّمانُ فاسدًا وكان النَّاسُ فيه على غيرِ الاستقامةِ فإنَّ الاستقامةَ تكونُ صعبةً؛ لأنَّ الإنسانَ إذا اسْتَقَامَ في مثلِ هذا الزَّمانِ وجد نفسَه غريبًا بين النَّاسِ، وطُوبَى للغُرَباء، وهذا أمرٌ واضحٌ، انظُر إلى رَجُلٍ صالحٍ في بيتٍ أهلُهُ غيرُ صالحين ماذا يجد هذا الابنُ الصَّالحُ من التَّعَبِ والمشقَّةِ والمُعاناةِ؟! وانظر إلى رجلٍ صالحٍ في بيتٍ أهلُه صالحون، فهذا الثَّاني يَسهلُ عليه الصَّلاحُ، بل لو فَسَدَ يُرَى غريبًا؛ لأَنَّه بين قومٍ صالحين، فإذا صلح الإنسانُ عند فسادِ الزَّمانِ كان عند الله أعظمَ أجرًا كما سَيُبَيِّنُه المؤلِّفُ رحمه الله.

٤٨٦٦- هَــذَا وَلِلْمُتَمَسِّــكِينَ بِسُــنَّةِ الْــ   ــمُخْتَارِ عِنْـدَ فَسَـادِ ذِي الأَزْمَـانِ

٤٨٦٧- أَجْـرٌ عَظِـيمٌ لَـيْسَ يَقْـدِرُ قَـدْرَهُ   إِلَّا الَّــذِي أَعْطَــاهُ لِلإِنْسَــانِ

قَوْلُهُ: «ذِي»؛ بمعنى: هذي، فهو اسمُ إشارةٍ، وليس من الأسماءِ الخمسةِ.

للمُتمسِّكين بهذه السُّنَّةِ أجرٌ عظيمٌ ليس يَقْدُرُ قَدْرَهُ -يعني: ليس يعلمُ قَدْرَهُ- إلَّا الذي أعطاه للإنسانِ، والذي أعطاه للإنسانِ هو اللهُ عزَّ وجلَّ.

٤٨٦٨- فَــرَوَى أَبُــو دَاوُدَ في سُــنَنٍ لَــهُ   وَرَوَاهُ أَيْضًــا أَحْمَــدُ الشَّــيْبَانِي

٤٨٦٩- أَثَـرًا تَضَـمَّنَ أَجْرَ خَمْسِـينَ امْـرَءًا   مِنْ صَـحْبِ أَحْمَـدَ خِـيرَةِ الـرَّحْمَنِ

يقولُ: روى أبو داودَ والإمامُ أحمدُ -رحمهما اللهُ- أثرًا يتضمَّنُ أنَّ المتمسِّكَ بالسُّنَّةِ عند فسادِ الزَّمانِ له أجرُ خمسين من أصحابِ النَّبيِّ ﷺ(١)، وهذا أجرٌ عظيمٌ؛ يعني: إذا كنت متمسِّكًا بالسُّنَّةِ مُتَّبعًا لها عند فَسادِ الزَّمانِ ومخالفةِ النَّاسِ لها فلَكَ أجرُ خمسين امرءًا من أصحابِ رسولِ الله -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-، ويقولُ المؤلِّفُ:

٤٨٧٠- إِسْـنَادُهُ حَسَـنٌ وَمِصْـدَاقٌ لَـهُ   فِي «مُسْـلِمٍ» فَافْهَمْـهُ فَهْـمَ بَيَـانِ

الرَّسولُ ﷺ أخبر فيما صَحَّ عنه كما في «**صحيح مسلم**» أنَّ العبادةَ في زمنِ الـهَرْجِ -يعني: الاختلاطَ والقتلَ- كهجرةٍ إلى الرَّسولِ ﷺ(٢)، وهذا يُؤيِّدُ ما رواه أبو داودَ والإمامُ أحمدُ في أنَّ للمتمسِّكِ بالسُّنَّةِ أجرَ خمسين من أصحابِ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

٤٨٧١- أَنَّ العِبَـادَةَ وَقْـتَ هَـرْجٍ هِجْـرَةٌ   حَقًّـا إِلَيَّ وَذَاكَ ذُو بُرْهَـانِ

٤٨٧٢- هَذَا فَكَمْ مِنْ هِجْرَةٍ لَكَ أَيُّهَا السُّـ   ـنِّيُّ بِـالتَّحْقِيقِ لا بِأَمَـانِي

قَوْلُهُ: «لَا بِأَمَانِي»؛ يعني: فهي من الأماني وليست من الأمنِ؛ أي: لا بالأماني الكاذبةِ التي يتمنَّاها الإنسانُ ولا تحصلُ له كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النساء:١٢٣].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب فضل العبادة في الهرج، رقم (٢٨٤٨).

يعني: إذا كانت العبادةُ في زمن الهَرْجِ كهجرةٍ إلى الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فما أكثر الهجراتِ التي تكونُ لك أَيُّها السُّنِّيُّ بالتَّحقيقِ لا بأماني.

فهي هجرةٌ حقيقةً كما قال النَّبِيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومرادُ النَّبِيِّ ﷺ من هذا سواء ما رواه الإمامُ أحمدُ وما رواه أبو داودَ أو ما رواه مسلمٌ، مرادُه الحثُّ على التَّمسُّكِ بالسُّنَّةِ والصَّبرِ عليها وإن أُوذِيَ الإنسانُ؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يُؤْذَى إذا كان الزَّمانُ فاسدًا، لا بُدَّ أن يُسْخَرَ منه، ولا بُدَّ أن يَتَغامَزَ به مَنْ مَرَّ به من المجرمين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٠]، أحيانًا يسخرون منه في لباسِه، وأحيانًا في لحيتِه، وأحيانًا في هَيْئتِه، وأحيانًا في وَرَعِه وتجنُّبِه المشتبهاتِ، وغيرِ ذلك، المهمُّ أنَّ المتمسِّكَ بالسُّنَّة لا بُدَّ أن يُؤْذَى عند فسادِ الزَّمانِ.

٤٨٧٣- هَـذَا وَكَـمْ مِـنْ هِجْـرَةٍ لَـهُمُ بِـمَا ... قَـالَ الرَّسُـولُ وَجَـاءَ فِي القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «هَذَا وَكَمْ مِنْ هِجْرَةٍ لَـهُمُ بِمَا» **«لَـهُمُ»** الضَّميرُ يعودُ على الصَّحابةِ، فالصَّحابةُ لهم هِجَرٌ كثيرةٌ، وهجرةٌ بما قال الرَّسولُ، وأنت لك هِجَرٌ كثيرةٌ أيضًا، كُلُّ مسألةٍ شرعيَّةٍ تفعلُها عند فسادِ الزَّمانِ فإنَّها كهجرةٍ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فما أكثر الذين هاجروا وجاهدوا بأموالِهم وأنفسِهم في سبيلِ الله! رضي الله عنهم.

٤٨٧٤- وَلَقَدْ أَتَـى مِصْـدَاقُهُ فِي «التِّرْمِـذِيْ ... يِ» لِـمَنْ لَـهُ أُذُنَـانِ وَاعِيَتَـانِ

٤٨٧٥- فِي أَجْـرِ مُحْيِـي سُـنَّةٍ مَاتَـتْ فَـذَا ... كَ مَـعَ الرَّسُـولِ رَفِيقُـهُ بِجِنَـانِ

معناه: أنَّ الذي يُحيي سُنَّةً من سننِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- التي ماتت فإنَّه رفيقُ النَّبِيِّ ﷺ في الجنَّةِ.

٤٨٧٦- هَـذَا وَمِصْـدَاقٌ لَـهُ أَيْضًـا أَتَـى ... في «التِّرْمِـذِيِّ» لِـمَنْ لَـهُ عَيْنَـانِ

٤٨٧٧- تَشْـبِيهُ أُمَّتِـهِ بِغَيْـثٍ أَوَّلٌ ... مِنْـهُ وَآخِـرُهُ فَمُشْـتَبِهَانِ

٤٨٧٨- فَلِذَاكَ لا يَدْرِى الَّـذِي هُـوَ مِنْهُمَا ... قَدْ خُـصَّ بِالتَّفْضِيلِ وَالرُّجْحَانِ

شَبَّهَ النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أُمَّتَه بالغيثِ لا يُدْرَى أَوَّلُه من آخرِه(١)؛ يعني: أنَّهم متشابهون، أَوَّلُ الأُمَّةِ وآخرُها؛ لأنَّ أَوَّلَ الأُمَّةِ لهم السَّبقُ والفضلُ ونقلُ الشَّريعةِ، وآخرَ الأُمَّةِ لهم حمايتُها عند فسادِ الزَّمانِ، فكُلٌّ منهم قد أخذ من حمايةِ هذه الشَّريعةِ بنصيبٍ؛ فلهذا لا يُدْرَى أَوَّلُـهم من آخرِهم.

***

٤٨٧٩- وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ الفَضْـلَ في الـطْ ... طَـرَفَيْنِ أَعْنِـي أَوَّلًا وَالثَّـانِي

٤٨٨٠- وَالوَسْـطُ ذُو ثَـبَجٍ فَـأَعْوَجُ هَكَـذَا ... جَاءَ الـحَدِيثُ وَلَـيْسَ ذَا نُكْـرَانِ

٤٨٨١- وَلَقَدْ أَتَى في الـوَحْيِ مِصْـدَاقٌ لَـهُ ... في الثُّلَّتَـيْنِ وَذَاكَ في القُـرْآنِ

٤٨٨٢- أَهْـلُ اليَمِـينِ فَثُلَّـةٌ مَـعَ مِثْلِهَـا ... وَالسَّـابِقُونَ أَقَـلُّ في الـحُسْبَانِ

٤٨٨٣- مَـا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ تَـابِعَهُمْ هُـمُ الْـ ... ـغُرَبَاءُ لَيْسَـتْ غُرْبَـةَ الأَوْطَـانِ

٤٨٨٤- لَكِنَّهَـا وَاللهِ غُرْبَـةُ قَـائِمٍ ... بِالـدِّينِ بَـيْنَ عَسَـاكِرِ الشَّـيْطَانِ

٤٨٨٥- فَلِـذَاكَ شَـبَّهَهُمْ بِهِـمْ مَتْبُـوعُهُمْ ... في الغُـرْبَتَيْنِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَـانِ

---

(١) كما في حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ المَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ». أخرجه الترمذي: كتاب الأمثال، بعد باب مثل الصلوات الخمس، رقم (٢٨٦٩).

٤٨٨٦- لَمْ يُشْبِهُوهُمْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لَيْسَ يَسْتَوِيَانِ

٤٨٨٧- فَانْظُرْ إِلَى تَفْسِيرِهِ الغُرَبَاءَ بِالْـ ... مُحْيِينَ سُنَّتَهُ بِكُلِّ زَمَانِ

٤٨٨٨- طُوبَى لَهُمْ وَالشَّوْقُ يَحْدُوهُمْ إِلَى ... أَخْذِ الحَدِيثِ وَمُحْكَمِ القُرْآنِ

٤٨٨٩- طُوبَى لَهُمْ لَمْ يَعْبَؤُوا بِنُحَاتَةِ الْـ ... أَفْكَارِ أَوْ بِزِبَالَةِ الأَذْهَانِ

٤٨٩٠- طُوبَى لَهُمْ رَكِبُوا عَلَى مَتْنِ العَزَا ... ئِمِ قَاصِدِينَ لِمَطْلَعِ الإِيمَانِ

٤٨٩١- طُوبَى لَهُمْ لَمْ يَعْبَؤُوا شَيْئًا بِذِي الْـ ... آرَاءِ إِذْ أَغْنَاهُمُ الوَحْيَانِ

٤٨٩٢- طُوبَى لَهُمْ وَإِمَامُهُمْ دُونَ الوَرَى ... مَنْ جَاءَ بِالإِيمَانِ وَالفُرْقَانِ

٤٨٩٣- وَاللهِ مَا ائْتَمُّوا بِشَخْصٍ دُونَهُ ... إِلَّا إِذَا مَا دَلَّهُمْ بِبَيَانِ

الشرحُ

٤٨٧٩- وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ الفَضْلَ فِي الطْـ ... ـطَرَفَيْنِ أَعْنِي أَوَّلًا وَالثَّانِي

قَوْلُهُ: «الطَّرَفَيْنِ»؛ يعني: طَرَفَي الأُمَّةِ.

أتى أثرٌ بأنَّ الفضلَ في أوَّلِ الأُمَّةِ وفي آخِرِها[1]، أَمَّا الفضلُ في أوَّلِها فواضحٌ للسَّبقِ والجهادِ وتبيينِ الشَّريعةِ ونقلِها للأُمَّةِ، وأمَّا في آخِرِها فمن أجل ما يحصلُ في آخرِها من الفتنِ والضَّلالِ، ويكونُ الصَّابرُ على هذه الفتنِ وهذا الضَّلالِ يكونُ مأجورًا، وقد سبق أنَّ له أجرَ خمسين من الصَّحابةِ.

(١) يعني حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ المَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ». أخرجه الترمذي: كتاب الأمثال، بعد باب مثل الصلوات الخمس، رقم (٢٨٦٩).

٤٨٨٠- وَالوَسْطُ ذُو ثَبَجٍ فَأَعْوَجُ هَكَذَا ... جَاءَ الحَدِيثُ وَلَيْسَ ذَا نُكْرَانِ

قَوْلُهُ: «ثَبَجٍ» الثَّبَجُ: الوسطُ.

٤٨٨١- وَلَقَدْ أَتَى فِي الوَحْيِ مِصْدَاقٌ لَهُ ... فِي الثُّلَّتَيْنِ وَذَاكَ فِي القُرْآنِ

يُشِيرُ إلى قولِهِ تعالى في سورةِ «الواقعةِ»: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٠-١٤]، وأصحُّ التَّفسيرَيْنِ فيها أنَّ المرادَ بذلك هذه الأُمَّةُ، فالسَّابقون ثُلَّةٌ من الأوَّلين كثيرون ومن الآخرين قليلٌ، وأصحابُ اليمينِ ثُلَّةٌ من الأوَّلين وثُلَّةٌ من الآخرين؛ يعني: أنَّهم كثيرون من هؤلاء وهؤلاء، ومرتبةُ أصحابِ اليمين أقلُّ من مرتبةِ السَّابقِين، لا شكَّ في هذا؛ ولذلك كان ثوابُهم الذي ذكره اللهُ عزَّ وجلَّ أقلَّ من ثوابِ السَّابقين، نسألُ اللهَ أن يجعلَني وإيَّاكم من السَّابقين.

٤٨٨٢- أَهْلُ اليَمِينِ فَثُلَّةٌ مَعَ مِثْلِهَا ... وَالسَّابِقُونَ أَقَلُّ فِي الحُسْبَانِ

أهلُ اليمينِ قال اللهُ عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:٢٧-٤٠]، وأمَّا السَّابقون السَّابقون فقال اللهُ فيهم: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٣-١٤]، وإذا جمَعْنا هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بعضهما إلى بعضٍ تبيَّنَ أنَّ أوَّلَ الأُمَّةِ أفضلُ من آخرِها، وأنَّ آخرَها أفضلُ من وسطِها؛ لأنَّ اللهَ قال في أَصْحَابِ اليمينِ: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:٤٠]، وقال في السَّابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٣-١٤].

٤٨٨٣- مَـا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ تَـابِعَهُمْ هُـمُ الْـ ـغُرَبَاءُ لَيْسَـتْ غُرْبَـةَ الأَوْطَـانِ

فالغربةُ ليست غربةَ الوطنِ، ولكنَّها غربةُ الدِّين، وهذه أشدُّ من غربةِ الوطنِ؛ إذ إنَّ غريبَ الوطنِ رُبَّما تزولُ غربتُه بما يحصلُ له من الفرحِ والسُّرورِ وتجدُّدِ الإخوانِ والأصحابِ، لكنْ غربةُ الدِّينِ هي البلاءُ، وهي التي تحتاجُ إلى صبرٍ.

٤٨٨٤- لَكِنَّهَـا وَاللهِ غُرْبَـةُ قَـائِمٍ بِالـدِّينِ بَـيْنَ عَسَـاكِرِ الشَّـيْطَانِ

فهذه غربةُ الدِّينِ؛ بأن يكونَ الإنسانُ في وسطِ مجتمعٍ بعيدٍ عن الدِّينِ، فيكون بينهم كأنَّه غريبٌ، وقد جاء في الحديثِ أنَّ الغرباءَ هم: «**الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ**»[(١)].

٤٨٨٥- فَلِـذَاكَ شَـبَّهَهُمْ بِهِـمْ مَتْبُـوعُهُمْ فِي الغُـرْبَتَيْنِ وَذَاكَ ذُو تِبْيَـانِ

قَوْلُهُ: «**مَتْبُوعُهُمْ**»؛ يعني به: رسولَ الله صلى الله عليه وسلم.

يعني: أنَّهم غرباءُ بين عساكرِ الشَّيطانِ كما شبَّههم النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فقال: «**بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»[(٢)]؛ إذَنْ الغربةُ في أوَّلِ الإسلامِ، والغربةُ في آخِرِ الإسلامِ، فأهلُ الإسلامِ غرباءُ في الأوَّلِ وغرباءُ في الثَّاني.

٤٨٨٦- لَـمْ يُشْـبِهُوهُمْ فِي جَمِيـعِ أُمُـورِهِمْ مِـنْ كُـلِّ وَجْـهٍ لَـيْسَ يَسْـتَوِيَانِ

يعني: أنَّ الغرباءَ في الثَّاني لا يُشْبِهُونَ الغرباءَ في الأوَّلِ من كُلِّ وجهٍ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، رقم (٢٦٣٠)، وقال: هذا حديث حسن.

(٢) تقدم تخريجه، وهو الجزء الأول من الحديث السابق.

٤٨٨٧- فَـانْظُرْ إِلَى تَفْسِـيرِهِ الغُرَبَـاءَ بِالْـ ... مُحْيِـينَ سُنَّـتَهُ بِكُـلِّ زَمَـانِ

يعني: أنَّ الرَّسولَ ﷺ فَسَّرَ الغرباءَ بالذين يُحيون سُنَّتَه بين أهلِ البدعِ، أو يقومون بطاعتِه بين أهلِ الفسقِ، والغريبُ معروفٌ مأخوذٌ من «**الغربة**»، وهي ألَّا يكونَ للإنسانِ مَنْ يُشَابِهُه في مجتمعِه.

٤٨٨٨- طُوبَى لَـهُمْ وَالشَّوْقُ يَحْـدُوهُمْ إِلَى ... أَخْـذِ الـحَدِيثِ وَمُحْكَـمِ القُـرْآنِ

اختلف المفسِّرون في قولِه تعالى: ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ [الرَّعد:٢٩]، فقال بعضُهم: إنَّها شجرةٌ بالجنَّةِ، يسيرُ الرَّاكبُ في ظلِّها مائتَيْ عامٍ لا يقطعُها، وقال بعضُهم: بل إنَّ طُوبَى «**فُعْلَى**» مأخوذةٌ من الطِّيبِ، والمرادُ بها الجنَّةُ، فالجنَّةُ كُلُّها تُسَمَّى «**طُوبَى**» باعتبار أنَّها طيِّبةٌ، وهذا الأخيرُ أعمُّ من الأوَّلِ، ويكونُ إطلاقُ «**طُوبَى**» على الشَّجرةِ من بابِ إطلاقِ العامِّ على الخاصِّ.

٤٨٨٩- طُوبَى لَـهُمْ لَـمْ يَعْبَؤُوا بِنُحَاتَةِ الْـ ... أَفْكَـارِ أَوْ بِزِبَالَـةِ الأَذْهَـانِ

كما فَعَلَ مَنْ خَالَفُوا الحديثَ والقرآنَ في أسماءِ الله وصفاتِه وغيرِها.

٤٨٩٠- طُوبَى لَـهُمْ رَكِبُوا عَلَى مَتْنِ العَـزَا ... ئِـمِ قَاصِـدِينَ لِـمَطْلَعِ الإِيـمَانِ

ركبوا مَطايا العزائمِ، ولم يتوانَوْا ولم يتأخَّروا.

٤٨٩١- طُوبَى لَـهُمْ لَـمْ يَعْبَؤُوا شَيْئًا بِـذِي الْـ ... آرَاءِ إِذْ أَغْنَـاهُمُ الوَحْيَـانِ

٤٨٩٢- طُوبَى لَـهُمْ وَإِمَامُهُمْ دُونَ الـوَرَى ... مَـنْ جَـاءَ بِـالإِيمَانِ وَالفُرْقَـانِ

٤٨٩٣- وَالله مَـا ائْتَمُّـوا بِشَـخْصٍ دُونَـهُ ... إِلَّا إِذَا مَـا دَلَّـهُمْ بِبَيَـانِ

يعني: أنَّ هؤلاء المتمسِّكين بالحديثِ ومحكمِ القرآنِ إمامُهم دون النَّاسِ

محمَّدٌ ﷺ، لم يأتـمُّوا بأحدٍ سواه، بل كان هو الإمامَ المقتدى به في العَقائدِ والأخلاقِ والأعمالِ فعلًا وتركًا.

***

٤٨٩٤- فِي البَـابِ آثَـارٌ عَظِـيمٌ شَـأْنُهَا ... أَعْيَـتْ عَـلَى العُلَـمَاءِ فِي الأَزْمَـانِ

٤٨٩٥- إِذْ أَجْمَـعَ العُلَـمَاءُ أَنَّ صَـحَابَةَ الْـ ... ـمُخْتَارِ خَـيْرُ طَوَائِـفِ الإِنْسَـانِ

٤٨٩٦- ذَا بِالضَّرُورَةِ لَيْسَ فِيهِ الخُلْفُ بَيْـ ... ـنَ اثْنَيْنِ مَا حُكِيَتْ بِـهِ قَـوْلانِ

٤٨٩٧- فَلِذَاكَ ذِي الآثَارِ أَعْضَلَ أَمْرُهَـا ... وَبَغَـوْا لَـهَا التَّفْسِـيرَ بِالإِحْسَـانِ

٤٨٩٨- فَاسْـمَعْ إِذَنْ تَأْوِيلَهَـا وَافْهَمْـهُ لا ... تَعْجَـلْ بِـرَدٍّ مِنْـكَ أَوْ نُكْـرَانِ

٤٨٩٩- إِنَّ البِـدَارَ بِـرَدِّ شَيْءٍ لَـمْ تُحِـطْ ... عِلْـمًا بِـهِ سَـبَبٌ إِلَى الـحِرْمَانِ

٤٩٠٠- الفَضْـلُ مِنْـهُ مُطْلَـقٌ وَمُقَيَّـدٌ ... وَهُمَـا لِأَهْـلِ الفَضْـلِ مَرْتَبَتَـانِ

٤٩٠١- وَالفَضْلُ ذُو التَّقْيِيدِ لَيْسَ بِمُوجِبٍ ... فَضْلًا عَـلَى الإِطْـلاقِ مِـنْ إِنْسَـانِ

٤٩٠٢- لا يُوجِبُ التَّقْيِيـدُ أَنْ يُقْضَـى لَـهُ ... بِالإِسْـتِوَاءِ فَكَيْـفَ بِالرُّجْحَـانِ

٤٩٠٣- إِذْ كَانَ ذُو الإِطْلاقِ حَازَ مِنَ الفَضَـا ... ئِلِ فَـوْقَ ذِي التَّقْيِيـدِ بِالإِحْسَـانِ

٤٩٠٤- فَإِذَا فَرَضْـنَا وَاحِـدًا قَـدْ حَـازَ نَـوْ ... عًـا لَـمْ يَحُـزْهُ فَاضِـلُ الإِنْسَـانِ

٤٩٠٥- لَـمْ يُوجِبِ التَّخْصِيصُ مِنْ فَضْلٍ عَلَيْـ ... ـهِ وَلا مُسَـاوَاةٍ وَلا نُقْصَـانِ

٤٩٠٦- مَـا خَلْـقُ آدَمَ بِاليَـدَيْنِ بِمُوجِـبٍ ... فَضْـلًا عَـلَى المَبْعُـوثِ بِـالقُرْآنِ

٤٩٠٧- وَكَذَا خَصَائِصُ مَنْ أَتَى مِنْ بَعْـدِهِ ... مِــنْ كُـلِّ رُسْـلِ اللهِ بِالبُرْهَـانِ

٤٩٠٨- فَمُحَمَّــدٌ أَعْلاهُــمُ فَوْقًــا وَمَــا حَكَمَتْ لَــهُمْ بِمَزِيَّـةِ الرُّجْحَـانِ

٤٩٠٩- فَالحَائِزُ الخَمْسِينَ أَجْرًا لَـمْ يَحُزْ هَــا في جَمِيــعِ شَرَائِــعِ الإِيــمَانِ

٤٩١٠- هَلْ حَازَهَا في بَدْرٍ اَوْ أُحُدٍ أَوِ الْـ ـفَتْحِ الـمُبِينِ وَبَيْعَـةِ الرِّضْـوَانِ

٤٩١١- بَلْ حَازَهَا إِذْ كَانَ قَدْ عَدِمَ الـمُعِيـ ـنَ وَهُمْ فَقَـدْ كَـانُوا أُولِي أَعْـوَانِ

الشـرحُ

٤٨٩٤- في البَــابِ آثَــارٌ عَظِــيمٌ شَــأْنُهَا أَعْيَــتْ عَــلَى العُلَــمَاءِ في الأَزْمَــانِ

قَوْلُهُ: «في البَابِ»؛ أي: في هذا البحثِ، والبابُ يُطْلَقُ عند العلماءِ إذا قالوا: لم يَصِحَّ في هذا البابِ شيءٌ؛ يعني: في هذه المسألةِ، أو في هذا البحثِ، أو في هذا الموضوعِ.

يقولُ: «في البَابِ آثَارٌ عَظِيمٌ شَأْنُهَا أَعْيَتْ عَلَى العُلَمَاءِ في الأَزْمَانِ» «أَعْيَتْ»؛ يعني: أَعْجَزَتْهُم، وصَعُبَ عليهم التَّوفيقُ بينها؛ لأنَّها آثارٌ تدلُّ على أنَّ المتأخِّرين من هذه الأُمَّةِ أفضلُ من السَّابقين، وآثارٌ بالعكسِ، فلا بُدَّ من جمعٍ.

ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- يقولُ: إنَّها أَعْيَتْ على العلماءِ؛ يعني: أَعْجَزَتْهُم، كيف يجمعون بينها؟ وهذا صحيحٌ، فهذا أمرٌ يُشْكِلُ على الإنسانِ حقيقةً، العاملُ لَهُ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ[1]، والرَّسولُ ﷺ يقولُ: «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم (٤٣٤١)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٤).

بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[1]، فكيف الجمعُ؟ تعَرَّضَ -رحمه الله- للجمعِ فقال:

٤٨٩٥- إِذْ أَجْمَعَ العُلَمَاءُ أَنَّ صَحَابَةَ الْـ ـمُخْتَارِ خَيْرُ طَوَائِفِ الإِنْسَانِ

٤٨٩٦- ذَا بِالضَّرُورَةِ لَيْسَ فِيهِ الخُلْفُ بَيْـ ـنَ اثْنَيْنِ مَا حُكِيَتْ بِهِ قَوْلَانِ

وهذا مُجْمَعٌ عليه، أنَّ صحابةَ النَّبيِّ ﷺ هم خيرُ الأُمَّةِ، بل خيرُ النَّاسِ كُلِّهم كما دَلَّ عليه النَّصُّ الثَّابتُ عن النَّبيِّ ﷺ في قولِه: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»[2]، وهذا لا إشكالَ فيه.

٤٨٩٧- فَلِذَاكَ ذِي الآثَارِ أَعْضَلَ أَمْرُهَا وَبَغَوْا لَهَا التَّفْسِيرَ بِالإِحْسَانِ

فهذه الآثارُ «أَعْضَلَ أَمْرُهَا»؛ يعني: امتنع أمرُها، وشَقَّ على النَّاسِ، وبَغَوْا لها التَّفسيرَ بالإحسانِ.

٤٨٩٨- فَاسْمَعْ إِذَنْ تَأْوِيلَهَا وَافْهَمْهُ لَا تَعْجَلْ بِرَدٍّ مِنْكَ أَوْ نُكْرَانِ

أراد المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنْ يُنبِّهَنا إلى تأويلِ هذه النُّصوصِ والجمعِ بينها فقال: «لَا تَعْجَلْ بِرَدٍّ»، ثُمَّ ذَكَرَ بيتًا ينبغي أن يكونَ نِبراسًا يسيرُ عليه المرءُ فقال:

٤٨٩٩- إِنَّ البِدَارَ بِرَدِّ شَيْءٍ لَمْ تُحِطْ عِلْمًا بِهِ سَبَبٌ إِلَى الحِرْمَانِ

قَوْلُهُ: «البِدَارَ»؛ يعني: المبادرةَ، من «بَادَرَ»، كقَاتَلَ يُقَاتِلُ مُقَاتَلَةً.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، رقم (٢٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٤٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

وهذا بيتٌ مهمٌّ، بيتٌ عظيمٌ، المبادرةُ بردِّ الشَّيءِ الذي لم تُحِطْ به علمًا سببٌ إلى الحرمانِ وعدمِ الوصولِ إلى الحقِّ، فكُلُّ شيءٍ لا تحيطُ به علمًا لا تُبَادِرْ بردِّه، ولا تعجلْ في الرَّدِّ حتَّى يتبيَّنَ أنَّه يستحقُّ أن يُرَدَّ، وما أكثرَ ما نَرُدُّ الشَّيءَ ثُمَّ نندمُ إذا تعجَّلنا! أحيانًا مثلًا تجد حتَّى في كتبِ العلمِ تجد أنَّ المؤلِّفَ أَطْلَقَ العبارةَ، فتقولُ: لماذا أَطْلَقَهَا؟ ثُمَّ تحاولُ أن تُحَشِّيَ على الكتابِ وتقولَ: «**هذا الإطلاقُ فيه نظرٌ**»، فإذا بالمؤلِّفِ يُقَيِّدُ في آخِرِ الكلامِ، أيضًا يتكلَّمُ معك أحدٌ من النَّاسِ فتبدرُ منه كلمةٌ تظنُّ أنَّها خطأٌ، فتَرُدُّ عليه، فيقولُ: «**اصبر لم يتمَّ الكلامُ**».

فكونُ الإنسانِ يتأنَّى ولا يَرُدُّ الشَّيءَ إلَّا بعد أن يتبيَّنَ فيه الخطأُ، لا شكَّ أنَّ هذا من العقلِ ومن الشَّرعِ؛ إذَنْ ماذا أعملُ؟ أنتظرُ، وأتأنَّى حتَّى إذا استكملت الأمورُ وصار هناك مجالٌ للرَّدِّ رَدَدْتُ.

٤٩٠٠- الفَضْـلُ مِنْـهُ مُطْلَـقٌ وَمُقَيَّـدٌ وَهُمَـا لِأَهْـلِ الفَضْـلِ مَرْتَبَتَـانِ

قَوْلُهُ: «**الفَضْلُ مِنْهُ مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدٌ**»؛ يعني: الفضلُ الذي يُوصَفُ به الإنسانُ مُطْلَقٌ ومقيَّدٌ، «**مُطْلَقٌ**»؛ يعني: على كُلِّ حالٍ، و«**مُقَيَّدٌ**»؛ يعني: في حالٍ مُعيَّنةٍ، فمثلًا نقولُ: «**هذا الرَّجلُ أفضلُ من هذا الرَّجلِ**»؛ أي: على سبيلِ الإطلاقِ، ثُمَّ نقولُ: «**والرَّجلُ المفضولُ أفضلُ منه في كذا**»، فمثلًا: لو وجدنا رجلًا عالمًا كريمًا شجاعًا كان فاضلًا فضلًا مُطْلَقًا على مَنْ ليس كذلك، لكن قد يفضلُه الثَّاني بُحسْنِ الخُلُقِ ودَمَاثَةِ الأَخلاقِ، فيكونُ الفضلُ المُطْلَقُ للأوَّلِ، والثَّاني له فضلٌ مقيَّدٌ.

إذَنْ ينقسمُ إلى قسمين: مطلقٌ ومُقَيَّدٌ، وسيذكرُ المؤلِّفُ مثالًا واضحًا، يقولُ:

٤٩٠١- وَالفَضْلُ ذُو التَّقْيِيدِ لَيْسَ بِمُوجِبٍ فَضْلًا عَلَى الإِطْـلاقِ مِـنْ إِنْسَـانِ

يعني: أنَّ الفضلَ المُقيَّدَ لا يُوجِبُ أن يكونَ الفاضلُ أفضلَ من ذي الفضلِ المُطْلَقِ؛ إذَنْ الفضلُ نوعان: فضلٌ مُطْلَقٌ؛ بأنْ يكونَ هذا الإنسانُ أفضلَ من غيرِه على الإطلاقِ، وفضلٌ مُقَيَّدٌ؛ بأن يَفْضُلَ غيرَه في شيءٍ مُعيَّنٍ، فهل إذا فضل الإنسانُ غيرَه في شيءٍ معيَّنٍ هل يستلزمُ أن يكونَ أفضلَ منه على الإطلاقِ؟ الجوابُ: لا؛ فصاحبُ الفضلِ المُقَيَّدِ ليس بموجِبٍ فضلًا على مَنْ فضلُه مُطْلَقٌ.

٤٩٠٢- لا يُوجِبُ التَّقْيِيدُ أَنْ يُقْضَى لَهُ بِالإِسْتِوَاءِ فَكَيْفَ بِالرُّجْحَانِ

صحيحٌ؛ يعني: أنَّ الفضلَ المقيَّدَ لا يُوجِبُ أن يكونَ مُساويًا لذي الفضلِ المُطْلَقِ، فضلًا عن أن يكونَ أرجحَ منه وأعلى منه، ولقد صَدَقَ، الآن مثلًا نحن نقولُ: التَّابعون أفضلُ من تابعي التَّابعين على الإطلاقِ، لكن قد يُوجَدُ من تابعي التَّابعين مَنْ هو أفضلُ من كثيرٍ من التَّابعين، لكنَّه فردٌ معيَّنٌ، كذلك الفضائلُ في شخصٍ معيَّنٍ، قد يكونُ هذا الرَّجلُ له فضائلُ عديدةٍ فيكون أفضلَ من غيرِه على الإطلاقِ، ويكونُ غيرُه له خاصِّيَّةٌ أفضلُ من الأوَّلِ، وهذا لا يُوجِبُ أن يكونَ الثَّاني أفضلَ على الإطلاقِ.

٤٩٠٣- إِذْ كَانَ ذُو الإِطْلَاقِ حَازَ مِنَ الفَضَا ئِلِ فَوْقَ ذِي التَّقْيِيدِ بِالإِحْسَانِ

هذا تعيينٌ لقولِه: «**فَكَيْفَ بِالرُّجْحَانِ؟!**»، «**إِذْ كَانَ**»؛ يعني: لأنَّ ذا الإطلاقِ حَازَ من الفضائلِ فوق ذي التَّقييدِ بالإحسانِ؛ فمثلًا: هذا له مئةُ فضيلةٍ، وهذا له فضيلةٌ واحدةٌ لا تُوجَدُ في ذي المئةِ، الأوَّلُ نسمِّيه: «**فضلًا مُطْلَقًا**»، والثَّاني: «**مُقَيَّدًا**»، وهل هذا الذي اختصَّ بفضيلةٍ لا تُوجَدُ عند صاحبِ الفضائلِ الكثيرةِ هل يُوجِبُ أن يكونَ أفضلَ من الأوَّلِ؟ الجوابُ: لا.

٤٩٠٤- فَإِذَا فَرَضْنَا وَاحِدًا قَدْ حَازَ نَوْ عًا لَمْ يَحُزْهُ فَاضِلُ الإِنْسَانِ

٤٩٠٥- لَمْ يُوجِبِ التَّخْصِيصُ مِنْ فَضْلٍ عَلَيْـ ـهِ وَلا مُسَاوَاةٍ وَلا نُقْصَانِ

٤٩٠٦- مَا خَلْقُ آدَمَ بِاليَدَيْنِ بِمُوجِبٍ فَضْلًا عَلَى المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

وهذا من أوضحِ الأمثلةِ، آدمُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- امتاز بفضيلةٍ لم تكن لغيرِه، وهي: أنَّ اللهَ خَلَقَهُ بيدِه الكريمةِ، وأمَّا محمَّدٌ ﷺ فَخَلَقَهُ كسائرِ الخلقِ بالكلمةِ، هل هذه الفضيلةُ تُوجِبُ أن يكونَ أفضلَ من محمَّدٍ؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ فضلَ محمَّدٍ مُطْلَقٌ، وفضلَ آدمَ مُقَيَّدٌ بشيءٍ مُعَيَّنٍ، فلا يُوجِبُ أن يكونَ هذا المُقَيَّدُ مساويًا أو راجحًا على ذي الفضلِ المُطْلَقِ.

٤٩٠٧- وَكَذَا خَصَائِصُ مَنْ أَتَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ كُلِّ رُسْلِ اللهِ بِالبُرْهَانِ

٤٩٠٨- فَمُحَمَّدٌ أَعْلاهُمُ فَوْقًا وَمَا حَكَمَتْ لَهُمْ بِمَزِيَّةِ الرُّجْحَانِ

الرُّسلُ مَنْ بعد آدمَ لهم خصائصُ ليست لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فموسى يُلْقِي العصا فتكونُ حيَّةً ومحمَّدٌ لم يحصل له ذلك، إبراهيم أُلْقِيَ في النَّارِ وخَرَجَ سالمًا ومحمَّدٌ لم يحصل له ذلك، عيسى يَقِفُ على القبرِ فَيَخْرُجُ صاحبُ القبرِ حيًّا ومحمَّدٌ لم يحصل له ذلك، هل هذا يُوجِبُ أن يكونَ هؤلاء الرُّسلُ الكرامُ الذين خُصُّوا بهذه الفضائلِ أفضلَ من محمَّدٍ؟ الجوابُ: لا، لماذا؟ لأنَّ هذا الفضلَ مُقَيَّدٌ بفضيلةٍ واحدةٍ، وليس كَمَنْ كان فضلُه على الإطلاقِ.

ثُمَّ انتقل المؤلِّفُ بعد هذا التَّقريرِ إلى قولِه:

٤٩٠٩- فَالحَائِزُ الخَمْسِينَ أَجْرًا لَمْ يَحُزْ هَا فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الإِيمَانِ

الذي عَمِلَ في آخرِ زمانِ الغُربةِ له أجرُ خمسين واحدًا من الصَّحابةِ لم يَحُزْهَا على الإطلاقِ، بل على التَّقييدِ في هذا الزَّمنِ زمنِ الغربةِ، ولكن هل هذا الفضلُ

المُقَيَّدُ يستلزمُ أن يكونَ أفضلَ ممَّن حازوا الفضائلَ في بدرٍ وأحدٍ وحنينٍ وفتحِ مكَّةَ؟ الجوابُ: لا؛ ولهذا قال:

٤٩١٠- هَلْ حَازَهَا فِي بَدْرٍ اَوْ أُحُدٍ أَوِ الْـ ـفَتْحِ الـمُبِينِ وَبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ

قَوْلُهُ: «هَلْ حَازَهَا فِي بَدْرٍ اوْ أُحُدٍ...؟» الجوابُ: لا، ما حازها قطعًا.

انتبه لوجهِ الجمعِ: الفضلُ نوعان: فضلٌ مُطْلَقٌ على الإطلاقِ، وفضلٌ مُقَيَّدٌ؛ أي: مُقَيَّدٌ بحالٍ دون حالٍ أو بزمنٍ دون زمنٍ، فلا يمكنُ أن يساويَ أحدٌ الصَّحابةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الفضل المُطْلَقِ، وأمَّا الفضلُ المُقَيَّدُ فيمكنُ أن يكونَ واحدٌ أفضلَ من الصَّحابةِ في هذه الحالِ، أو في هذا الزَّمنِ، أو ما أشبه ذلك.

الآن تُوجَدُ خصائصُ لبعضِ الصَّحابةِ يذكرُها الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لا تُذْكَرُ لأبي بكرٍ مثلًا، ولا شكَّ أنَّ أبا بكرٍ هو أفضلُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فمثلًا: إذا جاءت منقبةٌ لعمرَ بأنَّ الشَّيطانَ يَفْرَقُ منه، كما قال ﷺ: «إِنِّي لَأَحْسَبُ الشَّيْطَانَ يَفْرَقُ مِنْكَ يَا عُمَرُ»[1]، هل هذا يستلزمُ أن يكونَ عمرُ أفضلَ من أبي بكرٍ على الإطلاقِ؟ الجوابُ: لا.

إذا جاء في عثمانَ فضيلةٌ: مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ، فَاشتراها عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، هل هذا يقتضي أن

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٣، رقم ٢٣٠٣٩)، والترمذي: كتاب المناقب، بعد باب في مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٦٩٠)، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا: كتاب المساقاة، باب في الشرب، ومن رأى صدقة الماء وهبته ووصيته جائزة، مقسومًا كان أو غير مقسوم، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وله كنيتان، يقال: أبو عمرو، وأبو عبد الله، رقم (٣٧٠٣)، والنسائي: كتاب الجهاد، باب فضل من جهز غازيا، رقم (٣١٨٢).

يكونَ أفضلَ من عمرَ؟ الجوابُ: لا.

إذا جاء في عليٍّ بن أبي طالبٍ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ»[1]، فَأعطاها عليًّا، هل هذا يستلزمُ أن يكونَ أفضلَ من عثمانَ؟ الجوابُ: لا.

إذَنْ الفضلُ نوعان: فضلٌ مُطْلَقٌ وهذا للصَّحابةِ، وفضلٌ مُقَيَّدٌ وهذا لِـمَنْ خَصَّهُ اللهُ تعالى به.

٤٩١١- بَلْ حَازَهَا إِذْ كَانَ قَدْ عَدِمَ الـمُعِيـ ـنَ وَهُمْ فَقَـدْ كَـانُوا أُولِي أَعْـوَانِ

قَوْلُهُ: «بَلْ حَازَهَا»؛ أي: بل حَازَ الخمسينَ أجرًا.

قَوْلُهُ: «إِذْ كَانَ قَدْ عَدِمَ المُعِينَ»، وفي نسخةٍ: «إِذْ كَانَ قَدْ فَقَدَ المُعِينَ».

يقولُ: السَّببُ في أنَّه حَازَ هذا الأجرَ أنَّه ليس له مُعِينٌ يعينُه على العبادةِ، وهؤلاء لهم أعوانٌ يعينونهم، فتسهلُ عليهم العبادةُ، وأمَّا في آخرِ الزَّمانِ فيقلُّ الأعوانُ، ومع قلَّةِ الأعوانِ تشقُّ العبادةُ والطَّاعةُ على الإنسانِ، فيكونُ ما قام في قلبِه من الصَّبرِ والرِّضا والإخلاصِ يجعلُ الأجرَ مضاعفًا إلى خمسين مرَّةً بالنِّسبة إلى الصحابةِ، فلا يحوزون فضلَ الغربةِ كما حازَها هو، فصار هذا له أجرُ خمسينَ في هذه العبادةِ فقط، وليس له الأجرُ الكاملُ المُطْلَقُ؛ لأنَّ لهم فضائلَ عديدةٍ ما شاركهم فيها.

وما قاله رحمه اللهُ هو الحقُّ، وبه يزولُ الإشكالُ، وأنت الآن قدِّر نفسَك مع قومٍ فسقةٍ ليس فيهم مَنْ يعينُك، بل فيهم مَنْ يسخرُ بك ويستهزئُ بك، ولا تؤدِّي العبادةَ إلَّا وأنت مُختَفٍ بها، وبين قومٍ صالحينٍ يساعدونك ويفعلون كما تفعلُ من

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في لواء النبي ﷺ، رقم (٢٨١٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٤٠٧).

الخيرِ والبرِّ، أيُّهما تصعبُ عليه العبادةُ: الأوَّلُ أو الثَّاني؟ الجوابُ: الأوَّلُ بلا شكٍّ، فلأجل هذا كان للعاملِ في أيَّامِ الصَّبرِ أجرُ خمسين من الصَّحابةِ.

وهنا مسألةٌ: ما حكمُ الاستهزاءِ والتَّعييرِ بالسُّنَّةِ؟

نقولُ: هذا الذي يُعَيِّرُ، إن كان يُعَيِّرُ الشَّخصَ بنفسِه فإنَّه لا يكفرُ، وإن كان يُعَيِّرُ بالسُّنَّةِ فهو كافرٌ، لكن غالب مَنْ يُعَيِّرُ لا يُعَيِّرُ بالسُّنَّةِ بل يُعَيِّرُ الشَّخصَ نفسَه؛ ولهذا لو كانت لحيةُ هذا على رجلٍ آخرَ مُعَظَّمٍ عنده ما عَيَّرَهُ بها؛ ومثل ذلك أيضًا: تقصيرُ الثِّيابِ، تجدُ مثلًا بعضَ النَّاسِ إذا رأى أحدًا قد رفع ثوبَه إلى نصفِ السَّاقِ يسخرُ به ويستهزئ، لكن لو رفعه أحدٌ مُعَظَّمٌ عنده لم يقل شيئًا، بل قال: «هذا هو السُّنَّةُ»، فهذه المسألةُ خطيرةٌ جدًّا جدًّا، إن كان عَيَّرَه كراهةً لهذه السُّنَّةِ فهو كافرٌ، وإن كان عَيَّرَه لشخصِه مثلًا فهذا لا يكفرُ، لكنَّه على خطرٍ عظيمٍ بلا شكٍّ.

***

٤٩١٢- وَالرَّبُّ لَيْسَ يُضِيعُ مَا يَتَحَمَّلُ الْـ ... ـمُتَحَمِّلُونَ لِأَجْلِهِ مِنْ شَانِ

٤٩١٣- فَتَحَمُّلُ العَبْدِ الوَحِيدِ رِضَاهُ مَعْ ... فَيْضِ العَدُوِّ وَقِلَّةِ الأَعْوَانِ

٤٩١٤- مِمَّا يَدُلُّ عَلَى يَقِينٍ صَادِقٍ ... وَمَحَبَّةٍ وَحَقِيقَةِ العِرْفَانِ

٤٩١٥- يَكْفِيهِ ذُلًّا وَاغْتِرَابًا قِلَّةُ الْـ ... أَنْصَارِ بَيْنَ عَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ

٤٩١٦- فِي كُلِّ يَوْمٍ فِرْقَةٌ تَغْزُوهُ إِنْ ... تَرْجِعْ يُوَافِيهِ الفَرِيقُ الثَّانِي

٤٩١٧- فَسَلِ الغَرِيبَ المُسْتَضَامَ عَنِ الَّذِي ... يَلْقَاهُ بَيْنَ عِدًى بِلا حُسْبَانِ

٤٩١٨- هَذَا وَقَدْ بَعُدَ المَدَى وَتَطَاوَلَ الْـ ... ـعَهْدُ الَّذِي هُوَ مُوجِبُ الإِحْسَانِ

٤٩١٩- وَلِذَاكَ كَانَ كَقَابِضٍ جَمْرًا فَسَلْ ... أَحْشَاءَهُ عَنْ حَرِّ ذِي النِّيرَانِ

٤٩٢٠- وَاللهُ أَعْلَمُ بِالَّذِي فِي قَلْبِهِ ... يَكْفِيهِ عِلْمُ الوَاحِدِ المَنَّانِ

٤٩٢١- فِي القَلْبِ أَمْرٌ لَيْسَ يَقْدِرُ قَدْرَهُ ... إِلَّا الَّذِي آتَاهُ لِلإِنْسَانِ

٤٩٢٢- بِرٌّ وَتَوْحِيدٌ وَصَبْرٌ مَعْ رِضَا ... وَالشُّكْرُ وَالتَّحْكِيمُ لِلْقُرْآنِ

الشرحُ

يقولُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ تعالى- مبيِّنًا فضيلةَ هؤلاء الغرباءِ حين عبدوا اللهَ عزَّ وجلَّ على حين غربةٍ، يقولُ:

٤٩١٢- وَالرَّبُّ لَيْسَ يُضِيعُ مَا يَتَحَمَّلُ الْـ ... ـمُتَحَمِّلُونَ لِأَجْلِهِ مِنْ شَانِ

الحمدُ لله، لا يُضِيعُ اللهَ عزَّ وجلَّ أجرَ المتحمِّلين من أجلِه، الذين صبروا وأُوذُوا وصاروا غُرَباءَ بين النَّاسِ وهم ثابتون على دِينِهم، فهؤلاء لهم أجرٌ عظيمٌ لا يُضَيِّعُهُ اللهُ.

٤٩١٣- فَتَحَمُّلُ العَبْدِ الوَحِيدِ رِضَاهُ مَعْ ... فَيْضِ العَدُوِّ وَقِلَّةِ الأَعْوَانِ

٤٩١٤- مِمَّا يَدُلُّ عَلَى يَقِينٍ صَادِقٍ ... وَمَحَبَّةٍ وَحَقِيقَةِ العِرْفَانِ

يقولُ: تحمُّلُ العبدِ الوحيدِ الذي ليس معه أحدٌ، بل هو غريبٌ بين النَّاسِ تحمُّلُه رضا الله مع فَيْضِ العدوِّ؛ أي: مع كثرته، وقلَّةِ الأعوانِ؛ ممَّا يدلُّ على يقينٍ صادقٍ، ولا شكَّ، إذا التفتَ يمينًا وشمالًا، وإذا كُلُّ النَّاسِ على خلافِه، فإنَّ ثبوتَه على ما هو عليه دليلٌ على يَقينِه الصَّادقِ ومحبَّةِ الله عزَّ وجلَّ وحقيقةِ العرفانِ بالله، وأنَّه عارفٌ بالله حقيقةً.

٤٩١٥- يَكْفِيهِ ذُلًّا وَاغْتِرَابًا قِلَّةُ الْـ ... أَنْصَارِ بَيْنَ عَسَاكِرِ الشَّيْطَانِ

فهو وإنْ كان غريبًا ذليلًا باعتبارِ الظَّاهرِ للنَّاسِ، لكنَّه -والله- عزيزٌ، عزيزٌ بما أَنْعَمَ اللهُ به عليه من العبادةِ، والتَّوكُّلِ على الله واحتسابِ الأجرِ من الله.

٤٩١٦- في كُلِّ يَوْمٍ فِرْقَةٌ تَغْزُوهُ إِنْ ... تَرْجِعْ يُوَافِيهِ الفَرِيقُ الثَّانِي

يعني: النَّاسُ يغزونه من كُلِّ وجهٍ، تغزوه هذه الفرقةُ، ثُمَّ ترجعُ فتغزوه أخرى، وهكذا، لكنَّه متمسِّكٌ بالسُّنَّةِ، فظاهرُه كظاهرِ السَّلفِ الصَّالحِ؛ فاللِّحيَّةُ مُوفَّرةٌ، والثِّيابُ مرفوعةٌ عن الكعبِ وذو هيبةٍ ووقارٍ.

تغزوه طائفةٌ أخرى في العقيدةِ هذا مُمَثِّلٌ، هذا مُجَسِّمٌ، هذا حَشويٌّ، وما أشبه ذلك، تغزوه فرقةٌ من جهةِ الأخلاقِ وتركِ اللغو والبُعدِ عن ضَياعِ الوقتِ، فيقولون: هذا منعزلٌ، مُنطوٍ على نفسِه، لا خيرَ فيه، فالمهمُّ أنَّ فرقَ شياطين الإنسِ تغزوه من كُلِّ جانبٍ وهو مستعينٌ بالله ثابتٌ.

٤٩١٧- فَسَلِ الغَرِيبَ المُسْتَضَامَ عَنِ الَّذِي ... يَلْقَاهُ بَيْنَ عِدًى بِلا حُسْبَانِ

قَوْلُهُ: «فَسَلِ الغَرِيبَ المُسْتَضَامَ» «الغَرِيبُ»؛ يعني: الذي ليس معه أحدٌ، و«**المُسْتَضَام**»: المُضَيَّق عليه.

قَوْلُهُ: «عَنِ الَّذِي يَلْقَاهُ بَيْنَ عِدًى بِلَا حُسْبَانِ» «عِدًى» جمع «عَدُوٍّ».

بعضُ النَّاسِ حينما يصادفُ شخصًا مستقيمًا من الشَّبابِ يكرهُه؛ ولذا أخشى أنْ يكونَ هذا نِفاقًا في قلبِه، ومثلُ هذا يجبُ أن يُعَالِجَ قلبَه قبل كُلِّ شيءٍ؛ لأنَّ المسألةَ خطيرةٌ، لكن بعضُ النَّاسِ قد يكرهُ بعضَ الشَّبابِ لفعلِ بعضِهم ممَّن يتزمَّتون ويحملون النَّاسَ على ما يُريدون هم دون ما جاء في الشَّريعةِ، ويقولون:

«كُلُّ مَنْ خَالَفَنَا فهو مبتدعٌ أو ضالٌّ»، وتعرفُ أنَّ النَّاسَ يفسدُ بعضُهم على بعضٍ، لكن الواجبُ أنَّك كُلَّما رَأَيْتَ شخصًا مستقيمًا أن تحبَّه لله، وإذا رأيتَ منه شيئًا يخالفُ منهجَ السَّلفِ فانصَحْه.

٤٩١٨- هَذَا وَقَدْ بَعُدَ الـمَدَى وَتَطَاوَلَ الْـ ـعَهْدُ الَّذِي هُوَ مُوجِبُ الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «بَعُدَ المَدَى وَتَطَاوَلَ العَهْدُ»؛ أي: العهدُ الذي بينه وبين الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّه كُلَّما قَرُبَ العهدُ من زمنِ الرِّسالةِ فإنَّه يكونُ أقوى إيمانًا وأصحَّ إسلامًا، وكُلَّما بَعُدَ النَّاسُ عن عهدِ الرِّسالةِ فبالعكسِ.

٤٩١٩- وَلِذَاكَ كَانَ كَقَابِضٍ جَمْرًا فَسَلْ أَحْشَاءَهُ عَنْ حَرِّ ذِي النِّيرَانِ

الرَّجلُ القابضُ على الجمرِ يجدُ حرًّا لا يعلمُه إلَّا اللهُ.

٤٩٢٠- وَاللهُ أَعْلَمُ بِالَّذِي فِي قَلْبِهِ يَكْفِيهِ عِلْمُ الوَاحِدِ المَنَّانِ

٤٩٢١- فِي القَلْبِ أَمْرٌ لَيْسَ يَقْدِرُ قَدْرَهُ إِلَّا الَّذِي آتَاهُ لِلإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «فِي القَلْبِ أَمْرٌ» فما هذا الأمرُ؟ يقولُ:

٤٩٢٢- بِرٌّ وَتَوْحِيدٌ وَصَبْرٌ مَعْ رِضًا وَالشُّكْرُ وَالتَّحْكِيمُ لِلْقُرْآنِ

بِرٌّ، وتوحيدٌ، وصبرٌ، ورضا، وشكرٌ، وتحكيمُ القرآنِ، ستَّةُ أشياءَ، والبرُّ ليس بِرَّ الوالدينِ، بل البرُّ مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخرِ كما ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ.

* * *

٤٩٢٣- سُبْحَانَ قَاسِمِ فَضْلِهِ بَيْنَ العِبَا دِ فَذَاكَ مَوْلَى الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

٤٩٢٤- فَالفَضْلُ عِنْدَ اللهِ لَيْسَ بِصُورَةِ الْـ أَعْمَالِ بَلْ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ

٤٩٢٥- وَتَفَاضُلُ الأَعْمَالِ يَتْبَعُ مَا يَقُو مُ بِقَلْبِ صَاحِبِهَا مِنَ البُرْهَانِ

٤٩٢٦- حَتَّى يَكُونَ العَامِلانِ كِلاهُمَا فِي رُتْبَةٍ تَبْدُو لَنَا بِعِيَانِ

٤٩٢٧- هَذَا وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَا وَالأَرْضِ فِي فَضْلٍ وَفِي رُجْحَانِ

٤٩٢٨- وَيَكُونُ بَيْنَ ثَوَابِ ذَا وَثَوَابِ ذَا رُتَبٌ مُضَاعَفَةٌ بِلا حُسْبَانِ

٤٩٢٩- هَذَا عَطَاءُ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وَبِذَاكَ تُعْرَفُ حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٤٩٢٣- سُبْحَانَ قَاسِمِ فَضْلِهِ بَيْنَ العِبَا دِ فَذَاكَ مَوْلَى الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَ قَاسِمِ فَضْلِهِ بَيْنَ العِبَادِ»؛ يعني: تنزيهًا له حيث قَسَمَ الفضلَ بين عبادِه، لم يقسمْه عن عبثٍ، ولكن عن حكمةٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

٤٩٢٤- فَالفَضْلُ عِنْدَ اللهِ لَيْسَ بِصُورَةِ الْـ أَعْمَالِ بَلْ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ

إي واللهِ، الفضلُ بحقائقِ الإيمانِ لا بصورةِ الأعمالِ، فالصُّورةُ على اسمِها صورةٌ؛ ولهذا انظر إلى الخوارجِ فهم كفرةٌ وهم يُصَلُّون أحسنَ مـمَّا نُصَلِّي، ويصومون، ويتصدَّقون، ويذكرون اللهَ كثيرًا، وصورةُ أعمالِهم أحسنُ من صورةِ أعمالِنا؛ كما قال النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: «يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ عِنْدَ صَلاتِهِمْ»(١)، ومع ذلك هم من أبعدِ النَّاسِ عن ربِّ العالمين، نسألُ اللهَ العافيةَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٤١٤)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤).

وأمَّا المنافقُ فقد قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾ [المنافقون:٤]؛ أي: من حُسْنِه، وهم أبعدُ النَّاسِ عن الإيمانِ.

٤٩٢٥- وَتَفَاضُلُ الأَعْمَالِ يَتْبَعُ مَا يَقُو مُ بِقَلْبِ صَاحِبِهَا مِنَ البُرْهَانِ

اللَّهُمَّ حَقِّقْ لنا هذا البرهانَ.

٤٩٢٦- حَتَّى يَكُونَ العَامِلانِ كِلاهُمَا فِي رُتْبَةٍ تَبْدُو لَنَا بِعِيَانِ

قَوْلُهُ: «حَتَّى يَكُونَ العَامِلَانِ...»؛ يعني: حتَّى تجدَ العامِلَيْنِ كلاهما في رُتبةٍ تبدو لنا بعيانٍ.

٤٩٢٧- هَذَا وَبَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَا وَالأَرْضِ فِي فَضْلٍ وَفِي رُجْحَانِ

تجد اثنين يُصلِّيان جميعًا، بين كُلِّ واحدٍ والآخرِ في الفضلِ في هذه الصَّلاةِ كما بين السَّماءِ والأرضِ؛ وذلك لما يقومُ بقلبِ صاحبِها من الإنابةِ إلى الله والإيمانِ به والصِّدقِ والطُّمأنينةِ وغيرِ ذلك.

٤٩٢٨- وَيَكُونُ بَيْنَ ثَوَابِ ذَا وَثَوَابِ ذَا رُتَبٌ مُضَاعَفَةٌ بِلا حُسْبَانِ

نعم، يعملُ العاملان العملَ الواحدَ وبينهما في الفضلِ والثَّوابِ عند الله رُتَبٌ عظيمةٌ متباينةٌ.

٤٩٢٩- هَذَا عَطَاءُ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وَبِذَاكَ تُعْرَفُ حِكْمَةُ الرَّحْمَنِ

نسألُ اللهَ أنْ يُعطيَنا وإيَّاكم من فضلِه؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

* * *

فصل

فِيمَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى فِي الجَنَّةِ لأَوْلِيَائِهِ المُتَمَسِّكِينَ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

٤٩٣٠- يَا خَاطِبَ الحُورِ الحِسَانِ وَطَالِبًا ... لِوِصَالِهِنَّ بِجَنَّةِ الحَيَوَانِ
٤٩٣١- لَوْ كُنْتَ تَدْرِي مَنْ خَطَبْتَ وَمَنْ طَلَبْـ ... ـتَ بَذَلْتَ مَا تَحْوِي مِنَ الأَثْمَانِ
٤٩٣٢- أَوْ كُنْتَ تَدْرِي أَيْنَ مَسْكَنُهَا جَعَلْـ ... ـتَ السَّعْيَ مِنْكَ لَهَا عَلَى الأَجْفَانِ
٤٩٣٣- وَلَقَدْ وَصَفْتَ طَرِيقَ مَسْكَنِهَا فَإِنْ ... رُمْتَ الوِصَالَ فَلا تَكُنْ بِالوَانِي
٤٩٣٤- أَسْرِعْ وَحُثَّ السَّيْرَ جُهْدَكَ إِنَّمَا ... مَسْرَاكَ هَذَا سَاعَةٌ لِزَمَانِ
٤٩٣٥- فَاعْشَقْ وَحدِّثْ بِالوِصَالِ النَّفْسَ وَابْـ ... ـذُلْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ
٤٩٣٦- وَاجْعَلْ صِيَامَكَ قَبْلَ لُقْيَاهَا وَيَوْ ... مَ الوَصْلِ يَوْمَ الفِطْرِ مِنْ رَمَضَانِ
٤٩٣٧- وَاجْعَلْ نُعُوتَ جَمَالِهَا الحَادِي وَسِرْ ... تَلْقَ المَخَاوِفَ وَهْيَ ذَاتُ أَمَانِ
٤٩٣٨- لا يُلْهِيَنَّكَ مَنْزِلٌ لَعِبَتْ بِهِ ... أَيْدِي البِلَى مِنْ سَالِفِ الأَزْمَانِ
٤٩٣٩- فَلَقَدْ تَرَحَّلُ عَنْهُ كُلُّ مَسَرَّةٍ ... وَتَبَدَّلَتْ بِالْهَمِّ وَالأَحْزَانِ
٤٩٤٠- سِجْنٌ يَضِيقُ بِصَاحِبِ الإِيمَانِ لَـ ... ـكِنْ جَنَّةُ المَأْوَى لِذِي الكُفْرَانِ
٤٩٤١- سُكَّانُهَا أَهْلُ الجَهَالَةِ وَالبَطَا ... لَةِ وَالسَّفَاهَةِ أَنْجَسُ السُّكَّانِ
٤٩٤٢- وَأَلَذُّهُمْ عَيْشًا فَأَجْهَلُهُمْ بِحَقْـ ... ـقِ اللهِ ثُمَّ حَقَائِقِ القُرْآنِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِيمَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى فِي الجَنَّةِ لأَوْلِيَائِهِ المُتَمَسِّكِينَ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ» أَفَادَنَا بقولِه: «فِيمَا أَعَدَّ» أنَّ الجنَّةَ الآن موجودةٌ، وهو كذلك كما قال اللهُ تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وأَفَادَنَا بقولِه: «لأَوْلِيَائِهِ المُتَمَسِّكِينَ» أنَّ الأولياءَ هم المتمسِّكون بالكتابِ والسُّنَّةِ، وهؤلاء هم المؤمنون المتَّقون؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]، ثُمَّ قال:

٤٩٣٠- يَا خَاطِبَ الحُورِ الحِسَانِ وَطَالِبًا لِوِصَالِهِنَّ بِجَنَّةِ الحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «الحُورِ الحِسَانِ» يقولون: لا تكونُ المرأةُ حوراءَ إلَّا إذا ابيضَّ وجهُها واسودَّت عيناها، فهو سوادُ العينَيْنِ في بياضِ الوجْنَتَيْنِ، هذا هو الحَوَرُ[(١)].

قَوْلُهُ: «وَطَالِبًا لِوِصَالِهِنَّ بِجَنَّةِ الحَيَوَانِ»؛ أي: بجنَّة الحياةِ، فالحيوانُ هنا بمعنى الحياة الكاملة؛ ولهذا جَاءَتْ فيها الألفُ والنُّونُ إشارةً إلى الكثرةِ والسَّعَةِ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤].

قَوْلُهُ: «يَا خَاطِبَ الحُورِ الحِسَانِ...»، ولا شكَّ أنَّ هذه الدَّعوةَ من المؤلِّفِ دعوةٌ حميدةٌ، كُلٌّ يريدُها ويريدُ الوصولَ إليها، لكن هناك ما هو ألَذُّ وأنعمُ من الوصالِ إلى هؤلاء الحورِ، وهو الوصالُ إلى رضا الله ورؤيةِ الله عزَّ وجلَّ، ولعلَّ المؤلِّفَ سيذكرُه فيما بعدُ، لكن ذَكَرَ هذا -واللهُ أعلمُ- من بابِ التَّشويقِ والمقدِّمةِ.

---

(١) الحَوَرُ -بالتَّحْريك-: أن يشتد بياضُ بياضِ العين، وسواد سوادها، وتستدير حَدَقَتُهَا، وتَرِقَّ جُفُونُها ويَبْيَضَّ مَا حَوَالَيْهَا، أو الحَوَر: شِدَّةُ بَيَاضِهَا وشدَّةُ سَوَادِهَا في شدَّة بَيَاض الجَسَد. انظر: تاج العروس، مادة: حور.

٤٩٣١- لَوْ كُنْتَ تَدْرِي مَنْ خَطَبْتَ وَمَنْ طَلَبْـ ـتَ بَذَلْتَ مَا تَحْـوِي مِـنَ الأَثْـمَانِ

صحيحٌ واللهِ؛ يعني: لو لم يكن لأهلِ الجنَّةِ -اللَّهُمَّ اجعَلْنا منهم- إلَّا النَّجاةُ من النَّارِ لكفَى، والإنسانُ كُلَّما سَمِعَ ما في النَّارِ -والعياذُ بالله- من العذابِ يقولُ: «لَيْتَ أُمِّي لم تلِدْنِي» خوفًا؛ لأنَّه لا يدري ماذا يُخْتَمُ له؟ ولا يدري أين مصيرُه؟ فلو لم يكن من الجنَّةِ إلَّا أنَّ أهلَها سَلِمُوا من العذابِ فكيف وفيها من النَّعيمِ ما لا عينٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ؟! اللَّهُمَّ اجعَلْنا مِنْ ساكنيها.

فلو كُنَّا ندري لَبَذَلْنَا كُلَّ ما نحويه من الأثمانِ ومن الأعمالِ، ونحن في الحقيقةِ ندري، ولكنَّنا لا ندري عن حقيقةِ هؤلاء النِّساءِ، ندري أنَّهُنَّ حورٌ حِسَانٌ، خيِّراتُ الأخلاقِ، وأنَّهنَّ مقصوراتٌ في الخيامِ، وأنَّهُنَّ قاصراتُ الطَّرْفِ؛ ولهذا تأمَّلوا الآياتِ التي في آخرِ سورةِ «الرَّحمن»، لـمَّا ذَكَرَ اللهُ المأكولاتِ والمشروباتِ فَرَّقَ بين الجنَّتَيْنِ فقال في الأولى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن:٥٠]، وقال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢]، وقال في الثَّانية: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن:٦٦]، وقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن:٦٨]، فهي دُون الأولى، لكن في النِّساء قال في كُلِّ الأربعِ: ﴿فِيهِنَّ﴾، فقال في الأولى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦]، وقال في الثَّانية: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٠-٧٢]، والفرقُ بين «الخَيْرَاتِ» و«الحِسَانِ» أنَّهُنَّ خيراتٌ في أخلاقِهِنَّ، وحِسَانٌ في خِلْقَتِهِنَّ، فالخِلْقَةُ حسنةٌ، والطَّبعُ جميلٌ خيِّرٌ، نسألُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم من أهلِها.

فهو يقولُ: لو كنتَ تدري ما فَعَلْتَ، نحن ندري لكنَّنا لا ندري عن الحقيقةِ، حقيقةُ ما بالجنَّةِ لا يعلمُه أحدٌ؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم

مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدة:١٧]، ثُمَّ إنَّ عَمَلَنا -نسألُ اللهَ أن يُعامِلَنا بعفوِه- عملُ مَنْ كان جاهلًا حتَّى في معناه، عملُنا عملُ الجاهلِ؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥]، فَأَكَّدَ الموتَ بـ«إنَّ» و«اللَّام» مع أنَّه واضحٌ، فكُلٌّ يُقِرُّ به؛ لأنَّ عملَ النَّاسِ عملُ مَنْ لا يؤمنُ بالموتِ ومَنْ يستبعدُ هذا؛ لذلك نحن نعلمُ ما في الجنَّةِ من النَّعيمِ، لكن كأنَّنا جاهلون لم نعمل له، نسألُ اللهَ أن يعاملَنا بعفوِه وإحسانِه.

٤٩٣٢- أَوْ كُنْتَ تَدْرِي أَيْنَ مَسْكَنُهَا جَعَلْـ ـتَ السَّعْيَ مِنْكَ لَـهَا عَلَى الأَجْفَـانِ

السَّعيُ للمحبوبِ المطلوبِ على الأقدامِ، لكن لو كنت تدري أين مسكنُها؟ مسكنُها في جنَّاتِ عدنٍ، وفوقَه عرشُ الرَّحمنِ جلَّ جلالُه، أعظمُ مسكنٍ وأعلى مسكنٍ وأطيبُ مسكنٍ، لو كُنْتَ تعلمُ هذا المسكنَ لَـجَعَلْتَ السَّعيَ منك لها على الأجفانِ؛ أي: أجفانِ العيونِ التي هي أرقُّ شيءٍ في الإنسانِ لا على الأقدامِ، ولكن تتحمَّلُ هذه المشقةَ بالسَّعيِ على الأجفانِ من أجلِ الوصولِ إلى هذا المسكنِ.

٤٩٣٣- وَلَقَدْ وَصَفْتَ طَرِيقَ مَسْكَنِهَا فَـإِنْ رُمْتَ الوِصَالَ فَـلا تَكُـنْ بِـالوَانِي

قَوْلُهُ: «لَا تَكُنْ بِالْوَانِي»؛ أي: بالضَّعيفِ في الطَّلبِ، اسْعَ على وجهِ القوَّةِ في الطَّلَبِ، ولكن كما قال نبيُّنا وإمامُنا -عليه الصلاة والسلام-: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[1]، لا تعتمِدْ على نفسِك فَتُخْذَلَ، استعنْ باللهِ عزَّ وجلَّ في كُلِّ مطلوبِك.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

٤٩٣٤- أَسْرِعْ وَحُثَّ السَّيْرَ جُهْدَكَ إِنَّمَا مَسْرَاكَ هَذَا سَاعَةٌ لِزَمَانِ

الله أكبر، نعم، كُلُّ الدُّنيا ساعةٌ من زمانٍ، لو جَعَلْتَ اللَّيلَ والنَّهارَ كُلَّه عملًا للوصولِ إلى هذا المكانِ لانقضى بسرعةٍ وكأنَّه لحظاتٌ، ساعةٌ من نهارٍ؛ كما قال ابنُ القيِّم: «إِنَّمَا مَسْرَاكَ هَذَا سَاعَةٌ لِزَمَانٍ».

٤٩٣٥- فَاعْشَقْ وَحدِّثْ بِالوِصَالِ النَّفْسَ وَابْـ ـذُلْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «اعْشَقْ»؛ يعني: كن بالنِّسبةِ لهذه الحورِ مُحِبًّا شديدَ المحبَّةِ، والإنسانُ بلا عِشقٍ لا يتحرَّك، فيبعدُ على إنسانٍ أن يتزوَّجَ امرأة وهو لم يُحِبَّها ولم يعشقها، والعشقُ من أعلى أنواعِ المحبَّةِ، وأعلى أنواعِ المحبَّةِ الخُلَّةُ، ولهذا لا نعلمُ أنَّ اللهَ اتَّخذ خليلًا من خَلْقِهِ إلَّا رجلين اثنين؛ وهما: إبراهيمُ، ومحمَّدٌ، صلواتُ الله عليهما وسلامُه.

أمَّا نحن فنسألُ اللهَ أن يجعلَنا متَّخذين محمَّدًا خليلًا لنا، لكنْ كونُ بعضِنا يجعلُ نفسَه خليلًا، ففي هذا نظرٌ؛ لأنِّي أخشى أن تتطوَّرَ هذه الخُلَّةُ حتَّى تكونَ محبَّةً مع الله، وإذا كانت محبَّةً مع الله -أعاذنا اللهُ وإيَّاكم من ذلك- صارت نوعًا من الشِّركِ كقولِه تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، فالإنسانُ يجبُ عليه أنْ يضبطَ نفسَه في هذه المسائلِ، ولا يتَّخذَ خليلًا من البشرِ إلَّا محمَّدًا ﷺ ومَن اتَّخذه اللهُ خليلًا؛ ولهذا يقولُ أبو هريرةَ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ: «سَمِعْتُ خَلِيلِي ﷺ يقولُ: كَذَا وكَذَا»[1].

(١) كما في حديث: «أوصاني خليلي بثلاث: ركعتي الضحى، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وأن أُوتِرَ قبل أن أنام». أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب صلاة الضحى في الحضر، رقم (١١٧٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، رقم (٧٢١).

قَوْلُهُ: «وَحَدِّثْ بِالوِصَالِ النَّفْسَ وَابْذُلْ مَهْرَهَا» أيضًا حَدِّثْ بالوصالِ، أمَّا أنْ تعشقَ ولا تُحَدِّثْ نفسَك بالوصالِ فاعلم أنَّك لم تَسْعَ للوصالِ، فلو أنَّ شخصًا عَشَقَ امرأةً، ولكنَّه يعلمُ أنَّه لو خَطَبَهَا من أهلِها ما أجابوها ولا أَجَابَتْ هي، هل يعملُ لهذا أو لا يعملُ؟ الجوابُ: لا يعملُ؛ لأنَّه يعلمُ أنَّ عملَه ضائعٌ، فإذا لم يكن هناك محبَّةٌ وتحديثُ النَّفسِ بأنَّ هذا المحبوبَ سيحصلُ فإنَّك لن تسعى ولن تعملَ؛ ولهذا قال: «وَابْذُلْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ»، لكن ما هو مهرُها؟ الجوابُ: الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ، أعاننا اللهُ وإيَّاكم عليه.

٤٩٣٦- وَاجْعَلْ صِيَامَكَ قَبْلَ لُقْيَاهَـا وَيَـوْ مَ الوَصْلِ يَوْمَ الفِطْرِ مِـنْ رَمَضَـانِ

اللهُ أكبرُ، اجعل صيامَك قبل أن تلقاها؛ لأنَّك إن متَّ قبل أنْ تصومَ عن المعاصي ما وَصَلْتَ إليها، فَصُمْ عن المعاصي في هذه الدُّنيا قبل أن تلقاها، ويكونُ الفطرُ يومَ القيامةِ «يَوْمَ الوَصْلِ».

٤٩٣٧- وَاجْعَلْ نُعُوتَ جَمَالِـهَا الحَادِي وَسِرْ تَلْـقَ المَخَـاوِفَ وَهْـيَ ذَاتُ أَمَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاجْعَلْ نُعُوتَ جَمَالِـهَا الحَادِي»، ولا يمكنُ أن نصلَ إلى نعوتِ الجمالِ إلَّا عن طريقِ الوحْيَيْنِ «الكتابِ والسُّنَّةِ»، وقد ذكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- في كتابه: «حادي الأرواحِ إلى بلادِ الأفراحِ» من أوصافِ الحورِ ما يكفي لمن له هِمَّةٌ أن يعملَ للوصالِ إليهنَّ.

قَوْلُهُ: «وَسِرْ تَلْقَ المَخَاوِفَ وَهْيَ ذَاتُ أَمَانِ»؛ يعني: تَلْقَ المخاوفَ في سيرِك؛ لأنَّ الجنَّةَ حُفَّتْ بالمكارهِ، فالإنسانُ لا تطيعُه نفسُه أن يفعلَ كُلَّ الطَّاعةِ، لكن ليصبرْ ويحملْ نفسَه على طاعةِ الله عزَّ وجلَّ، وما هي إلَّا ساعةٌ ثُمَّ تنقضي ويذهبُ كُلُّ شيءٍ، لكن ابن القيِّم -رحمه اللهُ- يقولُ: «تَلْقَ المَخَاوِفَ وَهْيَ ذَاتُ أَمَانِ»، فَمَنْ

خَافَ أَدْلَجَ، ومَنْ أَدْلَجَ[١] بَلَغَ المنزلةَ[٢].

٤٩٣٨- لا يُلْهِيَنَّـــكَ مَنْـــزِلٌ لَعِبَـــتْ بِـــهِ ... أَيْدِي الـبِلَى مِـنْ سَـالِفِ الأَزْمَـانِ

قَوْلُهُ: «لا يُلْهِيَنَّكَ مَنْزِلٌ لَعِبَتْ بِهِ»؛ يعني بهذا المنزلِ: الدُّنيا.

قَوْلُهُ: «البِلَى»؛ يعني: الفناءَ والتَّلفَ.

قَوْلُهُ: «لَعِبَتْ بِهِ مِنْ سَالِفِ الأَزْمَانِ»؛ أي: ممَّا مضى.

لا تلهيك الدُّنيا عن الآخرةِ، فإنَّما ترك النَّاسُ لك الدُّنيا بعد أن غادروها وبعد أنْ أفسدوها أو أفسدتهم ولم يَبْقَ إلَّا الـحُثَالةُ.

٤٩٣٩- فَلَقَــدْ تَرَحَّـلَ عَنْـهُ كُـلُّ مَسَــرَّةٍ ... وَتَبَــدَّلَتْ بِالْــهَمِّ وَالأَحْــزَانِ

يعني: أنَّ هذه الدُّنيا لا تدومُ مسرَّاتُها، بل تتبدَّلُ بالأحزانِ، يقولُ الشَّاعرُ:

فَيَــوْمٌ عَلَيْنَــا وَيَــوْمٌ لَنَــا ... وَيَــوْمٌ نُسَــاءُ وَيَــوْمٌ نُسَــرُّ[٣]

ويقولُ الآخرُ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَـا دَامَـتْ مُنَغَّصَـةً ... لَذَّاتُهُ بِادِّكَـارِ الـمَوْتِ وَالـهَرَمِ[٤]

وصَدَقَ الأوَّلُ والثَّاني، فلا يكادُ يمرُّ بك يومان وأنت مسرورٌ لم يُنَغِّصْك

---

(١) أَدْلَجَ -بالتَّخفيف-: إِذَا سَار مِن أَوَّلِ الليل، وادَّلَجَ -بالتَّشْدِيدِ- إِذا سار مِن آخِرِه، والاسم منهما الدُّلْـجَة والدَّلْـجَة، بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ. انظر: البداية والنهاية، مادة: دلج.

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، بعد باب ما جاء في صفة أواني الحوض، رقم (٢٤٥٠).

(٣) البيت للنمر بن تولب، كما في زهر الأكم، لنور الدين اليوسي (٣/ ١٣٥).

(٤) البيت في توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، للمرادي بلا نسبة (٣/ ١٦٧٨).

شيءٌ؛ إمَّا من خاصَّةِ نفسِك أو من أهلِك أو من أصحابِك أو من المجتمعِ، كُلُّ إنسانٍ قلبُه حيٌّ لابُدَّ أن ينالَ هذا.

ولو فُرِضَ أنَّ الإنسانَ في أطيبِ ما يكونُ من العيشِ وأبعدِ ما يكونُ عن المشاكلِ فهو إذا فكَّرَ ساعةً ما المآل؟

المآلُ أحدُ أمرين: إمَّا موتٌ أو هَرَمٌ، إن متَ فقد فُتَّ، وإن هرمت فقد تَعِبْتَ أنت وأَتْعَبْتَ؛ ولهذا تجدُ أنَّ الهرمَ الذي يصلُ إلى حدِّ الهذيان يَمَلُّ منه أهلُه، يضعونه في زاويةٍ من البيتِ يتكلَّمُ ويصيحُ ومع ذلك لا يجيبُه أحدٌ.

٤٩٤٠- سِجْنٌ يَضِيقُ بِصَاحِبِ الإِيمَانِ لَـ ـكِنْ جَنَّةُ الـمَأْوَى لِذِي الكُفْـرَانِ

قَوْلُهُ: «**سِجْنٌ يَضِيقُ بِصَاحِبِ الإِيمَانِ**» وهذا صحيحٌ، فالمؤمنُ سجنُه الدُّنيا لوجهين:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه لا يرى فيها ما يسرُّه من حيث الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ إلَّا نادرًا.

الوجه الثَّاني: أنَّه يرتقبُ دارًا أنعمَ وأكملَ وأطيبَ من هذه الدُّنيا، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النَّحل:٣٢]، في حال الموتِ يُتَوَفَّوْنَ طيِّبين، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم، وتقولُ لهم الملائكةُ: «**سلامٌ عليكم ادخلوا الجنَّةَ الآن**»؛ ولهذا إذا وُضِعَ الإنسانُ في قبرِه وسُئِلَ، انْفَتَحَتْ له أبوابٌ إلى الجنَّةِ، فهذه الدُّنيا سجنُ المؤمنِ لا شكَّ.

قَوْلُهُ: «**لَكِنْ جَنَّةُ المَأْوَى لِذِي الكُفْرَانِ**»؛ يعني: الدُّنيا جَنَّةٌ للكافرِ؛ لأنَّها بالنِّسبةِ لما يلقاه من العذابِ جَنَّةٌ، ولأنَّ الكافرَ لا يتقيَّدُ بشيءٍ، كُلُّ شيءٍ حلالٌ؛

يزني، ويسرقُ، ويشربُ الخمرَ، ويلبسُ الحريرَ، يفعلُ كُلَّ شيءٍ، فهو مُنَعِّمٌ نفسَه، فهي له جنَّةٌ، وليس له جنَّةٌ في الآخرةِ، ولكن للمؤمنِ سجنٌ.

يُقَالُ: إنَّ قاضيَ القضاةِ -كما يصفونه- ابنَ حجرٍ العسقلانيَّ -رحمه اللهُ- في مصرَ، وكان إذا أتى من بيتِه إلى العملِ أو ذَهَبَ يمينًا وشمالًا يركبُ العربةَ، والعربةُ في ذلك الوقتِ بمنزلةِ السَّيَّارةِ عندنا.

العربة تجرُّها البغالُ أو الخيلُ ويحيطُ النَّاسُ به، فَمَرَّ ذاتَ يومٍ بيهوديٍّ يبيعُ الزَّيتَ، وكُلُّ ثيابِه مُدَنَّسةٌ بالزَّيتِ، فأوقفه اليهوديُّ وقال: إنَّ نبيَّكم يقولُ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ**»[1]، وأنت الآن فيما أنت فيه من النَّعيمِ في الدُّنيا، وترى ما أنا فيه من البؤسِ؛ لأنَّه زيَّاتٌ، قال: نعم، صَدَقَ رسولُ الله، ما أَنْعَمُ به من الدُّنيا هو بالنِّسبةِ لنعيمِ الآخرةِ سجنٌ، وما أنت فيه من البؤسِ في الدُّنيا هو بالنِّسبة لعذابِ الآخرةِ نعيمٌ، قال: صحيحٌ؟ قال: نعم، قال: أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وهذا هو الحقُّ، الدُّنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكافرِ.

٤٩٤١- سُكَّانُهَا أَهْلُ الجَهَالَةِ وَالبَطَا ... لَةِ وَالسَّفَاهَةِ أَنْجَسُ السُّكَّانِ

قَوْلُهُ: «**سُكَّانُهَا**»؛ أي: سُكَّانُ الدُّنيا «**أَهْلُ الجَهَالَةِ وَالبَطَالَةِ والسَّفَاهَةِ أَنْجَسُ السُّكَّانِ**»، نسألُ اللهَ العافيةَ.

وابن القيِّم -رحمه اللهُ- يأخذُ بالعمومِ دائمًا، سُكَّانُ الدُّنيا هم أهلُ الجهالةِ ليس عندهم علمٌ، أهلُ البطالةِ ليس عندهم عملٌ، أهلُ السَّفاهةِ ليس عندهم حكمةٌ، «**أَنْجَسُ السُّكَّانِ**» ليس فيهم طهارةٌ، لكن لعلَّه -رحمه اللهُ- يريدُ سُكَّانَها الذين آثروها على الآخرةِ، يجبُ أن يكونَ هذا مرادَه؛ لأنَّه لا يريدُ سُكَّانَ الدُّنيا،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦).

فسُكَّانُ الدُّنيا فيها الأنبياءُ، فيها الصِّدِّيقون، فيها الشُّهداءُ، فيها الصَّالحون، لكن يريدُ سُكَّانَها الذين آثروها على الآخرةِ بلا شكٍّ.

٤٩٤٢- وَأَلَـذُّهُمْ عَيْشًـا فَـأَجْهَلُهُمْ بِحَقْـ ـقِ الله ثُـمَّ حَقَـائِقِ القُـرْآنِ

الجاهلُ بالله وبحقائقِ الإيمانِ هذا ألذُّهم عيشًا؛ لأَنَّه ميِّتُ القلبِ، لا يبحثُ في أسماءِ الله، ولا في صفاتِ الله، ولا في أحكامِ الله، ولا في الإيمانِ، ولا في الأعمالِ، فهو بهيمةٌ، بل هو أضلُّ من البهيمةِ.

***

٤٩٤٣- عُمِرَتْ بِهِمْ هَذِي الدِّيَارُ وَأَقْفَرَتْ مِـنْهُمْ رُبُـوعُ العِلْـمِ وَالإِيـمَانِ

٤٩٤٤- قَدْ آثَرُوا الـدُّنْيَا وَلَـذَّةَ عَيْشِـهَا الْـ ـفَانِي عَـلَى الجَنَّـاتِ وَالرِّضْـوَانِ

٤٩٤٥- صَحِبُوا الأَمَانِيَ وَابْتُلُوا بِحُظُـوظِهِمْ وَرَضُـوا بِكُـلِّ مَذَلَّـةٍ وَهَـوَانِ

٤٩٤٦- كَـدْحًا وَكَـدًّا لا يُفَـتَّرُ عَـنْهُمُ مَـا فِيـهِ مِـنْ غَـمٍّ وَمِـنْ أَحْـزَانِ

٤٩٤٧- وَالله لَوْ شَاهَدْتَ هَاتِيكَ الصُّـدُو رَ رَأَيْتَهَـا كَمَرَاجِـلِ النِّـيرَانِ

٤٩٤٨- وَوَقُودُهَا الشَّهَوَاتُ وَالحَسَرَاتُ وَالْـ آلامُ لا تَخْبُـو مَـدَى الأَزْمَـانِ

٤٩٤٩- أَبْـدَانُهُمْ أَجْـدَاثُ هَاتِيـكَ النُّفُـو سِ اللَّاءِ قَـدْ قُـبِرَتْ مَـعَ الأَبْـدَانِ

٤٩٥٠- أَرْوَاحُهُمْ في وَحْشَـةٍ وَجُسُـومُهُمْ في كَـدْحِهَا لا في رِضَـا الـرَّحْمَنِ

٤٩٥١- هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّـذِي خُلِقُـوا لَـهُ فَبُلُـوا بِـرِقِّ الـنَّفْسِ وَالشَّـيْطَانِ

٤٩٥٢- لا تَرْضَ مَا اخْتَارُوهُ هُمْ لِنُفُوسِهِمْ فَقَـدِ ارْتَضَـوْا بِالـذُّلِّ وَالـحِرْمَانِ

٤٩٥٣- لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ... لَمْ يَسْقِ مِنْهَا الرَّبُّ ذَا الكُفْرَانِ

٤٩٥٤- لَكِنَّهَا وَاللهِ أَحْقَرُ عِنْدَهُ ... مِنْ ذَا الجَنَاحِ القَاصِرِ الطَّيَرَانِ

٤٩٥٥- وَلَقَدْ تَوَلَّتْ بَعْدُ عَنْ أَصْحَابِهَا ... فَالسَّعْدُ مِنْهَا حَلَّ فِي الدَّبَرَانِ

٤٩٥٦- لا يُرْتَجَى مِنْهَا الوَفَاءُ لِصَبِّهَا ... أَيْنَ الوَفَا مِنْ غَادِرٍ خَوَّانِ

٤٩٥٧- طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ فَكَيْفَ تَنَالُهَا ... صَفْوًا أَهَذَا قَطُّ فِي الإِمْكَانِ

٤٩٥٨- يَا عَاشِقَ الدُّنْيَا تَأَهَّبْ لِلَّذِي ... قَدْ نَالَهُ العُشَّاقُ كُلَّ زَمَانِ

٤٩٥٩- أَوَمَا سَمِعْتَ بَلَى رَأَيْتَ مَصَارِعَ الْـ ... ـعُشَّاقِ مِنْ شِيبٍ وَمِنْ شُبَّانِ

الشرحُ

٤٩٤٣- عُمِرَتْ بِهِمْ هَذِي الدِّيَارُ وَأَقْفَرَتْ ... مِنْهُمْ رُبُوعُ العِلْمِ وَالإِيمَانِ

قَوْلُهُ: «عُمِرَتْ بِهِمْ»؛ أي: بسكَّانِ الدُّنيا الذين آثروها على الآخرةِ.

٤٩٤٤- قَدْ آثَرُوا الدُّنْيَا وَلَذَّةَ عَيْشِهَا الْـ ... ـفَانِي عَلَى الجَنَّاتِ وَالرِّضْوَانِ

ولذلك لا يهمُّهم العملُ الصَّالحُ ولا الإيمانُ، وإنَّما يهمُّهم لذَّاتُهم في هذه الدُّنيا.

واعلم أنَّ الحياةَ الطَّيِّبَةَ لا تقتضي كثرةَ المالِ ولا كثرةَ الأولادِ ولا القصورَ المشيَّدَةَ، بل الطَّيِّبةُ ما طَابَ عيشُ صاحبها ولو كان أفقرَ النَّاسِ؛ ولهذا لم يقل اللهُ عزَّ وجلَّ: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنَرْزُقَنَّهُ) بكثرةِ أولادِه، وكثرةِ مالِه، وبتحسينِ مسكنِه، بل قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحل:٩٧]؛

ولهذا أحيانًا تجدُ المؤمنَ التَّقيَّ ولو كان من أفقرِ عبادِ الله تجدُه من أطيبِ النَّاسِ قلبًا.

٤٩٤٥- صَحِبُوا الأَمَانِيَ وَابْتُلُوا بِحُظُوظِهِمْ وَرَضُوا بِكُلِّ مَذَلَّةٍ وَهَوَانِ

يعني: أنَّهم عاشوا على الأماني، وليس عندهم إلَّا هذا، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**العَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله الأَمَانِيَ**»(1)،ومن ذلك أنَّ منهم مَنْ إذا نَصَحْتَهُ وقلت له: «**اتَّقِ اللهَ، أَدِّ مَا عليك**»، قال: اللهُ غفورٌ رحيمٌ، أو تلا عليك هذه الآيَةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وكأنَّه لم يفهم قولَه: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ لأنَّنا نقولُ له: ما الذي أَعْلَمَكَ أنت أنَّك ممَّن شَاءَ اللهُ أن يغفرَ له؟ إنَّ اللهَ لم يقل: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فقَط، لو قال ذلك لكنَّا نقول: نعم، افعلْ ما شِئْتَ إلَّا الشِّركَ، لكنَّه قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ حسَب ما تقتضيه حكمتُه، ولست أنت على جَزْمٍ بأنَّك ممَّنْ يُغْفَرُ له، فأنت مُتَمَنٍّ على الله الأماني.

٤٩٤٦- كَدْحًا وَكَدًّا لا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ مَا فِيهِ مِنْ غَمٍّ وَمِنْ أَحْزَانِ

يعني: أنَّهم يكدحون ويعملون ويكدُّون ويُتعبون أنفسَهم، ومع ذلك قلوبُهم مملوءةٌ من الغمِّ والحَزَنِ.

٤٩٤٧- وَالله لَوْ شَاهَدْتَ هَاتِيكَ الصُّدُو رَ رَأَيْتَهَا كَمَرَاجِلِ النِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «**كَمَرَاجِلِ النِّيرَانِ**» المِرْجَل: القِدْر على النَّارِ، مُوقَدٌ تسمعُ له أزيزًا وصوتًا.

---

(1) أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة آنية الحوض، رقم (٢٤٥٩).

فقلوبُهم -والعياذُ بالله- مثل مراجلِ النِّيرانِ لما فيها من الحرِّ والغمِّ والهمِّ؛ ولذلك نحن نقولُ: هؤلاء الكفرةُ من الغربيِّين وغيرِ الغربيِّين لا تظنُّوا أنَّهم في نعيمٍ، واللهِ إنَّهم في جحيمٍ، قلوبُهم الآن ملأى من الجحيمِ، مهما زَانَتْ لهم الدُّنيا فهم في جحيمٍ، لكنَّهم يغرُّوننا بما يدَّعون أنَّهم فيه من النَّعيمِ، ونظنُّ أنَّ هذا حقيقةٌ.

لكن لو نَظَرْتَ إلى قلوبِهم لَوَجَدْتَ نِيرانًا تتلظَّى من الهمِّ والغمِّ والتَّحسُّرِ، تجدُ الواحدَ منهم يُفَكِّرُ: هل سيبقى مالُه له؟ هل سيبقى هذا التَّمتُّعُ له أو سيزولُ؟ لأنَّه يَرَى النَّاسَ تحصدُهم المنايا عن يمينِه وشِمالِه، فتجده كُلَّما ازداد نعيمًا ازدادت حسرتُه؛ خوفًا من أن يزولَ هذا النَّعيمُ.

٤٩٤٨- وَوَقُودُهَا الشَّهَوَاتُ وَالحَسَرَاتُ وَالْـ ... آلامُ لا تَخْبُو مَدَى الأَزْمَانِ

يعني: الذي تُوقَدُ به هذه الأنواعُ شهواتٌ وحَسَرَاتٌ على ما فاتهم من الدُّنيا، كُلُّ واحدٍ يريدُ أن يكونَ مثلَ الثَّاني، إذا فاته ما للثَّاني ازداد همًّا وغمًّا وحسرةً، والآلامُ القلبيَّةُ والبدنيَّةُ لا تخبو مدى الأزمانِ.

٤٩٤٩- أَبْدَانُهُمْ أَجْدَاثُ هَاتِيكَ النُّفُو ... سِ اللَّاءِ قَدْ قُبِرَتْ مَعَ الأَبْدَانِ

قَوْلُهُ: «أَبْدَانُهُمْ أَجْدَاثُ»؛ أي: قبورٌ.

أبدانُهم هي قبورُ هذه الأرواحِ الخبيثةِ التي ليس عندها إلَّا الهمومُ والأحزانُ.

٤٩٥٠- أَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ وَجُسُومُهُمْ ... فِي كَدْحِهَا لا فِي رِضَا الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «فِي كَدْحِهَا»، وفي نسخةٍ: **«فِي كَدِّهَا»**، والوزنُ لا يختلفُ، وكذلك المعنى.

أرواحُهم في وحشةٍ؛ لأنَّها لم تأنسْ بالله عزَّ وجلَّ، ولم تأنس بما ترجوه من رحمتِه، فهي في وحشةٍ من الله وفي وحشةٍ من عبادِ الله؛ ولهذا قِسْ نفسَك الآن إذا فَعَلْتَ معصيةً تجدُ أنَّك تستوحشُ من النَّاسِ وكأنَّ النَّاسَ يقرؤونها على صفحاتِ وجهِكَ، فتجدُ أنَّك خجلانُ حتَّى لو لم يعلم عنك النَّاسُ شيئًا، حتَّى لو كنتَ في بيتٍ مظلمٍ لا يعلمُ بك أحدٌ، إذا فَعَلْتَ المعصيةَ فإنَّك تخجلُ من النَّاسِ، وكأنَّك إذا شاهدتَهم كأنَّما تقولُ: إنَّهم يقرؤونها في جبينِك.

٤٩٥١- هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّـذِي خُلِقُـوا لَـهُ فَبُلُـوا بِـرِقِّ الـنَّفْسِ وَالشَّـيْطَانِ

قَوْلُهُ: «هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ» ما هو الرِّقُّ الذي خُلِقْنَا له؟ الجوابُ: الرِّقُّ لله عزَّ وجلَّ بأن نكونَ عبيدًا له، ونسألُ اللهَ أن يجعلَنا عبيدًا له.

قَوْلُهُ: «فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ» صاروا عبيدًا لنفوسِهم وللشَّيطانِ، أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ؟! هربوا من الرِّقِّ الذي يُعْتَبَرُ حريَّةً لـهم وهو عبوديَّةُ الله إلى رِقِّ الشَّيطانِ الذي هو الذُّلُّ والـخَسارةُ في الدُّنيا والآخرةُ.

«وهذا البيتُ لو كُتِبَ بماءِ الذَّهبِ لكان رخيصًا».

٤٩٥٢- لا تَرْضَ مَا اخْتَارُوهُ هُمْ لِنُفُوسِهِمْ فَقَـدِ ارْتَضَـوْا بِالـذُّلِّ وَالـحِرْمَانِ

نعم، العاقلُ لا يَرْضَى بما رَضِيَه هؤلاء لنفوسِهم، وإنَّما يَرْضَى بما رَضِيَه الرُّسلُ وأتباعُهم، جعلنا اللهُ وإيَّاكم منهم.

٤٩٥٣- لَوْ سَاوَتِ الـدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَـةٍ لَـمْ يَسْقِ مِنْهَـا الـرَّبُّ ذَا الكُفْـرَانِ

وذلك كما جاء في الحديثِ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا

سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»[١]؛ إذ إنَّ الكافرَ ليس أهلًا مع أنَّ اللهَ يُنَعِّمُ الكافرَ في الدُّنيا؛ لأنَّها ليست شيئًا عند الله.

٤٩٥٤- لَكِنَّهَا وَاللهِ أَحْقَرُ عِنْدَهُ ... مِنْ ذَا الجَنَاحِ القَاصِرِ الطَّيَرَانِ

الدُّنيا أحقرُ عند الله من جَنَاحِ البعوضةِ؛ ولهذا إذا صَلَّى الإنسانُ ركعتي الفجرِ صار ذلك خيرًا من الدُّنيا وما فيها[٢]، كُلُّ الدُّنيا منذ خُلِقَتْ إلى أن تَفْنَى، هاتان الرَّكعتان خيرٌ منها، كم تستوعبُ الرَّكعتان من الزَّمنِ؟ خمس دقائق بالوضوءِ، خمسُ دقائقَ تساوي الدُّنيا كُلَّها من أوَّلِها إلى آخرِها، إِذَنْ الدُّنيا لا تساوي عند الله عزَّ وجلَّ شيئًا.

٤٩٥٥- وَلَقَدْ تَوَلَّتْ بَعْدُ عَنْ أَصْحَابِهَا ... فَالسَّعْدُ مِنْهَا حَلَّ فِي الدَّبَرَانِ

تولَّت عن أصحابِها حقيقةً أو حكمًا؛ **حقيقةً**: إذا كان صاحبُها فقيرًا، وعندنا مَثَلٌ يُضْرَبُ للإنسانِ الذي ليس له حظٌّ؛ قالوا: «**هذا مثلُ فقيرِ النَّصارى لا دنيا ولا دين**»، فهي تولَّت عن أصحابِها حقيقةً إذا كانوا لم يُنَعَّموا فيها، **أو حُكْمًا**: إذا كانوا قد نُعِّمُوا فيها؛ لأنَّهم سيُفارقون هذا النَّعيمَ عن قُرْبٍ.

٤٩٥٦- لا يُرْتَجَى مِنْهَا الوَفَاءُ لِصَبِّهَا ... أَيْنَ الوَفَا مِنْ غَادِرٍ خَوَّانِ

قَوْلُهُ: «لَا يُرْتَجَى مِنْهَا الوَفَاءُ لِصَبِّهَا» «صَبِّهَا»؛ أي: مُحِبِّهَا.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عزَّ وجلَّ، رقم (٢٣٢٠)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم (٤١١٠).

(٢) دليله قوله ﷺ: «**رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**». أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، والمحافظة عليهما، رقم (٧٢٥).

قَوْلُهُ: «أَيْنَ الوَفَا مِنْ غَادِرٍ خَوَّانِ؟!» الجوابُ: لا يُوجَدُ، الغادرُ الخَوَّانُ لا يمكنُ أن يفيَ لك.

فالدُّنيا لا يُرْتَجى منها الوفاءُ لمن يحبُّونها ويقدِّمونها على الآخِرةِ، بل بالعكسِ، أين الوفاءُ من غادرٍ خوَّانٍ؟!

٤٩٥٧- طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ فَكَيْفَ تَنَالُهَا ... صَفْوًا أَهَذَا قَطُّ فِي الإِمْكَانِ

قَوْلُهُ: «فَكَيْفَ تَنَالُهَا صَفْوًا أَهَذَا قَطُّ فِي الإِمْكَانِ؟!» الجوابُ: لا، مَا دَامَتْ طبيعتُها الكَدَرَ فكيف تصفو؟! وكان شيخُ الإسلامِ -رحمه اللهُ- يتمثَّلُ كثيرًا بهذين البيتَيْنِ:

طُبِعَتْ عَلَى كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا ... صَفْوًا مِنَ الأَقْذَارِ وَالأَكْدَارِ

وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا ... مُتَطَلِّبٌ فِي المَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

وهذان بيتان عظيمان يُسَلِّي بهما الإنسانُ نفسَه، الذي يتطلَّبُ في الماءِ جذوةَ نَارٍ لا يمكنُ أن يجدَ شيئًا، حتَّى جذوة النَّارِ في الماءِ تنطفئ لا تبقى أبدًا.

يقولُ صاحبُ «الفروعِ»[1] رحمه اللهُ: **«وكان شيخُنا يَتَمَثَّلُ بهذين البَيْتَيْنِ كثيرًا»**، شيخُه مَنْ؟ ابنُ تيميَّةَ رحمه اللهُ، ولقد نَالَ من الكَدَرِ ما لم ينله أحدٌ من النَّاسِ إلَّا قليلًا، لكن هذا الكَدَرُ الذي ناله صار صفوًا، فقد صَارَ إمامًا للنَّاسِ إلى اليومِ، فإلى اليومِ النَّاسُ يقتدون به، ويأخذون بأقوالِه، رحمه الله، وأَلْحَقَنَا وإيَّاكم به وبالصَّالحين.

---

(١) انظر: الفروع لابن مفلح الحنبلي (٣/ ٤٠٠).

٤٩٥٨- يَـا عَاشِـقَ الـدُّنْيَا تَأَهَّـبْ لِلَّـذِي ... قَـدْ نَالَـهُ العُشَّـاقُ كُـلَّ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «تَأَهَّبْ لِلَّذِي قَدْ نَالَهُ العُشَّاقُ كُلَّ زَمَانِ» ما هو؟ الجوابُ: الموتُ.

يقولُ: تأهَّبْ لهذا، لو بَقِيتَ ما بَقِيتَ في الدُّنيا فالرَّحيلُ.

٤٩٥٩- أَوَمَا سَمِعْتَ بَلَى رَأَيْتَ مَصَـارِعَ الْـ ... ـعُشَّاقِ مِـنْ شِـيبٍ وَمِـنْ شُـبَّانِ

قَوْلُهُ: «أَوَمَا سَمِعْتَ بَلَى رَأَيْتَ مَصَارِعَ العُشَّاقِ؟» الجوابُ: بَلَى، رَأَيْنَا الدُّنيا يموتُ فيها الكبيرُ ويموتُ فيها الشَّبابُ، ويموتُ فيها الكهولُ، ويموتُ فيها الأغنياءُ، ويموتُ فيها الفقراءُ، وليست شيئًا مقرَّرًا أنَّ النَّاسَ يصلون إلى حدٍّ معيَّنٍ من العمرِ، بل تجدُ الرَّجلَ يدفنُ أولادَه وأولادَ أولادِه ويبقى حيًّا، أو بالعكسِ، وهذا شيءٌ مُشَاهَدٌ؛ ولهذا لـمَّا قال: «أَوَ مَا سَمِعْتَ» قال: «بَلْ رَأَيْتَ»، والرُّؤيةُ أبلغُ من السَّماعِ، وصَدَقَ، نحن نرى ونسمعُ مصارعَ النَّاسِ من شيبٍ ومن شُبَّانٍ، وأنَّهم لن يبقوا في هذه الدُّنيا، فاعتبر بما حَصَلَ، أَحْسَنَ اللهُ لنا ولكم الخاتمةَ.

* * *

فصــل

في صِفَةِ الجَنَّةِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ - ذُو الفَضْلِ وَالمِنَّةِ - لأَوْلِيَائِهِ المُتَمَسِّكِينَ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

٤٩٦٠- فَاسْمَعْ إِذًا أَوْصَافَهَا وَصِفَاتِ هَا ... تِيـكَ الـمَنَازِلِ رَبَّـةِ الإِحْسَـانِ

٤٩٦١- هِيَ جَنَّـةٌ طَابَـتْ وَطَـابَ نَعِيمُهَـا ... فَنَعِيمُهَــا بَــاقٍ وَلَـيْسَ بِفَــانِ

٤٩٦٢- دَارُ السَّلامِ وَجَنَّـةُ الـمَأْوَى وَمَنْـ ... ـزِلُ عَسْـكَرِ الإِيـمَانِ وَالقُـرْآنِ

٤٩٦٣- فَالـدَّارُ دَارُ سَــلامَةٍ وَخِطَـابُهُمْ ... فِيهَـا سَـلامٌ وَاسْـمُ ذِي الغُفْـرَانِ

الشـرحُ

وهذه الأبياتُ واضحةُ المعنى.

* * *

فصــل

في عَدَدِ درجَاتِ الجنَّةِ وَما بيْنَ كُلِّ دَرَجَتيْنِ

٤٩٦٤- دَرَجَاتُهَــا مِئَــةٌ وَمَــا بَــيْنَ اثْنَتَيْـــ ـــنِ فَـذَاكَ في التَّحْقِيـقِ لِلْحُسْـبَانِ

٤٩٦٥- مِثْلَ الَّذِي بَـيْنَ السَّـمَاءِ وَبَـيْنَ هَــ ـذِي الأَرْضِ قَوْلُ الصَّادِقِ البُرْهَـانِ

٤٩٦٦- لَكِنَّ عَالِيَهَا هُـوَ الفِـرْدَوْسُ مَسْـ ـقُوفٌ بِعَـرْشِ الـخَالِقِ الـرَّحْمَنِ

٤٩٦٧- وَسَطَ الـجِنَانِ وَعُلْوَهَا فَلِذَاكَ كَـا نَـتْ قُبَّـةً مِـنْ أَحْسَـنِ البُنْيَـانِ

٤٩٦٨- مِنْـهُ تَفَجَّـرُ سَـائِرُ الأَنْهَـارِ فَالْـ ـمَنْبُوعُ مِنْـهُ نَـازِلٌ بِجِنَـانِ

الشـرحُ

٤٩٦٤- دَرَجَاتُهَــا مِئَــةٌ وَمَــا بَــيْنَ اثْنَتَيْـــ ـــنِ فَـذَاكَ في التَّحْقِيـقِ لِلْحُسْـبَانِ

٤٩٦٥- مِثْلَ الَّذِي بَـيْنَ السَّـمَاءِ وَبَـيْنَ هَــ ـذِي الأَرْضِ قَوْلُ الصَّادِقِ البُرْهَـانِ

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ درجاتِ الجنَّةِ مئةٌ، وما بين اثنتين فذاك في التَّحقيقِ لِلْحُسْبَانِ مثل الَّذي بين السَّماءِ وبين وهذه الأرضِ، والَّذي بين السَّماءِ والأرضِ خمسُمئةِ عامٍ، فإذا كانت مئةً، وبين كُلِّ واحدةٍ والأخرى خمسُمئةٍ، يكونُ الجميعُ خمسين ألفًا.

٤٩٦٦- لَكِنَّ عَالِيَهَا هُوَ الفِرْدَوْسُ مَسْـ ـقُوفٌ بِعَرْشِ الخَالِقِ الرَّحْمَنِ

يعني: أنَّ السَّقفَ هو عرشُ الله عزَّ وجلَّ، فعرشُه -سبحانه وتعالى- على سماواتِهِ مثلُ القُبَّةِ؛ أي: مثل الخَيْمَةِ.

٤٩٦٧- وَسَطَ الجِنَانِ وَعُلْوَهَا فَلِذَاكَ كَا نَتْ قُبَّةً مِنْ أَحْسَنِ البُنْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَسَطَ الجِنَانِ»؛ يعني: هو وَسَطُ الجِنَانِ.

قَوْلُهُ: «فَلِذَاكَ كَانَتْ قُبَّةً مِنْ أَحْسَنِ البُنْيَانِ»؛ يعني: كانت الفردوسُ -جعلنا اللهُ وإيَّاكم من أهلِها- مِثْلَ القُبَّةِ التي فوقها عرشُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

٤٩٦٨- مِنْهُ تَفَجَّرُ سَائِرُ الأَنْهَارِ فَالْـ ـمَنْبُوعُ مِنْهُ نَازِلٌ بِجِنَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْهُ»، وفي نسخةٍ: «مِنْهَا».

* * *

فصل

في أَبْوَابِ الجَنَّةِ

٤٩٦٩- أَبْوَابُهَا حَقٌّ ثَمَانِيَةٌ أَتَتْ ... في النَّصِّ وَهْيَ لِصَاحِبِ الإِحْسَانِ

٤٩٧٠- بَابُ الجِهَادِ وَذَاكَ أَعْلاهَا وَبَا ... بُ الصَّوْمِ يُدْعَى البَابُ بِالرَّيَّانِ

٤٩٧١- وَلِكُلِّ سَعْيٍ صَالِحٍ بَابٌ وَرَبْ ... بُ السَّعْيِ مِنْهُ دَاخِلٌ بِأَمَانِ

٤٩٧٢- وَلَسَوْفَ يُدْعَى المَرْءُ مِنْ أَبْوَابِهَا ... جَمْعًا إِذَا وَفَّى حُلَى الإِيمَانِ

٤٩٧٣- مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ ذَا ... كَ خَلِيفَةُ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

الشرحُ

هذا الذي ذكره المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- صريحٌ، وفيه أحاديثُ رواها البخاريُّ وغيرُه.

قَوْلُهُ: «أَبْوَابُهَا حَقٌّ ثَمَانِيَةٌ أَتَتْ في النَّصِّ»؛ والدَّليلُ على أنَّ أبوابَ الجنَّةِ ثمانيةٌ: ما جاء في النَّصِّ من الكتابِ والسُّنَّةِ: أمَّا في السُّنَّةِ فواضحٌ؛ كقولِ النَّبيِّ ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسْبِغُ الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»**[1]، هذا في الحديثِ، أمَّا في القرآنِ فقال بعضُ النَّحويِّين إنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقال بعد الوضوء، رقم (٥٥).

جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣] للثَّمانيةِ، فهي كقولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢]، لكنَّ هذا قولٌ ضعيفٌ جدًّا؛ فالواوُ لا تأتي للثَّمانيةِ ولا للسَّبعةِ، بل معانيها معروفةٌ، فالصَّوابُ أنَّها عُلِمَتْ بالنَّصِّ النَّبويِّ.

قَوْلُهُ: «**مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ**»؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لـمَّا ذكر أبوابَ الجنَّةِ وأنَّ لكلِّ بابٍ داخلَه، قال أَبُو بَكْرٍ للنَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ»؛ يعني: أن يُدْعَى الإنسانُ من بابٍ واحدٍ فهذا ليس فيه إشكالٌ، لكن «فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**»(١)، اللَّهُمَّ ارْضَ عنه.

فكان أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يزدادُ على غيرِه ممَّن بُشِّرَ بالجنَّةِ أنَّه يُشْهَدُ له بأنَّه يُدْعَى من أبوابِ الجنَّةِ كُلِّها «**أَقْبِلْ أَقْبِلْ**»، ولكن يُقَالُ: أليس المسلمُ يُصَلِّي ويصومُ ويحجُّ ويُجاهِدُ ويتصدَّقُ فكيف يُقَالُ: «**مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِهَادِ، مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ ...**» إلخ؟.

الجوابُ أن يُقَالَ: مَنْ كَانَ أكثرُ عملِه وأحسنُ عملِه الصِّيامَ مثلًا دُعِيَ من بابِ الصِّيامِ، وإن كان له عملٌ صالحٌ آخرُ له بابٌ، ومن كَانَ أكثرُ عملِه وأحسنُه الصَّدقةَ دُعِيَ من بابِ الصَّدقةِ وإن كان له صيامٌ وله صلاةٌ، ومن كان أكثرُ النَّاسِ صلاةً وأحسنُهم صلاةً دُعِيَ من بابِ الصَّلاةِ، وهكذا.

***

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم (١٧٩٨)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب من جمع صدقة وأعمال البر، رقم (١٠٢٧).

فصل

في مقدارِ ما بينَ البابِ والبابِ منها

٤٩٧٤- سَبْعُونَ عَامًا بَيْنَ كُلِّ اثْنَيْنِ مِنْـ ـهَا قُدِّرَتْ بِالعَدِّ وَالحُسْبَانِ

٤٩٧٥- هَذَا حَدِيثُ لَقِيطٍ المَعْرُوفِ بِالْـ ـخَبَرِ الطَّوِيلِ وَذَا عَظِيمُ الشَّانِ

٤٩٧٦- وَعَلَيْهِ كُلُّ جَلالَةٍ وَمَهَابَةٍ وَلَكَمْ حَوَاهُ بَعْدُ مِنْ عِرْفَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «هَذَا حَدِيثُ لَقِيطٍ المَعْرُوفُ بِالخَبَرِ الطَّوِيلِ»، هذا حديثٌ طويلٌ جدًّا، وفيه فوائدُ كثيرةٌ، وقد سَاقَهُ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- في كتابه: «زاد المعاد»[1]، وتكلَّم على فوائدِه.

***

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٨٨).

فصـل

في مِقْدَارِ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَي البَابِ الوَاحِدِ مِنْهَا

٤٩٧٧- لَكِــنَّ بَيْــنَهُمَا مَسِــيرَةَ أَرْبَعِيــ ـــنَ رَوَاهُ حَــبْرُ الأُمَّــةِ الشَّــيْبَانِي

٤٩٧٨- فِي «مُسْنَدٍ» بِالرَّفْعِ وَهْـوَ لِـمُسْلِمٍ وَقْــفٌ كَمَرْفُــوعٍ بِوَجْــهٍ ثَــانِي

٤٩٧٩- وَلَقَـدْ رَوَى تَقْـدِيرَهُ بِثَلاثَـةِ الْـ أَيَّـامِ لَكِــنَّ عِنْـدَ ذِي العِرْفَـانِ

٤٩٨٠- أَعْنِي البُخَارِيَّ الرِّضَـا هُـوَ مُنْكَـرٌ وَحَــدِيثُ رَاوِيــهِ فَــذُو نُكْــرَانِ

الشـرحُ

في تقديرِ ما بين البابَيْنِ حديثُ لقيطٍ أنَّ بينهما سبعين عامًا[١]، وفي تقدير ما بين مِصراعي البابِ الواحِدِ منها أثران:

الأوَّل: بينهما مسيرةُ أربعين[٢]، **والثَّاني**: بينهما مسيرةُ ثلاثةِ أَيَّامٍ[٣]، وهذا الأخيرُ مُنْكَرٌ، قال البخاريُّ رحمه اللهُ: إنَّه حديثٌ مُنْكَرٌ، وصاحبُه له مناكيرُ، فهذا الحديثُ مُنْكَرٌ سندًا ومُنْكَرٌ مَتْنًا: أمَّا نكارتُه المتنيَّةُ فلأنَّه خالَفَ الأحاديثَ التي

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السُّنَّة (١/ ٢٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (أحمد ٤/ ١٧٤، رقم ١٧٧١٧)، ومسلم: في أول كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٧).

(٣) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أبواب الجنة، رقم (٢٥٤٨)، وقال: حديث غريب.

رواها أهلُ الثِّقةِ، وراويه مُنْكَرٌ لا يمكنُ أن يُنْسَبَ إلى هؤلاء الجبالِ، ومن جهةِ السَّندِ ففيه راوٍ مُنْكَرٌ، فإذًا يسقطُ هذا لأنَّه لا يُقَاوِمُ ما رواه الإمامُ أحمدُ مرفوعًا، فالعمدةُ على ما رواه الإمامُ أحمدُ مرفوعًا وأخرجه مسلمٌ موقوفًا، لكنَّ ابنَ القيِّمِ يقولُ: «**وَقْفٌ كَمَرفُوعٍ بِوَجْهٍ ثَانِي**»، ما هو الوجهُ الثَّاني؟ الجوابُ: أنَّه مرفوعٌ حُكْمًا؛ لأنَّ مثلَ هذا لا يُقَالُ بالرَّأي، فهو لا مجالَ للاجتهادِ فيه؛ لأنَّه خبرٌ محضٌ، فإذا حَدَّثَ به الصَّحابيُّ فهو في حكمِ المرفوعِ.

***

فصــل

في مِفْتَاحِ بَابِ الجَنَّةِ

٤٩٨١- هَذَا وَفَـتْحُ البَـابِ لَـيْسَ بِمُمْكِـنٍ ... إِلَّا بِمِفْتَـــاحٍ عَـــلَى أَسْـــنَانِ

٤٩٨٢- مِفْتَاحُهُ بِشَهَادَةِ الإِخْـلاصِ وَالتَـوْ ... ـــتَوْحِيدِ تِلْـكَ شَـهَادَةُ الإِيـمَانِ

٤٩٨٣- أَسْنَانُهُ الأَعْمَالُ وَهْـيَ شَرَائِعُ الْـ ... إِسْـــلامِ وَالـــمِفْتَاحُ بِالأَسْـــنَانِ

٤٩٨٤- لا تُلْغِـيَنْ هَـذَا الـمِثَالَ فَكَـمْ بِـهِ ... مِـنْ حَـلِّ إِشْـكَالٍ لِـذِي العِرْفَـانِ

الشـرحُ

لـمَّا ذَكَرَ -رحمه اللهُ- أبوابَ الجنَّةِ ذَكَرَ مِفْتَاحَ هذه الأبوابِ؛ فَمِفْتَاحُ الجنَّةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقال المرجئةُ: مِفْتَاحُ الجنَّةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ولا دخلَ للأعمالِ في ذلكِ، وقال السَّلفُ: إنَّ المِفْتَاحَ لا يفتحُ إلَّا بأسنانٍ، وأسنانُه شرائعُ الإيمانِ، فَمَنْ جاء بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصِّيامِ وشرائعِ الإسلامِ فُتِحَ له، ومَنْ لا فلا؛ إِذَنْ لا بُدَّ من الأعمالِ.

ولكن نقولُ: أسنانُ هذه المفاتيحِ هي الشَّرشرةُ؛ يعني: المؤشَّر فيها، وفيما سبق كانت الأسنانُ من خشبٍ، تُخَرَّقُ ويُوضَعُ فيها عُويِّداتٌ على قدرِ ثقوبٍ في اليدِ التي تُدخلُ في الجدارِ، وتُسَمَّى عند النَّاسِ المجرَّة؛ إذا أدخلت المفتاحَ وهو ليس له أسنانٌ فلا يفتحُ أبدًا، لكن إذا أَدْخَلْتَهُ وفيه الأسنانُ فَتَحْتَ، فإذا كان فيه

الأسنانُ كُلُّها إِلَّا واحدًا، لا يفتحُ أيضًا، ولو كانت الأسنانُ قصيرةً لا يفتحُ، فالمهمُّ أنَّ مِفْتاحَ الجنَّةِ: لا إلهَ إِلَّا اللهُ، ولابُدَّ لِلمِفْتَاحِ من أسنانٍ؛ ولهذا يقولُ: «**لَا تُلْغِيَنْ هَذَا المِثَالَ فَكَمْ بِهِ مِنْ حَلِّ إِشْكَالٍ لِذِي العِرْفَانِ**».

وهل الأعمالُ شرطٌ لصحَّةِ الإيمانِ ودخولِ الجنَّةِ؟ نقولُ: نعم، بعضُها شرطٌ كالصَّلاةِ مثلًا؛ فالصَّلاةُ شرطٌ لصحَّةِ الإيمانِ ودخولِ الجنَّةِ؛ لأنَّ تركَها كفرٌ أكبرُ مخرجٌ عن الملَّةِ كما شَهِدَتْ بذلك نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ وما يُحْكَى من إجماعِ الصَّحابةِ أو قولِ جمهورِهم، وكما هو مقتضى النَّظرِ الصَّحيحِ، أمَّا الإمامُ أحمدُ -رحمه اللهُ- فعنه: أنَّ تاركَ الزَّكاةِ والصِّيامِ والحجِّ كتاركِ الصَّلاةِ؛ لأنَّ الكُلَّ أركانٌ للإسلامِ، ولا يقومُ البيتُ إِلَّا بأركانِه، لكن الحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ، والصَّحيحُ: أنَّه لا يَكْفُرُ بتركِ الأعمالِ إِلَّا بالصَّلاةِ.

***

فصــل

في مَنْشُورِ الجَنَّةِ الَّذِي يُوَقَّعُ بِهِ لِصَاحِبِهَا

٤٩٨٥- هَذَا وَمَـنْ يَـدْخُلْ فَلَيْسَ بِـدَاخِلٍ إِلَّا بِتَوْقِيـعٍ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٤٩٨٦- وَكَـذَاكَ يُكْتَـبُ لِلْفَتَـى لِدُخُولِـهِ مِـنْ قَبْـلُ تَوْقِيعَـانِ مَشْـهُودَانِ

٤٩٨٧- إِحْدَاهُمَا بَعْدَ الـمَمَاتِ وَعَـرْضِ أَرْ وَاحِ العِبَـادِ بِـهِ عَـلَى الـدَّيَّانِ

٤٩٨٨- فَيَقُولُ رَبُّ العَـرْشِ جَـلَّ جَلالُـهُ لِلْكَـاتِبِينِ وَهُـمْ أُولُـو الـدِّيوَانِ

٤٩٨٩- ذَا الإِسْمُ فِي الدِّيوَانِ يُكْتَبُ ذَاكَ دِيـ ـوَانُ الـجِنَانِ مُجَاوِرَ الـمَنَّانِ

٤٩٩٠- دِيـوَانُ عِلِّيِّـينَ أَصْـحَابِ القُـرَا نِ وَسُـنَّةِ الـمَبْعُوثِ بِـالقُرْآنِ

٤٩٩١- فَإِذَا انْتَهَى لِلجِسْرِ يَوْمَ الحَشْرِ يُعْـ ـطَى لِلـدُّخُولِ إِذًا كِتَـابٌ ثَـانِي

٤٩٩٢- عُنْوَانُـهُ هَـذَا كِتَـابٌ مِـنْ عَزِيـ ـزٍ رَاحِـمٍ لِفُـلانِ ابْـنِ فُـلانِ

٤٩٩٣- فَدَعُوهُ يَدْخُلُ جَنَّةَ المَأْوَى الَّتِي ارْ تَفَعَـتْ وَلَكِـنَّ القُطُـوفَ دَوَانِي

٤٩٩٤- هَذَا وَقَدْ كُتِبَ اسْمُهُ مُذْ كَـانَ فِي الْـ أَرْحَـامِ قَبْـلَ وِلادَةِ الإِنْسَـانِ

٤٩٩٥- بَلْ قَبْلَ ذَلِكَ وَهْوَ وَقْتُ القَبْضَتَيْـ ـنِ كِلاهُمَـا لِلعَـدْلِ وَالإِحْسَانِ

٤٩٩٦- سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالْـ إِجْـلالِ وَالإِكْـرَامِ وَالسُّـبْحَانِ

٤٩٩٧- وَاللهُ أَكْـبَرُ عَالِـمُ الأَسْرَارِ وَالْـ   إِعْـلانِ وَاللَّحَظَـاتِ بِالأَجْفَـانِ

٤٩٩٨- وَالـحَمْدُ للهِ السَّمِيعِ لِسَائِرِ الْـ   أَصْـوَاتِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلانِ

٤٩٩٩- وَهُوَ الـمُوَحَّدُ وَالـمُسَبَّحُ وَالْمُمَجْـ   جَـدُ وَالـحَمِيدُ وَمُنْـزِلُ القُـرْآنِ

٥٠٠٠- وَالأَمْـرُ مِـنْ قَبْـلٍ وَمِـنْ بَعْـدٍ لَـهُ   سُـبْحَانَكَ اللَّهُـمَّ ذَا السُّـلْطَانِ

الشرحُ

٤٩٨٥- هَذَا وَمَـنْ يَـدْخُلْ فَلَيْسَ بِـدَاخِلٍ   إِلَّا بِتَوْقِيـعٍ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

التَّوقيعُ معروفٌ بأن يُعْطَى الإنسانُ كتابًا ويُوقِّعَ عليه المسؤولُ، فلا يدخلُ الجنَّةَ أحدٌ إلَّا بهذا التَّوقيعِ من الله عزَّ وجلَّ الذي ذَكَرَهُ المؤلِّفُ؛ ولذا قال: «**إِلَّا بِتَوْقِيعٍ مِنَ الرَّحْمَنِ**».

٤٩٨٦- وَكَـذَاكَ يُكْتَـبُ لِلْفَتَـى لِدُخُولِـهِ   مِـنْ قَبْـلُ تَوْقِيعَـانِ مَشْـهُودَانِ

٤٩٨٧- إِحْدَاهُمَا بَعْدَ الـمَمَاتِ وَعَـرْضِ أَرْ   وَاحِ العِبَـادِ بِـهِ عَـلَى الـدَّيَّانِ

٤٩٨٨- فَيَقُولُ رَبُّ العَـرْشِ جَـلَّ جَلالُـهُ   لِلْكَـاتِبِينَ وَهُـمْ أُولُـو الـدِّيوَانِ

٤٩٨٩- ذَا الإِسْمُ فِي الدِّيوَانِ يُكْتَبُ ذَاكَ دِيـ   ـوَانُ الـجِنَانِ مُجَـاوِرَ الـمَنَّانِ

٤٩٩٠- دِيـوَانُ عِلِّيِّـينَ أَصْـحَابِ القُـرَا   نِ وَسُـنَّةِ الـمَبْعُوثِ بِـالقُرْآنِ

هذا يُكْتَبُ أو يُوَقَّعُ -كما قال المؤلِّفُ- إذا مات الإنسانُ، فإنَّ الملائكةَ تقبضُ روحَه وتصعدُ بها إلى السَّماءِ حتَّى تكونَ بين يَدِي الله عزَّ وجلَّ، ثُمَّ يقولُ: «اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ»، فهذه كتابةٌ، «وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ؛ فَإِنِّي مِنْهَا

خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى»[١]، وهذا مُفسِّرٌ لقولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨]، وأمَّا الكتابُ الثَّاني فيكونُ عند تجاوُز الصِّراطِ، فيُكْتَبُ أنَّه من أهلِ الجنَّةِ ليُفْتَحَ له ويدخلَ مع الدَّاخلين، ولذا قال:

٤٩٩١- فَإِذَا انْتَهَى لِلجِسْرِ يَوْمَ الحَشْرِ يُعْـ ـطَى لِلـدُّخُولِ إِذًا كِتَـابٌ ثَـانِي

الجسرُ هو: جسرٌ ممدودٌ على جهنَّمَ، يعبرُ النَّاسُ عليه على قدرِ أعمالِهم حسب قوَّتِهم وأخذِهم لشريعةِ الله، فمنهم مَنْ يمرُّ كلمحِ البصرِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالبرقِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالرِّيحِ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالإبلِ[٢]، المهمُّ أنَّه يمرُّ النَّاسُ فيه على قدرِ أعمالِهم، فيُعْطَى كتابًا يقولُ:

٤٩٩٢- عُنْوَانُـهُ هَـذَا كِتَـابٌ مِـنْ عَزِيـ ـزٍ رَاحِـمٍ لِفُـلانِ ابْـنِ فُـلانِ

٤٩٩٣- فَدَعُوهُ يَدْخُلُ جَنَّةَ المَأْوَى الَّتِـي ارْ تَفَعَـتْ وَلَكِـنَّ القُطُـوفَ دَوَانِي

قَوْلُهُ: «عِنْوَانُهُ هَذَا كِتَابٌ مِنْ عَزِيزٍ رَاحِمٍ» يُعْطَى كتابًا عند الصُّعودِ على الصِّراطِ؛ لأنَّه كتابٌ من عزيزٍ رحيمٍ لفلانِ ابن فلانٍ، ورُبَّما يشهدُ لهذا قولُه تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصِّلت:٣٢]، فدعوه يدخلُ، وهذا وَرَدَ به أثرٌ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

فالمسألةُ محفوظةٌ مُتْقَنَةٌ، كُلُّ شيءٍ بكتابٍ، كُلُّ شيءٍ مُقَدَّرٌ، واللهُ تعالى واسعٌ عليمٌ.

قَوْلُهُ: «جَنَّةَ المَأْوَى الَّتِي ارْتَفَعَتْ وَلَكِنَّ القُطُوفَ دَوَانِي»، «القُطُوفُ» جمعُ:

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٧٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٥، رقم ١١٢١٦)، وأبو يعلى (٢/ ٤٤٥، رقم ١٢٥٣)، وابن حبان (١٦/ ٣٨٤، رقم ٧٣٧٩)، والحاكم (٤/ ٦٢٧ رقم ٨٧٣٧) وقال: صحيح على شرط مسلم.

«قِطْفٍ»؛ وهو: الثَّمرُ، فقطوفُها دانيةٌ؛ يعني: هي مع علوِّها هي دانيةٌ، فإذا اشتهى الإنسانُ ثمرةً من هذه الثَّمراتِ دَنَا الغصنُ له حتَّى تكونَ الثَّمرةُ بين يديه، لا يحتاجُ إلى تعبٍ ولا إلى عناءٍ؛ كما قال تعالى: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة:٢٣]، اللَّهُمَّ اجعلنا من أهلِها.

٤٩٩٤- هَذَا وَقَدْ كُتِبَ اسْمُهُ مُذْ كَانَ فِي الْـ أَرْحَامِ قَبْلَ وِلادَةِ الإِنْسَانِ

لأنَّه إذا تَمَّ له أربعةُ أشهرٍ أُرْسِلَ إليه المَلَكُ «ويُؤْمَرُ بأربعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أو سَعِيدٌ»، والحديثُ في هذا مشهورٌ، وهو حديثُ عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١).

٤٩٩٥- بَلْ قَبْلَ ذَلِكَ وَهْوَ وَقْتُ القَبْضَتَيْـ ـنِ كِلاهُمَا لِلعَدْلِ وَالإِحْسَانِ

فاللهُ -جلَّ وعلَّا- قَبَضَ قبضَتَيْنِ مِنْ بني آدمَ، وقال: «هَؤُلَاءِ لِلْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي وَهَؤُلَاءِ لِلنَّارِ وَلَا أُبَالِي»(٢).

٤٩٩٦- سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالْـ إِجْلالِ وَالإِكْرَامِ وَالسُّبْحَانِ

قَوْلُهُ: «سُبْحَانَ»؛ يعني: تنزيهًا لله عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «ذِي الجَبَرُوتِ»؛ أي: ذي الجبرِ، وقد مَرَّ علينا في هذا الكتابِ أنَّ الجبارَ من أسماءِ الله، وله ثلاثةُ معانٍ: القوَّةُ، وجبرُ الضَّعيفِ، والعلوُّ؛ كما قال:

وَلَهُ مُسَمَّى ثَالِثٌ وَهْوَ العُلُوْ وُ فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم (٣٣٣٢). ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٦، رقم ١٧٦٩٦).

مِنْ قَوْلِـهِمْ جَبَّـارَةٌ لِلنَّخْلَـةِ الـ ـعُلْيَا الَّتِي فَاقَتْ لِكُـلِّ بَنَـانِ[١]

قَوْلُهُ: «المَلَكُوتِ» من المُلْكِ، وأتت التَّاءُ فيه للمبالغةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون:٨٨].

قَوْلُهُ: «وَالإِجْلَالِ»؛ يعني: أنَّ اللهَ تعالى يُجِلُّهُ كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرضِ ويعظِّمُه كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرضِ؛ إمَّا تعظيمًا قدريًّا، وإمَّا تعظيمًا شرعيًّا.

قَوْلُهُ: «الإِكْرَامِ»؛ المرادُ: إكرامُ الطَّائعينَ من عبادِه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ [الرحمن:٢٧].

قَوْلُهُ: «السُّبْحَانِ»؛ هو: التَّنزيهُ؛ يعني: وسُبْحَانَ ذي التَّنزيهِ.

٤٩٩٧- وَاللهُ أَكْـبَرُ عَالِـمُ الأَسْرَارِ وَالْـ ـإِعْـلانِ وَاللَّحَظَـاتِ بِالأَجْفَـانِ

٤٩٩٨- وَالـحَمْدُ لله السَّمِيعِ لِسَائِرِ الْـ ـأَصْـوَاتِ مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلانِ

وهذا واضحٌ.

٤٩٩٩- وَهُوَ الـمُوَحَّدُ وَالـمُسَبَّحُ وَالمُمَجْـ ـجَـدُ وَالـحَمِيدُ وَمُنْـزِلُ القُـرْآنِ

قَوْلُهُ: «الحَمِيدُ»؛ بمعنى: الحامد، وبمعنى: المحمود، فهو حامدٌ لِـمَنْ يستحقُّ الحمدَ، وهو محمودٌ.

٥٠٠٠- وَالأَمْـرُ مِـنْ قَبْـلٍ وَمِـنْ بَعْـدٍ لَـهُ سُـبْحَانَكَ اللَّهُـمَّ ذَا السُّـلْطَانِ

قَوْلُهُ: «وَالأَمْرُ مِنْ قَبْلٍ وَمِنْ بَعْدٍ لَهُ»، وهذا مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الرُّوم:٤].

---

(١) تقدم البيتان برقم (٣٣٢٨، ٣٣٢٩)

فصــل

في صُفُوفِ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥٠٠١- هَذَا وَإِنَّ صُفُوفَهُمْ عِشْـرُونَ مَـعْ ... مِئَـةٍ وَهَـذِي الأُمَّـةُ الثُّلُثَـانِ

٥٠٠٢- يَرْوِيـهِ عَنْـهُ بُرَيْـدَةٌ إِسْـنَادُهُ ... شَرْطُ الصَّحِيحِ بِـ«مُسْنَدِ الشَّيْبَانِي»

٥٠٠٣- وَلَهُ شَوَاهِدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْـ ... ـرَةَ وَابْـنِ مَسْعُودٍ وَحَبْرِ زَمَانِ

٥٠٠٤- أَعْنِـي ابْـنَ عَبَّـاسٍ وَفِي إِسْنَادِهِ ... رَجُـلٌ ضَـعِيفٌ غَـيْرُ ذِي إِتْقَـانِ

٥٠٠٥- وَلَقَـدْ أَتَانَـا فِي «الصَّحِيحِ» بِـأَنَّهُمْ ... شَـطْرٌ وَمَـا اللَّفْظَـانِ مُخْتَلِفَـانِ

٥٠٠٦- إِذْ قَالَ أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَهُمْ ... هَـذَا رَجَـاءٌ مِنْـهُ لِلـرَّحْمَنِ

٥٠٠٧- أَعْطَاهُ رَبُّ العَرْشِ مَـا يَرْجُـو وَزَا ... دَ مِنَ العَطَاءِ فِعَـالَ ذِي الإِحْسَـانِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- فيه أنَّ صفوفَ أهلِ الجنَّةِ عشرون ومئةٌ، وأنَّ هذه الأُمَّةَ الثُّلثان، فيكونُ من هذه الأُمَّةِ ثمانون صفًّا ومِنْ غيرِها أربعون صفًّا، وهذا يدلُّ على أنَّهم قليلون بالنِّسبةِ لهذه الأُمَّةِ بلا شكٍّ؛ **أوَّلًا**: لأنَّ بعضَ الرُّسلِ ليس معه أحدٌ، فلا يتبعُه ولا واحدٌ[1]، وبعضُ الرُّسلِ يتبعُه أهلُه

---

(١) كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرج علينا النبي ﷺ يومًا فقال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ». أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب بَابُ مَنْ لَمْ يَرْقِ، رقم (٥٤٢٠).

إلَّا بعضَهم، فمثلًا: لوطٌ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- يتبعُه أهلُه إلَّا امرأتَه، ونوحٌ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ما بَقِيَ من ذرِّيَّتِهِ إلَّا ثلاثةٌ، وهَلُمَّ جرًّا.

ثُمَّ ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- بعد أنْ صَحَّحَ هذا الحديثَ ذكر ما ظاهرُه المعارضةُ؛ وهو: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لـمَّا حَدَّثَ أصحابَه فَقَالَ: «يَقُولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الوَلِيدُ»، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢]، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا[1]، وشطرُ أهلِ الجنَّةِ؛ أي: نصفُهم.

وفي الحديثِ ذِكْرٌ ليأجوجَ ومأجوجَ، ولاشَّك أنَّهم موجودين على عهدِ ذي القَرْنَيْنِ، لكن متى يُبْعَثُونَ؟ هذا الذي يكونُ من أشراطِ السَّاعةِ، إذا بُعِثُوا وسُلِّطُوا على العالَـمِ، وليس هناك في ذلك الوقتِ أسلحةٌ؛ من دَباباتٍ، ولا طائراتٍ، ولا صواريخَ، ولا شيءٍ، فيأتي هذا الجيشُ العرمرمُ الذي يَقِفُ على بحيرةِ طبريَّة ويشربُها، فيمرُّ آخرُهم فيقول: قد كان في هذه مرَّةً ماءٌ، فَيُسَلَّطون حتَّى يضطرَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ﴾ [الحج:٢]، رقم (٤٧٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، رقم (٢٢٢).

عيسى -عليه السَّلامُ- ومَنْ معه إلى أن يلتجئوا إلى الطُّورِ، فيُهلكهم الله[1]، إِذَنْ جنسُهم موجودٌ من بني آدمَ، لكن ذُرِّيَّتُهم هي التي لم توجدْ بعد، والقولُ بأنَّ يأجوجَ ومأجوجَ هم التَّتارُ هذا غلطٌ، لكن إذا جعلنا التَّتارَ مثلًا يأجوجَ ومأجوجَ من حيث الإفسادُ فصحيحٌ، لكن هل هؤلاء حصروا المؤمنين في جبلِ الطُّورِ؟ وهل نَزَلَ عيسى؟ الجوابُ: لا؛ لأنَّ يأجوجَ ومأجوجَ الذين هم من علاماتِ السَّاعةِ بعد نزولِ عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

المهمُّ أنَّ هذا الحديثَ يدلُّ على أنَّ هذه الأُمَّةَ الشَّطرُ؛ أي: النِّصفُ، والحديثَ الأوَّلَ الذي رواه الإمامُ أحمدُ يدلُّ على أنَّهم الثُّلثان؛ لأنَّ أهلَ الجنَّةِ مئةٌ وعشرون صفًّا، منهم ثمانون من هذه الأُمَّةِ، فَجَمَعَ المؤلِّفُ بينهما جمعًا حسنًا، وقال: إنَّ الذي فيه الشَّطرُ هو رجاءٌ من الرَّسولِ ﷺ، وإنَّ اللهَ أعطاه فوق ما رَجَاه؛ أي: زَادَهُ أَكْثَرَ ممَّا رَجَاه.

* * *

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم (٢٩٣٧).

فصل

في صِفَةِ أَوَّلِ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ

٥٠٠٨- هَـذَا وَأَوَّلُ زُمْـرَةٍ فَوُجُـوهُهُمْ كَالْبَـدْرِ لَيْـلَ السِّـتِّ بَعْـدَ ثَـمَانِ

٥٠٠٩- السَّابِقُونَ هُـمُ وَقَـدْ كَـانُوا هُنَـا أَيْضًـا أُولِي سَـبْقٍ إِلَى الإِحْسَـانِ

الشرحُ

٥٠٠٨- هَـذَا وَأَوَّلُ زُمْـرَةٍ فَوُجُـوهُهُمْ كَالْبَـدْرِ لَيْـلَ السِّـتِّ بَعْـدَ ثَـمَانِ

أَوَّلُ زمرةٍ تدخلُ الجنَّةَ على صورةِ القمرِ ليلة البدرِ، متى؟ ليلة الرَّابعَ عشرَ؛ لأنَّ هذا أكملُ ما يكونُ القمرُ إبدارًا، وامتلاءً بالنُّورِ، وهذا لا يلزمُ أن يكونوا مثلَه، لكنَّهم على صورتِه في البهجةِ والسَّناءِ والإضاءةِ، وما أشبه ذلك، ولا يلزمُ أن يكونوا مُماثلين له، وعلى هذا التَّقديرِ يزولُ الإشكالُ الذي حصَل عند كثيرٍ من النَّاسِ في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ»[1]، حيث ظنُّوا أنَّه إذا كان على صورتِه كان مماثلًا له، ونحن نقولُ: «عَلَى صُورَتِهِ»، ولا يلزمُ أن يكونَ مماثلًا له كما في هذا الحديثِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، رقم (٥٨٧٣)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه، رقم (٢٦١٢).

٥٠٠٩- السَّـابِقُونَ هُـمُ وَقَـدْ كَـانُوا هُنَـا   أَيْضًـا أُولِي سَـبْقٍ إِلَى الإِحْسَـانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠]، والصَّواب: أنَّ «**السَّابقون**» الثَّانية خبرٌ؛ يعني: السَّابقون في الدُّنيا هم السَّابقون في الآخرةِ.

فهؤلاء سبقوا في الدُّنيا إلى الإحسانِ، وعبدوا اللهَ كأنَّهم يَرَوْنَهُ، فسبقوا في الآخرةِ إلى جزاءِ هذا الإحسانِ، فكانوا أَوَّلَ زمرةٍ تدخلُ الجنَّةَ؛ لأنَّهم يُحْشَرونَ إلى الجنَّةِ زُمرًا كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧٣].

* * *

فصــل

في صِفَةِ الزُّمْرَةِ الثَّانِيَةِ

٥٠١٠- وَالزُّمْرَةُ الأُخْرَى كَأَضْوَإِ كَوْكَـبِ ... في الأُفْــقِ تَنْظُــرُهُ بِــهِ العَيْنَــانِ

٥٠١١- أَمْشَاطُهُمْ ذَهَبٌ وَرَشْحُهُمُ فَمِسْـ ... ـكٌ خَـالِصٌ يَـا ذِلَّـةَ الـحِرْمَانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «أَمْشَاطُهُمْ ذَهَبٌ» اللهُ أكبرُ، أمشاطُهم ذهبٌ؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ لـهم شَعْرًا.

قَوْلُهُ: «وَرَشْحُهُمُ فَمِسْكٌ»؛ يعني: العَرَقُ الذي يخرجُ منهم مسكٌ أطيبُ ما يكونُ من الرَّائحةِ، بينما هو في الدُّنيا رائحتُه كريهةٌ مُنْتِنَةٌ، لكن هناك لا، رشحُهم مسكٌ خالصٌ.

قَوْلُهُ: «يَا ذِلَّةَ الـحِرْمَانِ»؛ يعني: ما أذلَّ مَنْ حُرِمَ من هذا الـخيرِ، اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنَا إيَّاه.

***

فصـــل

في تفاضلِ أهلِ الجنَّةِ في الدَّرَجاتِ العُلى

٥٠١٢- وَيَرَى الَّذِينَ بِذَيْلِهَا مَنْ فَوْقَهُمْ ... مِثْلَ الكَوَاكِبِ رُؤْيَةٌ بِعِيَانِ

٥٠١٣- مَا ذَاكَ مُخْتَصًّا بِرُسْلِ اللهِ بَلْ ... لَهُمُ وَلِلْصِّدِّيقِ ذِي الإِيمَانِ

الشرحُ

لما حَدَّثَ النَّبِيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أصحابَه بأنَّهم يَتَراءَوْنَ أَصْحَابَ الغُرَفِ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ -مِنْ بُعْدِهِ وَصَفَائِهِ وَنُورِهِ- قالُوا: يَا رَسُولَ الله تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الـمُرْسَلِينَ»[1]، آمنَّا بالله وصَدَّقْنَا برسلِه، هؤلاء هم أصحابُ هذه الغرفِ، وعلى رأسِهم وأوَّلـهم هم الأنبياءُ لا شكَّ؛ لأنَّ الأنبياءَ كُلَّهم آمنوا برسلِه، قال اللهُ تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

والأنبياءُ والسَّابقون لمحمَّدٍ ﷺ أُخِذَ عليهم العهدُ أنَّه إن بُعِثَ لَيُؤمِنُنَّ به ولَيَنْصُرُنَّه، وأن يكونوا من جنودِه، فوافقوا على هذا، وأَعْطَوْا اللهَ العهدَ والميثاقَ على أنَّه إن بُعِثَ محمَّدٌ فهم تحت لوائِه ومن جنودِه، فكُلُّ الرُّسلِ آمَنَ بعضُهم ببعضٍ وصَدَّقَ بعضُهم بعضًا، فهم أعلى أهلِ هذه الغرفِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٨٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، رقم (٢٨٣١).

فصــل

فِي ذِكْرِ أَعْلَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً وَأَدْنَاهُمْ

٥٠١٤- هَــذَا وَأَعْلاهُــمْ فَنَــاظِرُ رَبِّــهِ ... فِي كُــلِّ يَــوْمٍ وَقْتَــهُ الطَّرَفَــانِ

٥٠١٥- لَكِــنَّ أَدْنَــاهُمْ وَمَــا فِـيهِمْ دَنِيْ ... يٌ لَيْسَ فِي الـجَنَّاتِ مِـنْ نُقْصَـانِ

٥٠١٦- فَهْـوَ الَّـذِي تُلْفَـى مَسَافَةُ مُلْكِـهِ ... بِسِنِينِـــنَا أَلْفَـــانِ كَامِلَتَـــانِ

٥٠١٧- فَـيَرَى بِهَـا أَقْصَـاهُ حَقًّـا مِثْـلَ رُؤْ ... يَتِــهِ لِأَدْنَــاهُ القَرِيــبِ الــدَّانِي

٥٠١٨- أَوَمَـا سَـمِعْتَ بِـأَنَّ آخِـرَ أَهْلِهَـا ... يُعْطِيــهِ رَبُّ العَـرْشِ ذُو الغُفْـرَانِ

٥٠١٩- أَضْعَافَ دُنْيَانَا جَمِيعًا عَشْـرَ أَمْــ ... ـثَالٍ لَــهَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَـانِ

الشرحُ

٥٠١٤- هَــذَا وَأَعْلاهُــمْ فَنَــاظِرُ رَبِّــهِ ... فِي كُــلِّ يَــوْمٍ وَقْتَــهُ الطَّرَفَــانِ

أعلى أهلِ الجنَّةِ منزلةً هو: الذي ينظرُ إلى الله تعالى كُلَّ يومٍ في الصَّباحِ والمساءِ[1]، ولكن كيف هذا؟ قيل: إنَّ هذا نورٌ يسطعُ من العرشِ يتبيَّنُ به دخولُ النَّهارِ من دخولِ اللَّيلِ، فإذا صَحَّ هذا فالأمرُ واضحٌ، وإن لم يصحَّ فيكونُ حكمُه

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٣، رقم ٤٦٢٣)، وأبو يعلى (١٠/ ٩٦، رقم ٥٧٢٩)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٠/ ٤٠١) قال الهيثمي: في أسانيدهم ثوير بن أبي فاختة وهو مجمع على ضعفه.

حكمَ الأمورِ الغيبيَّةِ التي عِلْمُهَا عند الله؛ المهمُّ أنَّه لا بُدَّ أن يكونَ هناك دليلٌ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢].

٥٠١٥- لَكِــنَّ أَدْنَــاهُمْ وَمَــا فِــيهِمْ دَنِيْ ... يٌ لَيْسَ فِي الـجَنَّاتِ مِـنْ نُقْصَـانِ

٥٠١٦- فَهُـوَ الَّـذِي تُلْفَـى مَسَـافَةُ مُلْكِـهِ ... بِسِـــنِينِنَا أَلْفَـــانِ كَامِلَتَـــانِ

٥٠١٧- فَـيَرَى بِهَـا أَقْصَـاهُ حَقًّـا مِثْـلَ رُؤْ ... يَتِـــهِ لِأَدْنَـــاهُ القَرِيـــبِ الـــدَّانِي

وأهلُ الجنَّةِ ليس فيهم دَنِيٌّ؛ لأنَّ الجنَّاتِ كُلَّها ليس فيها نقصٌ؛ بل «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[1]، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف:٧١]؛ يعني: مطعمًا ومنظرًا، فالنَّعيمُ من كُلِّ وجهٍ، إِذَنْ لا دَنِـيَّ فيها، فكُلُّ ما فيها عالٍ.

وأدناهم منزلةً -وليس فيهم دَنِيٌّ- هو الذي تكونُ مسافةُ مُلْكِهِ أَلْفَي عامٍ، يرى أقصاه كما يرى أدناه[2]، وهذا دليلٌ على كمالِ حياتِهم وقوَّتِهم؛ إذ إنَّ النَّاسَ في الدُّنيا لا تقوى أبصارُهم على هذا النَّظرِ، إِذَنْ البصرُ قويٌّ، وقوَّةُ كُلِّ البدنِ كاملةٌ من كُلِّ وجهٍ، والمكانُ متَّسعٌ، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، لكن هو لكمالِ نعيمِه حتَّى يكونَ محيطًا بمُلْكِهِ يرى أقصاه كما يرى أدناه لا يختلفُ.

وفي الحقيقةِ: أمورُ الآخرةِ يَحَارُ فيها العقلُ، ولكنَّه لا يحيلُها؛ لأنَّ مَنْ قدر اللهَ حقَّ قدرِه وَعَرفَ قدرةَ الله وعظمتَه لا يحيلُ هذا الشَّيءَ.

٥٠١٨- أَوَمَـا سَـمِعْتَ بِـأَنَّ آخِـرَ أَهْلِهَـا ... يُعْطِيـهِ رَبُّ العَـرْشِ ذُو الغُفْـرَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٧٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

(٢) تقدم تخريجه، وهو جزء من الحديث قبل السابق.

٥٠١٩- أَضْعَافَ دُنْيَانَا جَمِيعًا عَشْـرَ أَمْـ ـثَالٍ لَـهَا سُبْحَانَ ذِي الإِحْسَـانِ

آخرُ أهلِ الجنَّةِ دخولًا هذا الذي يُعطيه اللهُ عزَّ وجلَّ مثلَ الدُّنيا وعشرةِ أمثالِ الدُّنيا، فالدُّنيا كُلُّها من أَوَّلِـها إلى يومِ القيامةِ يعطيه اللهُ عزَّ وجلَّ عشرةَ أمثالِـها، وأيضًا هذا النَّعيمُ ليس كنعيمِ الدُّنيا مُهَدَّدًا بالخطرِ والزَّوالِ والنَّقصِ، فهو نعيمٌ لا ينفدُ ولا يزولُ، فتجدُ الفرقَ العظيمَ.

المهمُّ أَنَّنا نسألُ اللهَ -سبحانه وتعالى- أنْ يجعلَنا وإيَّاكم من أهلِ الجنَّةِ؛ لأنَّ نعيمَها نعيمٌ لا يعادلُه شيءٌ؛ ولهذا صَحَّ عن النَّبِيِّ -عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنَّه قال: «رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيها»[1]، فسنَّةُ الفجرِ ركعتان خفيفتَانِ خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، النَّاسُ الآن يذهبون يمينًا وشمالًا، وفي شدَّةِ الحرِّ، وفي شدَّةِ البردِ لينالوا شيئًا زهيدًا من الدُّنيا، وهاتان الرَّكعتان خيرٌ من الدُّنيا وما فيها، نسألُ اللهَ-سبحانه وتعالى- أن يُعينَنا وإيَّاكم على طاعتهِ.

خلاصةُ هذا الفصلِ أنَّه ذكر ثلاثةَ أحكامٍ:

الأوَّل: حُكمُ أعلى أهلِ الجنَّةِ أنَّه ينظرُ إلى الله تعالى بكرةً وعشيَّةً، جعلنا اللهُ وإيَّاكم منهم.

الثَّاني: أدناهم مَنْ يرى مُلْكَه مسيرةَ ألفي عامٍ، يرى أقصاه كما يرى أدناه.

الثَّالث: أنَّ آخرَ أهلِ الجنَّةِ دخولًا مَنْ يُعطيه اللهُ تعالى مثلَ الدُّنيا وعشرةَ أمثالِـها.

***

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليها وتخفيفها، والمحافظة عليها، رقم (٧٢٥).

فصل

في ذِكْرِ سِنِّ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥٠٢٠- هَـذَا وَسِنُّهُمُ ثَلاثٌ مَعْ ثَلا ... ثِينَ الَّتِي هِيَ قُوَّةُ الشُّبَّانِ

٥٠٢١- وَصَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ في ذَا عَلَى ... حَدٍّ سَوَاءٍ مَا سِوَى الوِلْدَانِ

٥٠٢٢- وَلَقَدْ رَوَى الخُدْرِيُّ أَيْضًا أَنَّهُمْ ... أَبْنَاءُ عَشْرٍ بَعْدَهَا عَشْرَانِ

٥٠٢٣- وَكِلاهُمَا في «التِّرْمِذِيِّ» وَلَيْسَ ذَا ... بِتَنَاقُضٍ بَلْ هَا هُنَا أَمْرَانِ

٥٠٢٤- حَذْفُ الثَّلاثِ وَنَيِّفٍ بَعْدَ العُقُو ... دِ وَذِكْرُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ سِيَّانِ

٥٠٢٥- عِنْدَ اتِّسَاعٍ في الكَلامِ فَعِنْدَمَا ... يَأْتُوا بِتَحْرِيرٍ فَبِالمِيزَانِ

الشرحُ

٥٠٢٠- هَـذَا وَسِنُّهُمُ ثَلاثٌ مَعْ ثَلا ... ثِينَ الَّتِي هِيَ قُوَّةُ الشُّبَّانِ

٥٠٢١- وَصَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ في ذَا عَلَى ... حَدٍّ سَوَاءٍ مَا سِوَى الوِلْدَانِ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ سنَّهم أبناءُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً، وأنَّ الصَّغيرَ والكبيرَ في هذا على حَدٍّ سواء؛ يعني: حتَّى مَنْ مَاتَ وله عشرون سنةً فإنَّه يكونُ ابنَ ثلاثٍ وثلاثينِ سنةً عند دخولِ الجنَّةِ، ومَنْ مَاتَ وله خمسون سنةً يكونُ ابنَ ثلاثٍ وثلاثين سنةً عند دخولِ الجنَّة وهي أعلى ما يكونُ من الشَّبابِ، ومع ذلك لا يتغيَّرون ولا يهرمون أبدًا ولا يضعفون، فهم دائمًا على هذه الحالِ إلى أبدِ

الآبدين، ويُسْتَثْنَى من ذلك: ولدانُ الجنَّةِ؛ ولذا قال: «**مَا سِوَى الوِلْدَانِ**»؛ أي: ولدان الجنَّةِ الذين هم الخدمُ، فالولدانُ الذين هم خَدَمُ الجنَّةِ ليسوا من المُكَلَّفين الذين يدخلونها بأعمالِهم، بل خُلِقُوا في الجنَّةِ للجنَّةِ، وهذا هو المُتبادَرُ من كلمة «**الولدان**» كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩].

٥٠٢٢- وَلَقَدْ رَوَى الـخُدْرِيُّ أَيْضًـا أَنَّهُـمْ ... أَبْنَـاءُ عَشْـرٍ بَعْـدَهَا عَشْـرَانِ

٥٠٢٣- وَكِلاهُمَا في «التِّرْمِـذِيِّ» وَلَـيْسَ ذَا ... بِتَنَـاقُضٍ بَـلْ هَـا هُنَـا أَمْـرَانِ

٥٠٢٤- حَذْفُ الثَّلاثِ وَنَيِّفٍ بَعْـدَ العُقُـو ... دِ وَذِكْـرُ ذَلِـكَ عِنْـدَهُمْ سِـيَّانِ

٥٠٢٥- عِنْـدَ اتِّسَـاعٍ في الكَـلامِ فَعِنْـدَمَا ... يَـأْتُوا بِتَحْرِيـرٍ فَبِالـمِيزَانِ

ولقد روى أبو سعيدٍ الـخُدريُّ أنَّ أهلَ الـجنَّةِ يدخلونها أبناءَ عشرٍ وعشرين[(١)]؛ أي: أبناءُ ثلاثين، وهذا لا يناقضُ ما سَبَقَ من أنَّهم يدخلونها وهم أبناءُ ثلاثٍ وثلاثينٍ[(٢)]؛ وذلك لأنَّ العربَ قد يُسْقِطُونَ ما زاد على العقودِ؛ يعني: ما زَادَ مثلًا على العشرةِ أو على العشرينِ أو على الثَّلاثين قد يحذفونه؛ مثل: «**نَيِّف**»؛ والنَّيِّفُ من ثلاثةٍ إلى تسعةٍ، وثلاثةٍ أيضًا، مع أنَّ المرادَ ما زاد، فيكونُ الذين اقتصروا في الرِّوايةِ على الثَّلاثين حذفوا ما زاد عليها، ونحن نقولُ الآن: «**فلانٌ عمرُه بالثَّلاثين**»؛

(١) يعني قوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الـجَنَّةِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ يُرَدُّونَ بَنِي ثَلَاثِينَ في الـجَنَّةِ لَا يَزِيدُونَ عَلَيْهَا أَبَدًا، وَكَذَلِكَ أَهْلُ النَّارِ». أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة، رقم (٢٥٦٢).

(٢) يعني حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الـجَنَّةِ الْـجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا بِيضًا جِعَادًا مُكَحَّلِينَ، أَبْنَاءَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، عَلَى خَلْقِ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا في عَرْضِ سَبْعِ أَذْرُعٍ». أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٣، رقم ٢٢١٥٩).

يعني: من واحدٍ وثلاثين إلى تسعةٍ وثلاثين، فكُلُّ هذا داخلٌ في قولِنا: «**بالثَّلاثين**»، لكنَّهم إذا أرادوا التَّحريرَ ذكروا العددَ الزَّائدَ على العقودِ؛ إِذَنْ لا تناقضَ بين الرِّوايتَيْنِ؛ أي: رواية الثَّلاثين، ورواية: ثلاثٍ وثلاثين.

ولله دَرُّ ابنِ القيمِّ رحمه الله؛ لأنَّه جَمَعَ هذا الجمعَ، والعبدُ إذا فَتَحَ اللهُ عليه يَسَّرَ له الجَمعَ بينهما ظاهرُه التَّناقضُ.

لكنَّنا نُنَبِّهُ إلى أنَّ كثيرًا من النَّاسِ يأتي بالنُّصوصِ المشكلةِ، يُحِبُّ أن يُغْرِبَ في المقالِ، فتجدُه يذكرُ التَّعارضَ في أشياءَ ليس بينها تعارضٌ؛ ليُغْرِبَ ويقالَ: ما شاء اللهُ، ما أَوْسَعَ علمَه! لكن مَنْ أراد الحقَّ وعَلِمَ أنَّ الكُلَّ حقٌّ سَهُلَ عليه الجمعُ بكُلِّ سهولةٍ، بينما الآخرُ يُغَطَّى عنه الجمعُ والعياذُ بالله؛ لأنَّه يريدُ أن يأتيَ بالمتناقضاتِ، وإذا شِئتم هذا راجعوا مناظرةَ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لنافعِ بن الأزرقِ في آياتٍ من القرآنِ كثيرة، ذكرها السُّيوطيُّ في كتابه: «الإتقان»[1] تجد أنَّ الإنسانَ الذي يريدُ أن يجمعَ بين كلامِ الله وبين كلامِ رسولِه يسهلُ عليه الجمعُ ولا يرى التَّناقضَ، وأمَّا الإنسانُ الذي ليس له هَمٌّ إلَّا أن يأتيَ بالأحاديثِ التي بينها تعارضٌ ويقولُ: ما الجمعُ بين كذا وكذا؟ فهذا لا يسهلُ عليه الجمعُ.

وفرقٌ بين مَنْ يأتي بالأحاديثِ لِيُثْبِتَ التَّعارضَ بينها على زعمِه، وشخصٍ يريدُ الجمعَ بين الأحاديثِ، تجدُ الثَّاني يُوَفَّقُ للجمعِ ولا يرى التَّعارضَ، فعليك بهذا، عليك بهذا، واعلم أنَّه إذا صَحَّ الحديثُ عن الرسولِ ﷺ فإنَّه لا يتناقضُ، وكذلك أيضًا لا يناقضُ كلامَ الله عزَّ وجلَّ، ولا تناقضَ في كلامِ الله أيضًا، عَوِّد نفسَك هذا المسلكَ حتَّى تسلمَ من شُبهاتٍ كثيرةٍ تَرِدُ على بعضِ النَّاسِ.

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٢/ ٦٧).

فصــل

في طُولِ قَامَاتِ أَهْلِ الجَنَّةِ وَعَرْضِهِمْ

٥٠٢٦- وَالطُّـولُ طُـولُ أَبِـيهِمُ سِـتُّونَ لَـ ـكِنْ عَرْضُهُمْ سَـبْعٌ بِـلا نُقْصَـانِ

٥٠٢٧- الطُّولُ صَحَّ بِغَيْرِ شَكٍّ في «الصَّحِيـ ـحَيْنِ» اللَّـذَيْنِ هُمَـا لَنَـا شَمْسَـانِ

٥٠٢٨- وَالعَرْضُ لَـمْ نَعْرِفْـهُ فِي إِحْـدَاهُمَا لَكِـــنْ رَوَاهُ أَحْمَــدُ الشَّـــيْبَانِي

٥٠٢٩- هَذَا وَلا يَخْفَـى التَّنَاسُـبُ بَـيْنَ هَـ ـذَا العَرْضِ وَالطُّولِ البَدِيعِ الشَّانِ

٥٠٣٠- كُـــلٌّ عَــلَى مِقْـدَارِ صَــاحِبِهِ وَذَا تَقْــدِيرُ مُــتْقِنِ صَــنْعَةِ الإِنْسَــانِ

الشـرحُ

٥٠٢٦- وَالطُّـولُ طُـولُ أَبِـيهِمُ سِـتُّونَ لَـ ـكِنْ عَرْضُهُمْ سَـبْعٌ بِـلا نُقْصَـانِ

ذكر المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- هنا طولَ أهلِ الجنَّةِ وعرضَهم فقال: الطُّولُ: ستُّون ذراعًا في السَّماءِ، والعَرْضُ: سبعةُ أذرعٍ، حتَّى مَنْ مَاتَ صغيرَ الجِسمِ فإنَّه يبلغُ هذا، وحتَّى مَنْ مَاتَ كبيرَ الجسمِ بالنِّسبةِ لما نشاهدُ يبلغُ هذا أيضًا؛ لأنَّ اللهَ يُنْشِئُهم نشأةً أخرى تُنَاسِبُ الأحوالَ.

٥٠٢٧- الطُّولُ صَحَّ بِغَيْرِ شَكٍّ في «الصَّحِيـ ـحَيْنِ» اللَّـذَيْنِ هُمَـا لَنَـا شَمْسَـانِ

٥٠٢٨- وَالعَرْضُ لَـمْ نَعْرِفْـهُ فِي إِحْـدَاهُمَا لَكِـــنْ رَوَاهُ أَحْمَــدُ الشَّـــيْبَانِي

٥٠٢٩- هَذَا وَلا يَخْفَى التَّنَاسُبُ بَيْنَ هَـ ـذَا العَرْضِ وَالطُّولِ البَدِيعِ الشَّانِ

٥٠٣٠- كُلٌّ عَلَى مِقْدَارِ صَاحِبِهِ وَذَا تَقْدِيرُ مُتْقِنِ صَنْعَةِ الإِنْسَانِ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ السِّتِّين في الطُّولِ ثابتةٌ في الصَّحِيحَيْنِ[1]، وأمَّا العَرْضُ فليس في الصَّحيحَيْنِ ولا في أحدِهما، لكن رواه الإمامُ أحمدُ[2] رحمه اللهُ، وذكر المؤلِّفُ تقويةً لهذا الحديثِ أنَّ السَّبعةَ في العَرْضِ تُنَاسِبُ الطُّولَ؛ لأنَّ الطُّولَ ستِّين ذراعًا لو كان على حسَبِ العرضِ الذي نعرفُه الآن لم يتناسبْ، لكنَّه يتناسبُ مع العَرْضِ «سبعة أذرعٍ».

لكن كم تكونُ نسبةُ السَّبعةِ إلى السِّتِّين؟

الجوابُ: تكونُ العُشْرَ وسُدُسَ العُشْرِ، وهذا متناسبٌ مع الطُّولِ، وهذه نعمةٌ عظيمةٌ.

فإذا قال قائلٌ: هل هذا التَّناسبُ محمودٌ أو لا؟

فالجوابُ: نعم، مألوفٌ ومحمودٌ، نحن الآن بهذه الأجسادِ، أرأيتم لو جعلنا اللهُ تعالى في طولِ الأرنبِ مثلًا هل نستنكرُ هذا أم لا؟ الجوابُ: لا نستنكرُ؛ لأنَّ النَّاسَ كُلَّهم على هذا الطُّولِ، ولو كان الواحدُ منَّا طولَ البعيرِ مرَّتين لا نستنكرُ هذا أيضًا؛ لأنَّنا جميعًا على حدٍّ سواء، فأهلُ الجنَّةِ لا يستنكرُ بعضُهم على بعضٍ؛ لأنَّهم جميعًا على حَدٍّ سواءٍ، بينما لو وجدنا أحدًا طويلًا ولو نصفَ هذا الطُّولِ لاستغرَبْنا هذا كثيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم (٣١٤٨)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام، رقم (٢٨٤١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١، رقم ٧١٦٥).

فإذا قال قائلٌ: ما الحكمةُ في أنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- يجعلُ أهلَ الجنَّةِ بهذا؟

قلنا: الحكمةُ من أجلِ أنْ يتنعَّموا أكثرَ بالمآكلِ والمشاربِ؛ لأنَّه من المعروفِ في الدُّنيا أنَّ الصِّغارَ لا يأكلون أكلَ الكبارِ، فإذا كبر الجسمُ امتلأ أكثرَ، وتعرفون أنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكلون، وكُلُّ أكلِهم وشربِهم يذهبُ رشحًا «**عرقًا**» كريحِ المسكِ، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم.

***

فصــل

في لِحَاهُمْ وَأَلْوَانِهِمْ

٥٠٣١- أَلْوَانُهُمْ بِيضٌ وَلَيْسَ لَــهُمْ لِــحًى جَعْدُ الشُّعُورِ مُكَحَّلُو الأَجْفَانِ

٥٠٣٢- هَـذَا كَمَالُ الحُسْــنِ في أَبْشَارِهِمْ وَشُــعُورُهُمْ وَكَـذَلِكَ العَيْنَانِ

الشــرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ في لِحَاهُمْ وَأَلْوَانِهِمْ»، وفي نسخةٍ: «فَصْلٌ في حُلَاهُمْ وَأَلْوَانِهِمْ»، والظَّاهرُ أنَّ الصَّوابَ النُّسخةُ الأولى «لِحَاهُمْ»؛ لأنَّه لم يذكر الـحُلَى، إلَّا إن كان من ذِكْرِه الكحلَ، وهذا اختلافٌ بسيطٌ.

قَوْلُهُ: «أَلْوَانُهُمْ بِيْضٌ وَلَيْسَ لَـهُمْ لِـحًى»؛ يعني: ليس لهم شعرٌ في لحاهم.

قَوْلُهُ: «جُعْدُ الشُّعُورِ»؛ يعني: شعورَ الرَّأسِ، والجعدُ ضدُّه المسترسلُ.

والجعدُ محمودٌ عند الناسِ؛ لأنَّه يدلُّ على قوَّةِ الشَّعرِ، وأمَّا الأجفانُ فهي مكحولةٌ؛ يعني: من أحسنِ ما يكونُ.

***

فصــل

في لِسَانِ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥٠٣٣- وَلَقَـدْ أَتَـى أَثَـرٌ بِـأَنَّ لِسَـانَهُمْ ... بِالـمَنْطِقِ العَـرَبِيِّ خَـيْرِ لِسَـانِ

٥٠٣٤- لَكِــنَّ فِي إِسْـنَادِهِ نَظَـرًا فَفِيــ ... ـهِ رَاوِيَـانِ وَمَـا هُمَـا ثَبْتَـانِ

٥٠٣٥- أَعْنِي العَلاءَ هُوَ ابْنُ عَمْرٍو ثُمَّ يَحْـ ... ـيَى الأَشْـعَرِيَّ وَذَانِ مَغْمُـوزَانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ لِسَانَهُمْ بِالـمَنْطِقِ العَرَبِيِّ... لَكِنَّ فِي إِسْنَادِهِ نَظَرًا» ولا يبعدُ أن يكونَ الحديثُ من حيث النَّظرُ صوابًا، وبذلك يكونُ لسانُهم هو اللِّسانَ العربيَّ؛ وذلك لأنَّ أفضلَ الكتبِ باللغةِ العربيَّةِ، ولأنَّ أتباعَ النَّبيِّ ﷺ أكثرُ أهلِ الجنَّةِ، وإن كان في أتباعِ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مَنْ ليس بعربيٍّ، لكن الواجبُ على غيرِ العربيِّ من أتباعِ النَّبِيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أن يعرفَ العربيَّةَ؛ لأنَّه لابُدَّ أن يعرفَ معنى القرآنِ والسُّنَّةِ، وهذا لا يتأتَّى إلَّا بمعرفةِ اللُّغةِ العربيَّةِ.

وعلى كُلِّ حالٍ: أمورُ الغيبِ لا يمكنُ أن تُقَالَ بالنَّظرِ والقياسِ.

قَوْلُهُ: «مَغْمُوزَانِ»؛ أي: مَعِيبان عند علماءِ الحديثِ.

***

فصــل

في ريحِ أهْلِ الجنَّةِ مِنْ مَسِيرَةِ كَمْ يُوجَدُ

٥٠٣٦- وَالرِّيحُ تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِيـ ـنَ وَإِنْ تَشَـأْ مِئَـةً فَمَرْوِيَّـانِ

٥٠٣٧- وَكَذَا رَوَى سَبْعِينَ أَيْضًا صَحَّ هَـ ـذَا كُلُّـهُ وَأَتَـى بِـهِ أَثَـرَانِ

٥٠٣٨- مَـا فِي رِجَالِـهِمَا لَنَـا مِـنْ مَطْعَـنٍ وَالـجَمْعُ بَيْنَ الكُـلِّ ذُو إِمْكَـانِ

٥٠٣٩- وَلَقَـدْ أَتَـى تَقْـدِيرُهُ مِئَـةً بِخَمْـ ـسٍ ضَرْبُهَا مِنْ غَيْرِ مَا نُقْصَـانِ

٥٠٤٠- إِنْ صَحَّ هَـذَا فَهْـوَ أَيْضًـا وَالَّـذِي مِـنْ قَبْلِـهِ فِي غَايَـةِ الإِمْكَـانِ

٥٠٤١- إِمَّـا بِحَسْـبِ الـمُدْرِكِينَ لِرِيحِهَـا قُرْبًـا وَبُعْـدًا مَـا هُمَـا سِيَّانِ

٥٠٤٢- أَوْ بِـاخْتِلافِ قَرَارِهَـا وَعُلُوِّهَـا أَيْضًـا وَذَلِـكَ وَاضِـحُ التِّبْيَـانِ

٥٠٤٣- أَوْ بِاخْتِلافِ السَّيْرِ أَيْضًا فَهْـوَ أَنْـ ـوَاعٌ بِقَـدْرِ إِطَاقَـةِ الإِنْسَـانِ

٥٠٤٤- مَـا بَيْنَ أَلْفَـاظِ الرَّسُـولِ تَنَـاقُضٌ بَـلْ ذَاكَ فِي الأَفْهَـامِ وَالأَذْهَـانِ

الشرحُ

ذَكَرَ -رحمه اللهُ- أنَّ ريحَ الجنَّةِ يُوجَدُ من مسيرةِ أربعين[1] عامًا، وفي أثرٍ ثانٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب إِثْمِ مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا بِغَيْرِ جُرْمٍ، رقم (٢٩٩٥).

من مسيرةِ سبعين[١] عامًا، وفي أثرٍ ثالثٍ من مسيرةِ مئةِ[٢] عامٍ، وفي أثرٍ رابعٍ من مسيرةِ خمسِمئةِ[٣] عامٍ، وإذا نَظَرْتَ الفرقَ بين أربعين عامًا وخمسِمئة عامٍ وَجَدْتَهُ شاسعًا، لكن الخمسمئة غَمَزَهُ ابنُ القيِّمِ رحمه الله، فيبقى النَّظرُ بين الأربعين والسَّبعين والمئة، يقولُ رحمه اللهُ: ليس فيها تناقضٌ، وحمل ذلك على أوجهٍ ثلاثةٍ:

الأوَّل: «**إِمَّا بِحَسْبِ المُدْرِكِينَ لِرِيحِهَا**»؛ أي: باختلافِ المُدْرِكِينَ لريحِها؛ لأنَّ النَّاسَ يختلفون في إدراكِ الرِّيحِ، فتجدُ بعضَ النَّاسِ يمشي من عند البيتِ، ويقولُ: أهلُ هذا البيتِ يطبخون كذا وكذا، وهذا واقعٌ، والثَّاني: يجعلُ أنفَه في كُوَّةِ البابِ ولا يشمُّ، وهذا فرقٌ، فيكونُ التَّقديرُ الأكثرُ بالنِّسبة لِـمَنْ شمُّه ضعيفٌ، والتَّقديرُ الأدنى بالنِّسبة لِـمَنْ شمُّه قويٌّ.

الثَّاني: «**أَوْ بِاخْتِلَافِ قَرَارِهَا وَعُلُوِّهَا أَيْضًا**» باختلافِ قَرارِها وعلوِّها، ومعلومٌ أنَّ الجنَّةَ درجاتٌ، وإذا كانت درجاتٍ فلابُدَّ أن تختلفَ في الرَّائحةِ، وكُلَّما كانت الرَّائحةُ أطيبَ كان شَمُّها من بعيدٍ أقربَ، فهذا إنسانٌ مثلًا مُتَطَيِّبٌ بطيبٍ باردٍ، وآخرُ متطيِّبٌ بطيبٍ حارٍّ، المتطيِّبُ بطيبٍ حارٍّ يُشَمُّ من بعيدٍ، والثَّاني لا يُشَمُّ إلَّا من قريبٍ.

الثَّالث: «**أَوْ بِاخْتِلَافِ السَّيْرِ**» السَّيرُ يختلفُ أيضًا، رُبَّ مسيرةِ مئةِ عامٍ تكونُ لشخصٍ آخرَ سبعين عامًا، أو أربعين عامًا، فالسَّيرُ يختلفُ.

والآن نحن نشاهدُ هذا؛ فالطَّائرةُ من القصيمِ إلى جدَّةَ تبلغُها في ساعةٍ تقريبًا،

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الديات، باب ما جاء فيمن يقتل نفسًا معاهدة، رقم (١٤٠٣)، والنسائي: كتاب القسامة، باب تعظيم قتل المعاهد، رقم (٤٧٤٩)، وابن ماجه: كتاب الديات، باب من قتل معاهدا، رقم (٢٦٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٧١، رقم ١١٦٩٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب الحدود، باب من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه، رقم (٢٦١١).

بينما هي على الرَّواحلِ أكثر من عشرين يومًا، وإذا ضَرَبْتَ عشرين يومًا في أربعةٍ وعشرين ساعةً تبلغُ أربعَمئةٍ وثمانين، فالآن ساعةٌ تقابلُ خمسَمئةِ ساعةٍ إلَّا عشرين، هذا اختلافُ السَّيرِ، وهذا على كُلِّ حالٍ أضعفُها.

وهذه الوجوهُ الثَّلاثةُ التي ذكرها ابنُ القيِّمِ كُلُّها محتملةٌ.

ومثلُ ذلك أيضًا: سفرُ المرأةِ بلا محْرَمٍ حيث جاء مُقيَّدًا بثلاثةِ أيَّامٍ[1]، ومُقيَّدًا بيومٍ وليلةٍ[2]، وجاء مطلقًا[3]، كيف الجمعُ؟ نقولُ: الجمعُ أنَّه خاطَبَ مَنْ يقولُ: هل تسافرُ المرأةُ يومًا وليلةً بلا محْرَمٍ؟ فقال: لا تُسَافِر المرأةُ يومًا وليلةً بلا محْرَمٍ، وسأله آخرُ: هل تسافرُ ثلاثةَ أيَّامٍ بلا محْرَمٍ؟ فقال: لا تسافرْ ثلاثةَ أيَّامٍ بلا محْرَمٍ، ثُمَّ جاء القولُ المُطْلَقُ الذي ليس مَبْنيًّا على سؤالٍ حين خَطَبَ النَّاسَ يومَ الجمعةِ في المدينةِ قُبيْلَ الحجِّ، فقال: «لَا تُسَافِرْ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ»[4]، وأَطْلَق.

وأهمُّ شيءٍ أن نعلمَ أنَّه لا تناقضَ بين أقوالِ الرَّسولِ ﷺ، وإنَّما التَّناقضُ الذي يُظَنُّ يكونُ بحسَبِ الأَفْهَامِ؛ إذ يكونُ فَهْمُ بعضِ النَّاسِ ضعيفًا فَيظُنُّ التَّناقضَ، وليس كذلك.

وإذا كان الإنسانُ يريدُ الوصولَ إلى الحقِّ يَسَّرَ اللهُ له الوصولَ إليه، أمَّا الذي يريدُ أن يُوقِعَ التَّعارضَ بين النُّصوصِ، أو يريدُ التَّشكيكَ فيها سواء عن قصدٍ أم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تقصير الصلاة، باب: في كم يقصر الصلاة، رقم (١٠٣٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، رقم (١٣٣٨).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في كراهية أن تسافر المرأة وحدها، رقم (١١٧٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب حج النساء، رقم (١٧٦٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، رقم (١٣٤١).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب حج النساء، رقم (١٧٦٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، رقم (١٣٤١).

عن غيرِ قصدٍ، فهذا يصعبُ عليه أن يجمعَ.

المهمُّ أنَّه يجبُ أن نحاولَ الجمعَ بين النُّصوصِ الواردةِ بقدرِ الإمكانِ؛ لأنَّا نعلمُ أنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لا ينطقُ عن الهوى.

فعليك بهذا الأصلِ، واعلم أنَّه لا تناقضَ، وحاول الجمعَ بقدرِ الإمكانِ حتَّى تَسْلَمَ من الشُّبهاتِ والشُّكوكِ، وإيَّاك أن تُطْلِعَ أحدًا على شكِّك إذا لم تعرف الحلَّ، وهذه مسألةٌ يفعلُها بعضُ النَّاسِ؛ يأتي إلى طالبٍ مثلِه لا يَتَخَرَّجُ من الإشكالاتِ، فَيَعْرِضُ عليه الإشكالَ، معنى ذلك أنَّه زَادَ الطِّينَ بِلَّةً؛ لأنَّه شَكَّ وأَوْصَلَ الشَّكَّ إلى غيرِه، ثُمَّ الثَّاني يقولُ: والله فلانٌ سألني يريدُ الجمعَ بين النُّصوصِ بين كذا وكذا، فيزيد، وهَلُمَّ جرًّا، فإذا كَنتَ لا تعرفُ كيف تتخلَّصُ من الغَرَقِ لا تُغْرِقْ غيرَك، بل اتركها في نفسِك حتَّى يُقَيِّضَ اللهُ لك إمَّا فهمًا تصلُ إلى المرادِ، وإمَّا أن تسألَ عالمًا، وإمَّا أن تُطالعَ كتبَ أهلِ العلمِ، وهذه أيضًا افهموها، فهذه تنفعُ الطَّالبَ، فلا تُوقِع إخوانَك في الشَّكِّ إذا شَكَكْتَ في الأمرِ؛ لأنَّك تُوصِلُ الشَّكَّ إلى واحدٍ وثانٍ وثالثٍ، وهذه المسألةُ ليست هيِّنةً، بل هي مسألةٌ خطيرةٌ، وإذا وَقَعَ في القلبِ هذا المنهجُ فهو على خطرٍ عظيمٍ، ورُبَّما يصلُ إلى أن يُنْكِرَ الأشياءَ الواضحةَ.

وهذا الكلامُ ليس على الشُّبهاتِ التي توضيحُها مُبَيَّنٌ، وكذلك مثلًا: «**تأويل الحديث**»؛ لابن قتيبةَ وغيرِه، فهذا مذكورٌ فيه الحلُّ، بل كلامُنا هذا على واحدٍ وَقَعَ الشَّكُّ في قلبِه ولم يعرف الحلَّ، أمَّا إذا وَقَعَ الشَّكُّ في قلبِه وعرف حلَّه عن طريقِ العلماءِ أو عن طريقِ الكتبِ وهو يخشى أنَّ كثيرًا من النَّاسِ مثلُه، فهذا لا بأسَ أن يَعْرِضَه ويُبَيِّنَ الحَلَّ.

فصــل

في أَسْبَقِ النَّاسِ دُخُولاً إِلَى الجَنَّةِ

٥٠٤٥- وَنَظِيرُ هَذَا سَبْقُ أَهْلِ الفَقْرِ لِلْـ ـــجَنَّاتِ فِي تَقْـدِيرِهِ أَثَـرَانِ

٥٠٤٦- مِئَـةٌ بِخَمْـسٍ ضَرْبُهَـا أَوْ أَرْبَعِيـ ـــنَ كِلاهُمَـا فِي ذَاكَ مَحْفُوظَـانِ

٥٠٤٧- فَـأَبُو هُرَيْـرَةَ قَـدْ رَوَى أُولاهُمَـا وَرَوَى لَنَـا الثَّـانِي صَـحَابِيَّانِ

٥٠٤٨- هَذَا بِحَسْبِ تَفَاوُتِ الفُقَرَاءِ فِي اسْـ ـــتِحْقَاقِ سَبْقِهِمُ إِلَى الإِحْسَـانِ

٥٠٤٩- أَوْ ذَا بِحَسْـبِ تَفَـاوُتٍ فِي الأَغْنِيَـا ءِ كِلاهُمَـا لا شَـكَّ مَوْجُـودَانِ

الشـرحُ

ذكر المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أيضًا أنَّ أَوَّلَ النَّاسِ دُخولًا الجنَّةَ الفقراءُ قبل الأغنياءِ إمَّا بخمسِمئةِ عامٍ[1]، وإمَّا بأربعين[2] عامًا، وهذا أيضًا من جنسِ خِلافِ ما سبق في رائحةِ الجنَّةِ، والفرقُ كبيرٌ جدًّا، فكيف الجمعُ؟

ذَكَرَ -رحمه اللهُ- الجمعَ من أحد وجهين: إمَّا بحسبِ الفقراءِ وأنَّ بعضَهم أشدُّ من الآخرِ، فيُنْظَرُ إلى أشدِّهم فقرًا بالنِّسبةِ إلى الأغنياءِ، ويكونُ ما بعد

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، رقم (٢٣٥٣) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب منزلة الفقراء، رقم (٤١٢٢).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى: كتاب العلم، باب إجلال السائل المسئول، رقم (٥٨٤٥).

الخمسِمئةِ حسَب الفقرِ، أو بالعكس؛ يعني: أنَّ الفقراءَ يسبقون الأغنياءَ، وأنَّ الأغنياءَ يختلفون، فبعضُ الأغنياءِ قريبٌ من الفقراءِ، فتكونُ المسافةُ قصيرة؛ أربعين، وبعضُهم بعيدٌ فتكون المسافةُ خمسَمئةٍ.

وهذا ليس فيه هضمٌ لحقوقِ الأغنياءِ مِثْلَما أنَّهم في الدَّرجاتِ يختلفون اختلافًا عظيمًا، ومع ذلك لا يَرَى أحدُهم أنَّ غيرَه أفضلُ منه، وهذا أيضًا لا يقتضي أنَّ الفقراءَ أفضلُ من الأغنياءِ؛ لأنَّ سبقَهم لدخولِ الجنَّةِ بسببِ ما حُرِمُوا من النَّعيمِ في الدُّنيا، فإنَّهم ذاقوا البُؤسَ والتَّعبَ والجوعَ والعطشَ، والغالبُ أنَّ الفقراءَ أقربُ إلى الإيمانِ من الأغنياءِ، وقد يكونُ أقلَّ منزلةٍ من الغنيِّ؛ فقد يكونُ الغنيُّ إذا دَخَلَ فوقه بمراحلَ.

المهمُّ: أنَّ هذا الاختلافَ إمَّا بحسَبِ تفاوتِ الفقراءِ أو بحسَبِ تفاوتِ في الأغنياءِ، وهذا بعد أنْ يصحَّ الحديثان وتكونَ مرتبتُهما واحدةً، وإلَّا فيُقَدَّمُ ما هو أرجحُ؛ لأنَّ المعروفَ أنَّه إذا تَعَذَّرَ الجمعُ رجعنا إلى التَّرجيحِ، وإذا أمكن فلا حاجةَ.

***

٥٠٥٠- هَذَا وَأَوَّلُـهُمْ دُخُولًا خَيْرُ خَلْـ ـقِ الله مَـنْ قَـدْ خُـصَّ بِـالقُرْآنِ

٥٠٥١- وَالأَنْبِيَاءُ عَـلَى مَـرَاتِبِهِمْ مِـنَ التَّـ ـفْضِيلِ تِلْـكَ مَوَاهِـبُ الـمَنَّانِ

٥٠٥٢- هَـذَا وَأُمَّـةُ أَحْمَـدٍ سَـبَّاقُ بَـا قِي الـخَلْقِ عِنْدَ دُخُولِـهِمْ لِـجِنَانِ

٥٠٥٣- وَأَحَقُّهُمْ بِالسَّبْقِ أَسْبَقُهُمْ إِلَى الْـ إِسْـلامِ وَالإِيـمَانِ بِـالقُرْآنِ

٥٠٥٤- وَلِذَا أَبُو بَكْرٍ هُـوَ الصِّـدِّيقُ أَسْـ ـبَقُهُمْ دُخُـولًا قَـوْلُ ذِي البُرْهَـانِ

٥٠٥٥- وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ أَنَّ أَوَّلَــهُمْ يُصَـا فِحُـهُ إِلَـهُ العَـرْشِ ذُو الإِحْسَـانِ

٥٠٥٦- وَيَكُونُ أَوَّلَـهُمْ دُخُـولًا جَنَّـةَ الْـ ـفِرْدَوْسِ ذَلِـكَ قَـامِعُ الكُفْـرَانِ

٥٠٥٧- فَـارُوقُ دِيـنِ اللهِ نَـاصِرُ قَوْلِـهِ وَرَسُــولِهِ وَشَرَائِــعِ الإِيــمَانِ

٥٠٥٨- لَكِنَّـهُ أَثَـرٌ ضَـعِيفٌ فِيـهِ مُجْــ ـرُوحٌ يُسَـمَّى خَالِـدًا بِبَيَـانِ

٥٠٥٩- لَوْ صَحَّ كَانَ عُمُومُهُ المَخْصُوصُ بِالصْـ ـصِدِيقِ قَطْعًـا غَـيْرَ ذِي نُكْـرَانِ

الشـرحُ

٥٠٥٠- هَذَا وَأَوَّلُـهُمْ دُخُـولًا خَـيْرُ خَلْـ ـقِ اللهِ مَـنْ قَـدْ خُـصَّ بِـالقُرْآنِ

٥٠٥١- وَالأَنْبِيَاءُ عَـلَى مَـرَاتِبِهِمْ مِـنَ التْـ ـتَفْضِيلِ تِلْـكَ مَوَاهِـبُ الـمَنَّانِ

٥٠٥٢- هَــذَا وَأُمَّــةُ أَحْمَــدٍ سَــبَّاقُ بَــا قِي الـخَلْقِ عِنْدَ دُخُولِـهِمْ لِـجِنَانِ

٥٠٥٣- وَأَحَقُّهُمْ بِالسَّبْقِ أَسْبَقُهُمْ إِلَى الْـ إِسْـــلامِ وَالإِيـــمَانِ بِـــالقُرْآنِ

٥٠٥٤- وَلِذَا أَبُو بَكْـرٍ هُـوَ الصِّـدِّيقُ أَسْـ ـبَقُهُمْ دُخُـولًا قَـوْلُ ذِي البُرْهَـانِ

قَوْلُهُ: «أَوَّلُـهُمْ دُخُولًا خَيْرُ خَلْقِ اللهِ»؛ أي: محمَّدٌ رسولُ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «أَحَقُّهُمْ بِالسَّبْقِ أَسْبَقُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ»، وهذا يحتاجُ إلى دليلٍ، لو قال: «أَسْبَقُهُمْ في الإِسْلَامِ» فلا بأسَ؛ فمثلًا: عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو أفضلُ هذه الأُمَّةِ بعد أبي بكرٍ، ومع ذلك ليس أسبقَهم إلى الإسلامِ، فإن وُجِدَ دليلٌ في هذه المسألةِ بخصوصِها فعلينا اتِّباعُ الدَّليلِ، وإلَّا فينبغي أن يُقَالَ: «أَسْبَقُهُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ أَفْضَلُهُمْ».

قَوْلُهُ: «أَبُو بَكْرٍ هُوَ الصِّدِّيقُ أَسْبَقُهُمْ دُخُولًا»؛ يعني: أنَّ أوَّلَ النَّاسِ دخولًا من هذه الأُمَّةِ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥٠٥٥- وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ أَنَّ أَوَّلَهُمْ يُصَا فِحُهُ إِلَهُ العَرْشِ ذُو الإِحْسَانِ

٥٠٥٦- وَيَكُونُ أَوَّلَهُمْ دُخُولًا جَنَّةَ الْـ ـفِرْدَوْسِ ذَلِكَ قَامِعُ الكُفْرَانِ

٥٠٥٧- فَارُوقُ دِينِ الله نَاصِرُ قَوْلِهِ وَرَسُولِهِ وَشَرَائِعِ الإِيمَانِ

٥٠٥٨- لَكِنَّهُ أَثَرٌ ضَعِيفٌ فِيهِ مَجْـ ـرُوحٌ يُسَمَّى خَالِدًا بِبَيَانِ

٥٠٥٩- لَوْ صَحَّ كَانَ عُمُومُهُ المَخْصُوصُ بِالصْـ ـصِدِيقِ قَطْعًا غَيْرَ ذِي نُكْرَانِ

يعني: لو صَحَّ أنَّ أَوَّلَ مَنْ يدخلُ الفردوسَ عمرُ[1] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لو صحَّ هذا لكنَّه ضعيفٌ، كما ذكر عن الرَّجلِ المُسَمَّى خالدًا فهو ضعيفٌ، لكن لو صَحَّ فهو مخصوصٌ بأبي بكرٍ الصِّدِّيقِ؛ لأنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسبقُ إلى الإسلامِ وأفضلُ من عمرَ بلا شكٍّ، وأصبرُ من عمرَ عند الشَّدائدِ، وأنتم تعرفون قصَّةَ الحُديبية وما فيها من شِدَّةٍ على المسلمين مَن الذي صَبَرَ عليها؟

الجوابُ: أبو بكرٍ أصبرُ من عمرَ، عمرُ كان ينازعُ الرَّسولَ عليه الصَّلَاةُ والسَّلامُ، يقولُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا

(١) يعني حديث أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ مَنْ يُصَافِحُهُ الْحَقُّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِهِ فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ». أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٨٠، رقم ١٢٤٥).

نَأْتِيهِ العَامَ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ»(١).

المهمُّ: أنَّه لم يصبر، وأبو بكرٍ صَبَرَ، وكان جوابُه جوابَ النَّبِيِّ ﷺ سواءً بسواءٍ، وعند موتِ الرَّسولِ ﷺ مَنْ صَبَرَ؟ الجوابُ: أبو بكرٍ، أمَّا عمرُ فقام خطيبًا في النَّاسِ، وقال: «وَاللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ... وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ»(٢)، وعند تنفيذِ جيشِ أسامةَ صَبَرَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَنفَّذَ الجيشَ مع أنَّ أهلَ المدينةِ محتاجون له، وعند قتالِ أهلِ الرِّدَّةِ صَبَرَ أبو بكرٍ.

من هذه المقاماتِ الضَّنكةِ الشَّديدةِ يتبيَّنُ فضلُ أبي بكرٍ على عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وكلاهما ذو فضلٍ.

المهمُّ: أنَّه إذا صَحَّ الحديثُ فلا شكَّ أنَّه مخصوصٌ بحديثِ أبي بكرٍ؛ يعني: أوَّلهم بعد أبي بكرٍ، وإذا كان عمرُ أوَّلَهم بعد أبي بكرٍ فالأمرُ واضحٌ؛ لأنَّ أفضلَ هذه الأُمَّةِ بعد أبي بكرٍ عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

***

٥٠٦٠- هَـذَا وَأَوَّلُـهُمْ دُخُـولًا فَهْـوَ حَمْـ ـــادُ عَـلَى الحَـالاتِ لِلـرَّحْمَنِ

٥٠٦١- إِنْ كَانَ فِي السَّرَّاءِ أَصْبَحَ حَامِدًا أَوْ كَـانَ فِي الضَّـرَّا فَحَمْـدٌ ثَـانِي

٥٠٦٢- هَـذَا الَّـذِي هُـوَ عَـارِفٌ بِإِلَـهِهِ وَصِـفَاتِهِ وَكَمَالِـهِ الرَّبَّـانِي

٥٠٦٣- وَكَـذَا الشَّـهِيدُ فَسَـبْقُهُ مُتَـيَقَّنٌ وَهُـوَ الـجَدِيرُ بِـذَلِكَ الإِحْسَـانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٥٨١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا»، رقم (٣٤٦٧).

٥٠٦٤- وَكَذَلِكَ الْـمَمْلُوكُ حِينَ يَقُومُ بِالْـ ـــحَقَّيْنِ سَـبَّاقٌ بِغَـيْرِ تَـوَانِ

٥٠٦٥- وَكَـذَا فَقِـيرٌ ذُو عِيَـالٍ لَـيْسَ بِالْـ ـــمِلْحَاحِ بَـلْ ذُو عِفَّـةٍ وَصِـيَانِ

الشـرحُ

كُلُّ هذه الأشياءِ التي ذَكَرَهَا المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- هي أَوَّلِيَّاتٌ نسبيَّةٌ؛ لأَنَّنا لو لم نقل بذلك لكانت الأحاديثُ متعارضةً، فيُقَالُ: هو أَوَّلُ بالنِّسبة لهذا الصِّنفِ، مثلًا: فقيرٌ ذو عيالٍ، نقولُ: هو أَوَّلُ الفقراءِ[1]، كذلك العبدُ المملوكُ الذي قام بحقِّ الله وحقِّ سيِّدِه هو أَوَّلُ المماليكِ[2]... وهكذا نجعلُ الأَوَّليَّةَ نسبيَّةً حتَّى لا يحصلَ التَّعارضُ بين هذه الآثارِ.

***

(١) يعني حديث: «عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْـجَنَّةَ، وَأَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ، فَأَمَّا أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ الْـجَنَّةَ: فَالشَّهِيدُ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَنَصَحَ لِسَيِّدِهِ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، وَأَمَّا أَوَّلُ ثَلَاثَةٍ يَدْخُلُونَ النَّارَ: فَأَمِيرٌ مُسَلَّطٌ، وَذُو ثَرْوَةٍ مِنْ مَالٍ لَا يُعْطِي حَقَّ مَالِهِ، وَفَقِيرٌ فَخُورٌ». أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٥، رقم ٩٤٨٨) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٦٨، رقم ٣٥٩٦٩) ، والحاكم (١/ ٥٤٤، رقم ١٤٢٩) ، والبيهقي (٤/ ٨٢، رقم ٧٠١٩) .

(٢) تقدم تخريجه، وهو الحديث السابق نفسُه.

فصــل

في عددِ الجنَّاتِ، وأجْناسِها

٥٠٦٦- وَالـجَنَّةُ اسْمُ الجِنْسِ وَهْيَ كَثِيرَةٌ ... جِـدًّا وَلَكِـنْ أَصْلُهَا نَوْعَـانِ

٥٠٦٧- ذَهَبِيَّتَـانِ بِكُـلِّ مَـا حَوَتَـاهُ مِـنْ ... حُـلِي وَآنِيَـةٍ وَمِـنْ بُنْيَـانِ

٥٠٦٨- وَكَـذَاكَ أَيْضًـا فِضَّـةٌ ثِنْتَـانِ مِـنْ ... حُـلِي وَبُنْيَـانٍ وَكُـلِّ أَوَانِي

٥٠٦٩- لَكِنَّ دَارَ الـخُلْدِ وَالـمَأْوَى وَعَـدْ ... نٍ وَالسَّـلامِ إِضَـافَةٌ لِـمَعَانِي

٥٠٧٠- أَوْصَافُهَا اسْتَدْعَتْ إِضَـافَتَهَا إِلَيْـ ... ـهَا مِدْحَـةً مَـعْ غَايَـةِ التِّبْيَـانِ

٥٠٧١- لَكِـنَّمَا الفِـرْدَوْسُ أَعْلاهَـا وَأَوْ ... سَـطُهَا مَسَـاكِنُ صَـفْوَةِ الـرَّحْمَنِ

٥٠٧٢- أَعْلاهُ مَنْزِلَـةً لِأَعْلَـى الـخَلْقِ مَنْـ ... ـزِلَةً هُـوَ الـمَبْعُوثُ بِـالقُرْآنِ

٥٠٧٣- وَهِـيَ الوَسِـيلَةُ وَهْـيَ أَعْـلَى رُتْبَـةٍ ... خَلَصَـتْ لَـهُ فَضْـلًا مِـنَ الـرَّحْمَنِ

الشـرحُ

٥٠٦٦- وَالـجَنَّةُ اسْمُ الجِنْسِ وَهْيَ كَثِيرَةٌ ... جِـدًّا وَلَكِـنْ أَصْلُهَا نَوْعَـانِ

٥٠٦٧- ذَهَبِيَّتَـانِ بِكُـلِّ مَـا حَوَتَـاهُ مِـنْ ... حُـلِي وَآنِيَـةٍ وَمِـنْ بُنْيَـانِ

٥٠٦٨- وَكَـذَاكَ أَيْضًـا فِضَّـةٌ ثِنْتَـانِ مِـنْ ... حُـلِي وَبُنْيَـانٍ وَكُـلِّ أَوَانِي

أصلُ الجنَّةِ ثنتان وثنتان كما في قولِه تعالى في سورةِ «الرَّحمن»: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ

مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن:٤٦]، ثُمَّ قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن:٦٢]، جنَّتان من ذهبٍ آنيتُهما وما فيهما، الأواني والبِناءُ وكُلُّ شيءٍ ذَهَبٌ يتلألأُ، وليس كذهبِ الدُّنيا، والثَّانيتان من فضةٍ آنيتُهما وما فيهما، هذا هو الأصلُ، الأُولَيان للمُقَرَّبين، والأخريان لأصحابِ اليمينِ.

٥٠٦٩- لَكِنَّ دَارَ الخُلْدِ وَالمَأْوَى وَعَدْ ... نِ وَالسَّلامِ إِضَافَةٌ لِمَعَانِي

٥٠٧٠- أَوْصَافُهَا اسْتَدْعَتْ إِضَافَتَهَا إِلَيْـ ... ـهَا مِدْحَةً مَعْ غَايَةِ التِّبْيَانِ

جنَّةُ الخلدِ، وجنَّةُ المأوى، وعَدْنٍ، ودارُ السَّلامِ، هذه أوصافٌ لا أعيانٌ، فلا نقولُ: دارُ الخلدِ واحدةٌ، المأوى واحدةٌ، عَدْنٌ واحدةٌ، السَّلامُ واحدةٌ؛ بل هي أوصافٌ، وقد يكونُ الموصوفُ واحدًا وأوصافُه كثيرةً، فلا تظنَّ أنَّ هذا تعدُّدُ أعيانٍ، ولكنَّه تعدُّدُ أوصافٍ.

إِذَنْ الجنَّةُ لها أسماءٌ متعدِّدةٌ، لكن أصلُها أربعُ.

٥٠٧١- لَكِنَّمَا الفِرْدَوْسُ أَعْلاهَا وَأَوْ ... سَطُهَا مَسَاكِنُ صَفْوَةِ الرَّحْمَنِ

٥٠٧٢- أَعْلاهُ مَنْزِلَةً لِأَعْلَى الخَلْقِ مَنْـ ... ـزِلَةً هُوَ المَبْعُوثُ بِالقُرْآنِ

٥٠٧٣- وَهِيَ الوَسِيلَةُ وَهْيَ أَعْلَى رُتْبَةٍ ... خَلَصَتْ لَهُ فَضْلًا مِنَ الرَّحْمَنِ

أعلى الجِنَانِ الفِرْدَوْسُ، فالفردوسُ أعلى الجنَّاتِ وأوسطُ الجنَّاتِ، وإذا كانت أعلاها وأوسطَها دَلَّ ذلك على أنَّها على الجنَّات مثل القُبَّةِ؛ لأنَّه لا يكملُ الأعلى الأوسط إلَّا إذا كان مُقَوَّسًا، فهي مِثْلُ القُبَّةِ على الجنَّاتِ، منها تُفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ، وفوقها عرشُ الله عزَّ وجلَّ، فهي أعلى ما يكونُ منزلةً، وهي منازلُ صفوةِ عبادِ الله من الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثُمَّ الصِّدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحين على

حسَب مراتبِهم، وفي جنَّة الفردوسِ ما يُسَمَّى بالوسيلةِ، وهذه للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهذه الوسيلةُ «خَلَصَتْ لَهُ»؛ أي: اخْتصَّ بها كما في قولِه تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠]؛ يعني: أنت مختصٌّ بها؛ ولذا قَالَ ﷺ في متابعةِ المؤذِّنِ والدُّعاءِ بعدَه: «ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّها مَنْزِلَةٌ في الجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي -يعني: لا تصلحُ- إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ»[1]، فَخُصَّ بها -صلواتُ الله وسلامُه عليه- فضلًا من الله ومِنَّةً، واللهُ يؤتي فضلَه مَنْ يشاءُ، وكما اختصَّ نبيَّه محمَّدًا ﷺ بخصائصَ عظيمةٍ، لكن هذه الخصائصُ لا تقتضي أن يكونَ له شيءٌ ولو قليلًا من الرُّبوبيَّة أبدًا، فهو نفسُه لا يملكُ لنفسِه نفعًا ولا ضَرًّا، لكن له فضائلُ مَيَّزَه اللهُ بها، وأمَّا خصائصُ الرَّبِّ فلا ينازعُه فيها أحدٌ.

***

٥٠٧٤- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ تَفْـ ـضِيلُ الجِنَانِ مُفَصَّلًا بِبَيَانِ

٥٠٧٥- هِيَ أَرْبَعٌ ثِنْتَانِ فَاضِلَتَانِ ثُمْـ ـمَ يَلِيهِمَا ثِنْتَانِ مَفْضُولَانِ

٥٠٧٦- فَالأُولَيَانِ الفُضْلَيَانِ لِأَوْجُهٍ عَشْرٍ وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا بِوِزَانِ

٥٠٧٧- وَإِذَا تَأَمَّلْتَ السِّيَاقَ وَجَدْتَهَا فِيهِ تَلُوحُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

الشرحُ

٥٠٧٤- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ تَفْـ ـضِيلُ الجِنَانِ مُفَصَّلًا بِبَيَانِ

قَوْلُهُ: «تَفْضِيلُ الجِنَانِ مُفَصَّلًا»، ويجوزُ «تَفْصِيلُ الجِنَانِ مُفَصَّلًا»، لكن الأوَّلُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل له الوسيلة، رقم (٣٨٤).

أحسنُ؛ لأجل أن نحصلَ على معنيين:

أحدهما: التَّفضيلُ، والثَّاني: التَّفصيلُ.

٥٠٧٥- هِيَ أَرْبَعٌ ثِنْتَانِ فَاضِلَتَانِ ثُمْ مَ يَلِيهِمَا ثِنْتَانِ مَفْضُولانِ

ودليلُ هذا واضحٌ؛ وهو قولُه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن:٤٦]، ثُمَّ ذَكَرَ ما فيهما، ثُمَّ قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن:٦٢].

٥٠٧٦- فَالأُولَيَانِ الفُضْلَيَانِ لِأَوْجُهٍ عَشْرٍ وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا بِوِزَانِ

قَوْلُهُ: «وَيَعْسُرُ نَظْمُهَا بِوِزَانِ»، ولَيْتَهُ لم يعسر.

٥٠٧٧- وَإِذَا تَأَمَّلْتَ السِّيَاقَ وَجَدْتَهَا فِيهِ تَلُوحُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ

ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- ذَكَرَ أنَّ المفاضلةَ بين الجنَّتين من عشرةِ أوجهٍ تدلُّ على أنَّ الأُولَيَيْنِ أفضلُ من الأُخريَيْنِ، وذكر أنَّه يعسرُ نظمُها، ولَيْتَهُ لم يعسر، ثُمَّ قال: إنَّها تلوحُ في سياقِ الكلامِ.

من ذلك أنَّه تعالى قال في اللَّتَيْنِ بعدهما: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرَّحمن:٦٨] مقابل: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرَّحمن:٥٢]، ومن ذلك أنَّه قال أيضًا: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرَّحمن:٦٤] مقابل: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرَّحمن:٤٨].

ومن ذلك أنَّه قال أيضًا: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢]، وهذا مقابلُ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرَّحمن:٥٦]، و﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾؛ أي: قاصراتٌ أطرافَهُنَّ على أزواجِهِنَّ، هذا معنى، المعنى الثَّاني: أنَّ أزواجَهُنَّ أيضًا لا ينظرون إلى غيرِهِنَّ لكمالِـهِنَّ وحُسْنِهِنَّ، فَهُنَّ قاصراتُ أطرافِ الأزواجِ، فعلى الوجهِ الأوَّلِ يكونُ الطَّرْفُ قاصرًا، فهو من بابِ إضافةِ اسمِ الفاعلِ إلى فاعلِه، وعلى

الثَّاني من بابِ إضافتِه إلى مفعولِه، والآية تحتملُ هذا وهذا، والقاعدةُ أنَّنا نحملُها على المعْنيَيْنِ؛ فهُنَّ قاصراتٌ أطرافَهُنَّ على أزواجِهِنَّ لا يَنْظُرْنَ إلى غيرِهم، وهُنَّ كذلك يَقْصُرْنَ أطرافَ أزواجِهِنَّ عليهِنَّ بحيث لا يريدُ الإنسانُ سوى هذه الزَّوجةِ، أمَّا الأخرى فقال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢]، فهُنَّ مقصوراتٌ.

فَإِنْ قال قائلٌ: قولُه تعالى: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢] أفلا يُؤَدِّي إلى التَّفضيلِ؟ أو يُقَالُ: لا يُؤَدِّي إلى التَّفضيلِ؛ لأنَّ الأولى لم يذكر فيها ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ فَهُنَّ سارحاتٌ في الخيامِ، وفي الرَّحَباتِ، وفي كُلِّ مكانٍ، ومع ذلك هُنَّ قاصراتُ الطَّرْفِ؟

الظَّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ لا يدلُّ على التَّفضيلِ.

فَإِنْ قال قائلٌ: في الجنَّتين الأُخْريَيْنِ قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمن:٧٠] ولم يذكر ذلك في الأُولَيَيْنِ، بل قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرَّحمن:٥٦]؟

فالجوابُ أنَّ قولَه: ﴿فِيهِنَّ﴾ مع قولِه في بقيَّةِ الآياتِ: ﴿فِيهِمَا﴾ يدلُّ على أنَّ أوصافَ الحورِ في الجِنَانِ الأربعِ كُلِّها؛ يعني: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ تشملُ الجنَّتَيْنِ الأُولَيَيْنِ والجنَّتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ، وتمتازُ الأُولَيَانِ بأنَّهما قاصراتُ الطَّرفِ في مقابلِ: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢]، أمَّا ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾؛ أي: خيراتُ الطِّباعِ والأخلاقِ حِسَانُ الوجوه فهذه شاملةٌ للجنَّاتِ الأربعِ؛ ولهذا تجدون أنَّ اللهَ تعالى يذكرُ ما في هذه الجِنَانِ الأربعِ بالتَّثنية، فكُلُّ واحدةٍ لها ما اختصَّت به، لكن في الحورِ يذكرُها بلفظِ الجمعِ فيقولُ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرَّحمن:٥٦]، ويقولُ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمن:٧٠].

وفي تفسير الجلالين[1]: أنَّ الضَّميرَ في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ لا يعودُ -حسَب تفسيرِه- إلى الجنَّاتِ الأربعِ، ولكن ﴿فِيهِنَّ﴾؛ أي: في قصورِهِنَّ وعلاليهِنَّ؛ أي: مساكنِهِنَّ، ولكن عندي أنَّ ذلك غلطٌ، بل الحورُ العينُ ذُكِرَتْ أوصافُها مرَّتَيْنِ؛ مرَّةً في الجنَّتَيْنِ العاليتَيْنِ، ومرَّةً في الجنَّتَيْنِ المفضولَتَيْنِ؛ وذلك في قولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمن:٥٦]، وفي قولِه: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٥٢]، لكنَّ قولَه: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمن:٧٠] هل نقولُ: إنَّ أصحابَ الجنَّتَيْنِ الأُولَيَيْنِ قد حُرِمُوا الحورَ من كونِهِنَّ خيراتِ الأخلاقِ؟ الجوابُ: لا يمكنُ؛ ولذلك أرى -واللهُ أعلمُ بمرادِه من كلامِه- أنَّ الضَّميرَ يعودُ على الجنَّاتِ الأربعِ في مسألةِ الحورِ، فالصَّحيحُ ما أَشَرْتُ إليه؛ ولهذا لم يذكُر ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- هذه الجملةَ بأنَّها خاصَّةٌ بالجنَّتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ.

***

٥٠٧٨- سُبْحَانَ مَنْ غَرَسَتْ يَدَاهُ جَنَّةَ الْـ ... فِـرْدَوْسِ عِنْـدَ تَكَامُـلِ الْبُنْيَـانِ

٥٠٧٩- وَيَـدَاهُ أَيْضًـا أَتْقَنَـتْ لِبِنَائِهَـا ... فَتَبَـارَكَ الـرَّحْمَنُ أَعْظَـمَ بَـانِ

٥٠٨٠- هِـيَ فِي الـجِنَانِ كَـآدَمٍ وَكِلَاهُمَـا ... تَفْضِـيلُهُ مِـنْ أَجْـلِ هَـذَا الشَّـانِ

٥٠٨١- لَكِنَّمَا الـجَهْمِيُّ لَـيْسَ لَدَيْـهِ مِـنْ ... ذَا الفَضْـلِ شَيْءٌ فَهْـوَ ذُو نُكْـرَانِ

٥٠٨٢- وَلَـدُ عَقُـوقٌ عَـقَّ وَالِـدَهُ وَلَـمْ ... يُثْبِـتْ بِـذَا فَضْـلًا عَـلَى الشَّـيْطَانِ

٥٠٨٣- فَكِلَاهُمَـا تَـأْثِيرُ قُدْرَتِــهِ وَتَـأْ ... ثِـيرُ الـمَشِيئَةِ لَـيْسَ ثَـمَّ يَـدَانِ

٥٠٨٤- آلَاهُمَـا أَوْ نِعْمَتَـاهُ وَخَلْقُـهُ ... كُـلٌّ بِنَعْمَـةِ رَبِّـهِ الـمَنَّانِ

---

(١) انظر: تفسير الجلالين (ص:٧١٢).

الشرحُ

٥٠٧٨- سُبْحَانَ مَنْ غَرَسَتْ يَدَاهُ جَنَّةَ الْـ فِـرْدَوْسِ عِنْـدَ تَكَامُـلِ الْبُنْيَـانِ

٥٠٧٩- وَيَـدَاهُ أَيْضًـا أَتْقَنَـتْ لِبِنَائِهَـا فَتَبَـارَكَ الـرَّحْمَنُ أَعْظَـمَ بَـانِ

قَوْلُهُ: «أَعْظَمُ بَانِي»، ويجوزُ «أَعْظَمَ» بالفتحِ، وهو أحسنُ؛ لأنَّها نكرةٌ، فتكونُ حالًا من «الرَّحْمَنُ».

٥٠٨٠- هِـيَ فِي الْـجِنَانِ كَـآدَمٍ وَكِلاهُمَـا تَفْضِـيلُهُ مِـنْ أَجْـلِ هَـذَا الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «هِيَ فِي الجِنَانِ كَآدَمٍ» «هِيَ»؛ أي: الفردوسُ.

الفردوسُ في الجِنَانِ كآدمَ في البشرِ؛ أي: إنَّ الفردوسَ خَلَقَهَا اللهُ بيدِه وآدمَ خَلَقَهُ اللهُ بيدِه.

قَوْلُهُ: «وَكِلَاهُمَا تَفْضِيلُهُ مِنْ أَجْلِ هَذَا الشَّانِ»؛ يعني: أنَّها فُضِّلَتْ؛ لأنَّ اللهَ تعالى «خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَاةَ -لِـمُوسَى- بِيَدِهِ، وَغَرَسَ الفِرْدَوْسَ بِيَدِهِ»[1]، وكُلُّ ما أضافَه اللهُ إلى نفسِه فهو أفضلُ من غيرِه بلا شكٍّ.

٥٠٨١- لَكِنَّمَا الْـجَهْمِيُّ لَـيْسَ لَدَيْـهِ مِـنْ ذَا الفَضْـلِ شَيْءٌ فَهْـوَ ذُو نُكْـرَانِ

الجهميُّ لا يُثْبِتُ للهِ يدين، ولا يُثْبِتُ أنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ بيدِه، ولا خَلَقَ جنَّةَ الفردوسِ بيدِه، ولكنْ يرى أنَّ المرادَ باليدِ القوَّةُ والقدرةُ؛ والجهميُّ ليس لديه مِنْ ذَا الفَضْلِ شَيْءٌ؛ لأنَّه يقولُ: آدمُ مخلوقٌ بالقدرةِ والشَّيطانُ مخلوقٌ بالقدرةِ، فلا فضلَ بينهما.

---

(١) أخرجه الدارقطني في الصفات (١/ ٢٦، رقم ٢٨) والخرائطي في مساوئ الأخلاق (ص:١٦٢)، رقم (٤٢٦).

٥٠٨٢- وَلَـدُ عَقُـوقٌ عَـقَّ وَالِـدَهُ وَلَـمْ   يُثْبِـتْ بِـذَا فَضْـلًا عَـلَى الشَّـيْطَانِ

وصدَق رحمه اللهُ، فالجهميُّ عَقَّ والدَه، عَقَّ آدَمَ؛ حيث أَنْكَرَ هذا الفضلَ الذي مَيَّزَهُ اللهُ به، وهو أَنَّه خَلَقَهُ بيدِه؛ حيث قال: إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ بقوَّتِه، وخَلَقَ الشَّيطانَ أيضًا بقوَّتِه؛ إِذَنْ لا فضلَ لآدمَ على الشَّيطانِ، فيجعلُ آدمَ مِثْلَ الشَّيطانِ، كلاهما خُلِقَ بالكلمةِ ﴿كُن﴾ فكان، فالجهميُّ ينكرُ اليدَ -والعياذُ باللهِ- ومثلُه الأشاعرةُ ومَنْ نحا نحوَهم.

وقد نَصَّ ابنُ القيِّم على الجهميِّ لأَنَّه هو أوَّلُ مَنْ سَنَّ هذه الطَّريقةَ، فعليه وزرُها ووزرُ من تَبِعَه فيها إلى يومِ القيامةِ، مع أنَّ اللهَ أَشَارَ إلى هذا الفضلِ بقولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥].

ثم يقولُ على رأي الجهمِ:

٥٠٨٣- فَكِلاهُمَـا تَـأْثِيرُ قُدْرَتِـهِ وَتَـأْ   ثِـيرُ الـمَشِيئَةِ لَـيْسَ ثَـمَّ يَـدَانِ

هذا رأيُ الجهميِّ.

٥٠٨٤- آلاهُمَـا أَوْ نِعْمَتَـاهُ وَخَلْقُـهُ   كُـلٌّ بِنَعْمَـةِ رَبِّـهِ الـمَنَّانِ

يعني: آلاءُ الله ونِعَمُهُ وخَلْقُهُ كُلٌّ بنعمةِ ربِّه المنَّانِ.

* * *

٥٠٨٥- لَـمَّا قَضَى رَبُّ العِبَادِ الغَـرْسَ قَـا ... لَ تَكَلَّمِــي فَتَكَلَّمَــتْ بِبَيَــانِ

٥٠٨٦- قَدْ أَفْلَحَ العَبْـدُ الَّـذِي هُـوَ مُـؤْمِنٌ ... مَـاذَا ادَّخَـرْتُ لَـهُ مِـنَ الإِحْسَـانِ

٥٠٨٧- وَلَقَـدْ رَوَى حَقًّـا أَبُـو الـدَّرْدَاءِ ذَا ... كَ عُـوَيْمِرٌ أَثَـرًا عَظِـيمَ الشَّـانِ

٥٠٨٨- يَهْتَـزُّ قَلْـبُ العَبْـدُ عِنْـدَ سَـمَاعِهِ ... طَرَبًـا بِقَـدْرِ حَـلاوَةِ الإِيـمَانِ

٥٠٨٩- مَـا مِثْلُــهُ أَبَـدًا يُقَـالُ بِرَأْيِــهِ ... أَوْ كَـانَ يَـا أَهْـلًا بِـذَا العِرْفَـانِ

٥٠٩٠- فِيهِ النُّزُولُ ثَـلاثَ سَـاعَاتٍ فَإِحْـ ... ـدَاهُنَّ يَنْظُـرُ فِي الكِتَـابِ الثَّـانِي

٥٠٩١- يَمْحُو وَيُثْبِـتُ مَا يَشَـاءُ بِحِكْمَـةٍ ... وَبِعِـــزَّةٍ وَبِرَحْمَـــةٍ وَحَنَــانِ

٥٠٩٢- فَتَرَى الفَتَى يُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُصْـ ... ـبِحُ فِي سِـوَاهَا مَـا هُمَـا مِـثْلانِ

٥٠٩٣- هُــوَ نَـائِمٌ وَأُمُـورُهُ قَـدْ دُبِّـرَتْ ... لَـيْلًا وَلا يَـدْرِي بِـذَاكَ الشَّـانِ

٥٠٩٤- وَالسَّاعَةُ الأُخْـرَى إِلَى عَـدْنٍ مَسَـا ... كِـنِ أَهْلِـهِ هُـمْ صَـفْوَةُ الـرَّحْمَنِ

٥٠٩٥- الرُّسْلُ ثُمَّ الأَنْبِيَـاءُ وَمَعْهُـمُ الصِّـ ... ـصِدِّيقُ حَسْبُ فَلا تَكُـنْ بِجَبَـانِ

٥٠٩٦- فِيهَـا الَّــذِي وَاللهِ لا عَـيْنٌ رَأَتْ ... كَـلَّا وَلا سَـمِعَتْ بِـهِ الأُذُنَـانِ

٥٠٩٧- كَـلَّا وَلا قَلْـبٌ بِـهِ خَطَـرَ الــمِثَا ... لُ لَـــهُ تَعَــالَى اللهُ ذُو السُّــلْطَانِ

٥٠٩٨- وَالسَّاعَةُ الأُخْرَى إِلَى هَذِي السَّـمَا ... ءِ يَقُـولُ هَـلْ مِـنْ تَائِـبٍ نَـدْمَانِ

٥٠٩٩- أَوْ دَاعٍ اَوْ مُسْــتَغْفِرٍ أَوْ سَــائِلٍ ... أُعْطِيــهِ إِنِّي وَاسِــعُ الإِحْسَــانِ

٥١٠٠- حَتَّى يُصَلِّي الفَجْرَ يَشْهَدُهَا مَعَ الْـ ... أَمْــلاكِ تِلْــكَ شَــهَادَةُ القُـرْآنِ

٥١٠١- هَـذَا الـحَدِيثُ بِطُولِـهِ وَسِـيَاقِهِ وَتَـمَامِهِ في «سُـنَّةِ» الطَّـبَرَانِي

الشرحُ

٥٠٨٥- لَـمَّا قَضَى رَبُّ العِبَادِ الغَرْسَ قَا لَ تَكَلَّمِـي فتكَلَّمَـتْ بِبَيَـانِ

لَـمَّا قضى اللهُ عزَّ وجلَّ الغرسَ قال للجنَّةِ: تكلَّمي، فتكلَّمَتْ[1]، فقالت:

٥٠٨٦- قَدْ أَفْلَحَ العَبْدُ الَّـذِي هُـوَ مُـؤْمِنٌ مَـاذَا ادَّخَـرْتُ لَـهُ مِـنَ الإِحْسَـانِ

الجنَّةُ تكلَّمت بهذا الكلامِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون:١]؛ يعني: نَجَوْا من مكروهِهم، وحَصَلَ لهم مطلوبُهم، واقرأ الآياتِ إلى قولِه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠-١١]، أسألُ اللهَ أن يجعلَني وإيَّاكم منهم.

فإذا شِئْتَ أن تَرِثَ هذه الفردوسَ فعليك بالصِّفاتِ السَّبعِ المذكورةِ في الآياتِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:١-٩]، فعليك بهذه الصِّفاتِ، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون:١٠-١١]، ثُمَّ ذَكَرَ حديثًا فقال:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٨٤، رقم ١١٤٣٩) ، (١٢/ ١٤٧، رقم ١٢٧٢٣)، والأوسط (١/ ٢٢٤، رقم ٧٣٨) ، (٥/ ٣٤٩، رقم ٥٥١٨)، وتمام في الفوائد (١/ ١٠٩، رقم ٢٥٨) قال الهيثمي (١٠/ ٣٩٧) : رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وأحد إسنادي الطبراني في الأوسط جيد.

٥٠٨٧- وَلَقَدْ رَوَى حَقًّا أَبُو الدَّرْدَاءِ ذَا ... كَ عُوَيْمِرٌ أَثَرًا عَظِيمَ الشَّانِ
٥٠٨٨- يَهْتَزُّ قَلْبُ العَبْدُ عِنْدَ سَمَاعِهِ ... طَرَبًا بِقَدْرِ حَلاوَةِ الإِيمَانِ
٥٠٨٩- مَا مِثْلُهُ أَبَدًا يُقَالُ بِرَأْيِهِ ... أَوْ كَانَ يَا أَهْلًا بِذَا العِرْفَانِ
٥٠٩٠- فِيهِ النُّزُولُ ثَلاثَ سَاعَاتٍ فَإِحْـ ... ـدَاهُنَّ يَنْظُرُ فِي الكِتَابِ الثَّانِي
٥٠٩١- يَمْحُو وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ بِحِكْمَةٍ ... وَبِعِزَّةٍ وَبِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ
٥٠٩٢- فَتَرَى الفَتَى يُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُصْـ ... ـبِحُ فِي سِوَاهَا مَا هُمَا مِثْلانِ
٥٠٩٣- هُوَ نَائِمٌ وَأُمُورُهُ قَدْ دُبِّرَتْ ... لَيْلًا وَلا يَدْرِي بِذَاكَ الشَّانِ
٥٠٩٤- وَالسَّاعَةُ الأُخْرَى إِلَى عَدْنٍ مَسَا ... كِنِ أَهْلِهِ هُمْ صَفْوَةُ الرَّحْمَنِ
٥٠٩٥- الرُّسْلُ ثُمَّ الأَنْبِيَاءُ وَمَعْهُمُ الصْـ ... ـصِدِّيقُ حَسْبُ فَلا تَكُنْ بِجَبَانِ
٥٠٩٦- فِيهَا الَّذِي وَاللهِ لا عَيْنٌ رَأَتْ ... كَلَّا وَلا سَمِعَتْ بِهِ الأُذُنَانِ
٥٠٩٧- كَلَّا وَلا قَلْبٌ بِهِ خَطَرَ المِثَا ... لُ لَهُ تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ
٥٠٩٨- وَالسَّاعَةُ الأُخْرَى إِلَى هَذِي السَّمَا ... ءِ يَقُولُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ نَدْمَانِ
٥٠٩٩- أَوْ دَاعٍ اَوْ مُسْتَغْفِرٍ أَوْ سَائِلٍ ... أُعْطِيهِ إِنِّي وَاسِعُ الإِحْسَانِ
٥١٠٠- حَتَّى يُصَلِّي الفَجْرَ يَشْهَدُهَا مَعَ الْـ ... أَمْلاكِ تِلْكَ شَهَادَةُ القُرْآنِ
٥١٠١- هَذَا الحَدِيثُ بِطُولِهِ وَسِيَاقِهِ ... وَتَمَامِهِ فِي «سُنَّةِ» الطَّبَرَانِي

قَوْلُهُ: «وَلَقَدْ رَوَى حَقًّا أَبُو الدَّرْدَاءِ...» ولفظُ هذا الحديثِ: «يَنْزِلُ اللهُ تَعَالَى

في آخِرِ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ يَبْقَيْنَ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَنْظُرُ اللهُ فِي السَّاعَةِ الأُولَى فِي الكِتَابِ الَّذِي لَا يَنْظُرُ فِيهِ غَيْرُهُ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ وَهِيَ مَسْكَنُهُ الَّذِي يَسْكُنُ فِيهِ، لَا يَكُونُ مَعَهُ فِيهَا أَحَدٌ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ، وَفِيهَا مَا لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ آخِرَ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَقُولُ: أَلَا مُسْتَغْفِرٍ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ أَلَا سَائِلٌ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ أَلَا دَاعٍ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الفَجْرُ»[1]، وعلى كُلِّ حالٍ إذا صَحَّ هذا عن أبي الدَّرداء فإنَّ مثلَه لا يُقَالُ بالرَّأيِ، وأبو الدَّرداءِ ليس ممَّن عُرِفَ بالأخذِ عن بني إسرائيلَ، فيكونُ له حكمُ الرَّفعِ.

قَوْلُهُ: «فَتَرَى الفَتَى يُمْسِي عَلَى حَالٍ وَيُصْبِحُ فِي سِوَاهَا»؛ يعني: يمُسي على حالٍ ويُصْبِحُ في سواها، يمُسي مؤمنًا ويُصْبِحُ كافرًا، أو بالعكسِ؛ يمُسي كافرًا ويُصبحُ مؤمنًا؛ ولذا قال: «وَيُصْبِحُ فِي سِوَاهَا مَا هُمَا مِثْلَانِ»، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنا بالقولِ الثَّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ يا ربَّ العالمين.

قَوْلُهُ: «تِلْكَ شَهَادَةُ الكُفْرَانِ»؛ لقولِه تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

***

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٢٥، رقم ٤٧).

فصل

في بنَاءِ الجَنَّةِ

٥١٠٢- وَبِنَاؤُهَا اللَّبِنَاتُ مِنْ ذَهَـبٍ وَأُخْـ ـرَى فِضَّـةٌ نَوْعَـانِ مُخْتَلِفَـانِ

٥١٠٣- وَقُصُـورُهَا مِـنْ لُؤْلُـؤٍ وَزَبَرْجَـدٍ أَوْ فِضَّـةٍ أَوْ خَـالِصِ العِقْيَـانِ

٥١٠٤- وَكَـذَاكَ مِـنْ دُرٍّ وَيَـاقُوتٍ بِـهِ نُظِـمَ البِنَـاءُ بِغَايَـةِ الإِتْقَـانِ

٥١٠٥- وَالطِّينُ مِسْكٌ خَالِصٌ أَوْ زَعْفَـرَا نٌ جَـا بِـذَا أَثَـرَانِ مَقْبُـولانِ

٥١٠٦- لَيْسَـا بِمُخْتَلِفَـيْنِ لا تُنْكِرْهُمَـا فَهُـمَا المِـلاطُ لِـذَلِكَ البُنْيَـانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «أَوْ خَالِص العِقْيَانِ» العِقْيَانُ هو الذَّهبُ.

قَوْلُهُ: «الطِّينُ مِسْكٌ خَالِصٌ أَوْ زَعْفَرَانٌ» ليس بينهما تناقضٌ؛ لأنَّهما يكونان مخلوطَيْنِ ويُمْلَطُ بهما البِنَاءُ، فلا تَنافيَ بينهما، والمِلَاطُ؛ أي: الَّذي يُمْلَطُ به الجدارُ، ويُسَمَّى عندنا «التَّلييس».

* * *

فصل

في أَرْضِهَا وَحَصْبَائِهَا وَتُرْبِهَا

٥١٠٧- وَالأَرْضُ مَرْمَرَةٌ كَخَالِصِ فِضَّةٍ ... مِثْلَ المِرَاةِ تَنَالُهُ العَيْنَانِ

٥١٠٨- فِي «مُسْلِمٍ» تَشْبِيهُهَا بِالدَّرْمَكِ الصْـ ... ـصَافِي وَبِالمِسْكِ العَظِيمِ الشَّانِ

٥١٠٩- هَذَا لِحُسْنِ اللَّوْنِ لَكِنْ ذَا لِطِيـ ... ـبِ الرِّيحِ صَارَ هُنَاكَ تَشْبِيهَانِ

٥١١٠- حَصْبَاؤُهَا دُرٌّ وَيَاقُوتٌ كَذَا ... كَ لآلِئٌ نُثِرَتْ كَنَثْرِ جُمَانِ

٥١١١- وَتُرَابُهَا مِنْ زَعْفَرَانٍ أَوْ مِنَ الْـ ... ـمِسْكِ الَّذِي مَا اسْتُلَّ مِنْ غِزْلَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «بالدَّرْمَكِ»، «الدَّرْمَكُ»؛ هو: الخبزُ الصَّافي الذي يَضْرِبُ لونُه إلى صُفْرَةٍ.

قَوْلُهُ: «هَذَا لِحُسْنِ اللَّوْنِ لَكِنْ ذَا لِطِيبِ الرِّيحِ»؛ يعني: الدَّرْمَكُ والمسكُ للطِّيبِ.

قَوْلُهُ: «وَتُرَابُهَا مِنْ زَعْفَرَانٍ أَوْ مِنَ المِسْكِ الَّذِي مَا اسْتُلَّ مِنْ غِزْلَانِ»؛ وذلك لأنَّهم يقولون: إنَّ المسكَ دَمُ نوعٍ من الغزلانِ؛ كما قال المتنبِّي:

فَإِنْ تَفُقِ الأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ... فَإِنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ[1]

---

(١) البيت للمتنبي، انظر: شرح ديوان المتنبي للعكبري (١/ ٣٨٠).

ومعلومٌ أنَّ المسكَ ليس كالدَّمِ مع أنَّ أصلَه دَمٌ، وأنَّ هذا النَّوعَ من الغزلان يُرَوَّضُ على صفةٍ معيَّنةٍ، ثُمَّ بعد ذلك يُطَارَدُ حتَّى يتعبَ، فإذا تَعِبَ نَزَلَ منه دمٌ عند سُرَّتِه، ثُمَّ يأتي هؤلاء الذين يتولَّوْنَه فيربطون هذا الدَّمَ بخيطٍ ربطًا شديدًا قويًّا من أجلِ ألَّا يعودَ الدَّمُ إلى الجسمِ، ومن أجل ألَّا يأتيَ هذا الجزءَ شيءٌ من الغذاءِ، وبعد مدَّةٍ ينقطعُ عنه الغذاءُ فيموتُ، ثُمَّ ينزلُ مسكًا في وِعاءٍ، وِعاؤه هو هذا الجزءُ الذي انفصل، وهذا النَّوعُ من المسكِ يقولون: هو أطيبُ أنواعِ المسكِ.

وتجدون في كلامِ الفقهاءِ أنَّهم يُعبِّرون في البيعِ بالمسكِ وفأرتِه؛ يعني: وِعَاءَه.

وَقَوْلُهُ: «**المِسْكِ الَّذِي مَا اسْتُلَّ مِنْ غِزْلَانِ**»؛ أي: بل خُلِقَ ابتداءً؛ يعني: هو مخلوقٌ على هذا أصلًا.

***

فصــل

في صِفَةِ غُرُفَاتِهَا

٥١١٢- غُرُفَاتُهَـا في الـجَوِّ يُنْظَـرُ بَطْنُهَـا مِـنْ ظَهْرِهَـا وَالظَّهْـرُ مِـنْ بَطْنَـانِ

٥١١٣- سُكَّانُهَا أَهْـلُ القِيَـامِ مَـعَ الصِّـيَا مِ وَطَيِّـبِ الكَلِـمَاتِ وَالإِحْسَـانِ

٥١١٤- ثِنْتَـانِ خَـالِصُ حَقِّـهِ سُـبْحَانَهُ وَعَبِيـدُهُ أَيْضًـا لَـهُمْ ثِنْتَـانِ

الشـرحُ

مَنْ قَامَ بهذه الأربعِ فإنَّه من سُكَّانِ الجنَّةِ في هذه الغرفِ؛ فَمَنْ أَطَابَ الكلامَ، وأَطْعَمَ الطَّعامَ، وأَدامَ الصِّيامَ، وصلَّى باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ، فهو من سُكَّان الجنَّةِ في هذه الغرفِ، وإنَّه ليسيرٌ على مَنْ يسَّره اللهُ عليه، وقد سُئِلَ الرَّسولُ ﷺ عن سَاكِنِيهَا فقَالَ: «**لِمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**»[1]، فالقيامُ والصِّيامُ حقُّه سبحانه وتعالى، وطيبُ الكلامِ وإطعامُ الطَّعامِ هذا للعبادِ، على أنَّنا نرى أنَّ طيبَ الكلامِ يشملُ الذِّكرَ وقراءةَ القرآنِ وغيرَ ذلك، فهو أعمُّ من كونِه حقًّا خاصًّا للإنسانِ.

فإذا قال قائلٌ: هذا الصَّفاءُ العظيمُ هل يمنعُ من رؤيةِ ما يُحِبُّ أن يكونَ الإنسانُ سرًّا؟ **الجوابُ**: إذا أراد الإنسانُ أن يكونَ عملُه سرًّا فهناك في وسطِ هذه الخيامِ الكبارِ ما يكونُ كالأخبئةِ لما يريدُ الإنسانُ أن يكونَ سرًّا.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في قول المعروف، رقم (١٩٨٤).

فصل

في خِيَامِ أَهْلِ الجَنَّة

٥١١٥- لِلعَبْـدِ فِيهَـا خَيْمَـةٌ مِـنْ لُؤْلُـؤٍ ... قَـدْ جُوِّفَـتْ هِـيَ صَـنْعَةُ الـرَّحْمَنِ

٥١١٦- سِتُّونَ مِيلًا طُولُـهَا في الـجَوِّ في ... كُـلِّ الزَّوَايَـا أَجْمَـلُ النِّسْـوَانِ

٥١١٧- يَغْشَى الجَمِيعَ فَلا يُشَاهِدُ بَعْضَهُمْ ... بَعْضًـا وَهَـذَا لاتِّسَـاعِ مَكَـانِ

٥١١٨- فِيهَـا مَقَاصِـيرٌ بِهَـا الأَبْـوَابُ مِـنْ ... ذَهَـبٍ وَدُرٍّ زِيـنَ بِالـمَرْجَانِ

٥١١٩- وَخِيَامُهَـا مَنْصُـوبَةٌ بِرِيَاضِـهَا ... وَشَـوَاطِئُ الأَنْهَـارِ ذِي الـجَرَيَانِ

٥١٢٠- مَا في الخِيَامِ سِوَى الَّتِي لَوْ قَابَلَـتْ ... لِلنَّـيِّرَيْنِ لَقُلْـتَ مُنْكَسِـفَانِ

٥١٢١- للهِ هَاتِيـكَ الـخِيَامُ فَكَـمْ بِهَـا ... لِلْقَلْـبِ مِـنْ عَلَـقٍ وَمِـنْ أَشْجَانِ

٥١٢٢- فِيهِنَّ حُورٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ خَيْـ ... ـرَاتٌ حِسَانٌ هُـنَّ خَـيْرُ حِسَانِ

٥١٢٣- خَـيْرَاتُ أَخْـلاقٍ حِسَـانٌ أَوْجُهًـا ... فَالـحُسْنُ وَالإِحْسَـانُ مُتَّفِقَـانِ

الشرحُ

٥١١٥- لِلعَبْـدِ فِيهَـا خَيْمَـةٌ مِـنْ لُؤْلُـؤٍ ... قَـدْ جُوِّفَـتْ هِـيَ صَـنْعَةُ الـرَّحْمَنِ

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- الخيامَ، وأنَّ في الجنَّةِ خيمةً من لؤلؤٍ مُجوَّفة، والذي صنعها الرَّحمنُ عزَّ وجلَّ، فهي مقتضى رحمتِه.

٥١١٦- سِتُّونَ مِيلًا طُولُـهَا في الـجَوِّ في كُـلِّ الزَّوَايَـا أَجْمَـلُ النِّسْـوَانِ

قَوْلُهُ: «سِتَّونَ مِيلًا طُولُـهَا في الجَوِّ» سِتُّون ميلًا[1]، والميلُ كيلو ونصف تقريبًا، إِذَنْ طولُـها في الجوِّ تسعون كيلو.

قَوْلُهُ: «وَفِي كُلِّ الزَّوَايَا أَجْمَلُ النِّسْوَانِ» سواءٌ كُنَّ من الحورِ أو من نساءِ الدُّنيا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢].

٥١١٧- يَغْشَى الجَمِيعَ فَلا يُشَاهِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًـا وَهَـذَا لاتِّسَـاعِ مَكَـانِ

الرَّجلُ يَغْشَى الجميعَ؛ يعني: بالجماعِ، فَلَا يُشَاهِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ وَهَذَا لاتِّسَاعِ المكَانِ وبُعْدِه، ولِـمَا يجعلُ اللهُ- عزَّ وجلَّ- بينهم من السِّتْرِ؛ ولأنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- جعل لكُلِّ شيءٍ قَدْرَه، وقد سبق أنَّ أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلةً مَنْ يَرَى في مُلْكِه ألفي سنةٍ يرى أقصاه كما يرى أدناه، لكن فيما إذا أرادوا ألَّا يكونَ كذلك، هم في خيمةٍ واحدةٍ متراميةِ الأطرافِ، لا ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ.

٥١١٨- فِيهَـا مَقَاصِيرٌ بِهَـا الأَبْـوَابُ مِـنْ ذَهَـبٍ وَدُرٍّ زِيـنَ بِالـمَرْجَانِ

قَوْلُهُ: «مَقَاصِيرٌ» جمعُ مَقْصُورَةٍ.

المَقَاصِيرُ فيها أبوابُها من ذهبٍ ودُرٍّ ومُرْجَانٍ، والإنسانُ لا يستطيعُ أن يتخيَّلَ مثلَ هذا الحُسْنِ مهما بلغ تخيُّلُه في القوَّةِ.

٥١١٩- وَخِيَامُهَـا مَنْصُـوبَةٌ بِرِيَاضِـهَا وَشَـوَاطِئُ الأَنْهَارِ ذِي الـجَرَيَانِ

يعني: أنَّ الخيامَ بالرِّياضِ وعلى شواطئِ الأنهارِ ذي الجَرَيَانِ.

---

(١) يعني حديث: «الْـمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ عَلَى عَمُودٍ مِنْ يَاقُوتٍ، لَهُ الْـخَيْمَةُ مِنْ يَاقُوتَةٍ مُجَوَّفَةٍ سِتِّينَ مِيلًا فِي السَّمَاءِ». أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٢٦١، رقم ٥٢٦٠).

٥١٢٠- مَا فِي الخِيَامِ سِوَى الَّتِي لَوْ قَابَلَتْ ... لِلنَّيِّرَيْنِ لَقُلْتَ مُنْكَسِفَانِ

الله أكبر! نساءٌ لو قَابَلَتِ الشَّمسَ والقمرَ لَقُلْتَ: الشَّمسُ والقمرُ منكسفان من نورِها وبهائِها، أسألُ اللهَ أن يجعلَني وإيَّاكم من أهل الجنة.

٥١٢١- لله هَاتِيكَ الخِيَامُ فَكَمْ بِهَا ... لِلْقَلْبِ مِنْ عَلَقٍ وَمِنْ أَشْجَانِ

٥١٢٢- فِيهِنَّ حُورٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ خَيْـ ... ـرَاتٌ حِسَانٌ هُنَّ خَيْرُ حِسَانِ

٥١٢٣- خَيْرَاتُ أَخْلاقٍ حِسَانٌ أَوْجُهًا ... فَالحُسْنُ وَالإِحْسَانُ مُتَّفِقَانِ

أفادنا المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ قولَه تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمن:٧٠] أنَّ ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ تعودُ إلى الأخلاقِ، و﴿حِسَانٌ﴾ تعودُ إلى الوجوهِ، فَهُنَّ خَيرَاتُ الأخلاقِ حِسَانُ الوجوهِ، إذَنْ هُنَّ كاملاتٌ ظاهرًا وباطنًا.

***

فصــل

في أرائِكِهَا وَسُرُرِهَا

٥١٢٤- فِيهَا الأَرَائِكُ وَهْيَ مِنْ سُرُرٍ عَلَيْـ ـهِنَّ الـحِجَالُ كَثِـيرَةُ الأَلْـوَانِ

٥١٢٥- لا تَسْتَحِقُّ اسْمَ الأَرَائِـكِ دُونَ هَـا تِيكَ الـحِجَالِ وَذَاكَ وَضْعُ لِسَـانِ

٥١٢٦- بَشْـخَانَةٌ يَـدْعُونَهَا بِلِسَـانِ فَـا رِسَ وَهْوَ ظَهْرُ البَيْتِ ذِي الأَرْكَـانِ

الشرحُ

٥١٢٤- فِيهَا الأَرَائِكُ وَهْيَ مِنْ سُرُرٍ عَلَيْـ ـهِنَّ الـحِجَالُ كَثِـيرَةُ الأَلْـوَانِ

الأَرَائِكُ هي: السُّررُ التي عليها الـحِجَالُ، والـحِجَالُ مثلُ الخيمةِ الصَّغيرةِ، ولكنَّها كما قال المؤلِّفُ رحمه اللهُ: «كَثِيرَةُ الأَلْوَانِ».

٥١٢٥- لا تَسْتَحِقُّ اسْمَ الأَرَائِـكِ دُونَ هَـا تِيكَ الـحِجَالِ وَذَاكَ وَضْعُ لِسَـانِ

قَوْلُهُ: «لَا تَسْتَحِقُّ اسْمَ الأَرَائِكِ دُونَ هَاتِيكَ الـحِجَالِ»؛ يعني: أنَّ السُّررَ لا تستحقُّ أن تُسَمَّى أريكةً إلَّا بالـحِجَالِ.

قَوْلُهُ: «وَذَاكَ وَضْعُ لِسَانِ»؛ يعني: اللِّسانَ العربيَّ.

٥١٢٦- بَشْـخَانَةٌ يَـدْعُونَهَا بِلِسَـانِ فَـا رِسَ وَهْوَ ظَهْرُ البَيْتِ ذِي الأَرْكَـانِ

قَوْلُهُ: «بَشْخَانَةٌ»، «البَشْخَانَةُ» في لغةِ فارس هي: ظهرُ البَيْتِ ذِي الأَرْكَانِ.

ومعنى كلامِه: أنَّ البَشْخَانَةَ في لسانِ فارس هي في اللغة العربِّيةِ: «ظَهْرُ البَيْتِ ذِي الأَرْكَانِ»، فالأرائكُ تُسَمَّى «بَشْخَانَة» في لغةِ فارسَ؛ يعني: في لغة العجمِ، لكن الأريكةُ في اللغةِ العربيَّةِ لابُدَّ أن يكونَ عليها حجابٌ؛ يعني: غطاءً، فالسَّريرُ عليه غطاءٌ يزيدُه جمالًا وراحةً.

***

فصل

في أَشْجَارِهَا وَثِمَارِهَا وَظِلَالِهَا

٥١٢٧- أَشْجَارُهَا نَوْعَانِ مِنْهَا مَا لَهُ ... في هَذِهِ الدُّنْيَا مِثَالٌ دَانِ

٥١٢٨- كَالسِّدْرِ أَصْلُ النَّبْقِ مَخْضُودٌ مَكَا ... نُ الشَّوْكِ مِنْ ثَمَرٍ ذَوِي أَلْوَانِ

٥١٢٩- هَذَا وَظِلُّ السِّدْرِ مِنْ خَيْرِ الظِّلَا ... لِ وَنَفْعُهُ التَّرْوِيحُ لِلأَبْدَانِ

٥١٣٠- وَثِمَارُهُ أَيْضًا ذَوَاتُ مَنَافِعٍ ... مِنْ بَعْضِهَا تَفْرِيحُ ذِي الأَحْزَانِ

٥١٣١- وَالطَّلْحُ وَهْوَ المَوْزُ مَنْضُودٌ كَمَا ... نُضِدَتْ يَدٌ بِأَصَابِعٍ وَبَنَانِ

٥١٣٢- أَوْ أَنَّهُ شَجَرُ البَوَادِي مُوقَرًا ... حِمْلًا مَكَانَ الشَّوْكِ في الأَغْصَانِ

٥١٣٣- وَكَذَلِكَ الرُّمَّانُ وَالأَعْنَابُ وِالنْـ ... ـنَخْلُ الَّتِي مِنْهَا القُطُوفُ دَوَانِ

٥١٣٤- هَذَا وَنَوْعٌ مَا لَهُ في هَذِه الدْ ... دُنْيَا نَظِيرٌ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ

٥١٣٥- يَكْفِي مِنَ التَّعْدَادِ قَوْلُ إِلَهِنَا ... مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ بِهَا زَوْجَانِ

٥١٣٦- وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا في اللَّوْنِ مُخْـ ... ـتَلِفَ الطُّعُومِ فَذَاكَ ذُو أَلْوَانِ

٥١٣٧- أَوْ أَنَّهُ مُتَشَابِهٌ في الإِسْمِ مُخْـ ... ـتَلِفَ الطُّعُومِ فَذَاكَ قَوْلٌ ثَانِ

٥١٣٨- أَوْ أَنَّهُ وَسَطٌ خِيَارٌ كُلُّهُ ... فَالفَحْلُ مِنْهُ لَيْسَ ذَا ثُنْيَانِ

٥١٣٩- أَوْ أَنَّهُ لِثِمَارِنَا ذِي مُشْبِهٍ ... في اسْمٍ وَلَوْنٍ لَيْسَ يَخْتَلِفَانِ

٥١٤٠- لَكِــنْ لِبَهْجَتِهَــا وَلَــذَّةِ طَعْمِهَــا ... أَمْــرٌ سِــوَى هَــذَا الَّــذِي تَجِـدَانِ

٥١٤١- فَيَلَــذُّهَا فِي الأَكْـلِ عِنْـدَ مَنَالِــهَا ... وَتَلَــذُّهَا مِــنْ قَبْلِــهِ العَيْنَــانِ

الشـرحُ

٥١٢٧- أَشْـجَارُهَا نَوْعَـانِ مِنْهَـا مَـا لَـهُ ... فِي هَــذِهِ الـدُّنْيَا مِثَــالٌ دَانِ

ذكر المؤلِّفُ -رحمه الله- أنَّ أشجارَها نوعان؛ نوعٌ له نظيرٌ في الدُّنيا، ونوعٌ لا نظيرَ له في الدُّنيا، ومَثَّلَ لِـمَا له نظيرٌ بأمثلةٍ، فقال:

٥١٢٨- كَالسِّدْرِ أَصْلُ النَّبْقِ مَخْضُـودٌ مَكَـا ... نُ الشَّـوْكِ مِـنْ ثَمَـرٍ ذَوِي أَلْـوَانِ

السِّدْرُ الذي هو: شجرُ النَّبْقِ فيه شَوْكٌ، لكن في الجَنَّةِ لا شَوْكَ فيه، قال اللهُ تعالى: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة:٢٨]، و«مَخْضُودٌ»؛ يعني: ليس فيه شوكٌ، وإنَّما فيه مكانَ الشَّوْكِ ثمرٌ ذو ألوانٍ.

٥١٢٩- هَذَا وَظِلُّ السِّدْرِ مِـنْ خَـيْرِ الظِّـلا ... لِ وَنَفْعُــهُ الــتَّرْوِيحُ لِلأَبْــدَانِ

قَوْلُهُ: «**هَذَا وَظِلُّ السِّدْرِ**»؛ يعني: في الدُّنيا.

ظِلُّ السِّدْرِ في الدُّنيا من خيرِ الظِّلالِ وأبردِه، وفيه أيضًا ترويحٌ للبدنِ، يجدُ الإنسانُ فيظل السِّدرِ نشوةً ولذَّةً، ومن المعلومِ أنَّ الجَنَّةَ ليس فيها شمسٌ، فإذا لم يكن فيها شمسٌ وليس فيها برودةٌ ولا حَرارةٌ، وإنَّما هي معتدلةٌ، فإنَّه يكونُ فيه التَّرويحُ للأبدانِ والتَّنعُّمُ.

٥١٣٠- وَثِـمَارُهُ أَيْضًـا ذَوَاتُ مَنَــافِعٍ ... مِنْ بَعْضِـهَا تَفْـرِيحُ ذِي الأَحْـزَانِ

يعني: أنَّ ثمرَ السِّدرِ له منافعُ كثيرةٌ، ومن جملتِها أنَّه يُفَرِّحُ الحزينَ، ويُخَفِّفُ

الحزنَ عليه، ويمكنُ الرُّجوعُ في هذا إلى كتبِ الطِّبِّ.

٥١٣١- وَالطَّلْحُ وَهْوَ الـمَوْزُ مَنْضُـودٌ كَـمَا نُضِـدَتْ يَـدٌ بِأَصَـابِعٍ وَبَنَـانِ

«والطَّلْحُ» هل في الجنَّةِ طَلْحٌ؟ الجوابُ: نعم، قال تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة:٢٩] الطَّلْحُ يقولُ: هو الموز، وهو منضودٌ، كما نُضِدَتْ يدٌ بأصابعٍ وبَنَانٍ، فكما أنَّ اليدَ منضودةٌ بالأصابعِ هكذا مثلًا، أيضًا الموزُ هناك منضودٌ، لكن لاحظوا أنَّه ليس كنضدِ مَوْزِ الدُّنيا، بل هو أعظمُ بكثيرٍ، وألذُّ للعينِ، وأشهى للنَّفسِ.

٥١٣٢- أَوْ أَنَّـهُ شَـجَرُ البَـوَادِي مُـوقَرًا حِمْلًا مَكَـانَ الشَّـوْكِ فِي الأَغْصَـانِ

شجرُ البوادي معروفٌ، تجدونه في الشِّعابِ في البوادي، وهو ذو شَوْكٍ عظيمٍ، وشَوْكُه مثلُ الإبرِ؛ إِذَنْ في تفسيرِ الطَّلْحِ قولان: **القولُ الأوَّلُ**: أنَّ الطَّلْحَ المنضودَ هو الموزُ، **والقول الثَّاني**: أنَّه شجرُ البوادي، لكن بدلًا من الشَّوْكِ يكونُ مُوقَرًا من الثِّمارِ.

٥١٣٣- وَكَذَلِكَ الرُّمَّانُ وَالأَعْنَـابُ وِالنْـ ـنَخْلُ الَّتِي مِنْهَـا القُطُـوفُ دَوَانِ

يعني: ممَّا له نظيرٌ في الدُّنيا: الرُّمَّانُ والأعنابُ والنَّخلُ التي منها القطوفُ دوانٍ، فالرُّمَّانُ قال اللهُ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرَّحمن:٦٨]، وأمَّا الأعنابُ فقال تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [النَّبأ:٣٢]، فهذا عنبٌ في الآخرةِ.

٥١٣٤- هَـذَا وَنَـوْعٌ مَـا لَـهُ فِي هَـذِهِ الـدْ دُنْيَـا نَظِـيرٌ كَـيْ يُـرَى بِعِيَـانِ

٥١٣٥- يَكْفِـي مِـنَ التَّعْـدَادِ قَـوْلُ إِلَـهِنَا مِـنْ كُـلِّ فَاكِهَـةٍ بِهَـا زَوْجَـانِ

كُلُّ ما يتَفكَّهُ به الإنسانُ ممَّا يُوجَدُ في الدُّنيا وممَّا لا يُوجَدُ فيها زوجان، والزَّوْجانِ هما الصِّنفان؛ يعني: أنَّهما صنفان متنوِّعان من كُلِّ فاكهةٍ.

فإن قال قائلٌ: هل قولُ المؤلِّف: «**قَوْلُ إِلَـهِنَا: مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ بِهَا زَوْجَانِ**»، هل هذا يدلُّ على أنَّ ابنَ القيِّم يرى جوازَ نقلِ القرآنِ بالمعنى؟

الجوابُ: لعلَّه أراد الإشارةَ، وإلَّا فلفظُ الآيةِ هو لفظُ الآيةِ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرَّحمن:٥٢]، لكن كلمة «بها» هي التي أوجبت الإشكالَ.

وعلى كُلِّ حالٍ لعلَّه أراد أنَّ زيادةَ «بِهَا» من أجلِ الوزنِ، وأنَّه أَرَادَ لفظَ الآيةِ، أو أنَّه أَرَادَ الإشارةَ إلى الآيةِ فقط، وهو الظَّاهرُ.

٥١٣٦- وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا فِي اللَّوْنِ مُخْـ ... ـتَلِفَ الطُّعُومِ فَذَاكَ ذُو أَلْوَانِ

قَوْلُهُ: «**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا**» قال اللهُ تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة:٢٥]، لكن فِيمَ يكونُ التَّشابهُ؟ يقولُ رحمه الله: فيها أقوالٌ: «**مُتَشَابِهًا فِي اللَّوْنِ مُخْتَلِفَ الطُّعُومِ فَذَاكَ ذُو أَلْوَانِ**»؛ يعني: يُؤْتَى بالفواكهِ متشابهةً، إذا رَأَيْتَها ظَنَنْتَهَا شيئًا واحدًا، فإذا أَكَلْتَهَا وَجَدْتَهَا تختلفُ في طعمِها، وهذا أعتقدُ أنَّه يكونُ فيه انبساطٌ للنَّفسِ أن يكونَ شيءٌ واحدٌ نظرًا لكنَّه يختلفُ طعمًا.

تخيَّل الآن أنَّ بين يديك طبقًا فيه فاكهةٌ تظنُّها شيئًا واحدًا، ثُمَّ إذا أَخَذْتَ كُلَّ واحدةٍ فإذا هي تختلفُ عن الأخرى، يكونُ هذا ألذَّ ممَّا لو كان الطَّبقُ فيه صِنفٌ واحدٌ؛ لأنَّك تقولُ مثلًا في نفسِك: «**سبحان الله! هذان يُشْبِهَان بعضهما بعضًا، ومع ذلك يختلفان في الطَّعمِ والملمسِ «اللِّين» وغزارةِ الماءِ، وما أشبه ذلك**».

٥١٣٧- أَوْ أَنَّـهُ مُتَشَابِهٌ فِي الإِسْمِ مُخْـ ... ـتَلِفَ الطُّعُومِ فَذَاكَ قَوْلٌ ثَانِ

قَوْلُهُ: «**مُتَشَابِهٌ**» بالرَّفعِ؛ لأنَّه خبرُ «أنَّ»، وفي نسخةٍ: «**مُتَشَابِهًا**» بالنَّصبِ، فيكونُ أتى به المؤلِّفُ على سبيلِ الحكايةِ؛ لأنَّه في القرآنِ منصوبٌ.

قَوْلُهُ: «فَذَاكَ قَوْلٌ ثَانِي» الأوَّل: متشابهٌ في اللَّونِ، وهذا متشابهٌ في الاسمِ لكنْ طعمُه يختلفُ، الرُّمَّانُ مثلًا الاسمُ واحدٌ والطَّعْمُ يختلفُ.

٥١٣٨- أَوْ أَنَّــهُ وَسَــطٌ خِيَــارٌ كُلُّــهُ فَالفَحْــلُ مِنْــهُ لَــيْسَ ذَا ثُنْيَــانِ

المتشابه بمعنى: الوسط، ولَعَلَّ المؤلِّفَ أخَذَه من قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزُّمر:٢٣]؛ أي: يُشْبِهُ بعضُه بعضًا.

٥١٣٩- أَوْ أَنَّــهُ لِثِــمَارِنَا ذِي مُشْــبِهٍ فِي اسْــمٍ وَلَــوْنٍ لَــيْسَ يَخْتَلِفَــانِ

يعني: متشابهًا، يُشْبِهُ ما عندنا في الدُّنيا، ولكن لا شكَّ أنَّه يخالفُه؛ ولهذا قال بعدها:

٥١٤٠- لَكِــنْ لِبَهْجَتِهَــا وَلَــذَّةِ طَعْمِهَــا أَمْــرٌ سِــوَى هَــذَا الَّــذِي تَجِــدَانِ

٥١٤١- فَيَلَــذُّهَا فِي الأَكْــلِ عِنْــدَ مَنَالِــهَا وَتَلَــذُّهَا مِــنْ قَبْلِــهِ العَيْنَــانِ

* * *

٥١٤٢- قَالَ ابْنُ عَبَّـاسٍ وَمَـا بِالـجَنَّةِ الْـ ـعُلْيَا سِـوَى أَسْـماءِ مَـا تَرَيَـانِ

٥١٤٣- يَعْنِـي الـحَقَائِقُ لا تُـمَاثِلُ هَـذِهِ وَكِلاهُمَـا فِي الإِسْـمِ مُتَّحِـدَانِ

٥١٤٤- يَا طِيبَ هَاتِيكَ الثِّـمَارِ وَغَرْسِـهَا فِي الـمِسْكِ ذَاكَ التُّـرْبِ لِلبُسْتَانِ

٥١٤٥- وَكَـذَلِكَ الـمَاءُ الَّـذِي يُسْـقَى بِـهِ يَـا طِيـبَ ذَاكَ الـوَرْدِ لِلظَّمْـآنِ

٥١٤٦- وَإِذَا تَنَاوَلَـتِ الثِّـمَارَ أَتَـتْ نَظِيـ ـرَتُهَا فَحَلَّـتْ دُونَهَـا بِمَكَـانِ

٥١٤٧- لَـمْ تَنْقَطِعْ أَبَدًا وَلَـمْ تَرْقُـبْ نُـزُو لَ الشَّـمْسِ مِـنْ حَمَـلٍ إِلَى مِيـزَانِ

٥١٤٨- وَكَذَاكَ لَمْ تَمْنَعْ وَلَمْ تَحْتَجْ إِلَى ... أَنْ تَرْتَقِي لِلقِنْوِ في العِيدَانِ

٥١٤٩- بَلْ ذُلِّلَتْ تِلْكَ القُطُوفُ فَكَيْفَمَا ... شِئْتَ انْتَزَعْتَ بِأَسْهَلِ الإِمْكَانِ

٥١٥٠- وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ السَّاقَ مِنْ ... ذَهَبٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِيْ بِبَيَانِ

٥١٥١- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهَاتِيكَ الجُذُو ... عُ زُمُرُّدٌ مِنْ أَحْسَنِ الأَلْوَانِ

٥١٥٢- وَمُقَطَّعَاتُهُمُ مِنَ الكَرْمِ الَّذِي ... فِيهَا وَمِنْ سَعَفٍ مِنَ العِقْيَانِ

٥١٥٣- وَثِمَارُهَا مَا فِيهِ مِنْ عَجَمٍ كَأَمْـ ... ـثَالِ القِلالِ فَجَلَّ ذُو الإِحْسَانِ

٥١٥٤- وَظِلالُهَا مَمْدُودَةٌ لَيْسَتْ تَقِي ... حَرًّا وَلا شَمْسًا وَأَنَّى ذَانِ

٥١٥٥- أَوَمَا سَمِعْتَ بِظِلِّ أَصْلٍ وَاحِدٍ ... فِيهِ يَسِيرُ الرَّاكِبُ العَجْلانِ

٥١٥٦- مِئَةٌ سِنِينًا قُدِّرَتْ لا تَنْقَضِي ... هَذَا لِعُظْمِ الأَصْلِ وَالأَفْنَانِ

٥١٥٧- وَلَقَدْ رَوَى الخُدْرِيُّ أَيْضًا أَنَّ طُو ... بَى قَدْرُهَا مِئَةٌ بِلا نُقْصَانِ

٥١٥٨- تَتَفَتَّحُ الأَكْمَامُ فِيهَا عَنْ لِبَا ... سِهِمُ بِمَا شَاؤُوا مِنَ الأَلْوَانِ

الشرح

٥١٤٢- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَا بِالجَنَّةِ الْـ ... ـعُلْيَا سِوَى أَسْمَاءِ مَا تَرَيَانِ

يعني: ليس في الجنَّةِ ممَّا في الدُّنيا إلَّا الأسماء، فالرُّمَّانُ مثلًا ليس معناه أنَّ رُمَّانَ الجنَّةِ كرمَّانِنا، بل اسمُ الرُّمَّانِ والحقيقةُ تختلفُ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السَّجدة:١٧]، وقال -سبحانه وتعالى- في الحديثِ القدسيِّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ،

وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[١]، ولو كان ما هناك كالذي هنا لكُنَّا نعلمُ ما فيها من قُرَّةِ الأعينِ؛ ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «لَيْسَ فِي الجَنَّةِ شَيْءٌ يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الأَسْمَاءَ»[٢].

٥١٤٣- يَعْنِي الحَقَائِقُ لا تُمَاثِلُ هَذِهِ ... وَكِلاهُمَا فِي الإِسْمِ مُتَّحِدَانِ

قَوْلُهُ: «مُتَّحِدَانِ»، وفي نسخةٍ: «مُتَّفِقَانِ»، والمعنى واحد.

٥١٤٤- يَا طِيبَ هَاتِيكَ الثِّمَارِ وَغَرْسِهَا ... فِي المِسْكِ ذَاكَ التُّرْبِ لِلبُسْتَانِ

٥١٤٥- وَكَذَلِكَ المَاءُ الَّذِي يُسْقَى بِهِ ... يَا طِيبَ ذَاكَ الوَرْدِ لِلظَّمْآنِ

لأنَّ طِيبَ الثِّمارِ يكونُ من طِيبِ الأرضِ ومن طيبِ الماءِ، أرضُها طَيِّبَةٌ لأنَّها مسكٌ، أمَّا الماءُ فهو غيرُ آسنٍ.

٥١٤٦- وَإِذَا تَنَاوَلَتِ الثِّمَارَ أَتَتْ نَظِيـ ... ـرَتُهَا فَحَلَّتْ دُونَهَا بِمَكَانِ

سبحان الخلَّاقِ العليمِ! إذا تَنَاوَلْتَ الثَّمرةَ من الشَّجرةِ نَبَتَ فورًا مكانها ثمرةٌ بدون تعبٍ وبدون انتظارٍ إلى زمنٍ؛ ولهذا يقولُ: «حَلَّتْ دُونَهَا بِمَكَانِ».

٥١٤٧- لَمْ تَنْقَطِعْ أَبَدًا وَلَمْ تَرْقُبْ نُزُو ... لَ الشَّمْسِ مِنْ حَمَلٍ إِلَى مِيزَانِ

الثِّمارُ عندنا لها أوقاتٌ معلومةٌ، في غيرِها لا تُوجَدُ، أمَّا هناك -اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن يَجنيها- فإنَّك إذا أَخَذْتَ ثمرةً نَبَتَ بدلها في مكانِها، ومع هذا يقولُ:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٠٧٢)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (٢/٢١)، والضياء في المختارة (١٠/١٦، رقم ٦) كلاهما عن ابن عباس موقوفًا.

٥١٤٨- وَكَذَاكَ لَمْ تَمْنَعْ وَلَمْ تَحْتَجْ إِلَى   أَنْ تَرْتَقِي لِلقِنْوِ في العِيدَانِ

يعني: لا يُوجَدُ أحدٌ يمنعُك يقولُ: انتظر، ولا تحتاجُ إلى أنْ تصعدَ إلى القِنوِ، والقنوُ: ما نُسمِّيه نحن القنا، فلا يحتاجُ أن تَرْقَى مثلًا للنَّخلةِ أو للشَّجرةِ؛ لأنَّ قطوفَها دانيةٌ.

٥١٤٩- بَلْ ذُلِّلَتْ تِلْكَ القُطُوفُ فَكَيْفَمَا   شِئْتَ انْتَزَعْتَ بِأَسْهَلِ الإِمْكَانِ

اللهُ أكبرُ، يقولُ العلماءُ: الإنسانُ إذا رأى ثمرةً من ثمارِ الجنَّةِ واشتهاها تدلَّى الغصنُ إليه، وأخذ الثَّمرَة، سواء كان جالسًا أم مضطجعًا أم على أيِّ حالٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣]، وقال: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان:١٤].

٥١٥٠- وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ السَّاقَ مِنْ   ذَهَبٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِيْ بِبَيَانِ

ساقُ الشَّجرةِ من الذَّهبِ، أمَّا الجذوعُ فقال:

٥١٥١- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهَاتِيكَ الجُذُو   عُ زُمُرُّدٌ مِنْ أَحْسَنِ الأَلْوَانِ

لو تصوَّرت الآن أنَّ أمامَك شجرةً ساقُها ذهبٌ، وجذعُها من الزُّمُرُّدِ، تخَيَّلْتَ منظرًا عجيبًا يُبهِجُ النَّفسَ مع أنَّ الذَّهبَ الذي هناك ليس كالذَّهبِ الذي هنا، ولا الزُّمُرُّدُ كالزُّمُرُّدِ، سبحان الله! كيف نميلُ إلى الدُّنيا، بل كيف نُعيش بها ونحن نؤمنُ ونُشْهِدُ اللهَ أنَّنا نُؤمن بهذا الذي وَعَدَ اللهُ للمتَّقين، ومع ذلك كأنَّنا في سَكْرَةٍ، كأنَّنا في غفلةٍ، فنسألُ اللهَ أن يعاملَنا بالعفوِ.

٥١٥٢- وَمُقَطَّعَاتُهُمُ مِنَ الكَرْمِ الَّذِي   فِيهَا وَمِنْ سَعَفٍ مِنَ العِقْيَانِ

قَوْلُهُ: «مُقَطَّعَاتُهُمُ»؛ يعني: ما يلبسون من المقاطعِ.

قَوْلُهُ: «الكَرْمِ» هو: العنبُ، وله أوراقٌ معروفةٌ.

فهم يأخذون مُقطَّعَاتِهم من هذا الكَرْمِ، إِذَنْ الكَرْمُ فيه عنبٌ وفيه لباسٌ.

٥١٥٣- وَثِمَارُهَا مَا فِيهِ مِنْ عَجَمٍ كَأَمْـ ... ـثَالِ القِلالِ فَجَلَّ ذُو الإِحْسَانِ

فثمارُها ما فيه من عَجَمٍ -أي: نوى- كَأَمْثَالِ القِلَالِ، والقِلَالُ هي جَرَّةٌ يُجْعَلُ فيها الماءُ، لكنَّها جرَّةٌ كبيرةٌ، هذي ثمارُها، أنتم الآن لو تصوَّرتم هذه الثِّمارَ لقلتُم: هذه كبيرةٌ، لا تلتذُّ لها النَّفسُ، لكن إذا كان طولُ الإنسانِ ستِّين ذراعًا وعرضُه سبعةَ أذرعٍ تكونُ هذه الثَّمرةُ مناسبةً ولا شكَّ، ثُمَّ لو فرضنا أنَّ أحدًا في الجنَّةِ لم يتلذَّذ لرؤيةِ شيءٍ ما أو لطعمِه فسوف يتحوَّلُ إلى ما يتلذَّذه، قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف:٧١].

٥١٥٤- وَظِلالُهَا مَمْدُودَةٌ لَيْسَتْ تَقِي ... حَرًّا وَلا شَمْسًا وَأَنَّى ذَانِ

قَوْلُهُ: «وَأَنَّى ذَانِ»؛ أي: الحرُّ والشَّمسُ، والاستفهامُ هنا للنَّفي.

يعني: ليس فيها شمسٌ ولا فيها حرٌّ، بل هو ظِلٌّ ممدودٌ، قال أهلُ العلمِ: كما يكونُ الظِّلُّ فيما بين طلوعِ الفجرِ وطلوعِ الشَّمسِ؛ أي: نورٌ لكن لا ترى شمسًا.

٥١٥٥- أَوَمَا سَمِعْتَ بِظِلِّ أَصْلٍ وَاحِدٍ ... فِيهِ يَسِيرُ الرَّاكِبُ العَجْلانِ

٥١٥٦- مِئَةٌ سِنِينًا قُدِّرَتْ لا تَنْقَضِي ... هَذَا لِعُظْمِ الأَصْلِ وَالأَفْنَانِ

يعني: فيها شجرةٌ يسيرُ الرَّاكبُ العجلانُ فيها مئةَ سنةٍ لا يقطعُ ظِلَّها[1]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦١٨٦)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمه وأهلها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، رقم (٢٨٢٧).

وهي شجرةٌ من أشجارٍ كثيرةٍ في مكانِ صاحبِ الجنَّةِ.

٥١٥٧- وَلَقَدْ رَوَى الخُدْرِيُّ أَيْضًا أَنَّ طُو ... بَى قَدْرُهَا مِئَةٌ بِلا نُقْصَانِ

٥١٥٨- تَتَفَتَّحُ الأَكْمَامُ فِيهَا عَنْ لِبَا ... سِهِمُ بِمَا شَاؤُوا مِنَ الأَلْوَانِ

اللهُ أكبرُ، شجرةُ طوبى كبيرةٌ واسعةُ طويلةٌ فيها أكمامٌ مثل: كُم طَلْعِ النَّخلِ، تنفتحُ عن لباسٍ متنوِّعٍ في ألوانِه يلبسُه أهلُ الجنَّةِ.

اللَّهُمَّ اجعلنا ممَّن يسكنُها بِمَنِّكَ وكرمِكَ.

***

فصــل

في سَمَاعِ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥١٥٩- قَـالَ ابْـنُ عَبَّـاسٍ وَيُرْسِـلُ رَبُّنَـا ... رِيحًـا تَهُـزُّ ذَوَائِـبَ الأَغْصَـانِ

٥١٦٠- فَتُثِـيرُ أَصْـوَاتًا تَلَـذُّ لِـمَسْمَعِ الْـ ... إِنْسَـانِ كَـالنَّغَمَاتِ بِـالأَوْزَانِ

٥١٦١- يَـا لَـذَّةَ الأَسْـمَاعِ لا تَتَعَـوَّضِي ... بِلَـذَاذَةِ الأَوْتَـارِ وَالعِيـدَانِ

٥١٦٢- أَوَمَا سَـمِعْتِ سَـمَاعَهُمْ فِيهَـا غِنَـا ... ءَ الـحُورِ بِالأَصْوَاتِ وَالأَلْـحَانِ

٥١٦٣- وَاهًـا لِـذَيَّاك السَّـمَاعِ فَإِنَّـهُ ... مُلِئَـتْ بِـهِ الأذُنَـانِ بالإِحْسَـانِ

٥١٦٤- وَاهًـا لِـذَيَّاك السَّـمَاعِ وَطِيبِـهِ ... مِـنْ مِثْـلِ أَقْـمَارٍ عَـلَى أَغْصَـانِ

٥١٦٥- وَاهًـا لِـذَيَّاك السَّـمَاعِ فَكَـمْ بِـهِ ... لِلْقَلْبِ مِنْ طَـرَبٍ وَمِـنْ أَشْـجَانِ

٥١٦٦- وَاهًـا لِـذَيَّاك السَّـمَاعِ وَلَـمْ أَقُـلْ ... ذَيَّـاكَ تَصْـغِيرًا لَـهُ بِلِسَـانِ

٥١٦٧- مَا ظَنُّ سَامِعِهِ بِصَوْتٍ أَطْيَـبِ الْـ ... أَصْوَاتِ مِنْ حُورِ الـجِنَانِ حِسَانِ

٥١٦٨- نَحْـنُ النَّـوَاعِمُ وَالـخَوَالِدُ خَـيْرَا ... تٌ كَامِلاتُ الـحُسْنِ وَالإِحْسَـانِ

٥١٦٩- لَسْنَا نَمُـوتُ وَلا نَخَـافُ وَمَـا لَنَـا ... سَخَطٌ وَلا ضِغْنٌ مِـنَ الأَضْـغَانِ

٥١٧٠- طُوبَى لِـمَنْ كُنَّـا لَـهُ وَكَـذَاكَ طُـو ... بَـى لِلَّـذِي هُـوَ حَظُّنَـا الـحَقَّانِي

٥١٧١- فِي ذَاكَ آثَـارٌ رُوِيـنَ وَذِكْرُهَـا ... فِي «التِّرْمِذِيِّ» وَ«مُعْجَمِ الطَّبَرَانِي»

٥١٧٢- وَرَوَاهُ يَحْيَى شَيْخُ الأَوْزَاعِيِّ تَفْـ ـسِيرًا لِلَفْظَةِ ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ أَغَانِ

الشرحُ

هذا الفصلُ في سَماعِ أهلِ الجنَّةِ، وَذَكَرَ -رحمه اللهُ- أنَّه نوعان:

النَّوعُ الأوَّلُ: من الأشجارِ؛ حيث يُرْسِلُ اللهُ عزَّ وجلَّ ريحًا تهُزُّ ذوائبَها، فتُثير أصواتًا لذيذةً على مَسْمَعِ الإنسانِ؛ كأنَّها النَّغماتُ بالأوزانِ.

والدَّليلُ على هذا: أثرٌ عن ابنِ عبَّاسٍ[1] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وابنُ عبَّاسٍ ممَّن عُرِفَ بالأخذ عن بني إسرائيلَ، ولكن نحن عندنا آيةٌ في كتابِ الله وهي قولُه تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزُّخرف:٧١]؛ فمثلًا: إذا اشتهى الإنسانُ شيئًا من هذا فلا مانعَ من أن يكونَ، ولكن قد يُقَالُ: إنَّ الإنسانَ لا يشتهي إلَّا شيئًا جعلَه اللهُ في هذه الجنَّاتِ.

النَّوعُ الثَّاني: غِناءُ الحورِ العِينِ، نسألُ اللهَ أنْ يجعلَني وإيَّاكم ممَّن يسمعُه.

قَوْلُهُ: «وَاهًا»؛ يعني: عجبًا لهذا.

قَوْلُهُ: «وَلَـمْ أَقُـلْ ذَيَّاكَ تَصْغِيرًا لَـهُ بِلِسَانِ»؛ أي: لـم يقل هذا تصغيرًا له بلسانٍ.

***

(١) يعني حديث: «فِي الْـجَنَّةِ شَجَرَةٌ عَلَى سَاقٍ قَدْرَ مَا يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، فَيَتَحَدَّثُونَ فِي ظِلِّهَا، فَيَشْتَهِي بَعْضُهُمْ وَيَذْكُرُ لَـهْوَ الدُّنْيَا فَيُرْسِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رِيحًا مِنَ الْـجَنَّةِ فَتُحَرِّكُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بِكُلِّ لَـهْوٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا». أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (ص:١٨٨) موقوفًا على ابن عباس.

٥١٧٣- نَزِّهْ سَمَاعَكَ إِنْ أَرَدْتَ سَمَاعَ ذَيْـ ـيَاكَ الغِنَا عَنْ هَـذِهِ الأَلْـحَانِ

٥١٧٤- لا تُؤْثِرِ الأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى فَتُحْـ ـرَمَ ذَا وَذَا يَا ذِلَّـةَ الـحِرْمَانِ

٥١٧٥- إِنَّ اخْتِيَارَكَ لِلسَّمَاعِ النَّازِلِ الْـ أَدْنَى عَلَى الأَعْلَى مِنَ النُّقْصَانِ

٥١٧٦- وَاللهِ إِنَّ سَمَاعَهُمْ فِي القَلْبِ وَالْـ إِيمَانِ مِثْلُ السُّمِّ فِي الأَبْدَانِ

٥١٧٧- وَاللهِ مَا انْفَكَّ الَّذِي هُوَ دَأْبُهُ أَبَدًا مِنَ الإِشْرَاكِ بِالرَّحْمَنِ

٥١٧٨- فَالقَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ حُبًّا وَإِخْلاصًا مَعَ الإِحْسَانِ

٥١٧٩- فَإِذَا تَعَلَّقَ بِالسَّمَاعِ أَصَارَهُ عَبْدًا لِكُلِّ فُلانَةٍ وَفُلانِ

٥١٨٠- حُبُّ الكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الغِنَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ

٥١٨١- ثَقُلَ الكِتَابُ عَلَيْهِمُ لَـمَّا رَأَوْا تَقْيِيدَهُ بِشَرَائِعِ الإِيمَانِ

٥١٨٢- وَاللَّهْوُ خَفَّ عَلَيْهِمُ لَـمَّا رَأَوْا مَا فِيهِ مِنْ طَرَبٍ وَمِنْ أَلْحَانِ

٥١٨٣- قُوتُ النُّفُوسِ وَإِنَّمَا القُرْآنُ قُو تُ القَلْبِ أَنَّى يَسْتَوِي القُوتَانِ

٥١٨٤- وَلِذَا تَرَاهُ حَظَّ ذِي النُّقْصَانِ كَالْـ ـجُهَّالِ وَالصِّبْيَانِ وَالنِّسْوَانِ

٥١٨٥- وَأَلَذُّهُمْ فِيهِ أَقَلُّهُمُ مِنَ الْـ ـعَقْلِ الصَّحِيحِ فَسَلْ أَخَا العِرْفَانِ

٥١٨٦- يَا لَذَّةَ الفُسَّاقِ لَسْتِ كَلَذَّةِ الْـ أَبْرَارِ فِي عَقْلٍ وَلا قُرْآنِ

الشرحُ

٥١٧٣- نَزِّهْ سَمَاعَكَ إِنْ أَرَدْتَ سَمَاعَ ذَيْـ ـيَاكَ الغِنَا عَنْ هَـذِهِ الأَلْـحَانِ

٥١٧٤- لا تُؤْثِرِ الأَدْنَى عَلَى الأَعْـلَى فَتُحْـ ـــرَمَ ذَا وَذَا يَـا ذِلَّـةَ الـحِرْمَانِ

قَوْلُهُ: «فَتُحْرَمَ ذَا وَذَا»؛ يعني: الأعلى والأدنى؛ لأنَّ من آثَرَ الحياةَ الدُّنيا حُرِمَ الدُّنيا والآخرةَ؛ لأنَّه لم يستفد من دنياه، ودنياه سوف تنقطعُ وتزولُ، وإذا آثَرَ الآخرةَ على الدُّنيا رَبِحَ الدُّنيا والآخرةَ؛ ولهذا أَقْسَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالعصرِ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣].

٥١٧٥- إِنَّ اخْتِيَـارَكَ لِلسَّـمَاعِ النَّـازِلِ الْـ أَدْنَـى عَـلَى الأَعْـلَى مِـنَ النُّقْصَـانِ

قَوْلُهُ: «مِنَ النُّقْصَانِ»؛ أي: من نقصانِ العقلِ والدِّينِ.

الذي يختارُ سماعَ الأدنى النَّازلِ على الأعلى ناقصُ العقلِ وناقصُ الدِّينِ.

٥١٧٦- وَاللهِ إِنَّ سَمَاعَهُمْ فِي القَلْـبِ وَالْـ إِيـمَانِ مِثْـلُ السُّـمِّ فِي الأَبْـدَانِ

يعني: يَسْرِي في القلبِ فيفسدُه كما يُفْسِدُ السُّمُّ البدنَ، السُّمُّ إذا سَرَى في البدنِ لا يستطيعُ الإنسانُ إمساكَه، بل يَسري في البدنِ بسرعةٍ وبقوَّةٍ، وانظر إلى اللَّديغِ إذا لُدِغَ كيف يَسْرِي السُّمُّ في بدنهِ ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُوقِفَه، سماعُ الأغاني -والعياذُ بالله- يَسْرِي في القلبِ فيُفسدُه وفي الإيمانِ فيفسدُه كما يَسْرِي السُّمُّ في الأبدانِ.

وهو هنا -رحمه اللهُ- يُحَذِّرُ من سماعِ الأغاني المحرَّمةِ في هذه الدُّنيا، ويقولُ:

٥١٧٧- وَاللهِ مَـا انْفَـكَّ الَّـذِي هُـوَ دَأْبُـهُ أَبَـدًا مِـنَ الإِشْرَاكِ بِـالرَّحْمَنِ

أَقْسَمَ -رحمه اللهُ- أنَّ الذي يكونُ دأْبُه الغناءَ لا ينفكُّ من الإشراكِ بالرَّحمنِ، لماذا؟

بَيَّنَ فقال:

٥١٧٨- فَالقَلْبُ بَيْتُ الـرَّبِّ جَلَّ جَلالُـهُ   حُبًّـا وَإِخْلاصًـا مَـعَ الإِحْسَـانِ

٥١٧٩- فَـإِذَا تَعَلَّـقَ بِالسَّـمَاعِ أَصَـارَهُ   عَبْـدًا لِكُـلِّ فُلانَـةٍ وَفُـلانِ

لأنَّ القلبَ يتعلَّقُ بهذا الغناءِ والعِياذُ بالله، ويكونُ هو هاجسَه ليلًا ونهارًا، قائمًا وقاعدًا؛ ولهذا تجد المفتونين بأهلِ الغناءِ لا يكونُ في قلوبِهم إلَّا أولئك القومُ الذي فُتِنُوا بهم، فتكون محبَّتُهم مزاحمةً لمحبَّةِ الله، ويكونون مشركين مع الله في المحبَّةِ، نسألُ اللهَ العافيةَ، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، والشِّركُ في المحبَّةِ من أشدِّ أنواعِ الشِّركِ على القلبِ والعياذُ بالله، وهذا وجهُ قولِه: «وَاللهِ مَا انْفَكَّ الَّذِي هُو دَأْبُهُ أَبَدًا مِنَ الإِشْرَاكِ بِالرَّحْمَنِ».

٥١٨٠- حُبُّ الكِتَابِ وَحُبُّ أَلْـحَانِ الغِنَـا   فِي قَلْـبِ عَبْـدٍ لَـيْسَ يَجْتَمِعَـانِ

قَوْلُهُ: «الكِتَابِ»؛ يعني: القرآنَ.

يقول: «حُبُّ الكِتَابِ وَحُبُّ أَلْـحَانِ الغِنَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمْعَانِ»، فهما نقيضان أو ضدَّان؟ الجوابُ: ضدَّان؛ لأنَّه قد يُوجَدُ حُبٌّ ثالثٌ غير ألحانِ الغِناء ولا القرآن، يُحِبُّ مثلًا القرآنَ وتطغى محبَّةُ المالِ على محبَّةِ الله، فالمهمُّ أنَّهما لا يجتمعان؛ لأنَّ حُبَّ القرآنِ يُوجِبُ للإنسانِ التَّعلُّقَ بالله عزَّ وجلَّ، بخلافِ حُبِّ الألحانِ.

٥١٨١- ثَقُـلَ الكِتَـابُ عَلَـيْهِمُ لَـمَّا رَأَوْا   تَقْيِيـدَهُ بِشَـرَائِعِ الإِيـمَانِ

٥١٨٢- وَاللَّهْـوُ خَـفَّ عَلَـيْهِمُ لَـمَّا رَأَوْا   مَا فِيـهِ مِـنْ طَـرَبٍ وَمِـنْ أَلْـحَانِ

إذا سَمِعُوا الألحانَ أَصْغَوْا واستمعوا، وإذا سَمِعُوا القرآنَ فكأنَّما يُصَبُّ في

آذانِهم الآنُكُ؛ يعني: الرَّصاصَ المُذَابَ، والعياذُ بالله.

٥١٨٣- قُوتُ النُّفُوسِ وَإِنَّمَا القُرْآنُ قُو تُ القَلْبِ أَنَّى يَسْتَوِي القُوتَانِ

الطَّرَبُ والألحانُ هو قوتُ النُّفوسِ، أمَّا القرآنُ فهو قوتُ القلوبِ؛ ولذا قال: «أَنَّى يَسْتَوِي القُوتَانِ؟».

٥١٨٤- وَلِذَا تَرَاهُ حَظَّ ذِي النُّقْصَانِ كَالْـ ـجُهَّالِ وَالصِّبْيَانِ وَالنِّسْوَانِ

تَرَى الطَّرَبَ والألحانَ حظَّ ذي النُّقصانِ كَالجُهَّالِ والصِّبْيَانِ والنِّسوانِ، أمَّا العقلاءُ فإنَّهم يترفَّعون عنه ويهجرونه.

٥١٨٥- وَأَلَذُّهُمْ فِيهِ أَقَلُّهُمُ مِنَ الْـ ـعَقْلِ الصَّحِيحِ فَسَلْ أَخَا العِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «فَسَلْ أَخَا العِرْفَانِ» مَنْ أخو العرفانِ؟ الجوابُ: يريدُ نفسَه.

يقولُ: اسأَلْ خبيرًا بأنَّ ألذَّهم فيه أقلُّهم من العقلِ الصَّحيحِ.

٥١٨٦- يَا لَذَّةَ الفُسَّاقِ لَسْتِ كَلَذَّةِ الْـ أَبْرَارِ فِي عَقْلٍ وَلا قُرْآنِ

وَصَدَقَ رحمه الله، لَذَّةُ هؤلاء لَذَّةُ جسدٍ تزولُ بزوالِ هذه اللَّذةِ، ويعقبُها حسرةٌ وندامةٌ وغِلٌّ في القلبِ لما لهذا الطَّربِ واللَّذَّةِ، لكن لَذَّةُ الأبرارِ بخلاف لذلكِ؛ ولهذا قال بعضُ السَّلفِ: «لو يعلمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسُّيوفِ»[1]، اللَّهُمَّ اجعلنا من هؤلاء.

* * *

(١) هذا قول إبراهيم بن أدهم، كما في حلية الأولياء، لأبي نعيم (٧/ ٣٧٠).

فصــل

في أَنْهَارِ الجَنَّةِ

٥١٨٧- أَنْهَارُهَــا فِي غَـيْرِ أُخْـدُودٍ جَـرَتْ   سُـبْحَانَ مُمْسِـكِهَا عَـنِ الفَيَضَــانِ
٥١٨٨- مِنْ تَحْتِهِمْ تَجْرِي كَمَا شَاؤُوا مُفَجْــ   ــجَرَةً وَمَـا لِلنَّهْـرِ مِـنْ نُقْصَــانِ
٥١٨٩- عَسَـلٌ مُصَـفًّى ثُـمَّ مَـاءٌ ثُـمَّ خَمْــ   ــرٌ ثُـمَّ أَنْهَــارٌ مِــنَ الأَلْبَــانِ
٥١٩٠- وَاللهِ مَــا تِلْــكَ الــمَوَادُ كَهَــذِهِ   لَكِــنْ هُمَــا فِي اللَّفْــظِ يَجْتَمِعَــانِ
٥١٩١- هَــذَا وَبَيْــنَهُمَا يَسِــيرُ تَشَــابُهٍ   وَهُــوَ اشْــتِرَاكٌ قَــامَ بِالأَذْهَــانِ

الشـرحُ

٥١٨٧- أَنْهَارُهَــا فِي غَـيْرِ أُخْـدُودٍ جَـرَتْ   سُـبْحَانَ مُمْسِـكِهَا عَـنِ الفَيَضَــانِ
٥١٨٨- مِنْ تَحْتِهِمْ تَجْرِي كَمَا شَاؤُوا مُفَجْــ   ــجَرَةً وَمَـا لِلنَّهْـرِ مِـنْ نُقْصَــانِ

سبحان الله! أنهارُ الجنَّةِ تجري بلا أخدودٍ، والأخدودُ هو الشَّيءُ القَائِمُ الذي يمنعُ الماءَ من الانحرافِ يمينًا أو يسارًا، وكذلك أيضًا من غيرِ أخاديدَ محفورةٍ تُحْفَرُ في الأرضِ، فليس لها أخدودٌ قَائِمَةٌ ولا محفورةٌ، تجري كما يشاءُ صاحبُها، يُصَرِّفُها حيث يشاءُ.

فإذا قال قائلٌ: كيف تجري في غير أخدودٍ؟

فالجوابُ: **أوَّلًا**: أمورُ الآخرةِ لا تُقَاسُ بأمورِ الدُّنيا.

ثانيًا: نحن نُشَاهِدُ الآن السَّحابَ فيه المياهُ العظيمةُ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [النُّور:٤٣]، فها نحن نشاهدُ في الجوِّ أبحرًا تجري بإذنِ الله عزَّ وجلَّ بدون أخاديدَ أو حفرٍ، كذلك أنهارُ الجنَّةِ تجري بغير أخدودٍ؛ يعني: لا يضعون أشياءَ تَرُدَّ الماءَ يمينًا أو شمالًا.

٥١٨٩- عَسَلٌ مُصَفًّى ثُمَّ مَاءٌ ثُمَّ خَمْـ ـرٌ ثُمَّ أَنْهَارٌ مِنَ الأَلْبَانِ

قَوْلُهُ: «ثُمَّ» للتَّرتيبِ الذِّكريِّ، وإلَّا فالآيةُ هي: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ [محمد:١٥].

وهذه الأنهارُ من عسلٍ مُصَفًّى، وماءٍ غيرِ آسنٍ، وخمرٍ لذَّةٍ للشَّاربين، ولبنٍ لم يتغيَّر طعمُه، فهي أنهارٌ بيدِ الله عزَّ وجلَّ، وليست بأوانٍ، وهذا شيءٌ عجيبٌ.

٥١٩٠- وَاللهِ مَا تِلْكَ المَوَادُ كَهَذِهِ لَكِنْ هُمَا فِي اللَّفْظِ يَجْتَمِعَانِ

موادُّ اللَّبنِ والعسلِ والماءِ والخمرِ ليست كموادِّ الدُّنيا، لكنَّها مشتركةٌ في اللَّفظِ فقط، أمَّا الحقيقةُ فتختلفُ كما تختلفُ الدُّنيا عن الآخرةِ، لكن بينهما اشتراكٌ في أصلِ المعنى؛ لأنَّه لولا هذا الاشتراكُ في أصلِ المعنى ما فُهِمَ المعنى، فأصلُ اللَّبنِ هو هو، لكن وصفُه ومادَّتُه ليست كوصفِ لبنِ الدُّنيا ومادَّتِه، كذلك أيضًا نقولُ في الماءِ والخمرِ والعسلِ.

٥١٩١- هَـذَا وَبَيْـنَهُمَا يَسِيرُ تَشَابُهٍ وَهُـوَ اشْتِرَاكٌ قَامَ بِالأَذْهَانِ

يعني: أنَّ هذه الأصنافَ الأربعةَ ليست كالتي في الدُّنيا، بل بينهما فرقٌ عظيمٌ، اتَّفقا في اللَّفظِ واختلفا في الحقيقةِ والكُنهِ، لكن بينها اشتراكٌ يسيرٌ وهو

مُطْلَقُ الحلاوةِ في العسلِ، وكذلك في اللَّبنِ والبقيَّةِ، ولولا هذا القدرُ المشتركُ ما عرفنا ما هو العسل؟ وما هو الماء؟ وما هو الخمر؟ وما هو اللَّبن؟ لكن هذا القدرُ المشتركُ لابُدَّ منه.

كما أنَّ عِلْمَ الله عزَّ وجلَّ أعظمُ من عِلْمِ المخلوقِ، لكن بينه وبين علمِ المخلوقِ قدرٌ مشتركٌ وهو الإحاطةُ بالشَّيءِ، ولولا هذا القَدْرُ ما عرفنا معنى العلمِ، لكن يختلفُ علمُ الخالقِ عزَّ وجلَّ عن علمِ المخلوقِ كما اختلف الخالقُ عن المخلوقِ.

***

فصل

في طَعَامِ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥١٩٢- وَطَعَامُهُمْ مَا تَشْتَهِيهِ نُفُوسُهُمْ ... وَلُحُومُ طَيْرٍ نَاعِمٍ وَسِمَانِ

٥١٩٣- وَفَوَاكِهٌ شَتَّى بِحَسْبِ مُنَاهُمُ ... يَا شَبْعَةً كَمُلَتْ لِذِي الإِيمَانِ

٥١٩٤- لَحْمٌ وَخَمْرٌ وَالنِّسَا وَفَوَاكِهٌ ... وَالطِّيبُ مَعْ رَوْحٍ وَمَعْ رَيْحَانِ

٥١٩٥- وَصِحَافُهُمْ ذَهَبٌ تَطُوفُ عَلَيْهِمُ ... بِأَكُفِّ خُدَّامٍ مِنَ الوِلْدَانِ

٥١٩٦- وَانْظُرْ إِلَى جَعْلِ اللَّذَاذَةِ لِلْعُيُو ... نِ وَشَهْوَةٍ لِلنَّفْسِ فِي القُرْآنِ

٥١٩٧- لِلعَيْنِ مِنْهَا لَذَّةٌ تَدْعُو إِلَى ... شَهَوَاتِهَا بِالنَّفْسِ وَالأَمْرَانِ

٥١٩٨- سَبَبُ التَّنَاوِلِ وَهْوَ يُوجِبُ لَذَّةً ... أُخْرَى سِوَى مَا نَالَتِ العَيْنَانِ

الشرحُ

هذا معنى لطيفٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [الزُّخرف:٧١]، فالعينُ إذا نَظَرَتْ تَلَذَّذَتْ به، فإذا تَلَذَّذَتْ اشْتَهَت النَّفسُ، فإذا اشْتَهَت النَّفسُ تَنَاوَلَ الإنسانُ؛ ولهذا أحيانًا قد تُوجَدُ فاكهةٌ لا يشتهيها الإنسانُ؛ لأنَّه لم يتلذَّذ برؤيتِها مع أنَّه رُبَّما يكونُ طعمُها طَيِّبًا، فلابُدَّ أن تلتذَ العينُ بالرُّؤيةِ؛ لأجلِ أن تشتهيَ النَّفسُ، ثُمَّ يحصل التَّناولُ.

* * *

فصل

في شَرَابِهِمْ

٥١٩٩- يُسْقَوْنَ فِيهَا مِنْ رَحِيقٍ خَتْمُهُ ... بِالمِسْكِ أَوَّلُهُ كَمِثْلِ الثَّانِي

٥٢٠٠- مِنْ خَمْرَةٍ لَذَّتْ لِشَارِبِهَا بِلا ... غَوْلٍ وَلا دَاءٍ وَلا نُقْصَانِ

٥٢٠١- وَالخَمْرُ فِي الدُّنْيَا فَهَذَا وَصْفُهَا ... تَغْتَالُ عَقْلَ الشَّارِبِ السَّكْرَانِ

٥٢٠٢- وَبِهَا مِنَ الأَدْوَاءِ مَا هِيَ أَهْلُهُ ... وَيُخَافُ مِنْ عَدَمٍ لِذِي الوِجْدَانِ

٥٢٠٣- فَنَفَى لَنَا الرَّحْمَنُ أَجْمَعَهَا عَنِ الْـ ... ـخَمْرِ الَّتِي فِي جَنَّةِ الحَيَوَانِ

الشرحُ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ في خمرِ الدُّنيا أدواءً؛ يعني: أمراضًا كثيرةً؛ ومن هذه الأمراضِ: الخوفُ من زوالِ العقلِ؛ ولذا قال: «وَيُخَافُ مِنْ عَدَمٍ لِذِي الوِجْدَان»؛ يعني: أنَّها قد تهلكُهُ، اللَّهُمَّ عافِنا.

* * *

٥٢٠٤- وَشَرَابُهُمْ مِنْ سَلْسَبِيلٍ مَزْجُهُ الْـ ... ـكَافُورُ ذَاكَ شَرَابُ ذِي الإِحْسَانِ

٥٢٠٥- هَذَا شَرَابُ أُولِي اليَمِينِ وَلَكِنِ الْـ ... أَبْرَارُ شِرْبُهُمُ شَرَابٌ ثَانِ

٥٢٠٦- يُدْعَى بِتَسْنِيمٍ سَنَامُ شَرَابِهِمْ ... شُرْبُ المُقَرَّبِ خِيرَةِ الرَّحْمَنِ

٥٢٠٧- صَفَّى الـمُقَرَّبُ سَـعْيَهُ فَصَـفَا لَـهُ ذَاكَ الشَّــرَابُ فَتِلْـكَ تَصْـفِيَتَانِ

٥٢٠٨- لَكِنَّ أَصْحَابَ اليَمِـينِ فَأَهْـلُ مَـزْ جِ بِالــمُبَاحِ وَلَـيْسَ بِالعِصْـيَانِ

٥٢٠٩- مُزِجَ الشَّرَابُ لَـهُمْ كَمَا مَزَجُوا هُمُ الْ أَعْـمَالَ ذَاكَ الــمَزْجِ بِالــمِيزَانِ

٥٢١٠- هَـذَا وَذُو التَّخْلِـيطِ مُرْجًـى أَمْـرُهُ وَالــحُكْمُ فِيــهِ لِرَبِّــهِ الــدَّيَّانِ

الشـرحُ

اللهُ أكبرُ، الجزاءُ من جنسِ العملِ، الأبرارُ شرابُهم كما قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطفِّفين:٢٧-٢٨]، والتَّسنيمُ مأخوذٌ من السَّنامِ، وسَنَامُ البعيرِ: أعلاه، فهو شرابٌ أعلى الشَّرابِ، وليس فيه مزجٌ، وأمَّا الآخرين الذين دونهم فإنَّ فيه مزجًا وهو الكافورُ، والكافورُ لاشكَّ أنَّه ليس كالتَّسنيمِ؛ فلهذا يقولُ رحمه اللهُ: «**مُزِجَ الشَّرَابُ لَـهُمْ كَمَا مَزَجُوا هُمُ الأَعْمَالَ ذَاكَ المَزْجِ بِالمِيزَانِ**»، والجزاءُ من جنسِ العملِ.

***

فصـــل

في مَصْرِفِ طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ، وَهَضْمِهِ

٥٢١١- هَـذَا وَتَصْــرِيفُ الــمَآكِلِ مِـنْهُمُ ... عِرْقٌ يَفِـيضُ لَــهُمْ مِـنَ الأَبْـدَانِ

٥٢١٢- كَرَوَائِحِ المِسْكِ الَّذِي مَا فِيهِ خَلْـ ... ـطٌ غَـيْرُهُ مِـنْ سَائِرِ الأَلْـوَانِ

٥٢١٣- فَتَعُـودُ هَاتِيـكَ البُطُـونُ ضَـوَامِرًا ... تَبْغِي الطَّعَامَ عَـلَى مَـدَى الأَزْمَـانِ

٥٢١٤- لا غَـــائِطٌ فِيهَـــا وَلا بَـــوْلٌ وَلا ... مُخْـطٌ وَلا بَصْـقٌ مِـنَ الإِنْسَـانِ

٥٢١٥- وَلَـهُمْ جُشَـاءٌ رِيحُـهُ مِسْـكٌ يَكُـو ... نُ بِـهِ تَـمَامُ الـهَضْمِ بِالإِحْسَـانِ

٥٢١٦- هَـذَا وَهَـذَا صَـحَّ عَنْـهُ فَوَاحِـدٌ ... فِي «مُسْـلِمٍ» وَلِأَحْمَـدَ الأَثْـرَانِ

الشـرحُ

هذا الفصلُ واضحُ المعنى أنَّ أهلَ الـجنَّةِ لا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يتمخَّطون، ولا يبصقون، وطعامُهم إذا أكلوه وشرابُهم يكونُ عَرَقًا يفيضُ من الأبدانِ، وكذلك لهم جُشَاءٌ، والـجُشَاءُ: خروجُ الهواءِ من المعدةِ عن طريقِ الفمِ، فرائحتُه مثلُ رائحةِ المسكِ، بينما الـجُشَاءُ عندنا مُسْتكْرَهٌ ويحصل منه رائحةٌ كريهةٌ، ولكنَّها لأهلِ الجنَّةِ -جعلني اللهُ وإيَّاكم منهم- تكونُ رائحتُها رائحةَ المسكِ يكونُ بها تمامُ الهضمِ، وكُلَّما أكلوا وشربوا وشبعوا فإنَّه يفيضُ عَرَقًا وتبقى البطونُ ضوامرَ، فيأكلون دائمًا، وإنَّما جَعَلَ اللهُ لهم ذلك من أجلِ أن يتلذَّذوا

بالطَّعامِ والشَّرابِ؛ لأنَّهم إذا أكلوا وشربوا تلذَّذوا، وإلَّا فلو شَاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ لجعلهم لا يحتاجون إلى أكلٍ ولا شربٍ، ولكن من أجلِ أن يُتِمَّ سرورَهم وتَتِمَّ نعمتُهم صار يحصلُ لهم هذا.

* * *

فصـــل

في لِبَاسِ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥٢١٧- وَهُمُ المُلُوكُ عَلَى الأَسِرَّةِ فَوْقَ هَا ... تِيكَ الرُّؤُوسِ مُرَصَّع التِّيجَانِ

٥٢١٨- وَلِبَاسُهُمْ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَمِنْ ... إِسْتَبْرَقٍ نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ

٥٢١٩- مَا ذَاكَ مِنْ دودٍ بَنَى مِنْ فَوْقِهِ ... تِلْكَ البُيُوت وَعَادَ ذَا طَيَرَانِ

٥٢٢٠- كَلَّا وَلا نُسِجَتْ عَلَى المِنْوَالِ نَسْـ ... ـجَ ثِيَابِنَا بِالقُطْنِ وَالكِتَّانِ

٥٢٢١- لَكِنَّهَا حُلَلٌ تَشَقُّ ثِمَارَهَا ... عَنْهَا رَأَيْتَ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ

٥٢٢٢- بِيضٌ وَخُضْرٌ ثُمَّ صُفْرٌ ثُمَّ حُمْـ ... ـرٌ كَالرِّبَاطِ بِأَحْسَنِ الأَلْوَانِ

٥٢٢٣- لا تَقْرَبِ الدَّنَسَ المُقَرِّبَ لِلبِلَى ... مَا لِلبِلَى فِيهِنَّ مِنْ سُلْطَانِ

٥٢٢٤- وَنَصِيفُ إِحْدَاهُنَّ وَهْوَ خِمَارُهَا ... لَيْسَتْ لَهُ الدُّنْيَا مِنَ الأَثْمَانِ

٥٢٢٥- سَبْعُونَ مِنْ حُلَلٍ عَلَيْهَا لا تَعُو ... قُ الطَّرْفَ عَنْ مُخٍّ وَرَا السِّيقَانِ

٥٢٢٦- لَكِنْ تَرَاهُ مِنْ وَرَا ذَا كُلِّهِ ... مِثْلَ الشَّرَابِ لَدَى زُجَاجٍ أَوَانِ

الشرحُ

٥٢١٧- وَهُمُ المُلُوكُ عَلَى الأَسِرَّةِ فَوْقَ هَا ... تِيكَ الرُّؤُوسِ مُرَصَّع التِّيجَانِ

٥٢١٨- وَلِبَاسُهُمْ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرٍ وَمِنْ ... إِسْتَبْرَقٍ نَوْعَانِ مَعْرُوفَانِ

هذا أيضًا لباسُ أهلِ الجنَّةِ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ في القرآنِ الكريمِ من سندسٍ وإستبرقٍ، والسُّندسُ والإستبرقُ نوعان معروفان من أعلى أنواعِ الحريرِ، وإن كُنَّا لا نعرفُهما تمامًا، لكن لا شكَّ أنَّهما من أفضلِ أنواعِ اللِّباسِ.

وهنا مسألة: هل في القرآنِ كلماتٌ غيرُ عربيَّةٍ؟

في القرآنِ الكريمِ كلماتٌ دخلت على العربِ، لكن لـمَّا نطقوا بها صارت عربيَّةً، وكُلُّ العربِ الذين من بني إسماعيلَ كُلُّهم أخذوا عربيَّتَهم من غيرِهم؛ ولهذا يُسَمَّوْنَ «**العرب المُسْتَعْرِبَة**»، فقولُ بعضِ النَّاسِ: «**إنَّ القرآنَ فيه شيءٌ من العجمةِ**»، نقولُ: هذا خطأٌ؛ لأنَّه لـمَّا استعمله العربُ في خطابِهم صار عربيًّا.

٥٢١٩- مَا ذَاكَ مِنْ دودٍ بَنَى مِنْ فَوْقِهِ ... تِلْكَ البُيُوت وَعَادَ ذَا طَيَرَانِ

يُشِيرُ إلى أنَّ حريرَ الدُّنيا يكونُ من دودِ القَزِّ، ودودُ القزِّ دودةٌ مثل التي تكونُ في التَّمرِ وغيرِه، يخرجُ منها هذا الحريرُ ينطوي عليها ينطوي عليها، وفي النِّهايةِ تموتُ، لكن حريرُ أهلِ الجنَّةِ ليس هكذا، فليس من الدِّيدانِ.

٥٢٢٠- كَلَّا وَلا نُسِجَتْ عَلَى المِنْوَالِ نَسْـ ... ـجَ ثِيَابِنَا بِالقُطْنِ وَالكِتَّانِ

لأنَّ ثيابَ الحريرِ التي في الدُّنيا لابُدَّ أن يكونَ فيها خلطٌ من الكتَّانِ والقطنِ.

٥٢٢١- لَكِنَّهَا حُلَلٌ تَشَقُّ ثِمَارَهَا ... عَنْهَا رَأَيْتَ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ

٥٢٢٢- بِيضٌ وَخُضْرٌ ثُمَّ صُفْرٌ ثُمَّ حُمْـ ... ـرٌ كَالرِّبَاطِ بِأَحْسَنِ الأَلْوَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّهَا حُلَلٌ تَشُقُّ ثِمَارَهَا عَنْهَا»؛ يعني: أنَّ هذه الحُلَلَ تأتي من أشجارِ الجنَّةِ.

قَوْلُهُ: «رَأَيْتَ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ»؛ يعني: هل رَأَيْتَ شقائقَ النُّعمانِ؟ وشقائقُ النُّعمانِ: نوعٌ من الزُّهورِ الطَّيِّبِ الذي يَرُوقُ للعينِ، فلباسُ أهل الجنَّةِ من الأشجارِ يكونُ من هذه الأزهارِ، ويكونُ من أفخمِ ما يكونُو أعلى ما يكونُ من الحريرِ والسُّندسِ والإستبرقِ.

٥٢٢٣- لا تَقْرَبِ الدَّنَسَ الـمُقَرِّبَ لِلبِلَى   مَا لِلبِلَى فِيهِنَّ مِنْ سُلْطَانِ

ثيابُنا هنا في الدُّنيا تتمزَّقُ مع طولِ الزَّمنِ وتتوَّسخُ أيضًا، أمَّا ثيابُ الجنَّةِ فإنَّها لا تَقْرَبُ ذلك، فلا تَقْرَبُ هي الدَّنَسَ المُقَرِّبَ للبلى؛ لأنَّ الوسخَ في الثِّيابِ يُقَرِّبُ لتمزُّقها سريعًا.

ثُمَّ انتقل إلى لباسِ الحورِ؛ فقال:

٥٢٢٤- وَنَصِيفُ إِحْدَاهُنَّ وَهْوَ خِمَارُهَا   لَيْسَتْ لَهُ الدُّنْيَا مِنَ الأَثْمَانِ

قَوْلُهُ: «وَنَصِيفُ إِحْدَاهُنَّ» نَصِيفُها؛ يعني: خمارَها.

قَوْلُهُ: «وَهْوَ خِمَارُهَا لَيْسَتْ لَهُ الدُّنْيَا مِنَ الأَثْمَانِ»؛ يعني: خمارُها أفضلُ من الدُّنيا كُلِّها.

٥٢٢٥- سَبْعُونَ مِنْ حُلَلٍ عَلَيْهَا لا تَعُو   قُ الطَّرْفَ عَنْ مُخٍّ وَرَا السِّيقَانِ

اللهُ أكبرُ، الواحدةُ من الحورِ عليها سبعون حُلَّةً، وهذه الحُلَلُ لا تمنعُ الطَّرفَ عن مُخٍّ وَرَاءَ السِّيقانِ؛ يعني: يَرَى مُخَّ سيقانِها من وراء ذلك، ولا تظنُّوا أنَّ هذه الرُّؤيةَ كرؤيتِنا في الدُّنيا، نحن لو رَأَيْنَا المُخَّ في السِّيقانِ رُبَّما نستقذرُ ذلك ونمجُّه، لكنَّه في الآخرةِ على خلافِ ذلك، يراه الإنسانُ فيتلذَّذُ لرؤيةِ هذا المُخِّ في السَّاقِ؛

ولهذا قال:

٥٢٢٦- لَكِــنْ تَــرَاهُ مِــنْ وَرَا ذَا كُلِّــهِ   مِثْلَ الشَّـرَابِ لَـدَى زُجَـاجِ أَوَانِ

لو وَضَعْتَ شرابًا في زجاجةٍ لرَأَيْتَ الماءَ من ورائِها، ولكنَّك تراه في أحسنِ مَرْئِيٍّ.

* * *

فصــل

في فُرُشِهِمْ وَمَا يَتْبَعُهَا

٥٢٢٧- وَالفَرْشُ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ قَدْ بُطِّنَتْ ... مَا ظَنُّكُمْ بِظِهَارَةٍ لِبِطَانِ

٥٢٢٨- مَرْفُوعَةٌ فَوْقَ الأَسِرَّةِ يَتَّكِي ... هُوَ وَالحَبِيبُ بِخَلْوَةٍ وَأَمَانِ

٥٢٢٩- يَتَحَدَّثَانِ عَلَى الأَرَائِكِ مَا تَرَى ... حِبَّيْنِ فِي الخَلَوَاتِ يَنْتَجِيَانِ

٥٢٣٠- هَذَا وَكَمْ زَرْبِيَّةٍ وَنَمَارِقٍ ... وَوَسَائِدٍ صُفَّتْ بِلَا حُسْبَانِ

الشرحُ

أهلُ الجنَّةِ في الآخرةِ متَّكئون على سررٍ مصفوفةٍ، وأحوالُ الآخرةِ تختلفُ عن أحوالِ الدُّنيا.

* * *

فصل

في حُلِيِّ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥٢٣١- وَالحلْيُ أَصْفَى لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ ... وَكَذَاكَ أَسْوِرَةٌ مِنَ العِقْيَانِ
٥٢٣٢- مَا ذَاكَ يَخْتَصُّ الإِنَاثُ وَإِنَّمَا ... هُوَ لِلإِنَاثِ كَذَاكَ لِلذُّكْرَانِ
٥٢٣٣- التَّارِكِينَ لِبَاسَهُ فِي هَذِهِ الدْ ... دُنْيَا لِأَجْلِ لِبَاسِهِ بِجِنَانِ
٥٢٣٤- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ حِلْيَتَهُمْ إِلَى ... حَيْثُ انْتِهَاءُ وَضُوئِهِمْ بِوِزَانِ
٥٢٣٥- وَكَذَا وُضُوءُ أَبِي هُرَيْرَةَ كَانَ قَدْ ... فَازَتْ بِهِ العَضُدَانِ وَالسَّاقَانِ
٥٢٣٦- وَسِوَاهُ أَنْكَرَ ذَا عَلَيْهِ قَائِلًا ... مَا السَّاقُ مَوْضِعَ حِلْيَةِ الإِنْسَانِ
٥٢٣٧- مَا ذَاكَ إِلَّا مَوْضِعَ الكَعْبَيْنِ وَالزْ ... زَنْدَيْنِ لا السَّاقَانِ وَالعَضُدَانِ
٥٢٣٨- وَلِذَاكَ أَهْلُ الفِقْهِ مُخْتَلِفُونَ فِي ... هَذَا وَفِيهِ عِنْدَهُمْ قَوْلانِ
٥٢٣٩- وَالرَّاجِحُ الأَقْوَى انْتِهَاءُ وُضُوئِنَا ... لِلمِرْفَقَيْنِ كَذَلِكَ الكَعْبَانِ
٥٢٤٠- هَذَا الَّذِي قَدْ حَدَّهُ الرَّحْمَنُ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ لا تَعْدِلْ عَنِ القُرْآنِ
٥٢٤١- وَاحْفَظْ حُدُودَ الرَّبِّ لا تَتَعَدَّهَا ... وَكَذَاكَ لا تَجْنَحْ إِلَى النُّقْصَانِ
٥٢٤٢- وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِ الرَّسُولِ تَجِدْهُ قَدْ ... أَبْدَى المُرَادَ وَجَاءَ بِالتِّبْيَانِ
٥٢٤٣- وَمَنِ اسْتَطَاعَ يُطِيلُ غُرَّتَهِ فَمَوْ ... قُوفٌ عَلَى الرَّاوِي هُوَ الفَوْقَانِي

٥٢٤٤- فَأَبُو هُرَيْـرَةَ قَـالَ ذَا مِـنْ كِيسِـهِ فَغَـدَا يُمَيِّـزُهُ أُولُـو العِرْفَـانِ

٥٢٤٥- وَنُعَـيْمٌ الـرَّاوِي لَـهُ قَـدْ شَـكَّ فِي رَفْعِ الـحَدِيثِ كَذَا رَوَى الشَّيْبَانِي

٥٢٤٦- وَإِطَالَـةُ الغُـرَّاتِ لَـيْسَ بِمُمْكِـنٍ أَبَـدًا وَذَا فِي غَايَـةِ التِّبْيَـانِ

الشرحُ

في هذا الفصلِ يتحدَّثُ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- عن حُلِيِّ أهلِ الجنَّةِ فقال:

٥٢٣١- وَالـحلْـيُ أَصْفَى لُؤْلُـؤٍ وَزَبَرْجَـدٍ وَكَـذَاكَ أَسْـوِرَةٌ مِـنَ العِقْيَـانِ

قَوْلُهُ: «العِقْيَانِ»؛ يعني: الذَّهبَ.

أسورةُ أهلِ الجنَّةِ ذَكَرَ اللهُ أنَّها ثلاثةُ أصنافٍ من: فضَّةٍ، ولؤلؤٍ، وذهبٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج:٢٣]، وفي قراءة «ولؤلؤٍ»، وإذا تخيَّلْتَ هذه الأصنافَ على الذِّراعِ وَجَدْتَ لها منظرًا عجيبًا، فهي لؤلؤٌ صافٍ، وذهبٌ خالصٌ، وفضَّةٌ خالصةٌ، يكونُ لها منظرٌ لا يمكنُ أن يبلُغَ تصوُّرك مدى هذا المنظرِ.

٥٢٣٢- مَـا ذَاكَ يَخْـتَصُّ الإِنَـاثُ وَإِنَّـمَا هُـوَ لِلإِنَـاثِ كَـذَاكَ لِلـذُّكْرَانِ

٥٢٣٣- التَّـارِكِينَ لِبَاسَـهُ فِي هَـذِهِ الـدْ دُنْيَـا لِأَجْـلِ لِبَاسِـهِ بِجِنَـانِ

يقول رحمه اللهُ: إنَّ هذا لا يختصُّ بالإناثِ، بل يشملُ الإناثَ والرِّجالَ، حتَّى الرجال يتحلَّوْنَ بالذِّهبِ وبالفضَّةِ وباللُّؤلؤِ؛ لأنَّهم تركوا هذا في الدُّنيا، فألبسهم اللهُ إيَّاه في الآخرةِ.

٥٢٣٤- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ حِلْيَتَهُمْ إِلَى ... حَيْثُ انْتِهَاءُ وَضُوئِهِمْ بِوِزَانِ

والوُضوءُ ينتهي إلى المِرْفقِ في اليدِ، وإلى الكعبِ في الرِّجْلِ، وقد قال النَّبِيُّ -عليه الصلاة والسلام-: «تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ»(١)، وهذا ثابتٌ في الصَّحِيحَيْنِ.

٥٢٣٥- وَكَذَا وُضُوءُ أَبِي هُرَيْرَةَ كَانَ قَدْ ... فَازَتْ بِهِ العَضُدَانِ وَالسَّاقَانِ

العَضُدَان في اليدِ، والسَّاقان في الرِّجْلِ، وكان أبو هريرةَ إذا توضَّأ يُبالغُ حتَّى يصلَ إلى قريبِ المنكبِ، وكذلك في السَّاقِ يبالغُ حتَّى يصلَ إلى قريبِ الرُّكبةِ، وأبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَهِمَ من الحديثِ أنَّك كُلَّما زِدْتَ في الوضوءِ زَادَت الحِلْيَةُ، فصار يغسلُ يدَه حتَّى يصلَ إلى المنكبِ، وكذلك يغسلُ رجلَه ويُدْخِلُ السَّاقَ فيها؛ ظنًّا منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّه إذا تجاوز الإنسانُ المحلَّ المحدَّدَ فإنَّ الحليةَ تزيدُ، لكن يقولُ ابنُ القيِّمِ:

٥٢٣٦- وَسِوَاهُ أَنْكَرَ ذَا عَلَيْهِ قَائِلًا ... مَا السَّاقُ مَوْضِعَ حِلْيَةِ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «سِوَاهُ أَنْكَرَ ذَا عَلَيْهِ» «سِوَاهُ»؛ يعني: سوى أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنكر هذا عليه، وقال: هذا غيرُ صحيحٍ، هذا تجاوزٌ لما حدَّه اللهُ عزَّ وجلَّ، وتجاوزٌ لما جاءت به السُّنَّةُ.

قَوْلُهُ: «مَا السَّاقُ مَوْضِعَ حِلْيَةِ الإِنْسَانِ» السَّاقُ ليس موضعَ الحِلْيَةِ في قولِ الرَّسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَبْلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الوُضُوءُ»، الحِلْيَةُ تكونُ في الرِّجْلِ في الأسفلِ، ولا تكونُ في السَّاقِ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم (٢٥٠).

٥٢٣٧- مَا ذَاكَ إِلَّا مَوْضِعَ الكَعْبَيْنِ وَالـزْ   زَنْـدَيْنِ لا السَّـاقَانِ وَالعَضُـدَانِ

يقولُ: إنَّ الحِلْيَةَ تكونُ إلى الكعبِ وتكونُ أيضًا للزَّنْدَينِ فقط، والزَّندان هما العظمان، فالذِّراعُ فيه عظمان، فلكُلِّ إنسانٍ أربعةُ أزنادٍ، في كُلِّ يد اثنان، والعَضُدُ فوق المِرْفَقِ، والسَّاقُ أيضًا فوق الكعبِ.

٥٢٣٨- وَلِـذَاكَ أَهْـلُ الفِقْـهِ مُخْتَلِفُـونَ في   هَــذَا وَفِيــهِ عِنْــدَهُمْ قَــوْلانِ

القولان عند أهلِ الفقهِ: هل يُسَنُّ مجاوزةُ محلِّ الفرضِ أو لا يُسَنُّ؟ يعني: هل ينبغي للإنسانِ إذا توضَّأ أن يغسلَ العَضُدَ كما يغسلُ الذِّراعَ؟ وهل يغسلُ السَّاقَ كما يغسلُ الرِّجْلَ؟ فيه خلافٌ، والمشهورُ عندنا في مذهبِ الحنابلةِ أنَّه تُسَنُّ الزِّيادةِ على محلِّ الفرضِ، لكن ابنُ القيِّم يقولُ:

٥٢٣٩- وَالرَّاجِحُ الأَقْوَى انْتِهَاءُ وُضُـوئِنَا   لِلمِــرْفَقَيْنِ كَــذَلِكَ الكَعْبَــانِ

الرَّاجحُ في النَّظرِ والأقوى في الدَّليلِ أنَّه إلى الكعبِ في الرِّجْلِ، وإلى المِرْفَقِ في اليدِ.

هذا الذي قال إنَّه الأرجحُ هو الصَّوابُ؛ لأنَّ اللهَ حَدَّدَ لنا، وينبغي لنا عندما نتوضَّأُ أن نستشعرَ ونحن نغسلُ الذِّراعَ قولَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]، وأن نستشعرَ أيضًا فعلَ النَّبيِّ ﷺ حتَّى يكونَ في وضوئِنا هذا تمامُ الإخلاصِ والمتابعة، وأكثرُ النَّاسِ إمَّا بالنِّسبةِ للأحيانِ وإمَّا بالنِّسبةِ للأشخاصِ يغفلون عن هذه النُّقطةِ، يتوضَّأُ على أنَّ الوضوءَ واجبٌ وينتهي، لكن استشعر أمرَ الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]، واستشعر مع ذلك فعلَ النَّبيِّ ﷺ حيث كان يديرُ الماءَ على مِرْفَقَيْهِ[1] ولا يتجاوزُ إلى الكتفِ.

---

(١) أخرجه البيهقي (١/ ٩٣، رقم ٢٥٥).

أهمُّ شيءٍ عندي أن نتنبهَ لهذه النُّقطةِ؛ حتَّى يكونَ وضوؤنا من أوَّلِهِ إلى آخرِه امتثالًا لأمرِ الله واتِّباعًا لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٥٢٤٠- هَذَا الَّذِي قَدْ حَدَّهُ الرَّحْمَنُ فِي الْـ ـقُرْآنِ لا تَعْدِلْ عَنِ القُرْآنِ

وذلك لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]، وقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٦]، فالله حَدَّدَ ذلك، فلا تَعْدِلْ عن القرآنِ.

٥٢٤١- وَاحْفَظْ حُدُودَ الرَّبِّ لا تَتَعَدَّهَا وَكَذَاكَ لا تَجْنَحْ إِلَى النُّقْصَانِ

والنَّاسُ في الحدودِ ينقسمون إلى قسمين: قسمٍ يتعدَّى الحدودَ، وقسمٍ يقصرُ عنها، فأنت لا تتعدَّ ولا تقصر؛ لأنَّ مَنْ تعدَّاها فقد أَفْرَطَ وغلا، ومَنْ نقص فقد فَرَّطَ وأهملَ، فكن على حسبِ حدودِ الله عزَّ وجلَّ.

٥٢٤٢- وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِ الرَّسُولِ تَجِدْهُ قَدْ أَبْدَى الْمُرَادَ وَجَاءَ بِالتِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «**أَبْدَى الْمُرَادَ**»؛ يعني: مرادَ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ.

قَوْلُهُ: «**وَجَاءَ بِالتِّبْيَانِ**»؛ أي: لقد بَيَّنَ البيانَ الكافي.

فإنَّ النَّبيَّ ﷺ في جميعِ الأحاديثِ التي وَصَفَتْ وضوءَه لم يُذْكَرْ أنَّه كان يغسلُ العَضُدَ أو يغسلُ السَّاقَ، غاية ما هنالك ما أخرجه مسلمٌ من حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وفيه أنَّه «**غَسَلَ يَدَهُ اليُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي العَضُدِ، ثُمَّ يَدَهُ اليُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي العَضُدِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ اليُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ اليُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَتَوَضَّأُ**»[1]؛ وذلك لأنَّه لا يمكنُ أن يتحقَّقَ بلوغُ الماءِ إلى الكعبين إلَّا إذا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٦).

شَرَعَ في السَّاقِ، وكذلك بالنِّسبةِ للعَضُدِ.

٥٢٤٣- وَمَنِ اسْتَطَاعَ يُطِيلُ غُرَّتِهِ فَمَوْ   قُوفٌ عَلَى الرَّاوِي هُوَ الفَوْقَانِي

يُشِيرُ إلى قولِه في الحديثِ: «فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ فَلْيَفْعَلْ»(١)، يقولُ: هذا موقوفٌ على الرَّاوي هو الفَوْقَانِيُّ وهو أبو هريرةَ؛ لأنَّه هو منتهى السَّندِ.

فيكونُ في علمِ المصطلحِ من بابِ المُدْرَجِ؛ لأنَّ لم يَفْصِلْ بينه وبين النَّصِّ النَّبويِّ.

٥٢٤٤- فَأَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ ذَا مِنْ كِيسِهِ   فَغَدَا يُمَيِّزُهُ أُولُو العِرْفَانِ

يعني: جاء بـ: «فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ...» من عنده، وإلَّا فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يَقُلْهُ.

٥٢٤٥- وَنُعَيْمٌ الرَّاوِي لَهُ قَدْ شَكَّ فِي   رَفْعِ الحَدِيثِ كَذَا رَوَى الشَّيْبَانِي

قَوْلُهُ: «نُعَيْمٌ الرَّاوِي» هو: نُعَيْمٌ المُجْمِر الذي رَوَى الحديثَ عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قَوْلُهُ: «كَذَا رَوَى الشَّيْبَانِي» الشَّيبانيُّ يعني به: الإمامَ أحمدَ بنَ حنبلٍ.

يعني: أنَّ روايةَ الإمامِ أحمدَ شَكَّ نُعَيْمٌ هل هذا من قولِ الرَّسولِ ﷺ أم من قولِ أبي هريرةَ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء والغر المحجلون من آثار الوضوء، رقم (١٣٦). ومسلم: كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٦).

٥٢٤٦- وَإِطَالَـةُ الغُـرَّاتِ لَـيْسَ بِمُمْكِـنِ   أَبَــدًا وَذَا فِي غَايَـــةِ التِّبْيَــانِ

إطالةُ الغُرَّاتِ لا يمكنُ؛ لأنَّ الغُرَّةَ هي الوجهُ، وهل يمكنُ للإنسانِ أن يُطِيلَ وجهَه؟ الجوابُ: لا يمكنُ، لو وَسَّعَه مثلًا فالمنتهى الأذنان، إذا وَصَلَ الغسلُ إلى الأذنِ لم تكن الأذنُ من الوجهِ، أو صعد به إلى النَّاصيةِ لم تكن النَّاصيةُ من الوجهِ، إِذَنْ إطالةُ الغُرَّاتِ المذكورة في الحديثِ: «**فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ**»[1] غيرُ ممكنةٍ؛ يعني: لو أمكن إطالةُ التَّحجيلِ لم يمكن إطالةُ الغُرَّاتِ، والنَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لا يمكنُ أن يتكلَّمَ بكلامٍ غيرِ ممكنٍ؛ لأنَّه معصومٌ من الخطأ بخلافِ غيرِه، فكلامُ النَّبيِّ ﷺ لا يمكنُ إلَّا أنْ يكونَ واقعًا موافقًا للحقيقةِ.

والخلاصةُ: أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُحَلَّوْنَ من أساورَ من ذهبٍ ولؤلؤٍ ومن فضَّةٍ، وأنَّ الحِلْيَةَ تبلغُ إلى حيث يبلغُ الوضوءُ، ففي اليدين إلى المِرْفَقَيْنِ، وفي الرِّجْلَيْنِ إلى الكعبين، نسألُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم من هؤلاء.

***

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم (٢٥٠).

فصــل

في صِفَةِ عَرائِسِ الجنَّةِ، وَحُسْنِهِنَّ، وَجمَالِهِنَّ، وَلَذَّةِ وِصَالِهِنَّ، وَمُهُورِهِنَّ

٥٢٤٧- يَا مَنْ يَطُوفُ بِكَعْبَةِ الـحُسْنِ الَّتِي ... حُفَّـتْ بِـذَاكَ الحجـرِ وَالأَرْكَـانِ
٥٢٤٨- وَيَظَلُّ يَسْعَى دَائِـمًا حَـوْلَ الصَّـفَا ... وَمُحَسِّـرٌ مَسْعَاهُ لا العَلَمَانِ
٥٢٤٩- وَيَرُومُ قُرْبَانَ الوِصَـالِ عَـلَى مِنًـى ... وَالـخَيْفِ يَحْجُبُـهُ عَـنِ القُرْبَـانِ
٥٢٥٠- فَلِـذَا تَـرَاهُ مُحْرِمًـا أَبَـدًا وَمَـوْ ... ضِـعُ حِلِّـهِ مِنْـهُ فَلَـيْسَ بِـدَانِ
٥٢٥١- يَبْغِـي التَّمَتُّـعَ مُفْـرِدًا عَـنْ حُبِّـهِ ... مُتَجَـرِّدًا يَبْغِـي شَـفِيعَ قِـرَانِ
٥٢٥٢- فَيَظَـلُّ بِالـجَمَرَاتِ يَرْمِـي قَلْبَـهُ ... هَـذِي مَنَاسِـكُهُ بِكُـلِّ زَمَـانِ
٥٢٥٣- وَالنَّاسُ قَدْ قَضَّوا مَنَاسِكَهُمْ وَقَـدْ ... حَثُّـوا رَكَـائِبَهُمْ إِلَى الأَوْطَـانِ
٥٢٥٤- وَحَدَتْ بِهِـمْ هِمَـمٌ لَـهُمْ وَعَـزَائِمٌ ... نَحْـوَ الـمَنَازِلِ أَوَّلَ الأَزْمَـانِ
٥٢٥٥- رُفِعَتْ لَـهُمْ فِي السَّيْرِ أَعْـلامُ الوِصَـا ... لِ فَشَـمَّرُوا يَـا خَيْبَـةَ الكَسْـلانِ
٥٢٥٦- وَرَأَوْا عَـلَى بُعْـدٍ خِيَامًـا مُشْـرِفَا ... تٍ مُشْـرِقَاتِ النُّـورِ وَالبُرْهَـانِ
٥٢٥٧- فَتَيَمَّمُـوا تِلْـكَ الـخِيَامَ فَآنَسُـوا ... فِـيهِنَّ أَقْـمَارًا بِـلا نُقْصَـانِ
٥٢٥٨- مِنْ قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لا تَبْغِي سِوَى ... مَحْبُوبِهَـا مِـنْ سَـائِرِ الشُّـبَّانِ
٥٢٥٩- قَصَرَتْ عَلَيْهِ طَرْفَهَا مِـنْ حُسْـنِهِ ... وَالطَّـرْفُ فِي ذَا الوَجْـهِ لِلنِّسْـوَانِ

٥٢٦٠- أَوْ أَنَّهَا قَصَرَتْ عَلَيْهِ طَرْفَهُ   مِنْ حُسْنِهَا فَالطَّرْفُ لِلذُّكْرَانِ

٥٢٦١- وَالأَوَّلُ المَعْهُودُ مِنْ وَضْعِ الخِطَا   بِ فَلا تَحِدْ عَنْ ظَاهِرِ القُرْآنِ

٥٢٦٢- وَلَرُبَّمَا دَلَّتْ إِشَارَتُه عَلَى الثْـ   ـثَانِي فَتِلْكَ إِشَارَةٌ لِمَعَانِ

٥٢٦٣- هَذَا وَلَيْسَ القَاصِرَاتُ كَمَنْ غَدَتْ   مَقْصُورَةً فَهُمَا إِذًا صِنْفَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ» يُشِيرُ إلى قولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمن:٥٦]، يقولُ: لها معنيان:

الأوَّلُ: قَصَرَتْ عليه طَرْفَها من حُسْنِه، وحينئذٍ الطَّرْفُ للمرأةِ، قَصَرَتْ طَرْفَهَا؛ يعني: نظرَها على زوجِها لا تريدُ سواه.

والثَّاني: «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ»؛ أي: تقصرُ طَرْفَ زوجِها عليها، وذلك من حُسْنِهَا، ويكونُ الطَّرفُ للذُّكْرانِ.

والمعنى صالحٌ لهذا وهذا، فَهُنَّ قاصراتُ الطَّرفِ لا تنظرُ الواحدةُ إلى غيرِ زوجِها، وُهَّن قاصراتُ طَرْفِ الأزواجِ، فلا ينظرون إلى سواهُنَّ، وهذا غايةُ ما يكونُ من المحبَّةِ والألفةِ؛ ولهذا جاء في الحديث: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي المِرْجَلُ مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّه لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا**»[1]، وإنَّ أدنى أهلِ الجنَّةِ لا يَبْغِي تحوُّلًا عمَّا هو عليه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦١٩٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا، رقم (٢١٣).

حتَّى يتمَّ للأوَّلِ الشَّقاءُ -والعياذُ بالله- والتَّحسُّرُ، وللثَّاني النَّعيمُ كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]، أيضًا الزَّوجان إذا كان كُلُّ واحدٍ منهما قد ابتهج بالآخرِ ولا يرى له بديلًا فهذا من تمامِ السَّعادةِ.

قَوْلُهُ: «وَالأَوَّلُ المَعْهُودُ مِنْ وَضْعِ الخِطَابِ» لا شكَّ أنَّ الأوَّلَ أظهرُ من حيث الوضعُ اللُّغويُّ، لكن لدينا قاعدةٌ في نصوصِ القرآنِ والسُّنَّةِ؛ وهي أنَّ اللَّفظَ متى كان صالحًا للمعنيَيْنِ بدون مناقضةٍ وَجَبَ أن يُحْمَلَ عليهما جميعًا، وهذا من سَعَةِ معاني القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ.

قَوْلُهُ: «لَيْسَ القَاصِرَاتُ كَمَنْ غَدَتْ مَقْصُورَةً فَهُمَا إِذًا صِنْفَانِ» يُشيرُ إلى الجنَّتَينِ الأُخْرَيَينِ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرَّحمن:٧٢]، وفي الجنَّتَينِ الأوليين قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرَّحمن:٥٦]، فليس القاصراتُ كالمقصوراتِ، وهذا صحيحٌ، فهما إذًا صِنْفانِ: صِنْفٌ مقصورٌ، وصِنْفٌ قاصرٌ.

* * *

٥٢٦٤- يَا مُطْلِقَ الطَّرْفِ المُعَذَّبِ فِي الأُلَى ... جُرِّدْنَ عَنْ حُسْنٍ وَعَنْ إِحْسَانِ

٥٢٦٥- لا تَسْبِيَنَّكَ صُورَةٌ مِنْ تَحْتِهَا الـدْ ... دَاءُ الدَّوِيُّ تَبُوءُ بِالخُسْرَانِ

٥٢٦٦- قَبُحَتْ خَلائِقُهَا وَقُبِّحَ فِعْلُهَا ... شَيْطَانَةٌ فِي صُورَةِ الإِنْسَانِ

٥٢٦٧- تَنْقَادُ لِلأَنْذَالِ وَالأَرْذَالِ هُمْ ... أَكْفَاؤُهَا مِنْ دُونِ ذِي الإِحْسَانِ

٥٢٦٨- مَا ثَمَّ مِنْ دِينٍ وَلا عَقْلٍ وَلا ... خُلُقٍ وَلا خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

٥٢٦٩- وَجَمَالُهَا زُورٌ وَمَصْنُوعٌ فَإِنْ ... تَرَكَتْهُ لَمْ تَطْمَحْ لَهَا العَيْنَانِ

٥٢٧٠- طُبِعَتْ عَلَى تَرْكِ الحِفَاظِ فَمَا لَهَا بِوَفَاءِ حَقِّ البَعْلِ قَطُّ يَدَانِ

٥٢٧١- إِنْ قَصَّرَ السَّاعِي عَلَيْهَا سَاعَةً قَالَتْ وَهَلْ أَوْلَيْتَ مِنْ إِحْسَانِ

٥٢٧٢- أَوْ رَامَ تَقْوِيمًا لَهَا اسْتَعْصَتْ وَلَمْ تَقْبَلْ سِوَى التَّعْوِيجِ وَالنُّقْصَانِ

٥٢٧٣- أَفْكَارُهَا فِي المَكْرِ وَالكَيْدِ الَّذِي قَدْ حَارَ فِيهِ فِكْرُهُ الإِنْسَانِي

٥٢٧٤- فَجَمَالُهَا قِشْرٌ رَقِيقٌ تَحْتَهُ مَا شِئْتَ مِنْ عَيْبٍ وَمِنْ نُقْصَانِ

٥٢٧٥- نَقْدٌ رَدِيءٌ فَوْقَهُ مِنْ فِضَّةٍ شَيْءٌ يَظُنُّ بِهِ مِنَ الأَثْمَانِ

٥٢٧٦- فَالنَّاقِدُونَ يَرَوْنَ مَاذَا تَحْتَهُ وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ مِنَ العُمْيَانِ

٥٢٧٧- أَمَّا جَمِيلاتُ الوُجُوهِ فَخَائِنَا تُ بُعُولِهِنَّ وَهُنَّ لِلأَخْدَانِ

٥٢٧٨- وَالحَافِظَاتُ الغَيْبِ مِنْهُنَّ الَّتِي قَدْ أَصْبَحَتْ فَرْدًا مِنَ النِّسْوَانِ

الشرحُ

٥٢٦٤- يَا مُطْلِقَ الطَّرْفِ المُعَذَّبِ فِي الأُلَى جُرِّدْنَ عَنْ حُسْنٍ وَعَنْ إِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «**فِي الأُلَى**»؛ يعني: اللَّائي، والمرادُ نساءُ الدُّنيا.

قَوْلُهُ: «**جُرِّدْنَ عَنْ حُسْنٍ وَعَنْ إِحْسَانِ**» «**عَنْ حُسْنٍ**»؛ يعني: باعتبارِ نساءِ الجنَّةِ؛ لأنَّ حُسْنَ نساءِ أهلِ الدُّنيا مهما كان لا يُنْسَبُ إطلاقًا إلى حُسْنِ نساءِ أهلِ الجنَّةِ، وكذلك الإحسان، الإحسانُ في النِّساءِ قليلٌ، ولو أَحْسَنَتْ يومًا أَسَاءَتْ دَهْرًا، هذا الغالبُ عليهنَّ؛ ولهذا أمر النَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بأن نصبرَ على النِّساءِ، فقال: «**فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فإِنْ**

ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ»(١).

ثُمَّ اتَّجه المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- إلى عُشَّاقِ النِّساءِ في الدُّنيا فقال:

٥٢٦٥- لا تَسْبِيَنَّكَ صُورَةٌ مِنْ تَحْتِهَا الـدْ ... دَاءُ الدَّوِيُّ تَبُوءُ بِالخُسْرَانِ

٥٢٦٦- قَبُحَتْ خَلائِقُهَا وَقُبِّحَ فِعْلُهَا ... شَيْطَانَةٌ في صُورَةِ الإِنْسَانِ

٥٢٦٧- تَنْقَادُ لِلأَنْذَالِ وَالأَرْذَالِ هُمْ ... أَكْفَاؤُهَا مِنْ دُونِ ذِي الإِحْسَانِ

٥٢٦٨- مَا ثَمَّ مِنْ دِينٍ وَلا عَقْلٍ وَلا ... خُلُقٍ وَلا خَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ

٥٢٦٩- وَجَمَالُهَا زُورٌ وَمَصْنُوعٌ فَإِنْ ... تَرَكَتْهُ لَمْ تَطْمَحْ لَهَا العَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «تَرَكَتْهُ» الظَّاهر أنَّها «تَتْرُكْهُ»، فالظَّاهرُ أنَّ البيتَ لا يستقيمُ إلَّا بهذا.

ذَكَرَ -رحمه اللهُ- أنَّ جمالـهَا مصنوعٌ، فهو مصنوعٌ من المكياجِ وشبهِه، لكنَّها خرابٌ، فهي تنقادُ للأَنْذَالِ والأَرْذَالِ والعياذُ بالله.

٥٢٧٠- طُبِعَتْ عَلَى تَرْكِ الحِفَاظِ فَمَا لَهَا ... بِوَفَاءِ حَقِّ البَعْلِ قَطُّ يَدَانِ

٥٢٧١- إِنْ قَصَّرَ السَّاعِي عَلَيْهَا سَاعَةً ... قَالَتْ وَهَلْ أَوْلَيْتَ مِنْ إِحْسَانِ

٥٢٧٢- أَوْ رَامَ تَقْوِيمًا لَهَا اسْتَعْصَتْ وَلَمْ ... تَقْبَلْ سِوَى التَّعْوِيجِ وَالنُّقْصَانِ

٥٢٧٣- أَفْكَارُهَا في المَكْرِ وَالكَيْدِ الَّذِي ... قَدْ حَارَ فِيهِ فِكْرُهُ الإِنْسَانِي

كُلُّ هذا جاء به الحديثُ أنَّك إذا قَصَّرْتَ عليها مرَّةً قالت: «مَا رَأَيْتُ مِنْكَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، رقم (٣٣٣١). ومسلم: كتاب النكاح، باب الوصية بالنساء، رقم (١٤٦٨)

خَيْرًا قَطُّ»[١]، وَ«إِنْ تُقِمْهَا تَكْسِرْهَا، وَإِنْ تَتْرُكْهَا تَسْتَمْتِعْ بِهَا وَفِيهَا عِوَجٌ»[٢].

٥٢٧٤- فَجَمَالُـهَا قِشْـرٌ رَقِيـقٌ تَحْتَـهُ ... مَا شِئْتَ مِنْ عَيْبٍ وَمِنْ نُقْصَانِ

٥٢٧٥- نَقْـدٌ رَدِيءٌ فَوْقَـهُ مِـنْ فِضَّـةٍ ... شَيْءٌ يَظُـنُّ بِـهِ مِـنَ الأَثْـمَانِ

٥٢٧٦- فَالنَّاقِـدُونَ يَـرَوْنَ مَـاذَا تَحْتَـهُ ... وَالنَّـاسُ أَكْثَـرُهُمْ مِـنَ العُمْيَـانِ

٥٢٧٧- أَمَّـا جَمِـيلاتُ الوُجُـوهِ فَخَائِنَـا ... تُ بُعُولِـهِنَّ وَهُـنَّ لِلأَخْـدَانِ

٥٢٧٨- وَالـحَافِظَاتُ الغَيْبِ مِنْهُنَّ الَّتِـي ... قَدْ أَصْبَحَتْ فَـرْدًا مِـنَ النِّسْـوَانِ

فالظَّاهرُ فِضَّةٌ، والدَّاخلُ نُحَاسٌ، وهذا الذي ذَكَرَهُ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- في وصفِ النِّساءِ لعلَّه يريدُ بهذا النِّساءَ الباغياتِ؛ أي: اللَّاتي يَخُنَّ أزواجَهُنَّ بالزِّنا واتِّخاذِ الأخْدَان وما أشبه ذلك، ولا يريدُ بهذا جميعَ النِّساءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في كتابِه: ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النِّساء:٣٤]، وكم من امرأةٍ ليست على ما وَصَفَ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- في هذا، لكنَّه يريدُ بذلك البغايا اللَّاتي يَخْدَعْنَ بجمالِهِنَّ الذي هو زيفٌ، تجميلٌ وليس جمالًا في الحقيقةِ، قشرٌ رقيقٌ تحته البلاءُ، والنَّاقدُ معناه البصيرُ بالشَّيءِ يَرَوْنَ ماذا تحته؟ والنَّاسُ أكثرُهم من العُميانِ؛ ولهذا قال: «**وَالـحَافِظَاتُ الغَيْبِ...**».

***

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب كفران العشير، وكفر دون كفر، رقم (٢٩)، ومسلم: في أول كتاب العيدين، رقم (٨٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٩، رقم ٩٧٩٤).

٥٢٧٩- فَانْظُرْ مَصَارِعَ مَنْ يَلِيكَ وَمَنْ خَلا مِنْ قَبْلُ مِنْ شِيبٍ وَمِنْ شُبَّانِ
٥٢٨٠- وَارْغَبْ بِعَقْلِكَ أَنْ تَبِيعَ العَالِيَ الـ ـبَاقِي بِذَا الأَدْنَى الَّذِي هُوَ فَانِي
٥٢٨١- إِنْ كَانَ قَدْ أَعْيَاكَ خَوْدٌ مِثْل مَا تَبْغِي وَلَمْ تَظْفَرْ إِلَى ذَا الآنِ
٥٢٨٢- فَاخْطُبْ مِنَ الرَّحْمَنِ خَوْدًا ثُمَّ قَدْ دِمْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ
٥٢٨٣- ذَاكَ النِّكَاحُ عَلَيْكَ أَيْسَرُ-إِنْ يَكُنْ لَكَ نِسْبَةٌ لِلعِلْمِ وَالإِيمَانِ
٥٢٨٤- وَاللهِ لَمْ تَخْرُجْ إِلَى الدُّنْيَا لِلَذْ ذَةِ عَيْشِهَا أَوْ لِلحُطَامِ الفَانِي
٥٢٨٥- لَكِنْ خَرَجْتَ لِكَيْ تَعُدَّ الزَّادَ لِلْـ أُخْرَى فَجِئْتَ بِأَقْبَحِ الخُسْرَانِ
٥٢٨٦- أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّى فَاتَ بَلْ فَاتَ الَّذِي أَلْهَاكَ عَنْ ذَا الشَّانِ
٥٢٨٧- وَاللهِ لَوْ أَنَّ القُلُوبَ سَلِيمَةٌ لَتَقَطَّعَتْ أَسَفًا مِنَ الحِرْمَانِ
٥٢٨٨- لَكِنَّهَا سَكْرَى بِحُبِّ حَيَاتِهَا الدْ دُنْيَا وَسَوْفَ تُفِيقُ بَعْدَ زَمَانِ

الشرحُ

٥٢٧٩- فَانْظُرْ مَصَارِعَ مَنْ يَلِيكَ وَمَنْ خَلا مِنْ قَبْلُ مِنْ شِيبٍ وَمِنْ شُبَّانِ
٥٢٨٠- وَارْغَبْ بِعَقْلِكَ أَنْ تَبِيعَ العَالِيَ الـ ـبَاقِي بِذَا الأَدْنَى الَّذِي هُوَ فَانِي
٥٢٨١- إِنْ كَانَ قَدْ أَعْيَاكَ خَوْدٌ مِثْل مَا تَبْغِي وَلَمْ تَظْفَرْ إِلَى ذَا الآنِ
٥٢٨٢- فَاخْطُبْ مِنَ الرَّحْمَنِ خَوْدًا ثُمَّ قَدْ دِمْ مَهْرَهَا مَا دُمْتَ ذَا إِمْكَانِ
٥٢٨٣- ذَاكَ النِّكَاحُ عَلَيْكَ أَيْسَرُ-إِنْ يَكُنْ لَكَ نِسْبَةٌ لِلعِلْمِ وَالإِيمَانِ

يقولُ: إِذَا أَعْيَاكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا خَوْدٌ؛ أي: امرأةٌ مستورةٌ طيِّبةُ الخَلْقِ والخُلُقِ، فَاخْطبْ إِلَى الرَّحْمَنِ؛ يعني: قَدِّم المهرَ إلى الله عزَّ وجلَّ لِـخِطْبَةِ الحورِ العينِ؛ وذلك بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، والإيمانُ والعملُ الصَّالحُ هو مهرٌ أيسرُ من مهورِ نساءِ الدُّنيا، وهو أيضًا يطِيبُ به القلبُ، وينشرحُ به الصَّدرُ، وتنبسطُ به النَّفسُ، ولا حياةَ ألذُّ من حياةِ أهلِ الإيمانِ والصَّلاحِ أبدًا، حتَّى قال بعضُ السَّلفِ: «لو يعلمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسُّيوفِ»(١) الملوكُ وأبناءُ الملوكِ سرورُهم ورفاهيَّتُهم سرورُ جسدٍ لا سرور قلبٍ، ورفاهيةُ جسدٍ لا رفاهية نفسٍ، وإن كانوا منعَّمين ويُخْدَمُونَ وتُقَدَّمُ لهم أطيبُ الفواكهِ والفُرُشِ والأَسِرَّةِ، لكن نفوسُهم ليست مسرورةً، بل نفوسُهم في حبسٍ وضيقٍ، لكن ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحل:٩٧]، لم يقل: «**لَنُوَسِّعَنَّ عليه في الرِّزقِ والقصورِ والمراكبِ**»، بل قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، تجدُ قلبَه مُنْشَرِحًا مُنَعَّمًا مسرورًا دائمًا لا ينغلقُ، حتَّى إنَّه إذا انغلق فتَحَ اللهُ له بابَ الاستغفارِ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ**(٢) **عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ**»(٣)، فتجدُه دائمًا مُنْشَرِحًا؛ لأنَّه يقولُ بلسانِ الحالِ: «**إن فاتتني الدُّنيا أَدْرَكْتُ الآخرةَ، وإن لم تَفُتْنِي جَمَعْتُ بين الدُّنيا والآخرةِ**»، فهو يترقَّبُ دارًا أكملَ بكثيرٍ من دارِه التي هو

---

(١) من كلام إبراهيم بن أدهم، وقد تقدم.

(٢) الغين: الغيم. وغِينَت السماء تُغَان: إذا أطبق عليها الغيم. وقيل: الغَين: شجر ملتف، أراد ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر، لأن قلبه أبدًا كان مشغولًا بالله تعالى، فإن عرض له وقتا ما عارض بَشَري يشغله مِن أمور الأمة والملة ومصالحها عدَّ ذلك ذنبًا وتقصيرًا، فيفزع إلى الاستغفار. انظر: النهاية: غين.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢).

فيها؛ لأَنَّه يؤمنُ بها ويترقَّبُها ويسعى للوصولِ إليها، ومع ذلك يجعلُ اللهُ في قلبِه من السُّرورِ والبهجةِ وطيبِ العيشِ ما لا يحصلُ لغيرِه.

٥٢٨٤- وَاللهِ لَمْ تَخْرُجْ إِلَى الدُّنْيَا لِلَذْ ... ذَةِ عَيْشِهَا أَوْ لِلْحُطَامِ الفَانِي

٥٢٨٥- لَكِنْ خَرَجْتَ لِكَيْ تَعُدَّ الزَّادَ لِلْـ ... أُخْرَى فَجِئْتَ بِأَقْبَحِ الخُسْرَانِ

صحيحٌ، ما خَرَجْنَا لنعيشَ في الدُّنيا كما تعيشُ البهائمُ نأكلُ ونشربُ وننامُ فقط، ولكن خَرَجْنَا لكي نُعِدَّ الزَّادَ للأخرى؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦]؛ أي: تَعَالَى وَتَعاظَمَ أن يخلقَنا عبثًا لا نرجعُ إليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، سوف نقفُ بين يدي الله عزَّ وجلَّ ملاقاةً، ويحاسبُنا، ثُمَّ نُؤْتَى الكتبَ بالأَيْمانِ أو بالشَّمائلِ، نسألُ اللهَ أن يجعلَ كتابَنا باليمينِ.

٥٢٨٦- أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّى فَاتَ بَلْ ... فَاتَ الَّذِي أَلْهَاكَ عَنْ ذَا الشَّانِ

قَوْلُهُ: «أَهْمَلْتَ جَمْعَ الزَّادِ حَتَّى فَاتَ»، أيَّ زادٍ أَهْمَلَ؟ الجوابُ: أَهْمَلَ جمعَ زادِ الآخرةِ، حتَّى فَاتَ، وجَمْعُ زادِ الآخرةِ بالأعمالِ الصَّالحةِ.

قَوْلُهُ: «حَتَّى فَاتَ، بَلْ فَاتَ الَّذِي أَلْهَاكَ عَنْ ذَا الشَّانِ» اللهُ أكبرُ، إِذَنْ فاته زادان: زادُ الآخرةِ والزَّادُ الذي ألهاه عن زادِ الآخرةِ، ما الذي ألهاه عن هذا الزَّادِ؟ الجوابُ: الدُّنيا ومتعُها فَاتَتْ، الدُّنيا الآن لا يمضي منها دقيقةٌ فترجعُ، كُلُّها تفوتُ، فدقائقُ ولحظاتٌ وإذا أنت على شفا البئرِ، انْتَهَيْتَ، لكن نعيمُ الآخرةِ يزدادُ

ويبقى، ولا يَفْنى أبدًا كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨]؛ أي: لا ينقطعُ أبدًا، فكيف نُؤْثِرُ الفانيَ على الباقي؟! والله إنَّه جهلٌ منَّا وغفلةٌ وتغافلٌ؛ إذ كيف نُفَضِّلُ الدُّنيا على الآخرةِ، مع أنَّنا نراها تذهبُ ولا ترجعُ، تفوتُ، فإذا لم نستدرك أعمارَنا بالأعمالِ الصَّالحةِ فاتتنا الدُّنيا والآخرةُ، قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزُّمر:١٥].

٥٢٨٧- وَاللهِ لَـوْ أَنَّ القُلُـوبَ سَـلِيمَةٌ لَتَقَطَّعَـتْ أَسَـفًا مِـنَ الـحِرْمَانِ

أَقْسَمَ، وَصَدَقَ، والله لو أنَّ قلوبَنا سليمةٌ لتقطَّعت أسفًا وحُزْنًا من حرمانِها؛ يعني: يُحْرَمُ الإنسانُ الوصولَ إلى الجنَّةِ بسوءِ فعلِه، وما أكثرَ السَّاعاتِ التي تمرُّ بنا ونحن نُحْرَمُ منها ولا نستفيدُ منها، والعمرُ والزَّمنُ أغلى من الثَّمنِ، أغلى من الذَّهبِ وأغلى من الفضَّةِ، الذَّهبُ والفضَّةُ لو ذهبا يمكن أن يأتيَ بدلهما شيءٌ، لكن العمرُ والزَّمنُ لا يأتي بدلَه شيءٌ، إذا ذَهَبَ ذَهَبَ بدون ردٍّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١١]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]؛ يعني: لا يُوجدُ رجوعٌ، ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون:١٠].

أنت الآن في مهلةٍ، اغتنم الوقتَ، اجعل لنفسِك حزبًا من كتابِ الله عزَّ وجلَّ، اجعل لنفسِك وقتًا للعملِ الصَّالحِ، قُمْ في آخرِ اللَّيلِ ولو نصفَ ساعةٍ قبل الفجرِ، نَاجِ ربَّك، ادْعُه، فإنَّه تعالى ينزلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا فيَقُولُ: «مَنْ يَدْعُونِي

فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»[(١)]، مَن الذي لا يقدرُ أن يقومَ قبل الفجرِ بنصفِ ساعةٍ؟! هذا أمرٌ بسيطٌ جدًّا، نحن نسألُ اللهَ أن يرحَمَنا برحمتِه، لا نقومُ ثلثَ اللَّيلِ ولا نصفَ اللَّيلِ، لكن أفلا يمكنُ أن نقومَ نصفَ ساعةٍ فقط، نتوضَّأُ، نذكرُ اللهَ فيها، نصلِّي ما شاء اللهُ، نُوتِرُ؟! هذا أمرٌ أظنُّه بسيطًا جدًّا.

كذلك أيضًا نجعلُ حياتَنا كُلَّها ذكرًا لله، فإنَّ المؤمنَ الكَيِّسَ هو الذي يجعلُ حياتَه كُلَّها ذكرًا لله؛ لأنَّ في كُلِّ شيءٍ أمامنا آيةً من آياتِ الله، فإذا ذَكَرْنَا هذا الشَّيءَ الذي أمامنا من آياتِ الله ذكرنا بذلك اللهَ عزَّ وجلَّ، فيكونُ الإنسانُ دائمًا يذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ بما يُشَاهِدُ من آياتِ الله الكونيَّةِ، بل بما يُشَاهِدُ من نفسِه وتقلُّباتِها، فالقلوبُ ليست على وتيرةٍ واحدةٍ دائمًا، بل في غفلةٍ أحيانًا، في إنابةٍ أحيانًا، في تذكُّرٍ أحيانًا، في حياةٍ بيِّنةٍ أحيانًا، أحيانًا يحيا قلبُك حياةً تتمتَّعُ بها مدَّةً من الزَّمنِ تتذكَّرُها، رُبَّما تتذكَّرُ حالةً وَقَفْتَ فيها بين يدي الله عزَّ وجلَّ مُصَلِّيًا ساجدًا قبل ثلاثين سنةً أو أكثر حسب عُمُرِ الإنسانِ؛ لأنَّها أَثَّرَتْ في قلبِه، فمثلُ هذه الاشياءِ ينبغي أن نستغلَّها، وألَّا نغفلَ، فالغفلةُ قسوةٌ للقلبِ وموتٌ للقلبِ.

٥٢٨٨- لَكِنَّهَا سَكْرَى بِحُبِّ حَيَاتِهَا الدْ   دُنْيَا وَسَوْفَ تُفِيقُ بَعْدَ زَمَانِ

وَصَدَقَ رحمه اللهُ، القلوبُ سَكْرَى بِحُبِّ حياتِها الدُّنيا، فهي تسعى للدُّنيا أوَّلا وآخرًا، ينامُ الإنسانُ وهو يفكِّرُ في الدُّنيا، يستيقظُ وهو يفكِّرُ في الدُّنيا، كأنَّما خُلِقْتَ للدُّنيا فتغفلُ عن الآخرةِ، ومتى تُفِيقُ؟ قال: «**وَسَوْفَ تُفِيقُ بَعْدَ زَمَانِ**»

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

متى؟ الجوابُ: عند الموتِ يُفيقُ الإنسانُ، يقولُ: «لَيْتَنِي فَعَلْتُ، لَيْتَني فَعَلْتُ»، وأشدُّ من ذلك إفاقةً إذا كان يومُ القيامةِ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨]، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان:٢٩]، أو يقولُها القائلُ وهو نفسُ الذي عَضَّ يديه، وحين يقولُ القائلُ: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]، وهناك لا ينفعُ النَّدمُ.

فجزاه اللهُ خيرًا، فقد حَرَّكَ القلوبَ وأفاد، نسألُ اللهَ أن يجزيَه عنَّا خيرًا.

أسألُ اللهَ تعالى بأسمائِه وصفاتِه أن يجعلَني وإيَّاكم ممَّن يغتنمُ الأوقاتِ بالأعمالِ الصَّالحاتِ، وأن يُثبِّتَنا عند المماتِ وبعد المماتِ وفي يومٍ يجعلُ الولدان شيبًا، إنَّه جوادٌ كريمٌ.

* * *

فصل

٥٢٨٩- فَاسْمَعْ صِفَاتِ عَرَائِسِ الجَنَّاتِ ثُمْ ... مَ اخْتَرْ لِنَفْسِكَ يَا أَخَا العِرْفَانِ

٥٢٩٠- حُورٌ حِسَانٌ قَدْ كَمُلْنَ خَلائِقًا ... وَمَحَاسِنًا مِنْ أَجْمَلِ النِّسْوَانِ

٥٢٩١- حَتَّى يَحَارَ الطَّرْفُ فِي الحُسْنِ الَّذِي ... قَدْ أُلْبِسَتْ فَالطَّرْفُ كَالحَيْرَانِ

٥٢٩٢- وَيَقُولُ لَـمَّا أَنْ يُشَاهِدَ حُسْنَهَا ... سُبْحَانَ مُعْطِي الحُسْنِ وَالإِحْسَانِ

٥٢٩٣- وَالطَّرْفُ يَشْرَبُ مِنْ كُؤُوسِ جَمَالِهَا ... فَتَرَاهُ مِثْلَ الشَّارِبِ النَّشْوَانِ

٥٢٩٤- كَمُلَتْ خَلائِقُهَا وَأُكْمِلَ حُسْنُهَا ... كَالبَدْرِ لَيْلَ السِّتِّ بَعْدَ ثَمَانِ

٥٢٩٥- وَالشَّمْسُ تَجْرِي فِي مَحَاسِنِ وَجْهِهَا ... وَاللَّيْلُ تَحْتَ ذَوَائِبِ الأَغْصَانِ

٥٢٩٦- فَتَرَاهُ يَعْجَبُ وَهْوَ مَوْضِعُ ذَاكَ مِنْ ... لَيْلٍ وَشَمْسٍ كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ

٥٢٩٧- وَيَقُولُ سُبْحَانَ الَّذِي ذَا صُنْعُهُ ... سُبْحَانَ مُتْقِنِ صَنْعَةِ الإِنْسَانِ

٥٢٩٨- لا اللَّيْلُ يُدْرِكُ شَمْسَهَا فَتَغِيبُ عِنْـ ... ـدَ مَجِيئِهِ حَتَّى الصَّبَاحِ الثَّانِي

٥٢٩٩- وَالشَّمْسُ لا تَأْتِي بِطَرْدِ اللَّيْلِ بَلْ ... يَتَصَاحَبَانِ كِلاهُمَا أَخَوَانِ

٥٣٠٠- وَكِلاهُمَا مِرْآةُ صَاحِبِهِ إِذَا ... مَا شَاءَ يُبْصِرُ وَجْهَهُ يَرَيَانِ

٥٣٠١- فَيَرَى مَحَاسِنَ وَجْهِهِ فِي وَجْهِهَا ... وَتَرَى مَحَاسِنَهَا بِهِ بِعِيَانِ

٥٣٠٢- حُمْرُ الخُدُودِ ثُغُورُهُنَّ لآلِئٌ ... سُودُ العُيُونِ فَوَاتِرُ الأَجْفَانِ

٥٣٠٣- وَالبَرْقُ يَبْـدُو حِـينَ يَبْسِـمُ ثَغْرُهَـا فَيُضِيءُ سَقْفُ القَصْرِ بِالـجُدْرَانِ

٥٣٠٤- وَلَقَـدْ رُوِينَـا أَنَّ بَرْقًـا سَـاطِعًا يَبْـدُو فَيُسْـأَلُ عَنْـهُ مَـنْ بِجِنَـانِ

٥٣٠٥- فَيُقَـالُ هَـذَا ضَـوْءُ ثَغْـرِ ضَـاحِكٍ فِي الـجَنَّةِ العُلْيَـا كَـمَا تَرَيَـانِ

٥٣٠٦- لله لاثِـمُ ذَلِـكَ الثَّغْـرِ الَّـذِي فِي لَثْمِـهِ إِدْرَاكُ كُـلِّ أَمَـانِ

٥٣٠٧- رَيَّانَـةُ الأَعْطَـافِ مِـنْ مَـاءِ الشَّبَا بِ فَغُصْـنُهَا بِالمَـاءِ ذُو جَرَيَـانِ

٥٣٠٨- لَـمَّا جَـرَى مَـاءُ النَّعِيمِ بِغُصْـنِهَا حَمَـلَ الثِّـمَارَ كَثِـيرَةَ الأَلْـوَانِ

٥٣٠٩- فَـالوَرْدُ وَالتُّفَّـاحُ وَالرُّمَّـانُ فِي غُصْـنٍ تَعَـالَى غَـارِسُ البُسْـتَانِ

٥٣١٠- وَالقَدُّ مِنْهَـا كَالقَضِـيبِ اللَّـدْنِ فِي حُسْنِ القَـوَامِ كَأَوْسَـطِ القُضْبَانِ

٥٣١١- فِي مَغْـرِسٍ كَالعَـاجِ تَحْسَـبُ أَنَّـهُ عَـالِي النَّقَـا أَوْ وَاحِـدُ الكُثْبَـانِ

٥٣١٢- لا الظَّهْـرُ يَلْحَقُهَـا وَلَـيْسَ ثُـدَيُّهَا بِلَوَاحِـقٍ لِلْـبَطْنِ أَوْ بِـدَوَانِي

٥٣١٣- لَكِـنَّهُنَّ كَوَاعِـبٌ وَنَوَاهِـدٌ فَثُـدَيُّهُنَّ كَـأَلْطَفِ الرُّمَّـانِ

٥٣١٤- وَالـجِيدُ ذُو طُـولٍ وَحُسْـنٍ فِي بَيَـا ضٍ وَاعْتِـدَالٍ لَـيْسَ ذَا نُكْـرَانِ

٥٣١٥- يَشْكُو الـحُلِيُّ بِعَادَهُ فَلَهُ مَدَى الْـ أَيَّـامِ وَسْـوَاسٌ مِـنَ الـهِجْرَانِ

٥٣١٦- وَالـمِعْصَمَانِ فَـإِنْ تَشَـأْ شَـبِّهْهُمَا بِسَـبِيكَتَيْنِ عَلَـيْهِمَا كَفَّـانِ

٥٣١٧- كَالزُّبْـدِ لِينًـا فِي نُعُومَـةِ مَلْمَـسٍ أَصْـدَافُ دُرٍّ دُوِّرَتْ بِـوِزَانِ

٥٣١٨- وَالصَّـدْرُ مُتَّسِـعٌ عَـلَى بَطْـنٍ لَـهَا حُفَّـتْ بِـهِ خَصْـرَانِ ذَاتِ ثَـمَانِ

٥٣١٩- وَعَلَيْهِ أَحْسَنُ سُرَّةٍ هِيَ مَجْمَعُ الْـ ... ـخَصْرَيْنِ قَدْ غَارَتْ مِنَ الأَعْكَانِ

٥٣٢٠- حُقٌّ مِنَ العَاجِ اسْتَدَارَ وَحَوْلَهُ ... حَبَّاتُ مِسْكٍ جَلَّ ذُو الإِتْقَانِ

٥٣٢١- وَإِذَا انْحَدَرْتَ رَأَيْتَ أَمْرًا هَائِلًا ... مَا لِلصِّفَاتِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ

٥٣٢٢- لَا الحَيْضُ يَغْشَاهُ وَلا بَوْلٌ وَلَا ... شَيْءٌ مِنَ الآفَاتِ فِي النِّسْوَانِ

٥٣٢٣- فَخِذَانِ قَدْ حُفَّا بِهِ حَرَسًا لَهُ ... فَجَنَابُهُ فِي عِزَّةٍ وَصِيَانِ

٥٣٢٤- قَامَا بِخِدْمَتِهِ هُوَ السُّلْطَانُ بَيْـ ... ـنَهُمَا وَحَقٌّ طَاعَةُ السُّلْطَانِ

٥٣٢٥- وَهُوَ الـمُطَاعُ أَمِيرُهُ لا يَنْثَنِي ... عَنْهُ وَلا هُوَ عِنْدَهُ بِجَبَانِ

٥٣٢٦- وَجِمَاعُهَا فَهُوَ الشِّفَاءُ لِصَبِّهَا ... فَالصَّبُّ مِنْهُ لَيْسَ بِالضَّجَرَانِ

٥٣٢٧- وَإِذَا يُجَامِعُهَا تَعُودُ كَمَا أَتَتْ ... بِكْرًا بِغَيْرِ دَمٍ وَلا نُقْصَانِ

٥٣٢٨- فَهُوَ الشَّهِيُّ وَعُضْوُهُ لا يَنْثَنِي ... جَاءَ الـحَدِيثُ بِذَا بِلا نُكْرَانِ

٥٣٢٩- وَلَقَدْ رُوِينَا أَنَّ شُغْلَهُمُ الَّذِي ... قَدْ جَاءَ فِي ﴿يسٓ﴾ دُونَ بَيَانِ

٥٣٣٠- شُغُلُ العَرُوسِ بِعِرْسِهِ مِنْ بَعْدِ مَا ... عَبِثَتْ بِهِ الأَشْوَاقُ طُولَ زَمَانِ

٥٣٣١- بِاللهِ لا تَسْأَلْهُ عَنْ أَشْغَالِهِ ... تِلْكَ اللَّيَالِي شَأْنُه ذُو شَانِ

٥٣٣٢- وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا بِصَبٍّ غَابَ عَنْ ... مَحْبُوبِهِ فِي شَاسِعِ البُلْدَانِ

٥٣٣٣- وَالشَّوْقُ يُزْعِجُهُ إِلَيْهِ وَمَا لَهُ ... بِلِقَائِهِ سَبَبٌ مِنَ الإِمْكَانِ

٥٣٣٤- وَافَى إِلَيْهِ بَعْدَ طُولِ مَغِيبِهِ ... عَنْهُ وَصَارَ الوَصْلُ ذَا إِمْكَانِ

٥٣٣٥- أَتَلُومُـهُ أَنْ صَـارَ ذَا شُـغُلٍ بِـهِ ... لَا وَالَّـذِي أَعْطَـى بِـلَا حُسْـبَانِ

٥٣٣٦- يَـا رَبِّ غَفْـرًا قَـدْ طَغَـتْ أَقْلَامُنَـا ... يَـا رَبِّ مَعْـذِرَةً مِـنَ الطُّغْيَـانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «**فَتَرَاهُ يَعْجَبُ وَهْوَ مَوْضِعُ ذَاكَ مِنْ لَيْلٍ وَشَمْسٍ كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ؟**» الشَّمسُ: الوجهُ، واللَّيلُ: ذوائبُ الرَّأسِ، فهو يتعجَّبُ كيف يجتمعُ اللَّيلُ والنَّهارُ؟ لكنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وهذا كُلُّه كالتَّمثيلِ والمبالغةِ في الاستعارةِ.

قَوْلُهُ: «**فَيَرَى مَحَاسِنَ وَجْهِهِ فِي وَجْهِهَا وَتَرَى مَحَاسِنَهَا بِهِ بِعِيَانِ**»؛ يعني أنَّ الرَّجُلَ مع أهلِه من الحورِ في الجنَّةِ يستطيعُ أن يَرى وجهَه في وجهِها، وتَرى وجهَها في وجهِه، فكُلٌّ منهما مرآةُ صاحبِه، لكن هذا يحتاجُ إلى دليلٍ.

قَوْلُهُ: «**وَإِذَا يُجَامِعُهَا تَعُودُ كَمَا أَتَتْ بِكْرًا بِغَيْرِ دَمٍ وَلَا نُقْصَانِ**»؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ [الواقعة:٣٥-٣٦]؛ يعني: دائمًا.

قَوْلُهُ: «**وَلَقَدْ رُوِينَا أَنَّ شُغْلَهُمُ الَّذِي قَدْ جَاءَ فِي ﴿يس﴾ دُونَ بَيَانِ شُغُلُ العَرُوسِ بِعِرْسِهِ**» وهذا هو ظاهرُ الآيةِ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس:٥٥-٥٦]، فتفسيرُها بهذا مطابقٌ تمامًا لظاهرِ السِّياقِ.

قَوْلُهُ: «**وَاضْرِبْ لَـهُمْ مَثَلًا بِصَبٍّ غَابَ عَنْ مَحْبُوبِهِ فِي شَاسِعِ البُلْدَانِ**» «**الصَّبُّ**»؛ أي: الحبيب، فالصَّبابةُ درجةٌ من درجاتِ المحبَّةِ؛ لأنَّ المحبَّةَ عشرُ درجاتٍ ذكَرَها ابنُ القيِّمِ في «**روضة المحبِّين**»، وأعلاها الخُلَّةُ.

وهذا المَثَلُ واضحٌ؛ فهذا رجلٌ غابَ عن زوجتِه طويلًا، وهو يحبُّها وتحبُّه.

قَوْلُهُ: «الشَّوْقُ يُزْعِجُهُ»؛ أي: إليها، وكذلك هي، ثُمَّ **«وَافَى إِلَيْهِ بَعْدَ طُولِ مَغِيبِهِ عَنْهُ وَصَارَ الوَصْلُ ذَا إِمْكَانِ أَتَلُومُهُ إِنْ صَارَ ذَا شُغْلٍ بِهِ؟»** الجوابُ: **«لَا، وَالَّذِي أَعْطَى بِلَا حُسْبَانِ»**.

قَوْلُهُ: «يَا رَبِّ غَفْرًا قَدْ طَغَتْ أَقْلَامُنَا يَا رَبِّ مَعْذِرَةً مِنَ الطُّغْيَانِ»، وهذا صحيحٌ أنَّه طَغَتْ أقلامُه، والطُّغيانُ: الزِّيادةُ، لكن هذه زيادةٌ -إن شاء اللهُ- لا يأثمُ بها؛ لأنَّ قصدَه بهذا التَّشويقُ إلى ما في الجنَّةِ من الحورِ العينِ، وأنَّه ليس ما في الجنَّةِ كما في الدُّنيا، هُنَّ أزواجٌ لكنَّهن أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ، وليس في الجنَّةِ ممَّا في الدُّنيا إلَّا الأسماءُ فقط، والحورُ نساءٌ خُلِقْنَ في الجنَّةِ لأهلِ الجنَّةِ، خُلِقْنَ بكلمة «كُن»، لكن نساءُ الدُّنيا يَكُنَّ أحسنَ من الحورِ في الجنَّةِ، ويكنَّ أفضلَ منهُنَّ أيضًا؛ لأنَّ الحورَ العينَ لم يلحقْهُنَّ تكليفٌ ولا ابتلاءٌ وامتحانٌ بطاعةِ الله عزَّ وجلَّ بخلافِ نساءِ الدُّنيا، وكُلُّ ما يكونُ في الحورِ العينِ من الصِّفاتِ فهو موجودٌ في نساءِ الدُّنيا.

المهمُّ أنَّ المؤلِّفَ -رحمه اللهُ- أراد بهذا الوصفِ العجيبِ الغريبِ أن يُشَوِّقَ الإنسانَ إلى هؤلاء الأزواجِ حتَّى يعملَ لَـهُنَّ، نسألُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم من أزواجِهنَّ، وأن يرزقَنا العلمَ النَّافعَ والعملَ الصَّالحَ.

***

فصــل

٥٣٣٧- أَقْـدَامُهَا مِـنْ فِضَّـةٍ قَـدْ رُكِّبَـتْ ... مِــنْ فَوْقِهَــا سَــاقَانِ مُلْتَفَّــانِ

٥٣٣٨- وَالسَّاقُ مِثْلُ العَـاجِ مَلْمُـومٌ يَـرَى ... مُــخَّ العِظَــامِ وَرَاءَهُ بِعِيَــانِ

٥٣٣٩- وَالرِّيحُ مِسْكٌ وَالـجُسُومُ نَـوَاعِمٌ ... وَاللَّـوْنُ كَاليَـاقُوتِ وَالـمَرْجَانِ

٥٣٤٠- وَكَلامُهَـا يَسْبِي العُقُـولَ بِنَغْمَـةٍ ... زَادَتْ عَـلَى الأَوْتَـارِ وَالعِيـدَانِ

٥٣٤١- وَهِيَ العَـرُوبُ بِشَـكْلِهَا وَبِدَلِّـهَا ... وَتَحَبُّـــبٍ لِلــزَّوْجِ كُــلَّ أَوَانِ

٥٣٤٢- وَهِيَ الَّتِي عِنْـدَ الـجِمَاعِ تَزِيـدُ فِي ... حَرَكَاتِهَــا لِلعَــيْنِ وَالأُذُنَــانِ

٥٣٤٣- لُطْفًــا وَحُسْــنَ تَبَعُّــلٍ وَتَغَــنُّجٍ ... وَتَحَبُّـبٍ تَفْسِـيرُ ذِي العِرْفَــانِ

٥٣٤٤- تِلْكَ الـحَلاوَةُ وَالـمَلاحَةُ أَوْجَبَـا ... إِطْلاقَ هَـذَا اللَّفْـظِ وَضْـعَ لِسَـانِ

٥٣٤٥- فَمَلاحَـةُ التَّصْـوِيرِ قَبْـلَ غِنَاجِهَـا ... هِـيَ أَوَّلٌ وَهُـوَ الـمَحِلُّ الثَّـانِي

٥٣٤٦- فَـإِذَا هُـمَا اجْتَمَعَـا لَصَـبٍّ وَامِـقٍ ... بَلَغَـتْ بِـهِ اللَّـذَّاتُ كُـلَّ مَكَـانِ

الشرحُ

٥٣٣٧- أَقْـدَامُهَا مِـنْ فِضَّـةٍ قَـدْ رُكِّبَـتْ ... مِــنْ فَوْقِهَــا سَــاقَانِ مُلْتَفَّــانِ

٥٣٣٨- وَالسَّاقُ مِثْلُ العَـاجِ مَلْمُـومٌ يَـرَى ... مُــخَّ العِظَــامِ وَرَاءَهُ بِعِيَــانِ

قَوْلُهُ: «وَالسَّاقُ مِثْلُ العَاجِ مَلْمُومٌ يُرَى مُخُّ العِظَامِ وَرَاءَهُ بِعِيَانِ» ولا تقيسوا

هذا بالدُّنيا، فلو أنَّ امرأةً صار يُرَى مُخُّ ساقِها فلا يشتهيها الإنسانُ، لكن في الآخِرةِ الأمرُ يختلفُ، فيُوجَدُ الآن تمرٌ صافٍ جدًّا يَرِدُ من الجزائرِ، تَرَى النَّواةَ من ورائِه، فهذا تشتاقُ إلى أكلِه قبل أن تأكلَه؛ لأنَّ هذا طبيعتُه.

٥٣٣٩- وَالرِّيحُ مِسْكٌ وَالجُسُومُ نَوَاعِمٌ ... وَاللَّوْنُ كَاليَاقُوتِ وَالمَرْجَانِ

٥٣٤٠- وَكَلامُهَا يَسْبِي العُقُولَ بِنَغْمَةٍ ... زَادَتْ عَلَى الأَوْتَارِ وَالعِيدَانِ

٥٣٤١- وَهِيَ العَرُوبُ بِشَكْلِهَا وَبِدَلِّهَا ... وَتَحَبُّبٍ لِلزَّوْجِ كُلَّ أَوَانِ

٥٣٤٢- وَهِيَ الَّتِي عِنْدَ الجِمَاعِ تَزِيدُ فِي ... حَرَكَاتِهَا لِلعَيْنِ وَالأُذُنَانِ

٥٣٤٣- لُطْفًا وَحُسْنَ تَبَعُّلٍ وَتَغَنُّجٍ ... وَتَحَبُّبٍ تَفْسِيرُ ذِي العِرْفَانِ

يعني: هذا تفسيرُ أصحابِ المعرفةِ، وعلى رأسِهم عبدُ الله بنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ العَرُوبَ هي ما وُصِفَتْ بالشَّكلِ والدَّلِّ والتَّحببِ والتَّغنُّجِ، وغيرِ ذلك ممَّا يُوجِبُ المحبَّةَ التَّامَّةَ لزوجِها.

٥٣٤٤- تِلْكَ الحَلاوَةُ وَالمَلاحَةُ أَوْجَبَا ... إِطْلاقَ هَذَا اللَّفْظِ وَضْعَ لِسَانِ

٥٣٤٥- فَمَلاحَةُ التَّصْوِيرِ قَبْلَ غِنَاجِهَا ... هِيَ أَوَّلٌ وَهُوَ المَحِلُّ الثَّانِي

٥٣٤٦- فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِصَبٍّ وَامِقٍ ... بَلَغَتْ بِهِ اللَّذَّاتُ كُلَّ مَكَانِ

قَوْلُهُ: «لِصَبٍّ» الصَّبُّ: شديدُ الحُبِّ.

قَوْلُهُ: «وَامِقٍ»؛ أي: ذو مِقَةٍ؛ والمِقَةُ: رتبةٌ من مرتبةِ المحبَّةِ أيضًا.

* * *

فصل

٥٣٤٧- أَتْـرَابُ سِـنٍّ وَاحِـدٍ مُتَمَاثِـلٍ سِـنِّ الشَّـبَابِ لأَجْمَـلِ الشُّـبَّانِ

٥٣٤٨- بِكْرٌ فَلَمْ يَأْخُذْ بَكَارَتَهَا سِوَى الْـ ـمَحْبُوبِ مِنْ إِنْسٍ وَلا مِنْ جَانِ

٥٣٤٩- حِصْنٌ عَلَيْهِ حَارِسٌ مِنْ أَعْظَمِ الْـ ـحُرَّاسِ بَأْسًا شَأْنُهُ ذُو شَانِ

٥٣٥٠- فَإِذَا أَحَسَّ بِدَاخِلٍ لِلحِصْنِ وَلْـ ـلَى هَارِبًا فَتَرَاهُ ذَا إِمْعَانِ

٥٣٥١- وَيَعُودُ وَهْنًا حِينَ رَبُّ الحِصْنِ يَخْـ ـرُجُ مِنْهُ فَهْوَ كَذَا مَدَى الأَزْمَانِ

٥٣٥٢- وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّهَا تَنْصَاعُ بِكْرًا لِلجِمَاعِ الثَّانِي

٥٣٥٣- لَكِنَّ دَرَّاجًا أَبَا السَّمْحِ الَّذِي فِيهِ يُضَعِّفُهُ أُولُو الإِتْقَانِ

٥٣٥٤- هَذَا وَبَعْضُهُمُ يُصَحِّحُ عَنْهُ فِي التْـ ـتَفْسِيرِ كَالمَوْلُودِ مِنْ حِبَّانِ

٥٣٥٥- فَحَدِيثُهُ دُونَ الصَّحِيحِ وَإِنَّهُ فَوْقَ الضَّعِيفِ وَلَيْسَ ذَا إِتْقَانِ

الشرحُ

هذا وإن كان الحديثُ ضعيفًا في هذه المسألةِ، لكنَّه ظاهرُ القرآنِ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة:٣٥- ٣٧]، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾؛ يعني: عند كُلِّ جماعٍ، ولو كانت بِكْرًا في أوَّلِ مرَّةٍ لم يكن لها هذا الإنشاءُ الذي قال اللهُ فيه: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾؛ يعني: إنشاءً يُغَايِرُ إنشاءَ النِّساءِ في

الدُّنيا، فالصَّحيحُ حتَّى لو كان الحديثُ ضعيفًا[1] أنَّهُنَّ يُنْشَأْنَ أبكارًا، فكُلَّما جَامَعَهَا وَنَزَعَ منها عَادَتْ بِكْرًا، واللهُ عزَّ وجلَّ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

***

٥٣٥٦- يُعْطَى الـمُجَامِعُ قُوَّةَ المِئَةِ الَّتِي اجْـ ـــتَمَعَتْ لأَقْـوَى وَاحِـدِ الإِنْسَـانِ

٥٣٥٧- لَا أَنَّ قُوَّتَـهُ تُضَـاعَفُ هَكَـذَا إِذْ قَـدْ يَكُـونُ لأَضْـعَفِ الأَرْكَـانِ

٥٣٥٨- وَيَكُونُ أَقْوَى مِنْهُ ذَا نَقْصٍ مِنَ الْـ إِيـمَانِ وَالأَعْـمَالِ وَالإِحْسَـانِ

٥٣٥٩- وَلَقَـدْ رُوِينَـا أَنَّـهُ يَغْشَـى بِيَـوْ مٍ وَاحِـدٍ مِئَـةً مِـنَ النِّسْـوَانِ

٥٣٦٠- وَرِجَالُهُ شَرْطُ الصَّحِيحِ رَوَوْا لَـهُمْ فِيـهِ وَذَا فِي «مُعْجَـمِ الطَّـبَرَانِي»

٥٣٦١- هَـذَا دَلِيـلٌ أَنَّ قَـدْرَ نِسَـائِهِمْ مُتَفَـاوِتٌ بِتَفَـاوُتِ الإِيـمَانِ

٥٣٦٢- وَبِهِ يَـزُولُ تَـوَهُّمُ الإِشْـكَالِ عَـنْ تِلْـكَ النُّصُـوصِ بِمِنَّـةِ الـرَّحْمَنِ

٥٣٦٣- وَبِقُـوَّةِ الـمِئَةِ الَّتِـي حَصَـلَتْ لَـهُ أَفْضَـى إِلَى مِئَـةٍ بِـلا خَـوَرَانِ

٥٣٦٤- وَأَعَفُّهُـمْ فِي هَـذِهِ الـدُّنْيَا هُـوَ الـ أَقْـوَى هُنَـاكَ لِزُهْـدِهِ فِي الفَـانِي

٥٣٦٥- فَاجْمَعْ قُوَاكَ لِـمَا هُنَاكَ وَغَمِّضِ الْـ ـعَيْنَيْنِ وَاصْـبِرْ سَـاعَةً لِزَمَـانِ

٥٣٦٦- مَـا هَاهُنَـا وَاللهِ مَـا يَسْـوَى قُـلا مَـةَ ظُفْـرٍ وَاحِـدَةٍ تُـرَى بِجِنَـانِ

٥٣٦٧- مَـا هَاهُنَـا إِلَّا النِّفَـارُ وَسَـيِّئُ الـ أَخْـلاقِ مَـعْ عَيْـبٍ وَمَـعْ نُقْصَـانِ

(١) يعني حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: أنطأُ في الجنة قال: «نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ دَحْمًا دَحْمًا فَإِذَا قَامَ عَنْهَا رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بكرا». أخرجه ابن حبان (١٦/ ٤١٥، رقم ٧٤٠٢).

٥٣٦٨- هَـــمٌّ وَغَـــمٌّ دَائِـــمٌ لا يَنْتَهِـــي   حَتَّـى الطَّـلاقِ أَوِ الفِـرَاقِ الثَّـانِي

٥٣٦٩- وَاللهُ قَـدْ جَعَـلَ النِّسَـاءَ عَوَانِيًـا   شَرْعًا فَأَضْحَى البَعْلُ وَهْوَ العَـانِي

٥٣٧٠- لَا تُؤْثِرِ الأَدْنَـى عَـلَى الأَعْـلَى فَـإِنْ   تَفْعَـلْ رَجَعْـتَ بِذِلَّـةٍ وَهَـوَانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «**مَا هَاهُنَا إِلَّا النِّقَارُ**»؛ أي: المشاجرةُ.

قَوْلُهُ: «**هَمٌّ وَغَمٌّ دَائِمٌ**»؛ أي: هَمٌّ لما مَضَى، وغَمٌّ لما يأتي.

قَوْلُهُ: «**لَا يَنْتَهِي حَتَّى الطَّلَاقِ أَوِ الفَرَاقِ الثَّانِي**» «**الفِرَاقُ الثَّانِي**»؛ أي: الموتُ.

قَوْلُهُ: «**وَاللهُ قَدْ جَعَلَ النِّسَاءَ عَوَانِيًا**» قد جَعَلَ اللهُ النِّساءَ عوانيًا؛ يعني: مثل الأسرى عند الرِّجالِ.

قَوْلُهُ: «**فَأَضْحَى البَعْلُ وَهْوَ العَانِي**»؛ يعني: انعكست القضيَّةُ، صار البعلُ هو الأسيرَ؛ يعني أنَّها أَسَرَتْهُ، فصار الرَّجُلُ يمشي على ما تريدُ المرأةُ.

وكأنَّ ابنَ القيِّمِ يُشَاهِدُ حالَ كثيرٍ من النَّاسِ اليوم، اليوم أصبح الزَّوجُ هو الأسيرَ عند الزَّوجةِ، ماذا تريد؟ فيفعل، حتَّى إنَّه ليحملُ ابنَه ومتاعَه الذي يشتريه من السُّوقِ، ابنُه يحملُه على عربةٍ يُحرِّكُها، ومتاعُه بيدِه والزَّوجةُ تمشي، ولا تحملُ شيئًا أبدًا، هذا عكسُ الحقيقةِ، وقد كانت زوجةُ الزُّبَيْرِ بن العوَّامِ تحملُ النَّوى من المدينةِ إلى بستانِه خارج المدينةِ[(١)]، هذا هو الحقيقةُ هُنَّ عَوَانٍ، لكن علينا أن نتَّقيَ اللهَ فيهنَّ ونُعْطِيَهُنَّ مثل ما نُحِبُّ أن يُعْطِينَ إيَّاه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الغيرة، رقم (٤٩٢٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق، رقم (٢١٨٢).

فصل

٥٣٧١- وَإِذَا بَدَتْ فِي حُلَّةٍ مِنْ لُبْسِهَا ... وَتَمَايَلَتْ كَتَمَايُلِ النَّشْوَانِ

٥٣٧٢- تَهْتَزُّ كَالغُصْنِ الرَّطِيبِ وَحَمْلُهُ ... وَرْدٌ وَتِفَّاحٌ عَلَى رُمَّانِ

٥٣٧٣- وَتَبَخْتَرَتْ فِي مَشْيِهَا وَيَحِقُّ ذَا ... كَ لِمِثْلِهَا فِي جَنَّةِ الحَيَوَانِ

٥٣٧٤- وَوَصَائِفٌ مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا ... وَعَلَى شَمَائِلِهَا وَعَنْ أَيْمَانِ

٥٣٧٥- كَالبَدْرِ لَيْلَةَ تَمِّهِ قَدْ حُفَّ فِي ... غَسَقِ الدُّجَى بِكَوَاكِبِ المِيزَانِ

٥٣٧٦- فَلِسَانُهُ وَفُؤَادُهُ وَالطَّرْفُ فِي ... دَهَشٍ وَإِعْجَابٍ وَفِي سُبْحَانِ

٥٣٧٧- فَالقَلْبُ قَبْلَ زِفَافِهَا فِي عُرْسِهِ ... وَالعُرْسُ إِثْرَ العُرْسِ مُتَّصِلانِ

٥٣٧٨- حَتَّى إِذَا مَا وَاجَهَتْهُ تَقَابَلا ... أَرَأَيْتَ إِذْ يَتَقَابَلُ القَمَرَانِ

٥٣٧٩- فَسَلِ المُتَيَّمَ هَلْ يَحِلُّ الصَّبْرُ عَنْ ... ضَمٍّ وَتَقْبِيلٍ وَعَنْ فَلَتَانِ

٥٣٨٠- وَسَلِ المُتَيَّمَ أَيْنَ خَلَّفَ صَبْرَهُ ... فِي أَيِّ وَادٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانِ

٥٣٨١- وَسَلِ المُتَيَّمَ كَيْفَ حَالَتُهُ وَقَدْ ... مُلِئَتْ لَهُ الأُذُنَانِ وَالعَيْنَانِ

٥٣٨٢- مِنْ مَنْطِقٍ رَقَّتْ حَوَاشِيهِ وَوَجْـ ... ـهٍ كَمْ بِهِ لِلشَّمْسِ مِنْ جَرَيَانِ

٥٣٨٣- وَسَلِ المُتَيَّمَ كَيْفَ عِيشَتُهُ إِذَا ... وَهُمَا عَلَى فَرْشَيْهِمَا خِلْوَانِ

٥٣٨٤- يَتَسَاقَطَانِ لآلِئًا مَنْثُورَةً ... مِنْ بَيْنِ مَنْظُومٍ كَنَظْمِ جُمَانِ

٥٣٨٥- وَسَلِ الـمُتَيَّمَ كَيْفَ مَجْلِسُهُ مَعَ الـ ـــمَحْبُوبِ في رَوْحٍ وَفِي رَيْحَانِ
٥٣٨٦- وَتَدُورُ كَاسَاتُ الرَّحِيقِ عَلَيْهِمَا بِـأَكُفِّ أَقْـمَارٍ مِـنَ الوِلْـدَانِ
٥٣٨٧- يَتَنَازَعَـانِ الكَـأْسَ هَـذَا مَـرَّةً وَالـخَوْدُ أُخْـرَى ثُـمَّ يَتَّكِئَـانِ
٥٣٨٨- فَيَضُـمُّهَا وَتَضُـمُّهُ أَرَأَيْـتَ مَعْـ ـــشُوقَيْنِ بَعْـدَ البُعْـدِ يَلْتَقِيَـانِ
٥٣٨٩- غَابَ الرَّقِيبُ وَغَـابَ كُـلُّ مُنَكِّـدٍ وَهُمَـا بِثَـوْبِ الوَصْـلِ مُشْـتَمِلانِ
٥٣٩٠- أَتَرَاهُمَا ضَجِرَيْنِ مِنْ ذَا العَيْشِ لا وَحَيَـاةِ رَبِّـكَ مَـا هُمَـا ضَـجِرَانِ
٥٣٩١- وَيَزِيـدُ كُـلٌّ مِـنْهُمَا حُبًّـا لِصَـا حِبِـهِ جَدِيـدًا سَـائِرَ الأَزْمَـانِ
٥٣٩٢- وَوِصَـالُهُ يَكْسُـوهُ حُبًّـا بَعْـدَهُ مُتَسَلْسِـلًا لا يَنْتَهِـي بِزَمَـانِ
٥٣٩٣- فَالوَصْـلُ مَحْفُـوفٌ بِحُـبٍّ سَـابِقٍ وَبِلاحِـقٍ وَكِلاهُمَـا صِـنْوَانِ
٥٣٩٤- فَـرْقٌ لَطِيـفٌ بَـيْنَ ذَاكَ وَبَـيْنَ ذَا يَدْرِيـهِ ذُو شُـغُلٍ بِهَـذَا الشَّـانِ
٥٣٩٥- وَمَزِيدُهُمْ في كُـلِّ وَقْـتٍ حَاصِـلٌ سُبْحَانَ ذِي المَلَكُـوتِ وَالسُّـلْطَانِ
٥٣٩٦- يَـا غَـافِلًا عَـمَّا خُلِقْـتَ لَـهُ انْتَبِـهْ جَـدَّ الرَّحِيـلُ فَلَسْـتَ بِاليَقْظَـانِ
٥٣٩٧- سَـارَ الرِّفَـاقُ وَخَلَّفُـوكَ مَـعَ الأُلَى قَنَعُوا بِذَا الـحَظِّ الـخَسِيسِ الفَانِي
٥٣٩٨- وَرَأَيْـتَ أَكْثَـرَ مَـنْ تَـرَى مُتَخَلِّفًـا فَتَبِعْـتَهُمْ وَرَضِـيتَ بِالـحِرْمَانِ
٥٣٩٩- لَكِنْ أَتَيْتَ بِخُطَّتَـيْ عَجْـزٍ وَجَهْــ ـلٍ بَعْـدَ ذَا وَصَـحِبْتَ كُـلَّ أَمَـانِ
٥٤٠٠- مَنَّتْكَ نَفْسُكَ بِاللَّحَاقِ مَـعَ القُعُـو دِ عَـنِ الـمَسِيرِ وَرَاحَـةِ الأَبْـدَانِ

٥٤٠١- وَلَسَوْفَ تَعْلَمُ حِينَ يَنْكَشِفُ الغِطَا مَـاذَا صَـنَعْتَ وَكُنْـتَ ذَا إِمْكَـانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «وَتَبَخْتَرَتْ فِي مَشْيِهَا» أمَّا في الدُّنيا فالتَّبختُرُ لا يجوزُ إلَّا في حالٍ واحدةٍ، في حالِ الحربِ مع الأعداءِ فإنَّه يجوزُ لنا أن نتبخترَ وأن نمشيَ الخيلاءَ، وأن نلبسَ الحريرَ أيضًا ونحن رجالٌ لقصدِ إذلالِ العدوِّ وإهانتِه.

قَوْلُهُ: «وَوَصَائِفُ مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا...» الوَصَائِفُ؛ يعني: الخدمَ، فالحوريَّةُ لها خدمٌ، شبَّههم ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- كالبدرِ ليلةَ تمِّه؛ يعني: تمامَه **«قَدْ حُفَّ فِي غَسَقِ الدُّجى بِكَوَاكِبِ المِيزَانِ»** إذا صار البدرُ تامًّا وحوله كواكبُ الميزانِ النَّيِّرة، فإنَّه يكونُ له منظرٌ عجيبٌ لا يعرفُه إلَّا مَنْ شَاهَدَ ذلك.

قَوْلُهُ: «وَفِي سُبْحَانِ» **«سُبْحَان»**؛ يعني: تسبيحًا لله عزَّ وجلَّ، يُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجلَّ وينزِّهُه عن كُلِّ نقصٍ.

قَوْلُهُ: «فَرْقٌ لَطِيفٌ بَيْنَ ذَاكَ وَبَيْنَ ذَا يَدْرِيهِ ذُو شُغُلٍ بِهَذَا الشَّانِ» وهذا صحيحٌ، فهناك فرقٌ بين حُبِّ التَّلاقي السَّابقِ واللَّاحقِ، لكن ما يدريه إلَّا ذو شُغُلٍ بهذا الشَّانِ.

قَوْلُهُ: «مَنَّتْكَ نَفْسُكَ بِاللَّحَاقِ مَعَ القُعُودِ عَنِ المَسِيرِ وَرَاحَةِ الأَبْدَانِ»؛ وذلك كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢].

***

فصل

في ذِكْرِ الخلافِ بَيْنَ النَّاسِ: هَلْ تَحْبَلُ نِساءُ أَهْلِ الجَنَّةِ أم لا؟

٥٤٠٢- وَالنَّاسُ بَيْنَهُمُ خِلافٌ هَلْ بِهَا ... حَبَلٌ وَفِي هَذَا لَهُمْ قَوْلانِ

٥٤٠٣- فَنَفَاهُ طَاوُسٌ وَإِبْرَاهِيمُ ثُمْـ ... ـمَ مُجَاهِدٌ وَهُمُ أُولُو العِرْفَانِ

٥٤٠٤- وَرَوَى العُقَيْلِيُّ الصَّدُوقُ أَبُو رَزِيـ ... ـنٍ صَاحِبِ المَبْعُوثِ بِالقُرْآنِ

٥٤٠٥- أَلَّا تَوَالُدَ في الجِنَانِ رَوَاهُ تَعْـ ... ـلِيقًا مُحَمَّدٌ العَظِيمُ الشَّانِ

٥٤٠٦- وَحَكَاهُ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ إِسْـ ... ـحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ذُو الإِتْقَانِ

٥٤٠٧- لَا يَشْتَهِي وَلَدًا بِهَا وَلَوِ اشْتَهَا ... هُ لَكَانَ ذَاكَ مُحَقَّقَ الإِمْكَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «رَوَاهُ تَعْلِيقًا مُحَمَّدٌ العَظِيمُ الشَّانِ»؛ أي: محمَّدُ بن إسماعيلَ البخاريُّ.

قَوْلُهُ: «وَقَالَ إِسْحَاقُ... لَا يَشْتَهِي وَلَدًا بِهَا وَلَوِ اشْتَهَاهُ لَكَانَ ذَاكَ مُحَقَّقَ الإِمْكَانِ» وهذا هو المناسبُ أَلَّا توالدَ في الجنَّةِ؛ لأنَّ التَّوالدَ في الدُّنيا لِحفظِ بقاءِ النَّسلِ؛ لأنَّ النَّاسَ يموتون، لكن في الآخرةِ لا موت، فتجدُهم لا يحتاجون إلى أولادٍ، ولا يشتهون الولدَ، ولا يتفاخرون به، إِذَنْ لا فائدةَ، فالرَّاجحُ أنَّه لا توالدَ في الجنَّةِ، لكن لو فَرَضْنَا أنَّ أحدًا اشتهاه فعمومُ قولِه تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزُّخرف:٧١]، وقولِه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصِّلت:٣١] يقتضي أن يحصلَ له الولدُ.

٥٤٠٨- وَرَوَى هِشَامٌ لابْنِهِ عَنْ عَامِرٍ عَنْ نَاجِي عَنْ سَعْدِ بْنِ سِنَانِ
٥٤٠٩- أَنَّ المُنَعَّمَ بِالجِنَانِ إِذَا اشْتَهَى الـ ـوَلَدَ الَّذِي هُوَ نُسْخَةُ الإِنْسَانِ
٥٤١٠- فَالحَمْلُ ثُمَّ الوَضْعُ ثُمَّ السِّنُّ في فَرْدٍ مِنَ السَّاعَاتِ في الأَزْمَانِ
٥٤١١- إِسْنَادُهُ عِنْدِي صَحِيحٌ قَدْ رَوَا هُ التِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ الشَّيْبَانِي
٥٤١٢- وَرِجَالُ ذَا الإِسْنَادِ مُحْتَجٌّ بِهِمْ في «مُسْلِمٍ» وَهُمُ أُولُو إِتْقَانِ
٥٤١٣- لَكِنْ غَرِيبٌ مَا لَهُ مِنْ شَاهِدٍ فَرْدٍ بِذَا الإِسْنَادِ لَيْسَ بِثَانِ
٥٤١٤- لَوْلا حَدِيثُ أَبِي رَزِينٍ كَانَ ذَا كَالنَّصِّ يَقْرُبُ مِنْهُ في التِّبْيَانِ
٥٤١٥- وَلِذَاكَ أَوَّلَهُ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ بِالشْـ ـشَرْطِ الَّذِي هُوَ مُنْتَفِي الوِجْدَانِ
٥٤١٦- وَبِذَاكَ رَامَ الجَمْعَ بَيْنَ حَدِيثِهِ وَأَبِي رَزِينٌ وَهْوَ ذُو إِمْكَانِ
٥٤١٧- هَذَا وَفِي تَأْوِيلِهِ نَظَرٌ فَإِنْ نَ «إِذَا» لِتَحْقِيقٍ وَذِي إِيقَانِ
٥٤١٨- وَلَرُبَّمَا جَاءَتْ لِغَيْرِ تَحَقُّقٍ وَالعَكْسُ في «إِنْ» ذَاكَ وَضْعُ لِسَانِ

الشرحُ

إِذَنْ فَهِمْنَا الآن أنَّ نفيَ حَبَلِ نساءِ أهلِ الجنَّةِ في حالٍ لا يشتهي فيها الولدَ كما في حديث أبي رَزِين العُقَيْلِيِّ[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والإثباتَ فيما إذا اشتهى الولدَ، وهذا الجمعُ لا شكَّ أنَّه يُوافِقُ قولَه تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف:٧١] فما المانعُ إذا اشتهى الإنسانُ ولدًا في الجنَّةِ أن يُولَدَ له في مدَّةٍ وجيزةٍ،

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور، رقم (٣٩٧).

في ساعاتٍ، ولكن هل الإنسانُ هناك يكونُ في نفسِه شوقٌ إلى الأولادِ؟ اللهُ أعلمُ، لكن قد لا يجعلُ اللهُ له شوقًا إلى الأولادِ، ويكونُ نعيمُه فيما عندَه من الحورِ والولدانِ وغيرِ ذلك، وكذلك الذُّرِّيَّة التي تبعته؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطُّور:٢١]، ونجدُ الإنسانَ في الدُّنيا قد تَطِيبُ نفسُه عن الأولادِ إذا كثروا، ولا يكون له هَمٌّ للأولادِ، فكيف بالجنَّةِ التي فيها من النَّعيمِ ما يُسَلِّي الإنسانَ عن كُلِّ شيءٍ؛ لهذا نجمعُ بين الأحاديثِ الدَّالةِ على الولدِ والأحاديثِ النَّافيةِ بأنْ نقولَ: إنَّه إذا اشتهاه فلا مانعَ أن يكونَ، ولكن مَنْ يقولُ: إنَّه يشتهي؟ وحينئذٍ يُحْمَلُ النَّفيُ على أنَّهم لا يشتهون الولدَ، وإذا لم يشتهوه لا يُولَدُ لهم؛ لكن المؤلِّفُ تعقَّب هذا الجمعَ أيضًا؛ ولذا قال: «**هَذَا وَفِي تَأْوِيلِهِ نَظَرٌ**»؛ ووجهُ ذلك أنَّ الحديثَ جاء بكلمة «**إِذَا**»، قال النَّبيُّ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الوَلَدَ فِي الجنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ كَمَا يَشْتَهِي**»(١)، وهناك فرقٌ بين «**إِنْ**» الشَّرطيَّةِ، و«**إذا**» الشَّرطيَّةِ.

يقولون: «**إذا**» لتوقيتِ المُحقَّقِ، و«**إِنْ**» لتعليقِ غيرِ المُحَقَّقِ؛ فمثلًا: إذا قلت: «**إذا قَامَ زيدٌ فَقُمْ**» هذا يُشْعِرُ بأنَّ زيدًا سيقومُ، وأنَّ قيامَك مرتبطٌ بقيامِه، فهي للتَّوقيتِ؛ ومثلُ ذلك أيضًا قولُه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ [البقرة:٢٠]، فهي تدلُّ على تحقُّقِ الشَّرطِ، وإذا قلت: «**إِنْ قَامَ زيدٌ فَقُمْ**» فهذه شرطيَّةٌ؛ لأنَّه قد يقومُ وقد لا يقومُ، وكُلُّ إنسانٍ يجدُ الفرقَ بين «**إِذَا قَامَ زيدٌ فَقُمْ**» وبين «**إِنْ قَامَ زيدٌ فَقُمْ**» هذا هو الأصلُ في اللُّغةِ العربيَّةِ، ولكن مع ذلك قد تأتي «**إِذَا**» لما لم يُتَحَقَّقْ و«**إِنْ**» لما تَحَقَّقَ، إِذَنْ هما يتبادلان.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة، رقم (٢٥٦٣)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة الجنة، رقم (٤٣٣٨).

٥٤١٩- وَاحْتَجَّ مَنْ نَصَرَ الوِلادَةَ أَنَّ في الـ ـجَنَّاتِ سَائِرَ شَهْوَةِ الإِنْسَانِ
٥٤٢٠- وَاللهُ قَدْ جَعَلَ البَنِينَ مَعَ النِّسَا مِنْ أَعْظَمِ الشَّهَوَاتِ في القُرْآنِ
٥٤٢١- فَأُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ لا يَشْتَهِي وَلَدًا وَلا حَبَلًا مِنَ النِّسْوَانِ
٥٤٢٢- وَاحْتَجَّ مَنْ مَنَعَ الوِلادَةَ أَنَّهَا مَلْزُومَةٌ أَمْرَانِ مُمْتَنِعَانِ
٥٤٢٣- حَيْضٌ وَإِنْزَالُ المَنِيِّ وَذَانِكَ الـ أَمْرَانِ في الـجَنَّاتِ مَفْقُودَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ قَدْ جَعَلَ البَنِينَ مَعَ النِّسَا مِنْ أَعْظَمِ الشَّهَوَاتِ فِي القُرْآنِ»، وهذا صحيحٌ كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران:١٤].

قَوْلُهُ: «وَاحْتَجَّ مَنْ مَنَعَ الوِلَادَةَ... وَذَانِكَ الأَمْرَانِ فِي الجَنَّاتِ مَفْقُودَانِ» مَنْ مَنَعَ الولادةَ؛ قالوا: لأنَّ الولادةَ تستلزمُ حيضَ المرأةِ وإنزالَ الرَّجلِ المنيَّ، وهذا في الجنَّةِ مفقودٌ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة:٢٥]؛ يعني: لا يَحِضْنَ؛ لأنَّ الحيضَ قذرٌ وأذى كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٢٢].

***

٥٤٢٤- وَرَوَى صدى عَنْ رَسُولِ الله أَنْ نَ مَنِيَّهُمْ إِذْ ذَاكَ ذُو فُقْدَانِ
٥٤٢٥- بَلْ لا مَنِيَّ وَلا مَنِيَّةَ هَكَذَا يَرْوِي سُلَيْمَانٌ هُوَ الطَّبَرَانِي
٥٤٢٦- وَأُجِيبَ عَنْهُ بِأَنَّهُ نَوْعٌ سِوَى الـ ـمَعْهُودِ في الدُّنْيَا مِنَ النِّسْوَانِ

٥٤٢٧- فَالنَّفْيُ لِلمَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الـ إِيـلادِ وَالإِثْبَـاتِ نَـوْعٌ ثَـانِ

الشرحُ

العلماءُ -رحمهم اللهُ- في مناقشاتٍ عجيبةٍ، قالوا: يمكنُ ولدٌ بمنيٍّ غيرِ منيِّ الدُّنيا، فَلَيْسَ فِي الجَنَّةِ مَنِيٌّ وَلَا مَنِيَّةٌ؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «...وَلَكِنْ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيَّةَ»[1]؛ يعني: لا منيَّ ولا موتَ، والمنيُّ به الحياةُ، والموتُ به الفقدانُ، فالجنَّةُ ليس فيها مَنِيٌّ ينشأ به الولدانُ، ولا مَنِيَّة يُفْقَدُ بها الموجودُ، يقولُ: أجاب القائلون بالإمكانِ بأنَّ قولَه: «لَا مَنِيَّ»؛ يعني: المنيَّ المعهودَ الذي في الدُّنيا، فالنَّفيُ لِلْمَعْهُودِ في الدُّنْيَا، لكن هذا ضعيفٌ.

***

٥٤٢٨- وَاللهُ خَـالِقُ نَوْعِنَـا مِـنْ أَرْبَـعٍ مُتَقَـابِلاتٍ كُلُّهَـا بِـوِزَانِ

٥٤٢٩- ذَكَـرٍ وَأُنْثَـى وَالَّـذِي هُـوَ ضِـدُّهُ وَكَـذَاكَ مِـنْ أُنْثَـى بِـلا ذُكْـرَانِ

٥٤٣٠- وَالعَكْـسُ أَيْضًـا مِثْـلُ حَـوَّا أُمِّنَـا هِـيَ أَرْبَـعٌ مَعْلُومَـةُ التِّبْيَـانِ

الشرحُ

خَلَقَ اللهُ الجنسَ البشريَّ من أصنافٍ أربعةٍ:

الأَوَّل: من ذكرٍ وأنثى.

الثَّاني: من أنثى بلا ذكرٍ.

الثَّالث: من ذكرٍ بلا أنثى.

---

(١) أخرجه الطبراني (٨/ ٩٦، رقم ٧٤٧٩).

الرَّابع: لا من ذكرٍ ولا من أنثى.

فآدمُ لا من ذكرٍ ولا من أنثى، وحوَّاء من ذكرٍ بلا أنثى، وعيسى من أنثى بلا ذكرٍ، وسائرُ النَّاسِ من ذكرٍ وأنثى.

***

٥٤٣١- وَكَذَاكَ مَوْلُودُ الجِنَانِ يَجُوزُ أَنْ ... يَأْتِي بِلا حَيْضٍ وَلا فَيَضَانِ

٥٤٣٢- وَالأَمْرُ في ذَا مُمْكِنٌ في نَفْسِهِ ... وَالقَطْعُ مُمْتَنِعٌ بِلا بُرْهَانِ

الشرحُ

جزاه اللهُ خيرًا، هذا هو العَجَبُ، يقولُ: يمكنُ أن يأتيَ بلا حيضٍ وبلا إنزالٍ، لكنَّنا لا نقطعُ بهذا، وهذا آخِرُ ما عنده، فهو يقولُ: ما نقطعُ بشيءٍ، والقطعُ ممتنعٌ بلا برهانٍ.

والذي يظهرُ -والعلمُ عند الله- أنَّهم لا يشتهون الأولادَ، وأنَّهم لو اشتهوا لَحصَلَ بدونِ فضلاتٍ؛ من: مَنِيٍّ، أو حيضٍ؛ لأنَّ الحيضَ أذًى، ونساءُ الجنَّةِ مُطَهَّراتٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة:٢٥]، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، لكن الذي يظهرُ -واللهُ أعلمُ- أنَّ أهلَ الجنَّةِ في غنًى عن الأولادِ، لا يحتاجون إلى بقاءِ النَّسلِ كما نحتاجُه نحن في الدُّنيا، والإنسانُ إذا مات بلا أولادٍ لا يَجْرِي له ذِكْرٌ، فالأولادُ هم بقاءُ الإنسانِ في الحقيقةِ، وأيضًا الذُّرِّيَّةُ الصِّغارُ يكونون مع أهليهم في منازلِهم كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطُّور:٢١]، فإذا كان معهم ذُرِّيَّتُهم الصِّغارُ وعندهم هؤلاء الحورُ والنَّعيمُ الذي لا يخطرُ على بالِ

أحدٍ، فهم في غنًى عن الأولادِ، ولكن مع ذلك الذي نجزمُ به من دلالةِ الآيةِ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزُّخرف:٧١] أنَّه لو اشتهى الإنسانُ الولدَ لحصل، وأنَّه ليس بالضَّروريِّ أن يكونَ هناك حيضٌ أو منيٌّ؛ لأنَّ اللهَ خلق الجنسَ البشريَّ كما قال ابنُ القيِّمِ من أصنافٍ أربعةٍ، وهم كُلُّهم بشرٌ، كُلُّهم في الدُّنيا، فكيف بالآخرة؟! قد يكونُ الولدُ من دون إنزالٍ ومن دون حيضٍ، وأيضًا الحملُ المعروفُ في بني آدمَ أنَّه يبقى مدَّةً، وما جاء به الحديثُ من حملِ نساءِ أهلِ الجنَّةِ لا يبقى مدَّةً، واللهُ أعلمُ.

فالظَّاهرُ -واللهُ أعلمُ- أنَّ أهلَ الجنَّةِ لا يرغبون بالأولادِ، وإن رغبوا فالأمرُ يسيرٌ، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

انتهت الآن البحوثُ، وشيخُنا عبدُ الرَّحمن بن سعديٍّ -رحمه اللهُ- لـمَّا وصل إلى كرامةِ الله لهؤلاءِ قال: «انتهى الكلامُ على النُّونيَّةِ، ومن أراد الاطِّلاعَ على ما أعدَّ اللهُ لأهلِ الجنَّةِ فليقرأ «حادي الأرواح» للمؤلِّف.

وعلى هذا تُعْتَبَرُ قراءتُنا هذه نافلةً بالنِّسبةِ لما سَلَكَه شيخُنا رحمه اللهُ.

***

فصل

في رُؤْيَةِ أَهْلِ الجَنَّةِ رَبَّهُمْ تَبَارَكَ وتَعَالَى، وَنَظَرِهِمْ إِلَى وَجْهِهِ الكَرِيمِ

٥٤٣٣- وَيَرَوْنَــهُ سُــبْحَانَهُ مِــنْ فَــوْقِهِمْ ... نَظَـرَ العِيَـانِ كَـمَا يَـرَى القَمَـرَانِ

٥٤٣٤- هَـذَا تَـوَاتَرَ عَـنْ رَسُـولِ اللهِ لَـمْ ... يُنْكِــرْهُ إِلَّا فَاسِــدُ الإِيــمَانِ

٥٤٣٥- وَأَتَى بِـهِ القُـرْآنُ تَصْرِيـحًا وَتَعْـ ... ـرِيضًا هُمَـا بِسِـيَاقِهِ نَوْعَـانِ

٥٤٣٦- وَهِيَ الزِّيَـادَةُ قَـدْ أَتَـتْ فِي يُـونُسٍ ... تَفْسِـيرُ مَـنْ قَـدْ جَـاءَ بِـالقُرْآنِ

٥٤٣٧- وَرَوَاهُ عَنْهُ مُسْـلِمٌ بِـ«صَحِيحِهِ» ... يَـرْوِي صُـهَيْبٌ ذَا بِـلا كِـتْمَانِ

٥٤٣٨- وَهُوَ الـمَزِيدُ كَـذَاكَ فَسَّـرَهُ أَبُـو ... بَكْـرٍ هُـوَ الصِّـدِّيقُ ذُو الإِيقَـانِ

٥٤٣٩- وَعَلَيْهِ أَصْحَابُ الرَّسُـولِ وَتَـابِعُو ... هُـمْ بَعْـدَهُمْ تَبَعِيَّـةَ الإِحْسَـانِ

٥٤٤٠- وَلَقَدْ أَتَى ذِكْـرُ اللِّقَـاءِ لِرَبِّنَـا الـرْ ... رَحْمَــنِ فِي سُــوَرٍ مِــنَ الفُرْقَــانِ

٥٤٤١- وَلِقَـاؤُهُ إِذْ ذَاكَ رُؤْيَتُـهُ حَكَـى الـ ... إِجْمَـاعَ فِيــهِ جَمَاعَــةٌ بِبَيَــانِ

٥٤٤٢- وَعَلَيْهِ أَصْحَابُ الحَدِيثِ جَمِيعُهُمْ ... لُغَــةً وَعُرْفًــا لَـيْسَ يَخْتَلِفَــانِ

الشرحُ

هذا الفصلُ مهمٌّ جدًّا، وهو في إثباتِ رؤيةِ أهلِ الجنَّةِ لله ربِّ العالمين، وهذه الرُّؤيةُ رؤيةُ حقٍّ بالعينِ، ورؤيةُ حقٍّ بالقلبِ؛ لأنَّ القلبَ يعلمُ، والعينَ ترى،

وبذلك يحصلُ علمُ اليقينِ وعينُ اليقينِ، وقد تَوَاتَرَ عن رسولِ الله ﷺ رؤيةُ المؤمنين إلى ربِّهم تواتُرًا قطعيًّا، وجاء في القُرآنِ في عِدَّةِ آياتٍ؛ ولهذا حَكَمَ بعضُ السَّلفِ على كفرِ مَنْ أنكر رؤيةَ الله عزَّ وجلَّ، وقال: «**مَنْ أنكر رؤيةَ الله في الآخرةِ فهو كافرٌ؛ لأنَّه خَالَفَ صريحَ القرآنِ وصريحَ السُّنَّةِ**»، والنَّبيُّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- قَرَّرَ هذه الرُّؤيةَ، وأنَّها رؤيةٌ بالعينِ، قال: «**إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ**»[1]، وقال: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» **قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ:** «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**»[2]، وهل بعدَ هذا التَّوكيدِ تحريفٌ لمحرِّفٍ؟! أبدًا؛ ولهذا نقولُ: إنَّ الكتابَ ومتواترَ السُّنَّةِ قد دَلَّا على إثباتِ رؤيةِ المؤمنين لله عزَّ وجلَّ.

بَقِيَ غيرُ المؤمنين هل يَرَوْنَ اللهَ؟ أَمَّا الكُفَّارُ فلا يَرَوْنَ اللهَ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٥] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متى؟ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطفِّفين:٦]؛ أي: يوم القيامةِ، أَمَّا المنافقون فَيَرَوْنَ اللهَ في عَرَصَاتِ القيامةِ، ثُمَّ يُحْجَبُ بينهم وبينه كما جاء في حديث أبي سعيدٍ في قصَّةِ كشفِ الله عزَّ وجلَّ عن ساقِه «**فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا**»[3]، إِذَنْ يعجزُ عن السُّجودِ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم (٥٢٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، رقم (٦٢٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، رقم (٧٠٠١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

كُلُّ مَنْ سَجَدَ لله رياءً وسمعةً وهم المنافقون، وفي هذا زيادةُ الحسرةِ عليهم؛ لأنَّ مَنْ لم يَروه أصلًا أهونُ مصيبةً من الذين رَأَوْه ثُمَّ حُجِبُوا عنه؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥]، ولم يقل: «لو نشاءُ لم نُنْبِتْهُ»، بل قال: «لجعلناه حُطَامًا بعد نباتِه»؛ لأنَّ تعلُّقَ النَّفسِ به بعد نباتِه أشدُّ من تعلُّقِها به بعد بَذْرِه، فإذا حُرِمَتْهُ بعد النَّباتِ صار أشدَّ وقعًا، وقال أيضًا: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٧٠]، ولم يقل جلَّ ذكرُه: «لو نشاءُ لم ننزلْه»؛ لأنَّه إذا نَزَلَ ثُمَّ فَسَدَ صار أشدَّ وقعًا على النُّفوسِ؛ لأنَّ النَّفسَ بعد نزولِه تتعلَّقُ به، فإذا حُرِمَتْهُ صار أشدَّ عليها ممَّا لو لم تره، فالمنافقون يَرَوْنَ اللهَ في عَرَصَاتِ القيامةِ، ثُمَّ يُحْجَبُون عنه، نسألُ اللهَ لنا ولكم العافيةَ، وأن يجعلَنا ممَّن يراه ببصرِه في جنَّاتِ النَّعيمِ.

٥٤٣٣- وَيَرَوْنَـهُ سُـبْحَانَهُ مِـنْ فَـوْقِهِمْ ... نَظَـرَ العِيَـانِ كَـمَا يَـرَى القَمَـرَانِ

قَوْلُهُ: «كَمَا يُرَى القَمَرَانِ»؛ يعني: الشَّمسَ والقمرَ، وهذا من بابِ التَّغليبِ.

٥٤٣٤- هَـذَا تَـوَاتَرَ عَـنْ رَسُـولِ الله لَـمْ ... يُنْكِـرْهُ إِلَّا فَاسِـدُ الإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا تَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِ الله»؛ أي: تَوَاتَرَ عن رسولِ الله ﷺ كما في البيتَيْنِ المعروفَيْنِ:

مِـمَّا تَـوَاتَرَ حَـدِيثُ مَـنْ كَـذَبْ ... وَمَـنْ بَنَـى لله بَيْتًـا وَاحْتَسَـبْ

وَرُؤْيَـةٌ شَـفَاعَةٌ وَالـحَوْضُ ... وَمَسْحُ خُفَّـيْنِ وَهَـذِي بَعْـضُ[1]

---

(١) انظر: شرح العقيدة السفارينية للشارح (ص:٥١٦).

والمتواترُ عند أهلِ العلمِ يفيدُ القطعَ واليقينَ؛ ولذلك هو عندنا من الأمورِ المقطوعِ بها المتيقَّنةِ أنَّنا سنرى ربَّنا عزَّ وجلَّ كما نرى القمرَ ليلةَ البدرِ، نسألُ اللهَ تعالى أن يُحقِّقَ ذلك.

قَوْلُهُ: «لَـمْ يُنْكِرْهُ إِلَّا فَاسِدُ الإِيمَانِ»؛ أي: لا ينكرُ رؤيةَ الله إلَّا مَنْ فَسَدَ إيمانُه، ولو كان مؤمنًا بالله حقًّا ما أنكر، وقد ذكرتُ لكم أنَّ بعضَ السَّلفِ أطلق الكُفرَ على مَنْ أَنْكَرَ رؤيةَ الله، وقال: إنَّه كافرٌ خارجٌ عن الإسلامِ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ لله عزَّ وجلَّ ولرسولِه.

٥٤٣٥- وَأَتَى بِـهِ القُـرْآنُ تَصْرِيـحًا وَتَعْـ ... ـرِيضًا هُمَـا بِسِـيَاقِهِ نَوْعَـانِ

يعني: أنَّ إثباتَ الرُّؤيةِ في القُرآنِ الكريمِ نوعان: صريحٌ وتعريضٌ، الصَّريحُ في قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، الحُسْنَى: الجنَّةُ، والزِّيادةُ: النَّظرُ إلى وجهِ الله، مَنْ فَسَّرَ هذا؟ يقولُ المؤلِّفُ:

٥٤٣٦- وَهِيَ الزِّيَـادَةُ قَـدْ أَتَـتْ في يُـونُسٍ ... تَفْسِـيرُ مَـنْ قَـدْ جَـاءَ بِـالقُرْآنِ

٥٤٣٧- وَرَوَاهُ عَنْهُ مُسْـلِمٌ بِـ«صَحِيحِهِ» ... يَـرْوِي صُـهَيْبٌ ذَا بِـلا كِـتْمَانِ

إِذَنْ ثَبَتَ في صحيحِ مسلم أنَّ المرادَ بالزِّيادةِ في قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]: النَّظرُ إلى وجهِ الله[1]، والذي فَسَّرَها أعلمُ النَّاسِ بكلامِ الله، وتفسيرُه نصٌّ كنصِّ القرآنِ، كما أنَّ تفسيرَ الصَّحابيِّ كنصِّ الرَّسولِ عند بعضِ العلماءِ كالحاكمِ رحمه اللهُ، فإنَّه يرى أنَّ تفسيرَ الصَّحابيِّ للقرآنِ في حُكْمِ

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب -تبارك وتعالى-، رقم (٢٥٥٢)، وابن ماجه: كتاب افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٧).

المرفوعِ[١]، لكنَّ جمهورَ العلماءِ على خِلافِه، وهو الصَّحيحُ، أمَّا تفسيرُ الرَّسولِ للآيةِ فهو كنصِّ القرآنِ.

٥٤٣٨- وَهُوَ الـمَزِيدُ كَـذَاكَ فَسَّـرَهُ أَبُـو بَكْـرٍ هُـوَ الصِّـدِّيقُ ذُو الإِيقَـانِ

قَوْلُهُ: «**هُوَ الصِّدِّيقُ**» الصِّدِّيقُ في مقالِه وحالِه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الصَّادقُ في قولِه المُصَدِّقُ لِـمَنْ قَامَتِ البيِّنةُ على صدقِه.

قَوْلُهُ: «**ذُو الإِيقَانِ**» الإيقانُ ضدُّ الشَّكِّ، فإيمانُ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقوى النَّاسِ بعد الرُّسلِ.

المزيدُ في قولِه تعالى في سورة «ق»: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥] ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ يعني: زيادةً، فسَّرها أبو بكرٍ بأنَّها النَّظرُ إلى وجهِ الله[٢]، وما قيمةُ تفسيرٍ جاء من أبي بكرٍ؟ الجوابُ: أقومُ التَّفاسيرِ؛ لأنَّ أبا بكرٍ أعلمُ النَّاسِ بالقرآنِ بعد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

٥٤٣٩- وَعَلَيْهِ أَصْحَابُ الرَّسُـولِ وَتَـابِعُو هُـمْ بَعْـدَهُمْ تبَعِيَّـةَ الإِحْسَـانِ

قَوْلُهُ: «**عَلَيْهِ**»؛ أي: على تفسيرِ أبي بكرٍ بأنَّ المرادَ بالمزيدِ: الرُّؤيةُ لوجهِ الله.

كُلُّ الصَّحابةِ والتَّابعين لهم تبعيَّةَ الإحسانِ أجمعوا على ذلك، وليست التَّبعيَّةَ الظَّاهريَّةَ، بل تبعيَّة الإحسانِ؛ لأنَّ التَّابعين لمن سَبَقَ قسمان: قسمٌ تَبِعَهم على الإحسانِ كما قَيَّدَ اللهُ ذلك فقال: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ﴾ [التَّوبة:١٠٠]؛ ولهذا نسمعُ بعضَ الخطباءِ يقولُ: «**وعلى محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابِه والتَّابعين**» وهذا نقصٌ في التَّعبيرِ، بل لابُدَّ

---

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني (٢/ ١٣).

(٢) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٢/ ٥٠٢).

أن يُقَيِّدَ التَّابعين بإحسانٍ، كما قيَّده اللهُ، فليس كُلُّ مَن ادَّعى أنَّه تابعٌ يكونُ تابعًا حقًّا، بل لابُدَّ أن يكونَ تابعًا بالإحسانِ يتَّبعُهم خطوةً خطوةً في العقيدةِ، والقولِ، والعملِ، والفعلِ، والتَّركِ.

٥٤٤٠- وَلَقَدْ أَتَى ذِكْرُ اللِّقَاءِ لِرَبِّنَا الرْ ... رَحْمَنِ فِي سُوَرٍ مِنَ الفُرْقَانِ

٥٤٤١- وَلِقَاؤُهُ إِذْ ذَاكَ رُؤْيَتُهُ حَكَى الْـ ... إِجْمَاعَ فِيهِ جَمَاعَةٌ بِبَيَانِ

٥٤٤٢- وَعَلَيْهِ أَصْحَابُ الحَدِيثِ جَمِيعُهُمْ ... لُغَةً وَعُرْفًا لَيْسَ يَخْتَلِفَانِ

آياتٌ كثيرةٌ فيها إثباتُ لقاءِ الله، قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ [العنكبوت:٥]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦].

المهمُّ: آياتٌ كثيرةٌ فيها إثباتُ لقاءِ الله، وهل لقاءٌ بلا رؤيةٍ؟ يقولُ: أصحابُ الحديثِ كُلُّهم أجمعوا بأنَّ المرادَ باللِّقاءِ: الرُّؤيةُ، وهذا قد يكونُ من أدلَّةِ التَّعريضِ؛ لأنَّه ليس فيه التَّصريحُ بالرُّؤيةِ.

***

٥٤٤٣- هَذَا وَيَكْفِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ ... وَصَفَ الوُجُوهَ بِنَظْرَةٍ بِجِنَانِ

٥٤٤٤- وَأَعَادَ أَيْضًا وَصْفَهَا نَظَرًا وَذَا ... لا شَكَّ يُفْهِمُ رُؤْيَةً بِعِيَانِ

٥٤٤٥- وَأَتَتْ أَدَاةُ «إِلَى» لِرَفْعِ الوَهْمِ مِنْ ... فِكْرٍ كَذَاكَ تَرَقُّبِ الإِنْسَانِ

٥٤٤٦- وَأَضَافَهُ لِمَحِلِّ رُؤْيَتِهِمْ بِذِكْـ ... ـرِ الوَجْهِ إِذْ قَامَتْ بِهِ العَيْنَانِ

٥٤٤٧- تَـالله مَـا هَـذَا بِفِكْـرٍ وَانْتِظَـا ... رِ مُغَيَّـبٍ أَوْ رُؤْيَـةٍ لِـجِنَانِ

٥٤٤٨- مَا فِي الـجِنَانِ مِنِ انْتِظَـارٍ مُؤْلِـمٍ ... وَاللَّفْـظُ يَأْبَـاهُ لِـذِي العِرْفَـانِ

٥٤٤٩- لَا تُفْسِدُوا لَفْظَ الكِتَابِ فَلَيْسَ فِيـ ... ـهِ حِيلَـةٌ يَـا فِرْقَـةَ الرَّوَغَـانِ

٥٤٥٠- مَا فَوْقَ ذَا التَّصْرِيحِ شَيْءٌ مَا الَّذِي ... يَـأْتِي بِـهِ مِـنْ بَعْـدُ ذَا التِّبْيَـانِ

٥٤٥١- لَـوْ قَـالَ أَبْـيَنَ مَـا يُقَـالُ لَقُلْـتُمُ ... هُـوَ مُجْمَـلٌ مَـا فِيـهِ مِـنْ تِبْيَـانِ

الشـرحُ

٥٤٤٣- هَـذَا وَيَكْفِـي أَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ ... وَصَـفَ الوُجُـوهَ بِنَظْـرَةٍ بِجِنَـانِ

قَوْلُهُ: «بِنَظْرَةٍ بِجِنَانِ» «نَظْرَة» بالظَّاءِ المُشَالَةِ، ويُسَمُّونَها أختَ الطَّاءِ، ولكن الظَّاهرُ أنَّها بالضَّادِ أخت الصَّادِ «بِنَضْرَةٍ»؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢].

هذا أيضًا من الأدلَّةِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، فـ﴿نَاضِرَةٌ﴾؛ يعني: حسنةً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١]؛ أي: حُسْنًا في وجوهِهم وسرورًا في قلوبِهم، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ الضَّميرُ في ﴿رَبِّهَا﴾ يعودُ على الوجوهِ؛ يعني: هذه الوجوهُ تنظرُ إلى ربِّها، فـ﴿نَاضِرَةٌ﴾ بمعنى: رائيَّة؛ أي: نظر عينٍ، واستدلَّ المؤلِّفُ لهذا بأدلَّةٍ أوَّلا: حسنُ الوجوهِ، والمنتظرُ هل يَحْسُنُ وجهُه؟ المُنْتَظِرُ للشَّيءِ المحبوبِ إليه قد يَحْسُنُ وجهُه وقد لا يَحْسُنُ، إنسانٌ وعدناه شيئًا وجَعَلَ ينتظرُ، أحيانًا يُؤَمِّلُ فيزينُ وجهُه، وأحيانًا يقنطُ وييأسُ فيسوءُ وجهُه ويسودُّ، فلو قال له شخصٌ: «**أريدُ أن أعطيَك مليون ريالٍ**»

فإنَّ وجهَه يتهلَّلُ، وهو ينتظرُ، فإذا أبطأ وتأخَّر عليه قال: الظَّاهرُ أنَّه تراجع، وحينئذٍ يكونُ وجهُه كالحًا، لكن هذه ناظرةٌ في حالِ نظرِها إلى ربِّها كيف تكونُ منتظرةً؟ ثُمَّ إذا قالوا: «**إلى ثَوَابِ ربِّها ناظرةٌ**» قلنا: هذا خلافُ الظَّاهرِ، ما الذي يمنعُ ربَّنا عزَّ وجلَّ أن يقولَ: «**إلى ثَوَابِ ربِّها؟!**».

ويُذْكَرُ أنَّ الشَّيخَ محمَّد بنَ عبد الوهَّابِ -رحمه اللهُ- حين سافر إلى مكَّةَ رأى عالمًا من علمائِها على كرسيٍّ يُحدِّثُ النَّاسَ، فأعجبه حديثُه وأُعْجِبَ به، فلمَّا أراد أن يقومَ وهو شيخٌ كبيرٌ معتبرٌ عند أهلِ مكَّةَ، لـمَّا أراد أن يقومَ من الكرسيِّ قال: «**يا كعبةَ الله**»، فهذه مشكلةٌ؛ لأنَّه أَشْرَكَ وهو لا يدري، وكان الشَّيخُ محمَّد بن عبد الوهَّابِ -رحمه اللهُ- ذكيًّا، وكان الدَّرسُ قد انتهى عند الأذان، ونزل هذا العالـمُ من على الكرسيِّ وجلس ينتظرُ الإقامةَ، قال له الشَّيخُ محمَّدٌ، بعد أن سَلَّمَ عليه، وسأله من أين أنت؟ فقال: أنا من نجد، لكن أنا أعجبني كلامُك، جزاك اللهُ خيرًا، هذا كلامٌ طيِّبٌ وعالم، وأنا أريد أن أقرأَ عليك شيئًا من القرآنِ؛ لأنَّني مبتدئٌ، فقرأ من آخِرِ القرآنِ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [النَّاس:١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، و﴿تَبَّتْ﴾ [المسد:١]، و﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١]، و﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]، و﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١]، و﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٧]، و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١]، فلمَّا وصل إلى سورة «قريش» فقال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش:١- ٤] قال: «**فليعبدوا البيتَ**»، قال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ قال: هكذا تَعَلَّمْتُ، قال: لا يمكنُ، لو عبدوا البيتَ لأشركوا، واللهُ لم يأمرْ بالشِّركِ، فقال: ما الصَّوابُ؟ قال: الصَّوابُ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾، ثُمَّ

قال له: وقال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] ولم يقل: ادعوا الكعبةَ أو البيتَ؛ لأنَّه لا أحدَ يُدْعَى إلَّا اللهُ، فقال له: أنا سَمِعْتُكَ يا شيخنا لما أردتَ أن تقومَ من الكرسيِّ قلت: «يا كعبةَ الله» فقال له: فَتَحَ اللهُ عليك، وجزاك اللهُ خيرًا.

فأقولُ: إنَّ الذين يقولون: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]؛ أي: إلى ثَوَابِ ربِّها، نقولُ: لماذا لم يَقُلْ: «**إلى ثَوَابِ ربِّها؟**» ما الذي يمنعُه؟ وهل هذا إلَّا تدليسٌ، لو كان اللهُ عزَّ وجلَّ يريدُ «**إلى ثَوَابِ ربِّها ناظرةٌ**» ويقولُ: «**إلى ربِّها**» ماذا يكونُ؟ يكونُ في هذا أعظمُ تدليسٍ للخلقِ، واللهُ يقولُ: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النِّساء:١٧٦]، ولكان في هذا أيضًا دلالةٌ إلى الكفرِ؛ لأنَّ الذين يُنكرون رؤيةَ الله يقولون: مَنْ قال: إنَّ اللهَ يُرَى فهو كافرٌ؛ لأنَّه أَثْبَتَ أنَّ اللهَ جسمٌ، والقولُ بالتَّجسيمِ كفرٌ، فهل يمكنُ أنَّ اللهَ تعالى يُعَبِّرُ بعبارةٍ تُوهِمُ أنَّ النَّظرَ إليه عزَّ وجلَّ وهو يريدُ أن يكونَ النَّظرُ إلى الثَّوابِ؟ الجوابُ: لا يمكنُ، ثُمَّ قال المؤلِّفُ رحمه الله:

٥٤٤٤- وَأَعَادَ أَيْضًا وَصْفَهَا نَظَرًا وَذَا ... لا شَكَّ يُفْهِمُ رُؤْيَةً بِعِيَانِ

قَوْلُهُ: «**وَأَعَادَ أَيْضًا وَصْفَهَا نَظَرًا**» فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢]، ثُمَّ وَصَفَهَا وَصْفًا آخرَ فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣].

قَوْلُهُ: «**وَذَا لا شَكَّ يُفْهِمُ رُؤْيَةٌ بِعِيَانِ**» وهذا صحيحٌ، فهي ناضرةٌ إلى ربِّها ناظرةٌ.

٥٤٤٥- وَأَتَتْ أَدَاةُ «إِلَى» لِرَفْعِ الوَهْمِ مِنْ ... فِكْرٍ كَذَاكَ تَرَقُّبِ الإِنْسَانِ

يعني: لو حُذِفَتْ «إِلَى» لكان يحتملُ أنَّ المرادَ بالنَّظرِ نظرُ القلبِ وهو الفكرُ

كما في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١]، وكقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، فهذا نظرُ قلبٍ لا نظرُ عينٍ؛ لأنَّها لم تتعدَّ بـ«إلى»، ولـمَّا أراد نظرَ العينِ قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق:٦]، فنظرُ العينِ يُعَدَّى بـ«إلى»، ونظرُ القلبِ يُعَدَّى بنفسِه بدون أداةٍ.

٥٤٤٦- وَأَضَافَهُ لِـمَحِلِّ رُؤْيَتِهِمْ بِذِكْـ ـرِ الوَجْهِ إِذْ قَامَتْ بِهِ العَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «**وَأَضَافَهُ**»، وفي نسخةٍ: «**وَإِضَافَةٌ**»، والصَّحيحُ: «**وَأَضَافَهُ**».

قَوْلُهُ: «**وَأَضَافَهُ لِـمَحَلِّ رُؤْيَتِهِمْ**»؛ يعني: أَضَافَ النَّظَرَ لمحلِّ رؤيتِهم بذكرِ الوجهِ.

أَضافَ النَّظَرَ إلى الوجهِ؛ لأنَّ الوجهَ محلُّ العَيْنَيْنِ، فإذا كان محلَّ العَيْنَيْنِ فما الذي ينظرُ؟ هل الوجهُ نفسُه ينظرُ؟ أو العينُ التي في الوجهِ؟ الجوابُ: العينُ التي في الوجهِ هي التي تنظرُ.

٥٤٤٧- تَاللهِ مَا هَذَا بِفِكْرٍ وَانْتِظَا رِ مُغَيَّبٍ أَوْ رُؤْيَةٍ لِـجِنَانِ

أقسم بأنَّ هذا ليس نظرَ فكرٍ؛ لأنَّه يدلُّ عليه السِّياقُ؛ أي: يدلُّ على منعِ كونِهِ نظرَ فكرٍ، وليس المعنى الانتظار؛ لأنَّ الانتظارَ أشدُّ من النَّارِ، والجنَّةُ ليس فيها انتظارٌ، وليس المرادُ أيضًا أنَّه رؤيةُ القلبِ؛ لأنَّ بعضَهم يقولُ: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]؛ أي: بقلوبِها، وسبحان الله العظيمِ! نمنعُ رؤيةَ العينِ التي هي في الوجهِ، ونُثْبِتُ رؤيةَ القلبِ وهو في الصَّدرِ، هذا لا شكَّ أنَّه تحريفٌ، فكُلُّ هذا صرفٌ للفظِ عن ظاهرِه.

٥٤٤٨- مَا فِي الجِنَانِ مِنِ انْتِظَارٍ مُؤْلِمٍ وَاللَّفْظُ يَأْبَاهُ لِذِي العِرْفَانِ

٥٤٤٩- لَا تُفْسِدُوا لَفْظَ الكِتَابِ فَلَيْسَ فِيـ ـهِ حِيلَةٌ يَا فِرْقَةَ الرَّوَغَانِ

إي والله، إنَّهم فرقةُ الرَّوَغَانِ يروغون كما تَرُوغُ الثَّعالبُ؛ ويعني بذلك: الذين يُحَرِّفونَ الآيَةَ، ويُحَرِّفُونَ نصوصَ الرُّؤيةِ وينكرونَها.

يقولُ بعضُ العلماء: إنَّ مَنْ أنكر رؤيةَ الله حَرِيٌّ بأن يُحْرَمَها[1]، نعوذُ بالله؛ لأنَّه -والعياذُ بالله- أنكر ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِه.

٥٤٥٠- مَا فَوْقَ ذَا التَّصْرِيحِ شَيْءٌ مَا الَّذِي يَـأْتِي بِـهِ مِـنْ بَعْـدُ ذَا التِّبْيَانِ

يعني: أنَّ هذا تصريحٌ واضحٌ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، هذا صريحٌ، ما الذي يأتي به من بعد ذا التِّبيانِ؟ الجوابُ: ليس بعد هذا التِّبيانِ شيءٌ.

٥٤٥١- لَـوْ قَـالَ أَبْـيَنَ مَـا يُقَـالُ لَقُلْـتُمُ هُـوَ مُجْمَـلٌ مَـا فِيـهِ مِـنْ تِبْيَـانِ

يعني: هذه طريقةُ أهلِ التَّحريفِ، يقولُ: هذه ألفاظٌ مُجْمَلَةٌ، هذه ألفاظٌ غيرُ مرادةٍ، هذه على تقديرِ محذوفٍ، وما أشبه ذلك، اللَّهُمَّ اهدنا صراطَك المستقيمَ.

نسألُ اللهَ ألَّا يطمسَ على قلوبِنا، والإنسانُ إذا طُمِسَ على قلبِه لو يأتي اللَّفظُ أصلح من أيِّ شيءٍ صار مُجْمَلًا عنده.

***

---

(١) انظر: شرح العقيدة السفارينية، للشارح (ص:٥١٣).

٥٤٥٢- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ التَّطْفِيفِ أَنْ ... نَ القَوْمَ قَدْ حُجِبُوا عَنِ الرَّحْمَنِ

٥٤٥٣- فَيَدُلُّ بِالمَفْهُومِ أَنَّ المُؤْمِنِيـ ... ـنِ يَرَوْنَهُ فِي جَنَّةِ الحَيَوَانِ

٥٤٥٤- وَبِذَا اسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدٌ ... وَسِوَاهُمَا مِنْ عَالِمِي الأَزْمَانِ

٥٤٥٥- وَأَتَى بِذَا المَفْهُومِ تَصْرِيحًا بِآ ... خِرِهَا فَلا تُخْدَعْ عَنِ القُرْآنِ

٥٤٥٦- وَأَتَى بِذَاكَ مُكَذِّبًا لِلكَافِرِيـ ... ـنَ السَّاخِرِينَ بِشِيعَةِ الرَّحْمَنِ

٥٤٦٧- ضَحِكُوا مِنَ الكُفَّارِ يَوْمَئِذٍ كَمَا ... ضَحِكُوا هُمُ مِنْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ

٥٤٦٨- وَأَثَابَهُمْ نَظَرًا إِلَيْهِ ضِدَّ مَا ... قَدْ قَالَهُ فِيهِمْ أُولُو الكُفْرَانِ

٥٤٦٩- فَلِذَاكَ فَسَّرَهَا الأَئِمَّةُ أَنَّهُ ... نَظَرٌ إِلَى الرَّبِّ العَظِيمِ الشَّانِ

٥٤٧٠- للهِ ذَاكَ الفَهْمُ يُؤْتِيهِ الَّذِي ... هُوَ أَهْلُهُ مَنْ جَادَ بِالإِحْسَانِ

الشرحُ

٥٤٥٢- وَلَقَدْ أَتَى فِي سُورَةِ التَّطْفِيفِ أَنْ ... نَ القَوْمَ قَدْ حُجِبُوا عَنِ الرَّحْمَنِ

٥٤٥٣- فَيَدُلُّ بِالمَفْهُومِ أَنَّ المُؤْمِنِيـ ... ـنِ يَرَوْنَهُ فِي جَنَّةِ الحَيَوَانِ

٥٤٥٤- وَبِذَا اسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدٌ ... وَسِوَاهُمَا مِنْ عَالِمِي الأَزْمَانِ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- دليلًا ثالثًا على الرُّؤيةِ؛ وهو: قولُه تعالى في الفُجَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المطفِّفين:٧- ١١] إلى قولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٥]، وهذا هو الشَّاهدُ، ومفهومُه أنَّ الأبرارَ الذين هم ضدُّهم لا يُحْجَبُونَ عن الله.

٥٤٥٥- وَأَتَى بِذَا المَفْهُومِ تَصْرِيحًا بِآ خِرِهَا فَلا تُخْدَعْ عَنِ القُرْآنِ

وجاء ذلك في آخر سورة «المطفِّفين»؛ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطفِّفين:٣٤-٣٥]؛ أي: ينظرون إلى الله، ولـمَّا قال في أولئك: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطفِّفين:١٥] صار قولُه: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطفِّفين:٣٥]؛ أي: ينظرون إلى الله، في مقابلِ هؤلاء المُكذِّبين.

وعلى هذا يكونُ لدينا من القرآنِ ستَّةُ أدلَّةٍ: **الأوَّلُ**: الزِّيادةُ، **والثَّاني**: المزيدُ، **والثَّالثُ**: اللِّقاءُ، **والرَّابعُ**: النَّظرُ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، **والخامسُ**: حجبُ الكُفَّارِ، **والسَّادسُ**: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطفِّفين:٣٥]، هذه ستَّةُ أدلَّةٍ من القرآنِ الكريم على ثبوتِ رؤيةِ الله عزَّ وجلَّ، أسألُ اللهَ ألَّا يَحْرِمَني وإيَّاكم منها.

والحقيقةُ أنَّها هي أكبرُ نعيمٍ في الجنَّةِ؛ لأنَّ النَّاسَ يجدون في هذه النَّظرةِ من نعيمِ القلبِ وسرورِ الوجهِ والأنسِ ما لا يجدونه في أيِّ شيءٍ من النَّعيمِ الذي هم فيه.

٥٤٥٦- وَأَتَى بِذَاكَ مُكَذِّبًا لِلكَافِرِيـ ـنَ السَّاخِرِينَ بِشِيعَةِ الرَّحْمَنِ

٥٤٥٧- ضَحِكُوا مِنَ الكُفَّارِ يَوْمَئِذٍ كَمَا ضَحِكُوا هُمُ مِنْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ

٥٤٥٨- وَأَثَابَهُمْ نَظَرًا إِلَيْهِ ضِدَّ مَا قَدْ قَالَهُ فِيهِمْ أُولُو الكُفْرَانِ

لكن فرقٌ بين الضَّحكِ هذا وذاك؛ ضحكُ هؤلاء على المؤمنين ضحكٌ لا يدومُ، وضحكُ المؤمنين عليهم يوم القيامةِ ضحكٌ يدومُ، وليس بعده حزنٌ،

قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين:٢٩-٣٠]، مَن الذي يمرُّ؟ الجوابُ: الطَّرفانِ، إذا مَرَّ المجرمون بهؤلاء ضَحِكُوا منهم، وإن مَرَّ هؤلاء بالمجرمين ضَحِكُوا منهم، قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾، فأتى بالفاءِ الدَّالَّةِ على تفريعِ ما بعدها على ما قبلها فقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين:٣٤-٣٥].

٥٤٥٩- فَلِـذَاكَ فَسَّـرَهَا الأَئِمَّـةُ أَنَّـهُ ... نَظَـرٌ إِلَى الـرَّبِّ العَظِـيمِ الشَّـانِ

فَسَّرها العلماءُ الأئمَّةُ أنَّهم ينظرون الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، وإن كانت تشملُ النَّظرَ إلى ما أعطاهم اللهُ من النَّعيمِ في الجنَّاتِ؛ لأنَّ معنى «**الأرائك**»: «**السُّرر**»، والأريكةُ معروفةٌ، فهم على الأرائكِ ينظرون ما أعطاهم اللهُ من النَّعيمِ، وينظرون الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، ينظرون الرَّبَّ كما فَسَّره بذلك الأئمَّةُ.

٥٤٦٠- للهِ ذَاكَ الفَهْـمُ يُؤْتِيـهِ الَّـذِي ... هُـوَ أَهْلُـهُ مَـنْ جَـادَ بِالإِحْسَـانِ

أشار المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- بقولِهِ: «**هو أَهْلُهُ**» أنَّ للفَهْمِ في كتابِ الله أهلًا، وليس كُلُّ أحدٍ يفهمُ كلامَ الله على ما أراد اللهُ، ما يفهمُه إلَّا مَنْ هو أهلٌ للفَهْمِ، ومتى؟ «**مَنْ جَادَ بِالإِحْسَانِ**» يحتمل أنَّ المعنى أنَّ اللهَ تعالى يجودُ عليهم بالإحسانِ بما يعطيهم من الفَهْمِ، ويحتملُ أنَّ المرادَ أنَّ الفَهْمَ يؤتيه اللهُ عزَّ وجلَّ مَنْ جَادَ بالإحسانِ، وأَحْسَنَ في عبادةِ الله وإلى عبادِ الله فإنَّ اللهَ يؤتيه من الفَهْمِ بِقَدْرِ إحسانِه، والمعنيان كلاهما صحيحٌ.

***

٥٤٦١- وَرَوَى ابْنُ مَاجَةَ مُسْنِدًا عَنْ جَابِرٍ ... خَبَرًا وَشَاهِدُهُ فَفِي القُرْآنِ

٥٤٦٢- بَيْنَا هُمُ فِي عَيْشِهِمْ وَسُرُورِهِمْ ... وَنَعِيمِهِمْ فِي لَذَّةٍ وَتَهَانِ

٥٤٦٣- وَإِذَا بِنُورٍ سَاطِعٍ قَدْ أَشْرَقَتْ ... مِنْهُ الجِنَانُ قَصِيُّهَا وَالدَّانِي

٥٤٦٤- رَفَعُوا إِلَيْهِ رُؤُوسَهُمْ فَرَأَوْهُ نُو ... رَ الرَّبِّ لا يَخْفَى عَلَى إِنْسَانِ

٥٤٦٥- وَإِذَا بِرَبِّهِمُ تَعَالَى فَوْقَهُمْ ... قَدْ جَاءَ لِلتَّسْلِيمِ بِالإِحْسَانِ

٥٤٦٦- قَالَ السَّلامُ عَلَيْكُمُ فَيَرَوْنَهُ ... جَهْرًا تَعَالَى الرَّبُّ ذُو السُّلْطَانِ

٥٤٦٧- مِصْدَاقُ ذَا ﴿يسٓ﴾ قَدْ ضَمِنَتْهُ عِنْـ ... ـدَ القَوْلِ مِنْ رَبٍّ بِهِمْ رَحْمَنِ

٥٤٦٨- مَنْ رَدَّ ذَا فَعَلَى رَسُولِ اللهِ رَدْ ... دَ وَسَوْفَ عِنْدَ اللهِ يَلْتَقِيَانِ

٥٤٦٩- فِي ذَا الحَدِيثِ عُلُوُّهُ وَمَجِيئُهُ ... وَكَلامُهُ حَتَّى يُرَى بِعِيَانِ

٥٤٧٠- هَذِي أُصُولُ الدِّينِ فِي مَضْمُونِهِ ... لا قَوْلُ جَهْمٍ صَاحِبِ البُهْتَانِ

٥٤٧١- وَكَذَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ذَلِكَ الـ ... ـخَبَرُ الطَّوِيلُ أَتَى بِهِ الشَّيْخَانِ

٥٤٧٢- فِيهِ تَجَلِّي الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وَمَجِيئُهُ وَكَلامُهُ بِبَيَانِ

٥٤٧٣- وَكَذَاكَ رُؤْيَتُهُ وَتَكْلِيمٌ لِمَنْ ... يَخْتَارُهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ

٥٤٧٤- فِيهِ أُصُولُ الدِّينِ أَجْمَعُهَا فَلا ... تَخْدَعْكَ عَنْهُ شِيعَةُ الشَّيْطَانِ

٥٤٧٥- وَحَكَى رَسُولُ اللهِ فِيهِ تَجَدُّدَ الـ ... ـغَضَبِ الَّذِي لِلرَّبِّ ذِي السُّلْطَانِ

٥٤٧٦- إِجْمَاعُ أَهْلِ العَزْمِ مِنْ رُسُلِ الإِلَـ ... ـهِ وَذَاكَ إِجْمَاعٌ عَلَى البُرْهَانِ

٥٤٧٧- لا تُخْدَعَنَّ عَنِ الحَدِيثِ بِهَذِهِ الـ آرَاءِ فَهْيَ كَثِيرَةُ الهَذَيَانِ

٥٤٧٨- أَصْحَابُهَا أَهْلُ التَّخَرُّصِ وَالتَّنَا قُضِ وَالتَّهَاتُرِ قَائِلُو البُهْتَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «أَصْحَابُهَا أَهْلُ التَّخَرُّصِ وَالتَّنَاقُضِ وَالتَّهَاتُرِ قَائِلُو البُهْتَانِ» صَدَقَ واللهِ، هذا الوصفُ الذي لا ينطبقُ على سواهم.

***

٥٤٧٩- يَكْفِيكَ أَنَّكَ لَوْ حَرَصْتَ فَلَنْ تَرَى فِئَتَيْنِ مِنْهُمْ قَطُّ تَتَّفِقَانِ

٥٤٨٠- إِلَّا إِذَا مَا قَلَّدُوا لِسِوَاهُمَا فَتَرَاهُمُ جِيلًا مِنَ العُمْيَانِ

٥٤٨١- وَيَقُودُهُمْ أَعْمَى يُظَنُّ كَمُبْصِرٍ يَا مِحْنَةَ العُمْيَانِ خَلْفَ فُلانِ

٥٤٨٢- هَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَمُبْصِرُ رُشْدِهِ اللهُ أَكْبَرُ كَيْفَ يَسْتَوِيَانِ

الشرحُ

يعني: لا يمكنُ أن يتَّفقَ اثنان إلَّا إذا كانا مُقَلِّدَيْنِ لواحدٍ، لكن المُقَلِّدُ يكونُ أعمى، وهذا هو الواقعُ، فالمجتهدون من أهلِ الكلامِ تجدُهم متناقضين، بل تجدُ الواحدَ منهم يناقضُ نفسَه؛ ففي كتابٍ يقولُ: هذا واجبٌ، وفي آخرَ يقولُ: هذا ممتنعٌ، وما أشبه ذلك، فهم عُميان وراء أعمى.

***

٥٤٨٣- أَوَمَا سَمِعْتَ مُنَادِيَ الإِيمَانِ يُخْـ ـبِرُ عَـنْ مُنَادِي جَنَّـةِ الـحَيَوَانِ
٥٤٨٤- يَا أَهْلَهَا لَكُمُ لَـدَى الـرَّحْمَنِ وَعْـ ـدٌ وَهْـوَ مُنْجِـزُهُ لَكُـمْ بِضَـمَانِ
٥٤٨٥- قَـالُوا أَمَـا بَيَّضْـتَ أَوْجُهَنَـا كَـذَا أَعْمَالَنَـا أَثْقَلْـتَ فِي الـمِيزَانِ
٥٤٨٦- وَكَذَاكَ قَدْ أَدْخَلْتَنَا الـجَنَّاتِ حِيـ ـنَ أَجَرْتَنَا مِـنْ مَـدْخَلِ النِّـيرَانِ
٥٤٨٧- فَيَقُـولُ عِنْـدِي مَوْعِـدٌ قَـدْ آنَ أَنْ أُعْطِيكُمُـوهُ بِرَحْمَتِـي وَحَنَـانِي
٥٤٨٨- فَيَرَوْنَهُ مِـنْ بَعْـدِ كَشْـفِ حِجَابِـهِ جَهْـرًا رَوَى ذَا مُسْـلِمٌ بِبَيَـانِ
٥٤٨٩- وَلَقَدْ أَتَانَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» اللَّذَيْـ ـنِ هُمَا أَصَحُّ الكُتْبِ بَعْدِ قُرَانِ
٥٤٩٠- بِرِوَايَةِ الثِّقَةِ الصَّدُوقِ جَرِيـرٍ الـ ـبَجَلِيِّ عَمَّـنْ جَـاءَ بِـالقُرْآنِ
٥٤٩١- أَنَّ العِبَـادَ يَرَوْنَـهُ سُـبْحَانَهُ رُؤْيَـا العِيَـانِ كَـمَا يُـرَى القَمَـرَانِ
٥٤٩٢- فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ كُلَّ وَقْتٍ فَـاحْفَظُوا الْـ ـبَرْدَيْنِ مَا عِشْـتُمْ مَـدَى الأَزْمَـانِ
٥٤٩٣- وَلَقَدْ رَوَى بِضْعٌ وَعِشْرُونَ امْـرَءًا مِنْ صَـحْبِ أَحْمَـدَ خِـيرَةِ الـرَّحْمَنِ
٥٤٩٤- أَخْبَارَ هَذَا البَـابِ عَمَّـنْ قَـدْ أَتَـى بِـالوَحْيِ تَفْصِـيلًا بِـلا كِـتْمَانِ
٥٤٩٥- وَأَلَـذُّ شَيْءٍ لِلقُلُـوبِ فَهَـذِهِ الـ أَخْبَـارُ أَيْضًـا بَهْجَـةُ الإِيـمَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «البَرْدَيْنِ»؛ يعني: الفجرَ والعصرَ.

* * *

٥٤٩٦- وَاللهِ لَـوْلا رُؤْيَـةُ الـرَّحْمَنِ في الــ ـجَنَّاتِ مَا طَابَـتْ لِـذِي العِرْفَـانِ

٥٤٩٧- أَعْـلَى النَّعِيمِ نَعِيمُ رُؤْيَـةِ وَجْهِـهِ وَخِطَابُـــهُ في جَنَّـــةِ الـــحَيَوَانِ

٥٤٩٨- وَأَشَـدُّ شَيْءٍ في العَـذَابِ حِجَابُـهُ سُـبْحَانَهُ عَـنْ سَاكِنِـي النِّـيرَانِ

٥٤٩٩- وَإِذَا رَآهُ المُؤْمِنُـونَ نَسُـوا الَّـذِي هُـمْ فِيـهِ مِـمَّا نَالَـتِ العَيْنَـانِ

٥٥٠٠- فَـإِذَا تَـوَارَى عَـنْهُمُ عَـادُوا إِلَى لَــذَّاتِهِمْ مِــنْ سَـائِرِ الأَلْــوَانِ

٥٥٠١- فَلَهُـمْ نَعِـيمٌ عِنْـدَ رُؤْيَتِـهِ سِـوَى هَــذَا النَّعِـيمِ فَحَبَّــذَا الأَمْــرَانِ

٥٥٠٢- أَوَمَا سَمِعْتَ سُؤَالَ أَعْرَفِ خَلْقِهِ بِجَلالِــهِ الــمَبْعُوثِ بِــالقُرْآنِ

٥٥٠٣- شَـوْقًا إِلَيْـهِ وَلَـذَّةِ النَّظَـرِ الَّـذِي بِجَلالِ وَجْهِ الـرَّبِّ ذِي السُّـلْطَانِ

٥٥٠٤- فَالشَّوْقُ لَذَّةُ رُوحِـهِ في هَـذِهِ الـدْ دُنْيَـا وَيَـوْمَ قِيَامَـةِ الأَبْـدَانِ

٥٥٠٥- تَلْتَـذُّ بِـالنَّظَرِ الَّـذِي فَـازَتْ بِـهِ دُونَ الــجَوَارِحِ هَــذِهِ العَيْنَــانِ

٥٥٠٦- وَاللهِ مَــا في هَــذِهِ الــدُّنْيَا أَلَــذْ ذُ مِــنِ اشْـتِيَاقِ العَبْـدِ لِلـرَّحْمَنِ

٥٥٠٧- وَكَـذَاكَ رُؤْيَـةُ وَجْهِـهِ سُـبْحَانَهُ هِـيَ أَكْمَـلُ اللَّـذَّاتِ لِلإِنْسَـانِ

٥٥٠٨- لَكِنَّــمَا الــجَهْمِيُّ يُنْكِـرُ ذَا وَذَا وَالوَجْـهَ أَيْضًـا خَشْـيَةَ الـحَدَثَانِ

٥٥٠٩- تَبًّـا لَـهُ الــمَخْدُوعُ أَنْكَـرَ وَجْهَـهُ وَلِقَــاءَهُ وَمَحَبَّـــةَ الـــدَّيَّانِ

٥٥١٠- وَكَلامَــهُ وَصِــفَاتِهِ وَعُلُــوَّهُ وَالعَـرْشَ عَطَّلَـهُ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٥٥١١- فَــتَرَاهُ في وَادٍ وَرُسْــلُ اللهِ في وَادٍ وَذَا مِــنْ أَعْظَـمِ الكُفْـرَانِ

الشَّرحُ

قَوْلُهُ: «... شَوْقًا إِلَيْهِ وَلَذَّةَ النَّظَرِ الَّذِي بِجَلَالِ وَجْهِ الرَّبِّ»، وهذا في حديث: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»[1].

قَوْلُهُ: «تَبًّا لَهُ الـمَخْدُوعُ أَنْكَرَ وَجْهَهُ وَلِقَاءَهُ وَمَحَبَّةَ الدَّيَّانِ» «تَبًّا لَهُ»؛ أي: خسر الدُّنيا والآخرةَ.

* * *

(١) أخرجه النسائي: كتاب السهو، بعد باب الذكر بعد التشهد، رقم (١٣٠٥).

فصـــل

في كَلَامِ الرَّبِّ ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ مَعَ أَهْلِ الجَنَّةِ

٥٥١٢- أَوَمَـا عَلِمْـتَ بِأَنَّـهُ سُـبْحَانَهُ ... حَقًّـا يُكَلِّـمُ حِزْبَـهُ بِجِنَـانِ

٥٥١٣- فَيَقُـولُ جَـلَّ جَلالُـهُ هَـلْ أَنْـتُمُ ... رَاضُونَ قَـالُوا نَحْـنُ ذُو رِضْـوَانِ

٥٥١٤- أَمْ كَيْـفَ لا نَـرْضَى وَقَـدْ أَعْطَيْتَنَـا ... مَـا لَـمْ يَنَلْـهُ قَـطُّ مِـنْ إِنْسَـانِ

٥٥١٥- هَلْ ثَـمَّ شَيْءٌ غَـيْرُ ذَا فَيَكُـونُ أَفْـ ... ـضَلَ مِنْـهُ نَسْـأَلُهُ مِـنَ الـمَنَّانِ

٥٥١٦- فَيَقُولُ أَفْضَـلُ مِنْـهُ رِضْـوَانِي فَـلا ... يَغْشَـاكُمُ سَـخَطٌ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٥٥١٧- وَيُـذَكِّرُ الـرَّحْمَنُ وَاحِـدَهُمْ بِـمَا ... قَـدْ كَـانَ مِنْـهُ سَـالِفَ الأَزْمَـانِ

٥٥١٨- مِنْـهُ إِلَيْـهِ لَـيْسَ ثَـمَّ وَسَـاطَةٌ ... مَـا ذَاكَ تَوْبِيخًـا مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٥٥١٩- لَكِـنْ يُعَرِّفُـهُ الَّـذِي قَـدْ نَالَـهُ ... مِـنْ فَضْـلِهِ وَالعَفْـوِ وَالإِحْسَـانِ

٥٥٢٠- وَيُسَـلِّمُ الـرَّحْمَنُ جَـلَّ جَلالُـهُ ... حَقًّـا عَلَـيْهِمْ وَهْـوَ فِي القُـرْآنِ

٥٥٢١- وَكَـذَاكَ يُسْـمِعُهُمْ لَذِيـذَ خِطَابِـهِ ... سُـبْحَانَهُ بِـتِلاوَةِ الفُرْقَـانِ

٥٥٢٢- فَكَـأَنَّهُمْ لَـمْ يَسْـمَعُوهُ قَبْـلَ ذَا ... هَـذَا رَوَاهُ الـحَافِظُ الطَّـبَرَانِي

٥٥٢٣- هَـذَا سَـمَاعٌ مُطْلَـقٌ وَسَـمَاعُنَا الْـ ... ـقُرْآنَ فِي الـدُّنْيَا فَنَـوْعٌ ثَـانِي

٥٥٢٤- وَاللهُ يُسْـمِعُ قَوْلَـهُ بِوَسَـاطَةٍ ... وَبِـدُونِهَا نَوْعَـانِ مَعْرُوفَـانِ

٥٥٢٥- فَسَمَاعُ مُوسَى لَمْ يَكُنْ بِوَسَاطَةٍ وَسَمَاعُنَا بِتَوَسُّطِ الإِنْسَانِ

٥٥٢٦- مِنْ صَيَّرَ النَّوْعَيْنِ نَوْعًا وَاحِدًا فَمُخَالِفٌ لِلعَقْلِ وَالقُرْآنِ

الشرحُ

في هذا الفصلِ ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ تعالى- أنَّ اللهَ يُكَلِّمُ أهلَ الجنَّةِ من وجوهٍ:

الوجه الأوَّل: بيانُ ما مَنَّ اللهُ به عليهم من النَّعيمِ، فيقولُ لهم عزَّ وجلَّ: **«هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَالَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟! فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»**[1].

الوجه الثَّاني: أنَّه يُحدِّثُ بعضَهم بما جرى منه في سالفِ الزَّمنِ في الدُّنيا **«فَعَلْتَ كذا، وَفَعَلْتَ كذا، وَفَعَلْتَ كذا»** لا توبيخًا، ولكن لإظهارِ فضلِه عزَّ وجلَّ عليه حتَّى يزدادَ حُبًّا لله، وتعظيمًا له، وشكرًا له سبحانه وتعالى، كما أنَّه -جلَّ وعلا- يُسَلِّمُ على أهلِ الجنَّةِ، وهو في القرآنِ في قولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس:٥٨].

الوجه الثَّالث: وهو على خِلافِ الأوَّلِ أنَّه -جلَّ وعلا- يُسْمِعُهم القرآنَ، يقرأُ القرآنَ وهم يسمعونه، فيسمعون كلامَه عزَّ وجلَّ منه، وهذا سَماعٌ مُطْلَقٌ؛ يعني: أنَّهم يسمعونه من الرَّبِّ -جلَّ وعلا- بدون واسطةٍ، فيسمعون اللهَ يقرأُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦١٨٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، رقم (٢٨٢٩).

القرآنَ، فأفضلُ كتابٍ أُنْزِلَ، وأفضلُ الذِّكرِ يقرؤه مَنْ تكلَّم به أوَّلًا، أمَّا السَّماعُ في الدُّنيا فَنَوْعٌ ثانٍ غيرُ هذا السَّماعِ، فالذي نسمعُ ممَّن يقرأُ القرآنَ ليس صوتَ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، بل هو صوتُ القارئ، فالصَّوتُ صوتُ القارئ، واللَّفظُ لفظُ القارئ، والمقروءُ كلامُ الباري عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ سماعَنا لكلامِه بواسطةِ محمَّدٍ ﷺ، وكُلٌّ منَّا يَسمعُ غيرَه بواسطتِه، فالمُعَلِّمُ يُسْمِعُ المتعلِّمَ كلامَ الله بواسطةٍ، وهكذا إلى أن يصلَ إلى الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-، ومَنْ سَوَّى بين النَّوعَيْنِ، وقال: «**الكُلُّ مخلوقٌ**» فمخالفٌ للقُرآنِ.

والذين قالوا بهذا هم الأشاعرةُ وأشباهُهم، يجعلونه شيئًا واحدًا؛ يقولون: إنَّ سماعَ موسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ليس سماعًا لكلامِ الرَّبِّ، لكن يسمعُ أصواتًا خُلِقَتْ لِتُعَبِّرَ عمَّا في نفسِ الله، هذا مذهبُهم، يُصَرِّحُونَ به؛ لأنَّ الكلامَ عندهم هو المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ، ويسمُّونه الكلامَ النَّفسيَّ، أمَّا أن يُسْمَعَ صوتٌ من الله فهذا عندهم محالٌ، فيقولون: إنَّ اللهَ خَلَقَ أصواتًا لِتُعَبِّرَ عَمَّا في نفسِه، كما يُخْلَقُ صوتُ الرَّعدِ في السَّحابِ، وسَمِعَه جبريلُ فتلقَّاه وَنَزَلَ به إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم؛ ولهذا هم والمعتزلةُ سواءٌ في أنَّ الذي في المصحفِ مخلوقٌ، لكنَّ المعتزلةَ أشجعُ من الأشاعرةِ، المعتزلةُ يقولون: هو مخلوقٌ من جملةِ المخلوقاتِ، وليس كلامَ الله، لكنَّهم يقولون: هو كلامُ الله، وأُضِيفَ إليه على سبيلِ التَّشريفِ والتَّعظيمِ، وأولئك يقولون: ليس كلامَ الله، هو عبارةٌ عنه، والكلامُ هو: المعنى القَائِمُ بالنَّفسِ، فكأنَّهم يجعلون كلامَ الله علمَ الله القَائِمَ بنفسِه.

ولا شكَّ أنَّ هذا خطأٌ عظيمٌ مُنافٍ للسَّمعِ والعقلِ، فَيُقَالُ لهم: إمَّا أن تُصَرِّحوا بما صَرَّحَتْ به المعتزلةُ وتقولوا: كلامُ الله مخلوقٌ وهو المسموعُ بالآذان المُبْصَرُ بالعِيانِ، قولوا: مخلوقٌ كما قالت المعتزلةُ، أو أن تقولوا: الكلامُ غيرُ مخلوقٍ

وهو المعنى القَائِم بنفسِه وما سَمِعَه جبريلُ وما سَمِعَه موسى كذلك، فهي أصواتٌ خُلِقَتْ لِتُعَبِّرَ عنه، فهذا تناقضٌ.

والفرقُ بين العبارةِ والحكايةِ: أنَّ الحكايةَ للكُلَّابيَّةِ، والعبارةَ للأشاعرةِ، الكُلَّابِيَّةُ يقولون: إنَّهُ حِكَايةٌ كما أنَّ الإنسانَ إذا تكلَّم فإنَّ الصَّدى يحكي صوتَه، فكأنَّ اللهَ تكلَّم وجعَل من هذا الكلامِ صدى فتلقَّاه جبريلُ، فيقولون: حكايةٌ عن كلامِ الله، أمَّا أولئك فيقولون: لا، بل هو عبارةٌ عن كلامِ الله، خَلَقَ اللهُ صوتًا مستقلًا، وأمَّا اللهُ فلا يمكنُ أن يخرجَ منه صوتٌ.

***

فصل

في يَوْمِ المَزِيدِ، وَمَا أَعَدَّ الله لَهُمْ فِيهِ مِنَ الكَرَامَةِ

٥٥٢٧- أَوَمَا سَمِعْتَ بِشَأْنِهِمْ يَوْمَ الـمَزِيـ ... ـدِ وَأَنَّـهُ شَـأْنٌ عَظِـيمُ الشَّـانِ

٥٥٢٨- هُوَ يَوْمُ جُمْعَتِنَـا وَيَـوْمُ زِيَـارَةِ الـرْ ... رَحْمَــنِ وَقْــتَ صَــلاتِنَا وَأَذَانِ

٥٥٢٩- وَالسَّابِقُونَ إِلَى الصَّـلاةِ هُـمُ الأُلَى ... فَـازُوا بِـذَاكَ السَّبْقِ بِالإِحْسَـانِ

٥٥٣٠- سَـبْقٌ بِسَـبْقٍ وَالـمُؤَخَّرُ هَاهُنَـا ... مُتَــأَخِّرٌ فِي ذَلِــكَ الـــمَيْدَانِ

٥٥٣١- وَالأَقْرَبُونَ إِلَى الإِمَامِ فَهُمْ أُولُو الزْ ... زُلْفَــى هُنَــاكَ فَهَاهُنَــا قُرْبَــانِ

٥٥٣٢- قُـرْبٌ بِقُـرْبٍ وَالـمُبَاعِدُ مِثْلُـهُ ... بُعْــدٌ بِبُعْــدٍ حِكْمَــةُ الــدَّيَّانِ

الشرحُ

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ يومَ المزيدِ الذي هو يومُ الجمعةِ هو يومُ زيارةِ أهلِ الجنَّةِ للرَّبِّ عزَّ وجلَّ، وتكونُ في وقتِ صلاةِ الجمعةِ.

إِذَنْ يومُ المزيدِ بإزاءِ يوم الجمعةِ، والزِّيارةُ بإزاءِ وقت الأذانِ والصَّلاةِ؛ لأنَّ أقربَ ما يكونُ النَّاسُ في يومِ الجمعةِ في وقتِ الصَّلاةِ، يأتون إلى الله عزَّ وجلَّ، يتقرَّبون إليه بالذِّكرِ والقراءةِ والرُّكوعِ والسُّجودِ؛ ولهذا كان أصحُّ الأقوالِ أنَّ ساعةَ الإجابةِ ما بين مجيء الإمامِ إلى انقضاءِ الصَّلاةِ، هذا أحراها وأقربُها، وفيه حديثٌ رواه مسلمٌ[1].

---

(١) يعني حديث أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، قال: قال لي عبد الله بن عمر: أسمعت أباك يحدث

٥٥٣٣- وَلَــهُمْ مَنَــابِرُ لُؤْلُــؤٍ وَزَبَرْجَــدٍ ... وَمَنَــابِرُ اليَــاقُوتِ وَالعِقْيَــانِ

٥٥٣٤- هَــذَا وَأَدْنَــاهُمْ وَمَــا فِــيهِمْ دَنِي ... مِــنْ فَــوْقِ ذَاكَ المِسْــكِ كَالكُثْبَــانِ

٥٥٣٥- مَا عِنْدَهُمْ أَهْــلُ الــمَنَابِرِ فَــوْقَهُمْ ... مِــمَّا يَــرَوْنَ بِهِــمْ مِــنَ الإِحْسَــانِ

٥٥٣٦- فَــيَرَوْنَ رَبَّهُــمُ تَعَــالَى جَهْــرَةً ... نَظَــرَ العِيَــانِ كَــمَا يُــرَى القَمَــرَانِ

٥٥٣٧- وَيُحَــاضِرُ الــرَّحْمَنُ وَاحِــدَهُمْ مُحَــا ... ضَرَةَ الــحَبِيبِ يَقُولُ يَا ابْــنَ فُــلانِ

٥٥٣٨- هَلْ تَذْكُرُ اليَوْمَ الَّذِي قَدْ كُنْتَ فِيـ ... ـهِ مُبَــارِزًا بِالــذَّنْبِ وَالعِصْــيَانِ

٥٥٣٩- فَيَقُــولُ رَبِّ أَمَــا مَنَنْــتَ بِغَفْــرَةٍ ... قِــدْمًا فَإِنَّــكَ وَاسِــعُ الغُفْــرَانِ

٥٥٤٠- فَيُجِيبُــهُ الــرَّحْمَنُ مَغْفِــرَتِي الَّتِــي ... قَدْ أَوْصَلَتْكَ إِلَى الــمَحَلِّ الــدَّانِي

الشــرحُ

٥٥٣٣- وَلَــهُمْ مَنَــابِرُ لُؤْلُــؤٍ وَزَبَرْجَــدٍ ... وَمَنَــابِرُ اليَــاقُوتِ وَالعِقْيَــانِ

٥٥٣٤- هَــذَا وَأَدْنَــاهُمْ وَمَــا فِــيهِمْ دَنِي ... مِــنْ فَــوْقِ ذَاكَ المِسْــكِ كَالكُثْبَــانِ

٥٥٣٥- مَا عِنْدَهُمْ أَهْــلُ الــمَنَابِرِ فَــوْقَهُمْ ... مِــمَّا يَــرَوْنَ بِهِــمْ مِــنَ الإِحْسَــانِ

إِذَنْ ينقسمون إلى قسمين: قسمٍ على منابرَ من اللُّؤلؤِ والزَّبرجدِ ومنابرِ الياقوتِ والعِقْيَانِ، وقسمٍ آخرَ على الأرضِ، لكن على أرضٍ ترابُها المسكُ يجلسون

= عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة؟ قال: قلت: نعم، سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ». أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب في الساعة التي في يوم الجمعة، رقم (٨٥٣).

عليه، ومع ذلك لا يَرَوْنَ أنَّ الذين على منابرَ أفضل منهم؛ لأنَّهم لو رَأَوْا أنَّهم أفضلُ منهم لَنَقَصَ السُّرورُ، لكن لا يَرَوْنَهم أفضلَ.

٥٥٣٦- فَيَرَوْنَ رَبَّهُمُ تَعَالَى جَهْرَةً نَظَرَ العِيَانِ كَمَا يُرَى القَمَرَانِ

٥٥٣٧- وَيُحَاضِرُ الرَّحْمَنُ وَاحِدَهُمْ مُحَا ضَرَةَ الحَبِيبِ يَقُولُ يَا ابْنَ فُلانِ

٥٥٣٨- هَلْ تَذْكُرُ اليَوْمَ الَّذِي قَدْ كُنْتَ فِيـ ـهِ مُبَارِزًا بِالذَّنْبِ وَالعِصْيَانِ

٥٥٣٩- فَيَقُولُ رَبِّ أَمَا مَنَنْتَ بِغَفْرَةٍ قِدْمًا فَإِنَّكَ وَاسِعُ الغُفْرَانِ

٥٥٤٠- فَيُجِيبُهُ الرَّحْمَنُ مَغْفِرَتِي الَّتِي قَدْ أَوْصَلَتْكَ إِلَى المَحَلِّ الدَّانِي

قَوْلُهُ: «المَحَلِّ الدَّانِي»؛ أي: القريب منِّي، وليس المعنى من الدُّنوِّ؛ يعني: النَّازلَ؛ بل المعنى: القريبُ مِنِّي، نسألُ اللهَ أن يجعلَني وإيَّاكم منهم.

***

فصـــل

في المَطَرِ الَّذِي يُصِيبُهُمْ هُنَاكَ

٥٥٤١- وَيُظِلُّهُــمْ إِذْ ذَاكَ مِنْــهُ سَــحَابَةٌ   تَــأْتِي بِمِثْــلِ الوَابِــلِ الــهَتَّانِ

٥٥٤٢- بَيْنَـا هُـمُ فِي النُّـورِ إِذْ غَشِـيَتْهُمُ   سُـبْحَانَ مُنْشِئِهَا مِـنَ الرِّضْـوَانِ

٥٥٤٣- فَتَظَـلُّ تُمْطِـرُهُمْ بِطَيِّـبِ مَـا رَأَوْا   شَـبَهًا لَـهُ فِي سَـالِفِ الأَزْمَـانِ

٥٥٤٤- فَيَزِيـدُهُمْ هَـذَا جَمَـالًا فَـوْقَ مَـا   بِهِـمُ وَتِلْـكَ مَوَاهِـبُ الــمَنَّانِ

الشـرحُ

الأحسنُ الرُّجوعُ إلى كتابِ «حادي الأرواح»؛ لأنَّ كُلَّ هذه المباحثِ موجودةٌ فيه.

***

فصـــل

في سُوقِ الجنَّةِ الَّذِي يَنْصَرِفُونَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ المَجْلِسِ

٥٥٤٥- فَيَقُـولُ جَـلَّ جَلالُـهُ قُومُـوا إِلَى ... مَا قَدْ ذَخَرْتُ لَكُمْ مِـنَ الإِحْسَـانِ

٥٥٤٦- يَـأْتُونَ سُـوقًا لا يُبَـاعُ وَيُشْـتَرَى ... فِيـهِ فَخُـذْ مِنْـهُ بِـلا أَثْـمَانِ

٥٥٤٧- قَدْ أَسْـلَفَ التُّجَّـارُ أَثْـمَانَ الـمَبِيـ ... ـعِ بِعَقْـدِهِمْ فِي بَيْعَـةِ الرِّضْـوَانِ

٥٥٤٨- للهِ سُـوقٌ قَـدْ أَقَامَتْـهُ الـمَلَا ... ئِكَـةُ الكِـرَامُ بِكُـلِّ مَـا إِحْسَـانِ

٥٥٤٩- فِيهَـا الَّـذِي وَاللهِ لا عَـيْنٌ رَأَتْ ... كَـلَّا وَلا سَـمِعَتْ بِـهِ أُذُنَـانِ

٥٥٥٠- كَلَّا وَلَـمْ يَخْطُرْ عَـلَى قَلْـبِ امْـرِئٍ ... فَيَكُـونُ عَنْـهُ مُعَـبِّرًا بِلِسَـانِ

٥٥٥١- فَـيَرَى امْـرَءًا مِـنْ فَوْقِـهِ فِي هَيْئَـةٍ ... فَيَرُوعُـهُ مَـا تَنْظُـرُ العَيْنَـانِ

٥٥٥٢- فَـإِذَا عَلَيْـهِ مِثْلُهَـا إِذْ لَـيْسَ يَلْـ ... ـحَقُ أَهْلَهَـا شَيْءٌ مِـنَ الأَحْـزَانِ

٥٥٥٣- وَاهًا لِذَا السُّوقِ الَّـذِي مِـنْ حِلِّـهِ ... نَـالَ التَّهَـانِي كُلَّهَـا بِأَمَـانِ

٥٥٥٤- يُدْعَى بِسُوقِ تَعَارُفٍ مَـا فِيـهِ مِـنْ ... صَـخَبٍ وَلا غِـشٍّ وَلا أَيْـمَانِ

٥٥٥٥- وَتِجَـارُهُ مَـنْ لَـيْسَ تُلْهِيـهِ تِـجَا ... رَاتٌ وَلا بَيْـعٌ عَـنِ الـرَّحْمَنِ

٥٥٥٦- أَهْـلُ الـمُرُوءَةِ وَالفُتُـوَّةِ وَالتُّقَـى ... وَالـذِّكْرِ لِلـرَّحْمَنِ كُـلَّ أَوَانِ

٥٥٥٧- يَا مَنْ تَعَوَّضَ عَنْهُ بِالسُّوقِ الَّذِي ... رُكِزَتْ لَدَيْهِ رَايَةُ الشَّيْطَانِ

٥٥٥٨- لَوْ كُنْتَ تَدْرِي قَدْرَ ذَاكَ السُّوقِ لَمْ ... تَرْكَنْ إِلَى سُوقِ الكَسَادِ الفَانِي

الشرحُ

٥٥٤٥- فَيَقُولُ جَلَّ جَلالُهُ قُومُوا إِلَى ... مَا قَدْ ذَخَرْتُ لَكُمْ مِنَ الإِحْسَانِ

٥٥٤٦- يَأْتُونَ سُوقًا لا يُبَاعُ وَيُشْتَرَى ... فِيهِ فَخُذْ مِنْهُ بِلا أَثْمَانِ

٥٥٤٧- قَدْ أَسْلَفَ التُّجَّارُ أَثْمَانَ المَبِيـ ... ـعِ بِعَقْدِهِمْ فِي بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ

الله أكبرُ! انظر إلى النَّعيمِ، في الدُّنيا ينصرفون إلى الأسواقِ، قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ﴾ [الجمعة:١٠]، وفي الآخِرةِ هكذا، ينصرفون من الله عزَّ وجلَّ بعد أنْ ألقى عليهم هذا الرِّضوانَ، وأمطر عليهم هذا المطرَ إلى سوقٍ فيه ما يشاؤون من أنواعِ النَّعيمِ، ويأخذونه بلا ثمنٍ، لماذا؟ لأنَّ الثَّمنَ مُقدَّمٌ، فهم قدَّموه في الدُّنيا، فهو بمنزلةِ السَّلَمِ، يُعْطِي الفلاحَ دراهمَ ويأخذُ منه الثَّمرَ بعد سنةٍ أو سنتين.

٥٥٤٨- للهِ سُوقٌ قَدْ أَقَامَتْهُ المَلَا ... ئِكَةُ الكِرَامُ بِكُلِّ مَا إِحْسَانِ

٥٥٤٩- فِيهَا الَّذِي وَاللهِ لا عَيْنٌ رَأَتْ ... كَلَّا وَلا سَمِعَتْ بِهِ أُذُنَانِ

٥٥٥٠- كَلَّا وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ امْرِئٍ ... فَيَكُونُ عَنْهُ مُعَبِّرًا بِلِسَانِ

٥٥٥١- فَيَرَى امْرَءًا مِنْ فَوْقِهِ فِي هَيْئَةٍ ... فَيَرُوعُهُ مَا تَنْظُرُ العَيْنَانِ

٥٥٥٢- فَإِذَا عَلَيْهِ مِثْلُهَا إِذْ لَيْسَ يَلْـ ... ـحَقُ أَهْلَهَا شَيْءٌ مِنَ الأَحْزَانِ

٥٥٥٣- وَاهًا لِذَا السُّوقِ الَّذِي مِنْ حِلِّهِ ... نَالَ التَّهَانِي كُلَّهَا بِأَمَانِ

قَوْلُهُ: «وَاهًا»؛ يعني: عجبًا.

٥٥٥٤- يُدْعَى بِسُوقِ تَعَارُفٍ مَا فِيهِ مِنْ ... صَخَبٍ وَلا غِشٍّ وَلا أَيْمَانِ

الأسواقُ في الدُّنيا فيها صَخَبٌ، وفيها غِشٌّ، وفيها كَذِبٌ، وفيها أيمانٌ؛ أي: أحلافٌ، لكن سوقُ الجنَّةِ ليس به هذا.

٥٥٥٥- وَتِجَارُهُ مَنْ لَيْسَ تُلْهِيهِ تِجَا ... رَاتٌ وَلا بَيْعٌ عَنِ الرَّحْمَنِ

٥٥٥٦- أَهْلُ المُرُوءَةِ وَالفُتُوَّةِ وَالتُّقَى ... وَالذِّكْرِ لِلرَّحْمَنِ كُلَّ أَوَانِ

٥٥٥٧- يَا مَنْ تَعَوَّضَ عَنْهُ بِالسُّوقِ الَّذِي ... رُكِزَتْ لَدَيْهِ رَايَةُ الشَّيْطَانِ

٥٥٥٨- لَوْ كُنْتَ تَدْرِي قَدْرَ ذَاكَ السُّوقِ لَمْ ... تَرْكَنْ إِلَى سُوقِ الكَسَادِ الفَانِي

وصَدَقَ رحمه اللهُ.

* * *

فصــل

فِي حَالِهِمْ عِنْدَ رُجُوعِهِمْ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ

٥٥٥٩- فَـإِذَا هُـمُ رَجَعُـوا إِلَى أَهْلِـيهِمُ ... بِمَوَاهِـبٍ حَصَـلَتْ مِـنَ الـرَّحْمَنِ

٥٥٦٠- قَالُوا لَـهُمْ أَهْلًا وَرَحْبًـا مَـا الَّـذِي ... أُعْطِيـتُمُ مِـنْ ذَا الـجَمَالِ الثَّـانِي

٥٥٦١- وَاللهِ لازْدَدْتُـمْ جَمَـالًا فَـوْقَ مَـا ... كُنْـتُمْ عَلَيْـهِ قَبْـلَ هَـذَا الآنِ

٥٥٦٢- قَـالُوا وَأَنْـتُمْ وَالَّـذِي أَنْشَـاكُمُ ... قَـدْ زِدْتُـمُ حُسْـنًا عَـلَى الإِحْسَـانِ

٥٥٦٣- لَكِـنْ يَحِـقُّ لَنَـا وَقَـدْ كُنَّـا إِذًا ... جُلَسَاءَ رَبِّ العَرْشِ ذِي الرِّضْوَانِ

٥٥٦٤- فَهُـمُ إِلَى يَـوْمِ الـمَزِيدِ أَشَـدُّ شَـوْ ... قًـا مِـنْ مُحِـبٍّ لِلحَبِيـبِ الـدَّانِي

الشـرحُ

اللهُ أكبرُ! وهذا دَائِمٌ، كُلَّما رجعوا من زيارةِ الله عزَّ وجلَّ في يومِ المزيدِ، ثُمَّ إلى السُّوقِ الذي يتعارَفون فيه، ثُمَّ إلى أهلِيهم، وجدوهم قد ازدادوا حُسْنًا، إِذَنْ ازديادُهم في الحُسْنِ لا نهايةَ له؛ لأنَّ يومَ المزيدِ ليس له نهايةٌ، هم خالدون فيه أبدًا.

فإنْ قيل: إذا كانوا يتلذَّذون بهذه الزِّيارةِ، فلماذا لا يطلبون استمرارَها؟

نقولُ: لو استمرَّت لصارت معتادةً ولم يكن لها هذا الشَّوقُ، ومعلومٌ أنَّهم إذا كانوا يتشوَّقون إليه ويتطلَّعون إليه ثُمَّ يحصلُ لهم صار ألذَّ، وجَرِّبْ هذا في

شيءٍ تُوعَدُ به، وشيءٍ يكونُ عندك دَائِمٌ؛ ولهذا ذكَر ابنُ القيِّمِ في النَّظْمِ نفسِه أنَّ اللهَ هو الذي يقولُ لهم: «قُومُوا إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الكَرَامَةِ»(١)، وهذا يدلُّ على أنَّ الأمرَ لو كان راجعًا إليهم لَبَقَوْا ولم ينصرفوا.

***

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في سوق الجنة، رقم (٢٥٤٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة الجنة، رقم (٤٣٣٦).

فصل

فِي خُلُودِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيهَا، وَدَوَامِ صِحَّتِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ وَشَبَابِهِمْ، وَاسْتِحَالَةِ المَوْتِ وَالنَّوْمِ عَلَيْهِمْ

٥٥٦٥- هَـذَا وَخَاتِـمَةُ النَّعِيمِ خُلُـودُهُمْ أَبَـدًا بِـدَارِ الـخُلْدِ وَالرِّضْـوَانِ

٥٥٦٦- أَوَمَا سَمِعْتَ مُنَادِيَ الإِيمَانِ يُخْـ ـبِرُ عَـنْ مُنَادِيهِمْ بِحُسْـنِ بَيَـانِ

٥٥٦٧- لَكُـمُ حَيَـاةٌ مَـا بِهَـا مَـوْتٌ وَعَـا فِـيَةٌ بِـلا سَـقَمٍ وَلا أَحْـزَانِ

٥٥٦٨- وَلَكُـمْ نَعِـيمٌ مَـا بِـهِ بُـؤْسٌ وَمَـا لِشَـبَابِكُمْ هَـرَمٌ مَـدَى الأَزْمَـانِ

٥٥٦٩- كَـلَّا وَلا نَـوْمٌ هُنَـاكَ يَكُـونُ ذَا نَـوْمٍ وَمَـوْتٍ بَيْنَنَـا أَخَـوَانِ

٥٥٧٠- هَـذَا عَلِمْنَـاهُ اضْـطِرَارًا مِـنْ كِتَـا بِ الله فَـافْهَمْ مُقْتَضَـى القُـرْآنِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «هَذَا عَلِمْنَاهُ اضْطِرَارًا مِنْ كِتَابِ الله» قال ذلك لأنَّ القرآنَ فيه آياتٌ كثيرةٌ أنَّهم خالدون في الجنَّةِ أبدًا، وهذا يقتضي أنَّهم لا ينامون وأنَّهم لا يموتون، والنَّومُ أخو الموتِ، قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُّمر:٤٢]، فَسَمَّى النَّومَ وفاةً، فالنَّومُ أخو الموتِ؛ ولهذا لـمَّا لم يكن موتٌ في الجنَّةِ لم يكن نومٌ؛ ولأنَّ النَّومَ في الدُّنيا إنَّما نُضطَرُّ إليه؛ لأنَّه يهدمُ التَّعبَ السَّابقَ ويُجَدِّدُ

النَّشاطَ للَّاحقِ، فهو يُرِيحُ من عملٍ سابقٍ ويُجَدِّدُ النَّشاطَ لعملٍ لاحقٍ، أمَّا في الآخرةِ فالأمرُ ليس كذلك.

***

٥٥٧١- وَالجَهْمُ أَفْنَاهَا وَأَفْنَى أَهْلَهَا ... تَبًّا لِذَاكَ الجَاهِلِ الفَتَّانِ

٥٥٧٢- طَرْدًا لِنَفْيِ دَوَامِ فِعْلِ الرَّبِّ فِي الْـ ... ـمَاضِي وَفِي مُسْتَقْبَلِ الأَزْمَانِ

٥٥٧٣- وَأَبُو الهُذَيْلِ يَقُولُ يَفْنَى كُلَّمَا ... فِيهَا مِنَ الحَرَكَاتِ لِلسُّكَّانِ

٥٥٧٤- وَتَصِيرُ دَارُ الخُلْدِ مَعْ سُكَّانِهَا ... وَثِمَارِهَا كَحِجَارَةِ البُنْيَانِ

٥٥٧٥- قَالُوا وَلَوْلَا ذَاكَ لَمْ يَثْبُتْ لَنَا ... رَبٌّ لأَجْلِ تَسَلْسُلِ الأَعْيَانِ

٥٥٧٦- فَالقَوْمُ إِمَّا جَاحِدُونَ لِرَبِّهِمْ ... أَوْ مُنْكِرُونَ حَقَائِقَ الإِيمَانِ

الشرحُ

٥٥٧١- وَالجَهْمُ أَفْنَاهَا وَأَفْنَى أَهْلَهَا ... تَبًّا لِذَاكَ الجَاهِلِ الفَتَّانِ

٥٥٧٢- طَرْدًا لِنَفْيِ دَوَامِ فِعْلِ الرَّبِّ فِي الْـ ... ـمَاضِي وَفِي مُسْتَقْبَلِ الأَزْمَانِ

قَوْلُهُ: «تَبًّا»؛ يعني: خُسرانًا.

أشار المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- إلى رأيَيْنِ في دَوامِ الجنَّةِ مُقَابِلَيْنِ لما دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ وإجماعُ الأُمَّةِ، وهما:

الرَّأيُ الأوَّلُ: رأيُ جهمٍ، يقولُ: إنَّ الجنَّةَ وما فيها تفنى كالنَّارِ، كُلُّ شيءٍ يَفْنَى ولا يبقى إلَّا اللهُ، وهذا بِناءً على أنَّ التَّسلسلَ في المستقبلِ ممنوعٌ كالتَّسلسلِ في

الماضي طردًا للقاعدة؛ يعني: تسلسلُ المخلوقاتِ عندهم ممنوعٌ، فلا يمكنُ أن تبقى المخلوقاتُ إلى ما لا نهايةَ له، هذا رأيُ الجهميَّةِ.

وهذا مُكَذِّبٌ للقُرآنِ؛ لأنَّ اللهَ قال في أهلِ الجنَّةِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وَأَخْبَرَ أَنَّه عزَّ وجلَّ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وإذا كان فعَّالًا لما يريدُ لَزِمَ أن يكونَ فعلُه قديمًا أزليًّا بخلاف المفعولِ، ويجب أن تُفَرِّقَ بين الفعلِ والمفعولِ، المفعولاتُ كُلُّها حادثةٌ بلا شكٍّ، وليس فيها شيءٌ قديمٌ لم يكن حادثًا من عَدَمٍ، بل كُلُّها حادثةٌ من عَدَمٍ، لكنَّ فعلَ الله عزَّ وجلَّ قديمٌ، متى شَاءَ فَعَلَ فأحدث المفعولَ، ومتى شَاءَ أبقى المفعولَ، لو شاء اللهُ عزَّ وجلَّ لأفنى كُلَّ شيءٍ إلَّا نفسَه، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، لكن هل معنى ذلك أنَّنا إذا قلنا بدوامِ فاعليَّةِ الرَّبِّ نقولُ: بأنَّ اللهَ معه إلهٌ كما زعم الجهمُ؟ الجوابُ: لا، نقولُ: فعلُه من أوصافِه، وأوصافُه لازمةٌ له أزلًا وأبدًا.

٥٥٧٣- وَأَبُو الهُذَيْلِ يَقُولُ يَفْنَى كُلُّمَا ... فِيهَا مِنَ الحَرَكَاتِ لِلسُّكَّانِ

٥٥٧٤- وَتَصِيرُ دَارُ الخُلْدِ مَعْ سُكَّانِهَا ... وَثِمَارِهَا كَحِجَارَةِ البُنْيَانِ

وأمَّا أبو الهُذَيل العَلَّاف فجاء بقولٍ عجيبٍ، يقولُ: تَفْنَى الحركاتُ ونموُّ الأشجارِ، ويَبْقَى الشَّيءُ كالأحجارِ؛ يعني: أهلُ الجنَّةِ تَبْقَى أجسامُهم لكن بدون حركةٍ، تَبْقَى الأشجارُ لكن بدون ثمارٍ، تَبْقَى الجَنَّةُ لكن بدون أحجارٍ، حتَّى الرَّجل إذا كان قد رفع اللُّقمةَ إلى فمِه أو الفاكهةَ ثُمَّ قَضَى اللهُ عليهم بتبطيلِ العملِ بَقِيَ بفاكهتِهِ رافعًا يَدَه إلى متى؟ إلى ما لا نهايةَ له، إذا كان على زوجتِه بَقِيَ عليها أبدَ الآبدين؛ لأنَّه يرى أنَّ الحركاتِ تَفْنَى والأعيانَ تَبْقَى، لماذا؟ «حَذَرًا مِنَ التَّسَلْسُلِ»؛ ولذا قال:

٥٥٧٥- قَالُوا وَلَوْلا ذَاكَ لَمْ يَثْبُتْ لَنَا رَبٌّ لأَجْلِ تَسَلْسُلِ الأَعْيَانِ

يقولون: لو قلنا بتسلسُلِ الأعيانِ لم يكن فرقٌ بين الرَّبِّ وبين المخلوقِ؛ لأنَّ المخلوقَ يَبْقَى والرَّبُّ يَبْقَى أبدَ الآبدين، فلو قلنا بالتَّسلسل لَزِمَ أن يكونَ الخالقُ والمخلوقُ شيئًا واحدًا.

٥٥٧٦- فَالقَوْمُ إِمَّا جَاحِدُونَ لِرَبِّهِمْ أَوْ مُنْكِرُونَ حَقَائِقَ الإِيمَانِ

وهؤلاء كما قال ابنُ القيِّمِ: إمَّا جاحدون لربِّهم، أو مُنكرون حقائقَ الإيمانِ؛ يعني: إن أقرُّوا بالله ولكنِ استمرُّوا على هذا القولِ فهم مُنكِرون لحقائقِ الإيمانِ؛ لأنَّ هناك فرقًا بين التَّسلسلِ الذي هو من فِعلِ الله عزَّ وجلَّ وبين دَوامِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فالرَّبُّ باقٍ بنفسِهِ واجبُ البَقاءِ بنفسِهِ، وهذه الأشياءُ متسلسةٌ بفعلِ الله عزَّ وجلَّ، لو شاء لأفناها، ثُمَّ إنَّ تسلسُلَها أيضًا يَخْلُفُ بعضُها بعضًا عَيْنًا، الثَّمرةُ إذا أُخِذَت جاء بدلَهَا ثمرةٌ وإن كانت الأعيانُ مثل البشرِ والحورِ وما أشبه ذلك باقيةً، لكنَّها باقيةٌ ببقاءِ الله بقاءً جائزًا عقلًا وواجبًا شرعًا، واجبًا شرعًا؛ لأنَّه يجبُ أن نؤمنَ ببقائِها، وأمَّا عقلًا فإنَّه يمكنُ أنَّ اللهَ يُهْلِكُهَا.

ونحن نقولُ: ماذا تقولون في الزَّمانِ: أمتسلسلٌ هو أم لا؟ سيقولون: متسلسلٌ بلا شكٍّ، مَنْ خَلَقَ الزَّمانَ؟ اللهُ عزَّ وجلَّ، إِذَنْ يلزمُ من هذا أنَّ التَّسلسلَ غيرُ ممنوعٍ، لكن نعلمُ أنَّ الزَّمنَ ليس موجودًا فيما قبله، فاللهُ أَحْدَثَ الزَّمنَ وَأَبْقَى الزَّمنَ، ولكنَّ اللهَ لم يزل موجودًا، ولا يزالُ موجودًا، «**هُوَ الأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَالآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ**».

واعلم أنَّ مثلَ هذه الأبحاثِ لا طائلَ تحتها، ولا فائدةَ منها، والجهلُ بها خيرٌ من العلمِ بها، لكن اضطرَّ شيخُ الإسلامِ وابنُ القيِّمِ وغيرُهما من أهلِ العلمِ

إلى البحثِ فيها؛ لأنَّهم دخلوا فيها بالقوَّةِ حيث إنَّ الفلاسفةَ والمتكلِّمين وأهلَ المنطقِ ألجؤوهم إلى الدُّخولِ فيها، وكان دخولُهم فيها واجبًا؛ لئلَّا يكونَ المكانُ خاليًا لهؤلاء الجُهَّالِ من الفلاسفةِ والمناطقةِ، فلابُدَّ أن ندخلَ معهم، وأن نخوضَ المعركةَ، وإلَّا لا يمكنُ أن تجدَ حرفًا واحدًا عن الصَّحابةِ أنَّهم سألوا الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هذا السُّؤالَ: هل الحوادثُ متسلسلةٌ أو لا؟ إنَّما يأخذون القُرآنَ على حسَبِ ظاهرِهِ وكما يليق بالمتكلِّم به سبحانه وتعالى.

***

فصل

فِي ذَبْحِ المَوْتِ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ قَالَ: إِنَّ الذَّبْحَ لِمَلَكِ المَوْتِ، أَوْ إِنَّ ذَلِكَ مَجَازٌ لا حَقِيقَةَ لَهُ

٥٥٧٧- أَوَمَا سَمِعْتَ بِذَبْحِهِ لِلمَوْتِ بَيْـ ... ـنَ المَنْزِلَيْنِ كَذَبْحِ كَبْشِ الضَّانِ

٥٥٧٨- حَاشَا لِذَا المَلِكِ الكَرِيمِ وَإِنَّمَا ... هُوَ مَوْتُنَا المَحْتُومُ لِلإِنْسَانِ

٥٥٧٩- وَاللهُ يُنْشِئُ مِنْهُ كَبْشًا أَمْلَحًا ... يَوْمَ المَعَادِ يَرَى لَنَا بِعِيَانِ

٥٥٨٠- يُنْشِي مِنَ الأَعْرَاضِ أَجْسَامًا كَذَا ... بِالعَكْسِ كُلٌّ قَابِلُ الإِمْكَانِ

٥٥٨١- أَفَمَا تُصَدِّقُ أَنَّ أَعْمَالَ العِبَا ... دِ تُحَطُّ يَوْمَ العَرْضِ فِي المِيزَانِ

٥٥٨٢- وَلِذَاكَ تَثْقُلُ تَارَةً وَتَخِفُّ أُخْـ ... ـرَى ذَاكَ فِي القُرْآنِ ذُو تِبْيَانِ

٥٥٨٣- وَلَهُ لِسَانٌ كِفَّتَاهُ تُقِيمُهُ ... وَالكِفَّتَانِ إِلَيْهِ نَاظِرَتَانِ

٥٥٨٤- مَا ذَاكَ أَمْرًا مَعْنَوِيًّا بَلْ هُوَ الـ ... ـمَحْسُوسُ حَقًّا عِنْدَ ذِي الإِيمَانِ

٥٥٨٥- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ تَسْبِيحَ العِبَا ... دِ وَذِكْرَهُمْ وَقِرَاءَةَ القُرْآنِ

٥٥٨٦- يُنْشِيهِ رَبُّ العَرْشِ فِي صُوَرٍ تُجَا ... دِلُ عَنْهُ يَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ

٥٥٨٧- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ ذَلِكَ حَوْلَ عَرْ ... شِ الرَّبِّ ذُو صَوْتٍ وَذُو دَوَرَانِ

٥٥٨٨- يَشْفَعْنَ عِنْدَ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وَيُذَكِّرُونَ بِصَاحِبِ الإِحْسَانِ

٥٥٨٩- أَوَمَا سَـمِعْتَ بِـأَنَّ ذَلِـكَ مُـؤْنِسٌ ... فِي القَـبْرِ لِلمَلْفُـوفِ فِي الأَكْفَـانِ

٥٥٩٠- فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الجَمِيلِ الوَجْهِ فِي ... سِـنِّ الشَّـبَابِ كَأَجْمَـلِ الشُّـبَّانِ

٥٥٩١- أَوَمَـا سَـمِعْتَ بِـأَنَّ مَـا تَتْلُـوهُ فِي ... أَيَّـامِ هَـذَا العُمْـرِ مِـنْ قُـرْآنِ

٥٥٩٢- يَأْتِي يُجَادِلُ عَنْكَ يَوْمَ الـحَشْرِ لِلـرْ ... رَحْمَـنِ كَـيْ يُنْجِيـكَ مِـنْ نِـيرَانِ

٥٥٩٣- فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ شَـاحِبٌ ... يَـا حَبَّـذَا ذَاكَ الشَّـفِيعُ الـدَّانِي

الشـرحُ

في هذا الفصلِ بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّه «يُؤْتَى بِالـمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُوْنَ: نَعَمْ، هَذَا الـمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُوْلُوْنَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلا مَوْتَ»[1].

قولُـهم: «هَذَا المَوْتُ»؛ يعنون: هذا الذي جِيء به على صورةِ كبشٍ أبيضَ، وليس هو مَلَكَ الموتِ، مَلَكُ الموتِ مَلَكٌ من الملائكةِ الكرام، وإنَّما هو الموتُ نفسُه، والمؤلِّفُ -رحمه اللهُ- يقولُ: وَالرَّد عَلَى مَنْ قَالَ: «إِنَّ الذَّبْحَ لِـمَلَكِ المَوْتِ وأَنَّ ذَاكَ مَجَازٌ»؛ أي: إنَّ إطلاقَ الموتِ عليهِ مجازٌ عن مَلَكِ الموتِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم:٣٩]، رقم (٤٤٥٣)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٤٩).

٥٥٧٧- أَوَمَا سَمِعْتَ بِذَبْحِهِ لِلمَـوْتِ بَيْـ ـنَ الـمَنْزِلَيْنِ كَذَبْحِ كَبْشِ الضَّـانِ

قَوْلُهُ: «المَنْزِلَيْنِ»؛ أي: منزلِ أهلِ الجنَّةِ ومنزلِ أهلِ النَّارِ.

٥٥٧٨- حَاشَا لِذَا الـمَلِكِ الكَـرِيمِ وَإِنَّـمَا هُــوَ مَوْتُنَـا المَحْتُـومُ لِلإِنْسَـانِ

يعني: أُنَزِّهُ أن يكونَ الذَّبحُ لِلْمَلَكِ نفسِه، وإنَّما هو للموتِ المحتومِ.

٥٥٧٩- وَاللهُ يُنْشِــئُ مِنْــهُ كَبْشًــا أَمْلَحًــا يَــوْمَ الــمَعَادِ يَـرَى لَنَـا بِعِيَـانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهُ يُنْشِئُ مِنْهُ كَبْشًا أَمْلَحًا» «أَمْلَحًا» بالصَّرفِ والتَّنوينِ من أجلِ ضَرورةِ الشِّعرِ، وإلَّا لو لم يكن ضرورةٌ لكان الصَّوابُ أن يُقَالَ: «أَمْلَحَ»، وقد قال ابنُ مالكٍ رحمه اللهُ:

وَلاضْــطِرَارٍ أَوْ تَنَاسُــبٍ صُرِفْ ذُو المَنْعِ وَالمَصْرُوْفُ قَدْ لا يَنْصَرِفْ[1]

٥٥٨٠- يُنْشِي مِنَ الأَعْرَاضِ أَجْسَامًا كَـذَا بِـالعَكْسِ كُـلٌّ قَابِـلُ الإِمْكَـانِ

قَوْلُهُ: «يُنْشِي مِنَ الأَعْرَاضِ أَجْسَامًا كَذَا بِالعَكْسِ»؛ يعني: اللهُ عزَّ وجلَّ يُنشئ من الأعراضِ أجسامًا كذا بالعكسِ؛ بحيث يجعلُ الأجسامَ أعراضًا.

قَوْلُهُ: «كُلٌّ قَابِلُ الإِمْكَانِ»؛ يعني: أنَّ قلبَ الأعيانِ إلى أعراضٍ، والأعراضِ إلى أعيانٍ أمرٌ ممكنٌ قابلُ الإمكانِ؛ لأنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ.

ثُمَّ أتى بشواهدَ فقال:

٥٥٨١- أَفَـمَا تُصَـدِّقُ أَنَّ أَعْـمَالَ العِبَـا دِ تُحَطُّ يَـوْمَ العَـرْضِ فِي الـمِيزَانِ

---

(١) انظر: شرح ابن عقيل (٣/ ٣٣٨).

الجوابُ: بلى، نُصَدِّقُ، والأدلَّةُ على هذا كثيرةٌ، وأمَّا المعتزلةُ فأنكروا الميزانَ الحسِّيَّ يوم القيامةِ، وقالوا: لا يُوجَدُ ميزانٌ، كيف تُوْزَنُ الأعمالُ وهي أعمالٌ ومعانٍ انتهت في الدُّنيا؟! وقالوا: إنَّ المرادَ بالميزانِ هو العدلُ، فلا ميزان له كِفَّتانِ، ولكنَّ هذا من تحريفِهِم والعياذُ بالله؛ لأنَّ النُّصوصَ واضحةٌ جليَّةٌ في أنَّ الأعمالَ تُوزَنُ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزَّلزلة:٧-٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله العَظِيمِ»(١).

٥٥٨٢- وَلِذَاكَ تَثْقُلُ تَارَةً وَتَخِفُّ أُخْـ ـرَى ذَاكَ فِي القُرْآنِ ذُو تِبْيَانِ

وذلك كما في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٦- ٩].

٥٥٨٣- وَلَـهُ لِسَـانٌ كِفَّتَـاهُ تُقِيمُـهُ وَالكِفَّتَـانِ إِلَيْـهِ نَاظِرَتَـانِ

الميزانُ الذي يكونُ يومَ القيامةِ له كِفَّتَان تقيمُه، وله لسانٌ أيضًا، وهل للموازينِ ألسنةٌ؟ الجوابُ: نعم، أرأيتم الميزانَ سابقًا؟! الميزانُ سابقًا عبارةٌ عن

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء:٤٧] وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن، رقم (٧١٢٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

حديدةٍ ممدودةٍ، وفي وسطِها حديدةٌ مركوزةٌ، هذه الحديدةُ المركوزةُ مُثَبَّتَةٌ بمسمارٍ كالقوسِ على هذه الحديدةِ المنصوبةِ القائمةِ، والكِفَّتَان عن يمينٍ وشمالٍ، إذا رجحت إحداهُما مالَ اللِّسانُ؛ أي: ظَهَرَ اللِّسانُ إليها، وإذا خَفَّتْ إحدهما خرج اللِّسانُ منها، هذا الميزانُ سابقًا، وهو الآن معروفٌ.

٥٥٨٤- مَا ذَاكَ أَمْرًا مَعْنَوِيًّا بَلْ هُوَ الـ ـمَحْسُوسُ حَقًّا عِنْدَ ذِي الإِيمَانِ

هذا ردٌّ على المعتزلةِ الذين قالوا: إنَّ الوزنَ يومَ القيامةِ ليس محسوسًا؛ ولكنَّ المرادَ به: إقامةُ العدلِ، فهو عندهم أمرٌ معنويٌّ؛ ولذا قال: «**مَا ذَاكَ أَمْرًا مَعْنَوِيًّا**»؛ أي: «**ما الوزنُ أمرًا معنويًّا، بَلْ هُوَ المَحْسُوْسُ حَقًّا عِنْدَ ذِي الإِيْمَانِ**»؛ أي: إنَّه ميزانٌ حِسِّيٌّ تُوْزَنُ به الأعمالُ، وإذا كانت تُوْزَنُ به الأعمالُ وهو حسِّيٌّ لَزِمَ أن يكونَ الموزونُ كذلك حِسِّيًّا عَيْنًا يرجحُ تارةً ويَخِفُّ أخرى.

٥٥٨٥- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ تَسْبِيحَ العِبَا دِ وَذِكْرَهُمْ وَقِرَاءَةَ القُرْآنِ

٥٥٨٦- يُنْشِيهِ رَبُّ العَرْشِ في صُوَرٍ تُجَا دِلُ عَنْهُ يَوْمَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ

الجوابُ: بلى.

٥٥٨٧- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ ذَلِكَ حَوْلَ عَرْ شِ الرَّبِّ ذُو صَوْتٍ وَذُو دَوَرَانِ

التَّسبيحُ يدورُ حولَ عرشِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وله صوتٌ.

٥٥٨٨- يَشْفَعْنَ عِنْدَ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وَيُذَكِّرُونَ بِصَاحِبِ الإِحْسَانِ

أي: يُذَكِّرون أنَّه فلانُ بنُ فلانٍ، وأنَّ هذا الذِّكرَ جاء منه.

٥٥٨٩- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ ذَلِكَ مُؤْنِسٌ في القَبْرِ لِلمَلْفُوفِ في الأَكْفَانِ

٥٥٩٠- فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الجَمِيلِ الوَجْهِ فِي ... سِنِّ الشَّبَابِ كَأَجْمَلِ الشُّبَّانِ

يعني: العملُ الصَّالحُ يأتي إلى الرَّجلِ إذا دُفِنَ يُؤنسُه، ويكونُ في صورةِ الرَّجُلِ الجميلِ الوجهِ في سنِّ الشَّبابِ كأجملِ الشُّبَّان؛ لأجلِ أن يُؤَنِّسَه، ويقولُ لَهُ: «مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيْءُ بِالخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ»(١).

٥٥٩١- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّ مَا تَتْلُوهُ فِي ... أَيَّامِ هَذَا العُمْرِ مِنْ قُرْآنِ

٥٥٩٢- يَأْتِي يُجَادِلُ عَنْكَ يَوْمَ الحَشْرِ لِلرْ ... رَحْمَنِ كَيْ يُنْجِيكَ مِنْ نِيرَانِ

٥٥٩٣- فِي صُورَةِ الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ شَاحِبٌ ... يَا حَبَّذَا ذَاكَ الشَّفِيعُ الدَّانِي

هذا أيضًا جَاءَتْ به السُّنَّةُ: أنَّ القرآنَ «يَأْتِي شَافِعًا لأَصْحَابِهِ»(٢).

***

٥٥٩٤- أَوَمَا سَمِعْتَ حَدِيثَ صِدْقٍ قَدْ أَتَى ... فِي سُورَتَيْنِ مِنْ اَوَّلِ القُرْآنِ

٥٥٩٥- فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ بَيْنَهَا ... شَرْقٌ وَمِنْهُ الضَّوْءُ ذُو تِبْيَانِ

٥٥٩٦- شَبَّهَهُمَا بِغَمَامَتَيْنِ وَإِنْ تَشَأْ ... بِغَيَايَتَيْنِ هُمَا لِذَا مِثْلانِ

٥٥٩٧- هَذَا مِثَالُ الأَجْرِ وَهْوَ فِعَالُنَا ... كَتِلاوَةِ القُرْآنِ بِالإِحْسَانِ

٥٥٩٨- فَالمَوْتُ يُنْشِيهِ لَنَا فِي صُورَةٍ ... خَلَّاقَةٍ حَتَّى يُرَى بِعِيَانِ

٥٥٩٩- وَالمَوْتُ مَخْلُوقٌ بِنَصِّ الوَحْيِ وَالْـ ... ـمَخْلُوقُ يَقْبَلُ سَائِرَ الأَلْوَانِ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، رقم (٨٠٤).

٥٦٠٠- فِي نَفْسِهِ وَبِنَشْأَةٍ أُخْرَى بِقُدْ رَةِ قَالِبِ الأَعْرَاضِ وَالأَلْوَانِ

الشرحُ

٥٥٩٤- أَوَمَا سَمِعْتَ حَدِيثَ صِدْقٍ قَدْ أَتَى فِي سُورَتَيْنِ مِنْ اَوَّلِ القُرْآنِ

وهما: البقرةُ، وآلُ عمران.

٥٥٩٥- فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ بَيْنَهَا شَرْقٌ وَمِنْهُ الضَّوْءُ ذُو تِبْيَانِ

٥٥٩٦- شَبَّهَهُمَا بِغَمَامَتَيْنِ وَإِنْ تَشَأْ بِغَيَايَتَيْنِ هُمَا لِذَا مِثْلانِ

٥٥٩٧- هَذَا مِثَالُ الأَجْرِ ....

فالمؤلِّفُ -رحمه اللهُ- بَيَّنَ أَنَّ الذي يأتي يوم القيامةِ كأنَّهما غمامتان أو غيايتان إنَّما هو أجرُهما، وليست «البقرة» و«آل عمران»؛ لأنَّ البقرةَ وآلَ عمرانَ كلامُ الله عزَّ وجلَّ، وهو غيرُ مخلوقٍ، وإنَّما المرادُ بذلك الأجرُ، يأتي يومَ القيامةِ «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ[1] أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ[2] مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ[3] يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[4].

٥٥٩٧- .... وَهُوَ فِعَالُنَا كَتِلاوَةِ القُرْآنِ بِالإِحْسَانِ

يعني: كما أنَّ التِّلاوةَ فعلُنا فما نراه يومَ القيامةِ هو الأجرُ، واعلم أنَّ القراءةَ

---

(١) الغَيَايَة: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه كالسّحابة وغيرها. انظر: النهاية: غيا.
(٢) أي قِطعتان. انظر: النهاية: فرق.
(٣) أي بَاسِطَاتٍ أَجْنِحَتَهَا في الطَّيَران، والصَّوَافُّ: جَمْعُ صَافَّة. انظر: النهاية: صفف.
(٤) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، رقم (٨٠٤).

تشتملُ على مقروءٍ وقِراءةٍ؛ فأمَّا المقروءُ -وأعني بذلك: القرآنَ- فهو غيرُ مخلوقٍ، وأمَّا القراءةُ فهي مخلوقةٌ؛ لأنَّ القراءةَ صوتُ القارئِ وفعلُه، بالحركاتِ تظهرُ الأصواتُ، والصَّوتُ فِعْلُ الإنسانِ، فيجبُ أن نعرفَ الفرقَ بين اللَّفظِ والملفوظِ، وبين القولِ والمقولِ، وبين القراءةِ والمقروءِ، فما كان وصفًا لنا فهو مخلوقٌ، وما كان من كلامِ الله فهو غيرُ مخلوقٍ، وهذا واضحٌ، والحمدُ لله.

٥٥٩٨- فَالــمَوْتُ يُنْشِيهِ لَنَا في صُــورَةٍ ... خَلَّاقَــةٍ حَتَّــى يُــرَى بِعِيَــانِ

٥٥٩٩- وَالمَوْتُ مَخْلُوقٌ بِنَصِّ الوَحْيِ وَالــ ... ــمَخْلُوقُ يَقْبَــلُ سَــائِرَ الأَلْــوَانِ

٥٦٠٠- فِي نَفْسِــهِ وَبِنَشْــأَةٍ أُخْــرَى بِقُــدْ ... رَةِ قَالِــبِ الأَعْــرَاضِ وَالأَلْــوَانِ

قَوْلُهُ: «وَالمَخْلُوقُ يَقْبَلُ سَائِرَ الأَلْوَانِ» «الأَلْوَانِ»؛ يعني: الأصنافَ والأنواعَ؛ يعني: يقبلُ أن يكونَ كبشًا، وأن يكونَ جبلًا، وأن يكونَ أيَّ شيءٍ أراده اللهُ عزَّ وجلَّ، فالألوانُ هنا ليست اللَّونَ الأصفرَ أو الأحمرَ أو الأسودَ، لا، بل الألوانُ: الأصنافُ، ومنه قولُ الإمامِ أحمدَ -رحمه اللهُ- فيما رُوِيَ عن الصَّحابةِ من قيامِ اللَّيلِ، قال: «رُوِيَ فِي ذَلِكَ أَلْوَانٌ»؛ يعني: أنواعًا.

***

٥٦٠١- أَوَمَا سَــمِعْتَ بِقَلْبِــهِ سُبْحَانَهُ الــ ... أَعْيَــانَ مِــنْ لَــوْنٍ إِلَى أَلْــوَانِ

٥٦٠٢- وَكَــذَلِكَ الأَعْــرَاضُ يَقْلِــبُ رَبُّهَــا ... أَعْيَانَهَــا وَالكُــلُّ ذُو إِمْكَــانِ

٥٦٠٣- لَــمْ يَفْهَــمِ الــجُهَّالُ هَــذَا كُلَّــهُ ... فَــأَتَوْا بِتَــأْوِيلاتِ ذِي الــبُطْلانِ

٥٦٠٤- فَمُكَــذِّبٌ وَمُــؤَوِّلٌ وَمُحَــيَّرٌ ... مَــا ذَاقَ طَعْــمَ حَــلاوَةِ الإِيمَانِ

٥٦٠٥- لَـمَّا فَسَا الـجُهَّالُ في آذَانِـهِ ... أَعْمَـوْهُ دُونَ تَـدَبُّرِ القُـرْآنِ

٥٦٠٦- فَثَنَـى لَنَـا العِطْفَـيْنِ مِنْـهُ تَكَـبُّرًا ... وَتَبَخْـتُرًا في حُلَّـةِ الـهَذَيَانِ

٥٦٠٧- إِنْ قُلْـتَ قَـالَ اللهُ قَـالَ رَسُـولُهُ ... فَيَقُـولُ جَهْـلًا أَيْـنَ قَـوْلُ فُـلانِ

الشرحُ

٥٦٠١- أَوَمَا سَـمِعْتَ بِقَلْبِـهِ سُبْحَانَهُ الـ ... أَعْيَـانَ مِـنْ لَـوْنٍ إِلَى أَلْـوَانِ

٥٦٠٢- وَكَـذَلِكَ الأَعْـرَاضُ يَقْلِـبُ رَبُّهَـا ... أَعْيَانَهَـا وَالكُـلُّ ذُو إِمْكَـانِ

بَيَّنَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- أنَّ الذي يُذْبَحُ هو الموتُ نفسُه، وأنَّ ذلك ليس بغريبٍ على قدرةِ الله، فإنَّ اللهَ تعالى يقلبُ الأعمالَ «المعانيَ» أجسامًا، كما أنَّه رُبَّما يجعلُ الأعمالَ معانيَ فقط.

٥٦٠٣- لَـمْ يَفْهَـمِ الـجُهَّالُ هَـذَا كُلَّـهُ ... فَـأَتَوْا بِتَـأْوِيلاتِ ذِي الـبُطْلانِ

٥٦٠٤- فَمُكَـذِّبٌ وَمُـؤَوِّلٌ وَمُحَـيَّرٌ ... مَـا ذَاقَ طَعْـمَ حَـلاوَةِ الإِيـمَانِ

قَوْلُهُ: «مُؤَوِّلٌ» المرادُ بالتَّأويلِ: التَّحريفُ؛ لأنَّ التَّأويلَ نوعان: تأويلٌ حقٌّ؛ وهو: أن يُفَسَّرَ النَّصُّ بما يريدُه اللهُ ورسولُه، والثَّاني: تأويلٌ باطلٌ، وهذا تحريفٌ؛ ولهذا سَمَّى أهلُ التَّحريفِ أنفسَهم بالمؤوِّلةِ، تلطيفًا لما هم عليه من التَّحريفِ، وإلَّا فحقيقةُ الأمرِ أنَّهم مُحرِّفةٌ، فمن قال: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]؛ أي: استولى عليه، لا نقولُ: مؤوِّلٌ، بل نقولُ: هذا مُحرِّفٌ، لاشكَّ في هذا، ومَنْ قال: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النَّحل:١]؛ أي: سيأتي، نقولُ: هذا مُؤَوِّلٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يدلُّ على: أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَتَىٰٓ﴾: سيأتي، وكذلك إذا قال: ﴿فَإِذَا

قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل:٩٨]؛ أي: إذا أردتَ أن تقرأَ، نقولُ: هذا صحيحٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ -صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم- إنَّما كان يتعوَّذُ إذا أراد أن يقرأَ[1]، فصرفُ اللَّفظِ عن ظاهرِه إن دَلَّ عليه دليلٌ شرعيٌّ فهو تأويلٌ، وإن لم يَدُلَّ عليه دليلٌ فهو تحريفٌ، وإن سمَّاه أهلُه تأويلًا.

٥٦٠٥- لَـمَّا فَسَا الـجُهَّالُ في آذَانِـهِ أَعْمَوْهُ دُونَ تَـدَبُّرِ القُرْآنِ

٥٦٠٦- فَثَنَى لنَا العِطْفَيْنِ مِنْهُ تَكَبُّرًا وَتَبَخْتُرًا في حُلَّةِ الـهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «لَـمَّا فَسَا الـجُهَّالُ فِي آذَانِهِ أَعْمَوْهُ»؛ يعني: أسمعوه، ولكنَّه جاء بهذه الصِّيغةِ تقبيحًا لها، فأسمعوه خلافَ الحقِّ فعَمِيَ، والعياذُ بالله.

٥٦٠٧- إِنْ قُلْتَ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ فَيَقُولُ جَهْلًا أَيْنَ قَوْلُ فُلانِ

أعوذُ بالله، يريدُ أن يقارنَ قولَ فلانٍ بقولِ الله ورسولِه.

***

(١) لعله يعني حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال له: «إِذا افتتحت الْقِرَاءَة فَقُل: أعوذ بِالله من الشَّيْطَان الرَّجِيم». ذكره السمعاني في تفسيره (٣/ ٢٠٠).

فصل

في أنَّ الجنَّةَ قِيعانٌ، وأنَّ غِراسَهَا الكَلامُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ

٥٦٠٨- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّهَا القِيعَانُ فَاغْـ ... ـرِسْ مَا تَشَاءُ بِذَا الزَّمَانِ الفَانِي

٥٦٠٩- وَغِرَاسُهَا التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتْـ ... ـتَحْمِيدُ وَالتَّوْحِيدُ لِلرَّحْمَنِ

٥٦١٠- تَبًّا لِتَارِكِ غَرْسِهِ مَاذَا الَّذِي ... قَدْ فَاتَهُ مِنْ مُدَّةِ الإِمْكَانِ

٥٦١١- يَا مَنْ يَقَرُّ بِذَا وَلا يَسْعَى لَهُ ... بِاللهِ قُلْ لِي كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ

٥٦١٢- أَرَأَيْتَ لَوْ عَطَّلْتَ أَرْضَكَ مِنْ غِرَا ... سٍ مَا الَّذِي تَجْنِي مِنَ البُسْتَانِ

٥٦١٣- وَكَذَاكَ لَوْ عَطَّلْتَهَا مِنْ بَذْرِهَا ... تَرْجُو المُغَلَّ يَكُونُ كَالكِيمَانِ

٥٦١٤- مَا قَالَ رَبُّ العَالَمِينَ وَعَبْدُهُ ... هَذَا فَرَاجِعْ مُقْتَضَى القُرْآنِ

٥٦١٥- وَتَأَمَّلَ «البَاءَ» الَّتِي قَدْ عَيَّنَتْ ... سَبَبَ الفَلاحَ لِحِكْمَةِ الفُرْقَانِ

٥٦١٦- وَأَظُنُّ «بَاءَ» النَّفْيِ قَدْ غَرَّتْكَ فِي ... ذَاكَ الحَدِيثِ أَتَى بِهِ الشَّيْخَانِ

٥٦١٧- لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّاتِ أَصْلًا كَادِحٌ ... بِالسَّعْيِ مِنْهُ وَلَوْ عَلَى الأَجْفَانِ

٥٦١٨- وَاللهِ مَا بَيْنَ النُّصُوصِ تَعَارُضٌ ... وَالكُلُّ مَصْدَرُهَا عَنِ الرَّحْمَنِ

٥٦١٩- لَكِنَّ «بَا» الإِثْبَاتِ لِلتَّسْبِيبِ وَ«الْـ ... ـبَاءُ» الَّتِي لِلنَّفْيِ بَا الأَثْمَانِ

٥٦٢٠- وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَا فَفَرْقٌ ظَاهِرٌ ... يَدْرِيهِ ذُو حَظٍّ مِنَ العِرْفَانِ

الشـرحُ

٥٦٠٨- أَوَمَا سَمِعْتَ بِأَنَّهَا القِيعَانُ فَاغْـ ـرِسْ مَا تَشَاءُ بِذَا الزَّمَانِ الفَانِي

٥٦٠٩- وَغِرَاسُهَا التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَالتْـ ـتَحْمِيدُ وَالتَّوْحِيدُ لِلرَّحْمَنِ

ذَكَرَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ تعالى- أنَّ الجَنَّةَ قيعانٌ[1]؛ يعني: خاليةً من النَّبَاتِ، وأنَّ غراسَها التَّسبيحُ والتَّكبيرُ والتَّحميدُ والتَّهليلُ، والتَّسبيحُ قولُ: «سُبْحَانَ الله»، والتَّكبيرُ قولُ: «اللهُ أكبرُ»، والتَّحميدُ قولُ: «الحمدُ لله»، والتَّوحيدُ قولُ: «لَا إلهَ إلَّا اللهُ»، وقد جاءت هذه الأربعُ مجموعةً في أحد أنواعِ الأذكارِ بعد الصَّلاةِ، فإنَّ من أنواعِه أن يقولَ: (سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ).

٥٦١٠- تَبًّا لِتَارِكِ غَرْسِهِ مَاذَا الَّذِي قَدْ فَاتَهُ مِنْ مُدَّةِ الإِمْكَانِ

٥٦١١- يَا مَنْ يَقَرُّ بِذَا وَلا يَسْعَى لَهُ بِاللهِ قُلْ لِي كَيْفَ يَجْتَمِعَانِ

يعني: كيف يجتمعُ أن تُقِرَّ بأنَّ الجنَّةَ قيعانٌ وأنَّ غراسَها العملُ الصَّالحُ، ثُمَّ لا تسعى لهذا؟! هل هذا ممكنٌ؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّ مَنْ أقرَّ بهذا، وأنَّ الجنَّةَ قيعانٌ، وأنَّها تحتاجُ لعملٍ صالحٍ يُغْرَسُ فيها، فلابُدَّ أن يغرسَ العملَ الصَّالحَ، فإذا كنت مُقِرًّا بهذا ولا تسعى له، فإنَّ عدمَ سعيِك يُكَذِّبُ إقرارَك، فالإنسانُ إذا أقَرَّ بهذا وآمَنَ به فلماذا لا يسعى؟!

---

(١) كما في حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ الله، وَالحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ». أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، رقم (٣٤٦٢).

ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلَيْنِ فقال:

٥٦١٢- أَرَأَيْتَ لَوْ عَطَّلْتَ أَرْضَكَ مِنْ غِرَا ... سٍ مَا الَّذِي تَجْنِي مِنَ البُسْتَانِ

٥٦١٣- وَكَذَاكَ لَوْ عَطَّلْتَهَا مِنْ بَذْرِهَا ... تَرْجُو المُغَلَّ يَكُونُ كَالكِيمَانِ

هذان مَثَلَانِ؛ الأَوَّلُ: «لَوْ عَطَّلْتَ أَرْضَكَ مِنْ غِرَاسٍ مَا الَّذِي تَجْنِي مِنَ البُسْتَانِ»؟ الجوابُ: لا شيء.

الثَّاني: أو «عَطَّلْتَهَا مِنْ بَذْرِهَا تَرْجُو المُغَلَّ يَكُونُ كَالكِيمَانِ»؟ الجوابُ: لا يمكنُ، كيف ترجو أن يكونَ الزَّرعُ كالكيمانِ؛ يعني: أكوامًا كثيرةً وأنت لم تبذرْ؟!

٥٦١٤- مَا قَالَ رَبُّ العَالَمِينَ وَعَبْدُهُ ... هَذَا فَرَاجِعْ مُقْتَضَى القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «مَا قَالَ رَبُّ العَالَمِينَ وَعَبْدُهُ هَذَا»؛ يعني: أَنَّك تُعَطِّلُ، وتتركُ العملَ وتفوزُ بالجَنَّةِ، فَرَاجِعْ مُقْتَضَى الإِيْمانِ.

٥٦١٥- وَتَأَمَّلَ «البَاءَ» الَّتِي قَدْ عَيَّنَتْ ... سَبَبَ الفَلاحَ لِحِكْمَةِ الفُرْقَانِ

٥٦١٦- وَأَظُنُّ «بَاءَ» النَّفْيِ قَدْ غَرَّتْكَ فِي ... ذَاكَ الحَدِيثِ أَتَى بِهِ الشَّيْخَانِ

في القرآنِ الكريمِ آياتٌ متعدِّدَةٌ؛ منها قولُه تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النَّحل:٣٢] وقولُه تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدة:١٤]، وما أشبه ذلك من الآياتِ، فَأَثْبَتَتْ أنَّ العملَ يَدْخُلُ الإنسانُ به الجَنَّةَ، ثُمَّ ثَبَتَ عن النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فيما رواه الشَّيخان أنَّه قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، فَقِيلَ لَهُ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَةٍ

مِنْهُ وَفَضْلٍ»[١]، فالمهملُ قال: إِذَنْ لا أعملُ ما دام العملُ لا يدخلُني الجنَّةَ، وإنَّما الذي يُدْخلُني رحمةُ الله، إِذَنْ لا أعملُ؛ ولهذا قال: «وَأَظُنَّ «بَاءَ» النَّفْيِ قَدْ غَرَّتْكَ فِي ذَاكَ الحَدِيثِ أَتَى بِهِ الشَّيْخَانِ»

ما هي «باءُ» النَّفي؟

الجوابُ: هي الموجودةُ في قولِه: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، فغرَّتْهُ، وقال: لا أعملُ، ما دام الأمرُ راجعًا إلى مغفرةِ الله ورحمتِه فلا حاجةَ إلى العمل، ثُمَّ قال مبيِّنًا وموضِّحًا:

٥٦١٧- لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّاتِ أَصْلًا كَادِحٌ ... بِالسَّعْيِ مِنْهُ وَلَوْ عَلَى الأَجْفَانِ

هذا النَّصُّ الذي جاء به الحديثُ: أَنَّهُ «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ».

٥٦١٨- وَاللهِ مَا بَيْنَ النُّصُوصِ تَعَارُضٌ ... وَالكُلُّ مَصْدَرُهَا عَنِ الرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَالكُلُّ مَصْدَرُهَا عَنِ الرَّحْمَنِ» هذه الجملة يحتملُ أن تكونَ حاليَّةً؛ يعني: ليس فيها تعارضٌ، والحالُ أنَّها صادرةٌ من الله؛ لقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢]، ويحتملُ أنَّها استئنافيَّةٌ؛ يعني: وإذا كان مصدرُها من الرَّحمنِ فإنَّها لن تتعارضَ.

٥٦١٩- لَكِنَّ «بَا» الإِثْبَاتِ لِلتَّسْبِيبِ وَ«الـ ... ـبَاءُ» الَّتِي لِلنَّفْيِ بَا الأَثْمَانِ

٥٦٢٠- وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَا فَفَرْقٌ ظَاهِرٌ ... يَدْرِيهِ ذُو حَظٍّ مِنَ العِرْفَانِ

«باءُ» الإثباتِ في قولِه تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السَّجدة:١٧] للتَّسبيبِ؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٠٩٨)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، رقم (٢٨١٦).

يعني: أنَّها باءُ السَّبَبيَّةِ، و«لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» للأثمانِ؛ يعني: لن يكونَ العملُ ثمنًا لدخولِ الجنَّةِ؛ ولهذا يسمُّونها «باء» العِوَضِ.

إِذَنْ الإثباتُ للسَّببِ والنَّفيُ للعوضِ، وحينئذٍ لا تعارضَ، إِذَنْ الدُّخولُ ليس عِوَضًا عن العملِ، ولكن دخولُ الجنَّةِ بسببِ العملِ، كما لو أنَّ إنسانًا قال: «أنا أعطيكَ جائزةً قدرُها مئةُ ألفٍ إذا كَتَبْتَ لي هذه الورقةَ»، ومعلومٌ أنَّ مئةَ الألفِ لا تقابلُ كتابةَ الورقةِ، لكن هو جعل ذلك سببًا؛ أي: إنَّك إذا كَتَبْتَ هذه الورقةَ فقد امْتَثَلْتَ أمري ورَجَوْتَ ثوابي، فأنا أعطيك هذا الثَّوابَ، وفرقٌ بين المعنيين.

* * *

فصــل

فِي إِقَامَةِ المَـآتِمِ عَلَى المُتَخَلِّفِينَ عَنْ رُفْقَةِ السَّابِقِينَ

٥٦٢١- بِـاللهِ مَـا عُـذْرُ امْـرِئٍ هُـوَ مُـؤْمِنٌ ... حَقًّـا بِهَـذَا لَـيْسَ بِاليَقْظَـانِ

٥٦٢٢- بَـلْ قَلْبُـهُ فِي رَقْـدَةٍ فَـإِذَا اسْـتَفَا ... قَ فَلُبْسُـهُ هُـوَ حُلَّـةُ الكَسْـلانِ

٥٦٢٣- تَـاللهِ لَـوْ شَـاقَتْكَ جَنَّـاتُ النَّعِيــ ... ـمِ طَلَبْتَهَـا بِنَفَـائِسِ الأَثْـمَانِ

٥٦٢٤- وَسَعَيْتَ جُهْدَكَ فِي وِصَالِ نَـوَاعِمٍ ... وَكَوَاعِبٍ بِـيضِ الوُجُـوهِ حِسَـانِ

٥٦٢٥- جُلِيَـتْ عَلَيْـكَ عَـرَائِسٌ وَاللهِ لَـوْ ... تُـجْلَى عَـلَى صَخْرٍ مِـنَ الصَّـوَّانِ

٥٦٢٦- رَقَّـتْ حَوَاشِـيهِ وَعَـادَ لِوَقْتِـهِ ... يَنْهَـالُ مِثْـلَ نَقًـى مِـنَ الكُثْبَـانِ

٥٦٢٧- لَكِنَّ قَلْبَكَ فِي القَسَـاوَةِ جَـازَ حَـدْ ... دَ الصَّخْرِ وَالـحَصْبَاءِ فِي أَشْجَانِ

٥٦٢٨- لَوْ هَزَّكَ الشَّـوْقُ المُقِيمُ وَكُنْـتَ ذَا ... حِـسٍّ لَـمَا اسْـتَبْدَلْتَ بِـالأَدْوَانِ

٥٦٢٩- أَوْ صَادَفَتْ مِنْكَ الصِّفَاتُ حَيَاةَ قَلْـ ... ـبٍ كُنْتَ ذَا طَلَـبٍ لِـهَذَا الشَّـانِ

٥٦٣٠- خَـوْدٌ تُـزَفُّ إِلَى ضَرِيـرٍ مُقْعَـدٍ ... يَـا مِحْنَـةَ الـحَسْنَاءِ بِالعُمْيَـانِ

٥٦٣١- شَـمْسٌ لِعِنِّـينٍ تُـزَفُّ إِلَيْـهِ مَـا ... ذَا حِيلَـةُ العِنِّـينِ فِي الغِشْـيَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي إِقَامَةِ الـمَآتِمِ عَلَى الـمُتَخَلِّفِينَ عَنْ رِفْقَةِ السَّابِقِينَ» ليس معنى

ذلك أنَّه جائزٌ أن يُقِيمَ الإنسانُ المآتمَ عند الأحزانِ، لكن هذا بيانٌ للواقعِ أنَّ النَّاسَ عند الأحزانِ يُقِيْمُونَ المآتمَ، لكن شرعًا لا؛ لأنَّ الواجبَ الصَّبرُ وعدمُ إظهارِ ما يدلُّ على التَّسخُّطِ.

قَوْلُهُ: «**وَاللهِ لَوْ تُجْلَى عَلَى صَخْرٍ مِنَ الصَّوَّانِ رَقَّتْ حَوَاشِيهِ** ..» هذا من المبالغةِ من الشَّيخِ رحمه الله، يقولُ: لو أنَّ هذه الحورَ زُفَّتْ إلى صخرٍ من الصَّوَّانِ «**الحجرُ الصَّلبُ**»، لَرَقَّتْ حواشيه؛ يعني: صارت رقيقةً مثل الرَّمْلِ، ولكنَّ هذا من بابِ المبالغةِ في ضربِ الأمثالِ حتَّى يعرفَ الإنسانُ موضعَ قلبِه الذي زُفَّتْ إليه هذه العرائسُ، هل يلينُ قلبُه في الوصولِ إليها حتَّى يؤمنَ؟ جعلنا اللهُ وإيَّاكم من هؤلاء.

قَوْلُهُ: «**شَمْسٌ لِعِنِّينٍ تُزَفُّ إِلَيْهِ**...» الشَّمسُ من جمالِها وحُسْنِها ونورِها تُزَفُّ إلى عِنِّينٍ؛ والعِنِّينُ هو: الذي لا يستطيعُ الجماعَ؛ ولهذا قال: «**مَا حِيلَةُ العِنِّينِ فِي الغِشْيَانِ؟**»، الجوابُ: ليس له حيلةٌ.

***

٥٦٣٢- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيصَةً ... بَلْ أَنْتِ غَالِيَةٌ عَلَى الكَسْلانِ

٥٦٣٣- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيْسَ يَنَالُهَا ... فِي الأَلْفِ إِلَّا وَاحِدٌ لا اثْنَانِ

٥٦٣٤- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ مَنْ ذَا كُفْؤُهَا ... إِلَّا أُولُو التَّقْوَى مَعَ الإِيمَانِ

٥٦٣٥- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ سُوقُكِ كَاسِدٌ ... بَيْنَ الأَرَاذِلِ سِفْلَةِ الحَيَوَانِ

٥٦٣٦- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ أَيْنَ المُشْتَرِي ... فَلَقَدْ عُرِضْتِ بِأَيْسَرِ الأَثْمَانِ

٥٦٣٧- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ هَلْ مِنْ خَاطِبٍ ... فَالمَهْرُ قَبْلَ المَوْتِ ذُو إِمْكَانِ

٥٦٣٨- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ تَصَبُّرُ الـ ... ـخُطَّابِ عَنْكِ وَهُمْ ذَوُو إِيمَانِ

٥٦٣٩- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَوْلا أَنَّهَا ... حُجِبَتْ بِكُلِّ مَكَارِهِ الإِنْسَانِ

٥٦٤٠- مَا كَانَ عَنْهَا قَطُّ مِنْ مُتَخَلِّفٍ ... وَتَعَطَّلَتْ دَارُ الجَزَاءِ الثَّانِي

٥٦٤١- لَكِنَّهَا حُجِبَتْ بِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... لِيُصَدَّ عَنْهَا المُبْطِلَ المُتَوَانِي

٥٦٤٢- وَتَنَالُهَا الهِمَمُ الَّتِي تَسْمُو إِلَى ... رُتَبِ العُلَى بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ

الشرحُ

٥٦٣٢- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَسْتِ رَخِيصَةً ... بَلْ أَنْتِ غَالِيَةٌ عَلَى الكَسْلانِ

وهذا صحيحٌ، والله غاليةٌ على الكسلانِ، وأمَّا على ذي الهمَّةِ فرخيصةٌ؛ لأنَّ العملَ إلى الجنَّةِ أرخصُ من العملِ إلى الدُّنيا وأسهلُ؛ فمثلًا: سُبْحَانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، كم فيها من غراسٍ؟ الجوابُ: أربعةٌ بدون تعبٍ ولا مشقَّةٍ، وفي مكانٍ دائمٍ، لكن في الدُّنيا اغرس أربعَ شجراتٍ، تجد التَّعبَ في تحصيلِها وغَرْسِها وسَقْيِها وملاحظتِها.

فهي -والله- ليست رخيصةً إلَّا على رجلٍ كسلانَ، وربما نقول: إنَّها عند ذي الهمَّةِ فهي رخيصةٌ؛ بمعنى أنَّها سهلةٌ عليه، ولَيْسَتْ رخيصةً؛ يعني: لا قيمةَ لها عنده أبدًا.

٥٦٣٣- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ لَيْسَ يَنَالُهَا ... فِي الأَلْفِ إِلَّا وَاحِدٌ لا اثْنَانِ

هذا جاء به الحديثُ: يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ:

مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ»[١]، فلا ينالُ الجنَّةَ من بني آدمَ إلَّا واحدٌ في الألفِ.

٥٦٣٤- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ مَنْ ذَا كُفْؤُهَا إِلَّا أُولُو التَّقْوَى مَعَ الإِيمَانِ

اللَّهُمَّ اجعلنا منهم.

٥٦٣٥- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ سُوقُكِ كَاسِدٌ بَيْنَ الأَرَاذِلِ سِفْلَةِ الحَيَوَانِ

قَوْلُهُ: «سِفْلَةِ الحَيَوَانِ» هذا صحيحٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ الكافرين بأنَّهم ﴿كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البيِّنة:٦]؛ أي: شرُّ مَنْ بَرَأَ اللهُ، فالكُفَّارُ لاشكَّ أنَّهم سِفْلَةُ الحيوانِ، وإن زعموا أنَّهم في قممِ المعالي، فهم واللهِ تحتَ الأقدامِ، بل إنَّ أتباعَهم يقولون يومَ القيامةِ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصِّلت:٢٩]، اللَّهُمَّ اهدنا يا ربُّ.

٥٦٣٦- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ أَيْنَ المُشْتَرِي فَلَقَدْ عُرِضْتِ بِأَيْسَرِ الأَثْمَانِ

٥٦٣٧- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ هَلْ مِنْ خَاطِبٍ فَالمَهْرُ قَبْلَ المَوْتِ ذُو إِمْكَانِ

ما هو المهرُ؟ الجوابُ: ما سبق؛ وهو: الإيمانُ والتَّقوى، ومع ذلك هذا المهرُ مهرٌ لسلعةِ الرَّحمنِ -اللَّهُمَّ اجعلنا مِن مشتريها- ومهرٌ لسلعةِ الدُّنيا، حتَّى الدُّنيا الآن لا تجدُ أحدًا أَطْيَبَ قلبًا، ولا أحسنَ بالًا من أهلِ الإيمانِ والتَّقوى.

٥٦٣٨- يَا سِلْعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ تَصَبَّرُ الـ ـخُطَّابِ عَنْكِ وَهُمْ ذَوُو إِيمَانِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج ومأجوج، رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم أخرج بعث النار»، رقم (٢٢٢).

٥٦٣٩- يَـا سِـلْعَةَ الـرَّحْمَنِ لَـوْلا أَنَّهَـا حُجِبَـتْ بِكُـلِّ مَكَـارِهِ الإِنْسَـانِ

٥٦٤٠- مَا كَـانَ عَنْهَـا قَـطُّ مِـنْ مُتَخَلِّـفٍ وَتَعَطَّلَـتْ دَارُ الجَـزَاءِ الثَّـانِي

أَشَارَ هنا إلى معنى جليلٍ جدًّا؛ وهو أنَّ الجنَّةَ حُفَّتْ بالمكارهِ، لماذا؟ يقولُ: لولا هذا ما كان للنَّارِ أهلٌ؛ يعني: لو كانت الجنَّةُ محفوفةً بالشَّهواتِ كالنَّارِ ما بَقِيَ أحدٌ للنَّارِ، وقد أشار اللهُ لهذا في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨]، فَحُفَّتْ الجنَّةُ بالمكارهِ من أجل ألَّا ينالها إلَّا مَنْ تَجَشَّمَ هذه المكارهَ، قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١] بلا أحدٍ؛ ولهذا تجدُ المؤمنَ يُكابِدُ أشياءَ، وهذه الأشياءُ ليست سهلةً، فهو يُكَابِدُ نفسَه، يصبرُ على الوضوءِ في المكارهِ، على الإتيانِ للمساجدِ، يصبرُ على ما ينالُه من أذى النَّاسِ، يصبرُ على ما ينالُه من تعبٍ في العبادةِ أحيانًا، فتجدُه يُصَابِرُ، يصبرُ على كبح نفسِه عن شَهواتِها، ليست المسألةُ هيِّنةً؛ ولذلك كانت الجنَّةُ محفوفةً بالمكارهِ، ولكنَّها كما قال ابنُ القيِّم عدَّةَ مرَّاتٍ: «مَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِيْ»، كُلُّ العمرِ الذي مضى قبل ساعتِنا هذه كأنَّه ساعةٌ، كأنَّنا لم نعش فيه، فهي أيَّامٌ يسيرةٌ ثُمَّ ارتحالٌ، وينقضي زمنُ العملِ إلى زمنِ الجزاءِ، ولكن اصبر، وصَابِرْ حتَّى تنالَ ما يناله الصَّابرون ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمر:١٠]، وهذا أمرٌ واضحٌ، انظُر إلى آبائِك، انظُر إلى إخوانِك الذين هم أكبرُ منك، انظُر إلى أقرانِك، انظُر إلى مَنْ هو دُونَك، كُلُّهم رحلوا عن الدُّنيا وكأنَّهم لم يُخْلَقُوا فيها، قال الشَّاعرُ:

بَيْنَـا يُـرَى الإِنْسَـانُ فِيهَـا مُخْـبِرًا حَتَّى يُرَى خَبَرًا مِـنَ الأَخْبَـارِ(١)

---

(١) البيت لابن الحسن التهامي يرثي ولده، كما في نفح الأزهار في منتخبات الأشعار، لشاكر البتلوني (ص:١٠٣).

وما هي إلَّا ساعةٌ ثُمَّ تنقضي، هذه المكارهُ اصبِرْ عليها، اصبِرْ على كبحِ نفسِك عن شهواتِها، اصبِرْ على الواجباتِ التى أمَرَكَ اللهُ بها، اصبِرْ على البَلايا التي تصيبُك من نفسِك، أو من الله عزَّ وجلَّ، أو من النَّاسِ، اصبِرْ حتَّى تنالَ دارَ الرَّاحةِ، نسألُ اللهَ أن يكتبَ لنا ولكم هذه الدَّارَ.

٥٦٤١- لَكِنَّهَا حُجِبَتْ بِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... لِيُصَدَّ عَنْهَا المُبْطِلَ المُتَوَانِي

٥٦٤٢- وَتَنَالُهَا الهِمَمُ الَّتِي تَسْمُو إِلَى ... رُتَبِ العُلَى بِمَشِيئَةِ الرَّحْمَنِ

إذا قال: «تَسْمُو إِلَيْهَا الهِمَمُ» قَيَّدَ ذلك بمشيئةِ الرَّحمنِ، مشيئةُ الرَّحمنِ ليست مشيئةً مجرَّدَةً، بل هي مشيئةٌ مَبْنِيَّةٌ على الحكمةِ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التَّكوير:٢٧-٢٨]، وقال تعالى في آخِرِ سورةِ «الإنسان»: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، فلهذا قَيَّدَ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- ذلك بمشيئةِ الرَّحمنِ، نسألُ اللهَ أن يشاءَ لنا ولكم ما فيه الخيرُ والصَّلاحُ.

***

٥٦٤٣- فَاتْعَبْ لِيَوْمِ مَعَادِكَ الأَدْنَى تَجِدْ ... رَاحَاتِهِ يَوْمَ المَعَادِ الثَّانِي

٥٦٤٤- وَإِذَا أَبَتْ ذَا الشَّأْنَ نَفْسُكَ فَاتَّهِمْـ ... ـهَا ثُمَّ رَاجِعْ مَطْلَعَ الإِيمَانِ

٥٦٤٥- فَإِذَا رَأَيْتَ اللَّيْلَ بَعْدُ وَصُبْحَهُ ... مَا انْشَقَّ عَنْهُ عَمُودُهُ لأَذَانِ

٥٦٤٦- وَالنَّاسُ قَدْ صَلَّوا صَلاةَ الصُّبْحِ وَانْـ ... ـتَظَرُوا طُلُوعَ الشَّمْسِ قُرْبَ زَمَانِ

٥٦٤٧- فَاعْلَمْ بِأَنَّ العَـيْنَ قَـدْ عَمِيَـتْ فَنَـا
شِدْ رَبَّكَ الـمَعْرُوفَ بِالإِحْسَـانِ

٥٦٤٨- وَاسْـأَلْهُ إِيمَانًـا يُبَـاشِرُ قَلْبَـكَ الـ
ـمَحْجُوبَ عَنْـهُ لِتَنْظُـرَ العَيْنَـانِ

٥٦٤٩- وَاسْـأَلْهُ نُـورًا هَادِيًـا يَهْـدِيكَ فِي
طُـرُقِ الـمَسِيرِ إِلَيْـهِ كُـلَّ أَوَانِ

٥٦٥٠- وَاللهِ مَـا خَـوْفِي الـذُّنُوبَ فَإِنَّهَـا
لَعَـلَى طَرِيـقِ العَفْـوِ وَالغُفْـرَانِ

٥٦٥١- لَكِنَّمَا أَخْشَى انْسِلاخَ القَلْـبِ مِـنْ
تَحْكِـيمِ هَـذَا الـوَحْيِ وَالقُـرْآنِ

٥٦٥٢- وَرِضَا بِـآرَاءِ الرِّجَـالِ وَخَرْصِـهَا
لَا كَـانَ ذَاكَ بِمِنَّـةِ الـرَّحْمَنِ

الشرحُ

٥٦٤٣- فَاتْعَبْ لِيَوْمِ مَعَادِكَ الأَدْنَى تَجِـدْ
رَاحَاتِـهِ يَـوْمَ الـمَعَادِ الثَّـانِي

٥٦٤٤- وَإِذَا أَبَتْ ذَا الشَّأْنَ نَفْسُكَ فَاتَّهِمْـ
ـهَا ثُـمَّ رَاجِـعْ مَطْلَـعَ الإِيـمَانِ

٥٦٤٥- فَـإِذَا رَأَيْـتَ اللَّيْـلَ بَعْـدُ وَصُـبْحَهُ
مَـا انْشَـقَّ عَنْـهُ عَمُـودُهُ لأَذَانِ

٥٦٤٦- وَالنَّاسُ قَدْ صَلَّوا صَلاةَ الصُّبْحِ وَانْـ
ـتَظَرُوا طُلُوعَ الشَّمْسِ قُرْبَ زَمَانِ

٥٦٤٧- فَاعْلَمْ بِأَنَّ العَـيْنَ قَـدْ عَمِيَـتْ فَنَـا
شِـدْ رَبَّـكَ المَعْـرُوفَ بِالإِحْسَـانِ

٥٦٤٨- وَاسْـأَلْهُ إِيمَانًـا يُبَـاشِرُ قَلْبَـكَ الـ
ـمَحْجُوبَ عَنْـهُ لِتَنْظُـرَ العَيْنَـانِ

٥٦٤٩- وَاسْـأَلْهُ نُـورًا هَادِيًـا يَهْـدِيكَ فِي
طُـرُقِ الـمَسِيرِ إِلَيْـهِ كُـلَّ أَوَانِ

قَوْلُهُ: «فَنَاشِدْ رَبَّكَ الـمَعْرُوفَ بِالإِحْسَانِ»، «المَعْرُوفَ» صفةٌ لـ«رَبِّ»، وليست مفعولَ «نَاشِدْ».

والله هذه أبياتٌ عظيمةٌ، إذا رَأَيْتَ من نفسِك التَّخَلُّفَ وَأَبَتْ نفسُك أن تُعَانِقَ مَنْ وُفِّقوا للخيرِ ورَأَوْا أنوارَ الصَّباحِ فاعلم بأنَّ العينَ قد عَمِيَتْ، فَنَاشِدْ ربَّك المعروفَ بالإحسانِ؛ يعني: الذي عُرِفَ بالإحسانِ عزَّ وجلَّ، واسأَلْه إيمانًا يُبَاشِرُ قلبَك المحجوبَ عنه لتنظر العينان؛ أي: اسألْه إيمانًا يباشرُ القلبَ؛ لأنَّ هذا هو النَّافعُ، أمَّا الإيمانُ الذي لا يتجاوزُ الحناجرَ فليس بإيمانٍ، الإيمانُ هو الذي يُباشِرُ القلبَ مُباشرةً، فإذا رَأَيْتَ من نفسِك أنَّ الإيمانَ لم يُباشر قلبَك فعليك باللُّجوءِ إلى الله عزَّ وجلَّ، اسأله وأنت ساجدٌ في آخِرِ اللَّيلِ، اسأله بين الأذانِ والإقامةِ، اسأله في أوقاتِ الإجابةِ أن يَمُنَّ عليك بإيمانٍ يُبَاشِرُ قلبَك ويحيا به قلبُك، هذا هو المقصودُ.

الإيمانُ الذي لا يتجاوزُ الحناجرَ كُلٌّ يدركُه حتَّى المنافق، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤]، ولكنِ الإيمانُ الذي يباشرُ القلبَ ويصلُ إلى القلبِ حتَّى يكونَ بينه وبين الله سببٌ، هذا هو الذي ينفعُ، فإذا لم تجد نفسَك على هذا الوجهِ فاتَّهِمْها، ومَن الذي يهديك من ضلالِك؟ الجوابُ: اللهُ عزَّ وجلَّ، ارجع إلى الله، لا تيأسْ، لا تقلْ: دَعَوْتُ، ولم أجد إيمانًا، ولم أجد خشوعًا، ولم أجد يقينًا، لا تَيْئسْ، كَرِّرْ سؤالَ الله، كَرِّرْ، «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الـمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ»[(١)]، رُبَّما يكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ قد منعك أَوَّلَ مرَّةٍ لمصلحتِك حتَّى يعلمَ عزَّ وجلَّ صِدقَك في الطَّلبِ؛ لأنَّ الصَّادقَ في الطَّلبِ يُلِحُّ، وإذا تأخَّر أَلَحَّ، وإذا عَلِمَ اللهُ عزَّ وجلَّ منك صدقَ النِّيَّةِ فهو والله أكرمُ منك، أنت تسأَلُه لتلجأَ إليه وتعترفَ به ربًّا، فهو أكرمُ منك، لكن لا تُلْحِقْ نفسَك اليأس أبدًا، لا تقلْ: أنا والله دَعَوْتُ لكن ما وجدتُ الإيمانَ، كما يشكو بهذا كثيرٌ من النَّاسِ الآن.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٨، رقم ١١٠٨).

كثيرٌ من النَّاسِ يتَّصلون بنا: ما وجدتُّ الإيمانَ، ما بَاشَرَ الإيمانُ قلبي، ما وَجَدْتُ طَعمَه، الجأ إلى الله، وأَكْثِرْ من الذِّكرِ، أَكْثِرْ من الصَّلاةِ، أَكْثِرْ من قراءةِ القرآنِ، أَكْثِرْ من فعلِ الخيرِ والإحسانِ لإخوانِك، تجد هذا، أمَّا كونُ الإنسانِ يريدُ أن يأتيَه الشَّيءُ بدون تعبٍ فهذا لا يمكنُ.

اسألوا اللهَ عزَّ وجلَّ، ولا تيأسوا من رحمةِ الله؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أكرمُ منَّا، «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ شِبْرًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَاهُ يَمْشِي أَتَاهُ هَرْوَلَةً**»[1]، فهو أسرعُ إلى عبدِه من عبدِه إليه، ولكنَّ المسألةَ تحتاجُ إلى المصابرةِ، وإلى انتظارِ الفرَجِ، وإلى عدمِ اليأسِ من رحمةِ الله عزَّ وجلَّ.

٥٦٥٠- وَاللهِ مَا خَوْفِي الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا لَعَلَى طَرِيقِ العَفْوِ وَالغُفْرَانِ

نعم، الذُّنوبُ سهلةٌ بالنِّسبةِ لما هو أعظمُ منها ممَّا يذكرُه المؤلِّفُ؛ لأنَّها على طريقِ العفوِ والغفرانِ مِن الله مِنَّةً وتفضُّلًا، فالذُّنوبُ -والحمدُ لله- ما عدا الشِّركَ بين خوفٍ ورجاءٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٨]، قد يَمُنُّ اللهُ عزَّ وجلَّ على الإنسانِ بكلمةٍ واحدةٍ من رضاه يبلغُ بها رضاه، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، **امرأةٌ دخلت الجنَّةَ وغُفِرَ لها حيث سَقَتْ كَلْبًا يلهثُ من العطشِ**[2]، فعلٌ يسيرٌ، فالذُّنوبُ في الحقيقةِ كما قال

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى رقم (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء، رقم (٣١٤٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، رقم (٢٢٤٥).

المؤلِّفُ: «عَلَى طَرِيقِ العَفْوِ وَالغُفْرَانِ»، فهي بين عفوٍ في تركِ واجبٍ، أو غفرانٍ في فعلِ مُحرَّمٍ، لكن الخوفُ الذي يُخْشَى منه هو ارتفاعُ الإيمانِ من القلبِ، هذا هو الذي يُخْشَى منه كثيرًا، ويجبُ أن يكونَ الإنسانُ منه على حذرٍ، أجارنا الله وإيَّاكم من ذلك، هذا هو الذي يجبُ أن تحذرَه أن يرتَفعَ الإيمانُ من قلبِك، فهذا هو الذي نسألُ اللهَ أن يجلِّيَه عنَّا وعنكم، وأن يبعدَه عنَّا وعنكم.

٥٦٥١- لَكِنَّمَا أَخْشَى انْسِلاخَ القَلْبِ مِنْ تَحْكِيمِ هَذَا الوَحْيِ وَالقُرْآنِ

قَوْلُهُ: «الوَحْيِ وَالقُرْآنِ» يحتملُ أن يكونَ عطفَ مرادفٍ على مرادفِه؛ كقولِ الشَّاعرِ:

فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنًا(١)

ويحتملُ أن يريدَ بالوحيِ السُّنَّةَ؛ لأنَّها الوحيُ الثَّاني، ويكونُ القرآنُ هو كلامَ الله عزَّ وجلَّ، وأيُّهما أولى إذا دار الأمرُ بين كَوْنِ الكلامِ مؤسِّسًا أو مؤكِّدًا؟ الجوابُ: الأوَّل؛ لأنَّنا إذا حملناه على التَّأسيسِ لم يكن هناك تكرارٌ، وإذا حملناه على التَّوكيدِ صار هناك تكرارٌ.

هذا أيضًا ممَّا يُخْشَى منه خشيةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّ الذي لا يُحكِّمُ القرآنَ منسلخٌ خارجٌ من الإيمانِ، ولو صَلَّى وَصامَ وزَكَّى وفَعَلَ كُلَّ الطَّاعاتِ وهو لا يُحكِّمُ القرآنَ فإنَّه كافرٌ مرتدٌّ، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]؛ ولهذا قال: «لَكِنَّمَا أَخْشَى انْسِلَاخَ القَلْبِ مِنْ تَحْكِيمِ هَذَا الوَحْيِ وَالقُرْآنِ».

(١) هذا عجُز بيت لعدي بن زيد العبادي، كما في المستقصى في أمثال العرب، لأبي القاسم الزمخشري (١/ ٢٤٣)، وصدره: فَقَدَّدت الْأَدِيم لِرَاهِشيه

٥٦٥٢- وَرِضَا بِـآرَاءِ الرِّجَـالِ وَخَرْصِـهَا   لَا كَــانَ ذَاكَ بِمِنَّــةِ الــرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَرِضَا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَخَرْصِهَا»؛ يعني: الآراءَ المَبْنِيَّةَ على الخرصِ والتَّخمينِ، لا على الحكمةِ واليقينِ.

قَوْلُهُ: «لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ» هذه الجملةُ دعائِيَّةٌ، يقولُ: أسْأَلُ اللهَ أَلَّا يكونَ ذلك بمنَّتِه.

وَقَوْلُهُ: «لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ» «لَا كَانَ ذَاكَ» بنفسِه أو بنفسِه هو وإخوانه؟ الجوابُ: العمومُ أَوْلَى، فهو يسأَلُ اللهَ تعالى أَلَّا يكونَ هذا في قلبِه ولا في قلبِ إخوانِه، وهو الإعراضُ عن الكتابِ والسُّنَّةِ وتحكيمُ آراءِ الرِّجالِ.

قد يقولُ قائلٌ: إنَّ الإنسانَ قد يُعْرِضُ عن تحكيمِ القرآنِ ولا يُحَكِّمُ آراءَ الرِّجالِ، فنقولُ: هذا محالٌ، لابُدَّ للإنسانِ من طريقٍ، فإمَّا طريقُ خيرٍ وإمَّا طريقُ شرٍّ؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، وجاء في الحديثِ: «أَصْدَقُهَا -أي: الأَسْمَاءِ- حَارِثٌ وَهَمَّامٌ»[١]؛ لأنَّ كُلَّ إنسانٍ له هَمَّةٌ وله عملٌ، فإذا أَعْرَضَ عن تحكيمِ القرآنِ فلابُدَّ أن يمشيَ على طريقٍ، إلى أين يذهبُ إذا تَرَكَ القرآنَ؟ إلى هوى نفسِه أو إلى آراءِ غيرِه.

وإذا نظرنا إلى بعضِ الحُكَّامِ اليوم في الدُّولِ الإسلاميَّةِ وَجَدْنَا أنَّ هذا الوصفَ ينطبقُ عليهم تمامًا، فقد أعرضوا عن تحكيمِ القُرآنِ وحكموا بآراءِ الرِّجالِ، ومَن الرِّجالِ الذين حكموا بآرائِهم؟ الجوابُ: كُفَّارٌ، قد نقولُ: إنَّ هذا الذي حكموا به في زمانِهم ومكانِهم وأُمَّتِهم مناسبٌ، لكن هل يبقى مُنَاسِبًا للأممِ

---

(١) أخرجه أحمد (٣١/ ٣٧٧، رقم ١٩٠٣٢). وأبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠).

فِي كُلِّ زمانٍ وفِي كُلِّ مكانٍ؟ الجوابُ: أبدًا، لا يمكنُ، إلَّا كلامَ الله عزَّ وجلَّ، وكلامَ رسولِه، فهو صالحٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ وأُمَّةٍ، لكن هذه القوانينُ المستوردةُ من الشَّرقِ أو من الغربِ كُلُّها من وضعِ الرِّجالِ في وقتٍ قد يكونُ مناسبًا وقد يكونُ غيرَ مناسبٍ أيضًا، حتَّى وضعها في زمانِهم ومكانِهم وأُممِهم قد يكونُ غيرَ مناسبٍ؛ لأنَّهم غيرُ معصومين ولا مُدْرِكِينَ لكُلِّ الأمورِ والمشاكلِ، ومع ذلك يأتي هؤلاء الجُهَّالُ فيتلقَّفون هذه القوانينَ ويُطَبِّقونها على شعبٍ مسلمٍ يتناقضُ غايةَ التَّناقضِ مع الأممِ التي سُنَّتْ فيها هذه القوانينُ، وهذا من جهلِهم، نسألُ اللهَ أن يهديَهم صِراطَه المستقيمَ، وأن يولِّيَ على المسلمين خيارَهم.

فالقلبُ إذا انْسَلَخَ -والعياذُ بالله- من تحكيمِ القرآنِ والسُّنَّةِ صار القُرآنُ في نظرِه أساطيرَ الأوَّلينِ، وصارت السُّنَّةُ بنظرِه آراءَ الرِّجالِ والعياذُ بالله، وصارت الشَّريعةُ في نظرِه شريعةَ عصرٍ مَضَى، كما هو موجودٌ الآن في كثيرٍ من الأُممِ الإسلاميَّةِ يَدَعُونَ القرآنَ والسُّنَّة ويحكمون بآراءِ الخلقِ، مع أنَّ آراءَ الخلقِ قاصرةٌ؛ أوَّلا: لأنَّ المخلوقَ لا يمكنُ أن يُحِيطَ بكُلِّ مصالحِ الخلقِ لا زمانًا ولا مكانًا.

ثانيًا: لو فُرِضَ أنَّه أَحَاطَ فإنَّه يحيطُ بمحيطِه فقط، فيمَن حوله، لكن مَنْ كانوا بعيدين عنه أو إذا تغيَّرت الأحوالُ هل يُدْرِكُ ما يصلحُ النَّاسَ؟ أبدًا؛ ولذلك لا شكَّ في ضلالِ هؤلاء في دينِهم الذين يُحَكِّمونَ قوانين وَضَعَهَا الفرنسيُّون أو الإنجليز أو الأمريكان أو الأُممُ المتَّحدةُ، وَيَدَعُونَ كتابَ الله وسُنَّةَ رسولِه ﷺ، من قوانين الأممِ المتَّحدةِ -لا أَقَامَ اللهُ لها قانونَها- أنَّ الإنسانَ حُرٌّ في رأيه، حُرٌّ في عقيدتِه، حُرٌّ في خُلُقِه، حُرٌّ في عملِه، يكفرُ يكفرُ، يقولُ ما شاء، يقولُ ما شاء، ولا أحدَ يتعرَّضُ له، يفجُرُ ويكونُ عاهرًا، ولا أحدَ يتعرَّضُ له.

والعجائبُ أنَّهم يدَّعون أنَّهم يحفظون حقوقَ الإنسانِ، وسبحان الله هذا الذي أقولُه الآن سَمِعْتُه في صباحِ هذا اليومِ من إذاعة لندن، فقد ذكَرَتْ معاهدةِ الأُممِ المتَّحدةِ؛ منها هذا البند أنَّ الإنسانَ حُرٌّ ولا أَحدَ يتعرَّضُ له، يكفرُ، يُشْرِكُ، يزني، يشربُ الخمرَ ولا أحَدَ يتعرَّضُ له؛ لأنَّ هذه حريةُ الإنسانِ، أيُّ فوضى وأيُّ فسادٍ أشدُّ من هذا والعياذُ بالله؟! فيقولُ المؤلِّفُ رحمه الله: «**أَخْشَى انسِلَاخَ القَلْبِ مِنْ تَحْكِيمِ هَذَا الوَحْيِ وَالقُرْآنِ**».

كذلك أيضًا أهلُ الكلامِ في العقائدِ تركوا الكتابَ والسُّنَّةَ وقالوا: إنَّ اليقينَ لا يحصلُ بالقرآنِ ولا بالسُّنَّةِ، ولكن لابُدَّ لنا من عقيدةٍ، من أين نأخُذُها؟ قالوا: من الفلاسفةِ ومنطقِ اليونانِ وآراءِ الرِّجالِ، أمَّا القرآنُ فهو وإن كان يفيدُ اليقينَ في ثبوتِه فإنَّه لا يفيدُ اليقينَ في دلالتِه، يقولون: القرآنُ ليس عندنا إشكالٌ في ثبوتِه وهو متيقَّنٌ متواترٌ غاية التَّواترِ، لكن لا يفيدُ اليقينَ في دلالتِه، وأمَّا السُّنَّةُ فقالوا:

أوَّلا: ننظرُ هل تفيدُ اليقينَ في ثبوتِها أو لا؟ يقولون: المتواترُ يفيدُ اليقينَ، وأمَّا الآحادُ اضربوا به عرضَ الحائطِ، لا تقبلوه في العقائدِ، ثُمَّ المتواترُ متيقَّنُ الثُّبوتِ لكن هل هو متيقَّنُ الدَّلالةِ؟ يقولون فيه مثلَ القرآنِ، ليس متيقَّنَ الدَّلالةِ، إِذَنْ لا يمكنُ أن يفيدَ القرآنُ ولا السُّنَّةُ اليقينَ في جانبِ العقائدِ، وتكونُ كُلُّ العقائدِ المبنيَّةِ على القرآنِ والسُّنَّةِ مَبْنِيَّةً على ظنٍّ، إِذَنْ إلى أين نرجعُ إذا لم نستفد اليقينَ من الكتابِ والسُّنَّةِ؟ إلى العقولِ، العقول المتناحرة المختلفة؟! كُلُّ واحدٍ منهم يُضَلِّلُ الآخر، بل الإنسانُ نفسُه يتناقضُ في مؤلَّفاتِه في أوَّلِ عمرِه وفي آخرِ عمرِه، فكما قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّة رحمهُ الله: «**يَا لَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ شيءٍ يُوزَنُ**

الكتابُ والسُّنَّةُ؟»(١) بعقلِ زيدٍ أو بعقل عبيدٍ؟ وقال الإمامُ مالكٌ: **«أفكلَّما جاءنا رجلٌ أجدلُ من رجلٍ تركنا الكتابَ والسُّنَّةَ لقولِ هذا المجادلِ؟!»**(٢)، هل هذا لائقٌ؟! الجوابُ: لا.

إِذَنْ الذي يُخافُ عليه كما قال المؤلِّفُ: **«لَكِنَّمَا أَخْشَى انْسِلَاخَ القَلْبِ مِنْ تَحْكِيمِ هَذَا الوَحْيِ وَالقُرْآنِ وَرِضًا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَخَرْصِهَا»**.

***

٥٦٥٣- فَبِأَيِّ وَجْهٍ أَلْتَقِي رَبِّي إِذَا ... أَعْرَضْتُ عَنْ ذَا الوَحْيِ طُولَ زَمَانِ

٥٦٥٤- وَعَزَلْتُهُ عَمَّا أُرِيدُ لأَجْلِهِ ... عَزْلًا حَقِيقِيًّا بِلا كِتْمَانِ

٥٦٥٥- صَرَّحْتُ أَنَّ يَقِينَنَا لا يُسْتَفَا ... دُ بِهِ وَلَيْسَ لَدَيْهِ مِنْ إِتْقَانِ

٥٦٥٦- أَوْلَيْتُهُ هَجْرًا وَتَأْوِيلًا وَتَحْـ ... ـرِيفًا وَتَفْوِيضًا بِلا بُرْهَانِ

٥٦٥٧- وَسَعَيْتُ جُهْدِي فِي عُقُوبَةِ مُمْسِكٍ ... بِعُرَاهُ لا تَقْلِيدَ رَأْيِ فُلانِ

الشرحُ

٥٦٥٣- فَبِأَيِّ وَجْهٍ أَلْتَقِي رَبِّي إِذَا ... أَعْرَضْتُ عَنْ ذَا الوَحْيِ طُولَ زَمَانِ

٥٦٥٤- وَعَزَلْتُهُ عَمَّا أُرِيدُ لأَجْلِهِ ... عَزْلًا حَقِيقِيًّا بِلا كِتْمَانِ

بأيِّ شيءٍ؟ بالإيمانِ أو بالكفرِ؟ الجوابُ: بالكفرِ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٢٩).

(٢) انظر: المصدر السابق.

٥٦٥٥- صَرَّحْتُ أَنَّ يَقِينَنَا لا يُسْتَفَا ... دُ بِهِ وَلَيْسَ لَدَيْهِ مِنْ إِتْقَانِ

٥٦٥٦- أَوْلَيْتُهُ هَجْرًا وَتَأْوِيلًا وَتَحْـ ... ـرِيفًا وَتَفْوِيضًا بِلا بُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «وَتَفْوِيضًا بِلَا بُرْهَانِ»؛ أي: بلا دليلٍ.

وَقَوْلُهُ: «بِلَا بُرْهَانِ» لا يعني أنَّ هناك تفويضًا ببرهانٍ، لكن هذا كقولِه تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف:٣٣]، فهو بيانٌ للواقعِ، وأنَّ كُلَّ تفويضٍ لا دليلَ عليه.

يشيرُ -رحمه اللهُ- إلى طريقِ أهلِ الكلامِ في آياتِ الصِّفاتِ وأحاديثِها، هذه طريقٌ، منهم مَنْ يهجرُها ولا يلتفتُ إليها، ويقولُ: اسكت، لا تتكلَّم، ولا بمعانيها، ومنهم مَنْ يؤوِّلُها، ولكنَّه تأويلُ تحريفٍ، ومنهم مَنْ يُفَوِّضُ المعاني، فهذا لا يسكتُ، لكنَّه يقولُ: هذه اللهُ أعلمُ بمرادِها، ولا أعلمُ ماذا أرادَ.

واعلم أنَّ بعضَ العلماءِ -رحمهم اللهُ- من المحقِّقين يظنُّون أنَّ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ هو التَّفويضُ في آياتِ الصِّفاتِ وأحاديثِها؛ أي: تفويضُ المعنى؛ بمعنى: أنَّك إذا سَأَلْتَ الرَّجُلَ من أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ: ما تقولُ في قولِ الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]؟ قال: اللهُ أعلمُ بما أراد، ما تقولُ في قولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]؟ قال: اللهُ أعلمُ بما أراد، يظنُّونَ أنَّ هذا مذهبُ السَّلفِ، وهذا إمَّا كذبٌ وإمَّا جهلٌ، إن كان الإنسانُ يعلمُ أنَّ مذهبَهم خلافُ ذلك فهو كاذبٌ، وإن كان لا يدري فهو جاهلٌ؛ ولهذا كان السَّلفُ مجمعين على أنَّها معلومةُ المعنى، أجمعوا على قولِهم: «أَمِرُّوها كما جَاءَتْ بِلَا كَيْف»[1]؛

(١) أخرجه الآجري في الشريعة (٣/ ١١٤٦، رقم ٧٢٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٨٢، رقم ٩٣٠).

يعني: آياتِ الصِّفاتِ وأحاديثَها، إذا أَمْرَرْنَاهَا كما جاءت فهل هي ألفاظٌ جوفاءُ ليس لها معنى؟ الجوابُ: لها معنى، إِذَنْ قولهم: «أَمِرُّوها كما جَاءَتْ»؛ يعني: أثبتوا معناها، ولا تفوِّضوا.

أيضًا وجهٌ آخَرُ في هذه الجملةِ: «بِلَا كَيْف»؛ لأنَّ نفيَ الكَيْفِ يدلُّ على: وجودِ الأصلِ، ولو لم يكن الأصلُ موجودًا لكان قولُهم: «بِلَا كَيْف» لغوًا لا فائدةَ منه، فأهلُ السُّنَّةِ مُطبِقون على أنَّهم لا يفوِّضون المعنى؛ بل يُثبتونه، ولهم عليه شروحٌ وتقسيماتٌ، يُقَسِّمون العِزَّةَ إلى أقسامٍ، والعلوَّ إلى أقسامٍ، والنَّظَرَ إلى أقسامٍ، والكلامَ إلى أقسامٍ؛ كلامِ رضًا، وكلامِ غضبٍ، وما أشبه ذلك، لكنَّهم يفوِّضون شيئًا واحدًا وهو الكيفيَّة، فالكيفيَّةُ لا يتعرَّضون لها، ولا يسألون عنها، ولا يجيبون عنها، وينكرون على مَنْ سأل عنها، وسواء كانت الكيفيَّةُ في الصِّفةِ أو في العددِ، فَمَنْ قال مثلًا: كَمْ أصابعُ الله؟ ننكرُ عليه، ونقولُ له: ليس لك حقٌّ أن تسألَ هذا السُّؤَالَ، أَثْبِتْ ما جاء في الكتابِ والسُّنَّةِ من العددِ، ولكن لا تسأل عن غيرِه، ومَنْ سأل عن كيفيَّةِ وجهِه أنكرنا عليه؛ لأنَّ هذا ليس معلومًا لنا.

٥٦٥٧- وَسَعَيْتُ جُهْدِي في عُقُوبَةِ مُمْسِكٍ بِعُــرَاهُ لا تَقْلِيــدَ رَأْيِ فُــلانِ

قَوْلُهُ: «سَعَيْتُ جُهْدِي في عُقُوبَةِ مُمْسِكٍ» يريدُ بذلك الإشارةَ إلى الوشاةِ الذين وَشَوْا إلى السَّلاطين والخلفاءِ في أهلِ السُّنَّةِ أن يعاقبوهم، وألَّا يعاقبوا من قَلَّدَ فلانًا وفلانًا، فما حُبِسَ الإمامُ أحمدُ ولا شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ ولا غيرُهما إلَّا بوشايةٍ إلى السَّلاطين، نسألُ اللهَ أن يهدِيَنا وإيَّاكم صراطَه المستقيمَ، وأن يجعلَنا وإيَّاكم من الدُّعاةِ إلى الحقِّ على بصيرةٍ، إنَّه جوادٌ كريمٌ.

***

٥٦٥٨- يَـا مُعْرِضًـا عَـمَّا يُـرَادُ بِـهِ وَقَـدْ   جَـدَّ المَسِـيرُ فَمُنْتَهَـاهُ دَانِ
٥٦٥٩- جَـذْلانَ يَضْـحَكُ آمِنًـا مُتَبَخْـتِرًا   فَكَأَنَّـهُ قَـدْ نَـالَ عَقْـدَ أَمَـانِ
٥٦٦٠- خَلَـعَ السُّـرُورَ عَلَيْـهِ أَوْفَى حُلَّـةٍ   طَـرَدَتْ جَمِيـعَ الـهَمِّ وَالأَحْـزَانِ
٥٦٦١- يَخْتَـالُ فِي حُلَـلِ الـمَسَرَّةِ نَاسِـيًا   مَـا بَعْـدَهَا مِـنْ حُلَّـةِ الأَكْفَـانِ
٥٦٦٢- مَا سَعْيُهُ إِلَّا لِطِيبِ العَيْشِ فِي الـدْ   دُنْيَـا وَلَـوْ أَفْضَـى إِلَى النِّـيرَانِ
٥٦٦٣- قَدْ بَاعَ طِيبَ العَيْشِ فِي دَارِ النَّعِيـ   ـمِ بِذَا الـحُطَامِ الـمُضْمَحِلِّ الفَانِي
٥٦٦٤- إِنِّي أَظُنُّـكَ لا تُصَـدِّقُ كَوْنَـهُ   بِـالقُرْبِ بَـلْ ظَـنٌّ بِـلا إِيقَـانِ
٥٦٦٥- بَلْ قَدْ سَمِعْتَ النَّاسَ قَـالُوا جَنَّـةٌ   أَيْضًـا وَنَـارٌ بَـلْ لَـهُمْ قَـوْلانِ
٥٦٦٦-وَالوَقْـفُ مَـذْهَبُكَ الَّـذِي تَخْتَـارُهُ   وَإِذَا انْتَهَـى الإِيـمَانُ لِلرُّجْحَـانِ
٥٦٦٧- أَمْ تُؤْثِرُ الأَدْنَى عَلَيْـهِ وَقَالَـتِ النْـ   ـنَفْسُ الَّتِي اسْتَعْلَتْ عَلَى الشَّيْطَانِ
٥٦٦٨- أَتَبِيـعُ نَقْـدًا حَاصِـلًا بِنَسِـيئَةٍ   بَعْـدَ المَـمَاتِ وَطَـيِّ ذِي الأَكْـوَانِ
٥٦٦٩- لَـوْ أَنَّـهُ بِنَسِـيئَةِ الـدُّنْيَا لَـهَا   نَ الأَمْـرُ لَكِـنْ فِي مَعَـادٍ ثَـانِ
٥٦٧٠- دَعْ مَا سَمِعْتَ النَّاسَ قَالُوهُ وَخُـذْ   مَـا قَـدْ رَأَيْـتَ مُشَـاهَدًا بِعِيَـانِ
٥٦٧١- وَاللهِ لَـوْ جَالَسْـتَ نَفْسَـكَ خَالِيًـا   وَبَحَثْتَهَـا بَحْثًـا بِـلا رَوَغَـانِ
٥٦٧٢- لَرَأَيْـتَ هَـذَا كَامِنًـا فِيهَـا وَلَـو   أَمِنَـتْ لأَلْقَتْـهُ إِلَى الآذَانِ
٥٦٧٣- هَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ اخْـ   ـتَارَتْ عَلَيْـهِ العَاجِـلَ الـمُتَدَانِي

٥٦٧٤- نَقْـدٌ قَـدِ اشْـتَدَّتْ إِلَيْـهِ حَاجَـةٌ ... مِنْهَـا وَلَـمْ يَحْصُـلْ لَـهَا بِهَـوَانِ

الشـرحُ

٥٦٥٨- يَـا مُعْرِضًـا عَـمَّا يُـرَادُ بِـهِ وَقَـدْ ... جَـدَّ المَسِـيرُ فَمُنْتَهَـاهُ دَانِ

قَوْلُهُ: «يَا مُعْرِضًا» يخاطبُ أيَّ مُعْرِضٍ، ولهذا صارت منصوبةً؛ لأنَّها نكرةٌ غيرُ مقصودةٍ.

قَوْلُهُ: «عَمَّا يُرَادُ بِهِ؟» وما الذي يُرَادُ به؟

الجوابُ: عبادةُ الله عزَّ وجلَّ التي غايتُها الجزاءُ؛ إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ، وما أكثرَ هؤلاء الذين لا يهمُّهم إلَّا الدُّنيا، فتجدُهم مُعْرِضينَ عَمَّا يُرَادُ بهم.

قَوْلُهُ: «وَقَدْ جَدَّ المَسِيرُ فَمُنْتَهَاهُ دَانِي» المسيرُ الذي نسيرُه نحن إلى الآخِرةِ جادٌّ جدًّا ليلًا ونهارًا يقظةً ومنامًا، وكُلُّ مَنْ سَارَ على الدَّربِ وَصَلَ، لاسيَّما راحلٌ لا يستريحُ في كُلِّ اللَّحظاتِ، في كُلِّ السَّاعاتِ، في كُلِّ الحالاتِ؛ ولهذا قال: «فَمُنْتَهَاهُ دَانِي».

٥٦٥٩- جَـذْلانَ يَضْـحَكُ آمِنًـا مُتبَخْـتِرًا ... فَكَأَنَّـهُ قَـدْ نَـالَ عَقْـدَ أَمَـانِ

قَوْلُهُ: «جَذْلَانَ»، ويجوزُ «جَذْلَانُ» على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والأوَّلُ أحسنُ، والجَذْلَانُ؛ أي: الفَرِحُ فرحًا كثيرًا.

قَوْلُهُ: «يَضْحَكُ آمِنًا مُتبَخْتِرًا فَكَأَنَّهُ قَدْ نَالَ عَقْدَ أَمَانِ» كأنَّ الإنسانَ في هذه الدُّنيا لطولِ أملِه قد نال عقدَ أمانٍ أنَّه لن يرتحلَ عنها مع أنَّ المنتهى قريبٌ.

٥٦٦٠- خَلَعَ السُّرُورَ عَلَيْهِ أَوْفَى حُلَّةٍ طَرَدَتْ جَمِيعَ الـهَمِّ وَالأَحْزَانِ

قَوْلُهُ: «أَوْفَى حُلَّةٍ»؛ أي: أطيب حُلَّةٍ.

يعني: أنَّه مغتبطٌ بالدُّنيا مسرورٌ بها، طردت عنه جميعَ الهمومِ والأحزانِ، لكنَّها في الحقيقةِ تطردُ الهمومَ والأحزانَ في لحظةٍ، ثُمَّ تعودُ الأحزانُ، فهذه المسرَّاتُ هي كالدَّواءِ المهدِّئ إذا انتهى مفعولُه عاد الألـمُ أشدَّ؛ ولهذا قال الشَّاعرُ وهو صادقٌ:

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ الـمَوْتِ وَالـهَرَمِ[1]

المُنْتَهى إمَّا موتٌ عاجلٌ أو هَرَمٌ يصلُ الإنسانُ به إلى حالةِ الطُّفولةِ، ويملُّه حتَّى أهلُه، أَشْفَقُ النَّاسِ عليه يملونه، الطِّفْلُ يُحَنُّ عليه ويُحْمَلُ باليدين وعلى الأكتافِ، والـهَرَمُ يُلْقَى في الأرضِ كأنَّه ثوبٌ خَلَقٌ لا يهتمون به، ولا يؤمِّلون له به شيئًا، ولا يرجونه.

٥٦٦١- يَخْتَالُ فِي حُلَلِ الـمَسَرَّةِ نَاسِيًا مَا بَعْدَهَا مِنْ حُلَّةِ الأَكْفَانِ

يعني: أنت الآن عليك ثيابٌ جميلةٌ ونظيفةٌ وحسنةٌ وبهيَّةٌ، تذكَّرْ حُلَلَ الأكفانِ، تذكَّرْ حينما تُدْرَجُ بثلاثِ لفائفَ، وليس فيها ما تُوضَعُ فيه النَّفقةُ، وليس فيها حُلِيٌّ ولا شيءٌ من الدُّنيا.

٥٦٦٢- مَا سَعْيُهُ إِلَّا لِطِيبِ العَيْشِ فِي الـدُّ نْيَا وَلَوْ أَفْضَى إِلَى النِّيرَانِ

يقولُ: أنا أعيشُ في الدُّنيا في سرورٍ، وفي الآخِرةِ ولو في النَّارِ، وهذه حالُ كثيرٍ من النَّاسِ، نسألُ اللهَ العافيةَ؛ ولهذا ننعى بعضَ أصحابِنا الذين يتحدَّثون دائمًا في الرَّفاه والتَّرفيهِ، ونَضارةِ العيشِ، ونعيمِ الحياةِ، وما أشبه ذلك.

---

(١) البيت في توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، بلا نسبة (٣/ ١٦٧٨).

والحقيقةُ أَنَّنا ينبغي أن نُذَكِّرَ النَّاسَ بهذا وبشيءٍ آخرَ؛ وهو: نعيمُ الآخرةِ، نرفلُ بالعملِ الصَّالحِ، والدَّعوةِ إلى الله، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ؛ لأَنَّنا لم نُخْلَقْ إلى الدُّنيا، ولو كان البشرُ مخلوقين للدُّنيا لكان أولاهم بالبَقاءِ الأنبياءَ والرُّسلَ، وقد قال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسَلَّم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤]؟ الجوابُ: لا، لن يُخَلَّدَ أحدٌ، فإذا كُنَّا لم نُخْلَقْ للدُّنيا فلماذا نزاحمُ أهلَها عليها؟ ولماذا ننسى الآخرةَ؟ لماذا لا يذكرُ الإنسانُ وهو يلبسُ الثَّوبَ الجديدَ أَنَّه رُبَّما يلبسُ الكفنَ في آخرِ النَّهارِ، وإن كان في اللَّيلِ رُبَّما يلبسُه قبل الصَّباحِ؟ لكنَّ القلوبَ في غفلةٍ، نسأَلُ اللهَ أن يحييَ قلوبَنا بالعلمِ والإيمانِ.

٥٦٦٣- قَدْ بَاعَ طِيبَ العَيْشِ في دَارِ النَّعِيـــ ... ـمِ بِذَا الـحُطَامِ الـمُضْمَحِلِّ الفَانِي

وهل هذه البيعةُ خاسرةٌ أو رابحةٌ؟ الجوابُ: خاسرةٌ غاية الخسرانِ، فهذا المسكينُ خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ، لم ينتفع ببقائِه في الدُّنيا ولم ينتفع في الآخرةِ.

٥٦٦٤- إِنِّي أَظُنُّـــكَ لا تُصَـــدِّقُ كَوْنَـــهُ ... بِــالقُرْبِ بَــلْ ظَــنٌّ بِــلا إِيقَــانِ

كأَنَّه يُخَاطِبُ نفسَه، يقولُ: أظنُّكَ لا تُصَدِّقُ كونَه بالقُرْبِ، بل ظنٌّ بلا إيقانٍ، فأنت تظنُّ ظنًّا، تشكُّ في اليومِ الآخرِ، ليس عندك إيمانٌ ولا يقينٌ.

٥٦٦٥- بَلْ قَدْ سَمِعْتَ النَّاسَ قَـالُوا جَنَّـةٌ ... أَيْضًـا وَنَـارٌ بَـلْ لَــهُمْ قَـوْلانِ

هكذا تقولُ النَّاسُ لهم قولان في الجنَّةِ والنَّارِ؛ هل هي موجودةٌ أو غيرُ موجودةٍ؟ هل هناك جزاءٌ أم لا؟ والذي يخالفُ في ذلك الكُفَّارُ، قال اللهُ تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التَّغابن:٧]، فالكُفَّارُ يقولون: لا يوجَدُ بعثٌ ولا جنَّةٌ

ولا نارٌ، والمؤمنون يقولون: تُوجَدُ جنَّةٌ ونارٌ، فالنَّاسُ الآن لهم قولان في المسألةِ، ومذهبُك أنت الوقفُ؛ ولذا قال:

٥٦٦٦- وَالوَقْفُ مَذْهَبُكَ الَّذِي تَخْتَارُهُ   وَإِذَا انْتَهَى الإِيمَانُ لِلرُّجْحَانِ

يعني: هذا مذهبُك، إذا رَأَيْتَ خلافَ النَّاسِ تَوَقَّفْتَ حتَّى وإن انتهى الإيمانُ للرُّجحانِ، فابقَ متوقِّفًا، والشَّيطانُ لا شكَّ أنَّه يأتي للإنسانِ بهذه الوساوسِ، وكذلك النَّفسُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ، أعوذُ بالله منها.

٥٦٦٧- أَمْ تُؤْثِرُ الأَدْنَى عَلَيْهِ وَقَالَتِ النْـ   ـنَفْسُ الَّتِي اسْتَعْلَتْ عَلَى الشَّيْطَانِ

٥٦٦٨- أَتَبِيعُ نَقْدًا حَاصِلًا بِنَسِيئَةٍ   بَعْدَ المَمَاتِ وَطَيِّ ذِي الأَكْوَانِ

أيُّما أولى؟ البيعُ بالنَّقدِ أو بالمؤجَّلِ؟ الجوابُ: بالنَّقدِ أولى، يقولُ كثيرٌ من النَّاسِ: أنت عندك نقدٌ الآن، سرورٌ في الدُّنيا، امرحْ، وافرحْ، واسرحْ؛ لأنَّ الذي في الآخرةِ مؤجَّلٌ «نسيئةٌ»، وإذا كان في شكٍّ منه قد يُوفَى وقد لا يُوفَى على زعمِهم، فهذا حالُ كثيرٍ من النَّاسِ إن لم يكن أكثر النَّاسِ، يقولون: النَّقدُ أَوْلَى من النَّسيئةِ، والشَّيءُ الحاضرُ أَوْلَى من الغائبِ، وما تُوعَدُ به في الآخرةِ شيءٌ غائبٌ، وما نحن فيه شيءٌ حاضرٌ، فكيف نبيعُ الشَّيءَ الحاضرَ بشيءٍ مُؤَجَّلٍ؟ هكذا يقولُ أكثرُ النَّاسِ، ولكنَّ العاقلَ كما قال النَّبيُّ ﷺ: **«مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ»**[1].

٥٦٦٩- لَوْ أَنَّهُ بِنَسِيئَةِ الدُّنْيَا لَهَا   نَ الأَمْرُ لَكِنْ فِي مَعَادٍ ثَانِ

تقولُ له النَّفسُ: لو أنَّه نسيئةٌ في الدُّنيا كانت المسألةُ هيِّنةً؛ لأنَّ النَّسيئةَ في

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة آنية الحوض، رقم (٢٤٥٩).

الدُّنيا تجيء، فالمؤجَّلُ يحلُّ وتأخذُه، لكن هذه النَّسيئةُ يوم القيامةِ، ومتى يجيء يومَ القيامةِ؟! هكذا تقولُ النَّفسُ.

٥٦٧٠- دَعْ مَا سَمِعْتَ النَّاسَ قَالُوهُ وَخُذْ مَـا قَـدْ رَأَيْـتَ مُشَـاهَدًا بِعِيَـانِ

قَوْلُهُ: «دَعْ مَا سَمِعْتَ النَّاسَ قَالُوهُ» ماذا يريدُ به؟ الجوابُ: الجزاءُ؛ وهو: النَّارُ أو الجنَّةُ، وخُذْ مَا شَاهَدْتَ الآن.

٥٦٧١- وَاللهِ لَـوْ جَالَسْـتَ نَفْسَـكَ خَالِيًـا وَبَحَثْتَهَـا بَحْثًـا بِـلا رَوَغَـانِ

٥٦٧٢- لَرَأَيْـتَ هَـذَا كَامِنًـا فِيهَـا وَلَـو أَمِنَـتْ لأَلْقَتْـهُ إِلَى الآذَانِ

قَوْلُهُ: «وَاللهِ لَوْ جَالَسْتَ نَفْسَكَ خَالِيًا... لَرَأَيْتَ هَذَا كَامِنًا فِيهَا»؛ يعني: لو أنَّك خَلَوْتَ بنفسِك وتجرَّدْتَ عن الشَّرعِ وعن دليلِ القرآنِ والسُّنَّةِ لَرَأَيْتَ الكَامِنَ في نفسِك هو هذا، أن تُؤْثِرَ الدُّنيا على الآخرةِ، وأن تَبْقَى في شكٍّ من الآخرةِ إلَّا مَنْ هَدَى اللهُ، والمرادُ بالنَّفسِ هنا: الأمَّارةُ بالسُّوءِ، أمَّا النَّفسُ ذاتُ العقلِ والإيمانِ فلا تقولُ هذا القولَ.

قَوْلُهُ: «وَلَوْ أَمِنَتْ لأَلْقَتْهُ إِلَى الآذَانِ»؛ يعني: لو أَمِنَت النَّاسَ ورميَهم إيَّاه بالكفرِ، وقتلَه إن استطاعوا لأَلْقَتْهُ إلى الآذانِ؛ أي: لتكلَّمت وأَسْمَعَتْ.

٥٦٧٣- هَذَا هُوَ السِّرُّ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ اخْـ ـتَارَتْ عَلَيْـهِ العَاجِـلَ الـمُتَدَانِي

٥٦٧٤- نَقْـدٌ قَـدِ اشْـتَدَّتْ إِلَيْـهِ حَاجَـةٌ مِنْهَـا وَلَـمْ يَحْصُـلْ لَـهَا بِهَـوَانِ

يعني: لم يحصل لها بشيءٍ هَيِّنٍ، فهي قد أَدْرَكَتْهُ بمشقَّةٍ فَآثَرَتْهُ على الآخرةِ.

***

٥٦٧٥- أَتَبِيعُـهُ بِنَسِـيئَةٍ فِي غَـيْرِ هَـ ـذِي الـدَّارِ بَعْـدَ قِيَامَـةِ الأَبْـدَانِ
٥٦٧٦- هَـذَا وَإِنْ جَزَمَـتْ بِهَـا قَطْعًـا وَلَـ ـكِنْ حَظُّهَـا فِي حَيِّـزِ الإِمْكَـانِ
٥٦٧٧- مَا ذَاكَ قَطْعِيًّا لَـهَا وَالـحَاصِلُ الـ ـمَوْجُودُ مَشْـهُودٌ بِـرَأْيِ عِيَـانِ
٥٦٧٨- فَتَأَلَّفَـتْ مِـنْ بَـيْنِ شَـهْوَتِهَا وَشُبْـ ـهَتِهَا قِيَاسَـاتٌ مِـنَ الـبُطْلَانِ
٥٦٧٩- وَاسْتَنْجَدَتْ مِنْهَا رِضًا بِالعَاجِلِ الْـ أَدْنَـى عَـلَى المَوْعُـودِ بَعْـدَ زَمَـانِ
٥٦٨٠- وَأَتَـى مِـنَ التَّأْوِيـلِ كُـلُّ مُلَائِـمٍ لِـمُرَادِهَا يَـا رِقَّـةَ الإِيـمَانِ
٥٦٨١- وَصَغَتْ إِلَى شُبُهَاتِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالتْـ ـتَعْطِيلِ مَـعْ نَقْـصٍ مِـنَ العِرْفَـانِ
٥٦٨٢- وَاسْتَنْقَصَتْ أَهْلَ الـهُدَى وَرَأَتْهُمُ فِي النَّـاسِ كَالغُرَبَـاءِ فِي البُلْـدَانِ
٥٦٨٣- وَرَأَتْ عُقُـولَ النَّـاسِ دَائِـرَةً عَـلَى جَمْعِ الـحُطَامِ وَخِدْمَـةِ السُّـلْطَانِ
٥٦٨٤- وَعَلَى المَلِيحَةِ وَالمَلِيحِ وَعِشْـرَةِ الـ أَحْبَـابِ وَالأَصْـحَابِ وَالإِخْـوَانِ
٥٦٨٥- فَاسْتَوْعَرَتْ تَرْكَ الجَمِيعِ وَلَـمْ تَجِدْ عِوَضًـا تَلَـذُّ بِـهِ مِـنَ الإِحْسَـانِ
٥٦٨٦- فَالقَلْـبُ لَـيْسَ يَقَـرُّ إِلَّا فِي إِنَـا ءٍ فَهْـوَ دُونَ الجِسْـمِ ذُو جَـوَلَانِ
٥٦٨٧- يَبْغِـي لَـهُ سَـكَنًا يَلَـذُّ بِقُرْبِـهِ فَـتَرَاهُ شِـبْهَ الوَالِـهِ الـحَيْرَانِ
٥٦٨٨- فَيُحِـبُّ هَـذَا ثُـمَّ يَهْـوَى غَـيْرَهُ فَيَظَـلُّ مُنْـتَقِلًا مَـدَى الأَزْمَـانِ
٥٦٨٩- لَـوْ نَـالَ كُـلَّ مَلِيحَـةٍ وَرِيَاسَـةٍ لَـمْ يَطْمَـئِنَّ وَكَـانَ ذَا دَوَرَانِ
٥٦٩٠- بَلْ لَـوْ يَنَـالُ بِأَسْرِهَـا الـدُّنْيَا لَـمَا قَـرَّتْ بِـمَا قَـدْ نَالَـهُ العَيْنَـانِ

٥٦٩١- نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى ... وَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَحْسَنَ الإِنْسَانِ

٥٦٩٢- فَالقَلْبُ مُضْطَرٌّ إِلَى مَحْبُوبِهِ الـ ... أَعْلَى فَلا يُغْنِيهِ حِبٌّ ثَانِ

٥٦٩٣- وَصَلاحُهُ وَفَلاحُهُ وَنَعِيمُهُ ... تَجْرِيدُ هَذَا الحُبِّ لِلرَّحْمَنِ

٥٦٩٤- فَإِذَا تَخَلَّى مِنْهُ أَصْبَحَ حَائِرًا ... وَيَعُودُ فِي ذَا الكَوْنِ ذَا هَيَمَانِ

الشرحُ

٥٦٧٥- أَتَبِيعُهُ بِنَسِيئَةٍ فِي غَيْرِ هَـ ... ـذِي الدَّارِ بَعْدَ قِيَامَةِ الأَبْدَانِ

٥٦٧٦- هَذَا وَإِنْ جَزَمَتْ بِهَا قَطْعًا وَلَـ ... ـكِنْ حَظُّهَا فِي حَيِّزِ الإِمْكَانِ

٥٦٧٧- مَا ذَاكَ قَطْعِيًّا لَهَا وَالحَاصِلُ الـ ... ـمَوْجُودُ مَشْهُودٌ بِرَأْيِ عِيَانِ

صحيحٌ، فما قاله المؤلِّفُ فِيمَنْ تَعَلَّقَ قلبُه بغيرِ الله فإنَّه لن يستقرَّ أبدًا.

٥٦٧٨- فَتَأَلَّفَتْ مِنْ بَيْنِ شَهْوَتِهَا وَشُبْـ ... ـهَتِهَا قِيَاسَاتٌ مِنَ البُطْلَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ بَيْنِ شَهْوَتِهَا»؛ أي: هواها.

قَوْلُهُ: «وَشُبْهَتِهَا»؛ أي: جهلِها.

يعني: تَوَلَّدَ من هَوَى النَّفسِ وجهلِها قياساتٌ من البطلانِ؛ أي: أقيسةٌ باطلةٌ في أنَّ هذا هو الأَوْلَى وهذا هو الأَوْلَى، كما فُضِّلَت الدُّنيا على الآخرةِ.

٥٦٧٩- وَاسْتَنْجَدَتْ مِنْهَا رِضًا بِالعَاجِلِ الْـ ... أَدْنَى عَلَى المَوْعُودِ بَعْدَ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «بِالعَاجِلِ الأَدْنَى»، «العاجل الأدنى» هو: الدُّنيا.

قَوْلُهُ: «المَوْعُودِ بَعْدَ زَمَانٍ»؛ أي: الآخرة.

٥٦٨٠- وَأَتَى مِنَ التَّأْوِيلِ كُلُّ مُلائِمٍ ... لِمُرَادِهَا يَا رِقَّةَ الإِيمَانِ

يعني: أنَّها تَبِعَتْ كُلَّ ما يلائِمُها؛ بسبب: ما عندها من هذه التَّأويلاتِ والأقيسةِ الفاسدةِ، ونَسِيَت الآخرةَ.

٥٦٨١- وَصَغَتْ إِلَى شُبُهَاتِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالتْـ ... ـتَعْطِيلِ مَعْ نَقْصٍ مِنَ العِرْفَانِ

٥٦٨٢- وَاسْتَنْقَصَتْ أَهْلَ الهُدَى وَرَأَتْهُمُ ... فِي النَّاسِ كَالغُرَبَاءِ فِي البُلْدَانِ

قَوْلُهُ: «وَرَأَتْهُمُ»، وفي نسخةٍ: «وَرَأَيْتُهُمْ».

هذا هو الواقعُ على كثيرٍ من النَّاسِ اليوم، يستنقصون أهلَ الخيرِ وأهلَ الهُدَى وأهلَ الحقِّ، ويقولُ: هذا غريبٌ لا يعرفُ النَّاسَ، ولا يعرفُ أحوالَهم، هذا أَبْلَهٌ، هذا درويشٌ، وما أشبه ذلك.

٥٦٨٣- وَرَأَتْ عُقُولَ النَّاسِ دَائِرَةً عَلَى ... جَمْعِ الحُطَامِ وَخِدْمَةِ السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «جَمْعِ الحُطَامِ»؛ أي: الدُّنيا.

قَوْلُهُ: «وَخِدْمَةِ السُّلْطَانِ»؛ بأنْ يكونوا حول السُّلطانِ؛ لأنَّهم يزعُمون أنَّهم إذا كانوا حوله فإنَّهم ينالون بذلك شَرَفًا وعلوًّا.

٥٦٨٤- وَعَلَى المَلِيحَةِ وَالمَلِيحِ وَعِشْرَةِ الْـ ... أَحْبَابِ وَالأَصْحَابِ وَالإِخْوَانِ

المليحةُ؛ يعني: الأنثى، والمليحُ؛ يعني: الذَّكرَ، ولا شكَّ أنَّ الإنسانَ إذا كان له أبناءٌ وبناتٌ أنَّه يَميلُ إلى المليحةِ والمليحِ أكثرَ من غيرِه، هذا إذا حملنا هذا الكلامَ على الشَّيءِ المباحِ، أمَّا إذا كانت المليحةُ؛ يعني: المرأةَ المليحةَ، والمليحُ؛ يعني: الأمردَ المليحَ، فالمسألة موجودةٌ، فلا نقولُ: إنَّ كلامَ ابنِ القيِّمِ -رحمه اللهُ- أمرٌ

فَرْضِيٌّ، بل هو أمرٌ واقعٌ؛ فإنَّ كثيرًا من النَّاسِ ابتُلوا بهذا الأمرِ، نسألُ اللهَ العافيةَ، فتجده قد أَنْعَمَ اللهُ عليه بزوجةٍ صالحةٍ خِلْقَةً وخُلُقًا، ومع ذلك قد ابتُلِيَ بالنَّظرِ إلى مَنْ سواها.

فالنِّساءُ ليس لهنَّ هَمٌّ إلَّا بطلبِ المليحِ، والرِّجالُ ليس لهم هَمٌّ إلَّا بطلبِ المليحةِ من النِّساءِ، وعشرةِ الأحبابِ والأصحابِ والإخوانِ.

٥٦٨٥- فَاسْتَوْعَرَتْ تَرْكَ الجَمِيعِ وَلَمْ تَجِدْ عِوَضًا تَلَذُّ بِهِ مِنَ الإِحْسَانِ

يعني: رأت أنَّ هجرَ الجميعِ صَعْبًا؛ لأنَّها لم تجد بدلَه عِوَضًا، ولو وَجَدَتْ بدلَه عوضًا؛ وهو الاقتصارُ على محبَّةِ الله عزَّ وجلَّ، واللُّجوءِ إليه ورجائِه والخوفِ من عقابِه ما هَمَّها كُلُّ هذا.

٥٦٨٦- فَالقَلْبُ لَيْسَ يَقَرُّ إِلَّا فِي إِنَا ءٍ فَهْوَ دُونَ الجِسْمِ ذُو جَوَلَانِ

قَوْلُهُ: «**فَالقَلْبُ لَيْسَ يَقَرُّ إِلَّا فِي إِنَاءٍ**» سبحان الله! هذه حكمةٌ عظيمةٌ «**القَلْبُ لا يَقَرُّ إِلَّا فِي إِنَاءٍ**»، لكن ما هذا الإناءُ الذي يَقَرُّ فيه؟ الجوابُ: قد يكونُ إناءَ خيرٍ وقد يكونُ إناءَ شرٍّ.

قَوْلُهُ: «**فَهْوَ دُونَ الجِسْمِ ذُو جَوَلَانِ**»، وهذا صحيحٌ مطابقٌ للواقعِ، نحن الآن جالسون هنا، وقلوبُ بعضِنا في الشَّرقِ وأخرى في الغربِ، فالقلبُ يتجوَّلُ والبدنُ في مكانٍ واحدٍ؛ ولهذا يقولُ: «**فَهْوَ دُونَ الجِسْمِ ذُو جَوَلَانِ**»، فالقلبُ يتجوَّلُ؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، رقم (٢١٤٠).

٥٦٨٧- يَبْغِي لَهُ سَكَنًا يَلَذُّ بِقُرْبِهِ   فَتَرَاهُ شِبْهَ الوَالِهِ الحَيْرَانِ

الوَالِهُ هو: المتحيِّرُ، والحيرانُ توكيدٌ.

٥٦٨٨- فَيُحِبُّ هَذَا ثُمَّ يَهْوَى غَيْرَهُ   فَيَظَلُّ مُنْتَقِلًا مَدَى الأَزْمَانِ

ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا؛ فقال:

٥٦٨٩- لَوْ نَالَ كُلَّ مَلِيحَةٍ وَرِيَاسَةٍ   لَمْ يَطْمَئِنَّ وَكَانَ ذَا دَوَرَانِ

لو نالَ كُلَّ مليحةٍ وكُلَّ رئاسةٍ تمنَّى أحسنَ من هذه المليحةِ وأوسعَ من الرِّئاسةِ، قال: أنا -مثلًا- أميرٌ على هذه القطعةِ من الأرضِ، لَيْتَنِي مثلُ فلانٍ، فإنَّه أميرٌ على منطقةٍ كبيرةٍ، وقال: لَيْتَ عندي امرأةً أجملَ من هذه؛ لأنَّ التي عندي كبيرةٌ في السِّنِّ، تجعَّد شعرُها، وأريدُ شابَّةً، مع أنَّ هذه كانت بالأوَّل شابَّةً قد أَرْضَتْهُ، لكن تغيَّرت الحالُ، فهو يطلبُ أحسنَ منها.

٥٦٩٠- بَلْ لَوْ يَنَالُ بِأَسْرِهَا الدُّنْيَا لَمَا   قَرَّتْ بِمَا قَدْ نَالَهُ العَيْنَانِ

صَدَقَ رحمه اللهُ، لو يُعْطَى الدُّنيا كُلَّها لَبَغَى دنيا أعظمَ منها، فلا يستقرُّ، لكن ما الذي يستقرُّ فيه القلبُ؟ قال:

٥٦٩١- نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الهَوَى   وَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَحْسَنَ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَحْسَنَ الإِنْسَانِ»؛ يعني: أن تكونَ أحسنَ بني آدمَ.

٥٦٩٢- فَالقَلْبُ مُضْطَرٌّ إِلَى مَحْبُوبِهِ الـ   أَعْلَى فَلا يُغْنِيهِ حِبٌّ ثَانِ

قَوْلُهُ: «مَحْبُوبِهِ الأَعْلَى» مَنِ المحبوبُ الأعلى؟ اللهُ جلَّ وعلا، نسألُ اللهَ أن يجعلَنا وإيَّاكم ممَّن ملأ قلبَه محبَّةُ الله.

قَوْلُهُ: «حِبٌّ ثَانٍ» «حِبٌّ» بالكسرِ؛ يعني: محبوبَه، ومنه قولُهم: «أسامةُ ابنُ زيد بن حارثةَ حِبُّ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- وابنُ حِبِّه»، فحِبٌّ ثَانٍي؛ أي: محبوبٌ آخرُ.

٥٦٩٣- وَصَلاحُهُ وَفَلاحُهُ وَنَعِيمُهُ ... تَجْرِيدُ هَذَا الحُبِّ لِلرَّحْمَنِ

صَدَقَ رحمه اللهُ؛ الذي يريدُ الفلاحَ والسَّعادةَ والهناءَ والرَّاحةَ فَلْيُجَرِّدْ حُبَّه لله يسترِحْ ويطمئنَّ؛ لأنَّه لا يهمُّه أحدٌ، ويُحِبُّ الغيرَ؛ يُحِبُّه لله، وفي الله، ولا يُحِبُّه مع الله؛ بحيث تُزَاحِمُ محبَّتُه لهذا المخلوقِ محبَّةَ الله؛ لأنَّ هذا نوعٌ من الشِّركِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٦].

ويُوجَدُ بعضُ النِّساءِ -كما نسمعُ من الأسئلةِ- تُحِبُّ زوجَها حُبًّا شديدًا، أحيانًا تبوحُ بما في قلبِها، تقولُ: أنت عندي أحبُّ من كُلِّ شيءٍ حتَّى من الله؛ لأنَّ القلبَ -والعياذُ بالله- إذا امتلأ بحبِّ المخلوقِ نَسِيَ كُلَّ شيءٍ، لكن إذا امتلأ بحبِّ الله ذَكَرَ كُلَّ شيءٍ، وصار يسيرُ على هُدًى من الله ونورٍ، لا يُحِبُّ إلَّا لله، ولا يكرهُ إلَّا لله، ولا يُوَالِي إلَّا لله، ولا يُعَادِي إلَّا لله، ولهذا أنا أدعو نفسي وإيَّاكم إلى إخلاصِ المحبَّةِ لله عزَّ وجلَّ، اجعلوا ربَّكم أحبَّ شيءٍ إليكم حتَّى تُحِبُّوا مَنْ يحبُّه اللهُ، وتكرهوا مَنْ يكرهُه اللهُ وتستريحوا، أمَّا المحبَّةُ المَبْنِيَّةُ على ما في الدُّنيا فهي في الحقيقةِ مُتْعِبَةٌ، وكما قال بعضُهم: «عذبُ الحُبِّ عذابٌ» إلَّا من الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ محبَّتَه راحةٌ في القلبِ وسكونٌ للقلبِ.

وليس معنى ذلك أنَّك لا تُحِبُّ أحدًا إذا أَحْبَبْتَ اللهَ عزَّ وجلَّ، بالضَّرورةِ إذا أَحْبَبْتَ اللهَ سوف تُحِبُّ مَنْ يحبُّه اللهُ، ولهذا جاء في الحديثِ: «رَجُلَانِ تَحَابَّا في الله

اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ»(١)، ضرورة أن تُحِبَّ مَنْ يحبُّه اللهُ، لكن محبَّتُك لمن يُحِبُّه اللهُ تابعةٌ لمحبَّةِ الله، وحينئذٍ لا يمكنُ أن تزاحمَها، بل هي فرعٌ عنها؛ ولهذا تجدك تُحِبُّ هذا المرءَ ما دامَ أهلًا للحُبِّ في الله، فإذا انحرفَ -والعياذُ بالله- فإنَّك ستكرهُه، لا تحبُّه، لابُدَّ أن تكرَهه، إذَنْ املأ قلبَك بمحبَّةِ الله تَسْتَرِحْ، حتَّى تكونَ أقوالُك وأفعالُك ومشيُك ومجيئُك وقعودُك ونومُك كُلُّه نافعًا لك؛ لأنَّك تستحضرُ أنَّك تفعلُه لله عزَّ وجلَّ.

٥٦٩٤- فَـإِذَا تَخَـلَّى مِنْـهُ أَصْـبَحَ حَـائِرًا وَيَعُـودُ فِي ذَا الكَـوْنِ ذَا هَـيَمَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا تَخَلَّى مِنْهُ»؛ أي: تخلَّى من حُبِّ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ.

صحيحٌ، إذا خلا قلبُه من محبَّةِ الله صَارَ حائرًا هائمًا، مرَّةً هنا، ومرَّةً هنا، ومرَّةً هنا.

فعليكم بتجريدِ المحبَّةِ لله، وأيضًا عَظِّموا اللهَ عزَّ وجلَّ؛ فبالمحبَّةِ يكونُ فعلُ الطَّاعةِ، وبالتَّعظيمِ يكونُ تركُ المعصيةِ؛ لأنَّك إذا عَلِمْتَ عظمةَ الرَّبِّ هِبْتَه وخِفْتَ من معصيتِه، وإذا أَحْبَبْتَهُ رَغِبْتَ فيه وَطَلَبْتَهُ؛ ولهذا لا يمكنُ أن تتمَّ العبادةُ إلَّا على هذين الأساسين: المحبَّةِ والتَّعظيمِ، ولا تُقْبَلُ ولا تصحُّ إلَّا بشرطين أساسين أيضًا؛ وهما: الإخلاصُ لله، والمتابعةُ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فهناك مَبْنَى أصل، وهناك مُصَحِّحٌ، ما هو المَبْنَى الأصلُ؟ الحبُّ والتَّعظيمُ، الحُبُّ والتَّعظيمُ هو مَبْنَى العبادةِ، بالحُبِّ تكونُ الطَّاعةُ وفعلُ الأوامرِ طلبًا لهذا المحبوبِ، لو قال لك مَنْ تُحِبُّ من البشرِ: «**افعل كذا، افعل كذا**»، على قَدْرِ محبَّتِك

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (٦٦٠). ومسلم: كتاب الكسوف، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١).

يكونُ امتثالُك وطاعتُك، إذا كنت تحبُّه لو يدعوك باللَّيلةِ الظَّلماءِ أَجَبْتَ، لو يقولُ: نَم فوقَ السَّطحِ في اللَّيلةِ الثَّالجةِ نِمْتَ؛ لأَنَّك تُحِبُّه وتطلبُ الوصولَ إليهِ وإلى رضاه، لكن إذا لم يكن في قلبِك تعظيمٌ له لا يهمُّك أن تعصيَه؛ لأَنَّك آمِنٌ، أمَّا إذا كان محبَّةٌ وتعظيمٌ فإنَّك لن تعودَ عاصيًا له؛ ولهذا لا تقومُ العبادةُ لله عزَّ وجلَّ إلَّا على هذين الأساسين، ولا تصحُّ إلَّا بشرطين أساسين أيضًا؛ هما: الإخلاصُ والمتابعةُ.

والحقيقةُ: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لكَتَبْتُ مثل هذه الأبياتِ من النُّونيَّةِ؛ لأنَّ هذه في الحقيقةِ جواهرُ قد تعدلُ كُلَّ النُّونيَّةِ، كُلُّ ما سَبَقَ من خلافات المعطِّلةِ والمعتزلةِ وغيرِهم، هذه في الحقيقةِ في فصولِ مَا أَعَدَّ اللهُ من الكرامةِ لأهلِ الجنَّةِ، فهو -رحمه اللهُ تعالى- ذَكَرَ أبياتًا عظيمةً تنفعُك في السَّيرِ إلى الله عزَّ وجلَّ، نسألُ اللهَ أن يلهمَنا وإيَّاكم الرَّشادَ والسَّدادَ.

***

فصــل

في زُهْدِ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ وَإِيْثَارِهِمُ الذَّهَبَ البَاقِيَ عَلَى الخَزَفِ الفَانِي

٥٦٩٥- لَكِــنَّ ذَا الإِيـمَانِ يَعْلَـمُ أَنَّ هَــ ـــذَا كَـالظِّلَالِ وَكُـلُّ هَـذَا فَـانِ

٥٦٩٦- كَخَيَـالِ طَيْـفٍ مَـا اسْـتَتَمَّ زِيَـارَةً إِلَّا وَصُــبْحُ رَحِيلِـــهِ بِـــأَذَانِ

٥٦٩٧- وَسَـحَابَةٍ طَلَعَـتْ بِيَـوْمٍ صَـائِفٍ فَالظِّـلُّ مَنْسُـوخٌ بِقُـرْبِ زَمَـانِ

٥٦٩٨- وَكَزَهْـرَةٍ وَافَى الرَّبِيـعُ بِحُسْـنِهَا أَوْ لَامِعًـــا فَكِلَاهُمَـــا أَخَـــوَانِ

٥٦٩٩- أَوْ كَالسَّــرَابِ يَلُـوحُ لِلظَّمْآنِ فِي وَسَطِ الـهَجِيرِ بِمُسْتَوَى القِيعَـانِ

٥٧٠٠- أَوْ كَالأَمَـانِي طَـابَ مِنْهَـا ذِكْرُهَـا بِـالقَوْلِ وَاسْتِحْضَـارُهَا بِجِنَـانِ

٥٧٠١- وَهِي الغَرُورُ رُؤُوسُ أَمْوَالِ المَفَـا لِـيسِ الأُلَى اتَّجَـرُوا بِـلا أَثْـمَانِ

٥٧٠٢- أَوْ كَالطَّعَـامِ يَلَـذُّ عِنْـدَ مَسَـاغِهِ لَكِـــنَّ عُقْبَـــاهُ كَـــمَا تَجِـــدَانِ

٥٧٠٣- هَذَا هُوَ المَثَلُ الَّذِي ضَرَبَ الرَّسُـو لُ لَـــهَا وَذَا فِي غَايَـــةِ التِّبْيَـــانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي زُهْدِ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ، وَإِيثَارِهِمُ الذَّهَبَ البَاقِي عَلَى الخَزَفِ الفَانِي» هذا زهدٌ وورعٌ منهم، والفرقُ بينهما: أنَّ الزُّهدَ تركُ ما لا ينفعُ في الآخرةِ، والورعَ تركُ ما يضرُّ في الآخرةِ، والواسطةُ بينهما: ما لا نفعَ فيه ولا ضرَرَ،

فالزَّاهدُ يتركُه والوَرِعُ لا يتركُه، هذا هو الفرقُ بينهما.

وأمَّا قَوْلُهُ: «الخَزَف، وَالذَّهَب» فالفرقُ بينهما: أنَّ الخزفَ من الطِّينِ المشويِّ، وأمَّا الذَّهبُ فمعروفٌ.

٥٦٩٥- لَكِـنَّ ذَا الإِيـمَانِ يَعْلَـمُ أَنَّ هَـــ ـــذَا كَـالظِّلالِ وَكُـلُّ هَـذَا فَـانِ

أصحابُ الإيمانِ يعلمون أنَّ ما ذُكِرَ من وصفِ الدُّنيا أنَّ هذا كالظِّلالِ، ونحن نعلمُ جميعًا أنَّ الظِّلَّ يزولُ، كُلَّما ارتفعت الشَّمسُ زالَ حتَّى ينمحي كالظِّلالِ، وكُلُّ هذا فانٍ.

٥٦٩٦- كَخَيَـالِ طَيْـفٍ مَـا اسْـتَتَمَّ زِيَـارَةً إِلَّا وَصُـــبْحُ رَحِيلِـــهِ بِـــأَذَانِ

خيالُ الطَّيْفِ؛ يعني: أنَّ الإنسانَ تخيَّل طائفًا به، أو أنَّ طائفًا طَافَ به، ثُمَّ في مدَّةٍ يسيرةٍ صار صبحُ رحيلِه بأذانٍ؛ أي: بإعلانٍ، فقيل له: ارحل، فما تمَّت الزِّيارةُ إلَّا وقِيلَ له: ارحلْ.

٥٦٩٧- وَسَـحَابَةٍ طَلَعَـتْ بِيَـوْمٍ صَـائِفٍ فَالظِّـلُّ مَنْسُـوخٌ بِقُـرْبِ زَمَـانِ

سحابةُ الصَّيفِ المعروفُ أنَّها سريعةُ الجري، وأنَّ ظِلَّها مع حرارةِ الشَّمسِ مفيدٌ جدًّا، لكن سحابةُ الشِّتاءِ لا يُسْتَفادُ من ظلِّها كثيرًا؛ لأنَّ الصَّحوَ قد يكونُ أفضلَ من ظلِّها، لكن سحابةُ الصَّيفِ لذيذةٌ، وهي أيضًا سريعةٌ تزولُ سريعًا، هكذا الدُّنيا كذلك كما جاء وصفُها.

٥٦٩٨- وَكَزَهْـرَةٍ وَافَى الرَّبِيـعُ بِحُسْـنِهَا أَوْ لامِعًـا فَكِلاهُمَـا أَخَـوَانِ

الزَّهرةُ في الرَّبيعِ تكونُ حسنةً متفتِّحةً رطبةً، لكن إذا جاء الصَّيفُ زالت كُلُّها، كذلك تكونُ لامعةً، ثُمَّ بعد ذلك تذبلُ وتزولُ.

٥٦٩٩- أَوْ كَالسَّـــرَابِ يَلُـوحُ لِلظَّمْـآنِ في وَسَطِ الـهَجِيرِ بِمُسْـتَوَى القِيعَـانِ

قَوْلُهُ: «القِيعَانِ» جمعُ «قاع»؛ وهو: الأرضُ المستويةُ.

إذا كنت في قاعٍ واسعٍ تظنُّ أنَّ هذا القاعَ ماءٌ ولكنَّه سرابٌ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النُّور:٣٩]، وإذا خَرَجْتَ في أَيَّامِ الصَّيفِ وجاء الهجيرُ -وهو: وسطُ النَّهارِ- وَرَأَيْتَ القيعانَ تظنُّ أنَّها ماءٌ، وليست كذلك، فإذا كان الإنسانُ في حرارةِ الشَّمسِ وفي يبس الكبدِ وفي العطشِ الشَّديدِ تجدُه يَفِرُّ من هنا ومن هنا لهذه القيعانِ يظنُّ أنَّها ماءٌ، فإذا هي ليست بشيءٍ، هكذا الدُّنيا وغرورُها.

٥٧٠٠- أَوْ كَالأَمَـانِي طَـابَ مِنْهَـا ذِكْرُهَـا بِـالقَوْلِ وَاسْتِحْضَـارُهَا بِجِنَـانِ

قَوْلُهُ: «طَابَ مِنْهَا ذِكْرُهَا بِالقَوْلِ»؛ أي: باللِّسانِ.

قَوْلُهُ: «وَاسْتِحْضَارِهَا» يجوزُ بالجرِّ، ويجوزُ بالرَّفعِ.

قَوْلُهُ: «بِجَنَانِ»؛ أي: بالقلبِ.

من التَّمنِّي أن يُفكِّرَ الإنسانُ أحيانًا؛ فيقولُ: سأفعلُ، سأكونُ كذا، سأنجحُ، ثُمَّ آخذُ المرتبةَ العاشرةَ، ثُمَّ بعد ذلك أصيرُ مدرسًا، وإن كان يَهْوَى القضاءَ يقولُ: أصيرُ قاضيًا، أو أصيرُ وزيرًا... إلى آخرِه، فالدُّنيا هكذا.

٥٧٠١- وَهِيَ الغَرُورُ رُؤُوسُ أَمْـوَالِ المَفَـا لِـيسِ الأُلَى اتَّجَـرُوا بِـلا أَثْـمَانِ

هذا المَثَلُ معروفٌ عندنا، لكن حتَّى في زمنِ المؤلِّف، عندنا مَثَلٌ يقولُ: «التَّمنِّي رأسُ مالِ المفاليس»، والمُتَّجِرُ بلا أثمانٍ أين له الرِّبحُ؟!

٥٧٠٢- أَوْ كَالطَّعَامِ يَلَذُّ عِنْدَ مَسَاغِهِ لَكِنَّ عُقْبَاهُ كَمَا تَجِدَانِ

قَوْلُهُ: «لَكِنَّ عُقْبَاهُ كَمَا تَجِدَانِ»؛ يعني: عقباه وخيمةٌ.

الإنسانُ يأكلُ طعامًا لذيذًا فتجدُه يملأُ بطنَه منه، ثُمَّ يعودُ هذا الطَّعامُ إلى تخمةٍ وأذًى، وإلى بولٍ وغائطٍ، وربَّما إلى ضررٍ، لكنَّه عند أكلِه كان يتلذَّذُ به، فأوَّلُ ما تأكلُه لذيذُ الطَّعمِ، طيِّبُ الرَّائِحةِ، وعلى خِوانٍ، وآخرُ الأمرِ في المراحيضِ منتنُ الرَّائحةِ.

٥٧٠٣- هَذَا هُوَ المَثَلُ الَّذِي ضَرَبَ الرَّسُو لُ لَهَا وَذَا فِي غَايَةِ التِّبْيَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا هُوَ المَثَلُ» يحتملُ أنَّ المرادَ به: آخرُ مَثَلٍ، فتكونُ الإشارةُ تعودُ إلى أقربِ مذكورٍ كالضَّميرِ يعودُ إلى أقربِ مذكورٍ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ: هذا جنسُ الأمثالِ السَّابقةِ.

يعني: هذه الأمثالُ ضَرَبَهَا الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لهذه الدُّنيا.

* * *

٥٧٠٤- وَإِذَا أَرَدْتَ تَرَى حَقِيقَتَهَا فَخُذْ مِنْهُ مِثَالًا وَاحِدًا ذَا شَانِ

٥٧٠٥- أَدْخِلْ بِجُهْدِكَ إِصْبَعًا فِي اليَمِّ وَانْـ ـظُرْ مَا تَعَلَّقُهُ إِذًا بِعِيَانِ

٥٧٠٦- هَذَا هُوَ الدُّنْيَا كَذَا قَالَ الرَّسُو لُ مُمَثِّلًا وَالحَقُّ ذُو تِبْيَانِ

٥٧٠٧- وَكَذَاكَ مَثَّلَهَا بِظِلِّ الدَّوْحِ فِي وَقْتِ الحَرُورِ لِقَائِلِ الرُّكْبَانِ

٥٧٠٨- هَذَا وَلَوْ عَدَلَتْ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ عِنْدَ الإِلَهِ الحَقِّ فِي المِيزَانِ

٥٧٠٩- لَمْ يَسْقِ مِنْهَا كَافِرًا مِنْ شَرْبَةِ مَاءٍ وَكَانَ أَحَقَّ بِالحِرْمَانِ

٥٧١٠- تَـالله مَـا عَقَـلَ امْـرُؤٌ قَـدْ بَـاعَ مَـا ... يَبْقَـى بِـمَا هُـوَ مُضْـمَحِلٌّ فَـانِ

٥٧١١- هَذَا وَيُفْتِي ثُـمَّ يَقْضِـي حَاكِـمًا ... بِالـحَجْرِ مِـنْ سَـفَهٍ لِـذَا الإِنْسَـانِ

٥٧١٢- إِذْ بَـاعَ شَـيْئًا قَـدْرُهُ فَـوْقَ الَّـذِي ... يَعْتَاضُـهُ مِـنْ هَــذِهِ الأَثْـمَانِ

٥٧١٣- فَمَـنِ السَّـفِيهُ حَقِيقَـةً إِنْ كُنْـتَ ذَا ... عَقْـلٍ وَأَيْـنَ العَقْـلُ لِلسَّـكْرَانِ

٥٧١٤- وَالله لَـوْ أَنَّ القُلُـوبَ شَـهِدْنَ مِنْـ ... ـنَـا كَـانَ شَـأْنٌ غَـيْرُ هَـذَا الشَّـانِ

٥٧١٥- نَفَسٌ مِنَ الأَنْفَاسِ هَذَا العَـيْشُ إِنْ ... قِسْـنَاهُ بِـالعَيْشِ الطَّوِيـلِ الثَّـانِي

٥٧١٦- يَا خِسَّةَ الشُّرَكَاءِ مَـعْ عَـدَمِ الوَفَـا ... ءِ وَطُولِ جَفْوَتِـهَا مِـنَ الـهِجْرَانِ

٥٧١٧- هَـلْ فِيـكَ مُعْتَـبَرٌ فَيَسْـلُو عَاشِـقٌ ... بِمَصَـارِعِ العُشَّـاقِ كُـلَّ زَمَـانِ

٥٧١٨- لَكِـنْ عَـلَى تِلْـكَ العُيُـونِ غِشَـاوَةٌ ... وَعَـلَى القُلُـوبِ أَكِنَّـةُ النِّسْـيَانِ

الشـرحُ

هذه الأبياتُ يريدُ بها المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- بيانَ حقيقةِ الدُّنيا ونسبتِها إلى الآخرةِ، يقولُ رحمه اللهُ:

٥٧٠٤- وَإِذَا أَرَدْتَ تَـرَى حَقِيقَتَهَـا فَخُـذْ ... مِنْـهُ مِثَـالًا وَاحِـدًا ذَا شَـانِ

٥٧٠٥- أَدْخِلْ بِجُهْدِكَ إِصْبَعًا فِي اليَمِّ وَانْـ ... ـظُرْ مَـا تَعَلَّقَـهُ إِذًا بِعِيَـانِ

٥٧٠٦- هَذَا هُـوَ الـدُّنْيَا كَـذَا قَـالَ الرَّسُـو ... لُ مُـمَثِّلًا وَالحَـقُّ ذُو تِبْيَـانِ

إذا أَردتَ نسبةَ الدُّنيا إلى الآخرةِ فاغمسْ أصبعَك في اليمِّ -يعني: في البحرِ- وانظر بِمَ يرجعُ؟ الجوابُ: لا يرجعُ بشيءٍ بالنِّسبةِ للبحرِ، فهكذا نسبةُ

الدُّنيا إلى الأخرى، وقد روى الإمامُ أحمدُ -رحمه اللهُ- من حديث سهل بن سعدٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ في الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1].

٥٧٠٧- وَكَذَاكَ مَثَّلَهَا بِظِلِّ الدَّوْحِ فِي ... وَقْتِ الحَرُورِ لِقَائِلِ الرُّكْبَانِ

قَوْلُهُ: «مَثَّلَهَا»؛ يعني: النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ: «الدَّوحِ» الدَّوحة: شجرةٌ كبيرةٌ استظلَّ بها الرَّاكبُ عن الحرِّ فقط، ثُمَّ قَامَ وتَرَكَهَا.

قَوْلُهُ: «لِقَائِلِ»؛ أي: الذي نَامَ في القائلةِ.

٥٧٠٨- هَذَا وَلَوْ عَدَلَتْ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ... عِنْدَ الإِلَهِ الحَقِّ فِي المِيزَانِ

٥٧٠٩- لَمْ يَسْقِ مِنْهَا كَافِرًا مِنْ شَرْبَةٍ ... مَاءً وَكَانَ أَحَقَّ بِالحِرْمَانِ

وصدَق رحمه اللهُ، لو أنَّ الدَّنيا تُساوي جَنَاحَ بَعُوضةٍ عند الله ما سقى منها أعداءَه شربةَ ماءٍ.

٥٧١٠- تَاللهِ مَا عَقَلَ امْرُؤٌ قَدْ بَاعَ مَا ... يَبْقَى بِمَا هُوَ مُضْمَحِلٌّ فَانِ

أقسم بأنَّ العقلَ مُنْتَفٍ عن شخصٍ بَاعَ الذي يَبْقَى بالذي هو فانٍ.

٥٧١١- هَذَا وَيُفْتِي ثُمَّ يَقْضِي حَاكِمًا ... بِالحَجْرِ مِنْ سَفَهٍ لِذَا الإِنْسَانِ

يعني: هذا الذي باع ما يَبْقَى بما يَفْنَى تجدُه يُفْتِي وَيقْضِي على السَّفيهِ بالحَجْرِ والمنعِ من التَّصرُّفِ في مالِهِ إذا كان دَيْنُهُ أكثرَ من مالِه، فكيف لا تحجرُ على نفسِك وتمنعُها من الانهماكِ في الدُّنيا؟! فهذا هو السَّفهُ في الواقعِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

ثُمَّ ذكَرَ وجهَ القضاءِ بالحَجْرِ؛ فقال:

٥٧١٢- إِذْ بَـاعَ شَـيْئًا قَـدْرُهُ فَـوْقَ الَّـذِي ... يَعْتَاضُـــهُ مِـــنْ هَـــذِهِ الأَثْـــمَانِ

فيقولُ: هذا هو السَّفيهُ، قال ابنُ القيِّمِ:

٥٧١٣- فَمَـنِ السَّـفِيهُ حَقِيقَـةً إِنْ كُنْـتَ ذَا ... عَقْـلٍ وَأَيْـنَ العَقْـلُ لِلسَّـكْرَانِ

هل السَّفيهُ الذي بَاعَ الآخرةَ بالدُّنيا، أو الذي باع الدُّنيا بالآخرةِ؟ الجوابُ: الأوَّلُ، الذي اعْتَاضَ الدُّنيا وتَرَكَ الآخرةَ هو السَّفيهُ، والذي اعْتَاضَ الآخرةَ عن الدُّنيا هو العاقلُ الرَّشيدُ.

٥٧١٤- وَاللهِ لَـوْ أَنَّ القُلُـوبَ شَـهِدْنَ مِنْـ ... ـنَـا كَـانَ شَـأْنٌ غَـيْرُ هَـذَا الشَّـانِ

يعني: لو حضرت القلوبُ وتأمَّلَ الإنسانُ وتَفَكَّرَ لكان شأنٌ آخرُ غيرُ هذا الشَّأنِ.

٥٧١٥- نَفَسٌ مِنَ الأَنْفَاسِ هَذَا العَيْشُ إِنْ ... قِسْـنَاهُ بِـالعَيْشِ الطَّوِيـلِ الثَّـانِي

والنَّفَسُ -كما نعلمُ- قليلٌ جدًّا بالنِّسبةِ لزمانِ الدُّنيا، فضلًا عن زمانِ الآخرةِ.

٥٧١٦- يَا خِسَّةَ الشُّرَكَاءِ مَـعْ عَـدَمِ الوَفَـا ... ءِ وَطُولِ جَفْوَتِهَـا مِـنَ الـهِجْرَانِ

يقول: ما أخسَّ الشُّركاءَ إذا لم يكن وفاءٌ وطالت الجفوةُ مع الهِجْرَانِ! فإنَّهُ إذا لم يكن وفاءٌ وطالت الجفوةُ مع الهِجرانِ للشُّركاءِ فإنَّه لا شكَّ أنَّهم شركاءُ رغبوا بالأدنى عن الأعلى.

٥٧١٧- هَـلْ فِيـكَ مُعْتَـبَرٌ فَيَسْـلُو عَاشِـقٌ ... بِمَصَـارِعِ العُشَّـاقِ كُـلَّ زَمَـانِ

قَوْلُهُ: «هَلْ فِيكَ مُعْتَبَرٌ؟» الاستفهامُ هنا: للتَّشويقِ.

يعني: هل أحدٌ منكم يعتبرُ بعشَّاقِ الدُّنيا كيف صَرَعَتْهُم ولم يستفيدوا منها شيئًا؟!

٥٧١٨- لَكِنْ عَلَى تِلْكَ العُيُونِ غِشَاوَةٌ وَعَلَى القُلُوبِ أَكِنَّةُ النِّسْيَانِ

يعني: التَّركَ، فالعيونُ لا تُبْصِرُ، والقلوبُ لا تذكرُ، فعلى العيونِ غشاوةٌ، وعلى القلوبِ أَكِنَّةُ النِّسيانِ.

* * *

٥٧١٩- وَأَخُو البَصَائِرِ حَاضِرٌ مُتَيَقِّظٌ مُتَفَرِّدٌ عَنْ زُمْرَةِ العُمْيَانِ

٥٧٢٠- يَسْمُو إِلَى ذَاكَ الرَّفِيقِ الأَرْفَعِ الـ أَعْلَى وَخَلَّى اللُّعْبَ لِلصِّبْيَان

٥٧٢١- وَالنَّاسُ كُلُّهُمُ فَصِبْيَانٌ وَإِنْ بَلَغُوا سِوَى الأَفْرَادِ وَالوحدان

٥٧٢٢- وَإِذَا رَأَى مَا يَشْتَهِيهِ قَالَ مَوْ عِدُكَ الجِنَانُ وَجَدَّ في الأَثْمَانِ

٥٧٢٣- وَإِذَا أَبَتْ إِلَّا الجِمَاحَ أَعَاضَهَا بِالعِلْمِ بَعْدَ حَقَائِقِ الإِيمَانِ

٥٧٢٤- وَيَرَى مِنَ الخُسْرَانِ بَيْعَ الدَّائِمِ الـ بَاقِي بِهِ يَا ذِلَّةَ الخُسْرَانِ

٥٧٢٥- وَيَرَى مَصَارِعَ أَهْلِهَا مِنْ حَوْلِهِ وَقُلُوبُهُمْ كَمَرَاجِلِ النِّيرَانِ

٥٧٢٦- حَسَرَاتُهَا هُنَّ الوَقُودُ فَإِنْ خَبَتْ زَادَتْ سَعِيرًا بِالوَقُودِ الثَّانِي

٥٧٢٧- جَاؤُوا فُرَادَى مِثْلَ مَا خُلِقُوا بِلا مَالٍ وَلا أَهْلٍ وَلا إِخْوَانِ

٥٧٢٨- مَا مَعْهُمُ شَيْءٌ سِوَى الأَعْمَالِ فَهْـ ـيَ مَتَاجِرٌ لِلنَّارِ أَوْ لِجِنَانِ

٥٧٢٩- تَسْعَى بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ سَوْقًا إِلَى الـدْ دَارَيْنِ سَوْقَ الخَيْلِ بِالرُّكْبَانِ

٥٧٣٠- صَبَرُوا قَلِيلًا فَاسْتَرَاحُوا دَائِمًا يَا عِزَّةَ التَّوْفِيقِ لِلإِنْسَانِ

٥٧٣١- حَمِدُوا التُّقَى عِنْدَ المَمَاتِ كَذَا السُّرَى عِنْدَ الصَّبَاحِ فَحَبَّذَا الحَمْدَانِ

٥٧٣٢- وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْوَ العُلَى وَسَرَوْا فَمَا نَزَلُوا إِلَى نُعْمَانِ

٥٧٣٣- بَاعُوا الَّذِي يَفْنَى مِنَ الخَزَفِ الخَسِيـ ـسِ بِدَائِمٍ مِنْ خَالِصِ العِقْيَانِ

٥٧٣٤- رُفِعَتْ لَهُمْ فِي السَّيْرِ أَعْلَامُ السَّعَا دَةِ وَالهُدَى يَا ذِلَّةَ الحَيْرَانِ

٥٧٣٥- فَتَسَابَقَ الأَقْوَامُ وَابْتَدَرُوا لَهَا كَتَسَابُقِ الفُرْسَانِ يَوْمَ رِهَانِ

٥٧٣٦- وَأَخُو الهُوَيْنَى فِي الدِّيَارِ مُخَلَّفٌ مَعَ شَكْلِهِ يَا خَيْبَةَ الكَسْلَانِ

الشرحُ

٥٧١٩- وَأَخُو البَصَائِرِ حَاضِرٌ مُتَيَقِّظٌ مُتَفَرِّدٌ عَنْ زُمْرَةِ العُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «البَصَائِرِ» جمعُ بصيرةٍ، والبصيرةُ بصرُ القلبِ، والبصرُ بصرُ العينِ. فذوو البصائرِ حاضرون متيقِّظون متفرِّدون عن زُمْرَةِ العُمْيَانِ.

٥٧٢٠- يَسْمُو إِلَى ذَاكَ الرَّفِيقِ الأَرْفَعِ الـ أَعْلَى وَخَلَّى اللُّعْبَ لِلصِّبْيَان

قَوْلُهُ: «الرَّفِيقِ الأَرْفَعِ الأَعْلَى»؛ الرَّفيقُ الأعلى هو: الجنَّةُ، ونعيمُ الآخرةِ.

قَوْلُهُ: «وَخَلَّى اللُّعْبَ» «اللُّعب» هو الدُّنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد:٣٦].

قَوْلُهُ: «لِلصِّبْيَانِ»؛ يعني بهم: صِبيانَ العقولِ لا صِبيانَ الأعمارِ، فهم شيوخٌ لكنَّ عقولَهم عقولُ الصِّبْيانِ.

٥٧٢١- وَالنَّــاسُ كُلُّهُــمُ فَصِــبْيَانٌ وَإِنْ بَلَغُــوا سِــوَى الأَفْــرَادِ وَالوحــدان

قَوْلُهُ: «وَالنَّاسُ كُلُّهُمُ فَصِبْيَانٌ وَإِنْ بَلَغُوا»؛ يعني: وإن كبروا.

قَوْلُهُ: «سِوَى الأَفْرَادِ وَالوِحْدَانِ»؛ يعني: إلَّا الأفرادَ والوحدان؛ يعني: إلَّا القليلين.

إِذَنْ النَّاسُ كُلُّهم صبيانٌ ولو بلغوا، ولو وصلوا عشرين سنةً أو أكثرَ إلَّا الأفرادَ والوحدانَ، فواحدٌ من الألفِ هو العاقلُ، وتسعُمئةٍ وتسعةٌ وتسعون هم السُّفهاءُ والصِّبيان، وهؤلاء القليلون.

٥٧٢٢- وَإِذَا رَأَى مَــا يَشْــتَهِيهِ قَــالَ مَــوْ عِــدُكَ الــجِنَانُ وَجِــدَّ فِي الأَثْــمَانِ

إذا رأى ما يَشتَهيه من الدُّنيا قال: «مَوْعِدُكِ الجِنَانُ»، وهذا مَأخوذٌ من كونِ النَّبيِّ ﷺ إذا رأى ما يعجبُه من الدُّنيا يقولُ: «لَبَّيْكَ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ»[1]، و«لَبَّيْكَ»؛ أي: إجابةً لك؛ لأنَّ النَّفسَ قد تطمحُ وتهربُ، فيقولُ: «لَبَّيْكَ»؛ يعني: أجبتُك، «إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ»، أمَّا عَيْشُ الدُّنيا مهما كَانَ فإنَّه عيشٌ زائلٌ لا خيرَ فيه، وما أعظمَ حسرةَ الذين أضاعوا دينَهم بدُنياهم، لكن متى يعلمون الحسرةَ؟

الجوابُ: عند الموتِ، ويومَ القيامةِ؛ كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، نسألُ اللهَ أن يحميَنا وإيَّاكم، وأن يجزيَ شيخَنا ابنَ القيِّمِ -رحمه اللهُ- خيرَ الجزاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على القتال، رقم (٢٦٧٩)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٥).

٥٧٢٣- وَإِذَا أَبَتْ إِلَّا الـجِمَاحَ أَعَاضَهَا ... بِالعِلْمِ بَعْدَ حَقَائِقِ الإِيمَانِ

يعني: إنْ أبت نفسُه إلَّا أن تجمحَ ولا تذلَّ فإنَه يُعيضُها بالعلمِ بعدَ حقائقِ الإيمانِ ويرجعُ إلى العلمِ الشَّرعيِّ مع حقيقةِ الإيمانِ، وحينئذٍ يميلُ إلى المنزلِ أو الرَّفيقِ الأعلى.

٥٧٢٤- وَيَرَى مِنَ الـخُسْرَانِ بَيْعَ الدَّائِمِ الـ ... ـبَاقِي بِهِ يَا ذِلَّةَ الـخُسْرَانِ

٥٧٢٥- وَيَرَى مَصَارِعَ أَهْلِهَا مِنْ حَوْلِهِ ... وَقُلُوبُهُمْ كَمَرَاجِلِ النِّيرَانِ

قَوْلُهُ: «وَيَرَى مَصَارِعَ أَهْلِهَا»؛ أي: الدُّنيا.

قَوْلُهُ: «وَقُلُوبُهُمْ كَمَرَاجِلِ النِّيْرَانِ»؛ يعني: من الحرارةِ والقلقِ وعدمِ الثَّباتِ؛ لأنَّ المِرْجَلَ هو القِدْرُ الذي يفورُ بما يُوقَدُ تحته.

وكُلُّ هذا وصفٌ للدُّنيا، فقلوبُهم ليس فيها فَرَحٌ ولا سُرورٌ، بل مهما ازدانَتْ لهم الحياةُ الدُّنيا فقلوبُهم غيرُ مسرورةٍ كمراجلِ النِّيرانِ.

٥٧٢٦- حَسَرَاتُهَا هُنَّ الوَقُودُ فَإِنْ خَبَتْ ... زَادَتْ سَعِيرًا بِالوَقُودِ الثَّانِي

وكُلُّ هذا وصفٌ للدُّنيا أيضًا؛ يعني: الحسرةُ إذا هانت جاءت حسرةٌ أخرى، فتجدُ صاحبَ الدُّنيا دائمًا في حسرةٍ لما فاته من الرِّبحِ، أو لما حَصَلَ عليه من الخسرانِ.

٥٧٢٧- جَاؤُوا فُرَادَى مِثْلَ مَا خُلِقُوا بِلا ... مَالٍ وَلا أَهْلٍ وَلا إِخْوَانِ

قَوْلُهُ: «جَاؤُوا فُرَادَى» الضَّميرُ يعودُ على أهلِ الدُّنيا، بل وعلى أهلِ الآخرةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

٥٧٢٨- مَا مَعْهُمُ شَيْءٌ سِوَى الأَعْمَالِ فَهْـــ ـــيَ مَتَـاجِرٌ لِلنَّـارِ أَوْ لِـجِنَانِ

إن كانت صالحةً فهي متاجرُ للجِنَانِ، وإن كانت سيِّئةً فمتاجرُ للنِّيرانِ، نسألُ اللهَ العافيةَ.

٥٧٢٩- تَسْعَى بِهِمْ أَعْمَالُـهُمْ سَوْقًا إِلَى الـدْ دَارَيْـنِ سَـوْقَ الـخَيْلِ بِالرُّكْبَـانِ

٥٧٣٠- صَـبَرُوا قَلِـيلًا فَاسْـتَرَاحُوا دَائِـمًا يَـا عِـزَّةَ التَّوْفِيـقِ لِلإِنْسَـانِ

قَوْلُهُ: «يَا عِزَّةَ التَّوْفِيقِ لِلإِنْسَانِ»؛ يعني: ما أعزَّها وأقلَّها! فإنَّ الموفَّقين من النَّاسِ قليلون.

الذين صبروا قليلًا ثُمَّ استراحوا دائمًا هم أهلُ الخيرِ والسَّعادةِ، صبروا في هذه الدُّنيا على الطَّاعةِ، صبروا عن المعصيةِ، صبروا على الأقدارِ المؤلمةِ، ثُمَّ استراحوا، فهؤلاء هم أهلُ الآخرةِ الذين عرفوا الدُّنيا ولم يأخُذوا منها إلَّا بما ينفعُهم في الآخرةِ.

٥٧٣١- حَمِدُوا التُّقَى عِنْدَ المَمَاتِ كَذَا السُّرَى عِنْـدَ الصَّـبَاحِ فَحَبَّـذَا الـحَمْدَانِ

قَوْلُهُ: «حَمِدُوا التُّقَى عِنْدَ المَمَاتِ» عند المماتِ حَمِدُوا التُّقى؛ لأنَّها ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصِّلت:٣٠]، وقد جاء في الحديثِ الصَّحيحِ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ الـمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الـمَوتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ»، قَالَ: «فَتَخْرُجُ

تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَت عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ... وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ»، قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ المُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ...»[1].

إِذَنْ روحُ المؤمنِ إذا بُشِّرَتْ بهذا خرجت من البدنِ بسهولةٍ؛ لأنَّها سَتُفَارِقُ المألوفَ لكن إلى ما هو خيرٌ منه فيسهلُ عليها أن تخرجَ، بخلافِ رُوحِ الكافرِ والعياذُ بالله؛ فإنَّها إذا بُشِّرَتْ بالنَّارِ تفرَّقت في البدنِ فتؤخذُ منه بشدَّةٍ، نسألُ اللهَ العافيةَ، هذا حمدٌ عند المماتِ؛ ولهذا يُشَاهَدُ بعضُ الأمواتِ حسِّيًّا استنارةُ وجهِه.

وحدَّثني شخصٌ وهو ثقةٌ لاسيَّما في هذا القولِ، وقد حَضَرَ جنازةَ رجلٍ مُحْتَضَرٍ أعرفُه من عبادِ الله الصَّالحين ومن طلبةِ العلمِ، يقولُ: إنَّه في غرفة بالمستشفى، فإذا بنورٍ ملأ الغرفةَ ولا أستطيعُ أن أصفَه؛ لأنَّه شيءٌ عظيمٌ، يقولُ: فبدأ الموتُ بهذا الرَّجلِ، سبحان الله! هذا يدلُّ على أنَّ الملائكةَ تنزَّلت بنورٍ لهذا الميِّتِ، وهذا شيءٌ أنا أشهدُ به عليه، وأنا أعرفُ حالَ المشهودَ له بأنَّه رجلٌ حَرِيٌّ بذلك، غَفَرَ اللهُ لنا وله.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، رقم ١٨٥٥٧).

قَوْلُهُ: «كَذَا السُّرَى عِنْدَ الصَّبَاحِ» عند الصَّباحِ متى؟ يوم القيامةِ تتلقَّاهم الملائكةُ: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النَّحل:٣٢]، وهذه لا شكَّ أنَّها بُشرى بخلافِ الذين يُدَعُّونَ إلى نارِ جهنَّم دعًّا، والعياذُ بالله، ويُلْقَوْنَ فيها إلقاءً، و﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ من شدَّةِ غيظِها تكادُ تقطَّع، ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾، فالتَّقريعُ والتَّوبيخُ ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٦-٩]، إِذَنْ هؤلاء يحمدون التُّقى عند المماتِ وكذلك السُّرى عند الصباحِ يوم القيامة، اللَّهُمَّ اجعلنا منهم.

إِذَنْ هؤلاء لـمَّا حضرهم الموتُ حَمِدوا اللهَ على ما أَنْعَمَ عليهم من التَّقوى والإيمانِ؛ لأنَّهم أدركوا أنَّهم رابحون، بخلافِ مَنْ حضره الموتُ وهو على العكسِ من هذا، فإنَّه لن يحمدَ نفسَه.

٥٧٣٢- وَحَدَتْ بِهِمْ عَزَمَاتُهُمْ نَحْوَ العُلَى وَسَرَوْا فَـمَا نَزَلُـوا إِلَى نُعْـمَانِ

يعني: أنَّهم جَدُّوا في السَّيْرِ، وَحَدَتْ بهم العَزَمَاتُ مِن الحُدَاءِ للإبلِ؛ يعني: أنَّها أسرعت بهم، وسَرَوْا في اللَّيلِ فَمَا نَزَلُوا إِلَى نُعْمَان؛ ونُعمانُ وادٍ معروفٌ فيه الأراكُ الكثيرةُ، ينزلُ به المسافرُ للرَّاحةِ، فهؤلاء جَدُّوا في السَّيرِ، ولم ينزلوا للاستراحةِ.

٥٧٣٣- بَاعُوا الَّذِي يَفْنَى مِنَ الخَزَفِ الخَسِيـ ـسِ بِـدَائِمٍ مِـنْ خَـالِصِ العِقْيَـانِ

قَوْلُهُ: «العِقْيَانُ»؛ أي: الذَّهبُ.

فهم بَاعُوا الأدنى من الخزفِ بالأعلى من الذَّهبِ، وفرقٌ بين الثَّمَنَيْنِ؛ خَزَفٌ خسيسٌ يَفْنَى بدائمٍ خالصٍ نقيٍّ، وأيُّهما أولى؟ الجوابُ: الثَّاني بلا شكٍّ.

٥٧٣٤- رُفِعَتْ لَـهُمْ في السَّيْرِ أَعْلامُ السَّعَا   دَةِ وَالـهُدَى يَـا ذِلَّـةَ الـحَيْرَانِ

يعني: فَاهْتَدَوْا بها، لـمَّا رُفِعَت لهم أعلامُ السَّعادةِ والهُدَى اهْتَدَوْا بها، وَبَقِيَ الحيرانُ في ذُلٍّ.

٥٧٣٥- فَتَسَـابَقَ الأَقْـوَامُ وَابْتَـدَرُوا لَـهَا   كَتَسَـابُقِ الفُرْسَـانِ يَـوْمَ رِهَـانِ

قَوْلُهُ: «كَتَسَابُقِ الفُرْسَانِ يَوْمَ رِهَانِ»؛ يعني: المسابقةُ على الفرسِ بِعِوَضٍ تُسَمَّى مراهنةً، وهي جائزةٌ شرعًا.

٥٧٣٦- وَأَخُو الـهُوَيْنَى فِي الـدِّيَارِ مُخَلَّـفٌ   مَـعَ شَـكْلِهِ يَـا خَيْبَـةَ الكَسْـلانِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠]؛ السَّابقون في الدُّنيا إلى الأعمالِ هم السَّابقون للثَّوابِ يوم القيامةِ.

وحاصلُ الأبياتِ هو: ذَمُّ الدُّنيا والرُّكونِ إليها، وذَمُّ أهلِها، ومدحُ الآخرةِ والنُّهوضِ إليها والمسارعةِ فيها، ومدحُ أهلِها، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١].

***

فصـــل

في رَغْبَةِ قَـائِلِهَا إِلَى مَنْ يَقِفُ عَلَيْهَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ أَنْ يَتَجَرَّدَ لله، وَيَحْكُمَ عَلَيْهَا بِمَا يُوجِبُهُ الدَّلِيلُ وَالبُرْهَانُ؛ فَإِنْ رَأَى حَقًّا قَبِلَهُ وَحمِدَ اللهَ عَلَيْهِ، وَإِنْ رَأَى بَاطِلاً عَرَّفَ بِهِ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ

٥٧٣٧- يَا أَيُّهَا القَارِي لَـهَا اجْلِسْ مَجْلِسَ الـ ... ـحَكَمِ الأَمِينِ أَتَى لَـهُ الـخَصْمَانِ

٥٧٣٨- وَاحْكُمْ هَدَاكَ اللهُ حُكْمًا يَشْهَدُ الـ ... ـعَقْلُ الصَّـرِيحُ بِـهِ مَـعَ القُـرْآنِ

٥٧٣٩- وَاصْبِرْ وَلا تَعْجَـلْ بِتَكْفِـيرِ الَّـذِي ... قَـدْ قَالَــهَا جَهْـلًا بِــلا بُرْهَــانِ

٥٧٤٠- وَاحْبِسْ لِسَانَكَ بُرْهَـةً عَـنْ كُفْـرِهِ ... حَتَّـى تُعَارِضَــهَا بِــلا عُــدْوَانِ

٥٧٤١- فَــإِذَا فَعَلْــتَ فَعِنْــدَهُ أَمْثَالُــهَا ... فَنَــزَالِ آخِـرُ دعــوة الفرســان

٥٧٤٢- فَالكُفْرُ لَيْسَ سِوَى العِنَادِ وَرَدِّ مَـا ... جَـاءَ الرَّسُـولُ بِـهِ لِقَـوْلِ فُـلانِ

٥٧٤٣- فَـانْظُرْ لَعَلَّـكَ هَكَـذَا دُونَ الَّـذِي ... قَـدْ قَالَــهَا فَتَفُـوزَ بِالــخُسْرَانِ

٥٧٤٤- فَالـحَقُّ شَـمْسٌ وَالعُيُـونُ نَـوَاظِرٌ ... لا تَخْتَفِــي إِلَّا عَــلَى العُمْيَــانِ

٥٧٤٥- وَالقَلْبُ يَعْمَى عَنْ هُدَاهُ كَمِثْلِ مَـا ... تُعْمَــى وَأَعْظَــمَ هَــذِهِ العَيْنَــانِ

الشـرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ فِي رَغْبَةِ قَائِلِهَا إِلَى مَنْ يَقِفُ عَلَيْهَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ وَالإِيمَانِ أَنْ

يَتَجَرَّدَ لله»؛ يعني: ويبتعدَ عن الهوى.

قَوْلُهُ: «**وَيَحْكُمَ عَلَيْهَا بِمَا يُوجِبُهُ الدَّلِيلُ وَالبُرْهَانُ؛ فَإِنْ رَأَى حَقًّا قَبِلَهُ وَحَمِدَ اللهَ عَلَيْهِ، وَإِنْ رَأَى بَاطِلًا عَرَّفَ بِهِ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ**» وهذا هو الإنصافُ والحقُّ، فابنُ القيِّمِ الآن يطلبُ منَّا أن ننظرَ في هذه القصيدةِ العظيمةِ، إن كانت حقًّا قبلناها وإلَّا رَدَدْنَاهَا، وبَيَّنَّا الباطلَ منها؛ من أجلِ أن يُسْتَدْرَكَ ويُرْشَدَ إليه، فقال:

٥٧٣٧- يَا أَيُّهَا القَارِي لَـهَا اجْلِسْ مَجْلِسَ الـ ... ـحَكَمِ الأَمِينِ أَتَى لَـهُ الـخَصْمَانِ

الـحَكَمُ الأمينُ، ولابُدَّ أن يكونَ عنده علمٌ؛ لأنَّه لا يصلُ إلى الـحُكْمِ إلَّا بعلمٍ، فإذا كان عنده علمٌ وأمانةٌ فهو حَكَمٌ أمينٌ.

٥٧٣٨- وَاحْكُمْ هَدَاكَ اللهُ حُكْمًا يَشْهَدُ الـ ... ـعَقْلُ الصَّرِيحُ بِهِ مَعَ القُرْآنِ

قَوْلُهُ: «**وَاحْكُمْ... حُكْمًا يَشْهَدُ العَقْلُ الصَّرِيحُ بِهِ مَعَ القُرْآنِ**»؛ يعني: يشهدُ به العقلُ والسَّمعُ.

وَقَوْلُهُ: «**العَقْلُ الصَّرِيحُ**» هذه دائمًا نقرؤها في كلامِ ابنِ القيِّمِ وشيخِ الإسلامِ رحمهما اللهُ؛ والمرادُ بالعقلِ الصَّريحِ: السَّالـمُ من الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، وهو مأخوذٌ من الماءِ الصَّريحِ أو اللَّبنِ الصَّريحِ الذي لم يُخلَطْ معه شيءٌ، فهو السَّالـمُ من الشُّبهاتِ والشَّهواتِ، والشُّبُهاتُ منشؤها الجهلُ، والشَّهواتُ منشؤها: الـهَوَى مع العلمِ؛ لأنَّ آفاتِ العقولِ إمَّا جهلٌ بالحقِّ، وإمَّا هوى يُرَدُّ به الحقُّ، لو تأمَّلْتَ كُلَّ الضَّلالاتِ وَجَدْتَهَا لا تخرجُ عن هذا، فالنَّصارى عِلَّتُهم الشُّبهاتُ إلَّا بعد أن عَلِمُوا الحقَّ، واليهودُ عِلَّتُهم الشَّهواتُ.

٥٧٣٩- وَاصْبِرْ وَلا تَعْجَلْ بِتَكْفِيرِ الَّذِي ... قَـدْ قَالَـهَا جَهْـلًا بِـلا بُرْهَـانِ

٥٧٤٠- وَاحْبِسْ لِسَانَكَ بُرْهَةً عَنْ كُفْرِهِ حَتَى تُعَارِضَهَا بِلا عُدْوَانِ

قَوْلُهُ: «احْبِسْ لِسَانَكَ بُرْهَةً عَنْ كُفْرِهِ»؛ يعني: احبس لسانَك، ولا تستعجلْ إذا رَأَيْتَ فيها ما لا ترضاه فتُكَفِّرَ صاحبَها كما هو شأنُ أهلِ البدعِ يُكَفِّرون مَنْ عاداهم.

قَوْلُهُ: «حَتَّى تُعَارِضَهَا»؛ يعني: حتَّى يتسنَّى لك أن تعارضَها وتُبْطِلَ ما فيها بلا عدوانٍ.

٥٧٤١- فَإِذَا فَعَلْتَ فَعِنْدَهُ أَمْثَالُهَا فَنَزَالِ آخِرُ دعوة الفرسان

٥٧٤٢- فَالكُفْرُ لَيْسَ سِوَى العِنَادِ وَرَدِّ مَا جَاءَ الرَّسُولُ بِهِ لِقَوْلِ فُلانِ

٥٧٤٣- فَانْظُرْ لَعَلَّكَ هَكَذَا دُونَ الَّذِي قَدْ قَالَهَا فَتَفُوزَ بِالخُسْرَانِ

٥٧٤٤- فَالحقُّ شَمْسٌ وَالعُيُونُ نَوَاظِرٌ لا تَخْتَفِي إِلَّا عَلَى العُمْيَانِ

قَوْلُهُ: «فَإِذَا فَعَلْتَ فَعِنْدَهُ أَمْثَالُهَا»؛ يعني: جَلَسْتَ هذا المجلسَ عند الحكمِ عليها فإنَّ عندَه أمثالَها، عند مَنْ؟ الظَّاهرُ: أنَّها عند مؤلِّفِها؛ يعني أنَّ عندنا أمثالَها مِمَّا نُبَيِّنُ به الحقَّ.

قَوْلُهُ: «فَنَزَالِ آخِرُ دَعْوَةِ الفُرْسَانِ» ما معنى نَزَالِ؟ نَزَالِ: اسمُ فعلِ أمرٍ من النُّزولِ؛ وهي كلمةٌ يَتَدَاعَى بها الفُرسانُ عند القتالِ، هذه آخرُ دعوةِ الفُرسانِ، إذا تقابلوا قال: انزل، فقد حَلَّ القتالُ، وهذا يُشْبِهُ المبارزةَ، وكان ذلك مألوفًا في القتالِ، إذا تقابل الصَّفَّان طلب الأشدَّاءُ منهم والشُّجعانُ المبارزةَ، فيبرزُ واحدٌ من هؤلاء وواحدٌ من هؤلاء، ثُمَّ يتقاتلان، ومعلومٌ أنَّ مَنْ يُقْتَلُ سوف يكونُ ذلك هزيمةً لقومِه؛ إذ تنكسرُ قلوبُهم وينهزمون.

٥٧٤٥- وَالقَلْبُ يُعْمَى عَنْ هُدَاهُ كَمِثْلِ مَا تُعْمَى وَأَعْظَمَ هَذِهِ العَيْنَانِ

قَوْلُهُ: «وَأَعْظَمَ» بالنَّصبِ؛ يعني: يَعْمَى عمىً أعظم.

قَوْلُهُ: «هَذِهِ العَيْنَانِ» فاعلُ «تَعْمَى».

يعني: القلبُ يعمى عن رؤيةِ الحقِّ أشدَّ من عَمَى العينَيْنِ.

***

٥٧٤٦- هَذَا وَإِنِّي بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بِأَرْ بَعَةٍ وَكُلُّهُمُ ذَوُو أَضْغَانِ

٥٧٤٧- فَظٌّ غَلِيظٌ جَاهِلٌ مُتَمَعْلِمٌ ضَخْمُ العِمَامَةِ وَاسِعُ الأَرْدَانِ

٥٧٤٨- مُتَفَيْهِقٌ مُتَضَلِّعٌ بِالجَهْلِ ذُو ضَلَعٍ وَذُو جَلَحٍ مِنَ العِرْفَانِ

٥٧٤٩- مُزْجَى البِضَاعَةِ فِي العُلُومِ وَإِنَّهُ زَاجٍ مِنَ الإِيهَامِ وَالهَذَيَانِ

٥٧٥٠- يَشْكُو إِلَى اللهِ الحُقُوقَ تَظَلُّمًا مِنْ جَهْلِهِ كَشِكَايَةِ الأَبْدَانِ

٥٧٥١- مِنْ جَاهِلٍ مُتَطَبِّبٍ يُفْتِي الوَرَى وَيُحِيلُ ذَاكَ عَلَى قَضَا الرَّحْمَنِ

٥٧٥٢- عَجَّتْ فُرُوجُ الخَلْقِ ثُمَّ دِمَاؤُهُمْ وَحُقُوقُهُمْ مِنْهُ إِلَى الدَّيَّانِ

٥٧٥٣- مَا عِنْدَهُ عِلْمٌ سِوَى التَّكْفِيرِ وَالتَّـ ـبْدِيعِ وَالتَّضْلِيلِ وَالبُهْتَانِ

٥٧٥٤- فَإِذَا تَيَقَّنَ أَنَّهُ المَغْلُوبُ عِنْـ ـدَ تَقَابُلِ الفُرْسَانِ فِي المَيْدَانِ

٥٧٥٥- قَالَ: اشْتَكُوهُ إِلَى القُضَاةِ فَإِنَّهُمْ حَكَمُوا وَإِلَّا اشْكُوهُ لِلسُّلْطَانِ

٥٧٥٦- قُولُوا لَهُ هَذَا يُحِلُّ المُلْكَ بَلْ هَذَا يُزِيلُ المُلْكَ مِثْلَ فُلَانِ

٥٧٥٧- فَاعْقِرْهُ مِنْ قَبْلِ اشْتِدَادِ الأَمْرِ مِنْـ ـهُ بِقُوَّةِ الأَتْبَاعِ وَالأَعْوَانِ

٥٧٥٨- وَإِذَا دَعَاكُمْ لِلرَّسُولِ وَحُكْمِهِ فَادْعُوهُ كُلُّكُمُ لِرَأْيِ فُلانِ

٥٧٥٩- وَإِذَا اجْتَمَعْتُمْ فِي المَجَالِسِ فَالْغَطُوا وَالغَوْا إِذَا مَا احْتَجَّ بِالقُرْآنِ

٥٧٦٠- وَاسْتَنْصِرُوا بِمَحَاضِرٍ وَشَهَادَةٍ قَدْ أُصْلِحَتْ بِالرِّفْقِ وَالإِتْقَانِ

٥٧٦١- لَا تَسْأَلُوا الشُّهَدَاءَ كَيْفَ تَحَمَّلُوا وَبِأَيِّ وَقْتٍ بَلْ بِأَيِّ مَكَانِ

٥٧٦٢- وَارْفُوا شَهَادَتَهُمْ وَمَشُّوا حَالَهَا بَلْ أَصْلِحُوهَا غَايَةَ الإِمْكَانِ

٥٧٦٣- وَإِذَا هُمُ شَهِدُوا فَزَكُّوهُمْ وَلَا تَصْغُوا لِقَوْلِ الجَارِحِ الطَّعَّانِ

٥٧٦٤- قُولُوا العَدَالَةَ مِنْهُمُ قَطْعِيَّةٌ لَسْنَا نُعَارِضُهَا بِقَوْلِ فُلانِ

٥٧٦٥- ثَبَتَتْ عَلَى الحُكَّامِ بَلْ حَكَمُوا بِهَا فَالطَّعْنُ فِيهَا لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ

٥٧٦٦- مَنْ جَاءَ يَقْدَحُ فِيهِمُ فَلْيَتَّخِذْ ظَهْرًا كَمِثْلِ حِجَارَةِ الصَّوَّانِ

٥٧٦٧- وَإِذَا هُوَ اسْتَعْدَاهُمُ فَجَوَابُكُمْ أَتَرُدُّهَا بِعَدَاوَةِ الأَدْيَانِ

الشرحُ

٥٧٤٦- هَذَا وَإِنِّي بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بِأَرْ بَعَةٍ وَكُلُّهُمُ ذَوُو أَضْغَانِ

قَوْلُهُ: «هَذَا وَإِنِّي بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بِأَرْبَعَةٍ» لـمَّا ذَكَرَ وحَثَّ على الحَكَمِ الأمينِ ذَكَرَ أنَّ هنا أربعةَ أشخاصٍ؛ والمرادُ: أنَّهم أربعةٌ بأوصافِهم يُخشى منهم، مُمْتَحَنٌ بهم.

قَوْلُهُ: «وَكُلُّهُمُ ذَوُو أَضْغَانِ»؛ أي: أحقادٍ.

٥٧٤٧- فَــظٌّ غَلِــيظٌ جَاهِــلٌ مُــتَمَعْلِمٌ   ضَــخْمُ العِمَامَــةِ وَاسِــعُ الأَرْدَانِ

قَوْلُهُ: «فَظٌّ غَلِيْظٌ جَاهِلٌ مُتَمَعْلِمٌ» «فَظٌّ غَلِيظٌ»؛ يعني: ليس في قلبه لِينٌ، فهو فَظٌّ في قولِه، غليظٌ في طَبْعِهِ، «مُتَمَعْلِمٌ»؛ يعني: يدَّعي العلمَ وليس بعالمٍ.

قَوْلُهُ: «ضَخْمُ العِمَامَةِ وَاسِعُ الأَرْدَانِ»؛ يعني: عمامتُه كبيرةٌ، وأردانُه واسعةٌ؛ يعني: أكمامه، وكانوا يفعلون هذا في المشايخ الكبار، يُكبِّرون عمائمَهم ويُوسِّعُونَ أردانَهم وأكمامَهم حتَّى تكادَ تقول: إنَّ هذا الكُمَّ يصلحُ أن يكونَ قميصًا من سَعتِه.

وهذا من وقتِ ابنِ القيِّمِ -رحمه اللهُ- أنَّ هؤلاءِ الذي يعتقدون أنَّهم الشُّيوخُ وأنَّهم الأولياءُ يفعلون هذا.

٥٧٤٨- مُتَفَيْهِــقٌ مُتَضَــلِّعٌ بِالــجَهْلِ ذُو   ضَــلَعٍ وَذُو جَلَــحٍ مِــنَ العِرْفَــانِ

قَوْلُهُ: «مُتَفَيْهِقٌ»؛ معناه: أنَّه كأنَّما يمشي على قفاه من شدَّةِ إعجابِه بنفسِه والعياذُ بالله.

قَوْلُهُ: «ضَلَع» قال في «القاموس»: «ضَلَعَ كَمَنَعَ: مَالَ وجَنفَ وجَارَ،... والضَّالعُ: الجائرُ»[1].

قَوْلُهُ: «ذُو جَلَحٍ مِنَ العِرْفَانِ»؛ يعني: أنَّه خالٍ من العرفانِ، ليس عنده علمٌ.

٥٧٤٩- مُزْجَى البِضَــاعَةِ في العُلُــومِ وَإِنَّــهُ   زَاجٍ مِــنَ الإِيهَــامِ وَالــهَذَيَانِ

قَوْلُهُ: «مُزْجَى البِضَاعَةِ»؛ يعني: قليلَ البِضاعةِ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ [يوسف:٨٨]؛ أي: قليلةٍ.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، مادة: ضلع.

قَوْلُهُ: «**وَإِنَّهُ زَاجٍ مِنَ الإِيهَامِ وَالـهَذَيَانِ**»؛ يعني: هو في العلومِ قليلٌ، لكن الهذيانُ والإيهامُ والتَّشكيكُ هو مملوءٌ منها.

٥٧٥٠- يَشْكُو إِلَى اللهِ الـحُقُوقَ تَظَلُّمًا ... مِنْ جَهْلِهِ كَشِكَايَةِ الأَبْدَانِ

يشكو إلى الله الحقوقَ من جهلِه؛ يعني: أنَّه دائمًا يشكو الحقوقَ تظلُّمًا؛ لأنَّه جاهلٌ، وهذه حالُ كثيرٍ من النَّاسِ ، فهو يقولُ: أَضَاعَ النَّاسُ الحقوقَ، أو أضاعوا حقوقِي، أو ما أشبه ذلك.

٥٧٥١- مِنْ جَاهِلٍ مُتَطَبِّبٍ يُفْتِي الـوَرَى ... وَيُحِيلُ ذَاكَ عَلَى قَضَا الـرَّحْمَنِ

هذا من أوصافِه أنَّه جاهلٌ ومُتطبِّبٌ، وهل هو طبيبُ علمٍ أو طبيبُ بدَنٍ؟ الظَّاهرُ أنَّه طبيبُ علمٍ يُفْتِي الوَرَى، ويُحِيلُ ذاك على قَضَاءِ الرَّحمنِ، فيقولُ: «**هذا حُكْمُ الله**»، «**هذا شرعُ الله**».

وإن كان طبيبَ بدنٍ جاهلًا فإنَّه يُهْلِكُ الورى، يقولُ مثلًا: هذا فيه داءٌ في القلبِ، ويشقُّ القلبَ، فإذا شقَّه ومات الرَّجلُ قال: واللهِ هذا قضاءُ الله وقدرُه، وهو لا يعرفُ شيئًا من الطِّبِّ؛ ولهذا قال شيخُ الإلامِ ابنُ تيميَّة في آخرِ الفتوى الحمويَّةِ: «**وقد قال النَّاسُ: أكثرُ ما يُفْسِدُ الدُّنيا: نصفُ متكلِّم، ونصفُ متفقِّهٍ، ونصفُ متطبِّبٍ، ونصفُ نحويٍّ**»[1]، فهؤلاء الأربعة أفسدوا الدُّنيا كُلَّها، نصفُ الفقيهِ أَفْسَدَ البلدان؛ لأنَّه يحكمُ لهذا على هذا وهو ليس عنده علمٌ، فتفسدُ البلدانُ فتحصلُ الفوضى والعُدوانُ، نصفُ المتكلِّم أَفْسَدَ الأديانَ والعقائدَ، ونصفُ الطَّبيبِ أَفْسَدَ الأبدانَ، ونصفُ النَّحويِّ أَفْسَدَ اللِّسانَ، وهذا صحيحٌ، تجدُه مثلًا عنده علمٌ يسيرٌ بالنَّحوِ ، فإذا أَعْرَبَ فإذا به ينصبُ المرفوعَ ويرفعُ المنصوبَ.

---

(١) انظر: الفتوى الحموية الكبرى (ص:٥٥٤).

٥٧٥٢- عَجَّتْ فُرُوجُ الخَلْقِ ثُمَّ دِمَاؤُهُمْ وَحُقُوقُهُمْ مِنْهُ إِلَى الدَّيَّانِ

قَوْلُهُ: «عَجَّتْ فُرُوجُ الخَلْقِ»؛ يعني: أنَّه يحكمُ بالأنكحةِ والطَّلاقِ فيقولُ لهذا: «بَانَتْ زوجتُك منك»، وإذا بانت منه حَلَّتْ للثَّاني، فيُحلُّها لمن لا تحلُّ له، أو يفسخُ نكاحَ مَنْ لا يستحقُّ الفسخَ، وما أشبه ذلك.

٥٧٥٣- مَا عِنْدَهُ عِلْمٌ سِوَى التَّكْفِيرِ وَالتْـ ـتَبْدِيعِ وَالتَّضْلِيلِ وَالبُهْتَانِ

٥٧٥٤- فَإِذَا تَيَقَّنَ أَنَّهُ الـمَغْلُوبُ عِنْـ ـدَ تَقَابُلِ الفُرْسَانِ فِي الـمَيْدَانِ

٥٧٥٥- قَالَ: اشْتَكُوهُ إِلَى القُضَاةِ فَإِنَّهُمْ حَكَمُوا وَإِلَّا اشْكُوهُ لِلسُّلْطَانِ

في الأوَّلِ يصيحُ في خصمِه: هذا كفرٌ، أنت كافرٌ، أنت مُبْتَدِعٌ، أنت ضالٌّ، وإذا عرف أنَّه مغلوبٌ ماذا يصنعُ؟ يقولُ: نذهَبُ إلى المحكمةِ، إلى القاضي، إن حكموا عليه انتهى الأمرُ، وإن لم يحكموا عليه قال: «ارفعوه للسُّلطانِ»، وهذا واقعٌ، فمثلُ الإمامِ أحمدَ وابنِ تيميَّةَ وغيرِهما من أهلِ العلمِ قد حَبَسَهم السَّلاطينُ وعذَّبوهم بسبب الوشايةِ.

٥٧٥٦- قُولُوا لَهُ هَذَا يُحِلُّ الـمُلْكَ بَلْ هَذَا يُزِيلُ الـمُلْكَ مِثْلَ فُلانِ

٥٧٥٧- فَاعْقِرْهُ مِنْ قَبْلِ اشْتِدَادِ الأَمْرِ مِنْـ ـهُ بِقُوَّةِ الأَتْبَاعِ وَالأَعْوَانِ

إذا قالوا: هذا يحلُّ مُلكَك ويزيلُ مُلكَك فاعقره حتَّى لا يمشي قبل اشتدادِ الأمرِ منه بقوَّةِ الأتباعِ والأعوانِ؛ أي: قبل أنْ يكثرَ أتباعُه ويلتف النَّاسُ حولَه، ثُمَّ يُزِيلُونَك، والسُّلطانُ خائفٌ لاسيَّما إذا لم يكن عنده خوفٌ من الله، أمَّا مَنْ عنده خوفٌ من الله فإنَّ مَنْ خَافَ اللهَ تعالى أَخافَ اللهُ منه كُلَّ شيءٍ، ومَنْ اتَّقى اللهَ اتَّقاه كُلُّ شيءٍ، لكن كثيرٌ من السَّلاطين ليسوا على هذا الوصفِ، فتجدُه يَخافُ، يقولون

له: الشَّيخُ فلانٌ، شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ له أتباعٌ كثيرون، احذَرْ منه، لكن ما العملُ؟ يقولون: السِّجنُ، اعقره حتَّى لا يُزيلَ الملكَ عنك.

٥٧٥٨- وَإِذَا دَعَاكُمْ لِلرَّسُولِ وَحُكْمِهِ   فَادْعُوهُ كُلُّكُمُ لِرَأْيِ فُلَانِ

٥٧٥٩- وَإِذَا اجْتَمَعْتُمْ فِي المَجَالِسِ فَالْغَطُوا   وَالغَوْا إِذَا مَا احْتَجَّ بِالقُرْآنِ

٥٧٦٠- وَاسْتَنْصِرُوا بِمَحَاضِرٍ وَشَهَادَةٍ   قَدْ أُصْلِحَتْ بِالرِّفْقِ وَالإِتْقَانِ

فهؤلاءِ قد أعدُّوا أنفسَهم من قبلُ وكتبوا على تأنٍّ، وأثقلوا حُجَجَهم، لكنَّها كُلَّها حُجَجٌ باطلةٌ.

٥٧٦١- لَا تَسْأَلُوا الشُّهَدَاءَ كَيْفَ تَحَمَّلُوا   وَبِأَيِّ وَقْتٍ بَلْ بِأَيِّ مَكَانِ

٥٧٦٢- وَارْفُوا شَهَادَتَهُمْ وَمَشُّوا حَالَهَا   بَلْ أَصْلِحُوهَا غَايَةَ الإِمْكَانِ

٥٧٦٣- وَإِذَا هُمُ شَهِدُوا فَزَكُّوهُمْ وَلَا   تَصْغُوا لِقَوْلِ الجَارِحِ الطَّعَّانِ

٥٧٦٤- قُولُوا العَدَالَةَ مِنْهُمُ قَطْعِيَّةٌ   لَسْنَا نُعَارِضُهَا بِقَوْلِ فُلَانِ

٥٧٦٥- ثَبَتَتْ عَلَى الحُكَّامِ بَلْ حَكَمُوا بِهَا   فَالطَّعْنُ فِيهَا لَيْسَ ذَا إِمْكَانِ

٥٧٦٦- مَنْ جَاءَ يَقْدَحُ فِيهِمُ فَلْيَتَّخِذْ   ظَهْرًا كَمِثْلِ حِجَارَةِ الصَّوَّانِ

٥٧٦٧- وَإِذَا هُوَ اسْتَعْدَاهُمُ فَجَوَابُكُمْ   أَتَرُدُّهَا بِعَدَاوَةِ الأَدْيَانِ

قَوْلُهُ: «وَمَشُّوا حَالَهَا» هذه العبارةُ ما كُنَّا نعلمُ أنَّها قديمةٌ.

***

فصــل

في حَالِ العَدُوِّ الثَّانِي

٥٧٦٨- أَوْ حَاسِدٌ قَدْ بَاتَ يَغْلِـي صَـدْرُهُ ... بِعَــدَاوَتِي كَالـــمِرْجَلِ المَــلآنِ
٥٧٦٩- لَوْ قُلْتُ هَـذَا البَحْـرُ قَـالَ مُكَـذِّبًا ... هَـذَا السَّـرَابُ يَكُـونُ بِالقِيعَـانِ
٥٧٧٠- أَوْ قُلْتُ هَذِي الشَّمْسُ قَـالَ مُبَاهِتًـا ... الشَّـمْسُ لَـمْ تَطْلُـعْ إِلَى ذَا الآنِ
٥٧٧١- أَوْ قُلْـتُ قَـالَ اللهُ قَـالَ رَسُـولُهُ ... غَضِبَ الـخَبِيثُ وَجَـاءَ بِـالكِتْمَانِ
٥٧٧٢- أَوْ حَرَّفَ القُـرْآنَ عَـنْ مَوْضُـوعِهِ ... تَحْرِيـفَ كَـذَّابٍ عَـلَى القُـرْآنِ
٥٧٧٣- صَالَ النُّصُوصَ عَلَيْهِ فَهْوَ بِدَفْعِهَا ... مُتَوَكِّـلٌ بِالــدَّأْبِ وَالدَّيْــدَانِ
٥٧٧٤- فَكَلامُـهُ فِي الـنَّصِّ عِنْـدَ خِلافِـهِ ... مِـنْ بَـابِ دَفْـعِ الصَّائِلِ الطَّعَّـانِ
٥٧٧٥- فَالقَصْدُ دَفْعُ الـنَّصِّ عَـنْ مَدْلُولِـهِ ... كَيْلا يَصُـولَ إِذَا التَقَـى الزَّحْفَـانِ

الشـرحُ

هذا الثَّاني، الثَّاني ليس مُتَمَعْلِمًا، ولا مُتَشَيِّخًا، وليس عليه أردانٌ واسعةٌ، ولا يدَّعي أنَّه العالـمُ الفذُّ، لكنَّه حاسدٌ، لا يريدُ أن يكونَ لابنِ القيِّمِ فضلٌ، قال رحمه الله:

٥٧٦٨- أَوْ حَاسِدٌ قَدْ بَاتَ يَغْلِـي صَـدْرُهُ ... بِعَــدَاوَتِي كَالـــمِرْجَلِ المَــلآنِ

٥٧٦٩- لَوْ قُلْتُ هَـذَا البَحْـرُ قَـالَ مُكَـذِّبًا   هَـذَا السَّــرَابُ يَكُـونُ بِالقِيعَـانِ

أعوذُ بالله، هذا الحاسدُ، هكذا يكونُ، يُخْفِي كُلَّ شيءٍ، بل تجدُه يمدحُ الإنسانَ، هذا رجلٌ فيه كذا، فيه كذا، فيه كذا، حتَّى إذا أَوْصَلَهُ الثُّريَّا رَمَى به، وقال: «لكِنْ»، وإذا جاءت «لكِنْ» توقَّع ما بعدها، فَيَحُطُّ قَدْرَه، وهكذا يفعلُ الحُسَّادُ والعياذُ بالله، تقولُ: هذا البحرُ، قال: لا، هذا سرابٌ بالقاعِ، مع أنَّ البحرَ أمامَه.

٥٧٧٠- أَوْ قُلْتُ هَذِي الشَّمْسُ قَـالَ مُبَاهِتًـا   الشَّـمْسُ لَـمْ تَطْلُـعْ إِلَى ذَا الآنِ

وإذا قلتُ له: «هذه الشَّمسُ»، قال: لم تطلع الشَّمسُ بعدُ إلى الآن.

٥٧٧١- أَوْ قُلْـتُ قَـالَ اللهُ قَـالَ رَسُـولُهُ   غَضِـبَ الـخَبِيثُ وَجَـاءَ بِـالكِتْمانِ

٥٧٧٢- أَوْ حَرَّفَ القُـرْآنَ عَـنْ مَوْضُـوعِهِ   تَحْرِيـفَ كَـذَّابٍ عَـلَى القُـرْآنِ

وإذا قلتُ له: «**هذا كلامُ الله ورسولِه**» حِينئذٍ يغضبُ والعياذُ بالله، ويأتِي بالكتمانِ، وإذا كان حديثًا قال: هذا خبرُ آحادٍ لا يصحُّ، وإذا كان لا يمكنُ دفعُه من حيثُ الثُّبوتُ ذهب يُحرِّفُ؛ وتأمَّلْ لـمَّا جاء إلى «**قال اللهُ وقال رسولُه**» وَصَفَهَ: بالخبيثِ، وإلَّا ففي الأوَّلِ لـمَّا جَحَدَ طلوعَ الشَّمسِ أو وجودَ البحرِ لم يَصِفْهُ بهذا؛ لأنَّ غضبَ الخبيثِ أشدُّ من قولِه: «**لم تطلع الشَّمسُ، أو ليس هذا البحرُ**».

٥٧٧٣- صَالَ النُّصُوصَ عَلَيْهِ فَهْوَ بِدَفْعِهَا   مُتَوَكِّــلٌ بِالــدَّأْبِ وَالدَّيْــدَانِ

قَوْلُهُ: «صَالَ النُّصُوصُ» أصلُها: «صَالَتِ النُّصُوصُ»، لكن جمعُ التَّكسيرِ يجوزُ فيه التَّذكيرُ والتَّأنيثُ لاسيَّما أنَّ ضرورةَ الشِّعرِ تدعو إلى ذلك.

قَوْلُهُ: «فَهْوَ بِدَفْعِهَا مُتَوَكِّلٌ بِالدَّأْبِ وَالدَّيْدَانِ»؛ أي: متوكِّلٌ بالعادةِ؛ يعني: هو يدفعُها كعادتِه، و«الدَّأْبُ»؛ بمعنى: العادة؛ كما قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأنفال:٥٢]؛ أي: عادتِهم، و«الدَّيْدَان»؛ أي: دَيْدَنُه أنَّه يدفعُ النُّصوصَ، ودأبُه أنَّه يدفعُها كذلك.

٥٧٧٤- فَكَلامُـهُ فِي الـنَّصِّ عِنْـدَ خِلافِـهِ مِـنْ بَـابِ دَفْـعِ الصَّـائِلِ الطَّعَّـانِ

قَوْلُهُ: «فَكَلَامُهُ فِي النَّصِّ عِنْدَ خِلَافِهِ»؛ يعني: إذا خالفه النَّصُّ من بابِ دفعِ الصَّائلِ الطَّعَّانِ؛ ولذا تجدُه يلتزمُ أحيانًا أشياءَ لا يلتزمُها عند السَّعةِ؛ يعني: في المناظراتِ بعضُ النَّاسِ إذا أُتِيَ إليه بالنُّصوصِ وقيل: «كلامُك يلزمُ منه كذا وكذا» الْتَزَمَهُ، مع أنَّه عند السَّعةِ لا يلتزمُ هذا الشَّيءَ، لكن عند الضَّرورةِ والمناظرةِ رُبَّما يلتزمُ هذا الشَّيءَ فتجدُه يُقَابِلُ النُّصوصَ إذا خَالَفْتَهُ فيدافعُها مدافعةَ الصَّائلِ.

٥٧٧٥- فَالقَصْدُ دَفْعُ الـنَّصِّ عَـنْ مَدْلُولِـهِ كَيْلا يَصُـولَ إِذَا التَقَـى الزَّحْفَـانِ

تجدُ الخَصْمَ إذا أَوْرَدْتَ عليه النَّصَّ يحملُه على مَحْمَلٍ لا يقولُ به أحدٌ، حتَّى هو لو قِيلَ له: أتقولُ بهذا في حالِ الطُّمأنينةِ والرَّاحةِ؟ قال: لا أقولُ بهذا، ومع ذلك يحملُ النَّصَّ عليه، لماذا؟ كدفع الصَّائلِ، والذي يدفعُ الصَّائلَ يدفعُه بكُلِّ سلاحٍ حتَّى ولو بأظفارِه.

خلاصةُ هذا العدوِّ: أنَّه رجلٌ حاسدٌ، لو يُرَى الحقائقَ الحسِّيَّةَ والسَّمعيَّةَ ما قَبِلَ، إذا قيل: هذا البحرُ، قال: لا، هذا سرابٌ، قيل: هذه الشَّمسُ، قال: الشَّمسُ ما طلعتْ بعدُ، هذا القرآنُ، ذهب يحرِّفُه عن مواضعِه، كُلُّ هذا مضادَّةٌ لمن؟ لابنِ القيِّمِ رحمه الله.

***

فصــل

في حَالِ العَدُوِّ الثَّالِثِ

٥٧٧٦- وَالثَّالِثُ الأَعْمَى المُقَلِّدُ ذَيْنِكَ الـرْ رَجُلَـيْنِ قَائِـدُ زُمْـرَةِ العُمْيَـانِ

٥٧٧٧- فَاللَّعْنُ وَالتَّكْفِيرُ وَالتَّبْدِيعُ وَالتْـ ـتَضْلِيلُ وَالتَّفْسِيقُ بِالعُـدْوَانِ

٥٧٧٨- فَـإِذَا هُـمُ سَـأَلُوهُ مُسْـتَنَدًا لَـهُ قَـالَ اسْـمَعُوا مَـا قَالَـهُ الـرَّجُلانِ

الشـرحُ

اسْتَعَاذَ ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- من ثلاثةٍ من الأعداءِ؛ الأوَّل: مُتَفَيْقِهٌ مُتَعَيْلِمٌ يرى أنّه لا أحدَ مثلُه ولا أحدَ أكبرُ منه، والثَّاني: حاسدٌ، والثَّالث: مُقَلِّدٌ أعمى، وهذا المقلِّدُ يَصِفُ ابنَ القيِّمِ بأنَّه كافرٌ مُبْتَدِعٌ ضالٌّ، وما أشبه ذلك، فَيُقَالُ له: ما مُسْتَنَدُك؟ قال: اسمعوا ما قاله الرَّجُلانِ؛ أي: الـمُتَعَيْلِمُ والحاسدُ، إِذَنْ ليس عنده شيءٌ؛ لأَنَّه مُقَلِّدٌ أعمى.

* * *

فصـــل

في حَالِ العَدُوِّ الرَّابِعِ

٥٧٧٩- هَـذَا وَرَابِعُهُـمْ وَلَـيْسَ بِكَلْـبِهِمْ ... حَاشَـا الكِـلابَ الآكِـلِي الأَنْتَـانِ
٥٧٨٠- خِنْزِيـرُ طَبْـعٍ في خَلِيقَـةِ نَـاطِقٍ ... مُتَسَـوِّفٍ بِالكِـذْبِ وَالبُهْتَـانِ
٥٧٨١- كَالكَلْبِ يَتْبَعُهُمْ يُمَشْمِشُ أَعْظُمًا ... يَرْمُونَهَـا وَالقَـوْمُ لِلحِـمَّانِ
٥٧٨٢- يَتَفَكَّهُـونَ بِهَـا رَخِيصًـا سِـعْرُهَا ... مَيْتًـا بِـلا عِـوَضٍ وَلا أَثْـمَانِ
٥٧٨٣- هُوَ فَضْلَةٌ في النَّاسِ لا عِلْـمٌ وَلَا ... دِيـنٌ وَلا تَمْكِـينُ ذِي سُـلْطَانِ
٥٧٨٤- فَـإِذَا رَأَى شَرًّا تَحَـرَّكَ يَبْتَغِـي ... ذِكْـرًا كَمِثْـلِ تَحَـرُّكِ الثُّعْبَـانِ
٥٧٨٥- لِيَزُولَ عَنْهُ أَذَى الكَسَادِ فَيُنْفِقَ الـ ... ـكَلْبُ العَقُورُ عَلَى ذُكُـورِ الضَّـانِ
٥٧٨٦- فَبَقَـاؤُهُ في النَّـاسِ أَعْظَـمُ مِحْنَـةٍ ... مِـنْ عَسْـكَرٍ يُعْـزَى إِلَى غَـازَانِ
٥٧٨٧- هَذِي بِضَاعَةُ ضَارِبٍ في الأَرْضِ يَبْـ ... ـغِي تَـاجِرًا يَبْتَـاعُ بِـالأَثْمانِ
٥٧٨٨- وَجَدَ التُّجَارَ جَمِيعَهُمْ قَـدْ سَـافَرُوا ... عَـنْ هَـذِهِ البُلْـدَانِ وَالأَوْطَـانِ
٥٧٨٩- إِلَّا الصَّـعَافِقَةَ الَّـذِينَ تَكَلَّفُـوا ... أَنْ يُتْجِـرُوا فِينَـا بِـلا أَثْـمَانِ
٥٧٩٠- فَهُـمُ الزَّبُـونُ لَـهَا فَبِـالله ارْحَمُـوا ... مِـنْ بَيْعَـةٍ مِـنْ مُفْلِـسٍ مِـدْيَانِ
٥٧٩١- يَـا رَبِّ فَارْزُقْهَـا بِحَقِّـكَ تَـاجِرًا ... قَـدْ طَـافَ بِالآفَـاقِ وَالبُلْـدَانِ

٥٧٩٢- مَـا كُـلُّ مَنْقُـوشٍ لَدَيْـهِ أَصْـفَرٍ ذَهَبًـا يَـرَاهُ خَـالِصَ العِقْيَـانِ

٥٧٩٣- وَكَـذَا الزُّجَاجُ وَدُرَّةُ الغَـوَّاصِ فِي تَمْيِيـزِهِ مَـا إِنْ هُمَـا مِـثْلَانِ

الشرحُ

٥٧٧٩- هَـذَا وَرَابِعُهُـمْ وَلَـيْسَ بِكَلْـبِهِمْ حَاشَـا الكِـلَابَ الآكِـلِي الأَنْتَـانِ

يُشِيرُ إلى قولِه تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢]، لكن يقولُ: هذا ليس بكلبٍ، فالكلابُ تُنَزَّه عنه، حَاشَا الكلابِ الآكِلِي الأنتانِ، فالكلابُ خيرٌ من هذا.

٥٧٨٠- خِنْزِيـرُ طَبْـعٍ فِي خَلِيقَـةِ نَـاطِقٍ مُتَسَـوِّفٍ بِالكِـذْبِ وَالبُهْتَـانِ

قَوْلُهُ: «خِنْزِيرُ طَبْعٍ فِي خَلِيقَةِ نَاطِقٍ»؛ يعني: خليقتُه إنسانٌ إلَّا أنَّ طبيعتَه طبيعةُ الخنازيرِ.

قَوْلُهُ: «مُتَسَوِّفٍ بِالكِذْبِ وَالبُهْتَانِ» «متسوِّفٌ»؛ من التَّسويفِ؛ يعني: أنَّه ليس عنده إلَّا الكذبُ والبهتانُ.

٥٧٨١- كَالكَلْبِ يَتْبَعُهُمْ يُمَشْمِشُ أَعْظُـمًا يَرْمُونَهَـا وَالقَـوْمُ لِلحُـمَّانِ

٥٧٨٢- يَتَفَكَّهُونَ بِهَـا ....

هذا تابعٌ وليس كالمقلِّدِ، فهو يرى ما يقولُ النَّاسُ فيقولُه؛ مِثْل: الكلبِ يَتْبَعُ النَّاسَ يُمَشْمِشُ أعظمًا تُرْمَى، والكلابُ الآن تجدونها إذا رُمِيَت العظامُ تُمَشْمِشُها؛ تشمُّها أوَّلًا، ثُمَّ تأكلُ ما فيها من اللَّحمِ، والقومُ الآخرون يتفكَّهون باللَّحمِ.

٥٧٨٢- .... رَخِيصًا سِعْرُهَا مَيْتًا بِلا عِوَضٍ وَلا أَثْمَانِ

هذا الرَّجلُ هو الذي يغتابُ، ليس له رصيدٌ من العلمِ ولا تقليدٌ ولا هدفٌ، فهو إنسانٌ يغتابُ، إذا حَضَرَ مجلسًا يمدحُ ابنَ القيِّمِ مَدَحَ، وإذا حضر مجلسًا يذمُّه ذَمَّ، ليس عنده قاعدةٌ يَبْنِي عليها عداوةً أو صداقةً، لكنَّه كالكلبِ يَتْبَعُ هؤلاء النَّاسَ الذي يأكلون اللَّحمَ ويرمون العظامَ فَيُمَشْمِشُهَا.

٥٧٨٣- هُوَ فَضْلَةٌ فِي النَّاسِ لا عِلْمٌ وَلَا دِينٌ وَلا تَمْكِينُ ذِي سُلْطَانِ

وهؤلاء موجودون كثيرًا في عامَّةِ النَّاسِ، فَضْلَةٌ يتبعُ كُلَّ ناعقٍ، وليس عِنْدَهُ عِلْمٌ وَلَا دِينٌ وَلَا تَمْكِينُ ذِي سُلْطَانٍ.

٥٧٨٤- فَإِذَا رَأَى شَرًّا تَحَرَّكَ يَبْتَغِي ذِكْرًا كَمِثْلِ تَحَرُّكِ الثُّعْبَانِ

إذا سَمِعَ في المجلسِ غِيبةً شَرَعَ يتكلَّمُ ويأتي بالكذبِ والبهتانِ من أجل أن يُقَالَ: ما شاء اللهُ، هذا رجلٌ بليغٌ في المجلسِ، هذا رجلٌ له كلمةٌ، ويكونُ له ذِكْرٌ في النَّاسِ، كفاكَ اللهُ لسانَه، وهكذا.

٥٧٨٥- لِيَزُولَ عَنْهُ أَذَى الكَسَادِ فَيُنْفِقَ الـ ـكَلْبُ العَقُورُ عَلَى ذُكُورِ الضَّانِ

قَوْلُهُ: «لِيَزُولَ عَنْهُ أَذَى الكَسَادِ» يقولُ هذا وهو ما فيه خيرٌ؛ لأجل أن يزولَ عنه أذى الكَسَادِ، كيف أذى الكَسَادِ؟ الرَّجلُ إذا كان في المجلسِ لا يتكلَّمُ، قيل: هذا خشبةٌ، ولا يُرْفَعُ له رأسٌ، لكن لو تكلَّم ولو بالباطلِ التفت النَّاسُ إليه، ماذا يقولُ؟ فيريدُ أن يعملَ عملًا يُذْكَرُ به ويكونُ له به شأنٌ في المجلسِ فيزولُ كَسَادُه.

قَوْلُهُ: «فَيَنْفُقَ الكَلْبُ العَقُورُ عَلَى ذُكُورِ الضَّانِ» الكلبُ العقورُ إذا وَجَدَ ذكورَ

الضَّأنِ -والضَّأنُ معروفةٌ بالذُّلِّ والجبنِ- فإذا أتاها كلبُ عقورٌ فيا ويلها منه.

٥٧٨٦- فَبَقَاؤُهُ فِي النَّاسِ أَعْظَمُ مِحْنَةٍ ... مِنْ عَسْكَرٍ يُعْزَى إِلَى غَازَانِ

قوله: «غَازَانِ» أحدُ ملوكِ التَّتارِ.

يعني: بقاءُ هذا الرَّجلِ محنةٌ، وليس في كلامِه -رحمه اللهُ- اعتراضٌ على القَدَرِ، لكن محاولة لإصلاحِ أمثالِ هؤلاء في النَّاسِ.

٥٧٨٧- هَذِي بِضَاعَةُ ضَارِبٍ فِي الأَرْضِ يَبْـ ... ـغِي تَاجِرًا يَبْتَاعُ بِالأَثْمَانِ

٥٧٨٨- وَجَدَ التِّجَارَ جَمِيعَهُمْ قَدْ سَافَرُوا ... عَنْ هَذِهِ البُلْدَانِ وَالأَوْطَانِ

٥٧٨٩- إِلَّا الصَّعَافِقَةَ الَّذِينَ تَكَلَّفُوا ... أَنْ يُتْجِرُوا فِينَا بِلا أَثْمَانِ

وبِئْسَت البضاعةُ أن يجدَ الإنسانُ مَنْ يغتابُ النَّاسَ ليقعَ في أعراضِهم، تجدُه في كُلِّ مكانٍ، في كُلِّ مجلسٍ يطلبُ مَنْ هذا دَأْبه إلَّا الصَّعَافِقَةَ؛ ولذا قال: «إِلَّا الصَّعَافِقَةَ الَّذِينَ تَكَلَّفُوا أَنْ يَتْجَرُوا فِينَا بِلَا أَثْمَانِ»؛ يعني: ليس لديهم فلوسٌ.

٥٧٩٠- فَهُمُ الزَّبُونُ لَهَا فَبِاللهِ ارْحَمُوا ... مِنْ بَيْعَةٍ مِنْ مُفْلِسٍ مِدْيَانِ

قَوْلُهُ: «مِنْ مُفْلِسٍ مِدْيَانِ»؛ يعني: كثيرَ الدُّيونِ.

٥٧٩١- يَا رَبِّ فَارْزُقْهَا بِحَقِّكَ تَاجِرًا ... قَدْ طَافَ بِالآفَاقِ وَالبُلْدَانِ

قوله: «يَا رَبِّ فَارْزُقْهَا»؛ الظَّاهرُ: أنَّه يريدُ المنظومةَ.

قَوْلُهُ: «بِحَقِّكَ» هنا توسَّلَ إلى الله -سبحانه وتعالى- بحقِّه، فما هو حقُّه؟ حقُّه أن نعبدَه، والعبادةُ من فعلِ العبادِ، والتَّوسُّلُ بأفعالِ العبادِ ليس شرعيًّا؛ لأنَّ

فعلَ العبادِ لا ينفعُ العبادَ، لا ينفعُ إلَّا مَنْ فَعَلَهُ، ولكن يُقَالُ: «يَا رَبِّ فَارْزُقْهَا بِحَقِّكَ»؛ أي: الذي أَوْجَبْتَهُ على نفسِك؛ وهو ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، فَكَأَنَّ الحقَّ الذي أَوْجَبَهُ اللهُ على نفسِه هو: إجابةُ الدُّعاءِ، وهذا كقولِه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ...»[١]، وَحَقُّ السَّائلين عليه إجابتُهم، فهو توسُّلٌ إلى الله بفعلِهِ.

فالمؤلِّفُ يدعو اللهَ ويسألُه بحقِّه عزَّ وجلَّ -وهو: إجابةُ الدَّاعِي- أن يرزقَها تاجرًا قد طَافَ بالآفاقِ والبلدانِ، ولكنَّه تاجرٌ ذو خبرةٍ.

٥٧٩٢- مَا كُلُّ مَنْقُوشٍ لَدَيْهِ أَصْفَرٍ ذَهَبًا يَرَاهُ خَالِصَ العِقْيَانِ

قَوْلُهُ: «مَا كُلُّ مَنْقُوشٍ لَدَيْهِ أَصْفَرٍ ذَهَبًا»؛ لأنَّه يعرفُ الذَّهبَ من غيرِه.

٥٧٩٣- وَكَذَا الزُّجَاجُ وَدُرَّةُ الغَوَّاصِ فِي تَمْيِيزِهِ مَا إِنْ هُمَا مِثْلَانِ

قَوْلُهُ: «وَكَذَا الزُّجَاجُ وَدُرَّةُ الغَوَّاصِ فِي تَمْيِيزِهِ» أَيُّهما أحسنُ: الزُّجاجُ المصنوعُ من الخزفِ أو دُرَّةُ الغوَّاصِ؟

الجوابُ: الثَّاني، فَيُمَيِّزُ بين الزُّجاجةِ وبين الدُّرَّةِ.

قَوْلُهُ: «مَا إِنْ هُمَا مِثْلَانِ» «إِنْ» هنا زائدةٌ؛ والتَّقديرِ: «مَا هُمَا مِثْلَانِ»، وابنُ مالكٍ -رحمه اللهُ- يقولُ:

إِعْمَالَ لَيْسَ أُعْمِلَتْ «مَا» دُوْنَ «إِنْ» مَعْ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ[٢]

هنا هل تعملُ أو لا تعملُ؟

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب المشي إلى الصلاة، رقم (٧٧٨).

(٢) انظر: شرح ابن عقيل (١/ ٣٠١).

الجوابُ: لا تعملُ؛ لأنَّ فيها «إِنْ»، فهو كقولِ الشَّاعرِ:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمُ ذَهَـبٌ … وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الـخَزَف[1]

وهذه القصيدةُ جديرةٌ بأن يُغاليَ فيها الإنسانُ ويتفهَّمَها؛ لأنَّها عَذْبةُ المنطقِ، مملوءةُ المعاني، وفيها أشياءُ لا تجدُها في غيرِها.

* * *

(١) البيت في خزانة الأدب (٤/ ١١٩) بلا نسبة.

فصـــل

في تَوَجُّهِ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَى رَبِّ العَالَمِينَ أَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ وكِتَابَهُ ورَسُولَهُ وَعِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ

٥٧٩٤- هَـذَا وَنَصْـرُ الـدِّينِ فَـرْضٌ لازِمٌ ... لا لِلكِفَايَـةِ بَـلْ عَـلَى الأَعْيَـانِ

٥٧٩٥- بِيَـدٍ وَإِمَّـا بِاللِّسَـانِ فَـإِنْ عَجَـزْ ... تَ فَبِالتَّوَجُّـهِ وَالـدُّعَا بِجَنَـانِ

٥٧٩٦- مَـا بَعْـدَ ذَا وَاللهِ لِلإِيـمَانِ حَبْـ ... ـبَةُ خَـرْدَلٍ يَـا نَـاصِرَ الإِيـمَانِ

٥٧٩٧- بِحَيَاةِ وَجْهِـكَ خَـيْرُ مَسْـؤُولٍ بِـهِ ... وَبِنُورِ وَجْهِكَ يَا عَظِيمَ الشَّانِ

٥٧٩٨- وَبِحَـقِّ نِعْمَتِـكَ الَّتِـي أَوْلَيْتَهَـا ... مِـنْ غَـيْرِ مَـا عِـوَضٍ وَلا أَثْـمَانِ

٥٧٩٩- وَبِحَقِّ رَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِـعَتْ جَمِيـ ... ـعَ الـخَلْقِ مُحْسِنَهُمْ كَذَاكَ الـجَانِي

٥٨٠٠- وَبِحَقِّ أَسْمَاءٍ لَـكَ الـحُسْنَى مَعًا ... نِيهَـا نُعُـوتُ الـمَدْحِ لِلـرَّحْمَنِ

٥٨٠١- وَبِحَقِّ حَمْدِكَ وَهْوَ حَمْدٌ وَاسِعُ الـ ... أَكْوَانِ بَلْ أَضْعَافُ ذِي الأَكْوَانِ

٥٨٠٢- وَبِأَنَّـكَ اللهُ الإِلَـهُ الـحَقُّ مَعْـ ... ـبُودُ الـوَرَى مُتَقَـدِّسٌ عَـنْ ثَـانِ

٥٨٠٣- بَـلْ كُـلُّ مَعْبُـودٍ سِـوَاكَ فَبَاطِـلٌ ... مِنْ دُونِ عَرْشِكَ لِلثَّرَى التَّحْتَانِي

٥٨٠٤- وَبِكَ المَعَـاذُ وَلا مَـلاذَ سِـوَاكَ أَنْـ ... ـتَ غِيَـاثُ كُـلِّ مُلَـدَّدٍ لَـهْفَانِ

٥٨٠٥- مَـنْ ذَاكَ لِلمُضْـطَرِّ يَسْـمَعُهُ سِـوَا ... كَ يُجِيـبُ دَعْوَتَـهُ مَـعَ العِصْـيَانِ

٥٨٠٦- إِنَّا تَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ لِحَاجَةٍ ... تُرْضِيكَ طَالِبُهَا أَحَقُّ مُعَانِ

٥٨٠٧- فَاجْعَلْ قَضَاهَا بَعْضَ أَنْعُمِكَ الَّتِي ... سَبَغَتْ عَلَيْنَا مِنْكَ كُلَّ زَمَانِ

٥٨٠٨- انْصُرْ كِتَابَكَ وَالرَّسُولَ وَدِينَكَ الْـ ... ـعَالِي الَّذِي أَنْزَلْتَ بِالبُرْهَانِ

٥٨٠٩- وَاخْتَرْتَهُ دِينًا لِنَفْسِكَ وَاصْطَفَيْـ ... ـتَ مُقِيمَهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ

٥٨١٠- وَرَضِيتَهُ دِينًا لِمَنْ تَرْضَاهُ مِنْ ... هَذَا الوَرَى هُوَ قَيِّمُ الأَدْيَانِ

٥٨١١- وَأَقِرَّ عَيْنَ رَسُولِكَ المَبْعُوثِ بِالـدْ ... دِينِ الحَنِيفِ بِنَصْرِهِ المُتَدَانِي

٥٨١٢- وَانْصُرْهُ بِالنَّصْرِ العَزِيزِ كَمِثْلِ مَا ... قَدْ كُنْتَ تَنْصُرُهُ بِكُلِّ زَمَانِ

الشرحُ

قَوْلُهُ: «فَصْلٌ في تَوَجُّهِ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَى رَبِّ العَالَمِينَ أَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ وَكِتَابَهُ وَرَسُولَهُ وَعِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ» التَّوجُّه: صرفُ الوجهِ إلى الشَّيءِ؛ والمعنى: أنَّ أهلَ السُّنَّةِ يتوجَّهون إلى الله عزَّ وجلَّ بما تَضَمَّنَهُ هذا الفصلُ، قال المؤلِّفُ:

٥٧٩٤- هَذَا وَنَصْرُ الدِّينِ فَرْضٌ لازِمٌ ... لا لِلكِفَايَةِ بَلْ عَلَى الأَعْيَانِ

يعني: يجبُ على كُلِّ واحدٍ من المسلمين أن ينصرَ دينَ الله بالقولِ وبالفعلِ وبكُلِّ ما يستطيعُ، ينصرُ الدِّينَ في نفسِه وفي أهلِه وفي قومِه وفي سائرِ المسلمين، ونصرُ الدِّينِ بالدِّفاعِ عنه والدَّعوةِ إليه، والغَيْرَةِ عليه والجهادِ دونه بِقَدْرِ ما يستطيعُ الإنسانُ من قوَّةٍ حسب ما وجَّهه اللهُ تعالى إليه من الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، والجدالِ بالتي هي أحسن، وإذا نَصَرْتَ دينَ الله نَصَرَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

٥٧٩٥- بِيَـدٍ وَإِمَّـا بِاللِّسَـانِ فَـإِنْ عَجَـزْ ت فَبِالتَّوَجُّـهِ وَالـدُّعَا بِحَنَـانِ

يعني: تنصرُه بيدِك أو بلسانِك أو بالدُّعاءِ، وهذه المراتبُ الثَّلاثُ هي التي قال فيها رسولُ الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ»(١)، والإنكارُ بالقلبِ لا يكفي أن يكونَ الإنسانُ كارهًا للمُنْكَرِ، بل لابُدَّ مع ذلك من مفارقةِ أهلِ المُنْكَرِ، فَمَنْ جَلَسَ معهم وهو يقولُ: «إنِّي مُنْكِرٌ بقلبي» فهو كاذبٌ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النِّساء:١٤٠]، فعليك أن تقومَ، أمَّا إنْ أُكْرِهْتَ على البقاءِ وهُدِّدتَ إذا خَرَجْتَ فهذا يكونُ الإنسانُ معذورًا فيه عند الله؛ لأنَّه مُكْرَهٌ على هذا الشَّيءِ.

٥٧٩٦- مَـا بَعْـدَ ذَا وَاللهِ لِلإِيـمَانِ حَبْـ ـبَةُ خَـرْدَلٍ يَـا نَـاصِرَ الإِيـمَانِ

يعني: الإنكارُ بالقلبِ والتَّوجُّهُ إلى الله بالدُّعاءِ ما بعده شيءٌ.

ثم بدأ المؤلِّفُ -رحمه اللهُ- يتوسَّلُ إلى الله عزَّ وجلَّ بما ذَكَرَ لدعائِه من الصِّفاتِ العظيمةِ فقال:

٥٧٩٧- بِحَيَاةِ وَجْهِـكَ خَـيْرُ مَسْـؤُولٍ بِـهِ وَبِنُورِ وَجْهِـكَ يَـا عَظِـيمَ الشَّـانِ

قَوْلُهُ: «بِحَيَاةِ وَجْهِكَ خَيْرِ مَسْؤُولٍ بِهِ» حياةُ وجهِ الله عزَّ وجلَّ يجوزُ التَّوسُّلُ بها؛ لأنَّها من صفاتِه؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن:٢٧]، والتَّوسُّلُ إلى الله بصفاتِه جائزٌ، وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، رقم (٤٩).

الغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي»[١]، فقال: «بِعِلْمِكَ الغَيْبَ» و«وعلم» هنا: صفةٌ، فالمؤلِّفُ -رحمه الله- سأل اللهَ بحياةِ الوجهِ؛ أي: ببقائِه.

قَوْلُهُ: «وَبِنُورِ وَجْهِكَ يَا عَظِيمَ الشَّانِ» ونورُ وجهِه نورٌ عظيمٌ، قال النَّبِيُّ ﷺ: «حِجَابُهُ -أي: الرَّبِّ- النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ -أي: بهاؤه وعظمتُه ونورُه- مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[٢]، وبصرُه ينتهي إلى كُلِّ شيءٍ؛ يعني: لأَحْرَقَتْ كُلَّ شيءٍ، ولكنَّه عزَّ وجلَّ احْتَجَبَ عن خَلْقِه بحجبٍ عظيمةٍ من النُّورِ، ولهذا لـمَّا قِيلَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»[٣]؛ يعني: أنَّه حال بيني وبينه أنوارٌ عظيمةٌ.

٥٧٩٨- وَبِحَقِّ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَوْلَيْتَهَا مِنْ غَيْرِ مَا عِوَضٍ وَلا أَثْمَانِ

حقُّ النِّعمةِ هو الشُّكرُ، والشُّكرُ عملٌ صالحٌ، والأعمالُ الصَّالحةُ يجوزُ للإنسانِ أن يتوسَّلَ بها، وقد قَصَّ علينا النَّبِيُّ ﷺ قصَّةَ رجالٍ ثلاثةٍ وقعوا في هلكةٍ وتوسَّلوا إلى الله بصالحِ أعمالِهم، وهم الذي انطبق عليهم الغارُ، فتَوَسَّلَ أحدُهم إلى الله بالبِرِّ العظيمِ التَّامِّ، والثَّاني بالعفَّةِ التَّامَّةِ، والثَّالثُ بالوفاءِ التَّامِّ، توسَّلوا إلى الله حتَّى أزاحَ اللهُ عنهم هذه الصَّخرةَ[٤]، فالتَّوسُّلُ إلى الله بالعملِ الصَّالحِ جائزٌ.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٢٦٥، رقم ١٨٣٢٥). والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، رقم (١٣٠٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «**إن الله لا ينام**»، وفي قوله: «**حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره مِن خلقه**»، رقم (١٧٩).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «**نور أنى أراه**»، رقم (١٧٨).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٦٥). ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم (٢٧٤٣).

والشُّكرُ دينٌ وعبادةٌ أيضًا، والتَّوسُّلُ بالدِّين والعبادةِ جائزٌ؛ كما قال تعالى في صفاتِ مَنْ وَصَفَهم بأنهَّم ذوو ألبابٍ، قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩١]، إلى أن قال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران:١٩٣].

٥٧٩٩- وَبِحَقِّ رَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ جَمِيـ ـعَ الـخَلْقِ مُحْسِنَهُمْ كَذَاكَ الـجَانِي

يعني: رحمتُه وَسِعَت المُحْسِنَ من الخلقِ والجاني، وهذه الرَّحمةُ العامَّةُ فإنَّها وَسِعَتْ كُلَّ الخلقِ، حتَّى الكُفَّارَ مرحومين برحمةِ الله، ولولا رحمةُ الله ما نَزَلَ عليهم الغيثُ، ولا نَبعَ لهم الماءُ، ولا أَثْمَرَتْ لهم الأشجارُ، ولكنَّ اللهَ تعالى رَحِمَهم رحمةً بَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ مَغبَّتَـها، فقـال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣]، لكنَّ الرَّحمةَ الخاصَّةَ خاصَّةٌ بالذين يتَّقون كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

٥٨٠٠- وَبِحَقِّ أَسْمَاءٍ لَـكَ الـحُسْنَى مَعًـا نِيهَـا نُعُـوتُ الـمَدْحِ لِلـرَّحْمَنِ

قَوْلُهُ: «وَبِحَقِّ أَسْمَاءٍ لَكَ الحُسْنَى» أسماءُ الله الحُسْنَى يُتَوَسَّلُ بها إلى الله عزَّ وجلَّ كما في الحديثِ: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي»(١)، هذا توسُّلٌ إلى الله بأسمائِه.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٢، رقم ٤٣١٨).

وأسماءُ الله تعالى كما وَصَفَهَا عزَّ وجلَّ حُسْنَى؛ أي: مشتملةٌ على أحسنِ المعاني والأوصافِ؛ فمثلًا: «**القديرُ**» من أسمائِه، متضمِّنٌ لقدرةٍ هي أكملُ قدرةٍ، لا يعتريها العجزُ بوجهٍ من الوجوه.

وكذلك أيضًا «**العليمُ**» من أسمائِه متضمِّنٌ للعلمِ الذي هو أعلى أنواعِ العلومِ شمولًا وعُمْقًا، وغير ذلك ممَّا يقتضيه العلمُ الكاملُ.

قَوْلُهُ: «**مَعَانِيهَا نُعُوتُ المَدْحِ لِلرَّحْمَنِ**»؛ يعني: هذه الأسماءُ معانيها نعوتٌ، وهذا فيه الرَّدُّ على المعتزلةِ الذين يقولون: إنَّ أسماءَ الله مجرَّدُ أعلامٍ لا تحملُ معانيَ، فـ«**عليمٌ، سميعٌ، بصيرٌ**» معناه: المسمَّى بهذا الاسمِ فقط، لا مُتَّصفٌ بصفةِ السَّمعِ والعلمِ والبصرِ، وما أشبه ذلك، فيقولون: إنَّ اسماءَ الله أعلامٌ فقط، أمَّا نحن فنقولُ: إنَّ أسماءَ الله أعلامٌ وأوصافٌ، وهي باعتبار دلالتِها على الذَّاتِ مترادفةٌ، وباعتبارِ دلالةِ كُلِّ اسمٍ منها على معناه متباينةٌ، فاللهُ، والرَّحمنُ، والرَّحيمُ، والسَّميعُ، والبصير، تدلُّ على ذاتٍ واحدةٍ، إِذَنْ هي بهذا المعنى مترادفةٌ، لكن اسمُ «**الله**» يدلُّ على الألوهيَّةِ، و«**الرَّحمن**» على الرَّحمةِ، و«**الرَّحيم**» على فعلٍ، و«**السَّميع**» على السَّمعِ، و«**البصيرِ**» على البصرِ، فهي من حيث هذا المعنى تكونُ متباينةً، كُلُّ اسمٍ منها له معنى غير معنى الاسمِ الآخرِ.

٥٨٠١- وَبِحَقِّ حَمْدِكَ وَهْوَ حَمْدٌ وَاسِعُ الـ أَكْوَانِ بَلْ أَضْعَافُ ذِي الأَكْوَانِ

قَوْلُهُ: «**بِحَقِّ حَمْدِكَ**» إن كان المرادُ بحمدِه حمدَ النَّاسِ إيَّاه فإنَّ حمدَهم إيَّاه من الأعمالِ الصَّالحةِ، ويكونُ هذا من بابِ التَّوسُّلِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، وإن كان المرادُ بالحمدِ مَنْ يستحقُّ الحمدَ فهذا من بابِ التَّوسُّلِ بصفاتِ الله عزَّ وجلَّ، فـ«**حَمْدِكَ**» الآنَ مصدرٌ مضافٌ إمَّا للفاعلِ وإمَّا للمفعولِ، فاللهُ -سبحانه- حامدٌ ومحمودٌ.

وحمدُ الله تعالى: «مِلْءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»[1].

٥٨٠٢- وَبِأَنَّكَ اللهُ الإِلَـهُ الـحَقُّ مَعْـ ... ـبُودُ الـوَرَى مُتَقَدِّسٌ عَنْ ثَانِ

هذا توسُّلٌ إلى الله بصفاتِه، وهو تفرُّدُه بالألوهيَّةِ؛ ولذا قال: «وَبِأَنَّكَ»؛ يعني: وأسألُك بأنَّك اللهُ، فإنَّ اللهَ تعالى متفرِّدٌ بالألوهيَّةِ مَعْبُودُ الوَرَى مُتَقَدِّسٌ عَنْ ثَانٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

٥٨٠٣- بَـلْ كُـلُّ مَعْبُـودٍ سِـوَاكَ فَبَاطِـلٌ ... مِنْ دُونِ عَرْشِكَ لِلثَّرَى التَّحْتَانِي

كُلُّ معبودٍ من العرشِ إلى أسفلِ الثَّرى سوى الله فهو باطلٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

٥٨٠٤- وَبِكَ المَعَـاذُ وَلا مَـلاذَ سِـوَاكَ أَنْـ ... ـتَ غِيَـاثُ كُـلِّ مُلَـدَّدٍ لَـهْفَانِ

قَوْلُهُ: «وَبِكَ المَعَاذُ»؛ يعني: لا نستعيذُ بغيرِك؛ والمرادُ: فيما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللهُ، وأمَّا ما يَقْدِرُ عليه البشرُ فإنَّه يصحُّ أن يُسْتَعَاذَ بالإنسانِ؛ أي: بالبشرِ منه، لكن ما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللهُ لا يمكنُ أن يُسْتَعَاذَ بأحدٍ سواه؛ وعلى هذا فَمَن استعاذَ بميِّتٍ فهو مشركٌ؛ لأنَّ الميِّتَ لا يقدرُ أن يُعِيذَ أحدًا؛ إذ كيف يعيذُه وهو بنفسِه ميِّتٌ؟!

وَقَوْلُهُ: «بِكَ المَعَاذُ وَلَا مَلَاذَ سِوَاكَ» قدَّمَ الخبرَ لإفادةِ الحصرِ، والمَعَاذُ؛ يعني: العياذَ، فهو مصدرٌ ميميٌّ؛ يعني أنَّنا لا نعوذُ إلَّا بك، ولا نلوذُ إلَّا بك، قال أهلُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٢٨٤٥)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، رقم (٢٤٩٤).

العلمِ: والفرقُ بين العياذِ واللِّياذِ: أنَّ العياذَ مِمَّا يُخَافُ، واللِّيَاذَ مِمَّا يُرْجَى؛ يعني: إذا كنت ترجو شيئًا فقل: «لُذْتُ بفلانٍ حتَّى تَحَقَّقَ لي ما أرجوه»، وإذا كنت تخشى من شيءٍ فقل: «عُذْتُ به حتَّى يُنْجِيَكَ مِمَّا تكْرهُ»؛ وعلى هذا قال أحدُ الشُّعراءِ يمدحُ ممدوحًا له يقولُ:

يَـا مَـنْ أَلُـوذُ بِـهِ فِـيمَا أُؤَمِّلُـهُ ... وَمَـنْ أَعُـوذُ بِـهِ مِـمَّا أُحَـاذِرُهُ
لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ(١)

وهذا الوصفُ لا يستحقُّه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ.

المهمُّ أنَّه قال: «يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ، وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ فِيمَا أُحَاذِرُهُ».

قَوْلُهُ: «أَنْتَ غِيَاثُ»؛ يعني: أنت الذي تُغِيثُ، والغَوْثُ: إزالةُ الشِّدَّةِ؛ ومنه دعاؤنا: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا»؛ أي: أزل شِدَّتَنا.

٥٨٠٥- مَـنْ ذَاكَ لِلْمُضْـطَرِّ يَسْـمَعُهُ سِـوَا ... كَ يُجِيـبُ دَعْوَتَـهُ مَـعَ العِصْـيَانِ

قَوْلُهُ: «لِلْمُضْطَرِّ» المضطرُّ؛ يعني: الذي ألجأته الضَّرورةُ إلى دعاءِ اللهِ.

فإنَّ اللهَ تعالى يجيبُ دعاءَه ولو كان عاصيًا، قال اللهُ تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، وهذا عامٌّ، حتَّى العاصي يُجِيبُ اللهُ دعوتَه؛ لأنَّ ضرورتَه جَعَلَتْهُ يَصْدُقُ في اللُّجوءِ إلى الله فَأَجَابَ اللهُ دعوتَه، وانظُر إلى المشركين إذا غَشِيَهم موجٌ كالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مخلصينَ له الدِّينَ فلمَّا نجَّاهم إلى البَرِّ أشركوا، وهو -سبحانه وتعالى- يعلمُ أنَّهم سيُشركون، يُجيبُهم وهو عالمٌ أنَّهم سيشركون،

---

(١) البيتان للمتنبي، كما في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، للراغب الأصفهاني (٢/ ١٦٣).

لكن لماذا؟ لضرورتِهم وصدقِ لجوئهم في تلك الحالِ، يُجيبُهم عزَّ وجلَّ لأنَّه أكرمُ الأكرمين، وأرحمُ الرَّاحمين، فيجيبُهم مع علمِه بعصيانِهم، ومع علمِه أنَّهم سيرجعون إلى شركِهم إذا نَجَوْا.

٥٨٠٦- إِنَّا تَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ لِحَاجَةٍ تُرْضِيكَ طَالِبُهَا أَحَقُّ مُعَانِ

يعني: أنَّنا تَوَجَّهْنَا إليك بهذه الأشياءِ التي توسَّلْنَا بها لحاجةٍ تُرْضِيكَ ولا تُغْضِبُكَ، وطالبُ هذه الحاجةِ أحقُّ مَنْ يُعَانُ، ثُمَّ بدأ المؤلِّفُ بما يدعو به فقال:

٥٨٠٧- فَاجْعَلْ قَضَاهَا بَعْضَ أَنْعُمِكَ الَّتِي سَبَغَتْ عَلَيْنَا مِنْكَ كُلَّ زَمَانِ

يعني: اجعل قضاءَ هذه الحاجةِ بعضَ أَنْعُمِكَ التي سَبَغَتْ عَلَيْنَا؛ أي: تَمَّتْ وشملت، وإنَّما قال: «بَعْضَ أَنْعُمِكَ»؛ لأنَّ نعمةَ الله لا تُحْصَى، لكن ما هذه الحاجةُ؟ قال:

٥٨٠٨- انْصُرْ كِتَابَكَ وَالرَّسُولَ وَدِينَكَ الـ ـعَالِي الَّذِي أَنْزَلْتَ بِالبُرْهَانِ

قَوْلُهُ: «انْصُرْ كِتَابَكَ»، فإن قال قائلٌ: هل يصحُّ أن يقولَ: «انْصُرْ نَفْسَكَ يَا رَبِّ»؛ لقولِ الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج:٤٠]؟ فالجوابُ: لا، بهذا اللَّفظِ لا؛ لأنَّ المرادَ بنصرِ الله نصرُ الدِّينِ الذي ارتضاه والكتابِ الذي أنزله؛ ولهذا عَدَلَ ابنُ القيِّمِ عن قولِه: «انْصُرْ نَفْسَكَ».

قَوْلُهُ: «وَدِينَكَ العَالِي»؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ لماذا؟ قال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصَّف:٩].

قَوْلُهُ: «أَنْزَلْتَ بِالبُرْهَانِ» «البُرْهَانُ»؛ أي: الدَّليلُ، فإنَّ آياتِ النَّبِيِّ -صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم- كُلَّها تدلُّ على أنَّ القرآنَ حقٌّ، وأنَّ الدِّينَ حقٌّ.

هذه الحاجةُ التي لنا، وهذه يجبُ أن تكونَ حاجةً لكُلِّ مسلمٍ أن ينصرَ اللهَ تعالى، وأن ينصرَ كتابَه ورسولَه ودينَه الَّذِي أَنْزَلْتَ بِالبُرْهَانِ.

٥٨٠٩- وَاخْتَرْتَهُ دِينًا لِنَفْسِكَ وَاصْطَفَيْـ ـتَ مُقِيمَهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ

قَوْلُهُ: «وَاخْتَرْتَهُ دِينًا لِنَفْسِكَ»؛ يعني: وَاخْتَرْتَ الإسلامَ دينًا لنفسِك يدينُ به عبادُك لك؛ وذلك كما في قولِه تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

قَوْلُهُ: «وَاصْطَفَيْتَ مُقِيمَهُ مِنْ أُمَّةِ الإِنْسَانِ»، «اصْطَفَيْتَ مُقِيمَهُ»؛ يعني: مقيمَ هذا الدِّينِ، فمقيمُ الدِّينِ مُصْطَفًى لله عزَّ وجلَّ من بين سائرِ الإنسانِ، وأقومُهم بدينِ الله هو أعظمُهم اصطفاءً، قال اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]، فمقيمُ هذا الدِّينِ هو الرَّسولُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وأُمَّتُه، فإنَّ اللهَ تعالى اصطفاهم على كُلِّ الخَلْقِ، وهذه الأُمَّةُ هي الوسطُ من جميعِ الأممِ، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣]؛ أي: عُدولًا خيارًا من جميعِ الأممِ.

٥٨١٠- وَرَضِيتُهُ دِينًا لِـمَنْ تَرْضَاهُ مِنْ هَـذَا الـوَرَى هُـوَ قَـيِّمُ الأَدْيَانِ

قَوْلُهُ: «رَضِيتَهُ دِينًا لِـمَنْ تَرْضَاهُ مِنْ هَذَا الوَرَى»، قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وكُلُّ إنسانٍ وَفَّقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ للدِّينِ الإسلاميِّ فهو دليلٌ على أنَّ اللهَ قد اختاره.

قَوْلُهُ: «هُوَ قَيِّمُ الأَدْيَانِ» ولا شكَّ أنَّ أقومَ الأديانِ بمصالحِ العبادِ هو الإسلامُ؛ ولهذا اختاره اللهُ عزَّ وجلَّ أن يكونَ دينًا للعبادِ منذ بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ إلى

قيامِ السَّاعةِ، فلولا أنَّه صالحٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ لكان اللهُ -تباركَ وتعالى- يُحْدِثُ بعد محمَّدٍ رسولًا؛ لأنَّ الأزمانَ تتغيَّرُ والأماكنَ تتغيَّرُ، والأُمَمَ تتغيَّرُ، ولكن يجبُ أن نعلمَ أنَّ معنى قولِنا: «**صالحٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ**» أنَّ تطبيقَه صالحٌ للزَّمانِ والمكانِ، وليس المعنى أنَّه خاضعٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ كما يريدُ بعضُ النَّاسِ، فبعضُ النَّاسِ يقولُ: «**صالحٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ**»؛ يعني مثلًا: يَتْبَعُ حاجةَ النَّاسِ، وهذا غلطٌ؛ بل المعنى: أنَّ إقامتَه صالحةٌ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، وبين المعنيين فَرْقٌ؛ لأنَّه على القولِ الأوَّلِ يكونُ الدِّينُ ليس له ضوابطُ، بل رُبَّما يكونُ دينًا في بقعةٍ، وسواه دينًا في بقعةٍ أخرى، أو في زمانٍ دون زمانٍ.

٥٨١١- وَأَقِرَّ عَيْنَ رَسُولِكَ الـمَبْعُوثِ بِالـدْ دِينِ الـحَنِيفِ بِنَصْـرِهِ الـمُتَدَانِي

قَوْلُهُ: «**المُتَدَانِي**»؛ أي: القريب.

قَوْلُهُ: «**أَقِرَّ عَيْنَ رَسُولِكَ**» كيف قال: «**أَقِرَّ عَيْنَ رَسُولِكَ بِنَصْرِهِ المُتَدَانِي**» مع أنَّ الرَّسولَ ﷺ ميِّتٌ؟ الجوابُ عن هذا أن نقولَ: إنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- تُعْرَضُ عليه أعمالُ أُمَّتِه، فإذا عُرِضَ عليه النَّصرُ فلا شكَّ أنَّ عينَه -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه- ستقرُّ بذلك؛ لأنَّه يَرْضَى بما يرضاه اللهُ، ولا يَرْضَى بما لا يرضاه اللهُ، هذا توجيهُ كلامِ ابنِ القيِّمِ رحمه اللهُ.

٥٨١٢- وَانْصُرْهُ بِالنَّصْرِ العَزِيزِ كَمِثْلِ مَا قَـدْ كُنْـتَ تَنْصُـرُهُ بِكُـلِّ زَمَـانِ

أي: انصر الدِّينَ الحنيفَ بالنَّصرِ العزيزِ «**كَمِثْلِ مَا قَدْ كُنْتَ تَنْصُرُهُ بِكُلِّ زَمَانِ**».

إِذَنْ انتصارُ الفرقةِ الإسلاميَّةِ في أيِّ مكانٍ أو زمانٍ هو نصرٌ للرَّسولِ ﷺ؛ لأنَّ النَّصرَ لأتباعِه شهادةٌ بأنَّ دينَه حقٌّ، ومِنْ ثَمَّ قال العلماءُ رحمهم اللهُ: «**إنَّ كَراماتِ الأولياءِ آياتٌ لمتبوعيهم**»، فإذا حَصَلَ كراماتٌ لهذه الأُمَّةِ فهي في الحقيقةِ

آياتٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم؛ لأنَّها شَهادةٌ من الله على أنَّ ما حصلت له هذه الكرامةُ على حقٍّ.

***

٥٨١٣- يَا رَبِّ وَانْصُرْ خَيْرَ حِزْبَيْنَا عَلَى ... حِزْبِ الضَّلالِ وَعَسْكَرِ الشَّيْطَانِ

٥٨١٤- يَا رَبِّ وَاجْعَلْ شَرَّ حِزْبَيْنَا فِدَى ... لِخِيَارِهِمْ وَلِعَسْكَرِ القُرْآنِ

٥٨١٥- يَا رَبِّ وَاجْعَلْ حِزْبَكَ المَنْصُورَ أَهْـ ... ـلَ تَرَاحُمٍ وَتَوَاصُلٍ وَتَدَانِ

٥٨١٦- يَا رَبِّ وَاحْمِهِمُ مِنَ البِدَعِ الَّتِي ... قَدْ أُحْدِثَتْ فِي الدِّينِ كُلَّ زَمَانِ

٥٨١٧- يَا رَبِّ جَنِّبْهُمْ طَرَائِقَهَا الَّتِي ... تُفْضِي بِسَالِكِهَا إِلَى النِّيرَانِ

٥٨١٨- يَا رَبِّ وَاهْدِهِمُ بِنُورِ الوَحْيِ كَيْ ... يَصِلُوا إِلَيْكَ فَيَظْفَرُوا بِجِنَانِ

٥٨١٩- يَا رَبِّ كُنْ لَهُمُ وَلِيًّا نَاصِرًا ... وَاحْفَظْهُمُ مِنْ فِتْنَةِ الفَتَّانِ

٥٨٢٠- وَانْصُرْهُمُ يَا رَبِّ بِالحَقِّ الَّذِي ... أَنْزَلْتَهُ يَا مُنْزِلَ القُرْآنِ

٥٨٢١- يَا رَبِّ إِنَّهُمُ هُمُ الغُرَبَاءُ قَدْ ... لَجَؤُوا إِلَيْكَ وَأَنْتَ ذُو الإِحْسَانِ

٥٨٢٢- يَا رَبِّ قَدْ عَادُوا لأَجْلِكَ كُلَّ هَـ ... ـذَا الخَلْقِ إِلَّا صَادِقَ الإِيمَانِ

٥٨٢٣- قَدْ فَارَقُوهُمْ فِيكَ أَحْوَجَ مَا هُمُ ... دُنْيَا إِلَيْهِمْ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ

٥٨٢٤- وَرَضُوا وِلايَتَكَ الَّتِي مَنْ نَالَهَا ... نَالَ الأَمَانَ وَنَالَ كُلَّ أَمَانِ

٥٨٢٥- وَرَضُوا بِوَحْيِكَ مِنْ سِوَاهُ وَمَا ارْتَضَوا ... بِسِوَاهُ مِنْ آرَاءِ ذِي الهَذَيَانِ

٥٨٢٦- يَا رَبِّ ثَبِّتْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ وَاجْـ ... ـعَلْهُمْ هُدَاةَ التَّائِهِ الحَيْرَانِ

٥٨٢٧- وَانْصُرْ عَلَى حِزْبِ النُّفَاةِ عَسَاكِرَ الـ إِثْبَاتِ أَهْلَ الحَقِّ وَالعِرْفَانِ

٥٨٢٨- وَأَقِمْ لأَهْلِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الـ أَنْصَارِ وَانْصُرْهُمْ بِكُلِّ زَمَانِ

٥٨٢٩- وَاجْعَلْهُمُ لِلْمُتَّقِينَ أَئِمَّةً وَارْزُقْهُمُ صَبْرًا مَعَ الإِيقَانِ

٥٨٣٠- تَهْدِي بِأَمْرِكَ لا بِمَا قَدْ أَحْدَثُوا وَدَعَوْا إِلَيْهِ النَّاسَ بِالعُدْوَانِ

٥٨٣١- وَأَعِزَّهُمْ بِالحَقِّ وَانْصُرْهُمْ بِهِ نَصْرًا عَزِيزًا أَنْتَ ذُو السُّلْطَانِ

٥٨٣٢- وَاغْفِرْ ذُنُوبَهُمُ وَأَصْلِحْ شَأْنَهُمْ فَلأَنْتَ أَهْلُ العَفْوِ وَالغُفْرَانِ

٥٨٣٣- وَلَكَ المَحَامِدُ كُلُّهَا حَمْدًا كَمَا يُرْضِيكَ لا يَفْنَى عَلَى الأَزْمَانِ

٥٨٣٤- مِلْءَ السَّمَاوَاتِ العُلَى وَالأَرْضِ وَالـ مَوْجُودِ بَعْدُ وَمُنْتَهَى الإِمْكَانِ

٥٨٣٥- مِمَّا تَشَاءُ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ حَمْدًا بِغَيْرِ نِهَايَةٍ بِزَمَانِ

٥٨٣٦- وَعَلَى رَسُولِكَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالتْـ ـتَسْلِيمِ مِنْكَ وَأَكْمَلُ الرِّضْوَانِ

٥٨٣٧- وَعَلَى صَحَابَتِهِ جَمِيعًا وَالأُلَى تَبِعُوهُمُ مِنْ بَعْدُ بِالإِحْسَانِ

الشرحُ

٥٨١٣- يَا رَبِّ وَانْصُرْ خَيْرَ حِزْبَيْنَا عَلَى حِزْبِ الضَّلالِ وَعَسْكَرِ الشَّيْطَانِ

وهذا من عدلِ النَّاظمِ رحمه اللهُ؛ حيثُ قال: «**انْصُرْ خَيْرَ حِزْبَيْنَا عَلَى حِزْبِ الضَّلالِ**»، ولم يقل: «**انْصُرْنَا، أَوِ انْصُرْ حِزْبَنَا**»، ومن المعلومِ أنَّ اللهَ تعالى يعلمُ مَنْ هو خيرٌ من الحِزْبَيْنِ فينصرُه على الحزبِ الآخرِ الذي هو حزبُ الضَّلالِ، وهذا كقولِ زعيمِ قريشٍ حينما تقابل الصَّفَّان قال: «اللَّهُمَّ أَقْطَعَنَا الرَّحِمَ، وَآتَانَا بِمَا

لَا نَعْرِفُهُ، فَأَحْنِهِ الغَدَاةَ»(١)؛ يعني: أَهْلِكْهُ، ومعلومٌ أنَّ الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هو أوصلُهم للرَّحِمِ، وأقربُهم إلى الحقِّ، فابنُ القيِّمِ أخذ هذا المعنى وقال: «**يَا رَبِّ وَانْصُرْ خَيْرَ حِزْبَيْنَا عَلَى حِزْبِ الضَّلَالِ وَعَسْكَرِ الشَّيْطَانِ**»، وهذا من بابِ مُراعاةِ الخَصْمِ، ومن بابِ العدلِ.

٥٨١٤- يَا رَبِّ وَاجْعَلْ شَرَّ حِزْبَيْنَا فِدَى لِخِيَارِهِمْ وَلِعَسْكَرِ القُرْآنِ

وهذا عكسُ الأوَّلِ؛ بأن يَنْصُرَ خيرَ الحِزْبَيْنِ، ويجعلَ شرَّهما فِدًى للآخرِ، ولذا نحن نقولُ: آمينَ، ثُمَّ آمينَ.

٥٨١٥- يَا رَبِّ وَاجْعَلْ حِزْبَكَ المَنْصُورَ أَهْلَ تَرَاحُمٍ وَتَوَاصُلٍ وَتَدَانِ

لـمَّا سَأَلَ اللهَ لهم النَّصرَ سَأَلَ اللهَ أن يجعلَ ما بينهم على وجهِ الاستقامةِ؛ وذلك بأنْ يكونوا أهلَ تراحمٍ وتواصلٍ وتَدانٍ؛ أي: تقاربٍ؛ لأنَّه أحيانًا يحصلُ بين الحزبِ المنصورِ الذي على الحقِّ يحصلُ بينهم اختلافٌ وفرقةٌ، فدعا ابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- أن يجعلَ هذا الحزبَ المباركَ أهلَ تراحمٍ وتواصلٍ وَتَدَانٍ.

٥٨١٦- يَا رَبِّ وَاحْمِهِمُ مِنَ البِدَعِ الَّتِي قَدْ أُحْدِثَتْ فِي الدِّينِ كُلَّ زَمَانِ

قَوْلُهُ: «**أُحْدِثَتْ فِي الدِّينِ**»، أمَّا البدعُ التي أُحْدِثَتْ في الدُّنيا فقد تكونُ خيرًا، لكن البدعُ التي هي شرٌّ محضٌ هي البدعُ في الدِّينِ، ويدلُّ لهذا أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- لـمَّا حَثَّ على التَّمسُّكِ بسُنَّتِه قال: «**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣١، رقم ٢٤٠٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣، رقم ١٧١٤٤). وأبو داود: كتاب السُّنَّة، باب في لزوم السُّنَّة، رقم (٤٦٠٧).

٥٨١٧- يَـا رَبِّ جَنِّبْهُمْ طَرَائِقَهَـا الَّتِـي تُفْضِـي بِسَـالِكِهَا إِلَى النِّـيرَانِ

قَوْلُهُ: «جَنِّبْهُمْ طَرَائِقَهَا»؛ أي: طرائقَ البدعِ.

وهذا أخَذَه من قولِ النَّبيِّ ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»(١)، ولا شكَّ أنَّ صاحبَ البدعِ على خطرٍ؛ لأنَّه يكونُ -والعياذُ بالله- إمامًا في الشَّرِّ والمخالفةِ في الدِّينِ والابتداعِ فيه.

٥٨١٨- يَا رَبِّ وَاهْدِهِمْ بِنُورِ الوَحْيِ كَـيْ يَصِـلُوا إِلَيْـكَ فَيَظْفَـرُوا بِجِنَـانِ

٥٨١٩- يَـا رَبِّ كُـنْ لَـهُمْ وَلِيًّـا نَـاصِرًا وَاحْفَظْهُـمُ مِـنْ فِتْنَـةِ الفَتَّـانِ

٥٨٢٠- وَانْصُرْهُمُ يَـا رَبِّ بِالـحَقِّ الَّـذِي أَنْزَلْتَـهُ يَـا مُنْـزِلَ القُـرْآنِ

٥٨٢١- يَـا رَبِّ إِنَّهُـمْ هُـمُ الغُرَبَاءُ قَـدْ لَـجَؤُوا إِلَيْكَ وَأَنْتَ ذُو الإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «يَا رَبِّ إِنَّهُمْ هُمُ الغُرَبَاءُ قَدْ لَـجَأُوا إِلَيْكَ» هذا من بابِ التَّوسُّلِ بالحالِ، أن يتوسَّلَ الإنسانُ إلى الله بحالِه، والتَّوسُّلُ إلى الله بالحالِ جائزٌ، ومنه قولُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]، فإذا تَوَسَّلَ الإنسانُ بحالِه إلى الله فإنَّ هذه الحالَ سببٌ لعطفِ الله عزَّ وجلَّ عليه وعنايتِه به.

قَوْلُهُ: «هُمُ الغُرَبَاءُ»؛ يعني: بين أهلِ البدعِ، ولا شكَّ أنَّ أهلَ السُّنَّةِ -جعلنا اللهُ وإيَّاكم منهم- لا شكَّ أنَّهم غرباءُ بين أهلِ البدعِ، وأنَّ أهلَ البدعِ يرمونهم بكُلِّ لقبٍ سيِّءٍ، فابنُ القيِّمِ -رحمه اللهُ- يقولُ: «إِنَّهُمْ هُمُ الغُرَبَاءُ قَدْ لَـجَؤُوا إِلَيْكَ وَأَنْتَ ذُو الإِحْسَانِ»؛ يعني: فَأَحْسِنْ إليهم، واحْمِهِمْ من أعدائِهم.

---

(١) أخرجه النسائي: كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة، رقم (١٥٧٨).

٥٨٢٢- يَا رَبِّ قَدْ عَادُوا لأَجْلِكَ كُلَّ هَـ ـــذَا الـخَلْقِ إِلَّا صَادِقَ الإِيمَانِ

وهذا هو الواجبُ؛ أنَّ أهلَ السُّنَّةِ يُعَادُونَ جميعَ البشرِ إلَّا صادقَ الإيمانِ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾؛ أي: تجعلونها بين أيديهم ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١]، فكيف تحبُّون هؤلاء أو تُوَادُّونَهم وهم قد كفروا بما جاءكم من الحقِّ؟!

٥٨٢٣- قَدْ فَارَقُوهُمْ فِيكَ أَحْوَجَ مَا هُمُ دُنْيَا إِلَيْهِمْ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ

يعني: أنَّهم فارقوا أعداءَ الله مع أنَّهم محتاجون إليهم في أمورِ الدُّنيا، لكن من أجلِ رضا الله عَادَوْهم وفَارَقُوهُم.

٥٨٢٤- وَرَضُوا وِلايَتَكَ الَّتِي مَنْ نَالَهَا نَالَ الأَمَانَ وَنَالَ كُلَّ أَمَانِ

قَوْلُهُ: «نَالَ الأَمَانَ»، «الأَمَانُ» ضدُّ الخوفِ.

وَقَوْلُهُ: «وَنَالَ كُلَّ أَمَانِ»؛ أي: كُلَّ أمنيةٍ؛ أي: كُلَّ ما يتمنَّى، وليس قولُه: «كُلَّ أَمَانِ» الأمان الذي هو ضدُّ الخوفِ؛ لئلَّا يكونَ البيتُ مُكَرَّرًا.

٥٨٢٥- وَرَضُوا بِوَحْيِكَ مِنْ سِوَاهُ وَمَا ارْتَضَوا بِسِوَاهُ مِنْ آرَاءِ ذِي الهَذَيَانِ

يعني: صاروا يتحاكمون إلى الوحيِ لا إلى آراءِ الرِّجالِ.

٥٨٢٦- يَا رَبِّ ثَبِّتْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ وَاجْـ ـــعَلْهُمْ هُدَاةَ التَّائِهِ الحَيْرَانِ

٥٨٢٧- وَانْصُرْ عَلَى حِزْبِ النُّفَاةِ عَسَاكِرَ الـ إِثْبَاتِ أَهْلَ الحَقِّ وَالعِرْفَانِ

قَوْلُهُ: «حِزْبِ النُّفَاةِ» يُريدُ بهذا: نفاةَ الأسماءِ والصِّفاتِ، سواء نَفَوْا ذلك جحودًا وإنكارًا أم نَفَوْا ذلك تحريفًا؛ لأنَّ نفاةَ الصِّفاتِ بعضهم ينفيها إنكارًا

وجحدًا؛ كالذين يقولون: «**إنَّ أخبارَ الآحادِ لا تَثْبُتُ بها الصِّفاتُ**» هذا إنكارٌ، أو تحريفًا؛ إذا عَجَزُوا عن إنكارِها حرَّفوها وصَرَفُوها عن مرادِها، فكلامُه -رحمه اللهُ- يشملُ النَّوعين؛ أي: مَنْ نفاها إنكارًا وجحودًا، ومَنْ نفاها تحريفًا وتأويلًا كما يَدَّعِي.

٥٨٢٨- وَأَقِـمْ لأَهْـلِ السُّـنَّةِ النَّبَوِيَّـةِ الـ ... أَنْصَـارِ وَانْصُـرْهُمْ بِكُـلِّ زَمَـانِ

سأل اللهَ أن يُقِيمَ لأهلِ السُّنَّةِ الأنصارَ؛ ومنهم السَّلاطينُ والأمراءُ، فإنَّهم إذا كانوا أنصارًا لأهلِ السُّنَّةِ نفعوا أهلَ السُّنَّةِ، ولا يخفى على كثيرٍ منكم ما حصل للإمامِ أحمدَ في آخرِ الأمرِ، لـمَّا تولَّاه السُّلطانُ، وصار ناصرًا له انتصر الحقُّ، ولا يخفى أيضًا ما حصل من تولِّي الإمام محمَّد بن سعود -رحمه اللهُ- للإمامِ محمَّد ابن عبد الوهَّاب، فإنَّ اللهَ نصره حيث نصره الإمامُ.

٥٨٢٩- وَاجْعَلْهُـمُ لِلمُتَّقِـينَ أَئِمَّـةً ... وَارْزُقْهُـمُ صَـبْرًا مَـعَ الإِيقَـانِ

قَوْلُهُ: «**وَاجْعَلْهُمُ لِلْمُتَّقِينَ أَئِمَّةً**»، إمامةُ المتَّقين ليست بالسَّهْلةِ، إمامةُ المتَّقين تحتاجُ إلى عبادةٍ وعلمٍ وبصيرةٍ؛ حتَّى يكونَ إمامًا بقولِه وإمامًا بفعلِه.

قَوْلُهُ: «**وَارْزُقْهُمُ صَبْرًا مَعَ الإِيقَانِ**»؛ هذا مأخوذٌ من قولِ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجدة:٢٤]، ومن كلماتِ شيخِ الإسلامِ رحمه اللهُ: «**بالصَّبرِ واليقينِ تُنَالُ الإمامةُ في الدِّينِ**»[1].

٥٨٣٠- تَهْـدِي بِـأَمْرِكَ لا بِـمَا قَـدْ أَحْـدَثُوا ... وَدَعَـوْا إِلَيْـهِ النَّـاسَ بِالعُـدْوَانِ

قَوْلُهُ: «**تَهْدِي بِأَمْرِكَ لَا بِمَا قَدْ أَحْدَثُوا**»؛ مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا

---

(١) انظر: قاعدة في الصبر (ص:٩٤).

﴿مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ يعني: ويهدون النَّاسَ بأمرِنا؛ أي: بشرعِنا، وبأمرِنا الكونيِّ أيضًا ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السَّجدة:٢٤]، لا بِمَا قَدْ أَحْدَثُوا، والضَّميرُ يعودُ على النَّاسِ؛ أي: أَحْدَثَ النَّاسُ، وليس المرادُ أَحْدَثَ الأئمَّةُ؛ لأنَّ الأئمَّةَ في الدِّينِ لا يُحْدِثُونَ شيئًا في دينِ الله.

٥٨٣١- وَأَعِزَّهُمْ بِالحَقِّ وَانْصُرْهُمْ بِهِ ... نَصْرًا عَزِيزًا أَنْتَ ذُو السُّلْطَانِ

قَوْلُهُ: «أَعِزَّهُمْ بِالحَقِّ»؛ يعني: اجعل لهم الغلبةَ بالحقِّ.

قَوْلُهُ: «وَانْصُرْهُمْ بِهِ»؛ أي: وانْصُرْهم بالحقِّ نصرًا عزيزًا؛ وهذا مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣].

٥٨٣٢- وَاغْفِرْ ذُنُوبَهُمْ وَأَصْلِحْ شَأْنَهُمْ ... فَلأَنْتَ أَهْلُ العَفْوِ وَالغُفْرَانِ

قَوْلُهُ: «وَاغْفِرْ ذُنُوبَهُمْ وَأَصْلِحْ شَأْنَهُمْ...»؛ هذا مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧١- ٧٢].

وَقَوْلُهُ: «وَاغْفِرْ ذُنُوبَهُمْ وَأَصْلِحْ شَأْنَهُمْ»؛ وذلك بالتَّقوى، والقولِ السَّديدِ.

٥٨٣٣- وَلَكَ المَحَامِدُ كُلُّهَا حَمْدًا كَمَا ... يُرْضِيكَ لا يَفْنَى عَلَى الأَزْمَانِ

٥٨٣٤- مِلْءَ السَّمَاوَاتِ العُلَى وَالأَرْضِ وَالْـ ... ـمَوْجُودِ بَعْدُ وَمُنْتَهَى الإِمْكَانِ

٥٨٣٥- مِمَّا تَشَاءُ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ ... حَمْدًا بِغَيْرِ نِهَايَةٍ بِزَمَانِ

نعم، له المحامدُ كُلُّها، لا يَفْنَى أبدًا؛ وذلك مأخوذٌ من قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مِلْءَ السَّمَاوَاتِ، وَمِلْءَ الأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا، وَمِلْءَ مَا

شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»(١)، فهو يعمُّ الزَّمانَ والمكانَ.

٥٨٣٦- وَعَلَى رَسُولِكَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالتْـ ـتَسْلِيمِ مِنْكَ وَأَكْمَلُ الرِّضْوَانِ

٥٨٣٧- وَعَلَى صَحَابَتِهِ جَمِيعًا وَالأُلَى تَبِعُوهُمُ مِنْ بَعْدُ بِالإِحْسَانِ

قَوْلُهُ: «**وَعَلَى رَسُولِكَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَالتَّسْلِيم**» هذا مأخوذٌ من قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

قَوْلُهُ: «**وَأَكْمَلُ الرِّضْوَانِ وَعَلَى صَحَابَتِهِ جَمِيعًا**» الرِّضوانُ عليه وعلى صحابتِه؛ مأخوذٌ من قولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠]، ولا شَكَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُهاجِرٌ؛ إذَنْ يدخلُ في الرِّضوانِ.

قَوْلُهُ: «**وَالأُلَى تَبِعُوهُمُ مِنْ بَعْدُ بِالإِحْسَانِ**»؛ لقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾.

نسمعُ كثيرًا من بعضِ المتكلِّمين بالوعظِ والإرشادِ يقولُ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى محمَّدٍ وعلى آلِه وأصحابِه والتَّابعين**»، وهذا لا ينبغي؛ لأنَّه إطلاقٌ لما قيَّده اللهُ، لكن ماذا نقولُ؟

نقولُ: «**والتَّابعينَ لهم بإحسانٍ**» كما قيَّده اللهُ عزَّ وجلَّ، ولكن يُقالُ في العُذْرِ عن هؤلاء: إنَّك لو سألْتَهُمْ: هل تريدُ التَّابعين زمنًا أو التَّابعين عملًا بإحسانٍ؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، رقم (٢٨٤٥)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، رقم (٢٤٩٤).

لقال: أريدُ الثَّاني، إلَّا أنَّه ينبغي التَّصريحُ بالمرادِ، حتَّى لا ينالَ الإنسانَ شيءٌ من النَّقصِ.

والحقيقةُ: أنَّ هذه القصيدةَ قصيدةٌ رائعةٌ، ولا يُعَابُ عليها إلَّا أنَّ أفهامَنا قاصرةٌ دونها، كما أنَّه يكونُ فيها تَكْرَارٌ أحيانًا من أجلِ تثبيتِ المعاني، والتَّكرارُ من أجلِ التَّثبيتِ، ولأهميَّةِ الموضوعِ أمرٌ مألوفٌ حتَّى في القرآنِ الكريمِ من الأشياءِ المكرَّرةِ معانيها ما هو معلومٌ؛ بل في بعضِ الآياتِ تجدُ التَّكرارَ، بل تجدُ الآيةَ برُمَّتِها مكرَّرَةً؛ مثل قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التَّوبة:٧٣]، وكُلُّ هذا من أجلِ تثبيتِ الأمورِ المُهِمَّةِ في أذهانِ النَّاسِ.

وبذلك انْتَهَت القصيدةُ النُّونيَّةُ، وعَلَّقْنَا عليها بما فَتَحَ اللهُ به علينا، ونسألُ اللهَ أن ينفعَ به، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

***

تمَّ بحمْدِ الله وتَوفيقِهِ الْـمُجلَّدُ الرَّابعُ وَهُوَ الْأَخِيرُ

مِنْ شَرحِ الْكافِيةِ الشَّافيَةِ في الانْتِصارِ لِلْفِرقَةِ النَّاجيَةِ

وَالْـحَمْدُ لله الَّذي بِنعمَتِهِ تتِمُّ الصَّالِـحَاتُ

وَصَلَّى اللهُ وسَلَّمَ وَبارَكَ عَلى نبِيِّنا مُحَمَّدٍ، وَعَلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ

والتَّابِعِينَ لَـهُمْ بِإحسَانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ

***

أبياتٌ مختاراتٌ من النونية

بقلم فضيلة الشَّيخ الشَّارح رحمه الله تعالى

١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ابتدأنا قراءة النونية بعد العصر يوميا في الأسبوع من ٢٠ ذي الحجة ١٣٩١هـ نسأل الله أن ينفعنا بها. وهذه أبيات مختارات مما يمر بنا جعلناها فصولا

فصل في مذهب جهم في الصفات

جهم بن صفوان وشيعته الألى ... جحدوا صفات الخالق الديان

قالوا وليس لربنا سمع ولا ... بصر ولا وجه فكيف يدان

كلا ولا وصف يقوم به سوى ... ذات مجردة بغير معان

وحياته هي نفسه وكلامه ... هو غيره فاحبب لذا البهتان

وكلامه مذ كان غيرًا كان مخـ ... ـلوقا له من جملة الأكوان

فصل في مذهب جهم في أفعال العبد

والعبد عندهم فليس بفاعل ... بل فعله كتحرك الرجفان

والجبر مذهبه الذي قرت به ... عين العصاة وشيعة الشيطان

فلذاك قال بأن طاعات الورى ... وكذاك ما فعلوه من عصيان

هي عين فعل الرب لا أفعالهم ... فيصح عنهم عند ذا نفيان

نفي لقدرتهم عليها أولا ... وصدورها منهم بنفي ثان

فيقال ما صاموا ولا صلوا ولا ... زكوا ولا ذبحوا من القربان

إلا على وجه المجاز لأنها ... قامت بهم كالطعم والألوان

فصل في مذهب جهم في الإيمان

قالوا وإقرار العباد بأنه ... خلاقهم هو منتهى الإيمان

والناس في الإيمان شيء واحد ... كالمشط عند تماثل الأسنان

فصل في مذهب جهم في فعل الله

وقضى بأن الله كان معطلا ... والفعل ممتنع بلا إمكان

وحياة قلب المرء في شيئين من … يرزقهما يحيى مدى الأزمان

ذكر الإله وحبه من غير إشـ … ـراك به وهما ممتنعان

من صاحب التعطيل حقاً كامتنا … ع الطائر المقصوص من طيران

يا من تعز عليهم أرواحهم … ويرون غبناً بيعها بهوان

ويرون أن أمامهم يوم اللقا … ء مسألتان شاملتان

ماذا عبدتم ثم ماذا قد أجبـ … ـتم من أتى بالحق والبرهان ٦٠٢

هاتوا جواباً للسؤال وهيئوا … أيضاً صواباً للجواب يداني إلى ص

الصفحة الأخيرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أبيات مختارات من النونية

بقلم فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى

الحمد لله رب العالمين، ابتدأنا قراءة النونية بعد العصر، يوْمَيْن في الأسبوع، من ٢٠ ذي الحجة ١٣٩١هـ، نسألُ اللهَ أن ينفعنا بها، وهذه أبياتٌ مختارات مما يمر بنا، جعلناها فصولًا.

فَصْلٌ في مَذْهَبِ جَهْمٍ في الصِّفَاتِ

جَهْمُ بْنُ صَفْوَانٍ وَشِيْعَتُهُ الْأُولَى ... جَحَدُوا صِفَاتِ الْخَالِقِ الدَّيَّانِ

قَالُوا وَلَيْسَ لِرَبِّنَا سَمْع وَلَا ... بَصَرٌ وَلَا وَجْهٌ، فَكَيْفَ يَدَانِ

كَلَّا، وَلَا وَصْفٌ يَقُومُ بِهِ سِوَى ... ذَاتٍ مُجَرَّدَةٍ بِغَيْرِ مَعَانِ

وَحَيَاتُهُ هِيَ نَفْسُهُ، وَكَلَامُهُ ... هُوَ غَيْرُهُ فَاعْجَبْ لِهَذَا الْبُهْتَانِ

وكلامه مذ كان غيرًا كان مخـ ... ـلوقا له من جملة الأكوان

فَصْلٌ: في مَذْهَبِ جهْمٍ في أَفْعَالِ الْعَبْدِ

وَالْعَبْدُ عِنْدَهُمُ فَلَيْسَ بِفَاعِلٍ ... بَلْ فِعْلُهُ كَتَحَرُّكِ الرَّجَفَانِ

وَالْجَبْرُ مَذْهَبُهُ الَّذِي قَرَّتْ بِهِ ... عَيْنُ الْعُصَاةِ، وَشِيعَةُ الشَّيْطَانِ

فَلِذَاكَ قَالَ بِأَنَّ طَاعَاتِ الْوَرَى ... وَكَذَاكَ مَا فَعَلُوهُ مِنْ عِصْيَانِ

هِيَ عَيْنُ فِعْلِ الرَّبِّ لَا أَفْعَالُهُمْ ... فَيَصِحُّ عَنْهُمْ عِنْدَ ذَا نَفْيَانِ

نَفْيٌ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَيْهَا أَوَّلًا ... وَصُدُورُها عَنْهُمْ بِنَفْيٍ ثَانِ

فَيُقَالُ مَا صَامُوا وَلَا صَلَّوْا وَلَا ... زَكَّوْا وَلَا ذَبَحُوا مِنَ الْقُرْبَانِ

إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ؛ لِأَنَّهَا ... قَامَتْ بِهِمْ كَالطَّعْمِ وَالْأَلْوَانِ

فَصْلٌ: في مَذْهَبِ جَهْمٍ في الإِيمَانِ

قَالُوا: وَإِقْرَارُ الْعِبَادِ بِأَنَّهُ ... خَلَّاقُهُمْ هُوَ مُنْتَهَى الْإِيمَانِ

وَالنَّاسُ فِي الْإِيمَانِ شَيْءٌ وَاحِدٌ ... كَالْمُشْطِ عِنْدَ تَمَاثُلِ الْأَسْنَانِ

فَصْلٌ: في مَذْهَبِ جَهْمٍ في فِعْلِ الله

وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ كَانَ مُعَطَّلًا ... وَالْفِعْلُ مُمْتَنِعٌ بِلَا إِمْكَانِ

ثُمَّ اسْتَحَالَ وَصَارَ مَقْدُورًا لَهُ ... مِنْ غَيْرِ أَمْرٍ قَامَ بِالدَّيَّانِ

بَلْ حَالُهُ سُبْحَانَهُ فِي ذَاتِهِ ... قَبْلَ الْحُدُوثِ وَبَعْدَهُ سِيَّانِ

وَقَضَى بِأَنَّ اللهَ لَيْس بِفَاعِلٍ ... فِعْلًا يَقُومُ بِهِ بِلَا بُرْهَانِ

بَلْ فِعْلُهُ الْمَفْعُولُ خَارِجَ ذَاتِهِ ... كَالْوَصْفِ غَيْرُ الذَّاتِ فِي الْحُسْبَانِ

وَقَضَى بِأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ وَلَا ... جَنَّاتُ عَدْنٍ بَلْ هُمَا عَدَمَانِ

فَــإِذَا هُمَــا خُلِقَــا لِيَــوْمِ مَعَادِنَــا ... فَهُمَــا عَــلَى الْأَوْقَــاتِ فَانِيَتَــانِ

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ لَـمْ يُقِرَّ الْـجَهْمُ بِالْـ ... أَرْوَاحِ خَارِجَــةً عَــنِ الْأَبْــدَانِ

لَكِنَّهَــا مِــنْ بَعْــضِ أَعْــرَاضٍ بِهَــا ... قَامَــتْ، وَذَا فِي غَايَــةِ الْــبُطْلَانِ

وَقَضَــى عَــلَى أَسْــمَائِهِ بِحُــدُوثِهَا ... وَبِخَلْقِهَــا مِــنْ جُمْلَــةِ الْأَكْــوَانِ

فَـانْظُرْ إِلَى تَعْطِيلِـهِ الْأَوْصَـافِ وَالْـ ... أَفْعَــالِ وَالْأَسْــمَاءِ لِلــرَّحْمَنِ

وَلِــذَا تَقَسَّــمَتِ الطَّوَائِــفُ قَوْلَــهُ ... وَتَوَارَثُــوهُ إِرْثَ ذِي السُّــهْمَانِ

لَــمْ يَــنْجُ مِــنْ أَقْوَالِـهِ طُـرًّا سِـوَى ... أَهْــلُ الْــحَدِيثِ وَشِـيعَةِ الْقُــرْآنِ

فَصْلٌ: فِي مُقَدِّمَةٍ قَبْلَ التَّحْكِيمِ

يَــا أَيُّهَــا الرَّجُــلُ الْــمُرِيدُ نَجَاتَــهُ ... اسْــمَعْ مَقَالَــةَ نَاصِـحٍ مِعْــوَانِ

كُــنْ فِي أُمُــورِكَ كُلِّهَــا مُتَمَسِّــكًا ... بِــالْوَحْيِ لَا بِزَخَــارِفِ الْــهَذَيَانِ

وَانْصُــرْ كِتَــابَ اللهِ وَالسُّــنَنَ الَّتِــي ... جَــاءَتْ عَــنِ الْــمَبْعُوثِ بِــالْقُرْآنِ

وَاثْبُتْ بِصَـبْرِكَ تَحْتَ أَلْوِيَـةِ الْـهُدَى ... فَــإِذَا أُصِبْتَ فَفِـي رِضَـا الـرَّحْمَنِ

وَتَعَــرَّ مِــنْ ثَــوْبَيْنِ مَــنْ يَلْبَسْــهُمَا ... يَلْــقَ الــرَّدَى بِمَذَمَّــةٍ وَهَــوَانِ

ثَــوْبٌ مِنَ الْــجَهْلِ الْــمُرَكَّبِ فَوْقَـهُ ... ثَــوْبُ التَّعَصُّــبِ، بِئْسَــتِ الثَّوْبَــانِ

وَتَحَــلَّ بِالْإِنْصَــافِ أَفْخَــرِ حُلَّــةٍ ... زِينَــتْ بِهَــا الْأَعْطَــافُ وَالْكَتِفَــانِ

وَالْــحَقُّ مَنْصُــورٌ وَمُــمْتَحَنٌ، فَـلَا ... تَعْجَــبْ؛ فَهَــذِي سُــنَّةُ الــرَّحْمَنِ

وَبِـذَاكَ يَظْهَـرُ حِزْبُـهُ مِـنْ حَرْبِـهِ وَلِأَجْـلِ ذَاكَ النَّـاسُ طَائِفَتَـانِ
لَكِـنَّمَا الْعُقْبَـى لِأَهْـلِ الْـحَقِّ إِنْ فَاتَـتْ هُنَـا كَانَـتْ لَـدَى الـدَّيَّانِ
وَاجْعَـلْ لِقَلْبِـكَ هِجْـرَتَيْنِ، وَلَا تَـنَمْ فَهُـمَا عَـلَى كُـلِّ امْـرِئٍ فَرْضَـانِ
فَالْـهِجْرَةُ الْأُولَى إِلَى الـرَّحْمَنِ بِالْـ إِخْـلَاصِ فِي سِرٍّ، وَفِي إِعْـلَانِ
وَالْـهِجْرَةُ الْأُخْرَى إِلَى الْـمَبْعُوثِ بِالْـ ـحَقِّ الْـمُبِينِ وَوَاضِـحِ الْبُرْهَـانِ
وَشَـجَاعَةِ الْفُرْسَـانِ نَفْسُ الزُّهْـدِ فِي نَفْـسٍ، وَذَا مَحْـذُورُ كُـلِّ جَبَـانِ
وَشَـجَاعَةُ الْـحُكَّامِ وَالْعُلَـمَاءِ زُهْـ ـدٌ فِي الثَّنَـا مِـنْ كُـلِّ ذِي بُطْـلَانِ
وَاجْعَـلْ لِقَلْبِـكَ مُقْلَتَـيْنِ، كِلَاهُـمَـا بِالْـحَقِّ فِي ذَا الْـخَلْقِ نَاظِرَتَـانِ
فَـانْظُرْ بِعَـيْنِ الْـحُكْمِ وَارْحَمْهُـمْ بِهَـا إِذْ لَا تُـرَدُّ مَشِـيئَةُ الـدَّيَّانِ
وَانْظُـرْ بِعَـيْنِ الْأَمْـرِ وَاحْمِلْهُـمْ عَـلَى أَحْكَامِـهِ، فَهُـمَا إِذَنْ نَظَـرَانِ
وَاحْـذَرْ كَمَائِـنَ نَفْسِـكَ اللَّاتِي مَتَـى خَرَجَتْ عَلَيْكَ كُسِـرْتَ كَسْرَ مُهَـانِ
وَإِذَا انْتَصَرْتَ لَـهَا فَأَنْتَ كَمَـنْ بَغَـى طَفْـيَ الـدُّخَانِ بِمَوْقِـدِ النِّـيرَانِ

فَصْلٌ: فِي عَقْدِ مَجْلِسِ التَّحْكِيمِ

فَاجْلِسْ إِذَنْ فِي مَجْلِسِ الْـحَكَمَيْنِ لِلرْ رَحْمَـنِ، لَا لِلـنَّفْسِ وَالشَّـيْطَانِ
الْأَوَّلُ النَّقْـلُ الصَّـحِيحُ، وَبَعْـدَهُ الْـ ـعَقْلِ الصَّـرِيحِ وَفِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ

وَاحْكُـمْ إِذَنْ فِي رُفْقَـةٍ قَـدْ سَـافَرُوا   يَبْغُـونَ فَـاطِرَ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

فَتَرَافَقُـوا فِي سَـيْرِهِمْ، وَتَفَـارَقُوا   عِنْـدَ افْـتِرَاقِ الطُّـرْقِ بِالْـحَيْرَانِ

فَصْلٌ: فِي قُدُومِ الرَّكْبِ الأَوَّلِ أَهْلِ وِحْدَةِ الْوُجُودِ

فَـأَتَى فَرِيـقٌ ثُـمَّ قَـالَ: وَجَدْتُـهُ   هَـذَا الْوُجُـودَ بِعَيْنِـهِ وَعِيَـانِ

فَهُـوَ السَّـمَاءُ بِعَيْنِهَـا وَنُجُومِهَـا   وَكَـذَلِكَ الْأَفْـلَاكُ وَالْقَمَـرَانِ

وَالْكُفْـرُ عِنْـدَهُمُ هُـدًى، وَلَـوَ انَّـهُ   دِيـنُ الْـمَجُوسِ وَعَابِـدِي الْأَوْثَـانِ

قَـالُوا: وَمَـا عَبَـدُوا سِـوَاهُ، وَإِنَّـمَا   ضَـلُّوا بِـمَا خَصُّـوا مِـنَ الْأَعْيَـانِ

وَلَـوْ أَنَّهُـمْ عَمُّـوا وَقَـالُوا: كُلُّهَـا   مَعْبُـودَةٌ مَـا كَـانَ مِـنْ كُفْـرَانِ

فَالْكُـلُّ عَـيْنُ اللهِ عِنْـدَ مُحَقِّـقٍ   وَالْكُـلُّ مَعْبُـودٌ لِـذِي الْعِرْفَـانِ

يَـا أُمَّـةً مَعْبُودُهَـا مَوْطُوؤُهَـا   أَيْـنَ الْإِلَـهُ، وَثُغْـرَةُ الطَّعَّـانِ؟

فَصْلٌ: فِي قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ، وَهُمْ حُلُولِيَّةُ الْجَهْمِيَّةِ

وَأَتَـى فَرِيـقٌ، ثُـمَّ قَـالَ: وَجَدْتُـهُ   بِالـذَّاتِ مَوْجُـودًا بِكُـلِّ مَكَـانِ

هُـوَ كَالْـهَوَاءِ بِعَيْنِـهِ لَا عَيْنُـهُ   مَـلَأَ الْـخَلَاءَ، وَلَا يُـرَى بِعِيَـانِ

وَلَـهُمْ مَقَـالَاتٌ ذَكَـرْتُ أُصُولَـهَا   لَـمَّا ذَكَـرْتُ الْـجَهْمَ فِي الْأَوْزَانِ

فَصْلٌ: فِي قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ، وَهُمْ مُعَطِّلَةُ الْجَهْمِيَّةِ

وَأَتَـى فَرِيـقٌ، ثُـمَّ قَـارَبَ وَصْـفَهُ   هَـذَا، وَلَكِـنْ جَـدَّ فِي الْكُفْـرَانِ
فَـأَسَرَّ قَـوْلَ مُعَطِّـلٍ وَمُكَـذِّبٍ   فِي قَالَـبِ التَّنْزِيـهِ لِلـرَّحْمَنِ
إِذْ قَـالَ: لَـيْسَ بِـدَاخِلٍ فِينَـا وَلَا   هُـوَ خَـارِجٌ عَـنْ جُمْلَـةِ الْأَكْـوَانِ
بَـلْ قَـالَ: لَـيْسَ بِبَـائِنٍ عَنْهَـا وَلَا   فِيهَـا، وَلَا هُـوَ عَيْنُهَـا بِبَيَـانِ
وَاللهِ مَـا يَـرْضَى بِهَـذَا خَـائِفٌ   مِـنْ رَبِّـهِ أَمْسَـى عَـلَى الْإِيمَانِ
وَاللهِ مَا بُلِـيَ الْـمُجَسِّمُ قَـطُّ ذِي الْـ   ـبَلْوَى وَلَا أَمْسَى بِـذِي الْـخُذْلَانِ

فَصْلٌ: فِي قُدُومِ رَكْبٍ آخَرَ، وَهُمُ الدَّهْرِيَّةُ

وَأَتَـى فَرِيـقٌ، ثُـمَّ قَـارَبَ وَصْـفَهُ   هَـذَا، وَزَادَ عَلَيْـهِ فِي الْـمِيزَانِ
قَـالَ: اسْـمَعُوا يَـا قَـوْمُ لَا تُلْهِيكُمُـوا   هَـذِي الْأَمَـانِي هُـنَّ شَرُّ أَمَـانِ
فَتَّشْـتُ فَـوْقَ وَتَحْـتَ، ثُـمَّ أَمَامَنَـا   وَوَرَاءَ، ثُـمَّ يَسَـارَ مَـعْ أَيْـمَانِ
مَـا دَلَّنِـي أَحَـدٌ عَلَيْـهِ هُنَـاكُمُوا   كَـلَّا، وَلَا بَشَـرٌ إِلَيْـهِ هَـدَانِي
إِلَّا طَوَائِـفُ بِالْـحَدِيثِ تَمَسَّـكَتْ   تَعْـزِي مَـذَاهِبَهَا إِلَى الْقُـرْآنِ
فَسَـأَلْتُ عَـنْهُمْ رُفْقَتِـي وَأَحِبَّتِـي   أَصْـحَابَ جَهْـمٍ حِـزْبَ جِنْكِزْخَـانِ
مَـنْ هَـؤُلَاءِ وَمَـنْ يُقَـالُ لَـهَمْ؟ فَقَـدْ   جَـاؤُوا بِـأَمْرٍ مَـالِئِ الْآذَانِ

جَـاؤُوكُمُوا بِـالْوَحْيِ لَكِـنْ جِئْتُمُـوا ... بِنُحَاتَـــةِ الْأَفْكَـــارِ وَالْأَذْهَـــانِ
قَـــالَوا: مُشَـــبِّهَة مُجَسِّـــمَةٌ، فَـــلَا ... تَسْـــمَعْ مَقَـــالَ مُجَسِّـــمٍ حَيَـــوَانِ
فَـإِذَا ابْتُلِيـتَ بِهِـمْ فَغَـالِطْهُمْ عَـلَى الْـ ... تَأْوِيـــلِ لِلْأَخْبَـــارِ وَالْقُـــرْآنِ
وَكَذَاكَ غَـالِطْهُمْ عَـلَى التَّكْـذِيبِ لِلْـ ... أَخْبَـــارِ، ذَانِ لِصَـــحْبِنَا أَصْـــلَانِ
وَإِذَا اجْتَمَعْتَ وَهُمُ بِمَجْلِسِ مَشْهَدٍ ... فَابْـــدُرْ بِـــإِيرَادٍ وَشَـــغْلِ زَمَـــانِ
هَـــذَا الَّـــذِي وَاللهُ أَوْصَـــانَا بِـــهِ ... أَشْـــيَاخُنَا فِي سَـــالِفِ الْأَزْمَـــانِ
فَرَجَعْتُ مِنْ سَفَرِي، وَقُلْتُ لِصَاحِبِي ... وَمَطِيَّتِـــي قَـــدْ آذَنَـــتْ بِحِـــرَانِ
عَطِّـلْ رِكَابَـكَ وَاسْـتَرِحْ مِـنْ سَـيْرِهَا ... مَـــا ثَـــمَّ شَيْءٌ غَـــيْرُ ذِي الْأَكْـــوَانِ
مَا ثَـمَّ فَـوْقَ الْعَـرْشِ مِـنْ رَبٍّ وَلَـمْ ... يَـــتَكَلَّمِ الـــرَّحْمَنُ بِـــالْقُرْآنِ
فَـدَعِ الْـحَلَالَ مَـعَ الْـحَرَامَ لِأَهْلِـهِ ... فَهُـــمَا السِّـــيَاجُ لَـــهُمْ عَـــلَى الْبُسْـــتَانِ
وَاقْطَـعْ عَلَائِقَـكَ الَّتِـي قَـدْ قَيَّـدَتْ ... هَـذَا الْـوَرَى مِـنْ سَـالِفِ الْأَزْمَـانِ
لِتَصِـيرَ حُـرًّا لَسْـتَ تَحْـتَ أَوَامِـرٍ ... كَـــلَّا، وَلَا نَهْـــيٍ، وَلَا فُرْقَـــانِ
فَذَرُوا الْـمِرَاءَ، وَصَرِّحُوا بِمَذَاهِبِ الْـ ... ـــقُدَمَاءِ، وَانْسَـلِخُوا مِـنَ الْإِيـمَانِ
أَوْ قَـاتِلُوا مَـعَ أُمَّـةِ التَّجْسِـيمِ وَالتَّشْـ ... ـــبِيهِ تَحْـــتَ لِـــوَاءِ ذِي الْقُـــرْآنِ
أَوْ لَا فَـــلَا تَتَلَاعَبُـــوا بِعُقُـــولِكُمْ ... وَكِتَـــابِكُمْ، وَبِسَـــائِرِ الْأَدْيَـــانِ
فَجَمِيعُهَـــا قَـــدْ صَرَّحَـــتْ بِصِـــفَاتِهِ ... وَكَلَامِـــهِ، وَعُلُـــوِّهِ بِبَيَـــانِ

وَالنَّـاسُ بَـيْنَ مُصَـدِّقٍ أَوْ جَاحِـدٍ ... أَوْ بَـيْنَ ذَلِـكَ أَوْ شَـبِيهُ أَتَـانِ
يَـا وَيْـحَ جَهْـمٍ وَابْـنِ دِرْهَـمَ وَالْأُولَى ... قَـالُوا بِقَوْلِـهِمَا مِـنَ الْـخُورَانِ
بَقِيَـتْ مِـنَ التَّشْـبِيهِ فِيـهِ بَقِيَّـةٌ ... نَقَضَـتْ قَوَاعِـدَهُ مِـنَ الْأَرْكَـانِ
يَنْفِـي الصِّـفَاتِ مَخَافَـةَ التَّجْسِـيمِ لَا ... يَلْـوِي عَـلَى خَـبَرٍ وَلَا قُـرْآنِ
وَيَقُـولُ إِنَّ اللهَ يَسْـمَعُ أَوْ يَـرَى ... وَكَـذَاكَ يَعْلَـمُ سِرَّ كُـلِّ جَنَـانِ
وَبِنَفْيِـهِ التَّجْسِـيمَ يَصْـرُخُ فِي الْـوَرَى ... وَاللهِ مَـا هَـذَانِ مُتَّفِقَـانِ
لَكِنَّنَـا قُلْنَـا: مُحَـالٌ كُـلُّ ذَا ... حَـذَرًا مِـنَ التَّجْسِـيمِ وَالْإِمْكَـانِ

فَصْلٌ: فِي قُدُومِ رَكْبِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ

وَأَتَـى فَرِيـقٌ، ثُـمَّ قَـالَ: أَلَا اسْـمَعُوا ... قَـدْ جِئْـتُكُمْ مِـنْ مَطْلَـعِ الْإِيمَانِ
مِـنْ أَرْضِ طَيْبَـةَ مِـنْ مُهَـاجَرِ أَحْمَـدٍ ... بِالْـحَقِّ وَالْبُرْهَـانِ وَالتِّبْيَـانِ
سَـافَرْتُ فِي طَلَـبِ الْإِلَـهِ فَـدَلَّنِي الْـ ... ـهَادِي عَلَيْـهِ وَمُحْكَـمُ الْقُـرْآنِ
مَـعَ فِطْـرَةِ الـرَّحْمَنِ جَـلَّ جَلَالُـهُ ... وَصَرِيـحِ عَقْـلِي، فَـاعْتَلَى بِبَيَـانِ
شَـهِدُوا بِـأَنَّ اللهَ جَـلَّ جَلَالُـهُ ... مُتَفَـرِّدٌ بِالْـمُلْكِ وَالسُّـلْطَانِ
وَهُـوَ الْإِلَـهُ الْـحَقُّ لَا مَعْبُـودَ إِلْ ... لَا وَجْهُـهُ الْأَعْـلَى الْعَظِـيمُ الشَّـانِ
وَعِبَـادَةُ الـرَّحْمَنِ غَايَـةُ حُبِّـهِ ... مَـعَ ذُلِّ عَابِـدِهِ، هُمَـا قُطْبَـانِ

وَالنَّـاسُ بَعْـدُ فَمُشْـرِكٌ بِإِلَـهِهِ ... أَوْ ذُو ابْتِـدَاعٍ، أَوْ لَـهُ الْوَصْـفَانِ
وَهُـوَ الْعَـلِيُّ يَـرَى وَيَسْـمَعُ خَلْقَـهُ ... مِـنْ فَـوْقِ عَـرْشٍ، فَـوْقِ سِـتِّ ثَـمَانِ
وَهُـوَ الْعَلِـيمُ بِـمَا يَكُـونُ غَـدًا وَمَـا ... قَـدْ كَـانَ وَالْـمَعْلُومِ فِي ذَا الْآنِ
وَهُـوَ الْقَـدِيرُ، فَكُـلُّ شَيْءٍ فَهْـوَ مُقْـ ... دُورٌ لَـهُ طَوْعًـا بِـلَا عِصْـيَانِ
وَلَـهُ الْـحَيَاةُ كَـمَالُـهَا فَلِأَجْـلِ ذَا ... مَـا لِلْمَـمَاتِ عَلَيْـهِ مِـنْ سُـلْطَانِ
وَكَـذَلِكَ الْقَيُّـومُ مِـنْ أَوْصَـافِهِ ... مَـا لِلْمَنَـامِ لَدَيْـهِ مِـنْ غِشْـيَانِ
وَلَـهُ الْإِرَادَةُ وَالْكَرَاهَـةُ وَالرِّضَـا ... وَلَـهُ الْـمَحَبَّةُ، وَهْـوَ ذُو الْإِحْسَـانِ
وَلَهُ الْكَمَالُ الْـمُطْلَقُ الْعَارِي عَنِ التْـ ... ـتَشْبِيهِ وَالتَّمْثِيـلِ بِالْإِنْسَـانِ
وَكَـمَالُ مَـنْ أَعْطَـى الْكَـمَالَ لِنَفْسِـهِ ... أَوْلَى وَأَقْـدَمُ، وَهْـوَ أَعْظَـمُ شَـانِ
وَاللهُ رَبِّي لَـمْ يَـزَلْ مُتَكَلِّـمًا ... وَكَلَامُـهُ الْـمَسْمُوعُ بِـالْآذَانِ
صِـدْقًا وَعَـدْلًا أُحْكِمَـتْ كَلِمَاتُـهُ ... طَلَبًـا وَإِخْبَـارًا بِـلَا نُقْصَـانِ
وَكَـذَلِكَ الْقُـرْآنُ عَـيْنُ كَلَامِـهِ الْـ ... ـمَسْمُوعِ مِنْـهُ حَقِيقَـةً بِبَيَـانِ
لَكِـنَّ أَصْـوَاتَ الْعِبَـادِ وَفِعْلَهُـمْ ... كَمِـدَادِهِمْ وَالـرَّقُّ مَخْلُوقَـانِ
هَـذِي مَقَالَـةُ أَحْمَـدٍ وَمُحَمَّـدٍ ... وَخُصُـومُهُمْ مِـنْ بَعْـدِ طَائِفَتَـانِ
إِحْـدَاهُمَا زَعَمَـتْ بِـأَنَّ كَلَامَـهُ ... خَلْـقٌ لَـهُ أَلْفَاظُـهُ وَمَعَـانِي
وَالْآخَـرُونَ أَبَـوْا وَقَـالُوا شَـطْرُهُ ... خَلْـقٌ، وَشَـطْرٌ قَـامَ بِـالرَّحْمَنِ

زَعَمُــوا الْقُــرَانَ عِبَــارَةً وَحِكَايَــةً ... قُلْنَــا كَــمَا زَعَمُــوهُ قُرْآنَــانِ
هَــذَا الَّــذِي نَتْلُــوهُ مَخْلُــوقٌ كَــمَا ... قَــالَ الْوَلِيــدُ وَبَعْــدَهُ الْفِئَتَــانِ
وَالْآخَــرُ الْــمَعْنَى الْقَــدِيمُ فَقَــائِمٌ ... بِــالنَّفْسِ لَــمْ يَسْــمَعْ مِــنَ الــدَّيَّانِ
وَدَلِــيلُهُمْ فِي ذَاكَ قَــوْلٌ قَالَــهُ ... فِــيمَا يُقَــالُ الْأَخْطَــلُ النَّصْــرَانِــي
وَالْــخُلْفُ بَيْــنَهُمُ فَقِيــلَ مُحَمَّــدٌ ... أَنْشَــاهُ تَعْبِــيرًا عَــنِ الْقُــرْآنِ
وَالْآخَــرُونَ أَبَــوْا وَقَــالُوا: إِنَّــمَا ... جِبْرِيــلُ أَنْشَــاهُ عَــنِ الْــمَنَّانِ
وَتَكَايَســتْ أُخْــرَى، وَقَالَــتْ: إِنَّــهُ ... نَقْــلٌ مِــنَ اللَّــوْحِ الرَّفِيــعِ الشَّــانِ

فَصْلٌ: فِي مَجَامِعِ طُرُقِ أَهْلِ الأَرْضِ وَاخْتِلَافِهِمْ فِي الْقُرْآنِ

وَإِذَا أَرَدْتَ مَجَــامِعَ الطُّــرُقِ الَّتِــي ... فِيهَــا افْــتِرَاقُ النَّــاسِ فِي الْقُــرْآنِ
فَمَــدَارُهَا أَصْــلَانِ قَــام عَلَــيْهِمَا ... هَــذَا الْــخِلَافُ هُمَــا لَــهُ رُكْنَــانِ
هَــلْ قَوْلُــهُ بِمَشِــيئَةٍ أَمْ لَا؟ وَهَــلْ ... فِي ذَاتِــهِ أَمْ خَــارِجٌ؟ هَــذَانِ
أَصْلَا اخْتِلَافِ جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي الْـ ... ـقُرْآنِ، فَاطْلُــبْ مُقْتَضَــى الْبُرْهَــانِ
ثُــمَّ الْأُلَى قَــالُوا بِغَــيْرِ مَشِــيئَةٍ ... وَإِرَادَةٍ مِنْــــهُ، فَطَائِفَتَــــانِ
إِحْــدَاهُمَا جَعَلَتْــهُ مَعْنًــى قَائِــمًا ... بِــالنَّفْسِ، أَوْ قَــالُوا بِخَمْــسِ مَعَــانِ
وَاللهُ أَحْــدَثَ هَــذِهِ الْأَلْفَــاظَ كَــيْ ... تُبْدِيــهِ مَعْقُــولًا إِلَى الْأَذْهَــانِ

وَكَـذَلِكَ اخْتَلَفُـوا فَقِيـلَ حِكَايَـةٌ ... عَنْـهُ، وَقِيـلَ عِبَـارَةٌ لِبَيَـانِ
وَالْآخَـرُونَ يَـرَوْنَ هَـذَا الْبَحْـثَ لَفْـ ... ـظِيًّا، وَمَـا فِيـهِ كَبِيـرُ مَعَـانِ
وَالْفِرْقَـةُ الْأُخْـرَى فَقَالَـتْ: إِنَّـهُ ... لَفْـظٌ وَمَعْنًـى، لَـيْسَ يَنْفَصِـلَانِ
وَاللَّفْـظُ كَالْـمَعْنَى، قَـدِيمٌ قَـائِمٌ ... بِـالنَّفْسِ لَـيْسَ بِقَابِـلِ الْـحِدْثَانِ
فَالسِّـينُ عِنْـدَ الْبَـاءِ لَا مَسْـبُوقَةٌ ... لَكِـنْ هُمَـا حَرْفَـانِ مُقْتَرِنَـانِ
وَالْقَـائِلُونَ بِـذَا فَقَـالُوا إِنَّـمَا ... تَرْتِيبُهَـا بِالسَّـمْعِ وَالْآذَانِ
وَالْقَـائِلُونَ بِأَنَّـهُ بِمَشِـيئَةٍ ... وَإِرَادَةٍ أَيْضًـا، فَهُـمْ صِـنْفَانِ
إِحْـدَاهُمَا جَعَلَتْـهُ خَـارِجَ ذَاتِـهِ ... كَمَشِـيئَةٍ لِلْخَلْـقِ وَالْأَكْـوَانِ
فَـالْقَوْلُ مَفْعُـولٌ لَـدَيْهِمْ قَـائِمٌ ... بِـالْغَيْرِ كَـالْأَعْرَاضِ وَالْأَلْـوَانِ
قَـالُوا: وَصَـارَ كَلَامُـهُ بِإِضَـافَةِ التْـ ... ـتَشْرِيفِ مِثْـلَ الْبَيْـتِ ذِي الْأَرْكَـانِ
هَـذِي مَقَالَـةُ كُـلِّ جَهْمِـيٍّ وَهُـمْ ... فِيهَـا الشُّـيوخُ مُعَلِّمُـو الصِّـبْيَانِ
لَكِـنَّ أَهْـلَ الِاعْتِـزَالِ قَـدِيمَهُمْ ... لَـمْ يَـذْهَبُوا ذَا الْـمَذْهَبَ الشَّيْطَانِي
لَكِـنَّمَا مُتَـأَخِّرُوهُمْ بَعْـدَ ذَا ... قَـدْ وَافَقُـوا جَهْـمًا عَـلَى الْكُفْـرَانِ
وَالْقَـائِلُونَ بِأَنَّـهُ بِمَشِـيئَةٍ ... فِي ذَاتِـهِ أَيْضًـا فَهُـمْ نَوْعَـانِ
إِحْـدَاهُمَا جَعَلَتْـهُ مَبْـدُوءًا بِـهِ ... نَوْعًـا حِـذَارَ تَسَلْسُـلِ الْأَعْيَـانِ
هَـذِي مَقَـالَاتُ ابْـنِ كَـرَّامٍ وَمَـا ... رَدُّوا عَلَيْـهِ قَـطُّ بِالْبُرْهَـانِ

وَالْآخَرُونَ أُولُو الْـحَدِيثِ كَأَحْمَدٍ ... وَمُحَمَّدٍ وَأَئِمَّةِ الْإِيمَانِ
قَالُوا بِأَنَّ اللهَ حَقًّا لَمْ يَزَلْ ... مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَةٍ وَبَيَانِ
وَاللهُ قَالَ وَقَائِلٌ، وَكَذَا يَقُو ... لُ الْـحَقَّ، لَيْسَ كَلَامُهُ بِالْفَانِي

فَصْلٌ

وَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلَامِ كَذَلِكَ الْـ ... إِرْسَالُ مُنْتَفِيٌ بِلَا فُرْقَانِ
فَرِسَالَةُ الْـمَبْعُوثِ تَبْلِيغٌ كَلَا ... مَ الْـمُرْسِلِ الدَّاعِي بِلَا نُقْصَانِ
وَحَقِيقَةُ الْإِرْسَالِ نَفْسُ خِطَابِهِ ... لِلْمُرْسَلِينَ وَإِنَّهُ نَوْعَانِ
نَوْعٌ بِغَيْرِ وَسَاطَةٍ كَكَلَامِهِ ... مُوسَى وَجِبْرِيلَ الْقَرِيبَ الدَّانِي
وَالْآخَرُ التَّكْلِيمُ مِنْهُ بِالْوَسَا ... طَةِ، وَهْوَ أَيْضًا عِنْدَهُ ضَرْبَانِ
وَحْيٌ وَإِرْسَالٌ إِلَيْهِ، وَذَاكَ فِي الشُّـ ... ـشُورَى أَتَى فِي أَحْسَنِ التِّبْيَانِ
وَإِذَا انْتَفَتْ صِفَةُ الْكَلَامِ فَضِدُّهَا ... خَرَسٌ، وَذَلِكَ غَايَةُ النُّقْصَانِ
فَلَئِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ ذَلِكَ فِي الَّذِي ... هُوَ قَابِلٌ مِنْ أُمَّةِ الْـحَيَوَانِ
وَالرَّبُّ لَيْسَ بِقَابِلٍ صِفَةَ الْكَلَا ... مِ فَنَفْيُهَا مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ
فَيُقَالُ: سَلْبُ كَلَامِهِ وَقَبُولِهُ ... صِفَةَ الْكَلَامِ أَتَمُّ لِلنُّقْصَانِ
إِذْ أَخْرَسُ الْإِنْسَانِ أَكْمَلُ حَالَةً ... مِنْ ذَا الْـجَمَادِ بِأَوْضَحِ الْبُرْهَانِ

فَجَحَدْتَ أَوْصَافَ الْكَمَالِ مَخَافَةَ التـْ ـــتَجْسِيمِ وَالتَّشْــبِيهِ بِالْإِنْسَـــانِ
وَوَقَعْـــتَ فِي تَشْـــبِيهِهِ بِالنَّاقِصَــا تِ الْــجَامِدَاتِ، وَذَا مِـنَ الْـخِذْلَانِ

فَصْــلٌ

وَاللهُ أَخْــبَرَ فِي الْكِتَــابِ بِأَنَّـــهُ مِنْــهُ وَمَجْــرُورٌ بِـــ(مِنْ) نَوْعَـــانِ
عَــيْنٌ وَوَصْــفٌ قَــائِمٌ بِـالْعَيْنِ فَالْـ أَعْيَــانُ خَلْــقُ الْــخَالِقِ الــرَّحْمَنِ
وَالْوَصْــفُ بِالْــمَجْرُورِ قَــامَ لِأَنَّــهُ أَوْلَى بِــهِ فِي عُــرْفِ كُــلِّ لِسَــانِ
وَنَظِــيرُ ذَا أَيْضًــا سَــوَاءً مَــا يُضَــا فُ إِلَيْــهِ مِــنْ صِــفَةٍ وَمِــنْ أَعْيَــانِ
فَــانْظُرْ إِلَى بَيْــتِ الْإِلَــهِ وَعِلْمِــهِ لَـــمَّا أُضِــيفَا كَيْــفَ يَفْتَرِقَــانِ
وَتِـــلَاوَةُ الْقُــرْآنِ أَفْعَـــالٌ لَنَـــا وَكَــذَا الْكِتَابَــةُ، فَهْــيَ خَــطُّ بَنَــانِ
لَكِــنَّمَا الْــمَتْلُوُّ وَالْــمَكْتُوبُ وَالْـ ـــمَحْفُوظُ قَــوْلُ الْوَاحِــدِ الــرَّحْمَنِ
هَــذَا الَّــذِي نَصَّــتْ عَلَيْــهِ أَئِمَّــةُ الْـ إِسْــلَامِ أَهْــلِ الْعِلْــمِ وَالْعِرْفَــانِ

فَصْــلٌ

وَأَتَــى ابْــنُ سِــينَا الْقُرْمِطِــيُّ مُصَــانِعًا لِلْمُسْـــلِمِينَ بِإِفْـــكِ ذِي بُهْتَـــانِ
فَرَآهُ فَيْضًــا فَــاضَ مِــنْ عَقْــلٍ هُــوَ الْـ ـــفَعَّالُ عِلَّـــةُ هَـــذِهِ الْأَكْـــوَانِ
حَتَّـــى تَلَقَّـــاهُ زَكِـــيٌّ فَاضِـــلٌ حَسَــنُ التَّخَيُّــلِ جَيِّــدُ التِّبْيَــانِ

فَــأَتَى بِــهِ لِلْعَالَـــمِينَ خَطَابَــةً   وَمَوَاعِظًــا عَرِيَــتْ عَــنِ الْبُرْهَــانِ

فَصْــلٌ

وَأَتَــتْ طَوَائِــفُ الِاتِّحَــادِ بِمِلَّــةٍ   طَمَّــتْ عَــلَى مَــا قَــالَ كُــلُّ لِسَــانِ

قَالَــتْ: كَــلَامُ اللهِ كُــلُّ كَــلَامِ هَــ   ــذَا الْــخَلْقِ مِــنْ جِــنٍّ وَمِــنْ إِنْسَــانِ

هَــذَا الَّــذِي أَدَّى إِلَيْــهِ أَصْــلُهُمْ   وَعَلَيْــهِ قَــامَ مُكَسِّــحُ الْبُنْيَــانِ

إِذْ أَصْــلُهُمْ أَنَّ الْإِلَــهَ حَقِيقَــةً   عَــيْنُ الْوُجُــودِ وَعَــيْنُ ذِي الْأَكْــوَانِ

فَاعْطِفْ عَلَى الْــجَهْمِيَّةِ الْــمُغْلِ الْأُلَى   خَرَقُــوا سِــيَاجَ الْعَقْــلِ وَالْقُــرْآنِ

أَفْسَدْتُمُ الْــمَعْقُولَ وَالْــمَنْقُولَ وَالْــ   ــمَسْمُوعَ مِــنْ لُغَــةٍ بِكُــلِّ لِسَــانِ

أَيَصِحُّ وَصْفُ الشَّيْءِ بِالْــمُشْتَقِّ لِلْــ   ــمَسْلُوبِ مَعْنَــاهُ لِــذِي الْأَذْهَــانِ

أَيَصِــحُّ صَــبَّارٌ وَلَا صَــبْرٌ لَــهُ   وَيَصِــحُّ شَــكَّارٌ بِــلَا شُــكْرَانِ

وَمُخَالِفُ الْــمَعْقُولِ وَالْــمَنْقُولِ وَالْــ   ــفِطْرَاتِ وَالْــمَسْمُوعِ لِلْإِنْسَــانِ

مَــنْ قَــالَ: إِنَّ كَلَامَــهُ سُــبْحَانَهُ   وَصْــفٌ قَــدِيمٌ، أَحْــرُفٌ وَمَعَــانِ

وَالسِّــينُ عِنْــدَ الْبَــاءِ لَيْسَــتْ بَعْــدَهَا   لَكِــنْ هُمَــا حَرْفَــانِ مُقْتَرِنَــانِ

أَوْ قَــالَ: إِنَّ كَلَامَــهُ سُــبْحَانَهُ   مَعْنَــىً قَــدِيمٌ قَــامَ بِــالرَّحْمَنِ

وَكَلَامُــهُ كَحَيَاتِــهِ مَــا ذَاكَ مَقْــ   ــدُورًا لَــهُ، بَــلْ لَازِمُ الــرَّحْمَنِ

لَا تَنْصُـرَنَّ سِـوَى الْـحَدِيثِ وَأَهْلِـهِ ... هُــمْ عَسْــكَرُ الْإِيــمَانِ وَالْقُــرْآنِ
وَتَحَيَّــزَنَّ إِلَــيْهِمُ لَا غَــيْرِهِمْ ... لِتَكُــونَ مَنْصُــورًا لَــدَى الــرَّحْمَنِ
هَــذَا وَقَــدْ فَطَــرَ الْإِلَــهُ عِبَــادَهُ ... أَنَّ الْــمُهَيْمِنَ دَائِــمُ الْإِحْسَــانِ
أَوَلَسْـتَ تَسْـمَعُ قَـوْلَ كُـلِّ مُوَحِّـدٍ ... يَــا دَائِــمَ الْــمَعْرُوفِ وَالسُّــلْطَانِ
مِــنْ غَــيْرِ إِنْكَــارٍ عَلَــيْهِمْ فِطْــرَةٌ ... فُطِــرُوا عَلَيْهَــا لَا تَــوَاصٍ ثَــانِ
وَالنَّــاسُ مُخْتَلِفُــونَ فِي الْقَلَــمِ الَّــذِي ... كُتِــبَ الْقَضَــاءُ بِــهِ مِــنَ الــدَّيَّانِ
هَلْ كَـانَ قَبْـلَ الْعَـرْشِ أَوْ هُـوَ بَعْـدَهُ ... قَــوْلَانِ عِنْــدَ أَبِي الْعَــلَا الْــهَمَذَانِي
وَالْــحَقُّ أَنَّ الْعَــرْشَ قَبْــلُ؛ لِأَنَّــهُ ... قَبْــلَ الْكِتَابَــةِ كَــانَ ذَا أَرْكَــانِ
وَكِتَابَــةُ الْقَلَــمِ الشَّــرِيفِ تَعَقَّبَــتْ ... إِيجَــادَهُ مِــنْ غَــيْرِ فَصْــلِ زَمَــانِ
لَــمَّا بَــرَاهُ اللهُ قَــالَ: (اكْتُــبْ كَــذَا) ... فَغَــدَا بِــأَمْرِ اللهِ ذَا جَرَيَــانِ
فَجَــرَى بِــمَا هُــوَ كَــائِنٌ أَبَــدًا إِلَى ... يَــوْمِ الْــمَعَادِ بِقُــدْرَةِ الــرَّحْمَنِ
فَــاعْلَمْ بِــأَنَّ الْقَــوْمَ لَــمَّا أَسَّسُــوا ... عِلْــمَ الْكَــلَامِ عَمُــوا عَــنِ الْقُــرْآنِ
وَعَنِ الْـحَدِيثِ وَمُقْتَضِى الْـمَعْقُولِ، بَلْ ... عَــنْ فِطْــرَةِ الــرَّحْمَنِ وَالْبُرْهَــانِ
وَبَنَــوْا قَوَاعِــدَهُمْ عَلَيْــهِ فَقَــادَهُمْ ... قَسْــرًا إِلَى التَّعْطِيــلِ وَالْــبُطْلَانِ
يَــا مِحْنَــةَ الْإِسْــلَامِ وَالْقُــرْآنِ مِــنْ ... جَهْــلِ الصَّــدِيقِ وَبَغْــيِ ذِي طُغْيَــانِ
وَاللهِ لَــوْلَا اللهُ نَــاصِرُ دِينِــهِ ... وَكِتَابِــهِ بِالْــحَقِّ وَالْبُرْهَــانِ

لَتَخَطَّفَـــتْ أَعْـــدَاؤنَا أَرْوَاحَنَـــا ... وَلَقَطَّعَـــتْ مِنَّـــا عُـــرَى الْإِيـــمَانِ
وَاللهُ ثُـــمَّ رَسُـــولُهُ قَـــدْ بَيَّنَـــا ... طُـــرُقَ الْـــهُدَى في غَايَـــةِ التِّبْيَـــانِ
وَأَصِـــخْ لِفَائِـــدَةٍ جَلِيـــلٍ قَـــدْرُهَا ... تَهْـــدِيكَ لِلتَّحْقِيـــقِ وَالْعِرْفَـــانِ
إِنَّ الْكَـــلَامَ إِذَا أَتَـــى بِسِـــيَاقَةٍ ... يُبْـــدِي الْـــمُرَادَ لِـــمَنْ لَـــهُ أُذُنَـــانِ
أَضْـــحَى كَـــنَصٍّ قَـــاطِعٍ لَا يَقْبَـــلُ التْـ ... ـــتَأْوِيلَ يَعْـــرِفُ ذَا أُولُـــو الْأَذْهَـــانِ
فَتَأَمَّـــلِ الْأَلْفَـــاظَ وَانْظُـــرْ مَـــا الَّـــذِي ... سِـــيقَتْ لَـــهُ إِنْ كُنْـــتَ ذَا عِرْفَـــانِ
فَالرُّسْـــلُ مُتَّفِقُـــونَ قَطْعًـــا في أُصُـــو ... لِ الـــدِّينِ دُونَ شَرَائِـــعِ الْإِيـــمَانِ
كُـــلٌّ لَـــهُ شَرْعٌ وَمِنْهَـــاجٌ وَذَا ... في الْأَمْـــرِ لَا التَّوْحِيـــدِ، فَـــافْهَمْ ذَانِ
فَالـــدِّينُ في التَّوْحِيـــدِ دِيـــنٌ وَاحِـــدٌ ... لَـــمْ يَخْتَلِـــفْ مِـــنْهُمْ عَلَيْـــهِ اثْنَـــانِ
عَقْـــلَانِ عَقْـــلٌ بِالنُّصُـــوصِ مُؤَيَّـــدٌ ... وَمُؤَيَّـــدٌ بِالْـــمَنْطِقِ الْيُونَـــانِي
وَاللهِ مَـــا اسْـــتَوَيَا، وَلَـــنْ يَتَلَاقَيَـــا ... حَتَّـــى تَشِـــيبَ مَفَـــارِقُ الْغِرْبَـــانِ
يَـــا قَوْمَنَـــا وَاللهِ إِنَّ لِقَوْلِنَـــا ... أَلْفًـــا تَـــدُلُّ عَلَيْـــهِ، بَـــلْ أَلْفَـــانِ
عَقْلًا وَنَقْـــلًا مَـــعْ صَرِيـــحِ الْفِطْـــرَةِ الْـ ... أُولَى وَذَوْقِ حَـــلَاوَةِ الْقُـــرْآنِ
كُـــلٌّ يَـــدُلُّ بِأَنَّـــهُ سُـــبْحَانَهُ ... فَـــوْقَ السَّـــمَاءِ مُبَـــايِنُ الْأَكْـــوَانِ
وَالْعِلْـــمُ مَعْرِفَـــةُ الْـــهُدَى بِدَلِيلِـــهِ ... مَـــا ذَاكَ وَالتَّقْلِيـــدُ مُسْـــتَوِيَانِ
أَفَمَـــنْ حَوَالَتُـــهُ عَـــلَى التَّنْزِيـــلِ وَالْـ ... ـــوَحْيِ الْـــمُبِينِ وَمُحْكَـــمِ الْقُـــرْآنِ

كَمُحَيَّرٍ أَضْحَتْ حَوَالَتُهُ عَلَى ... أَمْثَالِهِ، أَمْ كَيْفَ يَسْتَوِيَانِ؟!
أَمْ كَيْفَ يَشْعُرُ تَائِهٌ بِمُصَابِهِ ... وَالْقَلْبُ قَدْ جُعِلَتْ لَه قُفْلَانِ
قُفْلٌ مِنَ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ، فَوْقَهُ ... قُفْلُ التَّعَصُّبِ، كَيْفَ يَنْفَتِحَانِ؟!
وَمَفَاتِحُ الْأَقْفَالِ فِي يَدِ مَنْ لَهُ التْـ ... ـتَصْرِيفِ سُبْحَانَهُ عَظِيمُ الشَّانِ
فَاسْأَلْهُ فَتْحَ الْقُفْلِ مُجْتَهِدًا عَلَى الْـ ... أَسْنَانِ إِنَّ الْفَتْحَ بِالْأَسْنَانِ
وَاللهُ نَاصِرُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ ... وَرَسُولِهِ فِي سَائِرِ الْأَزْمَانِ
لَكِنْ بِمِحْنَةِ حِزْبِهِ مِنْ حَرْبِهِ ... ذَا حِكْمَةٌ مُذْ كَانَتِ الْفِئَتَانِ

فَصْلٌ

هَذَا وَأَصْلُ بَلِيَّةِ الْإِسْلَامِ مِنْ ... تَأْوِيلِ ذِي التَّحْرِيفِ وَالْبُطْلَانِ[1]
وَجَمِيعُ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ بِدَعٍ وَأَحْـ ... ـدَاثٍ تُخَالِفُ مُوجَبَ الْقُرْآنِ
فَأَسَاسُهَا التَّأْوِيلُ ذُو الْبُطْلَانِ لَا ... تَأْوِيلُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ
وَحَقِيقَةُ التَّأْوِيلِ مَعْنَاهُ الرُّجُو ... عُ إِلَى الْحَقِيقَةِ لَا إِلَى الْبُطْلَانِ
تَأْوِيلُ أَهْلِ الْبَاطِلِ الْمَرْدُودِ عِنْـ ... ـدَ أَئِمَّةِ الْعِرْفَانِ وَالْإِيمَانِ
فَجَعَلْتُمُ لِلَّفْظِ مَعْنًى غَيْرَ مَعْـ ... ـنَاهُ لَدَيْهِمْ بِاصْطِلَاحٍ ثَانِ

(١) قد ذكر المؤلف -رحمه الله تعالى- أمثلة كثيرة من البليات من أجل تأويل التحريف.

وَحَمَلْـتُمُ لَفْـظَ الْكِتَـابِ عَلَيْـهِ حـتْـ ـــتَى جَـاءَكُمْ مِـنْ ذَاكَ مَحْـذُورَانِ
كَذِبٌ عَـلَى الْأَلْفَـاظِ مَـعْ كَـذِبٍ عَـلَى مَـنْ قَالَــهَا، كَـذِبَانِ مَقْبُوحَـانِ
وَكِلَاهُمَــا أَمْــرَانِ أَقْـبَحُ مِـنْهُمَا جَحْـدُ الْــهُدَى وَشَـهَادَةُ الْبُهْتَـانِ
إِذْ يَشْــهَدُونَ الــزُّورَ أَنَّ مُــرَادَهُ غَـيْرُ الْــحَقِيقَةِ، وَهْـيِ ذُو بُطْـلَانِ

فَصْــلٌ

وَعَلَــيْكُمُ فِي ذَا وَظَــائِفُ أَرْبَــعٌ وَاللهِ لَــيْسَ لَكُــمْ بِهِــنَّ يَـدَانِ
مِنْهَــا دَلِيــلٌ صَـارِفٌ لِلَّفْـظِ عَـنْ مَوْضُــوعِهِ الْأَصْــلِيِّ بِالْبُرْهَــانِ
فَإِذَا اسْتَقَامَ لَكُـمْ دَلِيـلُ الصَّـرْفِ يَـا هَيْهَــاتَ! طُــولِبْتُمْ بِــأَمْرٍ ثَــانِ
وَهُـوَ احْـتِمَالُ اللَّفْـظِ لِلْمَعْنِـى الَّـذِي قُلْــتُمْ: هُــوَ الْــمَقْصُودُ بِالتِّبْيَــانِ
فَــإِذَا أَتَيْــتُمْ ذَاكَ طُــولِبْتُمْ بِأَمْـ ـــرٍ ثَالِــثٍ مِــنْ بَعْـدِ هَـذَا الثَّـانِي
إِذْ قُلْــتُمُ: إِنَّ الْــمُرَادَ كَـذَا، فَـمَا ذَا دَلَّكُــمْ؟ أَتَــخَرُّصُ الْكُهَّــانِ؟!
هَبْ أَنَّـهُ لَـمْ يَقْصِـدِ الْـمَوْضُوعَ لَـ ـكِنْ قَـدْ يَكُـونُ الْقَصْـدُ مَعْنًـى ثَـانِ

فَصْــلٌ

وَكَــذَا نُطَــالِبُكُمْ بِــأَمْرٍ رَابِــعٍ وَاللهِ لَــيْسَ لَكُــمْ بِـذَا إِمْكَــانِ
وَهُوَ الْـجَوَابُ عَنِ الْـمُعَارِضِ إِذْ بِهِ الـدْ ـــدَعْوَى تَــتِمُّ سَـلِيمَةَ الْأَرْكَــانِ

فَصْلٌ

قَـوْمٌ أَقَـامَهُمُ الْإِلَـهُ لِـحِفْظِ هَـ ـذَا الـدِّينِ مِـنْ ذِي بِدْعَـةٍ شَـيْطَانِ
وَأَقَـامَهُمْ حَرَسًـا مِـنَ التَّبْـدِيلِ وَالتَّـ ـتَحْرِيفِ وَالتَّتْمِـيمِ وَالنُّقْصَـانِ
بَـزْلٌ عَـلَى الْإِسْلَامِ، بَـلْ حِصْـنٌ لَـهُ يَـأْوِي إِلَيْـهِ عَسَـاكِرُ الْفُرْقَـانِ
فَـإِذَا تَعَـارَضَ نَـصُّ لَفْـظٍ وَارِدٍ وَالْعَقْـلُ حَتَّـى لَـيْسَ يَلْتَقِيَـانِ
فَالْعَقْـلُ إِمَّـا فَاسِـدٌ وَيَظُنُّـهُ الـرَّا ئِـي صَـحِيحًا وَهْـوَ ذُو بُطْـلَانِ
أَوْ أَنَّ ذَاكَ الـنَّصَّ لَـيْسَ بِثَابِـتٍ مَـا قَالَـهُ الْـمَعْصُومُ بِالْبُرْهَـانِ
وَنُصُوصُـهُ لَيْسَـتْ يُعَـارِضُ بَعْضُـهَا بَعْضًـا، فَسَـلْ عَنْهَـا عَلِـيمَ زَمَـانِ
وَإِذَا ظَنَنْـتَ تَعَارُضًـا فِيهَـا فَـذَا مِـنْ آفَـةِ الْأَفْهَـامِ وَالْأَذْهَـانِ
أَوْ أَنْ يَكُـونَ الْـبَعْضُ لَـيْسَ بِثَابِـتٍ مَـا قَالَـهُ الْـمَبْعُوثُ بِـالْقُرْآنِ

فَصْلٌ

وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّهُـمْ حَمَلُـوا النُّصُـو صَ عَلَى الْـحَقِيقَةِ لَا الْـمَجَازِ الثَّانِي
إِلَّا إِذَا مَـا اضْـطَرَّهُمْ لِـمَجَازِهَا الْـ ـمُضْطَرُ مِـنْ حِـسٍّ وَمِـنْ بُرْهَـانِ
فَهُنَـاكَ عِصْـمَتُهَا أَبَاحَتْـهُ بِغَـيْرِ تَجَـانُفٍ لِلْإِثْـمِ وَالْعُـدْوَانِ
وَاشْـهَدْ عَلَـيْهِمْ أَنَّهُـمْ لَا يُكْفِـرُو نَكُـمُ بِـمَا قُلْـتُمْ مِـنَ الْكُفْـرَانِ

إِذْ أَنْـتُمُ أَهْـلُ الْـجَهَالَةِ عِنْـدَهُمْ ... لَسْـتُمْ أُولِي كُفْـرٍ وَلَا إِيـمَانِ

لَا تَعْرِفُـونَ حَقِيقَـةَ الْكُفْـرَانِ بَـلْ ... لَا تَعْرِفُـونَ حَقِيقَـةَ الْإِيـمَانِ

إِلَّا إِذَا عَانَـدْتُمُ وَرَدَدْتُـمُ ... قَـوْلَ الرَّسُـولِ لِأَجْـلِ قَـوْلِ فُـلَانِ

فَهُنَـاكَ أَنْـتُمْ أَكْفَـرُ الثَّقَلَـيْنِ مِـنْ ... إِنْـسٍ وَجِـنٍّ سَـاكِنِي النِّـيرَانِ

فَصْـلٌ

هَـذَا وَمِـنْ تَوْحِيـدِهِمْ إِثْبَـاتُ أَوْ ... صَـافِ الْكَـمَالِ لِرَبِّنَـا الـرَّحْمَنِ

وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَـلَى الْعَـرْشِ اسْتَوَى ... قَـدْ قَـامَ بِالتَّـدْبِيرِ لِلْأَكْـوَانِ

حَـيٌّ مُرِيـدٌ قَـادِرٌ مُـتَكَلِّمٌ ... ذُو رَحْمَـةٍ وَإِرَادَةٍ وَحَنَـانِ

هُـوَ أَوَّلٌ، هُـوَ آخِـرٌ؛ هُـوَ ظَـاهِرٌ، ... هُـوَ بَـاطِنٌ، هِـيَ أَرْبَـعٌ بِـوِزَانِ

مَـا قَبْلَـهُ شَيْءٌ، كَـذَا مَـا بَعْـدَهُ ... شَيْءٌ، تَعَـالَى اللهُ ذُو السُّـلْطَانِ

مَـا فَوْقَـهُ شَيْءٌ، كَـذَا مَـا دُونَـهُ ... شَيْءٌ، وَذَا تَفْسِـيرُ ذِي الْبُرْهَـانِ

وَهُـوَ الْعَـلِيُّ، فَكُـلُّ أَنْـوَاعِ الْـ ... ـعُلُوِّ لَـهُ فَثَابِتَـةٌ بِـلَا نُكْـرَانِ

وَهُوَ الْعَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنًى يُوجِـبُ التْـ ... ـتَعْظِيمَ لَا يُحْصِـيهِ مِـنْ إِنْسَـانِ

وَهُوَ الْـجَلِيلُ، فَكُلُّ أَوْصَافِ الْـجَلَا ... لِ لَـهُ مُحَقَّقَـةٌ بِـلَا بُطْـلَانِ

وَهُوَ الْـجَمِيلُ عَلَى الْـحَقِيقَةِ، كَيْفَ لَا ... وَجَمَـالُ سَـائِرِ هَـذِهِ الْأَكْـوَانِ

مِـنْ بَعْـضِ آثَـارِ الْـجَمِيلِ؟! فَرَبُّهَـا أَوْلَى وَأَجْـدَرُ عِنْـدَ ذِي الْعِرْفَـانِ

فَجَمَالُـهُ بِالـذَّاتِ وَالْأَوْصَـافِ وَالْـ أَفْعَـالِ وَالْأَسْـمَاءِ بِالْبُرْهَـانِ

وَهُوَ الْـمَجِيدُ، صِـفَاتُهُ أَوْصَـافُ تَعْـ ـظِيمٍ، فَشَـأْنُ الْوَصْـفِ أَعْظَـمُ شَـانِ

وَهُوَ السَّمِيعُ، يَـرَى وَيَسْـمَعُ كُـلَّ مَا فِي الْكَـوْنِ، مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلَانِ

وَهُوَ الْبَصِيرُ، يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَـةِ السْـ ـسَوْدَاءِ تَحْـتَ الصَّـخْرَةِ الصَّـوَّانِ

وَهُـوَ الْعَلِـيمُ، أَحَـاطَ عِلْـمًا بِالَّـذِي فِي الْكَـوْنِ، مِـنْ سِرٍّ وَمِـنْ إِعْـلَانِ

فَصْـلٌ

وَهُـوَ الْـحَمِيدُ، فَكُـلُّ حَمْـدٍ وَاقِـعٍ أَوْ كَـانَ مَفْرُوضًـا مَـدَى الْأَزْمَـانِ

هُـوَ أَهْلُـهُ سُـبْحَانَهُ وَبِحَمْـدِهِ كُلُّ الْـمَحَامِدِ وَصْفُ ذِي الْإِحْسَانِ

وَهُـوَ الْـمُكَلِّمُ عَبْـدَهُ مُوسَـى بِتَكْـ ـلِيمِ الْـخِطَابِ وَقَبْلَـهُ الْأَبَـوَانِ

وَهُـوَ الْقَـدِيرُ، وَلَـيْسَ يُعْجِـزُهُ إِذَا مَـا رَامَ شَـيْئًا قَـطُّ ذُو سُـلْطَانِ

وَهُـوَ الْقَـوِيُّ، لَـهُ الْقُـوَى جَمْعًـا تَعَـا لَى اللهُ ذُو الْأَكْـوَانِ وَالسُّـلْطَانِ

وَهُـوَ الْغَنِـيُّ بِذَاتِـهِ، فَغِنَـاهُ ذَا تِيٌّ لَـهُ كَالْـجُودِ وَالْإِحْسَـانِ

وَهُـوَ الْعَزِيـزُ، فَلَـنْ يُـرَامَ جَنَابُـهُ أَنَّـى يُـرَامُ جَنَـابُ ذِي السُّـلْطَانِ

وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْقَـاهِرُ الْغَـلَّابُ، لَـمْ يَغْلِبْـهُ شَيْءٌ، هَـذِهِ صِـفَتَانِ

وَهُــوَ الْعَزِيــزُ بِقُــوَّةٍ هِــيَ وَصْــفُهُ ... فَــالْعِزُّ حِينَئِــذٍ ثَــلَاثُ مَعَــانِ
وَهُــوَ الْــحَكِيمُ، وَذَاكَ مِــنْ أَوْصَــافِهِ ... نَوْعَــانِ أَيْضًــا، مَــا هُمَــا عَــدَمَانِ
حُكْــمٌ وَإِحْكَــامٌ، فَكُــلٌّ مِــنْهُمَا ... نَوْعَــانِ أَيْضًــا ثَابِتَــا الْبُرْهَــانِ
وَالْــحُكْمُ شَرْعِــيٌّ وَكَــوْنِيٌّ، وَلَا ... يَتَلَازَمَــانِ، وَمَــا هُمَــا سِــيَّانِ
بَــلْ ذَاكَ يُوجَــدُ دُونَ هَــذَا مُفْــرَدًا ... وَالْعَكْــسُ أَيْضًــا ثُــمَّ يَجْتَمِعَــانِ
وَهُــوَ الْــحَيِيُّ، فَلَيْسَ يَفْضَــحُ عَبْدَهُ ... عِنْــدَ التَّجَــاهُرِ مِنْــهُ بِالْعِصَــيانِ
وَهُــوَ الْــحَلِيمُ، فَــلَا يُعَاجِــلُ عَبْــدَهُ ... بِعُقُوبَــةٍ؛ لِيَتُــوبَ مِــنْ عِصْــيَانِ
وَهُــوَ الْعَفُــوُّ، فَعَفْــوُهُ وَسِــعَ الْــوَرَى ... لَــوْلَاهُ غَــارَ الْأَرْضُ بِالسُّــكَّانِ
وَهُــوَ الصَّــبُورُ عَــلَى أَذَى أَعْدَائِــهِ ... شَــتَمُوهُ، بَــلْ نَسَــبُوهُ لِلْبُهْتَــانِ
وَهُوَ الرَّقِيــبُ عَــلَى الْــخَوَاطِرِ وَاللَّــوَا ... حِــظِ، كَيْــفَ بِالْأَفْعَــالِ بِالْأَرْكَــانِ
وَهُــوَ الْــحَفِيظُ عَلَــيْهِمُ، وَهْــوَ الْـــ ... ـكَفِيلُ بِحِفْظِهِــمْ مِــنْ كُــلِّ أَمْــرٍ عَــانِ
وَهُــوَ اللَّطِيــفُ بِعَبْــدِهِ وَلِعَبْــدِهِ ... وَاللُّطْــفُ فِي أَوْصَــافِهِ نَوْعَــانِ
إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الْأُمُــورِ بِخِــبْرَةٍ ... وَاللُّطْــفُ عِنْــدَ مَوَاقِــعِ الْإِحْسَــانِ
فَيُرِيــكَ عِزَّتَــهُ وَيُبْــدِي لُطْفَــهُ ... وَالْعَبْــدُ فِي الْغَفَــلَاتِ عَــنْ ذَا الشَّــانِ
وَهُوَ الرَّفِيــقُ يُحِــبُّ أَهْــلَ الرِّفْــقِ، بَــلْ ... يُعْطِــيهِمُ بِــالرِّفْقِ فَــوْقَ أَمَــانِ
وَهُوَ الْقَرِيبُ، وَقُرْبُهُ الْــمُخْتَصُّ بِالـدْ ... دَاعِــي وَعَابِــدُهُ عَــلَى الْإِيــمَانِ

وَهُوَ الْمُجِيبُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُو أُجِبْـ ـهُ، أَنَا الْمُجِيبُ لِكُلِّ مَنْ نَادَانِي

وَهُوَ الْجَوَادُ، فَلَا يُخَيِّبُ سَائِلًا وَلَوَ انَّهُ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرَانِ

وَهُوَ الْمُغِيثُ لِكُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ وَكَذَا يُجِيبُ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ

وَهُوَ الْوَدُودُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ أَحْبَابُهُ، وَالْفَضْلُ لِلْمَنَّانِ

وَهُوَ الشَّكُورُ، فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُمْ لَكِنْ يُضَاعِفُهُ بِلَا حُسْبَانِ

وَهُوَ الْغَفُورُ، فَلَوْ أُتِي بِقُرَابِهَا مِنْ غَيْرِ شِرْكٍ بَلْ مِنَ الْعِصْيَانِ

لَاقَاهُ بِالْغُفْرَانِ مِلْءَ قُرَابِهَا سُبْحَانَهُ، هُوَ وَاسِعُ الْغُفْرَانِ

وَكَذَلِكَ التَّوَّابُ مِنْ أَوْصَافِهِ وَالتَّوَّابُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

إِذْنٌ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ وَقَبُولِهَا بَعْدَ الْمَتَابِ بِمِنَّةِ الْمَنَّانِ

وَهُوَ الْإِلَهُ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الَّذِي صَمَدَتْ إِلَيْهِ الْخَلْقُ بِالْإِذْعَانِ

الْكَامِلُ الْأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الْوُجُو هِ، كَمَالُهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

وَكَذَلِكَ الْقَهَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ فَالْخَلْقُ مَقْهُورُونَ بِالسُّلْطَانِ

وَكَذَلِكَ الْجَبَّارُ مِنْ أَوْصَافِهِ وَالْجَبْرُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

جَبْرُ الضَّعِيفِ وَكُلِّ قَلْبٍ قَدْ غَدَا ذَا كَسْرَةٍ، فَالْجَبْرُ مِنْهُ دَانِي

وَالثَّانِ جَبْرُ الْقَهْرِ بِالْعِزِّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي لِسِوَاهُ مِنْ إِنْسَانِ

وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهُوَ الْعُلُوُّ فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ

مِـنْ قَوْلِـهِمْ جَبَّـارَةٌ لِلنَّخْلَـةِ الْـ ... ـعُلْيَا الَّتِـي فَاتَـتْ لِكُـلِّ بَنَـانِ

وَهُـوَ الْـحَسِيبُ حِمَايَـةً وَكِفَايَـةً ... وَالْـحَسْبُ كَـافِي الْعَبْـدِ كُـلَّ أَوَانِ

وَهُـوَ الرَّشِـيدُ، فَقَوْلُـهُ وَفِعَالُـهُ ... رُشْـدٌ، وَرَبُّـكَ مُرْشِـدُ الْـحَيْرَانِ

وَكِلَاهُمَـا حَـقٌّ، فَهَـذَا وَصْـفُهُ ... وَالْفِعْـلُ لِلْإِرْشَـادِ، ذَاكَ الثَّـانِي

وَالْعَـدْلُ مِـنْ أَوْصَـافِهِ فِي فِعْلِـهِ ... وَمَقَالِـهِ، وَالْـحُكْمُ فِي الْـمِيزَانِ

فَعَـلَى الصِّـرَاطِ الْـمُسْتَقِيمِ إِلَـهُنَا ... قَـوْلًا وَفِعْـلًا، ذَاكَ فِي الْقُـرْآنِ

هَذَا وَمِـنْ أَوْصَـافِهِ الْقُـدُّوسُ ذُو التْـ ... ـتَنْزِيهِ بِـالتَّعْظِيمِ لِلـرَّحْمَنِ

وَهُـوَ السَّـلَامُ عَـلَى الْـحَقِيقَةِ سَالِـمٌ ... مِـنْ كُـلِّ تَمْثِيـلٍ وَمِـنْ نُقْصَـانِ

وَالْـبِرُّ مِـنْ أَوْصَـافِهِ سُـبْحَانَهُ ... هُـوَ كَثْـرَةُ الْـخَيْرَاتِ وَالْإِحْسَـانِ

وَكَـذَلِكَ الْوَهَّـابُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ ... فَـانْظُرْ مَوَاهِبَـهُ مَـدَى الْأَزْمَـانِ

وَكَـذَلِكَ الْفَتَّـاحُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ ... وَالْفَـتْحُ فِي أَوْصَـافِهِ أَمْـرَانِ

فَـتْحٌ بِحُكْـمٍ، وَهْـوَ شَرْعُ إِلَـهِنِا ... وَالْفَـتْحُ بِالْأَقْـدَارِ، فَـتْحٌ ثَـانِ

وَكَـذَلِكَ الـرَّزَّاقُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ ... وَالـرِّزْقُ مِـنْ أَفْعَالِـهِ نَوْعَـانِ

رِزْقٌ عَـلَى يَـدِ عَبْـدِهِ وَرَسُـولِهِ ... نَوْعَـانِ أَيْضًـا، ذَانِ مَعْرُوفَـانِ

رِزْقُ الْقُلُـوبِ الْعِلْـمَ وَالْإِيـمَانِ وَالـرْ ... رِزْقَ الْـمُعَدَّ لِـهَذِهِ الْأَبْـدَانِ

وَالثَّـانِي سَـوْقُ الْقُـوتِ لِلْأَعْضَـاءِ فِي ... تِلْـكَ الْـمَجَارِي سَـوْقَهُ بِـوِزَانِ

هَـذَا وَمِـنْ أَوْصَـافِهِ الْقَيُّـومُ وَالْـ ـــقَيُّومُ فِي أَوْصَـافِهِ أَمْـرَانِ
إِحْـدَاهُمَا الْقَيُّـومُ قَـامَ بِنَفْسِـهِ وَالْكَـوْنُ قَـامَ بِـهِ، هُمَـا الْأَمْـرَانِ
وَالْـحَيُّ يَتْلُـوهُ فَأَوْصَـافُ الْكَـمَا لِ هُمَـا لِأُفْـقِ سَـمَائِهِ قُطْبَـانِ
فَالْـحَيُّ وَالْقَيُّـومُ لَـنْ تَتَخَلَّـفَ الْـ أَوْصَـافُ أَصْـلًا عَـنْهُمَا بِبَيَـانِ
هُوَ قَابِضٌ، هُوَ بَاسِطٌ، هُـوَ خَـافِضٌ، هُـوَ رَافِـعٌ بِالْعَـدْلِ وَالْإِحْسَـانِ
وَهُـوَ الْـمُعِزُّ لِأَهْـلِ طَاعَتِـهِ وَذَا عِـزٌّ حَقِيقِـيٌّ بِـلَا بُطْـلَانِ
وَهُوَ الْـمُذِلُّ لِـمَنْ يَشَـاءُ بِذُلِّـهِ الـدْ دَارَيْـنِ ذُلَّ شَـقًا وَذُلَّ هَـوَانِ
هُـوَ مَـانِعٌ مُعْـطٍ فَهَـذَا فَضْـلُهُ وَالْـمَنْعُ عَـيْنُ الْعَـدْلِ لِلْمَنَّـانِ
وَالنُّـورُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ أَيْضًـا، وَمِـنْ أَوْصَـافِهِ سُـبْحَانَ ذِي الْبُرْهَـانِ
نُـورُ السَّـمَاوَاتِ الْعُـلَى مِـنْ نُـورِهِ وَالْأَرْضُ، كَيْـفَ الـنَّجْمُ وَالْقَمَـرَانِ؟
وَكِتَابُـهُ نُـورٌ كَـذَلِكَ شَرْعُـهُ نُـورٌ كَـذَا الْـمَبْعُوثُ بِالْفُرْقَـانِ
وَكَـذَلِكَ الْإِيـمَانُ فِي قَلْـبِ الْفَتَـى نُـورٌ عَـلَى نُـورٍ مَـعَ الْقُـرْآنِ
وَالنُّـورُ ذُو نَـوْعَيْنِ مَخْلُـوقٌ وَوَصْـ ـفٌ مَـا هُمَـا وَاللهِ مُتَّحِـدَانِ
وَكَـذَلِكَ الْـمَخْلُوقُ ذُو نَـوْعَيْنِ مَحْـ سُوسٌ وَمَعْقُـولٌ هُمَـا شَـيْئَانِ
احْـذَرْ تَـزِلَّ؛ فَتَحْـتَ رِجْلِـكَ هُـوَّةٌ كَـمْ قَـدْ هَـوَى فِيهَـا عَـلَى الْأَزْمَـانِ
مِـنْ عَابِـدٍ بِالْـجَهْلِ زَلَّـتْ رِجْلُـهُ فَهَوَى إِلَى قَعْـرِ الْـحَضِيضِ الدَّانِـي

وَهُوَ الْـمُقَدِّمُ وَالْـمُؤَخِّرُ، ذَانِكَ الصِّـ ـــصِفَتَانِ لِلْأَفْعَـالِ تَابِعَتَـانِ
وَهُمَـا صِـفَاتُ الـذَّاتِ أَيْضًـا، إِذْ هُمَـا بِالـذَّاتِ لَا بِـالْغَيْرِ قَائِمَتَـانِ
وَالْوَصْـفُ بِالتَّقْـدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ كَـوْ نِـيٌّ وَدِينِـيٌّ، هُمَـا نَوْعَـانِ
وَكِلَاهُمَـا أَمْـرٌ حَقِيقِـيٌّ وَنِسْـ ـبِيٌّ، وَلَا يَخْفَـى عَـلَى الْأَذْهَـانِ
هَـذَا وَمِـنْ أَسْـمَائِهِ مَـا لَـيْسَ يُفْـ ـرَدُ بَـلْ يُقَـالُ إِذَا أَتَـى بِقِـرَانِ
وَهِـيَ الَّتِـي تُـدْعَى بِمُزْدَوَجَاتِهَـا إِفْرَادُهَـا خَطَـرٌ عَـلَى الْإِنْسَـانِ
إِذْ ذَاكَ مُـوهِمُ نَـوْعِ نَقْـصٍ جَـلَّ رَبْـ ـبُ الْعَرْشِ عَـنْ عَيْـبٍ وَعَـنْ نُقْصَـانِ
كَالْـمَانِعِ الْـمُعْطِي وَكَالضَّـارِّ الَّـذِي هُـوَ نَـافِعٌ وَكَـمَالُهُ الْأَمْـرَانِ
وَدِلَالَـةُ الْأَسْـمَاءِ أَنْـوَاعٌ ثَـلَا ثٌ، كُلُّهَـا مَعْلُومَـةٌ بِبَيَـانِ
دَلَّـتْ مُطَابَقَـةً كَـذَاكَ تَضَـمُّنًا وَكَـذَا الْتِزَامًـا وَاضِـحَ الْبُرْهَـانِ
وَإِذَا أَرَدْتَ لِـذَا مِثَـالًا بَيِّنًـا فَمِثَـالُ ذَلِـكَ لَفْظَـةُ الـرَّحْمَنِ
ذَاتُ الْإِلَـهِ وَرَحْمَـةٌ مَدْلُولُـهَا فَهُـمَا لِـهَذَا اللَّفْـظِ مَـدْلُولَانِ
إِحْدَاهُمَا مَعْنًى لِـذَا الْـمَوْضُوعِ فِهْـ ـيَ تَضَـمُّنٌ، ذَا وَاضِـحُ التِّبْيَـانِ
لَكِـنَّ وَصْـفَ الْـحَيِّ لَازِمُ ذَلِـكَ الْـ ـمَعْنَى لُـزُومَ الْعِلْـمِ لِلـرَّحْمَنِ

فَصْــلٌ

لَا تُوحِشَـنَّكَ غُرْبَـةٌ بَـيْنَ الْـوَرَى ... فَالنَّـاسُ كَـالْأَمْوَاتِ فِي الْـحُسْبَانِ

أَوَمَـا عَلِمْـتَ بِـأَنَّ أَهْـلَ السُّـنَّةِ الْـ ... ـغُرَبَاءُ حَقًّـا عِنْـدَ كُـلِّ زَمَـانِ

قُلْ لِي: مَتَـى سَـلِمَ الرَّسُـولُ وَصَـحْبُهُ ... وَالتَّـابِعُونَ لَـهُمْ عَـلَى الْإِحْسَـانِ

مِـنْ جَاهِـلٍ وَمُعَانِـدٍ وَمُنَـافِقٍ ... وَمُحَـارِبٍ بِـالْبَغْيِ وَالطُّغْيَـانِ

أَتَظُـنُّ أَنَّـكَ وَارِثٌ لَـهُمُ وَمَـا ... ذُقْـتَ الْأَذَى فِي نُصْـرَةِ الـرَّحْمَنِ

كَـلَّا، وَلَا جَاهَـدْتَ حَـقَّ جِهَـادِهِ ... فِي اللهِ لَا بِيَـدٍ وَلَا بِلِسَـانِ

مَنَّتْـكَ وَاللهِ الْـمُحَالَ الـنَّفْسُ فَاسْـ ... ـتَحْدِثْ سِوَى ذَا الـرَّأْيِ وَالْـحُسْبَانِ

لَـوْ كُنْـتَ وَارِثَـهُ لَآذَاكَ الْأُلَى ... وَرِثُـوا عِـدَاهُ بِسَـائِرِ الْأَلْـوَانِ

فَصْــلٌ

هَـذَا وَثَـانِي نَـوْعَيِ التَّوْحِيـدِ تَـوْ ... حِيـدُ الْعِبَـادَةِ مِنْـكَ لِلـرَّحْمَنِ

وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ رُكْنَا ذَلِـكَ التَّـ ... ـوْحِيدِ كَـالرُّكْنَيْنِ لِلْبُنْيَـانِ

وَحَقِيقَـةُ الْإِخْـلَاصِ تَوْحِيـدُ الْـمُرَا ... دِ، فَـلَا يُزَاحِمُـهُ مُـرَادٌ ثَـانِ

وَالصِّـدْقُ تَوْحِيـدُ الْإِرَادَةِ وَهْـوَ بَـذْ ... لُ الْـجَهْدِ لَا كَسِـلًا وَلَا مُتَـوَانِ

وَالسُّـنَّةُ الْـمُثْلَى لِسَـالِكِهَا فَتَـوْ ... حِيـدُ الطَّرِيـقِ الْأَعْظَـمِ السُّـلْطَانِ

فَلِوَاحِــدٍ كُـــنْ وَاحِــدًا فِي وَاحِــدٍ ... أَعْنِــي سَــبِيلَ الْــحَقِّ وَالْإِيــمَانِ
فَــإِذَا هِــيَ اجْتَمَعَــتْ لِـنَفْسٍ حُـرَّةٍ ... بَلَغَــتْ مِــنَ الْعَلْيَــاءِ كُــلَّ مَكَــانِ

فَصْــلٌ

الْعِلْــمُ قَــالَ اللهُ قَــالَ رَسُــولُهُ ... قَــالَ الصَّــحَابَةُ، هُــمْ أُولُــو الْعِرْفَــانِ
مَــا الْعِلْــمُ نَصْــبُكَ لِلْخِـلَافِ سَــفَاهَةً ... بَــيْنَ الرَّسُــولِ وَبَــيْنَ رَأْيِ فُــلَانِ

فَصْــلٌ

وَالنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ بِسِجْنِ اللَّفْظِ مَسْــ ... ــجُونُونَ خَــوْفَ مَعَــرَّةِ السَّــجَّانِ
وَالْكُــلُّ إِلَّا الْفَــرْدَ يَقْبَــلُ مَــذْهَبًا ... فِي قَالَـــبٍ وَيَــرُدُّهُ فِي ثَــانِ
وَالْقَصْدُ أَنَّ الذَّاتَ وَالْأَوْصَافَ وَالْـ ... أَفْعَــالَ لَا تُنْفَــى بِـذَا الْــهَذَيَانِ
سَمُّوهُ مَا شِئْتُمْ فَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الْـ ... أَسْــمَاءِ، بَــلْ فِي مَقْصَــدٍ وَمَعَــانِ
الْــحَقُّ إِثْبَــاتُ الصِّــفَاتِ، وَنَفْيُهَــا ... عَــيْنُ الْــمُحَالِ، وَلَـيْسَ فِي الْإِمْكَــانِ
فَالْــــجِسْمُ إِمَّــا لَازِمٌ لِثُبُوتِهَـــا ... فَهُــوَ الصَّــوَابُ وَلَـيْسَ ذَا بُطْـلَانِ
أَوْ لَـيْسَ يَلْــزَمُ مِــنْ ثُبُـوتِ صِـفَاتِهِ ... فَشَـــنَاعَةُ الْإِلْـــزَامِ بِالْبُهْتَـــانِ

فَصْلٌ

وَرَسُولُهُ فَهُوَ الْمُطَاعُ وَقَوْلُهُ الْـ ... ـمَقْبُولُ إِذْ هُوَ صَاحِبُ الْبُرْهَانِ

مَنْ قَالَ قَوْلًا غَيْرَهُ قُمْنَا عَلَى ... أَقْوَالِهِ بِالسَّبْرِ وَالْمِيزَانِ

إِنْ وَافَقَتْ قَوْلَ الرَّسُولِ وَحُكْمَهُ ... فَعَلَى الرُّؤُوسِ تُشَالُ كَالتِّيجَانِ

أَوْ خَالَفَتْ هَذَا رَدَدْنَاهَا عَلَى ... مَنْ قَالَهَا مَنْ كَانَ مِنْ إِنْسَانِ

أَوْ أَشْكَلَتْ عَنَّا تَوَقَّفْنَا وَلَمْ ... نَجْزِمْ بِلَا عِلْمٍ وَلَا بُرْهَانِ

هَذَا الَّذِي أَدَّى إِلَيْهِ عِلْمُنَا ... وَبِهِ نَدِينُ اللهَ كُلَّ أَوَانِ

فَهُوَ الْمُطَاعُ وَأَمْرُهُ الْعَالِي عَلَى ... أَمْرِ الْوَرَى وَأَوَامِرِ السُّلْطَانِ

فَصْلٌ

مَاذَا تَرَى فَرْضًا عَلَيْكَ مُعَيَّنًا ... إِنْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وَذَا إِيمَانِ

عَرْضَ الَّذِي قَالُوا عَلَى أَقْوَالِهِ ... أَوْ عَكْسَ ذَاكَ؟ فَذَانِكَ الْأَمْرَانِ

هِيَ مَفْرِقُ الطُّرُقَاتِ بَيْنَ طَرِيقِنَا ... وَطَرِيقِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالْعُدْوَانِ

وَحَيَاةُ قَلْبِ الْمَرْءِ فِي شَيْئَيْنِ مَنْ ... يُرْزَقْهُمَا يَحْيَا مَدَى الْأَزْمَانِ

ذِكْرُ الْإِلَهِ، وَحُبُّهُ مِنْ غَيْرِ إِشْـ ... ـرَاكٍ بِهِ، وَهُمَا فَمُمْتَنِعَانِ

مِنْ صَاحِبِ التَّعْطِيلِ حَقًّا كَامْتِنَا ... عِ الطَّائِرِ الْمَقْصُوصِ مِنْ طَيَرَانِ

يَـا مَــنْ تَعِــزُّ عَلَـيْهِمُ أَرْوَاحُهُــمْ وَيَــرَوْنَ عَيْبًــا بَيْعَهَــا بِهَــوَانِ

وَيَــرَوْنَ أَنَّ أَمَـامَهُمْ يَــوْمَ اللِّقَــا لله مَسْــــأَلَتَانِ شَــــامِلَتَانِ

مَــاذَا عَبَـدْتُمْ؟ ثُــمَّ مَــاذَا قَــدْ أَجَبْــ ــتُمْ مَــنْ أَتَـى بِالْـحَقِّ وَالْبُرْهَــانِ؟

هَــاتُوا جَوَابًــا لِلسُّــؤَالِ وَهَيِّئُــوا أَيْضًــا صَــوَابًا لِلجَــوَابِ يَــدَانِ

* * *

فهرس الآيات

الآية	الصفحة

* * *

فهرس الأحاديث والآثار

***

فهرس الموضوعات والفوائد

الموضوع **الصفحة**

* * *